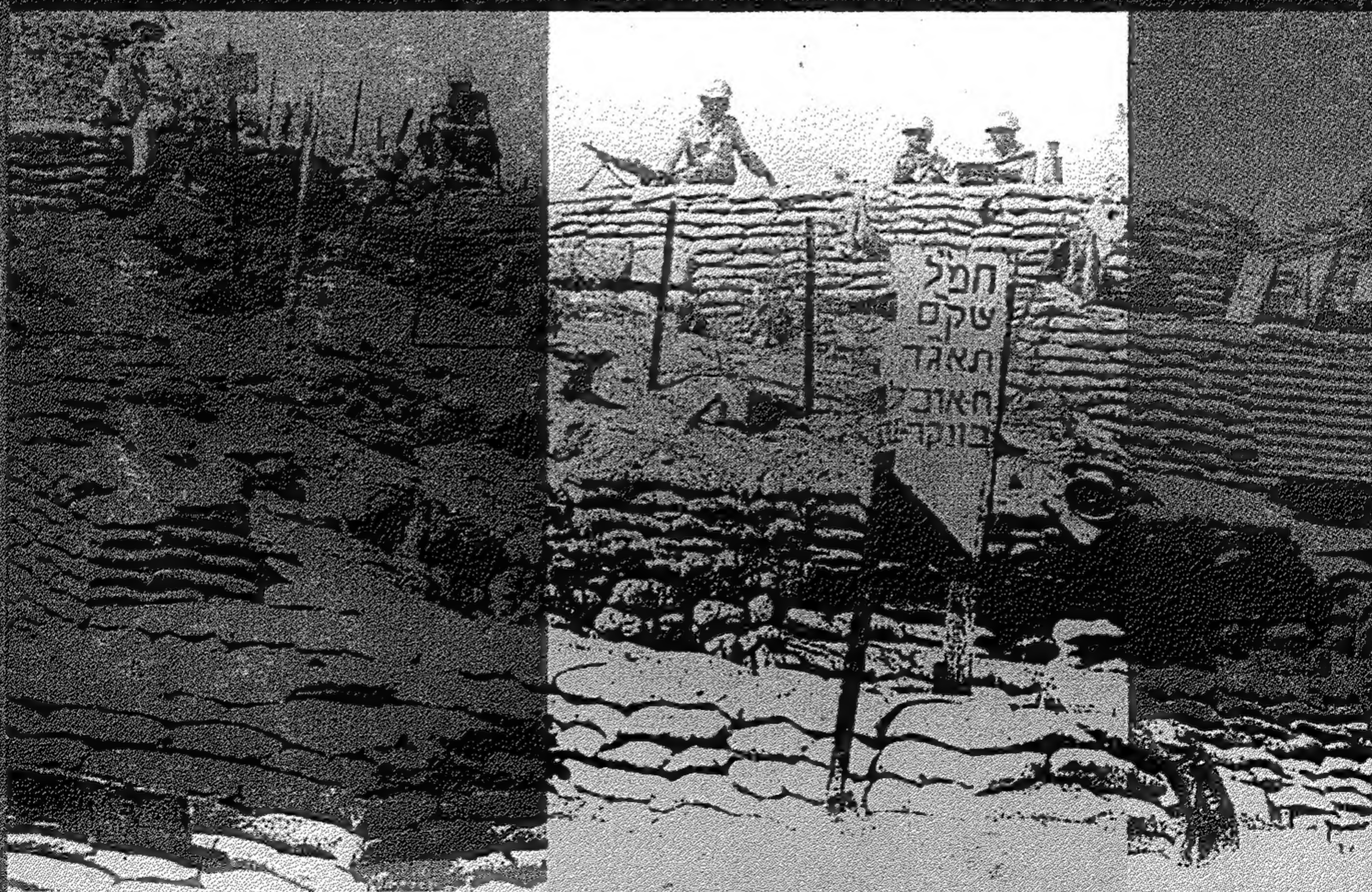


د. جمال حمدان

أكتوبر

في الاستراتيجية العالمية



دار الهلال

٦ أكتوبر
في الاستراتيجية العالمية

دكتور جمال حمدان



دار الهلال

الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

مقدمة

مخطيء جدا من ينظر إلى معركة سيناء والجولان المظفرة ، التى عاشها ومازال يعيشها اليوم كل عربى بكل خلجة وخلية من أعصابه ووجدانه ، ويكل نبضة وومضة فى قلبه وكيانه ، نقول مخطيء هو جدا حين ينظر إليها فى إطارها الضيق وفى أبعادها المحلية كمجرد النقيض الموضوعى المباشر لمعركة يونيو ١٩٦٧ .

مخطيء جدا من يظن عبورنا المقدس إلى قدس الأقداس سيناء أمرا ستقتصر دلالاته فى النهاية على «إزالة آثار العدوان» ، أو أن العودة إلى سيناء والجولان تعنى مجرد العودة إلى ما قبل ٥ يونيو ، أى إلى حدود وأوضاع وتوازنات ٤ يونيو .

كلا ، ليست حرب أكتوبر التحريرية العظمى والماجدة مجرد المكافئ الموضوعى أو الرد الاستراتيجى على نكسة يونيو ، وليس ٦ أكتوبر الخالد مجرد نسخ أو ناسخ ليوم ٥ يونيو الحزين . ففى يقين هذا الكاتب أن التاريخ سوف يسجل ٦ أكتوبر كأخطر وأفعل ، مثلما هو أعظم وأروع ، تحول مؤثر فى تاريخ الصراع العربى - الاسرائيلى المفعم ، وبالتالي فى تاريخ العرب جميعا ، ومن ثم - وبون إفراط فى المبالغة - فى تاريخ العالم المرئى كله .

ان هذه اللحظة التاريخية وهذه الأيام الفاصلة المشحونة بالانفعالات المتوقدة والتوتر المضطرم والترقب المتلهف ، قد لا تترك مجالا للرؤية المستتائية ولا للفكر المتروى ، وقد تغلب فيها شحنة العاطفة الدافقة والحماس المتأجج على طاقة العقل والرؤية وعلى بعد النظر ووضوح الرؤية . ولكننا مع ذلك نزع أن هذا ليس وقتا للحماس فقط بل هو وقت للفكر أيضا ، بل ليس وقتا للانفعال بقدر ما هو وقت للفعل . كما نرى أن صورة المستقبل، على الأقل فى بروفيله العريض ، قد فرضت منذ العبور نفسها ، وأصبح علينا أن نعد بصرنا وبصيرتنا عبر سيناء والجولان إلى ما وراء الجولان وسيناء ، وعبر المعركة إلى ما بعد النصر .

فى مثل هذا الاطار التاريخى والاستراتيجى الشامل وحده ، نحن نجادل ، ينبغى أن ننظر إلى المعركة الوطنية العظمى التى دارت رحاها أخيرا على أرض سيناء والجولان ،

بوابة مصر وعتبة سوريا اللتين تحولتا اليوم إلى قبلة مصر وسوريا ، واليهما تحول قلب البلدين ، واللتين ستتحوّلان يوما إلى كماشة العرب حول عنق العدو في عقر داره - دارنا السليبية فلسطين .

ليس من السابق لأوانه اذن أن نحاول تقييما شاملا محيطا للمعركة بكل أبعادها وفي أوسع أطرها ، ابتداء من تطوراتها الموضعية الميدانية إلى موقعها من الاستراتيجية العالمية برمتها ، مروراً بكل أصدائها وإشعاعاتها وانعكاساتها العسكرية والسياسية وكذلك نتائجها ومحمولاتها واحتمالاتها الجيوستراتيجية والجيوپوليتيكية .

حقا قد يكون الوقت مبكرا نوعا للوصول إلى أحكام نهائية وانتهاءات قاطعة يقينية ، ولكن هذا لا يمنع من المحاولة الاجتهادية . ولقد نشرت الصحافة العالمية بالفعل فيضا غزيرا من الكتابات السريعة أو الدقيقة والمخففة أو المعمقة ، كما توفرت فورا مراكز الدراسات السياسية والاستراتيجية واكاديميات الأبحاث العسكرية في كل أركان الدنيا على تحليل المعركة وتشرحها بطريقة علمية منهجية ، ولن يمضى وقت طويل حتى تتكون لدينا مكتبة كاملة وحافلة في هذا المجال .

وما نود أن نقدمه اليوم في هذه الدراسة هو عرض منهجى علمى (لا إعلامى) بقدر الامكان ومسح عام ولكنه شامل في حدود الممكن والمتاح ، لتلك المعركة المجيدة ، لا يضعها هي وحدها فقط في البؤرة وتحت المجهر ، وانما كذلك يضع الصراع المصيرى كله في اطارها . نريد ، بعبارة أخرى ، أن نرصد القضية نفسها ويأسرها من خلال منظور المعركة ومنظارها ، كأنها المنشور الذى تمر منه كل أشعتها وخيوطها لتتنصب في حزمة ضوئية واحدة نهائية أو تتحلل إلى عواملها وطيوفاها الأولية . المطلوب هو ألا نحلل خيوط هذه المعركة وكفى ، وانما كذلك أن ننسجها في شبكة الصراع كله .

وليس أقل أهمية وضرورة بعد هذا أن نضع المعركة كلها في المنظور العالمى الواسع ، بحيث نحدد مكانها من الاستراتيجية الكوكبية ، وقعا وموقعا ، ودورا ووظيفة . هدف طموح وشاق لا شك ، وربما شائك أيضا ، ولكنه وحده المنهج الصحيح في دراسة معارك المضير ، وهو بدوره الجدير بمثلها وحدها .

على هذا الأساس تتحدد خطة الكتاب . فنبدأ أولا بفصل مطول عن سيناء ، قدس أقداس مصر ، يرسم الخطوط العريضة في جغرافيتها الطبيعية والبشرية والعسكرية ، الموارد والسكان، الاستراتيجية والتاريخ .. الخ .

ويضغط الفصل بصفة خاصة على شبكة سيناء الاستراتيجية : محاورها وخطوط دفاعها التي تحدد معالمها كمسرح قتال وترسم الهيكل القاعدى فى جغرافيتها العسكرية. وفى النهاية تخرج بمعنى سيناء فى الوجود المصرى ومستقبل الوجود المصرى فى سيناء. الفصل الثانى وما بعده يدور حول المعركة : مقدماتها وخططها ، ثم مراحلها العسكرية البارزة ابتداء من العبور التاريخى إلى اقتحام الخط العدو فتحرير القاعدة الأرضية العريضة فى غرب سيناء وأخيرا عملية التسلل أو الثغرة . وتأكيدا لوحدة المعركة على الجبهتين المصرية والسورية ، نستكمل العرض مباشرة وبون انقطاع بتحليل مركز للمعركة السورية ، يصور المسرح الطبيعى ثم يحدد تطوراتها ومراحلها هى الأخرى .

وفى تحديد وتصنيف هذه المراحل ، تحاول الدراسة أن تعيد تركيب «سيناريو» المعركة، ان صح التعبير ، فى تسلسله المنطقى وتداعى أحداثه الطبيعى ، بحيث تخرج الصورة النهائية واضحة فى الذهن كما هى خفيفة الحمل فى الذاكرة . فإذا ما فرغنا من هذا الاستعراض الشريطى ، جاز لنا أن ننظر إلى المعركة ، على جبهتيها وبشتى مراحلها، ككل وكوحدة واحدة نظرة تحليلية وتركيبية معا ، جامعة وشاملة . فنحاول أولا التعرف على خصائصها الأساسية العامة ، ثم نضعها بعد ذلك فى الميزان : ما نتيجتها الصافية ، ولن كان النصر فيها .

ثم يلى بعد ذلك الفصل السادس ، وهو عن السادس من أكتوبر فى الاستراتيجية العسكرية . فليست معركة أكتوبر من الناحية العسكرية بالمعركة البسيطة أو المحدودة ، ولا هى بالمعركة التقليدية الرتيبة أو الروتينية كذلك . ومن ثم يحاول الفصل أن يحدد أصالتها وأوجه تفردا وريادتها ثم يشخص مقوماتها وملامحها الأساسية : فى السلاح وأنواعه ونوعيته واستخدامه ، فى القوة البشرية وبورها ، فى طبيعتها ومدتها وتوقيتها ، وفى كل ما أحدثته من انقلابات فى الفكر الاستراتيجى وفى النظريات العسكرية .. الخ . واستكمالا للموضوع ، ننقل إلى دراسة مقارنة للسابع من أكتوبر فى الاستراتيجية الإقليمية . فنعقد أولا مقارنة بين معركة أكتوبر وحرب الهند - الباكستان ، آخر حرب محلية سبقتها وأقربها شبيها بها فى كثير من النواحي العسكرية والسياسية بل والصراعية العامة . ثم نمضى إلى مقارنة أكثر تفصيلا بين معركة أكتوبر ونقيضتها

غير الأثيرة على الإطلاق والبغيضة جدا معركة يونيو ، لنجدهما على طرفى نقيض بالفعل كالشئء وصورته مقلوبة معكوسة فى مرآة . وأخيرا نضع المعركة موضع المقارنة مع المعارك الكبرى فى الحرب العالمية الثانية ، باعتبار أن الصراع العربى - الصهيونى هو إلى حد أو آخر تصغير أو تقريب للصراع الأوروبى - النازى من حيث أن العنصرية والتوسعية والعسكرية قاسم مشترك بين الطرفين العدوانيين فى كل منهما .

بعد هذا يبدأ باب جديد مداره اكتوبر فى استراتيجىة السياسة العالمية . لقد انتقلنا من الضيق إلى الواسع ، ومن الاطار المحلى والاقليمى إلى الاطار الدولى العريض . النظرة هنا كوكبية والأبعاد عالمية ، فأصداء ٦ اكتوبر وأصواؤه ، اشعاعاته وانعكاساته ، تملأ الدنيا وتلف حول الكرة الأرضية وتتردد فى كل أرجائها لا أقل . إنها ليست مجرد حدث عسكرى مدو أو فرقة محلية مبهرة . وعلينا إذن أن «نركب» المعركة فى منحنيات الاستراتيجية العالمية وفى معادلة القوة الدولية .

فنبداً أولاً بفصل عن العرب والمعركة : أين كانوا قبلها وكيف ، تأثيرات يونيو السياسية وطنية وقومية ودولية ، ثم الانقلاب الذى أحدثه ٦ اكتوبر فى دنيا العرب على المستويات الثلاثة نفسها ، مغزاه ومداه ، مستقبله ومستقبلهم .. الخ . ولما كانت معركة البترول هى الوجه الآخر لمعركة الميدان وصنوا لها ، وكانت معركة البترول معركة عالمية الأبعاد بالدرجة الأولى ، فقد أفردنا فى نهاية الفصل جزءاً خاصاً عن حرب البترول وتطوراتها ومدى فاعليتها ووقعها على العالم ، واضعين الضغط دائماً على الجوانب السياسية الواسعة جنباً إلى جنب مع الجوانب الاقتصادية المباشرة .

وما دما قد عقدنا فصلاً مستقلاً عن العرب والمعركة ، فلا بد من فصل مناظر عن العدو والمعركة . انه طلبتها وضحيتها ، وهو أولى بدروسها وعبرها . وهكذا عرضنا أولاً لموقف العدو المتغطرس والمفتون قبل اكتوبر ، خطته ومشاريعه ونواياه وتصريحاته ، عريته واعتداءاته ... الخ . حتى إذا انقلبت الصورة وانعكست المرآة فى اكتوبر ، أصبح علينا أن نحدد نتائجها ونحلل آثارها الانقلابية عليه : الانهيار النفسى ، اختلال التوازن الاستراتيجى ، سقوط استراتيجيته الاقليمية ، وأخيراً وليس آخراً تصدع نظرية الأمن الاسرائيلى . وعند كل واحدة من هذه النقاط نتوقف قليلاً أو كثيراً بالدراسة والتشريح .

العالم والمعرفة هو موضوع الفصل التالي . فلقد كان العالم دائما الطرف الثالث في الصراع العربى - الاسرائيلى ، ضابطا وضاعطا ، شريكا أو متطفلا ، عدوا أو صديقا ... الخ . وكان الصراع بدوره عالمى الأبعاد منذ البداية بقدر ما هو صراع محلى فى النهاية . من هنا نتتبع دور العالم فى القضية وموقفه منها ، قبل وأثناء وبعد يونيو ، حالة الاحرب واللاسلم ، دور الأمم المتحدة ، دور القوتين الأعظم والوفاق ، دور المتغيرات الدولية ... الخ . ثم أخيرا نرى كيف انقلب المفعول به فاعلا ، فأصبح أكتوبر آخر وأخطر المتغيرات الدولية ، فرض نفسه على الجميع وترك بصمته على كل تلك الأطراف . وهنا نحلل تباعا وعلى الترتيب أثر المعركة على الوفاق ، على أوروبا الغربية ، على افريقيا ، ثم أخيرا على الولايات ، المتحدة مع العدو الاسرائيلى .

لا يبقى لنا بعد هذا سوى باب أخير يحاول أن يغادر الحاضر قليلا ليسقطه على المستقبل . ماهى احتمالات المستقبل ، وما مستقبل الصراع بعد أكتوبر ؟ متى وهل ينسحب العدو من الأراضى المحتلة سلماً وطواعية ، أم هى الحرب من جديد ؟ أهو الحل السياسى المقول أم الحل العسكرى مستقبلا ؟ ما معامل الأمل واليأس فى عودة فلسطين ؟ إلى آخره ، إلى آخره .

حول هذه الأسئلة وغيرها يدور فصلا هذا الباب ، الأول منهما عن المدى القريب ، والثانى عن المدى البعيد . وفى الاثنين يبرز أكتوبر كحجر الزاوية أو كحجر الأساس ، ولا نقول كحجر الفلاسفة .

وإذا كانت الدراسة قد انتهت إلى أن الرحلة أمام التحرير العربى والاسترداد المقدس ما تزال طويلة ومريرة وشاقة ، وإذا كان أكتوبر هو مجرد الخطوة الأولى فى رحلة الألف ميل ، فإن روح السادس قد قضت مرة واحدة وإلى الأبد بعودة الروح وفتحت إلى النهاية باب الأمل وطريق العودة . ومن هنا نبداً .

الباب الأول

الأرض والمعركة

الفصل الأول

قدس أقداس مصر

سيناء - ٦١ ألف كيلو متر مربع ، حوالى ٦٪ أو $\frac{1}{16}$ من مساحة مصر ، أو نحو ٣ أمثال مساحة الدلتا - تبدو على الخريطة كمثلث منتظم بدرجة أو بأخرى ، ارتفاعه من رأس برون (البرويل) حتى رأس محمد نحو ٢٨٠ - ٢٩٠ كم ، وأقصى عرضه بين السويس والعقبة نحو ٢١٠ كم . أى أن طوله نحو ضعف عرضه إلا قليلا ، قل بالأرقام المستديرة ٤٠٠ ، ٢٠٠ كم على الترتيب . ولعل الأدق لهذا أن نقول مثلثا مائلا قليلا فى الجنوب ، يرتكز على قاعدة عريضة كالمستطيل تقريبا فى الشمال . المستطيل الشمالى ، أو «شمال سيناء» ، أضلاعه قناة السويس غربا ، والحدود السياسية مع فلسطين شرقا ، ثم ساحل البحر المتوسط شمالا ، وأخيرا الخط المائل بين رأسى خليجى السويس والعقبة جنوبا ، أو قل تجاوزا خط عرض ٣٠ درجة . ومتوسط طول هذا المستطيل نحو ٢٠٠ - ٢١٠ كم ، وعرضه ثلثا ذلك تقريبا أى نحو ١٥٠ كم . أما المثلث الجنوبى ، أو «جنوب سيناء» ، فرأسه عند رأس محمد جنوب خط عرض ٢٨ درجة بقليل ، وارتفاعه نحو ٢٣٠ كم . أما ضلعا فخليج السويس والعقبة ، الأول طوله ٢٧٥ كم ، والثانى ١٨٠ كم .

هذا عن الشكل الخارجى . أما من الداخل فسيناء على الخريطة وفى الحقيقة ثلاثية فى مثلث . فهى تنقسم إلى ثلاثة أقاليم طبيعية أو فيزيوغرافية تتوالى من الشمال إلى الجنوب : سهول واسعة تعرف اصطلاحا بسهول العريش وأحيانا بالصحراء ، هضبة وسطى يطلق عليها تميميا هضبة التيه ، ثم أخيرا كتلة جبلية تسمى عموما جبل الطور . هذا وبكل المقاييس المناخية ، تعد سيناء منطقة صحراوية أو شبه صحراوية . فالأمطار الشتوية قليلة نادرة ، تتخلف أحيانا وأحيانا تتحول إلى سيول فجائية عنيفة جارفة . والأمطار بعامة تقل نحو الجنوب ، تصرف الأودية أكثرها إلى البحر ، ولكن

الرمال خاصة فى الشمال تحتفظ بجزء منها فى باطن التربة . ومن هنا تصبح الأودية أولا ، والآبار الجوفية ثانيا ، أهم موارد المياه . وهذه بدورها تكتسب قيمة حيوية كبرى فى هذه البيئة الفقيرة ، وتصبح هى أهم ضوابط الانتاج الاقتصادى وبالتالى توزيع العمران .

ويحكم مورفولوجية سيناء العامة ، فإن نمط التصريف الذى يسود سيناء برمتها هو النمط الدائرى المشع radial ، فكل أوديتها تتبع من قلب المرتفعات أو من ضلوعها متجهة إلى سواحلها الثلاثة ، ولذلك ترسم شبكة الصرف الهيدرولوجى ، ومعها شبكة الطرق والمسالك الطبيعية ، وفى النهاية الامكانيات الاقتصادية ونمط العمران ، ترسم حلقة هامشية تحف بأطراف شبه الجزيرة .

السهول الشمالية

متوسط اتساعها يتراوح حول ٥٠ كم ، ولكنها تزيد على ذلك فى الغرب كثيرا وفى الشرق نوعاً . وهى تتدرج بطبيعة الحال فى الارتفاع ، فتعلو باطراد من الشمال إلى الجنوب . ولذا يختلف شمالها عن جنوبها فى المستوى وفى التضرس . ويمكن بالتقريب أن نحددها بين مستوى سطح البحر وخط كنتور ٢٠٠ متر . فهى منخفضة وفسحة بعامة ، تحف سواحلها المستنقعات والسبخات والأراضى الملحية وأهمها سبخة البردويل الطولية وامتدادها بحيرة الزرائق وسبخة سهل الطينة فى مواجهة بحيرة المنزلة . ولكن أبرز ما يميز هذه السهول الشمالية هى الكتبان الرملية البليستوسينية الحديثة التى تغطى الجزء الأكبر منها ، والتى قد يصل ارتفاعها إلى ١٠٠ متر ، والتى أعطتها اسمها العربى القديم ، اقليم الجفار ، كما تعطى اللاندسكيپ أخص ملامحه وتلعب دورا خاصا فى الحياة الاقتصادية وتعين حدود الحركة والمواصلات .

والمنظر على الشريط الساحلى أغزر ما فى سيناء ، ولكنه يقل بسرعة نحو الجنوب . وهو على الساحل يزداد كلما اتجهنا شرقا ، حيث امكانيات الحياة والزراعة وموارد المياه أغنى والعمران أكثف ، خاصة فى قطاع العريش - رفح . وإذا تسقطت هذه الأمطار على نطاق الكتبان ، تتحول هذه الأخيرة إلى خزانات طبيعية ثمينة جدا للمياه ، فتصبح المياه الجوفية والآبار عماد الاستقرار والحركة ، أى الزراعة والعمران من ناحية وحركة المواصلات والجيش من الناحية الأخرى على الترتيب .

والفتحات التى تفصل بينها قيمة كبرى كطرق الحركة والمواصلات الطبيعية ، ومن هنا تستمد أهميتها الاستراتيجية الخاصة .

ورغم أن هذه الجبال تنتشر على صفحة السهول الجنوبية عموما بلا تحديد أو نظام صارم ، وأحيانا تتجاوزها إلى أطراف السهول الشمالية ، فانها تؤلف فى مجموعها خطا واضحا إلى حد بعيد أشبه بالقاطع الذى يخطط المستطيل القاعدى الشمالى بعامة من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ، أى من قرب منطقة السويس إلى قرب منطقة أبو عجيلة (أبو عويقة) . والأنوية والفتحات والممرات التى تفصل بين حلقات هذا الخط تقدم مفاتيح الحركة الحرجة .

فإذا بدأنا من الجنوب الغربى وجدنا أولا كتلة جبلية طويلة تنقسم بعدد من الأنوية والممرات العرضية إلى عدة جبال منفصلة . فهناك جبل الراحة الذى يحده جنوبا وادى سدر فاصلا إياه عن كتلة الهضبة الوسطى ، بينما يحده شمالا ممر متلا الذى يقع إلى الشمال منه جبل حيطان . ويمتد ممر متلا بضع عشرات من الكيلو مترات ، ولكنه يضيق حتى يصل أحيانا إلى عدة عشرات من الأمتار فقط . ثم يلى إلى الشمال جبل أم خشيب ، ويفصله عن جبل حيطان وادى وممر الجدى . وأخيرا فى أقصى الشمال نجد جبل الختمية الذى يفصله عن جبل أم خشيب ممر آخر هو ممر الختمية .

فإذا ما عدنا مع القاطع الاساسى وجدنا إلى الشمال الشرقى فى قلب الوسط جبل يلق (يلج) ، ثم بعيدا أكثر وفى الاتجاه نفسه جبل حلال الذى تنمه تلال أقل ارتفاعا تصل بنا فى النهاية إلى منطقة أبو عجيلة وثمة إلى الشمال كثيرا من جبل يلق ويعيدا عنه جبل صغير هو جبل المغارة ، يناظره إلى الشمال من جبل حلال جبل صغير آخر هو جبل لبنى . وكلا الجبلين الصغيرين يمثلان بعض مقدمات أو طلائع القاطع الجبلى .

بعد مقدم الهضبة هذا تبدأ كتلتها الحقيقية بنواتها الصلبة وصلبها المتماسك . ومعظم مناجم سيناء المعدنية ، خاصة مناجم المنجنيز والفوسفات ، تقع على الضلوع والمنحدرات الغربية لهذه الكتلة الهضبية ، أى التى تطل منها على خليج السويس . وإذا كانت التسمية الشائعة لها هى هضبة التيه ، فإنها فى الحقيقة تتألف من هضبتين تكاد أيضا تتنصف بينهما عمقا : هضبة التيه فى الشمال ، والعجمة فى الجنوب . وكلتا الهضبتين مائدية السطح ، تتكون من الصخور الجيرية ، وتتحدر فى الشمال بحافة حادة تحددها بوضوح .

فهضبة التيه ، التى تغلب عليها الصخور الطباشيرية ، ترتفع عن السهول الشمالية بجرف كبير ، ويتراوح ارتفاعها بين ٥٠٠ ، ١٠٠٠ متر . وهى بطبيعة الحال الأكثر عرضا واتساعا وبالتالى مساحة (نحو الضعف) ، كما أنها مقطعة بروافد وادى العريش العليا ، الذى يصرفها وتقع هى فى حوضه .

أما هضبة العجمة فأقل عرضا ومساحتها نحو نصف مساحة هضبة التيه . غير أنها أشد ارتفاعا ، بين ١٠٠٠ ، ١٥٠٠ متر . يفصلها عن هضبة التيه فى الشمال جرف منحدر آخر ، وهذه الحافة تكاد تحدد خط تقسيم روافد وادى العريش ، بحيث لا تدخل هضبة العجمة نفسها فيه ، بل يصرفها عدد محدود من الأنوية الصغيرة التى تنصب فى خليجى العقبة والسويس .

هذه بصورة عامة مورفولوجية الهضبة الوسطى من سيناء بأقسامها المختلفة ، ولا تكتمل إلا بإضافة ذلك الوادى الكبير الذى يمنحها وحدتها العامة - وادى العريش . فوادى العريش ليس فقط أكبر الأودية الصحراوية طولا وتشعبا ومساحة حوض فى سيناء وحدها ، ولكنه من أكبر ما فى مصر كلها ، فلعلة يتفوق على كل أودية جنوب الصحراء الشرقية فى هذه الأبعاد ربما باستثناء العلاقى وحده . وهو على أية حال أكثر أودية مصر الصحراوية شمالية واعتدالا وأقلها مدارية . ولا غرابة بعد هذا أنه كان يسمى منذ أقدم العصور «بنهر مصر» .

طوله نحو ٢٥٠ كم ، وحوض صرفه يكاد يضم نصف مساحة سيناء ، ويجمع ثلثى مياهها جميعا . أما تركيبه المورفولوجى فشجرى مثالى dendritic ، يتألف من عدد كبير جدا من الروافد التى تنتظم كالمروحة أو العنقود أو الحزمة . تنبع روافد الوادى العليا من جنوب هضبة التيه على ارتفاع ١٠٠٠ متر ويكاد خط تقسيم مياهه أن يحدد جبهة التقسيم بين هذه الهضبة فى الشمال وهضبة العجمة إلى الجنوب منها . وبعد أن تقطع روافده العديدة هضبة التيه وتقطعها ، تتجمع فى مجمعين أساسيين هما وادى العقبة من الجنوب الشرقى وادى البروك من الجنوب الغربى .

والمهم هنا أن نلاحظ أن كثيراً جداً من مواقع وسط وشمال سيناء المعروفة ، على الحدود السياسية كما فى القلب الداخلى ، تقع على واحد أو أكثر من هذه الروافد . مثال ذلك : نخل ، بير جبل الحصن ، بير التمامدة ، الثمد ، فى الداخل ، ثم الكونتيللا ،

القسيمة، العوجة على الحدود ، بينما تقع أبو عجيلة عليه قرب مصبه ، ثم بعدها بير لحفن قبل أن ينتهى أخيرا عند مدينة العريش .

الكتلة الجبلية

أو كتلة جبل الطور ، تحتل الثلث الجنوبي الأقصى والأضيق من مثلث شبه الجزيرة المحد بالخليجين . لذا فمساحتها رقعة محدودة نسبيا ، ولكنها متميزة إلى أقصى حد . يفصلها عن نهاية الهضبة الوسطى (قطاع العجمة) مجموعة من الأودية الجبلية المعقدة العميقة التى تنتهى إلى الخليجين شرقا وغربا ، والتى تحدد طريق المواصلات الأساسى عبر شبه الجزيرة فى هذا الجزء الوعر منها . ويمكن تحديد هذا الفاصل أساسا بوادى نصب شرقا وفيران غربا .

فيما عدا هذا ، فالكتلة نفسها نواة معقدة إلى أقصى حد من الصخور النارية والمتحولة القديمة ، يسودها الجرانيت بألوانه المختلفة ، فإن الأمطار هنا ويفضل هذا الارتفاع أغزر مما هى عليه فى الهضبة الوسطى ، وموارد المياه فى الأودية أعذب ، لكن اللاندسكيب فقير عار والجبال جرداء كما هى وعرة وقاسية .

وعلى امتداد مثلث شبه الجزيرة فى مجموعته ، هناك فارق مهم بين السهول الساحلية، كما بين الخليجين ، شرقا وغربا . فعلى الغرب تترك الهضبة والجبال سهلا ساحليا متسعا نسبيا يصل إلى أقصى مداه فى نصفه الجنوبى حيث يعرف بسهل القاع الذى تتوسطه مدينة الطور . كذلك تكثر الأودية الجبلية الطويلة مثل سدر وسدرى ، ولكن بالأخص وادى فيران أطولها وأغناها بالنبات والواحات . أما على خليج العقبة فلا تكاد المرتفعات تترك سهلا ساحليا بمعنى الكلمة ، وقد يختنق تماما ، مما ينعكس على المواصلات . كذلك فإن الأودية الجبلية قصيرة منحدره قليلة العدد والأهمية وأهمها هو وادى نصب التى تقع على مصبه ميناء دهب .

كذلك يختلف الخليجان اختلافا جذريا . فخليج السويس أعرض كما هو أطول ، ولكنه أساساً رصيفى متوسط العمق ، أقل كثيرا من ١٠٠ متر . أما خليج العقبة فأضيق كثيرا كما هو أقصر . ولكن الفارق الأكبر أنه أعمق بكثير جدا من خليج السويس ، أخدودى جدا ، نحو ١٠٠٠ متر عمقا ، أى أكثر من عشرة أمثال خليج السويس . أما سبب هذا الاختلاف فهو العمر الجيولوجى . فخليج السويس أقدم جدا ، ومن ثم رفعت قاعة

الارسابات المتراكمة ، أما العقبة فخليج حديث النشأة للغاية . وأخيرا فإن السويس خليج مدخله أكثر انفتاحا واتساعا ، إلا من جزر الشعاب المرجانية التي من أهمها شديوان (شاكر) . أما خليج العقبة فبحر شبه مغلق يختنق مدخله بعنق ضيق هو مضيق تيران الذى تتوسطه جزيرتا تيران وصنافير .

فعلى الساحل الشمالى شريط من الأراضى الصالحة للزراعة التى لا تنقصها موارد المياه المعقولة . وتتركز الزراعة خاصة فى القطاع الشرقى منه ، حيث تقوم زراعات الفواكه والأشجار المثمرة والخضروات إلى جانب أجام النخيل الكثيفة . وفى القطاع الغربى ، خاصة سهل الطينة ، رقع من التربة من أصل إرسابات فروع دلتا النيل القديمة، تمثل امكانيات جيدة للاستصلاح والاستزراع .

ولكن رغم أهمية الزراعة والاستقرار فى الساحل الشمالى ، فإن الرعى والبدواة تسود الرقعة الكبرى من سيناء وتمثل الحرفة الأساسية للجزء الأكبر من سكانها ، نحو الثلثين ربما . كذلك فرغم أهمية التعدين منذ القدم ، وخاصة فى العصر الحديث ، والأخص منذ البترول ، فإنه يقتصر أساسا على نطاق ساحل خليج السويس وما وراءه من منحدرات ، فهنا كانت تتركز مناجم المعادن والأحجار الكريمة خاصة الذهب والفيروز ومحاجر الفراعنة القديمة ، وهنا تتركز مناجم الفوسفات والمنجنيز والحديد الحديثة ، وأهم منها حقول البترول التى كانت فى وقت ما تقدم نحو ثلثى انتاج مصر . وفيما عدا هذا ، فإن الصيد يتوزع على السواحل ، وخاصة فى بحيرات الشمال .

على هذه القاعدة الاقتصادية المخلطة يقوم الهيكل العمرانى وبها يتحدد . فمجموع السكان محدود جدا بالنسبة إلى المساحة الشاسعة . وتتفاوت تقديرات السكان بشدة ، ما بين ١٠٠ ألف ، ٢٠٠ ألف قبل الاحتلال الاسرائيلى (الذى فرغ المنطقة من نحو نصف سكانها فيما يقدر بالتهجير الاجبارى والطرده والارهاب) . وهذا يعادل بالكاد سكان مدينة متوسطة الحجم فى وادى النيل . ولهذا فإن متوسط الكثافة العام منخفض جدا ، ١ - ٣ نسمة فى الكيلومتر المربع .

ولكن التوزيع الفعلى للسكان مركز أساسا فى مواطن الانتاج والمياه التى ترتبط بأطراف المنطقة وهوامشها ، بينما تخلو رقع كثيرة وشاسعة فى الداخل الهضبي والجبلى من السكان تقريبا وتكاد تعد من اللمعمور . ولهذا يأخذ العمران بصورة

تقريبية نمطا حلقيا حول «القلب الميت» . وهذه صورة مألوفة في الجغرافيا البشرية ، ولكنها هنا تبدو أشد غرابة لأن المنطقة جميعا ضعيفة السكان للغاية . وتأخذ حلقة العمران شكل الشريط المتصل نوعا على الساحل الشمالى الشرقى من رفح حتى البردويل ، تتوجه مدينة العريش ، كبرى مدن سيناء ، نحو ٥٠ ألفا ، تمثل وحدها نحو ربع إلى ثلث سكان شبه الجزيرة . ويتقطع هذا الشريط فى امتداده غربا ، ثم يتحول إلى عقد من النقط المأهولة على الضفة الشرقية لقناة السويس حيث مدن القناة الصغيرة ، وكبراها القنطرة شرق التى تعد ثانى أكبر مدينة فى سيناء ، وعلى ساحل خليج السويس ينتشر عقد مدن التعدين مثل أبو زنيمة ، ومستعمرات البترول الحديثة التى أبرزها أبورديس . وعلى ساحل خليج العقبة تزداد نقط العمران تباعدا وتضاؤلا ، وأغلبها موانى الصيد أو الموانى الحربية . وتكمل الحلقة على طول الحدود الشرقية مجموعة من نقط المخافر والمراكز العسكرية ابتداء من رأس النقب وطابا والكونتيل إلى القصيمة والعوجة وأبو عجيلة . وفيما عدا هذا ، فهناك شتيت منثور من الواحات ومراكز الاستقرار الصغيرة فى قلب الداخل أشبه بالجزر المنعزلة وأغلبها مرتبط بالأودية الرئيسية وخاصة على نقط تقاطعها .

الفصل الثانى

معركة التحرير الكبرى

معركة العودة

لقد عدنا يا دايان ! نعم ، عدنا إلى سيناء لا بشروط صهيون المهينة والطلول الاستسلامية ، كما ظل سنوات يتبجح بكل غرور الحقود وصلف المتحكم القمى ، ولكن على اشلائه وفوق جثته عدنا . عدنا بقوة الحديد والنار بعد أن أنفق العدو ست سنوات يصور وجوده فى سيناء المحتلة قلعة صماء غير منفذة للغزو مستحيل اقتحامها . والواقع أن العدو - وهو خبيث أكثر مما هو ذكى ، وحاقد أكثر منه قادرا كما كان يظنه البعض - انما أنفق تلك السنوات فى محاولة عظمى لكى يكسب المعركة المنتظرة بغير رصاصة على الاطلاق أو قبل اطلاق الرصاصة الأولى .

والاشارة هى بالطبع إلى الحرب النفسية الضارية المخططة التى شنها . فكل ما كان العدو يقوله ويفعله طوال السنوات الأخيرة كان موجها إلى المعركة الرابعة ، أو بالأحرى إلى ألا تكون معركة رابعة على الاطلاق . فبكل طريقة موجبة وسالبة كان يحاول أن يستغل انتصاره السابق وأن يستثمر هزيمتنا ليهزمنا ثانيا . بحملات التشكيك العاتية فى قدراتنا وامكانياتنا ومعنوياتنا ، بل حتى فى طبيعتنا وشخصيتنا ، ثم فى تسليحنا وأصدقائنا ، حاول أن يتسرب حتى يترسب فى أعماقنا ألا فائدة ولا جدوى . وبالأسطورة الخرافية التى بناها عن «جيش الدفاع الذى لا يقهر» وقادته «آلهة الحرب الجدد» (كذا) ، والتفوق التكنولوجى والجوى الطاغى ، والحرب الالكترونية ، وباستعراض عضلاته وأسلحته المتطورة والسرية ، بميراجه والفانتوم .. الخ .. بكل هذا حاول بانتظام ارهابنا نفسيا لنتردع فننتعاس عن المواجهة .

والجدير بالذكر أن العدو تابع حملته النفسية بانتظام وعن عمد وتخطيط لتحطيم أعصابنا ومعنوياتنا حتى آخر لحظة قبل أن يتلقى صدمة عمره ، بل وحتى بعدها . فكلنا لا شك مازال يذكر صرخة اليعازر الارهابية «سندق لحمهم فى عظامهم» ، وصيحة المعلق

العسكري للاذاعة الاسرائيلية «سنجعلهم يرون النجوم فى وضع النهار» .. وقبل الحرب بيومين فقط ، قال اليعازر فى حديث للتليفزيون البريطانى ما مؤداه أن الجيش المصرى إذا حاول عبور القناة فسيجد أمامه أقوى خط دفاعى فى العالم ، مما سيسبب له خسارة أكبر مما يظن القادة المصريون . وعلى الرغم من هذه الخسارة ، فلن يتمكن مصرى واحد من العبور إلى سيناء ، كما لن تتمكن دبابة مصرية واحدة من الوصول إليها . ثم أضاف رئيس الأركان الاسرائيلى أن سلاح الطيران سيكون أداة البطش والردع الاسرائيلى ، فلسوف يسود جو المعركة على الفور ، وسوف يتم القضاء على سلاح الطيران المصرى وعلى سلاح الدفاع الجوى أيضا فى الدقائق الأولى من بدء القتال . وختم اليعازر تهديداته بقمة الصلف والغرور : «إن هذه المرة ستكون حرب الساعات الست ، لا حرب الأيام الستة» ! أما مايير فقد عبرت عن العجرفة بالدهشة بدل التهديد ، قالت ببساطة فى حديثها إلى الاسرائيليين فى أول أيام القتال «ان الهجوم العربى يرقى إلى الجنون» ! أما دايان فكان لا يزال يعيش فى ١٩٦٧ ويحلم بتكراره ، قال يوم ٧ أكتوبر «يومان لصد الهجوم المصرى السورى ، ثم يومان يكتمل خلالهما استدعاء الاحتياطى الاسرائيلى ، ثم يومان لإنهاء القتال» !

لقد خلقت اسرائيل الأسطورة بالفعل ، ضخمتها ، نشرتها واشاعتها ، ثم عاشت فيها حتى صدقتها ، وصدقته حتى ارتدت إلى صدرها فى حركة عكسية «كالبوميرانج» فهزمتها ! - كلا ، بل نحن الذين هزمناها . فثمة الآن فى الغرب نظرية - تبريرية محض - تقول ان اسرائيل انما هزمت لأنها صدقت اسطورة تفوقها وعاشت فى أوهام استعلانها . وقد عبرت الأوبزيرفر عن هذه النظرية أثناء المعركة حين قالت «ان القادة الاسرائيليين لم يعتقدوا إلا أقل القليل بمدى شجاعة خصومهم وقدرتهم التكنيكية ، وربما وقعوا أيضا ، هؤلاء القادة ، ضحايا لأسطورة أنهم قوم لا يقهرون» .

على أننا نرى فى هذه النظرية من الانحراف أكثر مما فيها من الاعتراف . صحيح لقد كان الغرور الاسرائيلى الوقح وجنون العظمة مقتلا من مقاتلها ولكن الضربة الموجبة القاضية انما أنت من القدرة العربية الذاتية ، المفترى عليها طويلا ، ومن التخطيط والتصميم والارادة العربية . ونحن لم نسرق نصرا سهلا هشا من وراء ظهر العدو ، وانما انتزعناه من بين أسنانه بجدارة واقتدار .

لقد أراد العدو أن تكون المعركة الرابعة نسخة مكررة من معركة يونيو ، فجعلتها اليد العربية الجديدة ، العليا والطولى ، نسخة مقلوبة معكوسة منها . لقد استوعبنا نحن درس يونيو وتجربته المريرة ، وتركنا للعدو أن يمارس بهلوانياته الدعائية فى المباهاة والتفاخر وعبادة الذات وأن يجتر نرجسيته علنا . فكان حتما وحقا أن يدفع ثمن النصر الرخيص الذى سرقه فى غفلة من زمن .

وكما يلخص الهيثم الأيوبي بحذق المختص «يمكن القول هنا ان انتصار اسرائيل السهل فى عام ١٩٦٧ كان أكبر أعدائها ، وأخطر ما تعرضت له فى حياتها ، وأن هزيمة ١٩٦٧ علمت العرب دروسا كثيرة وكانت أفضل حلفائهم فى الحرب الرابعة . وهكذا انطبقت على الصراع العربى - الاسرائيلى قاعدة أثبتها التاريخ العسكرى أكثر من مرة ، وهى أنه يندر أن يتعلم المنتصر الكثير من انتصاره ، أما المهزوم فهو أكبر المتعلمين من الهزيمة» . وفى المعنى نفسه قالت الديلى تلجراف «ان العرب قد استفادوا من هزيمتهم ١٩٦٧ ، بأفضل مما تعلم الاسرائيليون من انتصارهم» .

أركان الخطة

فما هى الآن نقط القوة فى الخطة العربية التى حققت بها القفزة الكبرى على سيناء فحققت لها النصر الميدانى الاستراتيجى والتكتيكى من البداية حتى النهاية تقريبا ؟ فيما عدا العوامل النفسية وحوافز التحرير والوطنية ونوعية المقاتل المصرى الجديد والسلاح والتدريب ... الخ ، أى فيما عدا العوامل المعنوية والمادية ، هى أبعاد استراتيجية أربعة تؤلف أركان الخطة وأعمدة القوة : المبادأة ، المفاجأة ، الحرب الشاملة ، وأخيرا الحرب الطويلة.

المبادأة

فأولا ، بالمبادأة نغنى الهجوم ، وبالدقة والتحديد المبادأة بالهجوم . ولقد كانت استراتيجية العدو دائما هجومية من البداية إلى النهاية ، وكان أبدا حريصا على ألا يترك لنا زمام المبادأة أو المبادرة . ولقد كان دايان دائما يردد متفاخرا «لم يحدث قط أن كان جيش اسرائيل فى وضع دفاعى» . وتلك فى الواقع كانت سياسة «الحرب الوقائية» المكنوية ملفقة المنطق ، سياسة شل الأعصاب وتدمير قوة الخصم غدرا على الأرض قبل أن يتحرك ، فيها كان العدو يرى صمام أمنه بل صميم وجوده ذاته ، وحولها خطط كل استراتيجيته العظمى ، ونكاد نضيف : وبها كانت تتجسم كل أخلاقياته ..

ومن الضروري أن ندرك أن هذه الاستراتيجية الهجومية - بل هذه الاستراتيجية العظمى الهجومية ، لأنها المركز المحورى والمنبعى فى كل فلسفة العسكرية الصهيونية - هى جزء لا يتجزأ من الطبيعة الاستفزازية والعنوانية المتأصلة فى الوجود الاسرائيلى من أساسه . انها امتداد طبيعى ومنطقى جدا للاغتصاب الأسمى . ولهذا لم تكن قط خطة مرحلية ، بل سياسة ثابتة ودائمة بدأت مع قيام الدولة ، بل اليشوف ، وسوف تستمر إلى نهايتها .

خذ مثلا ما قاله الجنرال ايجال يادين ، من أوائل رؤساء أركان العدو « لا شىء - يقول هو فى كتاب له - أخطر على وجود اسرائيل من وجود الروح الهجومية عند العرب . لذلك يجب علينا أن نواجه هذه الروح الهجومية بضربات هجومية أشد وأقوى . ولا يجوز رد الهجوم الا بسبق العرب إليه . أما إذا سبقتنا القوات العربية إلى الهجوم ، فإن الهجوم المضاد يصبح الرد الوحيد والفعال» .

ولقد كان من الواضح تماما منذ يونيو أن ليس هناك قط ما يدعو العدو إلى تغيير استراتيجيته . ومن المؤكد أن هذا ما كان يبيته ويخطط له . وبالفعل ، فلقد اعترفت اسرائيل أخيرا وعلى لسان رئيسة وزارتها ولأول مرة منذ ٦ أكتوبر بأنها كانت تفكر فى الهجوم على مصر هجوما جويا شاملا فى «حرب وقائية» فى ذلك التاريخ نفسه ويعينه، لكنها كما زعمت عدلت فى آخر لحظة ، خشية أن تفقد المزيد من الرأى العام العالمى .

غير أننا ، مهما يكن ، كنا أسبق وأسرع ، فكانت الضربة الجوابية الأولى لنا فور بداية عدوانه على خليج السويس ، بحيث اختل توازن العدو فى اللحظة السيكلوجية ووضع على جانب الدفاع منذ اللحظة الأولى . وقد كان الاضطراب الشديد والفوضى الارتجالية البادية وربود الفعل العصبية الطائشة هى أبرز ملامح سلوك العدو فى الأيام الأولى وبالأخص الساعات الأولى من المعركة . وكان هذا كله دليلا ساطعا على أن «جيش الدفاع الاسرائيلى» ، كما يسمونه ، لم يكن جيشا للدفاع ولا صالحا للدفاع .

كانت كل عقيدته القتالية تدور حول محور الهجوم الخاطف والحرب القصيرة السريعة، غير معد نفسيا ولا عسكريا للدفاع الجدى . ومن الثابت أن هذا وحده كان عاملا من عوامل اهتزازه واضطرابه حين تعرض لأول حرب هجومية حقيقية فى تاريخه . وما من شك ، فى النتيجة ، أن مبادرتنا بالهجوم كانت مفتاح النصر ، فى حين أن فرض موقف

الدفاع على العدو كان بداية هزيمته إن لم يثبت في النهاية أنه كان نصف الهزيمة بالنسبة له .

ومما يرجع هذا ، بل ويكاد يؤكد ، ربود فعل العدو لضياح المبادرة والمبادأة منه واختطاف العرب لها . فلقد ادعى لحن ما «الفضيلة» ، فلما وجد أنها «فضيلة العجز» كشف عن مكنون حقه بلا خباء . فمثلا قال ياريف «لقد جازفت حكومة اسرائيل عندما منحت العدو فرصة المبادرة دون أن تتخذ مبادرة وقائية ، لأنها أرادت أن تثبت للعالم أنها تريد السلام» . هذا بينما قال بارليف وهو يطفح بروح الانتقام «ان اسرائيل فوجئت مرة ، وأن هذا لن يتكرر ثانية ... ان الجيش الاسرائيلي لن يؤخذ على حين غرة كما حدث هذه المرة» . أما اليعازر فقد أعلن بمزيج من الندم والحذر أن «أمن اسرائيل لا يتوقف على تحذير أو إنذار مسبق فقط ، وإنما على جيش نظامى دائم وسلاح جوى قادر على منع وقوع كارثة في حالة حدوث هجوم دون سابق إنذار كاف» .

وإذا نحن نظرنا إلى الحروب الثلاثة الأولى بين العرب واسرائيل نجدها جميعا «حروبا اسرائيلية» تماما أو تقريبا ، بمعنى أن زمام المبادأة والمبادرة والحركة والهجوم استراتيجيا وتكتيكيا في يد اسرائيل ، هي التي تحدد الزمان والمكان ، وهي التي تفرض أسلوب القتال بما يلائمها ، وهي التي - في النتيجة - تجنى ثمار النصر . أما العرب فعلى الدفاع الثابت السلبي ، مجرد رد فعل يحدد العدو ايقاعه ويرقصون هم على أنغامه . أما في أكتوبر فإن الاستراتيجية العظمى والروح السائدة والعقيدة القتالية هجومية أساسا ، سواء ذلك على المستوى الاستراتيجي أو التكتيكي ، وابتداء من تحديد الزمان والمكان إلى أساليب القتال الملائمة من حرب خاطفة صاعقة أو مواجهة تصادمية طويلة إلى الاقتراب غير المباشر والاختراق والتطويق ... الخ . ولقد اعترف العدو فعلا بأنه في وقت ما من المعركة كان «يرقص على أنغام المصريين» (شارون) . حتى الدفاع هو الآخر كان لأول مرة أيضا ، دفاعا هجوميا ، بمعنى الدفاع الدينامي المتحرك لا الثابت ، بما في ذلك الهجوم المضاد ، ويعنى الحجم الهجومي والاستحكامات الحصينة وتكتيك الجذب والضرب ... الخ .

ولما كانت الحرب في الحقيقة هي الهجوم ، فإن الدفاع مجرد جملة اعتراضية مهما طالَّت ووسيلة مرحلية لا غاية نهائية لكسب الوقت ريثما يتمكن الجانب الأضعف أو المفاجأ

من تطوير قواه إلى الهجوم . وكل دفاع يقف عند حد الدفاع البحت ولا يتعداه إلى الهجوم فى النهاية ، فهو فى أحسن الأحوال دفاع عن الوضع الراهن فقط ولا يمكن أن يخلق وضعاً جديداً . الدفاع سلبى بالضرورة ، كما أن الإيجابية الفعالة هى الهجوم وحده ولهذا يمكن القول بحق ، مع كاتب «الشرارة» الثاقب، ان معركة أكتوبر هى «حرب عربية صرفة ، بل وأول حرب عربية منذ بدء الصراع العربى - الاسرائيلى» .

ولا ينبغى أن يكون لدينا شك أن جزءاً من انتصارنا يرجع إلى مبادرتنا بالهجوم . فالمهاجم والبادىء بالهجوم ، كقاعدة عامة وأساسية فى كتاب الحرب ، هو الأقدر والأقوى على فرض ارادته ، وهو الأقرب إلى احتمالات النصر ، والأكثر تدميراً للعدو حتى إن لم ينتصر . ولعل هذا فعلاً هو المقصود بالشعار القديم «لا يكسب المعارك إلا من يخوضونها» . وعلى أية حال ، فلقد كان من دروس أكتوبر كما استخلصها جالليه وزير الدفاع الفرنسى أن حرب الشرق الأوسط أثبتت أن فرص الانتصار أكبر للمهاجم ، وأن الدفاع أدعى فى الحرب الحديثة القصيرة إلى الهزيمة ، أو هو على الأصح يرفع فرصها ويقلل فرص النصر . وإذا كان هذا هو درس المعركة ، كما هو درس التاريخ كله من قبل ، فالأهم أنه يبقى درس المستقبل وأمل العرب : لا ينبغى للعرب أن يكونوا بعد اليوم على الدفاع ، الهجوم أولاً ، الهجوم أولاً ، الهجوم أولاً فلا .

إلى هذا المدى فعلاً وبلا مغالاة تصل أهمية المبادأة من حيث المبدأ وعلى المستوى العام . ولكنها تصل إلى أبعد منه وبلا حدود تقريباً فى حالة الصراع العربى - الاسرائيلى بالتحديد . ويرجع ذلك إلى أسباب خاصة تتعلق بملاسات الصراع وظروفه وطبيعة العدو وتقاليده العسكرية ، بحيث تضاعف من خطر المبادأة بالهجوم وبوره الحاسم . ونستطيع أن نرصد فى هذا ثلاثة اعتبارات خاصة أو محلية ، ينبغى دائماً أن تكون نصب أعين المخطط الاستراتيجى العربى كدروس من أكتوبر وكبوصلة للمستقبل ، وتلك هى : قصر المعارك مع اسرائيل ، نظام التعبئة الاسرائيلى ، تعدد جبهات القتال .

فعن الأولى ، تمتاز معاركنا مع اسرائيل بالقصر مهما طالت ، فالتمييز دائماً باليوم أو على الأكثر بالأسبوع . ليس لأن الحرب الحديثة أميل بطبيعتها كما سنرى إلى القصر المطرد فحسب ، ولكن كذلك لأن العدو يضع الحرب الخاطفة القصيرة على رأس

استراتيجيته العسكرية. والمهم أنه نتيجة لهذا القصر الشديد ، يصبح لعامل المبادأة بالهجوم دور حاسم وأخطر مما يتناسب مع طوله الزمني ، بحيث يكاد اليوم الواحد فيه يعادل في انجازاته وتقدماته بضعة أيام من الناحية العملية . وهو بهذا يختزل فجأة وباقتدار جزءا كبيرا من المعركة في ضربة أولى وعاجلة ، فلا يكاد المدافع يفيق منها حتى تكون أيام المعركة الباقية أمامه قد أصبحت معدودة تقل فيها فرص قلب المائدة على المهاجم . وقد كان هذا واضحا بجلاء في افتتاحية معركة أكتوبر ، حيث قطع الهجوم العربي في الساعات الأولى شوطا يعادل ما قطعه بعد ذلك في أيام .

أما مسألة نظام التعبئة الاسرائيلية فقد أوضحت تجربة أكتوبر بما لا يقبل الجدل أو النقض أنه ما وضع ولا جعل الا للهجوم ، ولكنه يمثل نقطة ضعف خطيرة حين يوضع على الدفاع . فنظام التعبئة الاسرائيلي لا يقضى بالاحتفاظ بالجيش كاملا تحت السلاح باستمرار ، فهذه النواة العاملة المحترفة انما هي الجزء الظاهر فقط من جبل الجليد الطافي ، كما وضعها بن جوريون ، أما جسم الجبل فيعتمد على وضع كل القادرين على حمل السلاح في الاحتياطى تحت التدريب الدورى المنتظم وتحت الطلب الفورى في أية لحظة بحيث تتم تعبئة نصف الاحتياطى في ٢٤ ساعة وكل الاحتياطى في ٤٨ إلى ٧٢ ساعة . وفيما عدا هذا فإن العدو يعتمد اساسا على جهاز مخابراته كإنداز مبكر وكخط دفاعه الأول .

وهذا النظام - الاقتصادى ماديا والفعال اجتماعيا - يلائم جدا أغراض الهجوم واستراتيجية العدو العدوانية . فحين يببب المبادأة بالهجوم والمباغطة الفجائية يستدعى احتياطيه سرا حسب خطته الموضوعة ، فلا تطلق الرصاصات الأولى إلا وكل جيشه جاهز تماما في قلب المعركة . على العكس إذا هوجم فجأة : يكاد يجد نفسه عاريا إلا من بعض قوات امامية موزعة ومنتشرة لا يمكن أن تصد هجوما شاملا ضخما . وهذا بالدقة ما حدث في أكتوبر . فحين فوجئ العدو بهجومنا، ضغط فترة استدعاء احتياطيه من ٢٤ ساعة ، وفترة ارساله إلى الجبهة من ٤٨ ساعة ، إلى ٦ ساعات فقط . من هنا كان الارتباك والاضطراب العظيم ابتداء من الجنرالات حتى أصغر الرتب . وكما كتب تشرشل الأصغر «لقد ثارت اتهامات قاسية ضد الجيش الاسرائيلي على أساس أن تقديرات المخابرات والسلطات العسكرية لم تكن خاطئة فحسب ، بل أن أجهزة الدفاع الاسرائيلي

نفسها كانت مختلفة . فلقد كان النظام يقضى بأن تتم التعبئة خلال ٢٤ ساعة ، وأن يرسل المقاتلون إلى جبهات القتال خلال ٤٨ ساعة . ولكن التعبئة تقرر تخفيض أمدتها إلى ٦ ساعات فحسب ، نتيجة لنجاح العرب فى تحقيق المفاجأة الكاملة . فلا عجب إذن أن عمت الفوضى قوات الدفاع الاسرائيلى . وهذا أيضا ما يفسر لنا قول اليعازر بعد الصدمة ان أمن اسرائيل لا ينبغى أن يعتمد بعد الآن على الانذار المبكر فقط ، وإنما اساسا على وجود جيش كاف قائم ودائم . وهو الذى يفسر كذلك احتفاظ اسرائيل حتى الآن بنسبة عالية من التعبئة العامة حتى بعد أن توقف القتال . وأخيرا فإنه يفسر ما يتوقعه البعض من أن يعدل العدو نظام تعبئته تعديلا جوهريا ليتحاشى تلك الثغرة المهلكة .

أما عن تعدد جبهات القتال ، فإن على العدو الاسرائيلى دائما أن يحارب فى جبهتين على الأقل ، وثلاث على الأغلب . وعلى هذا الاساس خطط استراتيجيته ، استراتيجية الهجوم المتتالى السريع : ينقض بكل قوته وبأسرع ما يستطيع على إحدى الجبهات حتى ينتهى منها ، ثم ينشئ فورا إلى أخرى فتالته ، هكذا على التوالى ، مرة مع عقارب الساعة أى بادئا بسوريا ثم مثنيا بالأردن فمنتهيا بمصر ، أو مرة عكس عقارب الساعة ، مصر أولا ثم الأردن فسوريا (كما فى ١٩٦٧) . وفى هذا كان العدو يعتمد على ضالة رقعته الجغرافية وقرب الجبهات الخارجية ثم على شبكة ممتازة من الطرق الداخلية . غير أن حساباته هذه فشلت تماما فى اكتوبر ، ولسببين أساسيين :

أولا ، اتساع جبهات القتال بعد توسع العدو الكبير فى ١٩٦٧ ، ذلك التوسع الذى أطال خطوطه الداخلية جدا بدرجة أرهقت حركته المفردة إلى كل جبهة ذهابا ، فضلا عن حركته بين الجبهات المتعددة جيئة وذهابا ثم ذهابا وإيابا . وفى هذا اعترف الاسرائيليون أخيرا فى إحدى ندواتهم العسكرية بأن أحدا من المسئولين فى اسرائيل لم يدر بخلده أن الاستيلاء على الأراضى كعنصر أمن اضافى يمكن أن يضيف عبئا ثقيلا على الدفاع ، كما أن استبعادهم لحدوث تحركات سريعة للقوات العربية على الجبهتين السورية والمصرية فى وقت واحد ساعدها على الهجوم بنجاح .

ثانيا ، التنسيق الدقيق والبارع بين الجبهتين السورية والمصرية ، توقيتا وهجوما وتفاعلا . أو كما علقت بعض النوائر العسكرية الغربية «لقد نسقت مصر وسوريا

جهدهما العسكرى بصورة رائعة لم يسبق لها مثيل من قبل ، كما أنهما استوعبتا كل دروس الجولات السابقة .

ومحصلة هاتين الحقيقتين أنه كلما توسع العدو توسعت جبهته ، وكلما توسعت جبهته فقد امكانية الهجوم المتتالى السريع ، وكلما انتزع العرب زمام المبادرة والهجوم فقدت استراتيجية الهجوم المتتالى بقية فاعليتها إلى درجة التلاشى . إن انتقال العرب الواعى والدائم إلى الهجوم لا يربك فقط كل استراتيجية العدو ، بل هو ينسفها فى الصميم ، لأنها قائمة أساسا على افتراض وقوف العرب على الدفاع أو فرضه عليهم أساسا وباستمرار .

عنصر المفاجأة

عنصر المفاجأة مكمل وامتداد جوهرى لعنصر المبادرة ، إن لم يكونا جانبين لشيء واحد فى الحقيقة . ولقد كانت فرص المفاجأة الاستراتيجية ، بحكم طبيعة المواجهة عبر القناة ، محدودة بدرجة أو بأخرى ، فأراضينا فى سيناء محتلة ، وأهدافنا فى تحريرها معلنة غير خافية ، والاتجاهات الجغرافية الرئيسية الممكنة للهجوم شبه محددة بالضرورة . فالمفاجأة بمعناها الاستراتيجى الجذرى والجوهرى غير سهلة إن لم تكن شبه مستحيلة . ومع ذلك فقد انتزعت القيادة المصرية المفاجأة النسبية أو التكتيكية بدرجة حققت كل أهدافها المباشرة وغير المباشرة وتركت العدو فى حالة تامة من العمى ثم التخبط فالذهول فاللوعة . ومازال الجميع يتساءلون فى كل الدنيا عن ذلك السر الغامض والمحير الذى أعمى الاسرائيليين عن كل علامات المعركة ومؤشراتنا ونذرنا وهى التى كانت «تحلق فى عيونهم بشدة» كما وضعها أحدهم ، أو كما عبر آخر : أهو عمى الألوان أم عمى الصحراء ؟

فقبل انفجار الموقف بأيام كان يمكن مشاهدة القوات المصرية وهى منهكة فى اعداد زوارق المطاط والجسور المجرأة على الضفة الغربية ، بينما على جبهة الجولان كان تقدير دايان أن هناك مئات من فوهات المدافع مرئية للعيان ، كما أشار بقدر من الانزعاج إلى أن السوريين قد نشروا الآن شبكة من الصواريخ المضادة للطائرات تقارب فى كثافتها تلك القائمة على قناة السويس (الصنداي تايمز) .

والحق أن المرء كلما ازداد امعانا فى التفكير فى قضية المفاجأة ، لم يملك إلا أن يزداد تعجبا واعجابا : تعجبا من غفلة العدو المتذاكى ، واعجابا ببراعة الخطة العربية

الكتوم : جيش بأسره ، بل جيشان عارمان ، بكل المعدات الهائلة وبكل التجهيزات المعقدة الضخمة الكثيفة ، حتى تحت ستار المناورات كان لابد أن تتخذ فى وقت ما أوضاعا هجومية ، كل أولئك على مسرح صحراوى مكشوف تماما ، وتحت سمع العدو وبصره بل تحت أنفه (فاصل ٢٠٠ متر فقط) ، كيف يمكن اخفاء كل هذا ، وكيف يخفى كل هذا ؟

على أية حال ، ليكن سؤالنا نحن عن أركان هذه المفاجأة البارعة : ما العوامل الأولية التى تتحلل إليها ؟ من ناحية أولى كان عامل السرية المطلقة مكفولا بدرجة فذة ، كما سارت عملية الخداع الاستراتيجى للعدو حسب تخطيط كفاء طويل المدى . فمثلا استغرق تجميع قواتنا للهجوم فترة ٢ - ٤ شهور ، أى بالتدريج الوئيد والقطاعى ، بينما لم يدفع بالقوات الرئيسية منها من العمق إلى الجبهة إلا قبل ٣ أسابيع فقط من ساعة الصفر وتحت ستار المناورات . وبينما أعدت مكامن السلاح والعتاد ومعدات العبور - التى تم تصنيع جزء كبير منها محليا - مسبقا فى خفاء تام ، لم تنقل الأسلحة والمعدات نفسها إليها بالفعل إلا ليلا فى آخر لحظة ممكنة قبل ساعة الصفر . ومن قبل أيضا كان قد أقيم ساتر رملى على الضفة الغربية يحصن تلك الاستعدادات عن أنظار العدو وعن نيرانه . كذلك فلم تفتح ثغرات المرور لقواتنا عبره إلا فى آخر لحظة ساعة العبور .

وفى تقرير لإحدى لجان الكونجرس الأمريكى عن الشرق الأوسط نشر بعد المعركة واعتمد على زيارة ميدانية واسعة أنه «بالإضافة إلى أن عملية العبور تعد فى ذاتها مظهراً مؤكدا لتحسن القدرة القتالية ، فإن عملية التمويه والخداع التى صاحبت الاستعداد المصرى للقتال والقدرة على كتمان هذه الاستعدادات لفترة طويلة واخفائها عن أعين الاسرائيليين أمر يجب أن يلقى اهتماما كبيرا» . وهذا تعليق غنى عن التعليق . هذا عن السرية والتمويه . أما عن التوقيت فقد اختارت الخطة لساعة الصفر توقيتا مرنا ذكيا وبارعا شل الجهاز العصبى لقيادة العدو برغم كل مخابراته وادعاءاته . وهناك عدة أبعاد ومستويات لهذا التوقيت .

أولا ، أنسب طقس سياسى دولى ، كان التأييد العالمى قد وصل فيه إلى الذروة واكتملت عزلة العدو ومعسكره دوليا بدرجة لم يسبق لها مثيل . وفى هذا الصدد بالذات

جاء حدث عرضى بحت وهامشى نوعا ليشغل الرأى العام الاسرائيلى ويبتلع نشاط مخابراتهم ، ونعنى به أزمة معسكر شوناو واليهود العابرين بالنمسا . فهى بالإضافة إلى مشكلة غارات الفلسطينيين الدورية على طائرات العدو وأصدقائه فى الجو مع غارات العدو الانتقامية على الدول العربية وانشغاله بمطاردة قيادات المقاومة الفلسطينية داخلها وفى عقر دارها ، كل ذلك ساعد إلى حد معين على صرف انتباه مخابرات العدو بعيدا نوعا عن قضية الحرب الأساسية وتركيزه على قضايا جانبية أو ثانوية نسبيا . هذا عن الطقس السياسى.

ولكن لا ننسى كذلك أنسب طقس مناخى للنشاط البشرى والعمل العسكرى . فخریف اكتوبر المصرى ربيع تقريبا ، وهو أبعد ما يكون عن حرارة الصيف الواقد وبرودة الشتاء القارسة التى تجعل حرب الشتاء حربا قاسية وصعبة قد لا تطيقها بسهولة إلا الدول الغنية . هذا فضلا عن أن هيدروغرافية القناة تختل وتضطرب بالأمواج والأنواء شتاء . كذلك يعد الشتاء موسم ثلوج على الجبهة السورية حيث يبدأ تساقطها فى نوفمبر وديسمبر . وهكذا وجد أن أنسب توقيت هو سبتمبر أو اكتوبر ، مع جنوح الأفضلية للأخير .

ثانيا ، انسب يوم تعطل وبطالة فى دورة حياة العدو اليومية حيث كان منشغلا بنشاطاته ومعاركه الانتخابية ، وكذلك بمناسبات أعياده الطائفية التى تصاب فيها حياته بشلل تام تقريبا . وإذا كان عيد «يوم كيبور» (يوم الغفران أو التكفير) هو قمة هذه الأعياد ، فقد كان الموسم كله تنقطه مناسبات دينية متلاحقة . ومن جانبنا نحن أيضا ، فلقد كان الموعد آخر وقت يتوقع فيه العدو الهجوم ، ونعنى بذلك شهر الصوم الذى يتصوره العدو المتعالى شهر كسل وتواكل . هذا فضلا بالطبع عما فى حرب رمضان من وجهة نظرنا من معنى دينى كبير وحافز للجهاد والفداء ، يرفع الروح المعنوية إلى ذروتها ويقدم سلاحا مضافا للنصر .

ولقد أثار اختيار يوم عيد الغفران حقد العدو ، الذى أصبح يسمى حرب أكتوبر بذلك الاسم . ومع ذلك فقد اختلف العدو نفسه فى تحديد مدى خطورة ونتائج هذا التوقيت . فرغم أن هذا العيد يقضيه الاسرائيليون فى المعابد بعيدا عن العمل وعن بيوتهم وبذلك يشل حركتهم واتصالاتهم بما يكفى ليعرقل التعبئة العاجلة ، إلا أنه فى رأى بعضهم

أخف وطأة من سائر الأعياد الدينية الأخرى التى يخرجون فيها إلى الريف والصحراء خارج المدن كلية للتنزه والرحلات طوال اليوم مما يجعل التعبئة العاجلة أكثر استحالة ، وعلى أية حال ، فليس من المحتمل أن اختارنا السادس من أكتوبر تقرر لأنه يوم العيد بالذات ، فهناك ضوابط توقيت أخرى عديدة وربما أهم ، كما أن أعياد اليهود عديدة على مدار العام ، فضلا عن أن أى سبت يصلح ويكفى تماما .

ثالثا ، أنسب يوم للعبور تقل فيه سرعة تيارات قناة السويس ويصل فيها مدى المد والجزر إلى حده الأدنى فلا يعوق العمليات الهندسية واقامة المعابر أو الملاحة عبر الماء بقدر الإمكان . هذا إلى جانب أنسب ليلة قمرية تسمح بحرية العمل ليلا . وهنا نلاحظ أن ليلة العاشر من رمضان قريبة من منتصف الشهر القمري ، ليلة ١٤ ، حين يكون القمر بدرا ، كما نلاحظ أن هناك ارتباطا طبيعيا بين دورة القمر وبين المد والجزر . وهذا كله عدا أن ليل أكتوبر طويل ، ١٢ ساعة ، بما يكفى ليمنح العملية أطول وقت ممكن للحركة المستورة . وعلى ضوء هذا كله تم تحديد السادس من أكتوبر بعد دراسة علمية مفصلة جدا هيدرولوجيا وفلكيا .

رابعا ، آخر ساعة تتوقع للعبور طوال اليوم . فكل العمليات العسكرية تبدأ كقاعدة عامة إما من أول ضوء فى الشروق أو مع آخر ضوء فى الغروب ، ولكن الخطة اختارت قلب النهار وفى وضحه ، الثانية بعد الظهر . ورغم أن كل عمليات العبور المائى بالذات ، بما تتطلب من مهمات ومعدات هندسية ونقل قوات وسلاح ، تتم بالليل وتحت جناح الظلام ، فقد كان البدء فى الثانية بعد الظهر لا يخل تماما بهذه القاعدة ولكنه لا يخليها من المفاجأة.

فعدا ما فيه من مفاجأة خداعية كاملة ، فإن اختيار هذا الوقت ، الذى يسبق آخر ضوء بنحو ٤ ساعات ، يكفل أيضا الاستفادة بضوء النهار طيلة هذه الساعات الأربع فى مرحلة طلائع العبور الخفيفة ، فيمنح قواتنا الجوية والمدفعية القدرة على دقة التصويب وعلى تصحيح نيرانها فى ضربتها التمهيديّة الأولى ، كما يتيح اسقاط معدات العبور الهندسية فى آخر ضوء . وبالمثل على الجبهة السورية حيث يمكن أن يتم للسوريين عبور الخندق الصناعى الذى حفره العدو على امتدادها ، ثم التعمق بعده فى ضوء كاف .

ومن ناحية أخرى ، لا يكون العدو قد أفاق واستعد بطيرانه ومدفيعته حتى يكون

الظلام قد حل وحرمه من العمل الجدى أو المجدى حتى صباح الغد ، بينما نكون نحن قد وصلنا إلى مرحلة نقل المعدات الثقيلة والقوات الرئيسية التى يمكن حينئذ أن تتم فى سلام خلال الليل الطويل ، فلا يظهر أول ضوء فى الغد إلا ويكون جيشنا بكامله رجالا وعتادا قد أصبح بالفعل على الضفة الشرقية .

أخيرا وليس آخرا أنسب ساعة من النهار من حيث حركة الشمس اليومية ومواقعها بالنسبة إلى جبهة العدو وإلى جبهتنا نحن . فقد اختيرت ساعة الصفر بحيث تكون عين العدو فى عين الشمس ، وليس العكس ، فيكتمل له بذلك عمى المعركة . إذ لما كان فى الشرق موقعه ، فإن الشمس التى انتقلت نحو الغرب بعد الظهر تغمر عينيه بأشعتها المواجهة فتغشيها وتعاكس رؤيته ، على العكس من الموقف قبل الظهر . وفى هذا الصدد كان لابد من التنسيق الدقيق بين الجبهتين المصرية والسورية . فرغم أن محور المواجهة الأساسى على الجبهتين واحد تقريبا يتمثل فى مجابهة بين شرق وغرب ، فالفارق أن الهجوم المصرى يأتى من الغرب والسورى من الشرق .

وعدا هذا فيبدو أيضا أن سياسة التدريبات المصرية المتكررة ، بل والروتينية الرتيبة عبر سنوات طوال ، خاصة أثناء فترة الركود الحربى المطلق فى مرحلة الاحرب واللاسلم ، وتحت أنظار العدو، قد «خدرته» ونمت فيه نوعا من ميكانيكية الانعكاس الشرطى ، حتى وصل فى النهاية إلى حد اللامبالاة والاستخفاف المنتظم بها . فكل تحرك للقوات المصرية تدريب ، وكل تدريب مناورة ، وكل مناورة مع الريح . ومن ثم فلا معنى ولا داع كل مرة لاستدعاء الاحتياطى أو للتعبئة العامة بكل صعوباتها وتكاليفها ... إلخ . وكما اعتذر دايان بعد المعركة ، فلم يكن معقولا أن تنفق اسرائيل كل شهر أو شهرين بضع عشرات من الملايين من الدولارات مقابل تحركات عربية دورية تنتهى إلى لا شئ حريبا .

وفى هذا المعنى ، وهو المعنى نفسه ، السلبى بالطبع ، الذى نتحدث به عن «فضل» قرار القبول بوقف إطلاق النار فى أغسطس ١٩٧٠ على إقامة شبكة دفاعنا الصاروخى الفائقة الحيوية ، فى هذا المعنى ربما جاز لنا أن نذكر «فضل» مرحلة الاحرب واللاسلم بسنواتها الثلاث والنصف . فرغم سكون الجبهة إلى حد الجمود ، كانت المرحلة

أبعد شئ عن الاسترخاء العسكرى أو الموات النضالى ، وانما كانت فترة «بيات شتوى»
إن صح التشبيه ، كمون وكمين ، اعداد واستعداد ، صمت وصبر ، وعمل وتصميم ،
ومجال رحب لتخدير العدو تماما والتمهيد للمفاجأة الكاملة المطلقة . ولو قد أتت الحرب
الشاملة ، كتلك التى اندلعت فجأة فى أكتوبر بالفعل ، بعد حرب الاستنزاف مباشرة
وتصاعدا منها بالتدريج الوئيد ، لما كان لعنصر المفاجأة مجال كبير على الأرجح ، ولما
كانت للمبادأة بالتالى فرصة مذكورة أو بارزة على الأغلب .

ذلك بالطبع ، وعدا غرور العدو الأكبر والأبقى ، ذلك الذى وصل به إلى حد استبعاد
تجاسرنا على العبور . وفى هذا فلقد كانت اسرائيل تعتقد اعتقادا شبه جازم أنه لا خطر
من حرب جديدة مع العرب قبل نهاية السبعينات ، وأنهم «لن يحاربوا إلا إذا أصابهم
الجنون» (كذا) ، وحتى عند ذلك فلإيقاظ الدول العظمى وليس بهدف تحرير الأرض حقا
وفعلا . أما عبور القناة نفسها على نطاق واسع فهو فى نظر العدو ومخابراته والمخابرات
الأمريكية «يمثل تحديا يجاوز قدرة الجيش المصرى» . ولاشك أن فى هذه الحسابات
المغرورة كانت سقطة أخرى من سقطات العدو وكان جزء من مقتله .

بكل هذا وبغيره تم تحقيق المفاجأة الكاملة للعدو، تلك التى أطارت صوابه ووضعت
لفترة ثمينة وحرجة فى حالة من انعدام الوزن عسكريا وسياسيا . ورغم كل ما قيل
من أن العدو تنبه لاحتمالات الهجوم العربى أو علم به قبل وقوعه بساعات قليلة ، فقد
كان سلوك العدو الميدانى فى الساعات الأولى من الهجوم ، كما أحست به القيادة
العربية المسئولة نفسها ، دليلا عمليا على أنه أخذ بالمفاجأة تماما . كذلك فلقد
تضاربت أقوال العدو وأدلتة وشهاداته بعد ذلك حول هذه النقطة تضاربا شديدا .
ولدينا فى هذا سيل من تصريحات العدو ، نورد هنا بعضها بنصوصها منقولة أغلبها عن
كتاب «حرب رمضان . الجولة العربية الاسرائيلية الرابعة . أكتوبر ١٩٧٣» ، تأليف
اللواء حسن البدرى واللواء طه المجنوب والعميد أ. ح ضياء الدين زهدى . ومن هذه
التصريحات ما يعترف بالمفاجأة صراحة ، ومنها ما ينكرها تماما ، ومنها ما
يجمع بين النقيضين !

فمن الأولى قال ياريف ان اسرائيل تعمدت أن تخاطر بترك المصريين والسوريين
يتخذون المبادرة بالأعمال العسكرية مع ما يترتب على ذلك من مزايا . وقال دايان «إنه

توجد مفاجآت فى هذه الحرب أيضا» ، وإن أنكر حدوث أى خطأ فى قوة جيش الدفاع أو فى تشكيله أو تكوينه . أما اليعازر فقد قال «ان هذه أصعب حرب واجهتها اسرائيل - لقد زحفت علينا بنون سابق إنذار» . وبالمثل قال بارليف ان اسرائيل «فشلت وفوجئت مرة واحدة» مؤكدا أن ذلك لن يتكرر . وأخيرا هناك كلمة جونين فى قواته «أنتم مكلفون بالقيام بمهام فرضت عليكم بصورة مفاجئة» .

ومن الذين ينكرون المفاجأة بطريقة أو بأخرى شارون الذى جزم حين رأى الصور الجوية لمعدات العبور والحشود المصرية بأن «الحرب ستقع فى يوم أو اثنين» . وبالمثل فعل ألون بطريقة أخرى اذ قال «اننى أؤكد شخصيا ، وكذلك رسميا ، أننى أقرر بشرفى الشخصى صحة البيان القائل بأننا لم نبدأ القتال . على العكس ، حتى بعد أن رأينا المجابهات الشاملة لقوات العدو فى أوضاع هجومية ، تجنبنا متعمدين الضرب أولا ، متخلين عن تلك الميزة العسكرية ، ميزة الضرب أولا» .

ولكن الذين يجمعون بين النقيضين أكثر . فبارليف عاد فناقض نفسه حين قال «لم يكن هناك نقص فيما يتعلق بمعرفة نوايا العرب» . كذلك صرح ضابط مخابرات اسرائيلى كبير بأن «كل ما توصلنا إليه وتوقعناه هو أن العرب سوف يشنون الحرب ذات يوم قريب ، ولكننا أخذنا فى الموعد على غرة» . والتناقض ظاهر كذلك عند ماير نفسها التى قررت أنها «كانت تعلم يقينا بنية هجوم العرب بل ويتوقعته ومراميه ، ولكنها تركت لهم المبادأة طوعا واختيارا لأسباب سياسية واقتصادية ملحة» ، ثم عادت تقول فيما بعد «لو أن مسئولا جاعلى واقترح استدعاء الاحتياطى لوافقته على الفور» . غير أن التناقض يصل إلى حد التلاعب أو التخبيط الساخر عند هرتزوج : «ان الهجوم الذى شنه العرب أخذ اسرائيل على غرة ، وأن تحريك العرب لقواتهم على طول خطوط المواجهة لم يفاجئ اسرائيل ، ولكن من الواضح أن الهجوم جاء مفاجئة» (!) .

هذه عينة من تصريحات العدو ، التناقض الفاحش بينها غنى عن الذكر ، ولكن السؤال الملح هو : لماذا ؟ وما الذى يخفى وراءه ؟ أغلب الظن أنه تضارب مقصود ، أو لعله غموض متخبط . فالعدو ، بعد أن صعدته الضربة العربية ، وانقاذا لسمعته العسكرية التى تحطمت ، راح يبزر النصر العربى بعامل المفاجأة وحده ، وأنه لولاه لما

هزم ولانتصر كما تعود ، إلى آخر هذه النعمة الدعائية غير المجدية وغير الصحيحة .
وفى الوقت نفسه فقد اكتشف العدو أن منطقته التبريري هذا هو اعتراف ضمنى
منه على الأقل بعجز وفشل مخابراته التي تمرغت سمعتها فى التراب ، وخواء قدراته
التجسسسية التى طالما تباهى بها . لقد وجد نفسه خاسرا على الحالين ، كالمستجير من
الرمضاء بالنار .

غير أن الواضح فى الحالتين هو التناقض الحاد المديب فى أقوال العدو ثم
التضارب السافر بين أقواله وأفعاله ، سواء ذلك عن عمد أو تلقائيا . ولكن فى
الحالة الأولى كذب الاسرائيليون ولو صدقوا ، وفى الحالة الثانية صدقوا ولكن
بطريق الخطأ فقط . كيف ؟ لا تفسير لهذا إلا أن فى الأمر شيئا ، أو أشياء أخرى . ثمة
حلقة مفقودة يحاول العدو اخفاها ما بين اعترافاته المبتسرة وادعاءاته المكنوبة . فما هى ؟
اننا إذا أعدنا تركيب الموقف منطقيا لوجدنا فيه ، ليس مرحلة واحدة كما يوهم العدو ،
ولكن أكثر من مرحلة من تحول الرأى وتغير القرار ، وإن جاءت كلها مضغوطة فى بورة
مختزلة وفى فترة زمنية وجيزة جدا . فالعدو يقول : «لقد رأوا ، ولكنهم لم يفهموا» .
وقد يكون هذا صحيحا إلى حين أو إلى حد أو آخر ، إذ لاشك أن القيادة المصرية نجحت
فى تضليل العدو واخفاء نواياها واستعدادها وتحركاتها ثم خططها إلى آخر لحظة
وببراعة فائقة ، بحيث لم يفهم العدو حقيقة ما يدبر وما ينتوى . غير أن هذا نصف
الحقيقة ، بل ثلثها فقط .

فالمرجح ، بل المؤكد الآن ، أنهم «رأوا وفهموا ، ولكنهم لم يصدقوا» . وهذه هى
المرحلة الثانية فى تقدير الموقف . فالثابت أن العدو من شواهد وأدلة عديدة توصل
إلى احتمالات نشوب حرب حقيقية قبل قيامها بيوم أو يومين (تنبؤات شارون).
غير أنه لفرط غروره وامتلائه بالثقة ولشدة استخفافه بالعرب لم يصدق أن الأمر
جد لا هزل ، حتى صفعته الحقائق المجسمة المتوالية بعد ذلك .

وأخيرا ، وهذه هى المرحلة الثالثة فى بورة القرار والحلقة المفقودة فى الموقف كله
لاشك ، تأكيد العدو من قدوم الحرب قبيل وقوعها بعدة ساعات صباح السادس من
أكتوبر . وقد صرح هو بذلك كما نعلم ، مثلما صرح بأنه تدارس فكرة السبق بضربة
اجهاض جوية ، إلا أنه عدل عنها فى آخر لحظة نظرا لأن الوقت (كما وجد) كان قد

أصبح متأخرا جدا لمثلها وأن فرصتها قد ضاعت ، وكذلك حتى لا يتهم (كما ادعى) بأنه المعتدى والبادئ بالهجوم كل مرة فيفقد ما تبقى من الرأي العام العالمى . أى أنه بحكم الضرورة العسكرية ومن أجل الانتهازية السياسية ، قرر أن ينتظر هجوم العرب وأن يترك لهم طوعا زمام المبادرة كما صرح . على أى أساس ؟ - بالطبع على أساس أنه على أية حال قادر بقوته على امتصاص الهجوم ثم تدميره وتدمير الجيوش العربية .

غير أن الذى لم يعلنه العدو هنا ، والذى توصل إليه - بحق فيما نرى - الاستاذ أحمد بهاء الدين فى كتابه «وتحطمت الاسطورة عند الظهر» (ص ١٣٣ - ١٣٤) ، الذى لم يعلنه العدو هو أنه بعد أن رأى وفهم وصدق رجب فى قرارة نفسه وفى آخر لحظة بفرصة «حرب أخرى وأخيرة» كان «يريدها» منذ رفض العرب الاستسلام لانتصاره فى يونيو حتى يسحقهم نهائيا ويفرض عليهم الاعتراف بالهزيمة والتسليم له ، حرب تحقق له النصر السياسى بعد أن عقم نصر يونيو العسكرى ، حرب كان يريدها وما هى الآن تبدو أمام العالم «مفروضة» عليه . ولقد صرح كثير من قادة العدو بلا موارد كم يتمنون لو أقدم المصريون على عبور القناة حتى يسحقوا قواتهم مرة واحدة وإلى الأبد . دايان على سبيل المثال ، كما كتب ايف كوفى الفيجارو ، «لم يحاول قط أن يخفى أمنيته أن يقدم الجيش المصرى على اجتياز قناة السويس ، حتى يبدأ انقضاضه عليه وسحقه سحقا ، كما صرح دايان أكثر من مرة وفى أكثر من مناسبة» . انها إذن الفرصة المثالية ، حتى وإن فاجأهم نوعا على غير ما كانوا يؤملون من تأهب فاستدراج فتوقيت .. إلخ . وما دامت هذه هى الحرب يفرضها العرب ، فلتكن هى الحرب التى نحتاجها ونريدها لسحقهم نهائيا ، ولندعهم يسعون إلى حتفهم بظلفهم ! ولكن نتيجة الحرب هى التى جاءت عكسية وخيبت كل خططهم وتوقعاتهم . ان هزيمتهم هى «المفاجأة» الحقيقية الصاعقة التى تلقوها فى النهاية ، أكثر منها مفاجأة نجاح خفاء الحرب أو محض قيامها أو واقع توقيتها . «لقد رأوا وفهموا ، ثم صدقوا ، ولكنهم مكروا» - غير أن المكر السيئ حاق بأهله . وتلك على الأرجح هى حقيقة قصة المفاجأة ، التى اعترف العدو بجزء منها وأخفى الجزء الأكبر .

وهناك بالفعل رأيان متعارضان فى معسكر العدو بصدد عوامل الهزيمة : رأى مخادع يلقي اللوم والمسئولية كاملة على المخابرات ، ورأى أكثر صراحة يعتبر

مسئولية المخابرات جزئية فقط والخطأ أوسع منها وأشمل . ويمثل الاتجاه الأول بارليف الذى قال «ان المصريين والسوريين قد دخلوا هذه الحرب بأسلحة جديدة وبكميات هائلة لم تحسن المخابرات الاسرائيلية تقديرها . ولهذا وقعت المفاجأة ، ونجح المصريون والسوريون فى تحقيق انتصاراتهم» .

أما الرأى الثانى فقد عبر عنه عزرا وايزمان حيث قال «انه لا يريد القاء المسئولية كلها على التقديرات الخاطئة لأجهزة المخابرات الاسرائيلية . فقد كان هناك نقص فى الرؤية وفى الواقعية على جميع المستويات ... ولولا وقوع هذه المجموعة من الأخطاء لما اضطررنا أثناء الحرب إلى الاعتماد بهذه الدرجة على المساعدات الأمريكية ولأصبحنا اليوم بالتالى أقل اعتمادا على الولايات المتحدة . لقد أسأنا تقدير كمية الأسلحة والعتاد التى زود بها أعداؤنا ، ولم نكن بالتالى مستعدين لحرب بمثل هذه الضراوة» .

ومهما يكن ، وعلى أية حال ، فليس صحيحا أن هزيمة العدو ترجع إلى عامل المفاجأة وحده ، كما يحاول هو أن ينظر ليثبت أن الأمر كله كان فلتة ، مجرد مصادفة لا تتكرر . فهذه ليست إلا محاولة يائسة كما هي يائسة من جانب العدو لتغطية فشله وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من روحه العسكرية المنهارة شعبا وجيشا . والواقع أن هناك جانبين بالغى الأهمية للقضية . فأولا ، المفاجأة على أهميتها القصوى ليست إلا عنصرا واحدا فقط من مركب القوة والقدرة العربية الذاتية الجديدة والمتعددة الأطراف والأبعاد . وليس من المحتم أننا لم نكن لنتنصر لو لم نحقق عنصر المفاجأة ، ربما صارت المجابهة أشق وأطول ولكن النتيجة ما كانت لتتغير أساسا وبالضرورة .

ثانيا ، وكما يلاحظ الأستاذ أحمد بهاء الدين بفكر صاف ونفاذ ، هناك نوعان من المفاجأة ، الفرق بينهما كالفرق بين القتل دفاعا عن النفس والقتل من أجل السرقة . المفاجأة الغادرة ، ونمطها الكلاسيكى بيرل هاربر ، وآخر نماذجها ضربة صهيون صباح ٥ يونيو . وهذا النوع ليس انجازة عسكرية بارعة بقدر ما هو قطعة من الخسة العسكرية البشعة ، ضربة جبان فى الظهر والظلام يمكن أن يمارسها بنجاح كل نذل لا خلاق له من الأعداء .

ثم هناك المفاجأة الشرعية التي يقرها الشرف العسكري ، المفاجأة الوظيفية أو العضوية التي تمثل جزءا من صميم العمل العسكري المشروع ، تقع في قلب حالة الحرب القائمة ووجهها لوجه في ميدان الصراع تحت سمع العدو وبصره (وأقماره الصناعية ومخابراته وجواسيسه وطائراته الاستطلاعية) وفي وجه استحكاماته وحصونه وفي مرمى مدافعه (وخط بارليفه) . «ولكن براعة التخطيط السياسي والعسكري ، في تضليل العدو ، وإبقائه حتى الأيام الأخيرة حائرا في تفسير معنى تحركات قواتنا» .. هذه قطعة «من صلب القتال وفنونه» بل وجزء حتمي منه . وهذا بحذافيره ما قمنا به في ٦ أكتوبر .

ومعظم الآراء المحايدة والموضوعية تنص بالفعل دائما على تعدد أسباب الهزيمة الاسرائيلية ، فتجمع بين عناصر الخدعة والمفاجأة والأداء العسكري نفسه . ويمكن أن نورد نمونجا لهذا الموقف رأى تشرشل الحفيد . «لقد فوجئ الجنرالات الاسرائيليون» ، يقول هو في دراسة ضافية ، «وهم غافلون ، ويرجع ذلك أساسا إلى ما كانت تشعر به اسرائيل من نشوة لانتصارها في ١٩٦٧ . كذلك فإن اسرائيل لم تكن مستعدة لمواجهة هذا النوع من الحرب الذي خاضه العرب بالأسلحة الجديدة . فإسرائيل ظلت تعتمد في استراتيجيتها على انتصاراتها بالطائرات والمدفعات كما في ١٩٦٧ ، في حين أغفلت المدفعية والمشاة وهما السلاحان اللذان تحملا عنف الهجوم» .

الحرب الشاملة

وهي ما مارسنا بالفعل ، وما كان حتما أن نفعل منذ قررنا أن نطلق الطلقة الجوابية الأولى في المعركة . فلقد كانت ضمانا شرطيا للنجاح ومضادا لأي انتكاس . والمقصود بالحرب الشاملة أن تبدأ كاملة مطلقة منذ أول لحظة ، دون مرحلة أو منطقة انتقال بين حالة اللاحرب والحرب . وتفسير ذلك أنه كانت هناك نظرية شائعة بعد يونيو تقول بعملية تصعيد «محسوبة» المراحل في مستوى المعركة ، كأن تبدأ مثلا بحرب استنزاف من نوع جديد أو غير جديد على غرار ما شنته مصر عبر القناة حتى وقف إطلاق النار في ١٩٧٠ ، أي بتراشق المدفعية أو غارات الطيران أو اغارات القوات الخاصة أو البرية أو البحرية .. إلخ .

ولكن كان من الصعب أن نجد أخطأ من هذه الوصفة السانجة ، التى كفانا القائد العام للقوات المصرية بعد عمليات أكتوبر منونة تفنيدها . «كان رأى أن حرب الاستنزاف قد استنفدت أغراضها فى الفترة التى جربناها فيها . ثم ان اسرائيل لن تقبل بالعودة إليها ، وأى محاولة من جانبنا لذلك سوف تواجه من اسرائيل برد فعل أقوى» . ومعنى ذلك أننا كنا ازاء احتمال قيامنا بعمليات صغيرة يقابلها العدو برد فعل كبير يتجاوز أبعادها السياسية والعسكرية . ذلك أنه كان من الواضح أن العدو المتريص الحقوق كان يتلمس أدنى ذريعة ميدانية من جانبنا لينتهزها فرصة ليبادر ويشن هجومه المفاجئ اجهاضا وردعا . وهو إن فاتته المباشرة الغادرة مرة لى اعتبار عسكرى أو سياسى أو دعائى ، فسيجد فى أول رصاصة منا تلك الذريعة ، ليمارس الحرب الشاملة فورا وبصورة كاملة لتدمير قوانا فى أسرع وقت ونحن لم نزل نتوقع ردا محدودا .

ولقد كان ذلك بالدقة مقتلنا فى ١٩٦٧ ، وتلك كانت فى الحقيقة استراتيجية الحرب كأداة ضغط وتهديد سياسى واستعراض قوة أكثر منها استخدام القوة الجادة . ولكن اللعب السياسى بالحرب لعبة خطيرة ، قد يمكن أن يمارسها الأقوى وحده . وقد كان واضحا أن أى بداية للقتال من جانبنا أقل من حرب شاملة منذ أول لحظة تعرضنا لخطر ممكن وكامن ، وأن علينا حين نبدأ الحرب أن نغنيها بكل معانيها : انه ليس ثمة نصف هجوم . وهكذا بالفعل كان . فقد تقرر أن تكون ضربتنا كبيرة شاملة ، بحيث يساوى جهدنا العسكرى على الأقل احتمال تعرضنا لرد فعل كبير من جانب العدو ، الذى ستكون ضررته المضادة كبيرة على أية حال .

ولقد تساعل البعض عما إذا كانت خطة المعركة اصلا هى لعملية عسكرية كبيرة ، أكبر من حرب استنزاف مجددة ولكنها أصغر من حرب شاملة . وبعبارة أخرى ، كان السؤال هو ما إذا كانت الخطة قد اقتصرت على تحرير جزئى لسيناء والجولان ، يحطم خطى بارليف وآلون وينتزع رأس جسر عريض ، مع تدمير أكبر قدر ممكن من قوة العدو وكذلك من أسطورة تفوقه ، ولكن بون أن يمضى إلى نهاية الأراضى المحتلة بعد يونيو . ولكن ، كما أوضحت القيادة العسكرية ، فلقد كانت الخطة

شاملة وموضوعة لحرب شاملة ، غير أن تطور الموقف كان متروكا بالضرورة لرد فعل العدو من جهة وللموقف الدولي من جهة أخرى . والواقع أنه إذا كانت المعركة قد انتهت بتحرير جزئي ومحدود فقط ، فذلك وضع مرحلي فرضته ضغوط التوازن الدولي ، ولكن المعركة نفسها كانت - تخطيطا وتنفيذا - جزءا من منطق الحرب الشاملة .

وكما يوضح مؤلفو كتاب حرب رمضان ، حدد الهدف العسكري للمعركة «بهبزيمة جميع قوات العدو الاسرائيلي في سيناء والهضبة السورية والاستيلاء على مناطق ذات أهمية استراتيجية تهيئ الظروف المناسبة لاستكمال تحرير الأراضي المحتلة بالقوات المسلحة ، لفرض الحل السياسي العادل للمشكلة . وبناء على هذا الهدف الواضح كان على القيادة العامة المصرية أن تخطط للقيام بعملية هجومية استراتيجية مشتركة ، تنفذ بالتعاون مع القوات المسلحة السورية ، وتقوم فيها مصر بالاقترام المدير لقناة السويس وتدمير خط بارليف ، والاستيلاء على رؤوس كبار بعمق ١٠ - ١٥ كيلو مترا على الضفة الشرقية للقناة ، وتكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة ، وصد وتدمير هجمات وضربات العدو المضادة ، والاستعداد لتنفيذ أى مهام قتالية أخرى تكلف بها فيما بعد . أما سوريا فتشن الهجوم وتخرق دفاعات العدو بالجو لان وتجزئ تجميعه وتدمر قواته وتصل إلى الخط - نهر الأردن ، الشاطئ الشرقي لبحيرة طبرية» .

ولعل من المفيد بعد هذا أن نضيف أن الحرب الشاملة التي اتبعناها بنجاح في أكتوبر تعنى ، من بين ما تعنى ، الاستعمال الشامل والأمثل لكل أسلحة القوات ، هجومية ودفاعية ، برية وبحرية وجوية ، مشاة ومدفعية ومدفعات ، صواريخ وقذائف وقنابل ، نظامية وخاصة وفدائية ... إلخ . وهذا النوع من القتال يعتبر بمعنى من المعاني فصلا جديدا في كتاب الحرب الحديثة ، يعتمد أساسا على التنسيق الدقيق جدا والمحكم جدا بين كل هذه الأسلحة بحيث تتكامل وتتآغم في سيمفونية نارية متعددة الحركات ولكنها موحدة الايقاع ، لا تترك ثغرة أو فرصة للعدو ، وتحقق الاستخدام الأمثل لكل امكانيات كل نوع منها بل وبحيث يضاعف كل منها قدرات الآخر . وهكذا ، أيضا ، بالفعل كان .

الحرب الطويلة

يبقى أخيرا من عوامل النصر عنصر الحرب الطويلة ، حرب النفس الطويل ، فهي مقتل حقيقى من مقاتل اسرائيل . ومن المسلم به أن الحرب الخاطفة ، السريعة القصيرة ، ليست فى صالحنا قطعا ، ولا هى فى طاقتنا ربما . على العكس ، كلما طالت المعركة كانت فى صالحنا ، والأطول الأفضل . أما العدو فكل قوته مركزة فى نفسه الأول ، نفسه القصير ، وعليه يراهن ببقية حياته .

والحرب الخاطفة هى أساسا استراتيجية المقامرة ، أكثر حتى مما هى استراتيجية المغامرة : تقامر بكل شئ لتكسب كل شئ أو تخسر كل شئ . والحرب الخاطفة ، التى نقلتها الصهيونية عن أستاذتها النازية ، كانت دائما استراتيجية العدو ، إما لأنها تلائم أغراضه وأهدافه ، وإما لأن ظروفه وأوضاعه قد فرضتها عليه فرضا . وقبل أكتوبر كان العدو قد وصل فى اعتماده على الحرب الخاطفة إلى حد أن دايان أعلن صراحة أنه «ينبغى إنهاء المعركة خلال ساعات بحيث لا تكلفنا غاليا فى الأرواح والمعدات» (!) .

وقد أوضحت حرب أكتوبر كم فشل العدو فشلا فاحشا فى تحقيق آماله الخرافية وادعاءاته المبتذلة ، وإلى أى مدى نجحنا نحن ، على العكس ، فى توريثه راغما فى أطول حرب حقيقية خاضها منذ نشأته . فرغم أن شكل الحرب ومداها وأمدها لا تتحدد بإرادة طرف واحد ، بل بإرادة الطرفين المتحاربين تتحدد ، ورغم أن الحرب الحديثة أميل بطبيعتها إلى القصر بحكم الامكانيات التدميرية الهائلة للأسلحة العصرية خاصة منها الجوية والالكترونية ، فقد كان علينا أن نفرض الحرب المطولة إلى أقصى حد ممكن . كان علينا أن نحارب حربا حقيقية من أجل إطالة أمد الحرب ، فكل يوم مضاف إليها هو احتمال مضاف بالنصر ، ذلك أن اقتصاد العدو لا يتحمل إطالة التعبئة العامة إلا أسابيع معدودة ، بعدها تصاب حياته الانتاجية بالشلل الخطير .

وقد كان تقدير الخبراء العالميين دائما أن العدو الاسرائيلى بكيانه المعطى لا يستطيع أن يواصل الحرب لأكثر من شهر أو شهر ويضع شهر كحد أقصى . ولولا التدخل الأمريكى المطلق فى معركة أكتوبر لاصطدم العدو بهذا الحاجز التحديدى الرهيب ولوقف أمامه وجها لوجه ، ولوقف معه جهده الحربي عند طريق مسدود لا يعنى إلا الهزيمة الحتمية والكاملة . ولعل هذا يكون طريق الجولة القادمة .

خطة العبور

اجمع الخبراء العالميون على أن معركة أكتوبر تعد واحدة من أكبر معارك التاريخ العسكرى الحديث ، لا تقل عن كبريات معارك الحرب العالمية الثانية ومعارك الدول الكبرى عموما . كذلك أجمعوا ، حتى الأعداء منهم ، على أن ملحمة المعركة المصرية فى سيناء جاءت بكل المقاييس قطعة مذهلة من الاستراتيجية الممتازة فى جميع مراحلها : العبور ، اجتياح الخط ، رأس الجسر ، القاعدة الأرضية . وحتى نعيد تركيب «سيناريو» المعركة متسلسلا فى تداعيه المنطقى وفى تتابع أحداثه ، لتكن هذه المراحل نفسها هى أساس تحليلنا للملحمة السينائية الكبرى .

فأما العبور فقد كان بحق بمثابة اقتحام العقبة ، ففى قفزة كبرى واحدة ، وفى مبارزة نارية التحامية بين البر والبحر وبين الأرض والسماء ، تم اكتساح أصعب مانع مائى فى العالم - هذا تقدير العسكريين أنفسهم - فى أقل وقت ممكن وبأقل خسائر بشرية متصورة على الإطلاق . وكان العدو يصور العبور إما مستحيلا سيفرقه هو فى القناة إغراقا وإما حمام دم لا يتم إلا بنسبة رهيبة من الخسائر .

غير أن القناة ، عنق الزجاجة التى ظننها العدو عنق مصر الذى يمسك به ومنه يمسك بخناقها ، تحولت إلى مقبرة عائمة له ، بينما لم تلبث العملية الفائقة النجاح نفسها أن تحولت إلى درس مرجعى ونموذج نمطى ، بل غير نمطى على الإطلاق ، فى كل أكاديميات العالم العسكرية ! لقد كان العبور بالذات قمة أمل العدو فى تحطيم أمل التحرير ، فجاء قمة هذا الأمل الكبير ، وجاء قمة فشل العدو القمئ .

ولدينا فى هذا شهادة النيويورك تايمز : «ان العبور المصرى لقناة السويس بعد ظهر ٦ أكتوبر كان بارع التخطيط والإعداد والتنفيذ . ان القوات التى كانت فى المواقع المحصنة على الضفة الشرقية للممر المائى الضيق واجهت تفوقا عدديا كبيرا ، لكن ذلك لا يقلل من الشجاعة وعنف الهجوم اللذين أظهرهما الجيش المصرى فى اقتحامه أو تجاوزه لهذه المواقع» .

التحدى

ولكن لماذا عدت عملية العبور بالغة الصعوبة والخطر إلى هذا الحد ؟ الواقع أن القناة لم تكن مشكلة العبور الوحيدة وإن كانت الكبرى . فالعائق فى الحقيقة كان مثلثا : القناة ،

الساتر الترابى ، خط بارليف . وثلاثتها تلتصق مباشرة ببعضها البعض كأنها أضلاع مثلث قائم الزاوية ، القناة ضلعه الأفقى ، والساتر الرأسى ، وخط بارليف هو مجازا وتره الحساس والمسيطر . وكل منها عائق رهيب بما فيه الكفاية وحده ، ولكل مشكلاته الاقتحامية الخاصة . ولكن اجتماعها مع بعضها البعض كان يضاعف صعوبة العملية كلها بمعدل الربع المركب ، لأن كلا منها كان يدعم ويؤكد فاعلية الآخر ، وبالتالي يزيد من خطره ومناعته ومن ثم من صعوبات اقتحامه .

بل قد نستطيع أن نتكلم عن ثلاثية أخرى ثانوية من الموانع : خط أحواض النابالم ، خط الأسلاك الشائكة ، خط حقول الألغام . والخطوط الثلاثة تتمحور بطبيعة الحال حول خط بارليف ، الذى هو العمود الفقرى فيها كما هو فى الثلاثية الكبرى . وفى النتيجة فلقد كانت العملية كلها أشبه بسباق الحواجز المركب ، إلا أن الحواجز جميعا متراصة متلاصقة دفعة واحدة . ولنفصل .

فأما القناة ، فترجع صعوبة عبورها لعدة أسباب . أولا لأنها مجرى ضيق بالقياس إلى كثير من الأنهار والعوائق المائية المائلة ، فامتدادها يتراوح بين ٢٢٠ ، ١٨٠ مترا فى بعض المواضع ، مما يسهل للعدو عملية تغطيتها بنيرانه فضلا عن مراصده . ثم هى ثانيا قناة عميقة نسبيا إذا قورنت بالأنهار العادية ، إذ تصل إلى ٢٠ مترا أحيانا والمتوسط ١٦ - ١٧ مترا ، كما ينخفض سطح الماء فيها عن الشاطئ نحو المترين ، مما يجعلها صعبة العبور للآليات والدبابات والسيارات المدرعة البرمائية ، بل وتستدعى طرزا خاصة منها وكذلك من الجسور والمعابر .

كذلك فإن القناة ، وهى مجرى صناعى بين بحرين وتجرى فى صحراء مكشوفة للعواصف الرملية والرياح القوية ، تمتاز سواء على السطح أو فى الأعماق بالتيارات المائية السريعة (١,٥ متر فى الثانية) ، المتغيرة التى تختلف اتجاهاتها ما بين الشمال والجنوب عدة مرات يوميا (أربعاء) ، والتى تتعامد على اتجاه موجات العبور ويمكن أن تعترضها . وهناك أيضا المد والجزر الذى يغير منسوب المياه خلال اليوم ، والذى يصل إلى أقصاه فى الجنوب عند السويس حيث يبلغ مداه ١,٥ متر . ويجب أخيرا أن نضيف كذلك شدة انحدار جوانب القناة ، المبطنة فضلا عن ذلك بالحجارة واللبش والتكسيات والستائر الأسمنتية والحديدية ، مما يجعل نزول المركبات البرمائية وصعودها عليها صعبا يستلزم اعدادا هندسيا مسبقا وشاقا .

أما الساتر الترابى فقد نظنه لأول وهلة عائقا ثانويا بل حتى بدائيا ، ولكنه فى الحقيقة عقبة من الدرجة الأولى ومثل مشكلة حقيقية جدا وتحديا أساسيا للتكنولوجيا والهندسة العسكرية فى أرقى صورها . فهذا الحائط ، الذى يمتد بطول القناة بكاملها ، أقامه العدو من مخلفات حفر القناة قديما وعمليات التوسيع حديثا والتي كانت تؤلف ساترا ترابيا يتراوح بين ٦ . ١٠ أمتار فى ارتفاعه ، ومنه فعلا استمد فكرة حائطه . (لاحظ أن هذه العمليات والمخلفات تتم على ضفة واحدة فقط من القناة ، هى الضفة الشرقية غير المأهولة أو المزروعة) . وهو حائط شديد العرض والاتساع يصل فى المتوسط إلى عشرات الأمتار . وفى قطاعه الجنوبى مثلا وصل عمقه إلى نحو ٢٠٠ متر ، الأمر الذى يجعل نقبه بالوسائل التقليدية بالغ الصعوبة . أما ارتفاعه فيصل إلى نحو ١٠ ، ١٥ ، ٢٠ مترا فى المتوسط ، بل وإلى أكثر من ذلك فى بعض المواضع ، يهوى منها إلى خط الماء بجبهة ساقطة شبه عمودية يصعب جدا ارتقاؤها فضلا عن تسلقها . انه أشبه فى مجموعه بكثيب مهيب من نوع «السيف» ، إلا أنه من مقياس اقليمى غير مألوف .

وقد كان هذا الساتر بارتفاعه الكبير برج مراقبة شاسعا أيضا ، يعطى فرصة بلا حدود لرصد الضفة الغربية وكشف تحركاتنا وقواتنا عليها ، وفى الوقت نفسه يخفى وراءه الجزء الأكبر من خط بارليف وتحركات العدو عليه . وفوق هذا كله كان الساتر يعطى العدو ميزة العمل من أرض مرتفعة بالمقياس إلى الضفة الغربية المنخفضة . من هنا كان من الضرورى للعبور فتح ثغرات فى الساتر بعرض عدة أمتار على الأقل ولعمق يقترب من منسوب مياه القناة حتى يمكن إقامة الجسور وعبور القوات والمعدات البرمائية . والمشكلة أن التجربة أثبتت استحالة فتح هذه الثغرات بالتدمير وقوة التفجير بالمدفعية لأن التراب كاتم يمتص وقع القذائف المنفجرة . كذلك لا بد أن نذكر أن المشكلة لم تكن ساتر العدو وحده ، فلقد تضاعفت بساتر مماثل أقمناه نحن أيضا فى سنوات ما قبل المعركة على ضفتنا الغربية ، تحسبا لأى هجوم غادر قد يقدم عليه العدو ، وإخفاء لتجهيزاتنا ومعداتنا وتحركات قواتنا عن استطلاع العدو ومخابراته ، وأخيرا رفعا لمستوى أرضنا على الضفة الغربية إلى مناسيب وهيئات عالية حاكمة وتوفير مصاطب دبابات مشرقة تفوق أرض العدو وتتفوق عليه .

غير أن الهندسة العسكرية المصرية وجدت حلا مبتكرا تماما استلهمته من تجربة

مدرسة السد العالى الهندسية - علاقة أخرى حميمة دائمة ومتصلة بين معركتى السد والقناة ، تمويلا وتأميما وبناء وتصميما ! هذا الحل يتمثل فى التجريف الهيدروليكي بقوة المياه شديدة الاندفاع تحت ضغط مرتفع . فبمضخات توربينية مائية جبارة كموتورات الطائرات ، أو مدافع المياه كما سميت ، تسلط على قطاع الساتر مياه القناة نفسها ، تتهدل آلاف الأمتار المكعبة من التراب الرملى وتتداعى حتى تسوى بالأرض . (قوة اندفاع الماء من خراطيم هذه المضخات تكفى للاطاحة بأثقل الدبابات !) وبذلك أيضا فإن القناة - كالأرض - تكون قد حاربت مع أبنائها ! ولا يبقى بعد ذلك إلا تهذيب جوانب القناة بالنسف والتسوية حتى يمكن تثبيت الكبارى والمعديات وعبور المركبات البرمائية (يلاحظ هنا أن العدو لم يقتنع بأن فتحات الساتر تمت بقوة المياه وحدها ، وهو يعتقد أننا استخدمنا معها مادة كيماوية مذابة أو مذيبة لم نعلن عنها) .

ولا يظن أحد أن هذه العملية كانت كشفا أو تطبيقا سهلا . فقد كان لابد من التوصل إلى طلعة مياه صغيرة الحجم تعمل بالوقود ، خفيفة الوزن فائقة الضخ ، يمكن حملها باليد وتحميلها على القوارب ويكفى أقل عدد منها لفتح ثغرة واحدة . وقد وجد أن هذا الحد الأدنى هو ٣ طلمبات ، واقتضى هذا عمل سنين . كذلك لا ينبغى أن نتصور فتح الثغرة بعد ذلك عملية روتينية هينة . فالطين اللزج الذى تطيح به خراطيم الماء الجبارة بكميات هائلة وسرعة مخيفة لا يحيل فقط وجوه الرجال إلى السواد ، ولا ينجرف إلى المجرى المائى فيلزم ازاحته على الفور كذلك فحسب ، ولكنه يبقى على أرضية الثغرة وقاعها وحلا لزجا زلقا بعمق قد يصل إلى المتر مستحيل عبور الدبابات والآليات عليه إلا بعد ازاحته بالجرافات ثم فرشاه بمواد جافة صلبة كالخشب أو الحجارة أو أكياس الرمل أو ألواح الصلب أو الشباك المعدنية أو غيرها بحسب طبيعة التربة .

أما عن ساترنا على الضفة الغربية فقد كان هو الآخر مشكلة لا تقل خطورة . فقد كان لابد من اعداد فتحات فيه كمنازل أو ساحات اسقاط للكبارى تتلقى ارساها وعبرها يتدفق العبور حين يبدأ . وأن يتم هذا تحت بصر العدو ، فمعناه أن نكشف له عن نوايانا واتجاهاتنا . ولهذا فقد حلت المشكلة بإعداد فتحات خداعية على طول القناة برمتها ، فتحة كل ربع كيلو متر ، بحيث استحال على العدو أن يعرف أو يحدد أين ومتى سنعبّر .

هذا عن الساتر الترابى على حدة . أما خط القوة المنيع ، خط بارليف ، الذى يشرف على المسرح كله أرضا وماء ويسيطر عليه من عل سيطرة كاملة ، فقصة أو قضية أخرى ، لأنه غير قابل للتدمير بإصابات القنابل المباشرة سواء بالمدفعية الثقيلة أو من الطائرات القاذفة ، ولهذا سنعود إليه بالتفصيل . ولكن علينا هنا أن نذكر على الأقل تلك السلسلة من أحواض النابالم والزيوت الحارقة والوقود التى رصع بها العدو ضلوع وأجناب الخط والساتر ، مخبأة تحت الأرض ومعتدة أنابيبها تحت سطح مياه القناة ، تنساب فيها لتندفع فوقها بحسب نظرية الأوانى المستطرقة ، لتشتعل لحظة العبور فتحيل الماء إلى نار والنار تخرج من الماء وتحول القناة إلى شريط أو شريحة من الجحيم تحرق كل ما حولها . وقد أثبتت التجربة عدم جدوى طريقة الإطفاء ، وتحتم قطع أو سد تلك الأنابيب الحديدية منها والمطاطية قبيل العبور مباشرة . وهذا ما تم بالفعل بنجاح تام ، بحيث أخرج هذا السلاح الحارق من المعركة وأحرقه ، تماما .

وقبل أن نغادر هذا المسرح بعقباته الطبيعية والصناعية ، لعل القارئ قد لاحظ مدى التغييرات التى أحدثها أعداده وتجهيزه فى اللاندسكيپ الطبيعى للمنطقة برمتها ، سواء على الضفة الشرقية أو الغربية . هناك على الضفة الشرقية ، كما رأينا ، كان خط بارليف وساتره الرملى بكل جرمهما وضخامتهما . وهناك خلفهما سلسلة متتابعة من الخطوط الدفاعية الثانوية تتعاقب بانتظام ويتباعد مخسوب ما بين القناة وخط المضائق الجبلية ، لكل واحد منها تلاله وسواتره الصناعية ومناطق تجمعات القوات ومنشأتها .. إلخ . وهناك بين الكل شبكة كبيرة من الطرق الرئيسية والفرعية ، الطولية والعرضية ، طولها نحو ٧٥٠ كم وعمقها نحو ٣٠ كم ، أنشأها العدو على امتداد تلك الشقة لتخدم تحركاته وقواته بسرعة على كل المحاور وخاصة من محور طولى إلى محور آخر .. إلخ . وبهذا لم يكن الأمر مجرد «خط» دفاعى أحادى يطل على القناة ، ولا حتى «نطاق» دفاعى يوازىها ، بل كانت المنطقة بكل عمقها من القناة إلى المضائق «منطقة» دفاعية كاملة بالمعنى العسكرى المعروف .

بالمثل على ضفتنا الغربية . ثمة كان ساترنا الترابى المناظر بكل ما يضرسه ويشرشر سطحه من عوالى مصاطب وأبراج ومواطى ثغرات وممرات وساحات اسقاط بالعشرات . ثمة كذلك شبكة الطرق والمنقعات الكثيفة بطول وعرض وعمق الجبهة ما بين القناة والوادي ، تؤلف فى مجموعها نحو ٢٠٠٠ كم ، شقتها الهندسة العسكرية خصيصا لخدمة تحركات القوات المسلحة ، وبعضها أقيمت على جانبيه الستائر اخفاء لتحركاتنا عليها ، وبعضها أقيمت عبره الكبارى والجسور .. إلخ . وهناك عدا هذا شبكة ترع الرى والصرف الحيوية بشرائينها ومحاورها الرئيسية وفروعها الثانوية ، تلك الشبكة التى كانت تمثل عقبة فى سبيل التحرك شرقا وغربا بصفة خاصة والتى استلزمت من ثم عبيدا من الكبارى فوقها ، وأكثر منها من المخاضات عبرها للربط بين شاطئها (ترعة الاسماعيلية والسويس خاصة) ، كما استلزمت حبس المياه عنها قبيل المعركة مباشرة تسهيلا للعبور . وتلك الشبكة نفسها كانت هدفا خاصا جدا لطيران العدو . قبل المعركة حاول شلها وسدها بالقنابل أو فتح ثغرات كبرى فيها بحيث تفرق الاراضى المنخفضة حولها بكل ما عليها من منشآت مدنية وعسكرية أو بحيث تتدفق مياه القناة الملحية إليها فتختلط المياه العذبة بالملحية حتى يحرم السكان والقوات من الماء ، كما حاول بالفعل فى منطقة رقبة الأوزة الضيقة النحيلة فى قطاع القنطرة - بورسعيد حيث تختنق أرض اللسان بما تحمله من شرايين طرق المواصلات وطرق الرى . أما أثناء المعركة فقد حاول العدو سد بعضها وحوله إلى كبارٍ ترابية أو حجرية يعبر عليها كما يقتل بها عطشا وغرقا ...

من هذا كله نصل بسهولة إلى أن الحرب ، قبل المعركة وأثناءها وبعدها ، قد خلقت وخلفت وراءها نوعا من اللاندسكيپ يختلف عن «اللاندسكيپ الطبيعى» بقدر ما يبتعد أيضا عن «اللاندسكيپ الحضارى» بمعناه العادى المدنى أو السكنى أو البشرى التقليدى . ذلك هو «اللاندسكيپ العسكرى» بالضرورة والامتياز ، -military land- scape, militaryscape, warscape كما يمكن أن نسميه . فصفاة الاقليم هنا بما أقيم عليها من خطوط دفاع وسواتر تراب هائلة وقلاع مشيدة ومنشآت ومصاطب وقواعد صواريخ ثابتة وأطباق الرادار العظيمة الأقطار والدشم والمطارات والمهاجع وأبراج المراقبة المشرفة وترسانات الأسلحة الضخمة ، وبما بث فيها من

حقول ألغام شاسعة ورشق عليها من غابات كثيفة من الأسلاك الشائكة ، ثم بما حفر فيها من آلاف الخنادق الملتوية والمخابئ والملاجئ وبشم وأوكار الدبابات وبطاريات المدفعية ، وكذلك بما أضيف إليها من شبكات طرق شريانية أو هامشية ، رئيسية وفرعية ، بل وبما فرض على شبكة مياهها سواء القنوات أو الترعرع أو المصارف من تعديلات أو تفريعات أو كبار وسدود أو حتى مخاضات ، نقول : بكل هذا أصبحت صفحة الاقليم مرصعة بالآلاف الملامح والمعالم والهيئات العسكرية التي قد تتقارب أحيانا وتتكاثر في تجمعات كالأسراب الحاشدة أو تتباعد هنا وهناك في كوكبات أو تنقطها في وحدات منعزلة ، ولكنها تؤلف في مجموعها أرخبيلًا هائلًا أشبه بنهر مجرة عسكري يتراعى بين البحرين المتوسط والأحمر بطول القناة وعلى جانبيها بعمق عشرات الكيلو مترات .

لقد أصبح وجه الأرض هناك يحمل بصمة أصابع الإنسان المحارب وخاتم الحرب وطابعها أكثر من أى شئ آخر ، وتحول اللاندسكيپ هنا إلى نوع من المعمار الحربي والهندسة العسكرية . لقد خلقت الحرب في هذه المنطقة الاستراتيجية نوعا من الإقليم الجغرافى الخاص ، المؤقت أيضا ربما ، هو «إقليم الحرب» ، وأصبح إقليم الحرب لاندسكيپ حرب أيضا ، أعاد تشكيل اللاندسكيپ الطبيعى وأعاد خلق تضاريسه الصفري بل وهيدرولوجيته ، أحيانا بصورة مقلوبة وأحيانا بصورة مدمرة .. إلخ ، بالاختصار ، لقد خلقت المعركة نوعا جديدا من الاقليم ، فبرزت جغرافية تشكيلية جديدة للمنطقة وتخلق شكل رابع من المادة ، شكل يتراوح ويتأرجح باستمرار ما بين البناء والهدم والتعمير والتدمير ، وهو فى النهاية إلى زوال أو تقلص حين يعود السلام .

الاستجابة

تلك كانت ثلاثية الموانع الطبيعية والهندسية ، الأرضية والمائية ، كما واجهت معركة التحرير ، وقد كان هناك - نظريا - طريقان للتعامل مع هذه العقبة الكؤود . إما تجاوزها أصلا وتخطيها كلية بهجوم شامل محمول جوا يحقق الاسقاط خلف خطوط العدو ، خلف خط بارليف يعنى . وهذا يحل مشكلة العبور المائى الصعبة ومشكلة السد الترايى الذى لا يستجيب للتفجير المدفعى ثم الخط نفسه الذى لا يتقتر بأى ضرب مباشر . ولكن هذا الطريق يتطلب أسطولا جويا من طائرات النقل والهايكوبتر

من مقياس مستحيل توفيره فضلا عن تصوره لمعركة بالحجم المتوقع ، بل ربما تقصر بونه امكانيات الدول الكبرى ، كذلك لم يكن من الممكن ضرب خط الاستحكامات كله بالطيران نظرا لأنه لا يبعد إلا ٢٠٠ متر فقط عن قواتنا نحن . لذلك لم يكن مفر من الطريق الآخر : العبور الأرضي لا الجوي ، الأفقى لا الرأسى، والاقتحام المباشر لا الالتفاف الخلفى ، أو قل الإنزال بدل الإبرار . وكان هذا يعنى ويستدعى ، إلى جانب الإعداد والحشد والتسليح بالمستوى والحجم المناسب بطبيعة الحال ، خطة عظمى تقوم على دعامين اساسيين هما شجاعة التخطيط العلمى وقدرة الهندسة العسكرية .

بالأولى نقصد المخيلة الجريئة المتحدية التى لا تتردد فى المخاطرة بالاقتحام وابتكار الحلول دون تقليدية وبلا مخاوف ، لا تقامر ولكن لا تخشى أن تغامر ، وفى الوقت نفسه تقدم تصورا كاملا متكاملا للخطة بجميع مراحلها وتفصيلها . والواقع أن المعركة ، كما سنرى ، أثبتت أن الخطة لم يكن ينقصها لا المخيلة ولا الشجاعة ولا التجديد ، بل جاءت خطة ثورية ، طموحا ، ومخاطرة إلى حد غير عادى . وقد كان هذا سر نجاحها ، مثلما هو سر دهشة العسكريين فى العالم حيالها وتلفهم على دراستها .

أما القدرة الهندسية فقد كانت شرطا جوهريا وضمانا شرطيا لا بد منه بحكم طبيعة العملية فى كل مراحلها وعقباتها . بل يمكن القول بلا مبالغة ان العبور كله ، بجميع حلقاته وإلى أن يكتمل لقواتنا موطن قدم وثيق على البر السينائى ، انما هو عملية هندسة عسكرية صرف . وبالفعل ، فلقد جاء عبور المعركة فى التطبيق قطعة من العلم والتكنولوجيا العسكرية الممتازة ، محورها ومهندسها الأساسى ولا نقول الوحيد هو سلاح المهندسين ، الذى يمكن أن يعد فى تلك المرحلة بمثابة سلاح رابع للقوات المسلحة جنبا إلى جنب مع القوات البرية والبحرية والجوية (خلال ساعتين فقط من الانطلاق - سنرى - كان حجم قوة المهندسين على الضفة الشرقية وفوق القناة نحو ١٥ ألف رجل ، وفى الموجة الثانية عبرت ٨٠ وحدة هندسية بقواربها الخشبية محملة بكل تجهيزاتها) .

هذا إذن عن الشرطين العامين أو الخارجيين للخطة . غير أن هناك أيضا شرطين داخليين يأتیان بعدهما . فلما كان العبور هو بداية كل شئ ، بداية معركة التحرير

جميعا ، ومن ثم كان النقطة الحرجة فى الهجوم ومفتاح النصر أو الهزيمة ، أى فاتحة النصر أو خاتمة الهزيمة ، كان لابد أن يتم فى أقصر وقت ممكن قبل أن يتنبه العدو ويفيق ، وبأقصى حد من النجاح قبل أن يدفع بقواته من العمق . كان المطلوب أساسا هو شغل العدو وشله إلى أقصى حد ممكن طوال هذه الفترة الحرجة . ومعنى ذلك بعبارة أخرى اخراج كل أسلحته فى كل أنساقه وخطوطه الدفاعية - اخراجه كله مثاليا ان أمكن - من المعركة مؤقتا بطريقة أو بأخرى ريثما تتم العملية . فالعملية إذن سباق مع الزمن أساسا ، حسابها يتم بالدقائق وتتم فى جملتها فى ساعات . .

من ثم كان محور النجاح وأساس التخطيط هو ضبط توقيت الضربات والتحركات من جانب جميع أسلحتنا وقواتنا فى ترتيب مسلسل بحيث يتزامن بعضها أو يتعاقب بعضها فى جدول زمنى محسوب ، يمهّد لبعضها البعض لى يتم فى ظلها وبمساعدها وتحت غطائها ، ثم يسلم هو بدوره المهمة لغيره، وهكذا . ومن هنا سنلاحظ تزامن عدة عمليات معينة فى ثنائيات كالتوائم «السيامية» المتصلة أبرزها ثلاث : الطيران مع المدفعية : المشاه مع المهندسين : المدرعات مع المشاه الميكانيكية .

فى لحظة واحدة ، سنرى ، بدأت معا عمليتان تتعلقان بعمق العدو هما الضربة الجوية الأولى وانطلاقة عملية المدافع الثقيلة . وفى اللحظة نفسها بدأت عملية عبور الزوارق المطاط والعربات البرمائية المدرعة تحمل المهندسين لإقامة الكبارى والمعابر والمشاة لتأمين رعوسها على الضفة الشرقية . وبعد أن تمت هذه العملية عبرت عليها كل من المدرعات والأسلحة الثقيلة فى جانب ومعها المشاة الميكانيكية والمدفعية فى الجانب الآخر . وسنرى بالفعل كيف أن هذه العمليات الثنائية تؤلف حلقات مترابطة فى سلسلة واحدة تمثل بدورها دائرة مغلقة أحكمت حول العدو .

كل هذا التخطيط الكفء وهذه التكنولوجيا المقتدرة وتلك الحسابات الدقيقة لم تكن ، مع ذلك ، لتكفى . كان لابد لها جميعا قبل التطبيق من تدريب وتجريب يختبرها عمليا ويكشف ثغراتها ويصحح مساراتها ... إلخ . وهنا ثبت أن سنوات ما قبل المعركة ، تلك السنوات القاسية والصبور ، لم تكن سدى . ففى هذه الفترة أتيح لقواتنا

وقياداتها المجال لنوعين أساسيين من التدريب والتجريب : تدريب نموذجي معلمي ،
وتدريب ميداني واقعي .

فبالخطيط الثاقب الواعي والإرادة المصيرة ، جرى التدريب الشاق المثابر
العنيد - قيل ٢٠٠ تجربة ! - على «ماكيت» اقليمي من الحجم الطبيعي وفي لاندسكيب
طبيعي اختير بعناية وعن عمد ليكون أقرب ما يمكن شيها ببيئة القناة ومسرح
القتال سواء تضاريس أرض أو عمق مجرى أو سرعة تيارات . وقد كانت منطقة على
قطاع من ترعة الاسماعيلية ، حيث أقيم سد ترابي مشابه تماما لسد العدو ، هي
هذا المسرح التدريبي والتجربي على العبور والاختراق . كذلك فلقد أجريت عملية
التدريب أحيانا على قناة السويس نفسها في قطاع يزبوج فيه مجراها وينشعب
شعبتين - قطاع البلاح ، حيث تتوسط المجرى جزيرة البلاح - الغربي منهما كانت
تسيطر عليه قواتنا سيطرة كاملة وفي مأمن تام من أنظار العدو وأخطاره .

ولا يظن أحد أن هذه التجارب والتدريبات ، حتى كتجارب وتدريبات ، كانت بالمهمة
السهلة . ففضلا عن صعوبات توفير المسرح الملائم بالمواصفات المحددة ، كانت هناك
اعتبارات أماكن استخدام النخيرة الحية ، وبإحداث خسائر في الأرواح والممتلكات
والمزروعات بل والأرض الزراعية نفسها ، كذلك ضرورة إقامة ثم هدم الساتر الترابي
الصناعي عدة مرات في كل تجربة واحدة ، ثم تكريك وتطهير المجرى المائي من رديمها
بعد تلك المرات نفسها واعادته إلى مكانه على الأرض من جديد ، كل أولئك مع ما
يعنى من مضاعفة أحجام مكعبات الحفر والردم والتكويم والتكريك عدة أضعاف الحجم
الكلي للعملية الحقيقية الواحدة نفسها في ميدان القتال الفعلي . وكما يذكر كتاب
حرب رمضان فإن تدريب وحدة هندسية واحدة (من ٨٠ وحدة مطلوبة) كان
يستدعى تحريك حجم من الأتربة والوحل يعادل ١٢ مرة مثل ما ستقوم بإزاحته
فعلا أثناء المعركة ، في حين ترتفع هذه النسبة إلى ١٥ ضعفا بالنسبة لمجمل العملية
كلها تجريبيا وتدريبيا .

بهذا كله ويمثله ويغيره كانت العملية قد أصبحت بمثابة «الأمر اليومي» أو حتى
«الخبز اليومي» بالنسبة للمهاجم المصري المقتحم ، كل المعدات والأسلحة جاهزة
«مشونة» في أماكنها بالضبط لساعة الصفر ، وكل فرد يعرف دوره ومكانه

ولحظته المحددة ، مما حقق ساعة التطبيق نتائج قياسية مذهلة من الكفاءة والاعتدال والنجاح فاقت أعرض أحلام التخطيط نفسه وأشد توقعاته تفاؤلا .

وعدا هذا التدريب النموذجي المعملى أو العملى ، كان هناك أيضا التدريب الميدانى الواقعى ، ونعنى به مواجهة العدو ومناجزته بانتظام والالتحام به دوريا عبر القناة وعلى أرض سيناء منذ ما بعد يونيو وحتى وقف إطلاق النار فى أغسطس ١٩٧٠ . فالواقع أن فترة ما بين الحربين (يونيو ٦٧ - أكتوبر ٧٣) ، والتي استمرت نحو ست سنوات ونصف السنة ، كانت فترة كمون واعداد ثم اختتمار فانطلاق نحو القفزة الكبرى . ونحن نستطيع أن نقدر هذه الفترة حق قدرها فى سياق الصراع العام إذا نحن حللناها إلى مراحلها التطورية . فهناك أربع مراحل أساسية : الصمود فالردع فالاستنزاف فوقف النار .

فالصمود (يونيو ٦٧ - أغسطس ٦٨ ، أو سنة وشهران) هى أساسا مرحلة «الدفاع الحذر» ، تنقطها معارك رأس العش والمدمرة إيلات وبعض معارك جوية متحدية . والردع (سبتمبر ٦٨ - فبراير ٦٩ ، أو ستة شهور) هى أساسا مرحلة «الدفاع النشط» ، تلخصها معارك المدفعية التى اتصل فيها التراشق بالنيران عبر القناة ، وكان من نتائجها بناء العدو لخط بارليف الأول .

أما مرحلة الاستنزاف (مارس ٦٩ - أغسطس ٧٠ ، أو سنة ونصف السنة) فتعد أساسا مرحلة «الهجوم الحذر» ، ففيها تم تدمير خط بارليف الأول بالمدفعية المكثفة المستمرة طوال شهرين ، مارس وابريل ١٩٦٩ ، ثم توالى عبور الكوماندوز ليلا ثم ليلا ونهارا بقوات متزايدة ثم بلا انقطاع ، كما تكررت غارات الضفادع البشرية على موانئ العدو تحرقها وتغرق سفنه فيها ، هذا فضلا عن الغارات والمعارك الجوية المتصاعدة ، وذلك كله فى وجه غارات العدو المضادة على الجزر المنعزلة والعمق المدنى إلى جانب جبهة القناة .

أما المرحلة الرابعة والأخيرة فهى مرحلة وقف إطلاق النار (أغسطس ٧٠ - أكتوبر ٧٣ ، أو ثلاث سنوات وشهران) ، وهى أساسا فترة اللاحرب واللاسلم .

من هذا التصنيف نرى أن فترة ما بين الحربين تكاد أولا تتنصف ما بين مراحل الدفاع بأشكاله ودرجاته المختلفة وما بين مرحلة اللاحرب واللاسلم (ثلاث سنوات

وشهران لكل منهما) . والمراحل الدفاعية الأولى تكاد بدورها تتنصف بين الصمود والردع السلبي في جانب وبين الاستنزاف الإيجابي في الجانب الآخر (حوالى سنة ونصف السنة لكل منهما) . وإذا كان العدو قد تفرغ في مرحلة وقف النار لبناء خط بارليف الثانى وتدعيم وجوده في سيناء ، فقد تفرغت القوات المصرية للتدريب الداخلى النهائى والحاسم وإعادة بنائها وتطويرها للمعركة الكبرى . وهكذا ترسم المراحل مجتمعة عملية متنامية متصاعدة تتعاقب وتتكامل في زحف صاعد نظيم من البناء العسكرى والاختبار الحربى وكانت كلها بخبراتها وتجاربها ونتائجها مدرسة عملية أخرى بالفعل وتدريبات جزئية مجزأة على معركة التحرير الكبرى في أكتوبر . بل قد يمكننا أن نقول عنها بالنسبة إلى المعركة نفسها انها إلى حد أو آخر «المعركة الظل» ، حيث التدريبات الخلفية على النموذج المجسم هي بدورها «شبه الظل» .

إلى هذا المدى يرتبط اعداد ما قبل المعركة بالمعركة نفسها ، قل ارتباط المقدمات بالحدث أو الطلائع بالوقائع . ونستطيع إذن أن نقرر باطمئنان أن المعركة لم تكن طفرة فجائية ، أكثر مما كان نجاحها مصادفة سعيدة أو اتفاقا . فالصحيح أنها وليدة تطور طويل وزحف بطى وانبثاق له جذور عميقة ، كما أنها الابنة الشرعية لتخطيط وتدريب وتنفيذ كل منهم ناجح ومحكم إلى أقصى حد .

ويمكن أن نضيف كذلك ولذلك أن المعركة أفادت بلاشك من تجربة الهزيمة الأليمة التى سبقتها في يونيو ، من وقائعها ودروسها ومن أخطائها وخطواتها ، كما من تصريحات العدو نفسه عنها بعد انتهائها . ومن المحقق أن ما أعلنه قادة العدو وكتابه - على سبيل الغرور والتباهى - من تفاصيل وجزئيات وملابسات خطة يونيو كان مادة مفيدة وكاشفة للمخطط المصرى لأكتوبر . ولا أدل على هذا من أن العدو نفسه راح بعد المعركة يندم ويلوم نفسه على ذلك ، من بين أشياء أخرى يأسف ويأسى عليها الآن كثيرا ..

الفصل الثالث

استراتيجية المعركة

الانطلاقة

فى ساعة الصفر بدأت الضربة الجوية الكبرى : ٢٤٠ طائرة من القاذفات المقاتلة انطلقت إلى أعماق سيناء لتدك مطارات العدو وقواعده الجوية وطائراته الجاثمة على الأرض بها . وكانت أبرز أهداف هذه الغارة الضاربة هى مطارات المليز وتمادة والسر والجفجافة شرق الحائط الجبلى ، ثم القاعدة الجوية فى العريش فى أقصى شمال شبه الجزيرة ومطار رأس نصرانى فى أقصى جنوبها . هذا فضلا عن مراكز الرادار والتشويش فى أم خشيب وأم مرجم والطاسة وغيرها على المحور الأوسط ، مما شل الجهاز العصبى للعدو الجوى واضطره إلى نقل قيادته الجوية إلى العريش .

ولقد تمت هذه الضربة كلها - كشرط أساسى ومبدئى - فى لحظة واحدة تماما ، بمعنى أن كل طائرتنا كانت فوق مواقعها المستهدفة فى تلك اللحظة الواحدة الموحدة، وذلك حرمانا للعدو من فرصة الانذار وتحقيقا لعنصر المفاجأة الكاملة . وبهذا أخرج طيران العدو من المعركة مؤقتا لساعات ثمينة . وبهذا أيضاً كانت تلك الضربة الساحقة قطعة من الحرب الخاطفة لاشك Blitzkrieg، ردا عادلا ومشروعاً على ضربة العدو الغادرة التى قام بها صباح ٥ يونيو ، مثلما هى مكافئ كفاء وند لها . وفى اللحظة نفسها التى انقضت فيها طائرتنا على أهدافها فى أعماق العدو، انطلقت المدفعية الثقيلة البعيدة المدى - ٢٠٠٠ مدفع كاملة ، مضافا إليها قوة صواريخ أرض - أرض كاملة ، تقصف فى قصفات متصلة لا تنقطع نيرانها لساعة كاملة مواقع العدو المختلفة فى الشريط الغربى من سيناء : نقط خط بارليف الحصينة ، بطاريات المدفعية ، تجمعات الاحتياطى الأمامية والخلفية ، التكتيكية والتعبوية . وهكذا كان للمدفعية بعشرات آلاف الطلقات دور أساسى فى التمهيد النيرانى الجبار للعبور ، وفى تغطيته وتأمين إقامة رعوس الجسور على الضفة .

فمن ناحية قامت بتدمير واسكات مدافع ورشاشات العدو التي تطل من فتحات ومزاغل خط بارليف ، وألزمت قواته بذلك البقاء داخل نقط الخط تاركة الرد على مدفعيتنا لمدفعيته فى العمق ، مما أدى إلى ترك ساحة الشاطئ الشرقى مفتوحة للقوات المصرية العابرة . (يلاحظ أن المدفعية الاسرائيلية ضعيفة نسبيا بصورة تقليدية نظرا لتركيز العدو بشدة على سلاح طيرانه .) ومن ناحية أخرى فإنها كانت السلاح الأساسى فى التصدى لدبابات ومدروعات العدو فى المرحلة التى لم يكن لنا فيها على الضفة الشرقية إلا قوات المشاة قبل أن تنتقل إليها المدرعات والأسلحة الثقيلة . ومن ناحية ثالثة فإنها شغلت مدفعية العدو فى عملية سبق مثيلها دون عبور غزو حقيقى ، وبذلك أبعدت أنظاره عن حقيقة الغزو وشتت انتباهه عن عملية العبور إلى حين . وأخيرا فإنها هى المدفعية التى تكفلت بتدمير احتياطاته التكتيكية والتعبوية التى كانت معدة للتعامل مع قواتنا فى حالة أي عبور كامل ، وبذلك حدث من فرص وامكانيات المقاومة فى لحظات النزول الأولى على الضفة الشرقية . وبهذا كله نجحت المدفعية فى «اقتطاع» مقدمة الجبهة مؤقتا من دائرة دفاعات العدو لتنفرد قولتنا بالمسرح حرا خلال ساعات الحسم الثمينة ، تماما مثلما نجحت الضربة الجوية فى تعطيل دفاعاته فى العمق فأصيب بالشلل المؤقت .

تحت هذا القوس النارى المحذب الهائل ، وفى حمايته الوثيقة ، وفى اللحظة نفسها التى انطلق فيها ، بدأت أولى مراحل التحرك الأرضى، وهذه المرحلة الأولى كان قوامها المهندسين والمشاة . ففى صمت تام ، ومن مواقعها المحددة والمنتخبة بدقة ، انزلق إلى الماء فى هدوء أسطول من زوارق المطاط ، ١٠٠٠ قارب ، صغيرة كما هى خفيفة ، وكذلك من المركبات البرمائية جنوب البحيرات المرة وشمال بحيرة التمساح ، تحمل عدة آلاف بعضهم من المهندسين لك الكبارى والمعابر ولفتح ثغرات المرور فى السد الترابى ولإبطال مفعول أنابيب النابالم ، والبعض من المشاة والصاعقة الكوماندوز لتأمين رعوس تلك الجسور والتعامل المباشر مع طلائع العدو وصد وتصيد دباباته وبث الألغام فى مصاطبها لمنعها من الحركة والتدخل .

ولقد كانت عملية مد الجسور والمعابر عملية حيوية بالغة الدقة والحرص والتعقيد ، إذ لا بد لها أن تتم بسرعة وكفاءة حتى تحت نيران المعركة الكثيفة . فبينما

كانت الزوارق تعبر بأقصى سرعتها إلى المواضع المحددة لإقامة رعوس الكبارى على الضفة الشرقية ، كانت مدفعيتنا تركز نيرانها على خطين طوليين فى تلك المواضع ، تنقطهما نقطة نقطة تقريبا بقذائفها الثقيلة خلخلة لأجناب السد الترابى وتمزيقا لشبكة أسلاكه الشائكة وتفجيرا لحقول ألغامها .

وتلك الخطوة البارعة كانت بدورها تمهيدا لعمل مضخات المياه الجبارة أو مدافع الماء التى سلطت عليها فبدأت تنهار رمالها وأتربتها تحت قوة تعريتها حتى تحولت إلى أخاديد وفجوات مفتوحة في عرض حائط الساتر . وهنا ينبغى أن نلاحظ أنه بينما ركزت المدفعية الثقيلة نيرانها وقصفاتها على قطاعات المحاور الاستراتيجية الثلاثة بصفة خاصة ، ركزت مدافع الماء عملها على القطاعات الخالية الفاصلة بين النقاط القوية من خط بارليف .

هذا ولم تكن عملية فتح الثغرات فى الساتر بالسهلة ، خاصة فى القطاع الجنوبى من القناة حيث الأرض مخرسة مرتفعة وطبيعة تكوينات الساتر الترابى طفلية وصلصالية لا تساعد كثيرا على عمليات التجريف وإنما تتحول تحت الماء إلى كتلة طينية لزجة متماسكة صماء ، زلقة للمشاة وللآليات والمركبات . كذلك كان تراب الساتر يتساقط إلى القناة فيطميها ، فيعوق ارساء الجسور ، فكان لابد من ازالة الاطماء فورا وبسرعة ، وكان لابد كذلك من تسليط المضخات على أعالي الساتر ثم على أسافله منعا للإرساب . ولقد كان هذا هو السبب فى تأخر عملية مد الجسور والمعابر فى هذا القطاع بعض الوقت .

بيد أن العملية فى جملتها تمت بنجاح عظيم . وقد تم فيها شق ٨٥ ثغرة فى الساتر الترابى أزيل فيها من مكعبات الحفر فى ساعة إلى بعض ساعات ما كان يحتاج إلى عمل نصف مليون رجل/ ساعة بالطريقة التقليدية ، كذلك تمت إقامة ١٠ أو ١١ من الكبارى العائمة الثقيلة Pontoon bridges ، ١٠ أخرى للمشاة ، ونحو ٥٠ معدية ، وذلك كله فى بضع أو عدة ساعات . وهذه هى الشبكة العابرة التى ستنقل الجسم الأساسى للقوة الضاربة والتى ستصبح الشريان الحامل لتدفق الهجوم .

هذا عن دور الوحدات الهندسية . أما عن دور المشاة ، فقد كان ضروريا لتأمين رعوس الكبارى على الضفة . وكانت هذه المهمة بالغة الأهمية والحرص لأن معناها

أن على المشاة أن يتصدوا ، وحدهم وإلى أن يتم انشاء الجسور ، لقوات العدو المدرعة ومدفعيته الثقيلة . ولهذا فإن الساعات القليلة التي استغرقتها مد الجسور ثم تدفق أسلحتنا الثقيلة من المدرعات والمدفعية ، والتي تقدر فى مجموعها بما يتراوح بين ١٢ ، ٢٤ ساعة ، كانت فترة فائقة الخطر وبمثابة عنق الزجاجة فى العملية كلها . ولكنها بنجاح فائق ، بل ومثير ، تمت . فمثلا حتى فى القطاع الجنوبى الذى تعطلت فيه اقامة الجسور بعض الوقت كما رأينا لم تصل الأسلحة الثقيلة إلا بعد يومين أو ثلاثة ، ظلت فيها المشاة وحدها فى الميدان ولكنها تسيدته بالدرجة نفسها التى حققتها فى بقية قطاعات الجبهة .

والسؤال الذى يفرض نفسه هنا على التو هو : كيف ، كيف حدث هذا ، ولماذا؟ والرد مباشر كما هو بسيط : فلقد سلح الرجال ، الذين تخففوا إلى أقصى حد ممكن من كل ما ليس للقتال بصفة مباشرة سواء من المعدات أو التموين ، سلحوا بصواريخ الكتف الخفيفة المضادة للدبابات والطائرات ، ومدوا بعربات جر يدوية صغيرة مبتكرة يحملونها الأسلحة الأثقل ويعتلون بها الساتر الترابى ، كما زودوا بسلام خشبية وسلام من الحبال يتسلقون بها الساتر . وهكذا ، بالسلام المتحركة والحبال ، والأظافر أيضا ، اقتحم المشاة والصاعقة وقناصة الدبابات الساتر وانطلقوا للتعامل مع العدو .

وإذا عدنا للنظر قليلا إلى عملية العبور فى مجملها ، فسنجد عدة حقائق لافتة لها مغزاها . فهى أولا قد تمت على طول امتداد القناة من البحر إلى الخليج ، ١٧٠ - ١٨٠ كم، أو نحو ١٠٠ ميل . وبهذا فإن جبهة الهجوم المصرية شملت القناة برمتها، رغم أن جبهة المواجهة المباشرة تدور حول ١٠٠ كم منها فقط، وذلك لوجود قطاعات ذات طبيعة جغرافية خاصة تخرجها من المواجهة. وأهم هذه القطاعات هى سهل الطينة الهش على الضفة الشرقية ازاء بحيرة المنزلة ، ثم قطاع بحيرة التمساح والبحيرات المرة شديدة الاتساع بحيث لا تصلح لعبور قوات كبيرة. ولكن من الواضح أن الخطة المصرية اختارت عمدا وعن وعى أن يغطى الهجوم جبهة القناة بكامل أبعادها بين البحرين. والسبب أن هذا الانتشار يوزع دفاع العدو ويشتت هجومه المضاد وخاصة منه الجوى ، كما يربك العدو فى تحديد اتجاه مجهودنا الرئيسى ويعطل بالتالى رد فعله ازاءه.

كذلك يلاحظ أن العدد الذى أقيم من الجسور والمعابر كان أقل من المطلوب فعلا للعبور. ولكنه كان كافيا لإرباك العدو وتشتيته وخداعه، ولأن يكفل احتياطيا وبدائل تحسبا لأية اصابة قد تحدث، ولأن يفيد من قطاعات القناة الضحلة أو الضيقة، وأخيرا لأن يبتعد بصورة مأمونة عن مواضع نقط العدو القوية على طول خط بارليف.

وبالفعل، فلقد تم فيما بعد، حين مرت الفترة الحرجة، اختزال هذا العدد إلى ٣ فقط ضمت فيها الجسور إلى بعضها البعض فى المواقع الاستراتيجية الأساسية. ففى بداية العملية كان هناك ٣ كبار على القطاع الجنوبي بين خليج السويس والبحيرات المرة، ٣ أخرى بين البحيرات المرة وبحيرة التمساح، ثم ٤ فى القطاع الشمالى ما بين بحيرة التمساح والقنطرة، اثنان منها جنوب جزيرة البلاح واثنان شمالها. وحين ضمت هذه الجسور والمعابر تركزت أمام محاور سيناء الاستراتيجية الثلاثة ، أى فى قطاعات السويس ، الإسماعيلية ، القنطرة.

المبارزة

وبدئى جدا أن هذه الجسور والمعابر، الحبل السرى وخط الحياة بين جانبي القوات الزاحفة، كانت الهدف الرئيسى الذى ركز عليه العدو نيرانه، وخاصة من الجو، بصورة محمومة. وفى وجه هذا الخطر لجأت الخطة إلى تكتيكات ديناميكية أفشلت كل محاولاته. فمن ناحية دأبت القوات المصرية على تحريك مواقع الكبارى بمرونة فائقة وسرعة من مكان إلى آخر. ومن ناحية أخرى أطلقت ستارة كثيفة من الدخان تحجب الرؤية وتمنع إصابة الأهداف ، ومن ناحية ثالثة أقامت بعض الجسور الخداعية ودفعت عليها بقوات ميكية ركز عليها العدو فبددت جهوده وشغلته عن الجسور الحقيقية. وهكذا، وهكذا. وفى النتيجة فلقد فشل العدو فى تدمير شئ من الكبارى أو المعابر ولم ينل منها بالكاد، على العكس تماما من دعايته الداوية – والكاذبة – فى هذا الصدد. وفى الحالات القليلة التى حدثت بها اصابات كان اصلاحها يتم فى دقائق ويستمر العبور بلا توقف. ولو أن من الجدير بالذكر، كما يقول كتاب حرب رمضان ، «أن معظم الكبارى أصيبت وأعيد اصلاحها أكثر من خمس مرات..» (فى ٧ أكتوبر أعلنت إسرائيل أنها دمرت «ربما كل» الجسور التى أقامها المصريون، وأن المعارك تدور «على حافة المياه»، وأنها ستستعيد السيطرة على الضفة الشرقية خلال ٢٤ أو ٤٨ ساعة. وفى ٩ أكتوبر أعلنت أنها «تخلت»

عن خط بارليف ، وأن الحرب ستكون طويلة وصعبة جدا ، وأن الخسائر الاسرائيلية كبيرة!)

فبعد ساعات من بدء العبور، رد العدو بالهجوم الجوى الشامل. وخلال الليل تحولت السماء إلى نهار بفعل المشاعل الجوية، وبلغ عدد الطائرات المقيمة أكثر من ٢٥٠ طائرة، أى أكثر من نصف سلاح العدو. حتى إذا كان الصباح ، حاول العدو أن يعود إلى أسلوبه فى يونيو ١٩٦٧ بضرية جوية خاطفة ومكثفة على ارتفاع منخفض جدا. ولكن طائراته فوجئت بصواريخنا القصيرة المدى من طراز سام ٧ إلى جانب المدفعية والرشاشات تتصيداها عن قرب أو ترغمها على الارتفاع فورا، فتتسلمها صواريخنا البعيدة المدى من طراز سام ٢ ، ٢ ولكن بالأخص ٦ فتتساقط قنابلها بعيدا عن أهدافها أو تتساقط هي نفسها محطمة أو محترقة.

هكذا نرى أن ملحمة العبور، رغم أنها بدأت مبارزة أمفيبية بين الضفتين تحت ستار هائل من نيران المدفعية المتبادلة بين الطرفين، إلا أنها تحولت فورا إلى مباراة بين الأرض والسماء كذلك . أى أن معركة العبور عملية أمفيبية ابتداء ولكنها معركة جوية أساساً ، وتجاحها كان رهنا بغطائنا الجوى ضد انقراض الطيران العدو . وهكذا بالفعل كان . فمن ناحية كان السلاح الجوى هو وسيلة العدو الأساسية لمحاولة اجهاض العملية: مئات الطائرات وآلاف الطلعات. ومن الناحية الأخرى تصدى له الطيران المصرى بقوة مكافئة، ولكن أولا وقبل كل شىء بدفاعه الجوى المتفوق ممثلا فى شبكة قواعد الصواريخ الثابتة والمتحركة الموزعة على طول الضفة الغربية. وتعد الشبكة الأولى ، التى وصفت بأنها غابة هائلة كثيفة من الصلب، أقوى شبكة دفاع جوى فى العالم بالنسبة إلى مساحتها، وقد كانت مقتلا حقيقيا للطيران الإسرائيلى المهاجم. أما الثانية فقد أثبتت نفسها مفاجأة المعركة الجديدة ، وكانت مصيدة أخرى قاتلة للعدو الجوى. وكما قال أحد طيارى الفانتوم الاسرائيليين «ان قوة النيران العربية المضادة للطائرات عبر القناة أعظم كثيرا مما كانت عليه خلال حرب الاستنزاف عامى ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ . وأن المصريين قد صنعوا بقذائفهم المضادة للطائرات وبصواريخهم فوق مواقعهم الجديدة غلالات من نار كثيفة يصعب اختراقها».

وها هنا نلاحظ حقيقة غير عادية وعلى قدر غير عادى من الأهمية والمغزى. لقد تمت عملية العبور بلا غطاء جوى بالمعنى التقليدى، بمعنى مظلة من السلاح الجوى تحمى

القوات المتقدمة ضد طيران العدو. وبدلاً من ذلك الغطاء الهجومي، كان الغطاء هو الدفاع الجوي، أى شبكة الصواريخ المضادة للطائرات، الثابت منها والمتحرك، المحمول ميكانيكياً والمحمول بشرياً. وكانت هذه طفرة أبعد ما تكون عن الكلاسيكية، وتعد أول تجربة عسكرية فى تاريخ الحرب الحديثة تتم فيها المواجهة بين سلاح طيران معاد وبين نظام دفاع جوى بحت على أرض مكشوفة. وفى ظل هذا الدفاع كان المهندسون والمشاة والمدفعية المصرية جميعاً يعملون ويتحركون فى وقاية نادرة. ومن المحقق كما قرر القادة المصريون أن عملية العبور ما كانت لتتجح لولا هذه المظلة الواقية. وفضلاً عن هذا فإنها حررت سلاحنا الجوى من أعباء تغطية العملية لينطلق إلى ضرب أهداف العدو فى العمق والتفرغ للمعارك الجوية معه.

هكذا اذن جرى حوار هائل بين ستارتين لا ترتفعان من النيران، أحدهما نازلة من السماء والآخرى صاعدة من الأرض، بهما تحول حيز الفضاء فوق مسرح العمليات إلى شئ أشبه بكهف ماموث من كهوف ألسنة الارسابات الجيرية المعروفة : ألسنة المعلقات النازلة الاستالاكتيت stalactite ، وألسنة المرسلات الصاعدة الاستالاجميت stalagmite – إلا أنها من نار حية ومميّنة بدل الجير الميت ..

ولقد انتصرت الستارة الصاعدة على الستارة النازلة، وألسنة الأرض على ألسنة السماء. وبدلاً من أن يفرق طيران العدو عملية العبور فى القناة كما كان يأمل وكما ظل طويلاً يتوعد، تساقطت طائراته حولها «كالفراشات المحترقة» كما عبر بعض المراقبين، وبدرجة رهيبة ومفرزة لم يسبق لها مثيل قدرها البعض بثلاث طائرات من كل خمس. أما ما لم يسقط من طائرات العدو فكان يلقي بقنابله بعيداً عن أهدافها لينجو بنفسه إلى أن أضطر العدو فى النهاية إلى الكف تماماً عن محاولته ، كما اعترف دايان ، وأصدرت قيادتهم قراراً بعدم اقتراب طائراتهم من القناة لمسافة ١٥ كم شرقها على الأقل .

ومن الناحية الأخرى فلقد فشلت المدرعات كذلك فيما بعد فيما فشلت فيه الطائرات من قبل، إذ عجزت تماماً عن إيقاف العبور وبناء الجسور. ومرة أخرى يعترف دايان بذلك، فيقول «لقد كانت لى نظرية هى أن إقامة الجسور سوف تستغرق منهم طول الليل، وأنا سوف نستطيع منع ذلك بمدرعاتنا. ولكن تبين أن هذه ليست مسألة سهلة، وقد كلفنا

جهدنا لارسال الدبابات إلى القناة غالبا جدا. فقد أحدثت الأسلحة المضادة للدبابات التي استخدمها المصريون خسائر فادحة في المدرعات الإسرائيلية. وكانت هذه نقطة خطأ أساسية من هيئة الأركان، فنحن لم نتوقع ذلك.»

ومهما يكن، فرغم أنه كان من المحتم ألا نعبر نحن القناة إلا على جسر من الدماء حرفيا، فقد جاءت خسائرنا طفيفة نسبيا بدرجة غير متوقعة بل غير معقولة. فالقواعد العسكرية السائدة والمقررة تقدر لعبور الموانع المائية الخطيرة نسبة باهظة بل ومخيفة من الخسائر تصل في أدناها إلى ٢٠٪ وترتفع في بعض التقديرات إلى ٦٠ - ٧٠٪ أحيانا من قوة الهجوم. وقد قدرت حسابات الدوائر العسكرية الأمريكية ثلاثة إلى أربعة أسابيع لعبور القناة وحدها. وحتى التقديرات العالمية المحايدة لم تكن أكثر تشجيعا، فقد كانت تتراوح بين ٢٥، ٣٠ ألف قتيل! بل لقد اتضح أن من القادة العسكريين المصريين المسؤولين في وقت ما من اعتبر العبور «عملية انتحارية»، في حين ذكر الزعيم اللبناني كمال جنبلاط مؤخرا أن الخبراء السوفييت قدروا كأصدقاء أن العملية تقتضى التضحية بنحو ١٠٠ ألف جندي.

غير أن مفاجأة عبورنا الكبرى انما جاءت في هذا الجانب بالتحديد، اذ وصلت إلى حدها الأدنى المتصور أو غير المتصور. فلقد قدرت خسائرنا فيما أعلن بما لا يزيد على بضع مئات من الأفراد، ١٨٠ فردا كما قيل، وهذا في تقدير البعض، اجتهدا، لا يعدو ٢٪ أو نحو ذلك من قوة الهجوم. وهذا، إلى جانب الساعات المعدادات التي استغرقتها العملية، رقم قياسى دعا كثيرا من كبار المراقبين العسكريين العالميين إلى أن يعتبر العملية «معجزة» عسكرية كما وضعوها بتعبيرهم.

لقد نجحت عملية العبور التاريخي، وتدفق المد المصري كالطوفان الكاسح نحو الضفة الشرقية. وإذا كان العبور، الخطوة الأولى في المعركة، هو بمثابة «عبور للهزيمة»، فقد كان نجاحه «هزيمة للهزيمة»، بل بالدقة بداية هزيمة العدو وبداية النصر العربي. فالواقع أن العبور كان مفتاح المعركة ومفتاح النصر، وقد لا يكون من المبالغة أن نقول ان نتيجة المعركة كانت تتوقف عليه، هو الذى يقرر مصيرها إما بالنصر أو عكس ذلك. ولم يكن العدو من جانبه يجهل هذه الحقيقة، ولم يخف قاداته في أوام غرورهم القديم كم يتمنون لو أقدم الجيش المصرى على عبور القناة حتى يسحقوه ويدمروه مرة واحدة وإلى الأبد كما صور لهم الوهم.

فكما كتب ايف كو فى الفيجارو «لقد أصيب قادة إسرائيل بعقدة التفوق! فمنذ حرب الاستنزاف وأكبر أحلام قواد إسرائيل أن يروا اليوم الذى تحاول فيه القوات المصرية عبور قناة السويس! وقد وضع هؤلاء القادة خططهم على أساس تدمير الجيش المصرى تدميرا كاملا وساحقا حالما تبدأ محاولة العبور. والجنرال موشيه دايان نفسه، بعد أن اعتمد هذه الخطط ، لم يحاول قط أن يخفى أمنيته أن يقدم الجيش المصرى على اجتياز قناة السويس، حتى يبدأ انقضاضه عليه وسحقه سحقا، كما صرح دايان أكثر من مرة وفى أكثر من مناسبة!». وبعد ، فلقد انعكست الصورة منذ اللحظة الأولى وإلى الأبد !

اجتياح الخط

فى «حرب الاستنزاف» ، التى استمرت نحو ثلاث سنوات عقب يونيو، صبت المدفعية المصرية آلاف الأطنان من القنابل لفترة طويلة بلا انقطاع - نحو المائة يوم - على مواقع العدو فى الضفة الشرقية. وكان العدو قد أقام على طول القناة سلسلة من الاستحكامات والتحصينات عرفت فى مجموعها باسم «خط بارليف». وقد انتهت حرب الاستنزاف بتدمير نحو ٨٠٪ من هذا الخط..

وقد كانت استراتيجية تلك الحرب أشبه شىء «بحرب الخنادق» القديمة التى عرفتها الحرب العالمية الأولى فى أوروبا، الا أنها هنا خندق مائى هو القناة، أو قل هى «الحرب الجالسة» Sitzkrieg" التى يتم فيها التراشق من مواقع ثابتة الا من عنصر الطيران المتحرك. وقد كبدت هذه الاستراتيجية العدو خسائر فادحة وشكلت نزيفا مستمرا وخطيرا على قواته، كان وحده عاملا مؤثرا فى قبوله وقف إطلاق النار فيما بعد.

ومنذ انتهت حرب الاستنزاف، بدأ العدو فى انشاء خط محصن جديد تماما يشرف على القناة، يحمى عمقه وراعاها ، ويكون رادعا مروعا لأى محاولة مصرية للعبور، ولا يقارن البتة بالخط البسيط السابق الذى تحطم. ولهذا فإن خط بارليف المعروف والذى اقتحمته قواتنا فى أكتوبر انما هو فى الواقع خط بارليف الثانى. واستفادة من تجربة خط بارليف الأول . كانت الفكرة الأساسية فى الخط الثانى ألا يكون سطحيا بل غائرا تحت الأرض حتى لا تتال منه المدفعية المصرية الثقيلة كما فعلت بالخط الأول ودمرته.

ورغم أنه جاء أحدث وأعقد خط من نوعه فى التاريخ، فإنه ينتمى أساسا إلى سلالة وفكرة الخطوط الثابتة التى تبدأ من أمثال سور الصين العظيم وخطوط التخوم الرومانية

الشهيرة Roman.Lines وتنتهى بأمثال خط ماجينو الفرنسى وزيجفريد الألمانى. كما شبهه أحد العسكريين الأمريكين بخط مينيسوتا الدفاعى الذى أقامته أمريكا فى كوريا أثناء الحرب الكورية. كذلك فإنه ينم عن عقلية تخشى أن ، أو تفضل ألا ، تحارب الا من وراء حصون مشيدة ابتداء من حصون خير قديما إلى الدشم وبروج الدبابات والمدركات حديثا.

والخط كله يأتى بعد هذا مناقضا إلى حد أو آخر لفلسفة العدو الأثيرة فى الحرب الوقائية والمبادرة الهجومية، مؤكدا أن الصمود المصرى بعد يونيو قد وضعه على جانب الدفاع رغما عنه. وصحيح أن الخط وإن كان ثابتا لا يعد نوعا من أنواع الدفاع الثابت، بل يعتمد على الدفاع المتحرك، الا أنه يبقى فى النهاية دفاعا لا هجوما. قارن هذا بما كان يريده دايان من قبل : «لم يحدث قط أن كان جيش اسرائيل فى وضع دفاعى» (لماذا انن يصرون على تسميته جيش «الدفاع» الاسرائيلى؟).

خريطة الخط

مهما يكن، فلا شك أن الخط كان كقطعة من الهندسة العسكرية المتقدمة «معجزة» حقيقية كما وصفه المحايدون . فقد وضع فيه العدو كل قدراته الذاتية جنبا إلى جنب مع كل خبرات العسكرية العالمية عبر التاريخ. فالخط، الذى يمتد بحذاء القناة ويطولها من رأس خليج السويس حتى مشارف البحر المتوسط، يتألف من حوالى ٢٠ نقطة قوية strong points، (بالدقة ٢٢ موقعا حصينا، تضم ٢١ نقطة قوية) تبدأ من الشط وتنتهى برأس العش. كل نقطة منها اختير موقعها بعناية فائقة، تتحكم فى كل الاتجاهات وتستطيع أن تغمر بالنيران الجانبية أى قوات تعبر القناة فى أى قطاع منها كما قال بعض كبار القادة المصريين. ويعد هذا تربط بين الكل الطرق الخاصة التى تجوئها الدوريات المسلحة بانتظام. ثم يحيط بالجميع نطاق كثيف من خطوط الأسلاك الشائكة والخوازيق الحديدية ثم حقول الألغام الغزيرة، بما فى ذلك الألغام المباشرة فى مياه الضفة الشرقية من القناة، فضلا عن سلسلة أحواض النابالم والوقود الحارق على ضلوع الخط.

أما النقط القوية نفسها فتتوزع فى أبعادها ومسافاتنا بحيث تتفق مع المواضع التلية العالية والتبات المشرفة والمواقع الاستراتيجية المسيطرة. ولكنها فى كل الحالات مرتبطة

بالقطاعات الصالحة للعبور، وبصفة خاصة بقطاعات محاور سيناء الثلاثة. والمعنى واضح، وهو أنها ما أقيمت ولا وقعت الا لتردد وتمنع عبور مصر يوما ما . وهذا أيضا هو السبب الذى يفسر لماذا يختلف تكاثف أو تباعد تلك النقاط فضلا عن مساحاتها، وهو كذلك الذى سيفسر لنا لماذا تأخر الاستيلاء على بعضها بعض الوقت.

فمن حيث المساحة تتراوح النقاط بين نحو الفدان وربعه . أما متوسط التباعد فيتراوح بين ٤ ، ١٠ كم ، فهي تتقارب ويقل تباعدها فى القطاعات ذات القيمة الخاصة. ويمكن القول بصفة عامة انها كانت أكثر تكاثفا فى الجنوب وتزداد تباعدا وتخلخلا كلما اتجهنا شمالا. فكان هناك ٩ نقط بين رأس خليج السويس وبداية البحيرات المرة كان من أهمها وأقواها تلك المتحكممة فى رأس الخليج كنقط الشط ولسان بور توفيق. وعلى طول شواطئ البحيرات المرة كان هناك ٤ نقط ، ثم ٣ نقط بينها وبين بحيرة التمساح، ٤ بين الأخيرة وبين جزيرة البلاح، ثم فى النهاية ٧ نقط بحذاء الأخيرة وبطول القطاع الكبير الممتد حتى رأس العش شمالا.

وواضح أن التركيز كان على أشده فى أقصى الجنوب فى قطاع السويس الذى يفضى إلى ممر متلا الحاكم ، هذا بينما تتخلل النقاط بشدة بحذاء البحيرات المرة لأن اتساعها كجسم مائى فسيح يقلل احتمالات العبور والخطر. وبينما يعود التركيز شديدا تجاه الإسماعيلية، رأس محور سيناء الأوسط، تعود النقاط فتتباعد بشدة فى الشمال حيث تحد ظروف البيئة الطبيعية من فرص الخطر والحركة نسبيا، لا يستثنى من ذلك الا قطاع القنطرة حيث احتشدت كوكبة متقاربة من أربع نقط قريبا باعتبارها رأس المحور الشمالى لسيناء . أما آخر نقط الخط شمالا فى رأس العش فكان مبرر وجودها الاستراتيجى هو التصدى لمحاولات أو احتمالات التقدم المصرى نحو الجنوب من جيب بور فؤاد والملاحة ، الوحيد الذى احتفظت به قواتنا بعد يونيو شرق القناة والذى كان يمثل رأس حربة تهدد العدو باستمرار.

تلك بصورة عامة خريطة الخط وخطته. أما كل نقطة من نقطه القوية فهي فى ذاتها قلعة حقيقية قائمة بذاتها، أشبه بمدينة حربية محصنة من الحديد والأسمنت، تتألف من مجموعة من الدشم المدرعة مبنية من الحجر الصلب أو الأسمنت المسلح، مصفحة بآبواب من الصلب ومدعمة بقضبان السكك الحديدية بل وبعرياتها (التي انتزعها العدو من خط

حديد سيناء، مثلما سبق له أن أقام السد الترابى من رديم ومخلفات حفر القناة). والقلعة بعد هذا متعددة الطوابق تضم مأوى الأفراد كما تتسع للملاجىء الأسلحة وأوكار المدفعية والمدرعات، وبها مزالق مركبة صاعدة وهابطة للدبابات بحيث تضرب وتختفى ولا ترى .

ولكن القلعة جميعا غائرة تحت السطح كأنها «مغروسة» فى الأرض أو مدفونة تحت الرمل أو محفورة فى الساتر كبيوت النمل . فلنحو ٢٠ مترا كانت القلعة تقع تحت مستوى سطح الساتر الترابى، فى حين لا يظهر منها أعلاه سوى مترين أو ثلاثة أمتار. والأنابيب التى تزودها بالمياه هى تحت الأرض أيضا. حتى الرؤية هى الأخرى تحت الأرض، من خلال أجهزة كبريسكوب الغواصة، هذا عدا مزاغل المدافع والرشاشات. انها قلعة دفينة كالمغارة الغائرة، سكانها كاهل الكهف troglodytes ، أو هم جنود الكهوف، ولا نقول كالحوانات الحافرة burrowing animals .

والوحدة كلها مخططة بعد هذا على مبدأ الدفاع الدائرى ، بحيث تتال العدو من مزاغلها فى كل اتجاه دون أن يمكن لنيران العدو أن تتالها حتى لو أصابتها مباشرة بأطنان القذائف. انها، باختصار ، أشبه بمزيج عصرى جدا وحديث إلى أقصى حد من كهوف العصور القديمة الحفرية، وقلاع العصور الوسطى الصماء الملتوية بالدهاليز والأنفاق وخنادق الماء، وأخيرا من عمارات الأسمنت المسلح البرجية الحديثة. انها قلاع وسيطة ولكن طراز القرن العشرين، ومدن حربية عصرية جدا ولكنها من عصور سكان الكهوف ..

هذا الخط القوى، الذى أنفق العدو فى تحصينه وتسليحه سنين عدداً (أكثر من ثلاث سنوات) وملايين بلا عدد (أكثر من ربع مليار دولار، أو نصف تكاليف السد العالى) ، ثم أنفق أكثر من ذلك فى الحديث المخيف عنه كجزء من الحرب النفسية الرادعة، هذا الخط سقط فى أيام بل ساعات - بالتحديد ست ساعات، فى حين كان المقدر لها الضعف! لقد هدمت القوة المصرية العارمة فى ست ساعات ما بناه العدو المفتون فى ست سنوات، كل سنة بساعة.

ولا بأس أن نتذكر أو نتذكر هنا بعض ما أرسله العدو من صيحات الترويع عن خطه السيئ الذكر. قال دايان فى أخريات ١٩٦٩ «لن تتال عمليات العبور المصرية، ان هى

حدثت، من قبضة إسرائيل المحكمة على خط بارليف، لأن الاستحكامات الاسرائيلية على الخط أشد منعة وأكثر تنظيماً. ويمكن القول بأنه خط منيع يستحيل اختراقه، وأننا لأقوياء إلى حد نستطيع معه الاحتفاظ به إلى الأبد». وفي مناسبة أخرى عاد يقول ان خطوطهم المحصنة «أصبحت الصخرة التي سوف تتحطم عليها عظام المصريين»، وأنه إذا حاولت مصر عبور القناة فسوف تتم إبادة ما بقى من قواتها . كما صرح مرة أنه «مادامت قناة السويس هي حدودنا العسكرية ، والعرب هم أعداؤنا، فلسوف نكون نحن على خير ما يرام».

بالمثل أعلن بارليف أنه «لعلى يقين أن مصر لو عادت إلى القتال فلن تستطيع أن تحقق أى عبور، لأن من المستحيل اختراق خط الدفاعات الاسرائيلية بارليف.. كما أن قواتها لن يمكنها قط عبور قناة السويس نظرا لما يمثله هذا الخط المحصن من خطر على القوات العابرة». وفي مرة أخرى قال ان المصريين لا يعرفون أى جحيم سوف ينصب عليهم ما ان يضعوا أقدامهم خارج الضفة الغربية للقناة. أما اليعازر فكان أقل اطمئنا ولكن لم يكن أقل قطعاً، قال عن الخط «انه سيكون مقبرة الجيش المصرى» . أما مايير فكانت فلسفية أكثر، قالت ببساطة «ان أى تصور يسمح ، ازاء ما نملكه من تحصينات، بعبور القوات المصرية إلى الضفة الشرقية يعتبر إهانة للذكاء» .

ومن الغريب بعد هذا كله أن قادة العدو الذين وصفوا خطهم كذلك مرة بأنه «غير منفذ للبشر أو للسلاح كما أن الصلب غير منفذ للماء أو للهواء» ، ومرة أخرى بأنه «غير قابل للتدمير حتى بالقنبلة الذرية»، عادوا بلا خجل عند أول هزيمة ليقولوا انه مجرد «شريحة من الجبن الجريير، به من الثقوب أكثر مما به من الجبن» (دايان)، بينما تتصل منه كلية من نسب إليه قائلاً انها تسمية دارجة لا وجود لها رسمياً فى «جيش الدفاع» (بارليف) ! فأما بارليف فقد قال بالنص «ان جيش الدفاع الإسرائيلى لم يستعمل اصطلاح «خط بارليف» اطلاقاً، والصحافة فقط هي التى تداولت هذا الاصطلاح. ولقد أقيمت هذه التحصينات أثناء حرب الاستنزاف كقواعد متماسكة بعضها ببعض لكل عملياتنا على طول امتداد القناة. وأن أى شخص عادى ليدرك أن عشرين تحصينا لم تكن لتوقف وحدها هجوماً شاملاً تشنه خمس أو أكثر من الفرق المصرية. ان الزعم بأن التحصينات لم تتمكن من صد المصريين هو قول أحمق، لأنها لم تكن معدة لهذه الغاية أصلاً. ولقد سقطت التحصينات لأنها كانت مجرد مواقع أمامية فقط».

وبالمثل ركز دايان على «عدم أهمية الخط عسكريا» (!) قال : «هذه منطقة شاسعة، وليست هناك فرصة أيا كانت لحماية كل متر . والآن وبينما التعبئة تجري، فإن قوة الدفاع الاسرائيلية ستتمى قريبا قواها الكاملة لتجمد وتبدد أثر المكاسب الثانوية التي تمكن العرب من إحرازها» (!). وقالت أصوات أخرى من قادة العدو ان خط بارليف كان مجرد خط اعاقه، وقد كانت خطط إسرائيل أن تهجر الخط بعد العمليات الأولى.. ولكن هذا كله لم يكن ليخدع احدا، وكما قالت اليوناييتيد بريس فإن «سمعة دايان هي التي أصبح بها من الثقوب أكثر مما بها من الثقة».. أين الحقيقة في هذا كله ؟ أين هي بين هذا الركام المتناقض من التهويل السابق والتهوين اللاحق؟، الحقيقة أن العدو في الحالين كان مخادعا: في الأولى كان يخدعنا (أو يحاول) ، وفي الثانية كان يخدع نفسه (وهذا شأنه) . فرغم أن كثيرا من العسكريين الأصدقاء الناصحين أوصوا بالفعل بأن تدمير الخط غير ممكن حقيقة الا بالأسلحة النووية، فقد كان العدو في تصريحاته عن مناعته يستهدف أساسا معنوياتنا ويمارس صيغة منتهى الحرب النفسية حتى نشعر باليأس والتخاذل. وحين سقط الخط في ضربة قاضية واحدة، كان كل همه أن ينقذ ماء وجهه بعد هيبته وسمعته ومعنوياته التي انهارت .

أما الحقيقة الموضوعية الكاملة فلا تعدو كلمتين : خط فائق المنعة والقوة والبراعة بلا جدال وخطة اقتحام - مع ذلك - أشد تفوقا وأبرع اعجازا بلا لجاج. ولم تكن التحصينات «مصنوعة من الكرتون» كما قال أحد الجنود الاسرائيليين، ولا كان الخط شريحة من الجبن المثقوب الا بعد أن شرحناه نحن وثقبناه . وليس لنا نحن أن نأخذ أو نؤخذ هنا بدعايات العدو المغرضة، سواء تهليلا في البداية أو تقليلا في النهاية. فنحن انما نقلل من عظمة انجازاتنا إذا نحن قللنا من قوة الخط العدو.

ملحمة الاقتحام

فإذا ما انتقلنا إلى ملحمة اقتحام الخط، فإن الأغرب من ذلك كله أن الخط انما سقط أساسا على أيدي المشاة في الدرجة الأولى، ولم تكن سائر الأسلحة الأخرى إلا عوامل مساعدة، وذلك بحكم طبيعة تلك الحصون ، حصونه التي تستعصى على المدفعية الثقيلة، وكذلك بحكم الوقت ريثما تصل المدرعات بعد تمام مد الجسور والمعابر. كذلك فقد كانت تلك المشاة من المشاة الراجلة ، لا الميكانيكية، مزودة فقط بالقنابل اليدوية والمدافع الرشاشة والصواريخ المضادة للدبابات.

من هنا لعبت القوة البشرية أو العددية دورا مهما جدا، فكانت هي التي اقتلعت الخط وخلعته خلعا كائنها الاعصار الغلاب أو التيفون الطوفان. ففور وصول طلائعنا الأولى إلى الضفة الشرقية، اندفعت الوحدات الهندسية تظهر حقول الألغام وتفتح ثغرات فى الاسلاك الشائكة، بينما ارتقى افراد المشاة الساتر الترابى بخفة وسرعة، بالحبال والسهل والأقدام، لمواجهة العدو ولفتح المزيد من الثغرات بفدائية مذهلة سجلت بطولات تاريخية. ويلاحظ هنا أن اختراق الخط لم يبدأ أمام النقطة المحصنة ولا بدأ بمداهمتها ومهاجمتها هي نفسها، وانما بدأ بالتسلل خلال الفواصل الواسعة بينها. ويقدر ما زاد هذا من عنصر المفاجأة للعدو، قلل من أخطار المقاومة التي كان يمكن أن نتعرض نحن لها فى تلك المرحلة المبكرة.

ولكن حالما تم مد الكبارى ووصلت المشاة الميكانيكية والأسلحة الثقيلة وتدفقت القوات بأعداد ضخمة، أخذت قواتنا تفرق الخط بموجات متتابعة كثيفة كانت لا تلبث أن تعزل نقطة المحصنة عن بعضها البعض لتصبح كالجزر مقتطعة فى بحر الكثافة البشرية، فتطبق عليها «وتركيها» . فكان الجنود يقتحمون الحصن بأجسامهم ويطبِقون على العدو فى مكائمه ومخابئه ويلتحمون به وجها لوجه وأحيانا بالسلاح الأبيض، حتى يتم تفريغ القلعة منهم بالقتل أو الأسر أو الفرار . «وفر الجنود الاسرائيليون من الخط بعد أن كانوا يجلسون فى خنادقهم وهم يلتقطون أنفاسهم وقد علت القذارة أبدانهم وشحبت وجوههم. لقد فرت قلوبهم من الجحيم الذى أطلقه عليهم الهجوم المصرى المفاجئ»، كما كتبت مجلة إيطالية . «وتحطم خط بارليف، الذى شيدته إسرائيل على غرار خط ماجينو، تحت ضربات القوات المصرية، تماما كما سقط خط ماجينو منذ ٢٤ عاما، كما أضافت المجلة نفسها.

هكذا أثبتت المعركة ، على حد قول الجنرال بوفر ، أن «الدفاع مهما كان حصينا - كقلع خط بارليف - فلسوف يظل عرضة للاختراق والتدمير مادامت القوات المهاجمة من القوة والكثافة والتنظيم بالقدر الذى يضمن لها الغلبة». أو كذلك على حد قول وولتر لاكير، أثبتت المعركة أن الخطط العسكرية الاسرائيلية التى اعتمدت على بناء خطوط محصنة ثابتة على طول قناة السويس انما اعتمدت على فكرة بالية من الناحية العسكرية لم يعد يأخذ بها المخططون العسكريون منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .

ولابد لنا هنا أن نسجل ملاحظتين مهمتين. الأولى أن اقتحام الخط على هذا النحو
انما تم بالمواجهة المباشرة، أى وجها لوجه على طول امتداد الجبهة وليس بالالتفاف حوله،
الذى على أية حال لم يكن ليتفادى مشكلة الفاصل المائى. وتلك وحدها كانت مفاجأة لم
يكن العدو يتوقعها بل كان يستبعدا تماما ويعددها خارج قدرة الجيش المصرى. أما
تقديره فكان الهجوم على الاجناب على الأكثر، أى من نهايتى الخط شمالا وجنوبا. لكن
المقاتل المصرى أثبت قدراته التامة، ودفع العدو ثمن غروره السفيه.

الملاحظة الثانية أن سلوك العدو داخل نقطه الحصينة أثناء اقتحامها جاء تكذيبا لكل
نظرياته العسكرية التى تنضح بالزهو والاستعلاء. فما أن أطبقت القوات المصرية على
دشمها، حتى غاصت قوات العدو أو غاضت داخلها، إلى أن نفذت إليها قواتنا. الآن
قارن هذا بما قاله دايان قديما: «إن جيشنا ليس كالقنفذ الذى ما يكاد يرى
الخطر حتى ينكمش على نفسه تحت أسلاك شعره وينتظر الضربة. وانما هو كالثور
الذى ما ان يشعر بالخطر حتى يشرع قرنيه استعدادا للهجوم». فى أكتوبر، مع ذلك،
استحال الثور قنفذا !

هكذا تحولت تلك الحصون الرهيبة التى أعدت لتكون فخا ومجزرة لنا إلى سجن
ومصيدة قاتلة لأصحابها. وبعض هذه القلاع سقط أو سلم فى ساعات، ولكن البعض
قاوم لفترات أطول، وبعضها الآخر ضرب عليه الحصار أياما حتى استسلم. فمثلا كانت
أول نقطة تسقط فى يد الجيش الثانى هى نقطة الكيلو ١٩ جنوب بورسعيد (ساعة وثلاث
الساعة)، وفى يد الجيش الثالث نقطة الشط (بعد ساعة ونصف الساعة). ونقطة الفردان
سقطت فى ٤٨ ساعة، بينما سقطت نقطة شمال البلاح ثم استردها العدو ثم استعدها
خلال ليل ٦ أكتوبر. وقد كانت نقط القنطرة شرق الأربع مما وقع فى أيدي القوات
المهاجمة مبكرا. فأحدى هذه النقط الأربع سقطت بعد ١٢ دقيقة فقط من العبور، وأخرى
بعد ربع ساعة، وثالثة بعد ساعة، وفى اليوم الثالث كانت منطقة القنطرة شرق كلها قد
حررت تماما. وعلى العكس كانت نقطة رأس خليج السويس أى لسان بورتوفيق آخر ما
سلم - بعد أكثر من أسبوع من الحصار. لكن الخط فى مجموعه كان قد سقط معظمه
عمليا وبالفعل خلال الساعات الست الأولى من بدء المعركة، ١٥ نقطة فى الليلة الأولى،
وتمت معظم تصفيته وتطهيره فى الأيام القليلة الأولى.

وفيما بعد ، حين اكتملت السيطرة على موطىء قدم على الضفة الشرقية تم نسف هذه القلاع جميعا بالتفجير، وكان هذا ضروريا كما هو طبعى. وبذلك زال إلى الأبد من على وجه الأرض الخط الذى ظن العدو أنه سيغير به وجه التاريخ، فدخل هو التاريخ من باب الحفريات وأثرىات المتاحف الحربية. ومن الطريف أن مخلفات حطامه تحولت فيما بعد إلى مادة خام فى أيدي قواتنا استغلتها فى اقامة قواعدها ومواقعها الجديدة .

وإذا نحن الآن توقفنا قليلا نتأمل ملحمة اقتحام هذا الخط الدارس، فلن نملك إلا أن تجبهنا بل تروعنا حقيقة غريبة مثلما هى باهرة. لقد كان فى فلسفة الخط نفسه شىء من الماضى ومن القديم، فلسفة القلاع ذات التحصينات المترسة والأسوار والحوائط المخندقة، المباني الحجرية الضخمة، المزاغل، الانشاءات تحت الأرضية.. إلخ، لا يغير من ذلك كل مظاهر وأساليب التكنولوجيا العصرية الحديثة داخله وحوله.

بل ان فكرة الخط كلها كنظام دفاعى، تلك التى تبدو على طرف نقيض مع عملية الحرب الخاطفة التى سبقتها، لتمثل فكرة قديمة بل عتيقة إلى أقصى حد. فالخط فى الحقيقة انما يكرر خطأ بل خطوطا سابقة من التحصينات والاستحكامات والقلاع أقامها الفراعنة كما رأينا مرارا عبر برزخ السويس فى نفس موقع القناة الحالية. وإلى هذا فإن الخط ومعه الساتر الترابى لا يشير فى جوهره الا إلى عقلية «سور المدينة» أو «حائط المدينة» القديمة، وانما على نطاق اقليمى بدلا من نطاق المدينة.

لم يكن غريبا لذلك كله أن يتلون الهجوم كذلك بلون قديم نسبيا أو جزئيا يذكر بصورة أو بأخرى بحروب الماضى. خذ تسلق قواتنا بالسلام والحبال لذلك الساتر الترابى الذى ينحدر عموديا تقريبا كأنه أقدام قلعة من قلاع العصور الوسطى ولكن ينقصها حتى منحدر glacis تلك القلاع . واعتبر كذلك حالات الحصار المحكم التى ضربت واستمرت عدة أيام حول البعض منها. فاذا أضفنا كيف كانت المشاة المصرية تتقاذف على دشم هذه القلاع ، تركيبها ، تقتحمها جسديا، وتلتحم بالمتحصنين داخلها وجها لوجه وبالسلاح الأبيض أحيانا، لاجتمعت ولا نقول اكتملت لنا فى هجومنا كثير من ملامح فروسية حروب عصر القلاع وبطولات عصر حصار واقتحام المدن المسورة ذات الحوائط والأبراج... إلخ ، وإنما فى صورة جديدة عصرية أو بالأحرى معصرة. ولا يؤكد هذا الانتهاء كما يؤكد ما أعلنه أحد كبار قادة المعركة المصريين من أننا «استخدمنا المشاة بالأسلوب نفسه الذى

كانت تستخدم به المشاة منذ العصور القديمة، وإن اختلفت الأسلحة التي في أيدينا عن تلك التي كانت في أيديهم».

والخلاصة ؟ الخلاصة لقد كانت ملحمة اكتساح خط بارليف في جوهرها صراعاً بين الشجاعة والمناعة، شجاعة المقاتل البحتة ومناعة الأبراج المشيدة، مثلما كانت مواجهة بين فلسفة الخطوط الزاحفة المتحركة ونظرية الخطوط المحصنة الثابتة. وفي الحالين تغلبت الأولى على الثانية: تغلبت الإرادة على الأرض، والإنسان على السلاح، وأصحاب الأرض على الغاصبين . لقد «جاءوا، رأوا، وانتصروا» ... عبروا ، اكتسحوا، وانطلقوا.

معركة القاعدة الأرضية

منذ تم تدمير واختراق الخط بدأت مرحلة جديدة في المعركة، مرحلة اعداد قاعدة أرضية وثيقة للاحتشاد وانطلاق الزحف. فمن رأس جسر إلى رأس حربة، ومن موطئ قدم إلى قاعدة انطلاق، وفي النهاية من موقع ثابت إلى موقعة متحركة - إلى هذا جاء تطور العمليات على الضفة الشرقية .

وبغير تحديد قاطع بصرامة، وفي قدر من التداخل والتواصل المفهوم، قد يمكن أن نقسم هذه المعركة التي امتدت نحو ١٧ يوماً منذ تم العبور حتى اعلان وقبول وقف اطلاق النار إلى ثلاث مراحل ميدانية أو تكتيكية بحسب المهمة أو الملح السائد عليها. فالمرحلة الأولى امتدت نحو اسبوع وهي مرحلة معركة القاعدة الأرضية، والمرحلة الثانية هي وقفة التعبئة نحو ٣-٤ أيام، وأخيراً مرحلة معركة الدبابات الكبرى واستمرت نحو الأسبوع . أى أن المعركة كلها دامت نحو أسبوعين ونصف الأسبوع، واستغرقت مراحلها أسبوعاً فنصف أسبوع فأُسبوعاً آخر على الترتيب وعلى وجه التقريب.

وقد بدأت معركة الضفة الشرقية بتدفق القوات المصرية الذي لم ينقطع منذ تم مد الجسور والمعابر. وفي طليعة التدفق جاءت المشاة الميكانيكية ثم المدرعات والمدفعية وسائر الأسلحة الثقيلة. وقد تحقق هذا في أول ليلة من المعركة تحت ستار الظلام، ولكن في تنظيم دقيق محسوب وبنجاح تام. وقد حقق تدفق القوات أرقاماً قياسية غير مسبوقة. فمثلاً في الأربع والعشرين ساعة الأولى من بدء القتال كان قد انتقل إلى البر السينائي نحو من ٨٠ ألف جندي بكامل سلاحهم في ١٢ موجة متتابعة. «وهذا في حد ذاته يعد نصراً عسكرياً بأي مقياس» كما كتبت مجلة تايم. ومعهم بدأت ملحمة التحام ومعركة

تصادم شرسه ورهيبة من أجل تحرير الأرض. ولم يطلع فجر ٧ أكتوبر حتى كانت هذه القوات قد توغلت لمسافة ٨ كم.

وفى الوقت نفسه خرجت وحدات الأسطول البحرى تقصف مواقع العدو على كل سواحل سيناء الثلاثة وتتصيد وحداته البحرية فى مياه البحر المتوسط وخليج السويس، كما تحمى أجناب قوات الغزو المتقدمة من اليمين والشمال . كذلك انطلقت فرق الفدائيين الخاصة (الصاعقة، الكوماندوز) تعمل خلف خطوط العدو فى أعماق سيناء وسواحلها من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب. وقد كانت ممرات ومضايق سيناء من المسارح الأساسية لنشاط هذه القوات لمنع العدو من التقدم لشن الهجمات المضادة ولتدميره «وتجويفه» من الداخل. وقد استطاعت قوة منهم السيطرة الكاملة على ممر سدر معظم أيام المعركة بكاملها.

وعدا الخسائر الضخمة التى أنزلتها هذه الضربات بأجناب وأعماق العدو، وما أحدثته من قطع لخطوط مواصلاته وامداداته واعتراض لتقدمها، وكذلك ما عادت به من أسرى، فإن نورها كان حيوريا وحاسما فى تشتيت جهود العدو وتوزيع قواته فى كل أطراف شبه الجزيرة الشاسعة ، وبالتالي منعه من تركيز قوته على الجبهة الأساسية على القناة. ويكفى لتوضيح مدى وخطر هذا التشتيت أن العدو اضطر على سبيل المثال إلى توجيه أكثر من ١٠٠ دبابة نحو محور الساحل الشرقى لخليج السويس ، بعيدا تماما عن جبهة القناة الأساسية .

وفيما بعد وطوال المعركة لم ينقطع نشاط البحرية والكوماندوز، بل تزايدت عملياتها ونجاحاتها على أوسع نطاق . وقد اعترف العدو بذلك، وأعلن أن قوات الكوماندوز المصرية تستخدم تكتيكات جديدة لأول مرة، وأنها تدخل سيناء من كل مكان ومن كل اتجاه وبكل الوسائل ، الهليكوبتر، القوارب، الأقدام، تقاتل بشراسة ويأحدث الأسلحة.

هذا على إطار شبه الجزيرة ، أما على جبهة المواجهة الأساسية فى الضفة الشرقية للقناة، فيجب أن نذكر أولا أن القوات المصرية المهاجمة التى اخترقت خط بارليف لم تتوقف أمام حصونها بعد أن طوقتها وركبتها، بل تقدمت مباشرة نحو الشرق تاركة تلك الحصون تتساقط بالجملة أو واحدة بعد أخرى كجيوب محتواة تماما. ومن الناحية الأخرى كان كل هم العدو هو أن يدفع بقواته بأسرع ما يمكن لمواجهة القوات المهاجمة

المتقدمة ولتدفع بها إلى الخلف نحو القناة. دون جدوى مع ذلك بالطبع. والواقع أنه في الليلة الأولى من القتال كانت القوات المصرية قد دمرت معظم قوات احتياطي العدو الاعتراضية، مما اضطره إلى أن يدفع بأنساقه الخلفية إلى المعركة واحدا اثر الآخر .

وهنا لابد أن نلاحظ أن خط بارليف لم يكن هو خط الدفاع الوحيد على جبهة القتال، ولا كان معناه الدفاع الثابت كما قد تتصور. فلقد كان هناك خطان دفاعيان آخران خلف خط بارليف، يفصل بين كل منها ٣ - ٤ كم، بحيث تتوالى ثلاثتها عبر نحو ٨ كم عمقا. فأما الخط الأول فكان خط الاحتياطي التكتيكي، يتألف من قوات من المشاة الميكانيكية والأسلحة الخفيفة تعاونها بعض الأسلحة الثقيلة، ومهمتها التصدي لأي قوات قد تخترق خط بارليف، فعندئذ تتعامل معها وتساعد حصون الخط إذا حوصرت. أما الخط الثاني فكان خط الاحتياطي التعبوي، وهو أقوى عددا وأثقل تسليحا، ويتوزع في قواعد ومراكز مختارة بعناية. أما مهمته فالتقدم لتدعيم الخط الأول إذا لم يكف للمواجهة.

وإذا كان خط بارليف نفسه قد سقط في الساعات الأولى، وكان الاحتياطي التكتيكي قد تمزق في الليلة الأولى من العبور، فقد جاءت نهاية الاحتياطي التعبوي بدوره في غضون اليومين أو الثلاثة الأولى. وقد بلغت خسائر العدو في هذه الفترة معدلات خطيرة، وكان واضحا للغاية مدى الاضطراب والارتجال في قتال العدو. ولم تلبث المعركة أن تطورت إلى حرب ضارية بالأسلحة الثقيلة والمدافع تعاونها الطائرات ، واضطر العدو أن يدفع بأسرع مما كان يتوقع باحتياطيه الاستراتيجي الذي نقله على عجل من أعماق سيناء ومن داخل إسرائيل نفسها.

فمن الجانب المصري المهاجم تقدمت القوات الثقيلة من المدرعات والآليات والمدفعية جنبا إلى جنب مع قوات المشاة الميكانيكية والراجلة تحمل من بين ما تحمل الصواريخ المضادة للدبابات وتلك المضادة للطائرات، وفوق الكل غطاء جوي عارم من المقاتلات والقاذفات المقاتلة ، وخلف الجميع على الضفة الغربية أقوى وأكثف وأحدث شبكة من نوعها في العالم من صواريخ مضادة للطائرات، عالية ومنخفضة، تغطي نطاقا عمقه نحو ٢٠ - ٣٠ كم من سماء الضفة الشرقية.

وعدا هذا فلقد كانت جبهة الزحف المصري تمتد بطول القناة من البحر المتوسط إلى خليج السويس، موزعة على الجيش الثاني في الشمال والجيش الثالث في الجنوب، تفصل

بينهما منطقة البحيرات المرة. أما التقدم عبر القناة فقد تم - والتقدم فى حروب الصحراء يتم أصوليا على محاور وليس جبهويا - على محاور سيناء الاستراتيجية الثلاثة : المحور الشمالى ازاء القنطرة أى عند نهاية بحيرة المنزلة وباتجاه الساحل الشمالى، المحور الأوسط أمام الإسماعيلية أى منطقة بحيرة التمساح وباتجاه مضيق الجفجافة، وأخيرا المحور الجنوبي مقابل السويس حول رأس الخليج وباتجاه مصر متلا. ومنذ احتلت القوات المصرية رءوس الجسور ، أخذت توسعها وتعمقها إلى جيوب كبيرة ، ثم أخذت الجيوب تتوسع وتستعرض لتتصل وتتلاحم فى قاعدة أرضية جبهوية عريضة واحدة ليس بها الا الحد الأدنى من الثغرات.

ومن الناحية الأخرى سارع العدو بدفع كل قواته المتاحة أو المتبقية، بما فى ذلك الاحتياطى الاستراتيجى من العمق، فى هجوم مضاد مستينس كما هو مضطرب ليصد الزحف المصرى . وقد تكررت عمليات الهجوم المضاد هذه عدة مرات (فى القطاع الأوسط مثلا شن العدو ١٦ هجوما مضادا خلال ٧ أيام على رأس جسر واحد فقط)، ولكن كل هجوم مضاد منها كان لا يلبث أن يتكسر ، ليبدأ غيره فيتكسر من جديد. وكانت المدرعات والمدفعية هى قوام قوات العدو (طوال الأيام الثلاثة الأولى لم يشاهد جندى مشاة إسرائيلى واحد، دبابات فقط!) تحت غطاء جوى كثيف جدا من الطائرات بأنواعها بما فى ذلك طائرات الهليكوبتر المصفحة.

ورغم أن الأسحة التى دفع بها كل من الطرفين إلى المعركة كانت متنوعة إلى أقصى حد وتشمل كل أنواع الترسانة المتاحة، فقد كان بينهما اختلاف فى درجة التركيز على هذا السلاح أو ذاك. فكان العدو الاسرائيلى من جانبه يضغط أساسا على الطائرات والدبابات بأنواعها، بينما ركزت القوات المصرية بصفة خاصة على صواريخ الدفاع الجوى فى وجه الأولى وعلى مشاة الصواريخ فى وجه الثانية.

فبالأولى أقامت من أسفل وخاصة من قاعدتها غرب القناة سدا ناريا بالغ الكثافة والضراوة ضد الستار النارى الذى أسقطه طيران العدو من أعلى سواء من شرق أو غرب القناة. وبالثانية تصيدت مشاتنا دبابتهم ومدرعاتهم على الأرض أولا بثقل. وبهذا كانت شبكة صواريخنا المضادة للطائرات تجرد العدو بانتظام من غطاءه الجوى، فتتسلم صواريخ مشاتنا قواته المدرعة على الأرض وتبيدها على الفور وبلا ابطاء .

ومن الثابت أن التفوق العددي والنوعي في السلاح والرجال في تلك المرحلة كان لنا، في حين كان العدو ممزقا بين عملية حشد احتياطيته التي تأخرت وبين خوفه من أن يؤدي القذف به في المعركة إلى تعرية ظهره. قال دايان «في اليوم الرابع من الحرب كان لدى مصر من الدبابات في سيناء أكثر مما عند إسرائيل». ولو كانت إسرائيل قد استمرت في محاولة دفع المصريين إلى الخلف عبر القناة «لفقدنا قوتنا وتركنا إسرائيل بغير قوة».

ولقد وصف الأسبوع الأول من القتال بأنه «أسبوع تأديب للجيش الاسرائيلي»، بينما وصفه دايان بأنه «أخطر أسبوع في حياة إسرائيل كدولة». وأنه لذلك بالفعل . فلقد كانت المعركة تتلخص ببساطة وبلا أدنى مبالغة في عجز على جانب العدو ، وإعجاز على الجانب المصري. فقد اكتسح الهجوم المصري خطوط العدو ومزق صفوفه وحقق انتصارات مذهلة، وسيطر تماما على ميدان المعركة، أو كما كان يصرخ شارون في جونين «اننا نرقص على أنغامهم!».

ومنذ الساعات الأولى بدأت القوات الإسرائيلية تتحطم وتتهاوى: وحدات مدرعة برمتها تدمر وأطقمها تقتل، وأخرى يقع معظمها في الأسر أو تلجأ إلى الفرار تاركة أسلحتها ونخيرتها إما حطاما كالأطلال أو سليمة دون قتال أو استعمال، وعشرات الطائرات الأمريكية الصنع تتساقط محترقة بطياريها أو بغير طياريها الذين لا يلبثون أن يضافوا إلى قائمة الأسرى المكتظة، سواء كان ذلك على الضفة الشرقية أو الغربية.

ويكفي مصداقا، بل تلخيصا ، لهذا كله أن نقتبس قائدا من قادة العدو نفسه، ايريل شارون، الذي قال في غضب هستيري انه رأى وحدات المشاة المصرية تتقدم في تلك المرحلة «كما لو كانت في عرض خلف راياتها» بل لقد فكر العدو في بداية المرحلة في التراجع الاستراتيجي، فقد قال دايان في يوم ٨ أكتوبر «ان الموقف يبدو حرجا، وكى ندافع عن إسرائيل لم يبق أمامنا إلا أن ننسحب بقواتنا إلى خلف معرّات سيناء وعلى قمة هضبة الجولان». أما دايان نفسه فقد تحول إلى «رجل محطم» كما وصفته هاعولام هازيه التي كتبت تقول «ان الجنرال موشيه دايان قد انهيار في اليوم الثاني من حرب أكتوبر عندما حطمت القوات المصرية كل الهجمات الاسرائيلية في سيناء ووصلت القوات السورية إلى مسافة لا تتجاوز خمس دقائق من وادي الأردن، وأوقعت خسائر فادحة في الدبابات والطائرات الاسرائيلية حولت دايان إلى رجل محطم». أو كما وضعها وولتر لاكير، «فقد فاعليته وكاد يصاب بالهلع».

وإذا كانت مفاجأة هذه المرحلة هي النصر المصرى الساحق الذى حطم عصب الجيش الإسرائيلى وكسر عموده الفقرى على أقل تقدير، فإن مفاجئتها الأخرى ولا نقول الصغرى هي دور المشاة فى الميدان. فرغم أن حشود الدبابات والطائرات إلى جانب المدافع والصواريخ كانت هي المسيطرة على ميدان القتال وهي التى ملأت المسرح، فقد كان نجم المعركة ويطلها الحقيقى هو رجل المشاة والمشاة الميكانيكية المسلح بالأسلحة المحمولة الخفيفة ولكن بوجه خاص جدا بالصواريخ المضادة للدبابات والطائرات. وقد قدر العدو، إن خطأ أو صوابا، أن من بين كل ثلاثة مشاة مصريين كان واحد مسلحا بتلك الصواريخ.

وأيا ما كان، فلقد كانت المواجهة على الأرض تدور غالبا بين دبابة مدرعة وفرد بصاروخ، أو فى الجو بين طائرة مصفحة وفرد بصاروخ، وكانت النتيجة فى الأغلب سقوط الدبابة أو الطائرة، بل إن كثيرا من جنود المشاة أسقط الواحد منهم عشرات من هذه الأهداف بمفرده على امتداد المعركة. وتلك جميعا كانت ظاهرة ثورية وسابقة غير مسبوقة فى التاريخ العسكرى تحتاج إلى وقفة خاصة حين نحلل نتائج الحرب فيما بعد.

أما هنا فيكفى أن نقول إن حصيلة الأسبوع من خسائر العدو على الجملة كانت بضع مئات من الطائرات المحطمة وعدة مئات من الدبابات المحترقة، ثم بضعة آلاف من القتلى وعدة آلاف من الجرحى، أما إقليميا، فقد وصلت المنطقة المحررة أثناء تلك المرحلة إلى نطاق مهم بطول الضفة الشرقية من البحر إلى الخليج وبعمر بضع عشرات من الكيلو مترات ما بين القناة والمشارف الامامية أو الخارجية لمضايق سيناء، وكانت تتراوح محليا بين ١٠، ١٨ كم.

وقفة التعبئة

عقب الأسبوع الأول من بدء المعركة أو قبل نهايته بقليل، حدث إلى حد ما هدوء نسبى فى حدة القتال أو انخفاض ما فى سرعة ايقاع التقدم. وهو تطور كان ملحوظا أحس به الجميع لبضعة أيام وعكسته بوضوح البلاغات العسكرية المصرية كما جسّمته قلة خسائر العدو نسبيا عما أُلْفناه فى المرحلة السابقة، كما استرعى الانتباه واستثار التساؤل بل واستدعى النقد من البعض. فرغم أن الموقف كان أبعد شىء عن الجمود أو السكون وحتى عن الركود أو الاسترخاء العسكرى، فلقد شعر الكثيرون منا ومن غيرنا بعد نصر

الأسبوع السابق الساحق أن ثمة فرصة كبرى يجب ألا نضيعها وأن علينا بأسرع ما يمكن أن نستثمر انتصارنا وهزيمة العدو وانهياره البادى لنجهز عليه بضرية أقوى داحرة ونهائية.

فلقد كان أمام القوات المصرية المتقدمة أحد اختياريين: إما الاندفاع نحو الممرات للسيطرة عليها، وإما التركيز على تأمين قاعدتها الأرضية وتدعيمها . وعلى الجانب الآخر كان أمام العدو الإسرائيلي أحد اختياريين: إما الانسحاب إلى المضائق والتحصن بها، وإما الصمود والمصادمة بأمل التمكن من التقدم وربما التوغل فيما بعد. وقد كان الانسحاب كفيلا بأن يستدرج القوات المصرية خارج نطاق شبكة صواريخها الحامية ويفرض عليها الانتشار الواسع المتعجل ويطيل خطوط مواصلاتها ، وبذلك كله يعرضها لخطر الاستنزاف. غير أن خطر مثل هذا الانسحاب من وجهة نظر العدو يتمثل فى الأثر النفسى والمعنوى أولا، ثم فى احتمال تفوق المصريين واستيلائهم على المضائق أو التشبث خلفها فى حرب طويلة تستنزف العدو ولا تلائمه.

ولقد كان هناك بالفعل اغراء شديد للقيادة المصرية بأن تندفع بأقصى سرعة فى زحفها نحو الشرق وبوجه خاص نحو المضائق ، مفاتيح سيناء الاستراتيجية الحاكمة بلا جدال. فالمضائق، التى أصبحت طلائع قواتنا المتقدمة على بعد عنها يتراوح بين ٥٠ ، ١٥ كم فقط فى بعض القطاعات، هى كما نعرف قطب الجاذبية فى أى صراع مسلح يدور على أرض شبه الجزيرة، هى الرهان الحقيقى، وهى الجائزة الكبرى. ليس فقط لأن السيطرة عليها تعنى بالنسبة لنا تحرير نحو ثلث المستطيل القاعدى الشمالى من سيناء، ولا لأن هذا الثلث كساحة حرب أضيق من أن يعرضنا الانتشار فيه لخطر اطالة خطوط مواصلاتنا بصورة مقلقة، (ولا كذلك لأنه أضيق من أن يسمح للعدو بفرص الحركة الكاملة والمناورة المطلقة بالمدركات التى يعتمد عليها) ، ولكن أيضا وقبل كل شئ لأن السيطرة على المضائق تحدد مصير بقية المعركة. ولقد كان التسابق على المضائق هو بالفعل ما توقعه كثير من المراقبين العسكريين فى الخارج كالخطوة التالية للقوات المصرية والتطوير الطبيعى لهجومها بعد أسبوع النصر الأكبر.

غير أن من الواضح أن القيادة المصرية قاومت بشدة كل اغراءات الزحف السريع الكاسح وفضلت عن عمد وبوعى خطة تعميق وجودها فى القاعدة الأرضية المحررة على خطوة تنمية الهجوم وتطويره شرقا، أى فضلت التوسع الرأسى على التوسع الأفقى كما

قد نقول. أو بعبارة أخرى أثرت البطء المحسوب على المغامرة بانتهاز فرصة قد تنطوى على فخ كامن، وفضلت انزال أكبر قدر ممكن من الخسائر بالعدو من حالة الثبات - وهى أفضل وضع ممكن حينذاك - على دفع القوات وزجها فى العراء بلا غطاء أو ساتر أو تجهيز هندسى يحميها من العدو الجوى. والسبب الأساسى فى ذلك أن التوسع بعيدا إلى الشرق كان سيتقدم بقواتنا خارج نطاق تأثير وفاعلية شبكة صواريخنا المضادة للطائرات ويحرمها من حماية مظلتها، وبذلك يعرضها لأخطار الطيران العدو وقد يمنحه فرصة للتفوق غير المأمون.

وقد حدث بالفعل ، كما أعلن فيما بعد، أن القوات المصرية خرجت عن خطة الوقفة مؤقتا حين اتضح أن خطة العدو هى «تثبيتها» ومنعها من التقدم ليتفرغ لسوريا، حتى إذا ما فرغ منها عاد بكل ثقله إلينا. ولهذا، وتخفيفا لضغط العدو على سوريا فى الجبهة الشمالية، اضطرت قواتنا فى يوم ١٤ أكتوبر إلى تطوير هجومها وإلى شن هجوم واسع النطاق فى مرحلة سابقة لأوانها امتدت بمدركاتنا خارج نطاق صواريخنا المضادة للطائرات . وما إن حققت هذه الخطوة أغراضها فى إرغام العدو على سحب كثير من قواته وطائراته من الجبهة السورية، حتى عادت قواتنا إلى قاعدتها الأرضية وروس جسورها حرمانا للعدو من أى فرصة لتصيدها بطيرانه، واستدراجا لهجمات المضادة إلى مقتل محقق فى نطاق شبكة صواريخنا.

وعلى هذا الأساس روعى فى عملية الضغط هذه ألا تؤثر على التمسك التام برؤس كبارينا أو تماسكها المطلق. فتم الهجوم بجزء فقط من القوات المدرعة والميكانيكية، يتألف من مفارز صغيرة الحجم نسبيا ولكنها مؤثرة كثيفة فى قوتها النارية. وقد مهدت قواتنا الجوية للعملية بضربة جوية كبيرة بالطائرات والصواريخ على أهم أهداف العدو فى سيناء، صحبتها فى اللحظة نفسها قصفة مدفعية كبرى مركزة (٥٠٠ مدفع/ربع ساعة)، كما نقلت قوات دفاعنا الجوى بعض وحدات صواريخها مدا لغطائنا الجوى إلى أبعد مسافة ممكنة شرقا. وعلى أثر هذا التمهيد وفى ظل هذه الحماية تقدمت مفارزنا على المحاور الرئيسية الثلاثة تجاه المشارف الغربية للمضايق والممرات، وتوغلت داخل نطاقات العدو نحو ١٥ كم أو إلى مسافة ٣٠ كم من القناة، ونجحت فى تدمير الكثير من قواته هناك وفى منع تدفق قوات امداداته نحو الغرب. وعندما اتمت هذه المفارز مهمتها عادت

إلى رعوس كبارينا مرة أخرى. وبذلك كانت العملية فى آن واحد مناورة توازن مع الجبهة السورية من جهة ، ونوعا من التمهيد المسبق للتطوير الأساسى القادم لهجومنا شرقا من جهة ثانية، ثم حلقة وصل بين الوقفة التعبوية ومعركة الدبابات الكبرى الوشيكة من جهة ثالثة.

وفيما عدا هذا كان قرار القيادة أن تحرم العدو أى فرصة انتقامية، وأثرت أن تتوقف مؤقتا وقفة تعبوية تشدد فيها قبضتها على قاعدتها الأرضية المحررة وتوطد مواقعها فيها وتعيد تنظيم وتجميع القوات، وكذلك ريثما يكتمل وصول الامدادات الادارية ووحدات دفاعنا الجوى ومدرعاتنا فتحشدنا لمواجهة فاصلة. وبذلك يتم التقاط الأنفاس ويتحقق الاتزان الاستراتيجى للمسرح كله. وفى أثناء ذلك تمتص كل هجمات العدو المضادة وتحطمها موجة وراء موجة حتى تتكسر جميعا. وهكذا بالفعل كان، وكان هذا هو المدخل إلى معركة الدبابات الكبرى. وحسب هذه المرحلة أن تم فيها تدمير ٥٠٠ دبابة للعدو، بجانب آلاف من الأفراد.

ولقد كان فى هذا السياق ما قاله جونين قائد الجبهة الجنوبية فى أمر يومى من أن إسرائيل تخوض «أكثر حروبها صعوبة منذ انشائها من ٢٥ سنة»، وأن «هذه الحرب ليست حربا خاطفة ولا حربا تعتمد على الهجمات الأمامية السريعة، وإنما هى حرب قاسية ومستمرة، وأن من الضرورى أن نصارح شعبنا بأن هذه الحرب ليست معاملة لآى حرب خضناها من قبل».

وعلى هذا يمكن تشخيص هذه المرحلة التى تميزت أساسا بالتقدم البطيء الحذر بأنها كانت مرحلة من «الهجوم الدفاعى» على الجانب المصرى ومن «الدفاع الهجومى» على الجانب الإسرائيلى. وكان التكتيك المصرى أساسا هو «اجذب واضرب» : الالتصاق بقاعدتنا الأرضية فى حماية شبكة صواريخنا وعدم الابتعاد عنها وعن مجال فاعليتها، مع استدراج القوات الاسرائيلية اليها لاستنزافها على التوالى حتى تتآكل تماما. أما التكتيك الاسرائيلى فكان الهجوم المضاد، فى محاولة لمنع تقدمنا أو لتقليص جيوبنا وقاعدتنا الأرضية. فقام بعشرات من الهجمات المضادة وجهها إلى رعوس كبارينا وركزها ضد أجنابها بوجه خاص بهدف تثبيتها ثم تطويقها ثم المروق إلى المعابر لتدميرها ايقافا لتدفق قواتنا إلى المشرق ثم عزلها عن قواعدها فى الغرب.

وفى هذا الصراع ، المحلى نسبيا ، دفع كل من الطرفين بأعداد عظيمة من الدبابات، ٧٠٠ - ٨٠٠ دبابة لكل جانب، وكانت الخسائر المتبادلة كبيرة أيضا. وبينما لعبت صواريخ المشاة الكثيفة المضادة للدبابات دورا بارزا على الجانب المصرى فى هذه المعركة، لعبت الهليكوبتر المصفحة المسلحة بالصواريخ المضادة للدبابات دورا كبيرا على الجانب الاسرائيلى . وقد بلغ عمق القاعدة الأرضية المحررة فى نهاية المرحلة نحو ١٨ - ٢٠ كم .

معركة الدبابات الكبرى

تعتبر هذه المعركة ذروة أخرى من نرى حرب أكتوبر بعد نقطة القمة التى تمثلت فى العبور واكتساح خط بارليف. وهى فى الوقت نفسه ، وبإجماع كل المحللين العسكريين العالميين، واحدة من أكبر وأعظم معارك الدبابات فى التاريخ الحديث جميعا، لا تقارن الا بمعركة العلمين ومعركة ستالينجراد فى الحرب العظمى الثانية وربما فاقتهما كليهما من حيث الحجم والكثافة والضرارة . فقد حشد فيها كل من الجانبين، عدا سائر أنواع الأسلحة والقوات الأخرى، نحو ١٠٠٠ - ١٢٠٠ دبابة، وربما أكثر ، أى بمجموع يربو كثيرا على ٢٠٠٠ ، وقد يصل إلى ٣٠٠٠ دبابة. وذلك فى شقة أرضية ضيقة ومحدودة، قد لا تزيد على عدد مماثل من الأميال المربعة، يعنى نحو دبابة لكل ميل مربع، وهذه كثافة ميكانيكية ومن ثم كثافة نيران نادرة للغاية وربما غير مسبوقة وربما كذلك غير ملحقة. وليس من السهل تحديد بداية هذه المعركة بالدقة أو بالضبط، وان كانت نهايتها محددة بوضوح. فمنذ اليوم السادس للقتال بدأ المراسلون والمراقبون يتحدثون عن «أكبر المعارك البرية فى سيناء» و«أكبر معارك الدبابات فى التاريخ». وكان كل يوم يتلو يعد من جديد «أكبر معارك المدرعات فى التاريخ»، وهكذا بانتظام. لقد كان الخط البيانى للمعركة فى تصاعد رهيب، وكانت المعركة كل يوم طاحنة أكثر منها فى أى يوم مضى بلا استثناء. غير أن الذروة القمية السامقة التى تحدد بداية «معركة الدبابات الكبرى» هى يوم ١٥ أكتوبر، ومنه استمرت بلا انقطاع فى التصاعد حتى نهاية القتال فى ٢٥ أكتوبر، أى أنها اتصلت ١٠ أيام كاملة.

وقد كان الاجماع العالمى تاما على أنها قد تحدد مصير الحرب جميعا، ويات العالم يترقب نتيجتها بأنفاس معلقة. ليس هذا فحسب، بل إن الاجماع كان مطلقا أيضا على

أنها تجاوزت كل حروب المدرعات فى تاريخ الحرب الحديثة بحيث لم يشهد العالم مثلاً فى التاريخ ولم يسبق لها مثل فى الحجم والشراسة والتدمير. بل لقد وصلت فى مراحل معينة إلى حد المعركة الانتحارية من الجانبين، إذ قذف كل منهما فيها بكل أسلحته الثقيلة والصغيرة، البرية والجوية، وكلما زادت الخسائر دفعا بالمزيد من القوات. وتحول مسرح المعركة إلى جحيم من النيران الكثيفة لا ينقطع، وبكثافة مماثلة امتلأت أرضها بالحطام المحترق والمهشم والجثث المتفحمة.

ولنفصل . على القطاع الأوسط من الجبهة دارت المعركة، تصادمية هائلة بالمدرعات، استنزافية رهيبة بالمدفعية، وانقضاضية مريعة بالطائرات. وفيها لعبت صواريخ المشاة المضادة للدبابات والطائرات دوراً حاسماً مرة أخرى. وقد بدأ العدو أولاً بهجمات مضادة محدودة، ما لبث أن صعدوا إلى هجمات أساسية متواترة ليلاً ونهاراً على جميع رؤوس كبارينا. ولكنه ركز أساساً على الجانب الأيمن للجيش الثانى، هادفاً إلى تصفية رأس الجسر فى هذا القطاع والاستيلاء على رقعة من الضفة الشرقية للقناة وشرط قواتنا على تلك الضفة . ولكنه فى وجه مقاومة ضارية وبأسلة فشل، ولم ينجح فى أكثر من أن يدفع بتلك الأجناب إلى الخلف مسافة ٢ - ٣ كم فقط، لم تلبث قواتنا أن استردتها وأغلقت الثغرة مكبدة العدو خسائر فادحة . ومع ذلك فقد أصر العدو على مواصلة الهجوم بأى ثمن، فدفع بالمزيد من قواته وتوالت هجماته ولكن أيضاً تصاعدت خسائره. غير أنه بعد بضعة أيام من الخسائر الفادحة وبعد أن ألقى بنحو ٥٠٠ دبابة فى المعركة استطاع دفع أجناب الجيش الثانى إلى الخلف نحو ٨ - ١٠ كم. وكان هذا هو التمهيد والمدخل إلى عملية التسلل إلى الضفة الغربية كما سنرى، كما كان حلقة الوصل بين معركة الدبابات الكبرى فى سيناء وعملية جيب الضفة الغربية.

ومنذ البداية بدا واضحاً أن معركة الدبابات ، التى استطالت ذروتها إلى أكثر من الأسبوع ، ستكون فاصلة وربما تحسم الحرب الرابعة عملياً كما توقع كثير من الخبراء . وبالفعل أخذت المعركة فى أيامها الأولى مساراً محدداً لصالحنا بصورة قاطعة وضد العدو الذى بدا انهاك واستنزافه جلياً لا يخفى على أحد . والواقع أن العدو الذى كان قد قذف فيها بمعظم احتياطيهِ الاستراتيجي بدأ يشعر بنقص قوته البشرية مثلما بدأت قواتنا تشعر باختلاف وتدهور نوعية رجاله . وأخطر من ذلك أن العدو ، كما اتضح فيما

بعد ، كان قد بدأ يعاني بشدة من نقص سلاحه عامة وذخيرته خاصة بصورة خطيرة لم تكن لتسمح له بمواصلة القتال لأكثر من ثلاثة أيام أخرى باعتراف دايان نفسه.

ولا غرابة بعد هذا أن يضطر هذا الأخير أن يقول للإسرائيليين أثناء المعركة «هذه حرب صعبة، معارك الدبابات فيها قاسية، ومعارك الجو فيها مريرة، انها حرب ثقيلة بأيامها ، ثقيلة بدمائها. وليس أمامنا الا أن نقاتل بقلوب كسيرة، ولكن علينا جميعا أن نطوى أعماق قلوبنا على الأحزان». وحين أحس العدو أنه لا محالة خاسر المعركة وأن الدائرة ستدور عليه، بدأ يمهّد للتقليل من خطورتها انقاذا لروحه المعنوية، فأعلن قاداته أن المعركة الحاسمة لن تكون هذه التي تدور على الجبهة الوسطى ولكن تلك التي ستدور على القطاع الجنوبي. كذلك راح يعلن استعداداته لقبول وقف إطلاق النار بشروط بادية الافتعال لا يقصد بها الا حفظ ماء وجهه واخفاء هزيمته الحقيقية.

وفجأة، وعند هذا الحد ، أخذ الموقف منعطفًا جديدًا وخطيرًا. فقد بدأت الإمدادات الأمريكية تتدفق على العدو بمعدل صارخ وبغير حساب، فوق جسر جوى وآخر بحرى حشدت له أمريكا أحدث ما فى ترسانتها من أسلحة متطورة لم يسبق قط استخدامها حتى فى فيتنام بما فى ذلك القنبلة التليفزيونية وصاروخ T.O.W المضاد للدبابات وصواريخ وول آى ومافريك وستاندارد وشرايك وغيرها كثير، وكلها يمتاز بإحكام التصويب الفائق. هذا عدا مئات الطائرات والدبابات.

وهذه الإمدادات ، التى بلغ وزنها عشرات الآلاف من الأطنان وقيمتها عدة مئات من ملايين الدولارات، جمعت من القواعد الأمريكية فى أوروبا ولكن أساسا من الولايات المتحدة إلى حد أن هددت مخزونها الاستراتيجى هى نفسها (أعلنت أمريكا بعد الحرب أنها أساءت تقدير كمية الذخائر الضرورية فى حالة نشوب أزمة مثل الحرب العربية الاسرائيلية بشكل خاص). وكان جزء كبير من هذه الإمدادات يصل إلى ميدان القتال فى سيناء نفسها رأسا، العريش فى البداية وربما فيما بعد الدفرسوار، أحيانا نون حتى تغيير علاماتها أو ألوانها، وأحيانا بطواقم أمريكية كاملة. والمفهوم أن هذه الأسلحة حدت من فاعلية صواريخنا التى كانت متفوقة ضد الدبابات والطائرات.

لقد دخلت أمريكا المعركة مباشرة. حقا لقد كانت دائما فى الصراع كله، وفى المعركة نفسها، ولكن ليس بمثل هذا السفور والمباشرة والتحدى ولا بكل ثقلها هذا . من هنا

ظهرت على مسرح المعركة حشود جديدة، طازجة وغير منهكة، من السلاح والقوات. والمقدر أن عدد الدبابات الجديدة وحدها وصل إلى ٥٠٠ دبابة. ولهذا يمكن اعتبار هذه المعركة أساسا معركة مصرية - أمريكية أكثر منها مصرية - إسرائيلية.

وقد ردت القوات المصرية على هذا التحدى الجديد بهجوم صار مروع غير مسبوق على الاطلاق ، وكبد العدو خسائر رهيبة حتى اعترف القائد الاسرائيلى لسيناء أن «المصريين يقاتلون بشراسة انتحارية فى أعنف رد على تحركاتنا. انهم يقسومون بهجمات كثيفة ويربون بنيران كثيفة وأسلحة كثيفة وأسلحة مضادة للدبابات كثيفة وأعداد كثيفة من الدبابات. انهم يفعلون كما فعل الصينيون فى كوريا، يهاجمون بموجات وراء موجات ويحاربون بعناد شديد».

هذا بينما شكا الجنود الاسرائيليون أنفسهم من أن «انتشار الدبابات المصرية فى سيناء قد صنع جدارا سميكاً من الصلب، بينما ينتشر المشاة الميكانيكية فى مواقعهم يصيبون دباباتنا بصواريخهم التى تطلق من الكتف، كما أن كثافة النيران المصرية قد وضعت الطيران الاسرائيلى فى موقف بالغ الصعوبة، وذلك عدا العناد الفائق الذى يقاتلون به».

جندى اسرائيلى آخر ممن شاركوا فى القتال و(الهزيمة) على جبهة القناة قال للصحفى الفرنسى اريك رولو ما ترجمته «كانت تجربة مروعة بالنسبة لى. كان لدينا الاحساس بأننا نواجه هجوما من أمواج لا تنتهى من النمل المتعاسك الملتصق ببعضه البعض، والمصمم على أكلنا. كان هذا هو حالنا أمام الجيش المصرى عند قناة السويس. أمواج متلاحقة من المدرعات والدبابات والعربات، تقذف علينا القنابل والقذائف والصواريخ، وكلما حاولنا ان نسكت تشكيلا من تشكيلات الجيش المصرى المهاجم، فوجئنا بإحلال قوة جديدة مكان القوة التى نجحنا فى اسكاتها، وتبدأ القوة الجديدة فى قصفنا وضربنا بقسوة وبإصرار».

هكذا أطلال التدخل الأمريكى العدوانى القتال، وزاد من خسائر الجانبين بصورة مزعجة، وربما أفقد القوات المصرية هامشا ضيقا من نطاق الأرض المحررة حيث ان عمق هذا النطاق فى نهاية القتال يقصر بضعة كيلومترات عن الحد الأقصى الذى كان قد سجله فى أوج النصر. ومع ذلك فإن هذا التدخل غير مصير المعركة بالكاد، أو هو

بالتقريب حَيّد نتيجتها إلى نوع من التعادل فيما يبدو للبعض. ومهما يكن، فلولاها لنالت إسرائيل بالتأكيد هزيمة محققة كانت جديرة بجسم بقية الصراع الى حد كبير على أرجح الآراء.

وفى نهايات القتال، التى صبت القوات المصرية على العدو فى الأيام القليلة الأخيرة منها كمية من النيران تفوق كل ما صبته عليه طوال أيام المعركة السابقة، كان الموقف النهائى كالاتى: المنطقة المحررة فى سيناء ساعة وقف اطلاق النار، كما أعلنت القيادة المصرية فى يوم ٢٢ أكتوبر، تشمل الشاطئ الشرقى لقناة السويس برمتها من رأس مسلة على خليج السويس حتى بورفؤاد بطول ٢٠٠ كم، وبعمق يتراوح بين ١٢ ، ١٧ كم شرقا، بما فيها مدينة القنطرة شرق، وفيما عدا ثغرة ضيقة من الدفرسوار شمالا بطول ٧ كم ملاصقة للبحيرات المرة. وتبلغ مساحة هذه المنطقة التى نسيطر عليها تماما ونؤمنها بقوة ٣٠٠٠ كيلو متر مربع. كذلك فإن خطوط اتصالنا وتموين قواتنا بالمنطقة منتظمة ومضمونة تماما.

وينبغى أخيرا أن نضيف أنه منذ انتهى القتال رسميا لم يتوقف تبادل النيران إلا بالكاد، بل بكثافة متصاعدة، وكان لقواتنا دائما فيه اليد العليا. فلم تكف عن إلحاق الخسائر الفادحة بالعدو وعن منعه من تحسين مواقعه وحرمانه من الاستقرار أو الاسترخاء. وفرضت عليه حرب استنزاف من نوع جديد كما وصفها العدو نفسه. ومن جهة أخرى لم تكف قواتنا عن تحسين مواقعها وتوطيدها بعمق وعن توسيع رقعة سيطرتها شرقا، كما فى عيون موسى مثلا.

كذلك أخذت تدعم جسور الاتصال عبر القناة، فأصبح لنا ٥ جسور، بعضها تحول إلى طرق ثابتة لا مجرد كبار عائمة. وفضلا عن هذا فلم يكن هناك نقص فى تموين القوات لا فى السلاح ولا فى الذخيرة ولا الماء، بما فى ذلك الجيش الثالث فى القطاع الجنوبي الذى حفر كثيرا من الآبار ليوفر لنفسه كل موارده المائية المطلوبة.

وفوق كل هذا فلقد بدأت القوات المصرية شرق القناة تقيم، كما أعلن العدو محذرا الاسرائيليين، قواعد جديدة للصواريخ المضادة للطائرات، تمتد بطول القناة ويتجاوز مداها الى ما بعد ممرى متلا والجدي بمسافة كبيرة. وبالمثل أقامت صواريخها أرض - أرض البعيدة المدى بعد أن حركتها من الداخل الى الضفة الشرقية للقناة لتصبح

أكثر قربا من عمق إسرائيل. باختصار، كانت القوات المصرية شرق القناة في وضع استعداد كامل لاستئناف القتال بكفاءة تامة، فورا وأشهر عديدة حتى بما تختزن وحده فقط من أسلحة وذخيرة وتموين.

عملية التسلل

بدأت هذه العملية، «عملية شارون» كما يسمونها، وإن ثبت الآن أنه لم يكن مخططها الأصلي أو الوحيد، بدأت في ليل ١٥ - ١٦ أكتوبر، أى في اليوم العاشر من المعركة، وامتدت على مدى أسبوع، الأسبوع الأخير، حتى وقف إطلاق النار في ٢٢ أكتوبر، ولكنها ظلت مستمرة بعده بضعة أيام أخرى في تلاعب فاضح بالقانون الدولي وبصفة غير مشروعة. وهى بهذا قد استغرقت في جملتها نحو ١٠ أيام. ومعنى هذا أيضا أنها تعاصرت تقريبا مع معركة الدبابات الكبرى، بدأت معها أو عقبها بقليل، ثم سارت موازية لها حتى تجاوزتها في النهاية. والواقع أنها ما قامت الا كنتيجة تعويضية مباشرة لتلك المعركة ولا تسلك بنجاح نسبي الا في ظلها وانتهازا لها، كما أنها لم تلبث أن تداخلت معها وتشابكت حتى اندغمتا كليهما في ملحمة عظمى واحدة على جانبي القناة. فالعلاقة بينهما إذن وثيقة عضويا ووظيفيا وسببيا وتوازنيا.

تفصيل ذلك أن إسرائيل تحت ضغط المعركة وتدهور موقفها فيها حاولت أن تفتح جبهة جديدة لا تخفف ذلك الضغط فقط وإنما كذلك تنقله الى مؤخرة القوات المصرية، وربما كذلك بأمل أن تقلب معادلة القوة في الميدان وموازين المعركة برمتها في النهاية. ففضلا عن أن هذا ينقلها من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم، وقد يمنح قواتها فرصة الوصول الى شبكة صواريخنا المضادة للطائرات وتدميرها برا بعد أن فشل طيرانها في ذلك جوا، فإنه قد يرغم مصر على أن تسحب جزءا من قواتها في سيناء الى غرب القناة، والا فإنها تستطيع على الأقل أن تخلق لها متاعب خطيرة وحقيقية في مؤخرتها وتشيع بذلك جوا مقلقا من التشويش والاضطراب في جبهتها. أو كما عبر - واهما! - شارون نفسه، حتى تكون الثغرة بمثابة «مسدس مصوب نحو القاهرة، وحبل حول رقبة الجيش الثالث».

وفى كل الأحوال فإن ذلك يكفل لإسرائيل نصرا دعائيا ونفسيا وسياسيا داويا، مهما يكن كاذبا أو وهميا، يرفع روحها المعنوية المنهارة في الداخل، ويغطي على سمعتها

العالمية التي تحطمت، ومن الناحية الأخرى يطفى على الانتصار المصرى الحقيقى ويشوهه فى نظر العالم، الى جانب تأثيره العكسى وانعكاساته الضارة على معنويات مصر والعرب.

هكذا كبديل عن عجزها فى المواجهة التصادية المباشرة، لجأت اسرائيل الى سلاحها الأثير وهو استراتيجية الاقتراب غير المباشر indirect approach التى تقوم على الاختراق ثم التطويق فالتصفية، والتى مارستها بنجاح فى حرب السويس وحرب يونيو من قبل والتى تكفل مجالا واسعا لعنصر المفاجأة وتكتيك المناورة الواسعة المدى التى تلائم بدورها سلاح الدبابات والمدفعات. من هنا بدأ العدو، فى غمرة انشغالنا بمعركة الدبابات الكبرى، يبحث عن ثغرة او نقطة ضعيفة يتسلل منها. وقد اتضح فيما بعد أن العدو كان قد خطط لهذا الاحتمال واستعد له بل ومهد فتحات فى الساتر الترابى حدها بعلامات معينة من الحجارة تحسبا للعبور.

ومن المؤكد والمسلم به الآن أن هذا البحث تم بتواطؤ ومساعدة طائرات التجسس الأمريكية التى قامت فى تلك الفترة بعدة طلعات متخصصة على الأجواء المصرية العليا حيث رصدت ثغرة مخلخلة الكثافة الدفاعية نسبيا فى منطقة الانتقال او جبهة الانفصال بين الجيشين المصريين الثانى والثالث شرق القناة فى قطاعى الجبهة الشمالى والجنوبى على الترتيب. ومن المقرر والمسلم به عسكريا أن وجود ثغرات فى جبهة الحرب الصحراوية التى يتم التقدم فيها كقاعدة على محاور رئيسية، ليس خطأ من حيث المبدأ، ولكن الخطأ أن تترك للعدو فرصة استغلاله، خاصة فى مناطق الانتقال بين الجيوش المتجاورة.

ومن المعروف والمسلم به أيضا ان اسرائيل منذ فوجئت بالعبور المصرى وتدمير خط بارليف وهى تهاجم فى القطاع الأوسط بضراوة بالطيران والمدفعات من أجل العبور المضاد. وفى هذا السبيل حاولت فيها يبدو أن تتسلل مرة عند كبريت على العنق المختنق بين البحيرات المرة الكبرى والصغرى ولكنها لاقت مقاومة عنيفة لعلها كانت بداية ذلك الحصار الطويل الذى صمد له الموقع صموده التاريخى والباسل. كذلك حاولت أن تتسلل عبر منطقة الفردان، أى فى ذلك القطاع من القناة الواقع بين بحيرة التمساح جنوبا ومضيق القنطرة شمالا. والمرجح ان هدفها من ثغرة فى الفردان كان أن تنفذ منها الى

احتلال الاسماعيلية والقنطرة غرب ثم حصار بورسعيد بعد ذلك. غير أنها فشلت وردت على أعقابها، ومن ثم عاودت التسلل من نقطة أخرى إلى الجنوب أكثر هي منطقة الدفرسوار، التي تقع على الزاوية الشمالية الغربية للبحيرات المرة الكبرى. فما هو الفارق بين النقطتين، وما مغزى تحول العدو عن الأولى الى الثانية؟

من الثابت المقرر في جغرافية مصر العسكرية كما رأينا أن الهدف الاستراتيجي الأول لمن يهاجم القناة من الشرق هو الاسماعيلية. أما طرفا القناة فأقل أهمية كمدخل السويس لأنها تؤدي الى وراء صحراوي غير معمر، وليس خلفها الا الطريق البري الى القاهرة رأسا. وبذلك لا تصلح الا طريقا لمقامرة كاملة، وفي ظروف المعركة الحالية مقامرة مجنونة، لهجوم خاطف على العاصمة نفسها. وهذا لا يعنى مع وجود قواتنا الاساسية في شرق الدلتا سوى قطع الطريق عليها وحصارها وابادتها تماما.

أما بورسعيد فأكثر بعدا وتطوحا وأقل أهمية. وقد حاول العدو في المعركة أن يركز عليها من الجو على أية حال. فانقلب عليها بالغارات المكثفة التي لم تكد تنقطع طوال ساعات النهار والضوء. وذلك بصورة هستيرية ووحشية وبلا تمييز بين الأهداف العسكرية والمدنية، ربما ليحطم الروح المعنوية، وربما تمهيدا لمحاولة انزال أو إبرار. ولكن محاولاته جميعا فشلت على صخرة المقاومة الهائلة والصمود الرائع ورغم الدمار الكبير الذي أصاب المدينة الباسلة وبلغ نسبة ٣٠ - ٤٠ ٪ من مبانيها.

الاسماعيلية اذن هي المدخل الطبيعي للهجوم على القناة من الشرق. وثاني أفضل بديل لها هو منطقة الفردان لأنها تتوسط قطاع جزيرة البلاح، تقريبا ما بين الاسماعيلية نفسها جنوبا والقنطرة شمالا. وحين عجزت القوات الاسرائيلية المتسللة عن المروق عبر منطقة الفردان، وجدت الثغرة البديلة في الدفرسوار جنوبا على رأس البحيرات المرة الكبرى. وهنا نلاحظ ان العدو قد عبر القناة الى الغرب من أوسع قطاعاتها، على عكس ما فعلنا نحن حين عبرناها الى الشرق في أضيق قطاعاتها.

ورغم أنها بديل ضعيف، لا يتحكم في مصادر المياه الحيوية لتموين المنطقة والقوات، وتميل كثيرا الى الموقع الجنوبي بعيدا عن وسط الجبهة ، فللدفرسوار بضع مزايا مع ذلك، فهي مفترق طرق برية شمالا الى بورسعيد وجنوبا الى السويس وغربا الى الوادي. ثم ان موقعها على رأس البحيرة يعطى عدة ميزات للمهاجم. فالبحيرة عكس القناة

تمثل منطقة ضعف فى الاستحكامات الدفاعية، ان لم تكن أضعف نقطة فيها، لأن الدفاعات خلف البحيرات عموما وكقاعدة تكون عادة اضعف منها خلف الأنهار او القنوات اعتمادا على اتساعها واستبعاد احتمالات اختيارها للعبور. ولقد كان على هذا الأساس بالفعل ان ارتكز خط تقسيم الجبهة بين جيشينا الثانى والثالث شرق القناة على منطقة البحيرات المرة بالذات. كذلك كانت التحصينات الدفاعية على جوانبها المقابلة غربا أقل كثافة وقوة منها على بقية جبهة القناة. وهذا وذلك باعتبارها خط دفاع طبيعى لا يصلح لعبور قوات كبيرة ولا يرجح الاقدام على الهجوم عبره.

هكذا اختار العدو عن عمد أن يعبر عند البحيرات المرة كنقطة لا يتوقع العبور عندها فى الظروف العادية. ورغم مخاطرها وصعوباتها، فإن هذا كان كفيلا بأن يحقق عنصر المفاجأة، كما يعطى فرصة للقوات المتسللة من الشرق أن تعبر مسطحها الواسع بعيدا بقدر الامكان عن أنظار ونيران قواتنا المرتكزة على الضفة الغربية وكذلك طائراتنا من أعلى. وأخيرا فإن المنطقة لكثرة ما بها من حدائق وبساتين كثة بأشجار الفواكه وحقول القصب، ثم مخازن ومباني حظائر مطارات مهجورة او قديمة، فضلا عن الحشائش البرية العالية شبه السافانية، يمكن أن تقدم أرضا صالحة للاختفاء والتمويه، لاسيما بالنسبة للدبابات، أضف كذلك انتشار القرى والعزب وأشجار مصدات الرياح.. الخ (كان هناك اقتراح مصرى قبل الحرب بإزالة هذا الغطاء النباتى الخطر وتهجير فلاحيه، ولكنه لم يتحقق).

ولقد كادت العملية، عملية التسلل، تفشل فى البداية، والمعتقد أن العدو أوشك أن يتراجع عنها. ولكن التسلل نجح ليلا بطائرات الهليكوبتر وعلى نوع من الأطواف العائمة، وليس بالدبابات البرمائية وحدها كما ساد الاعتقاد أولا. فقد استخدم العدو فى بداية العبور عددا صغيرا من الدبابات تلتصق بها من أسفل قطع متكاملة من كوبرى عائم بحيث تنفصل عنها عندما تصل إلى الشاطئ فتعبر عليها الدبابة اليه فى حين تتلاحم تلك القطع فى كوبرى تام، يصبح بعد ذلك معبرا جاهزا للدبابات العادية.

وتذكر «الشرارة» انه قد تبين فيما بعد أن العدو استعمل فى البداية عددا من الدبابات المصرية التى كان قد غنمها سليمة فى حرب يونيو، فعبرت بالخداع نون

مقاومة، حيث ظنّها السكان المحليون من قواتنا في حين كانت قواتنا المحلية محدودة اعتماداً على دفاعات البحيرة الطبيعية. وقد نجحت هذه الدبابات في الاختفاء بين الأشجار والجناين. ولم تكتشف الخدعة كلها إلا بعد أن كان عدد كبير نوعاً منها يقدر ببضع عشرات قد تسلل بالفعل. وحين بدأت المقاومة الجديدة، كانت أعداد أكبر قد تدفقت من قبل عبر ٢ جسر أقامها العدو بعد ذلك ليلاً. وكان العدو بهذا قد نجح من أسف في إقامة رأس جسر محدود. وفيما بعد قام العدو بإنشاء كوبرى ثابت له عبر القناة عند الدفرسوار من كتل الحجارة الضخمة أسقطها في القناة حتى صار بعرض ٢٠ متراً عند السطح، ١٠٠ متر عند القاع (أصبح من المقرر الآن إزالة هذا الكوبرى الذى سد القناة). وقد كان أول عمل وهدف للقوات المتسللة هو شبكة قواعد الصواريخ أرض - جو المضادة للطائرات، تلك التى عجز أزعاج طيرانهم كلية وأصابت قواته الجوية بأقبح الخسائر. فقام على الفور بضربها وتدمير كل ما يمكنه منها على الأرض، وإن وجد معظمها قواعد هيكلية خداعية.

وبهذا ضمن العدو لنفسه ثغرة فى أجوائنا فتحت الطريق أمام طيرانه وأعطته حرية العمل التى حرم منها طوال الحرب. لاسيما أن قيامتنا قررت عندئذ سحب باقى صواريخنا فى القطاع الجنوبى من الضفة الغربية صونا لها من التدمير وحفاظاً على سلامة نظام دفاعنا الجوى. وكان هذا كله مما ساعد بعد ذلك على تدعيم عملية الاختراق وتأمين تعزيزها بالامدادات المتزايدة. كذلك كانت بطاريات مدفيعتنا وطرق مواصلاتنا وامداداتنا من أهداف العدو. كذلك سارع العدو الى الاستفادة من المطارات الأمامية الثلاثة الموجودة بالمنطقة، بما فيها مطار الدفرسوار المهجور.

ورغم المقاومة المستميتة لقواتنا والهجمات المضادة التى قامت بها بالمدفعية والطائرات لتقليص حجم رأس الجسر وتدمير معابرهِ واحتواء الجيب كله لضربه فى النهاية، إلا أن الواضح أنها جاءت متأخرة بعد أن تدعم رأس الجسر وتحول إلى جيب متوسع باطراد وبعد أن نجح العدو فى تحقيق اغراضه فى شق ثغرة فى صفوفنا وفتح جبهة خلفية وراءها. والمقدر أن العملية التى بدأت بتسلل نحو ٤٠ دبابة ليلة ١٦/١٥ أكتوبر، كانت قد تدفقت وراءها نحو ١٩٠ من دبابات الكوماندوز فى خلال اليوم أو اليومين التاليين، وفى ٢٠ أكتوبر، حسب التقديرات الأمريكية، كان حجم

القوة الاسرائيلية العاملة غرب القناة نحو ٢٠٠ - ٣٠٠ دبابة مع ١٢ ألف جندي. وحوالي وقف اطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر كانت القوة قد وصلت الى نحو ٥٠٠ دبابة. لقد تحول التسلل إلى ثغرة، والثغرة الى اختراق.

وعند هذه النقطة ينبغي علينا أن نعود الى العلاقة بين عملية الاختراق هذه غرب القناة ومعركة الدبابات الكبرى شرقها. لقد كانت بداية الاختراق كامنة في الثغرة الفاصلة بين الجيشين الثاني والثالث شرق القناة، وبها ارتبطت تغذيتها وتوسيعها، وعليها كان يتوقف استمرارها ثم مصيرها. ومنذ بدأ العدو عملية الاختراق أخذ يمهّد لها بتأمين تلك الثغرة. فنشر قواته من مدرعات وصواريخ مضادة للدبابات على جانبي ممر تلك الثغرة شمالا وجنوبا لضمان استمرار فتحها ومنعاً لقوات الجيشين الثاني والثالث قرب المحور الأوسط من الإطباق عليها وغلقها من الشمال والجنوب على الترتيب. ولهذا أخذ العدو يركز ضغوطه على جناحي الجيشين وأجنابهما، متخذا موقفا دفاعيا في الشمال في محاولة لتثبيت الجيش الثاني، وموقفا هجوميا في الجنوب في محاولة لزحزحة الجيش الثالث جنوبا. ومن الجانب المصري احتدمت معركة الدبابات في شرق القناة الى الذروة في محاولة لاغلاق تلك الثغرة وقطعها حتى تتوقف تغذيتها بالقوات والتعزيزات وبذلك يتم تطويقها غرب القناة وتدميرها في النهاية. وفي التقديرات الأمريكية أن هذه المعركة انتظمت نحو ٨٠٠ دبابة على الجانب المصري ونحو ٦٠٠ دبابة من جانب العدو. وفي تقديرات أخرى أن قوة العدو العاملة في سيناء حينذاك كانت نحو ١٠٠٠ دبابة.

وقد اشتدت بالفعل ضراوة معركة الدبابات شرق القناة وخاصة حول ممر الثغرة وعلى طول المحور الأوسط، وأنزلت القوات المصرية بالقوات الاسرائيلية خسائر فادحة، لكن دون أن تحسم المعركة مع ذلك. ونجح العدو في دق إسفين عميق نسبيا، ٧ - ٨ كم، بين قوات الجيشين المصريين. والسبب الأساسي في هذا يرجع إلى الأسلحة الأمريكية الحديثة التي تدفقت على العدو بشدة. ولهذا ظلت التعزيزات المعادية تتدفق عبر عنق الثغرة الى غرب القناة، كما ظل الجو مفتوحا بحرية أمام طيران العدو، مما حد من فاعلية الهجوم المصري المضاد غرب القناة ومكن العدو من توسيع جيبه باطراد. غير أن خسائر العدو في عنق الثغرة وجيبها بلغ حدا مروعا، وتحولت المنطقة بما فيها مياه القناة إلى مقبرة حقيقية

لدباباته وأفراده، أو كما أذاعت رويتر بعد انتهاء القتال «مازال حطام الدبابات الاسرائيلية طراز سنتوريون، وعليها آثار الحريق والرماد، مبعثرة على امتداد المسطح الصحراوي، ذكرى للمعارك التي تمثل أروع الانتصارات المصرية».

ومن الوجهة الاستراتيجية، فإن من المحقق رغم النجاحات التكتيكية والميدانية التي حققها الاختراق، ان حجم العملية لم يكن بالذى يمكن أن يغير مجرى الحرب أو يقرر مصيرها. ومن الثابت عجز اسرائيل عن توفير قوات أكبر للعملية. ولم يكن أمامها الا أن تسحب من قواتها فى سيناء المشتركة فى معركة الدبابات الكبرى، ولكنها لم تستطع الاقدام على هذه الخطوة خشية أن تعجز عن حماية ممر ثغرتها فتقع فى حصار كامل. وإذا كان ثمة تأثير استراتيجى مهم للعملية فهو أنها قد منعت القوات المصرية من أن تطور هجومها الكبير فى اتجاه الممرات وفرضت حدودا معينة على الزحف شرقا فى سيناء. وهذا نور وان كان خطيرا فهو سلبى أساسا.

من هنا نظر العسكريون فى العالم الى العملية نظرة متحفظة محدودة. فالعسكريون الامريكيون مثلاً كانوا لا يرون ان اختراقه غرب القناة قادرة على أن تؤثر تأثيرا جوهريا فى سير المعارك. وفى رأى بعض المراقبين المحايدى ان هذه الثغرة فى ظروفها وبأوضاعها لو كانت أمام أى جيش آخر لغيرت مجرى الحرب، لكن الاسرائيليين عجزوا عن أن يخلقوا منها أكثر من جيب محاصر بسبب تماسك القيادة والقوات المصرية التى اعتبرت العملية فى النهاية مغامرة دعائية سياسية نفسية ولكنها عسكريا محكوم عليها بالاحتواء والفناء، وإذا كان وقوع هذه الاختراق مما يحسب على القيادة المصرية، فمما يحسب لها بلا شك كذلك هدوء أعصابها ورباطة جأشها وموقفها الصامد ازامها. وفى وجه دعوات الانسحاب من الضفة الشرقية (تذكر عقدة الانسحاب المذعورة!) او تقليص حجم المعركة فيها للالتفات الى الثغرة، قررت الصمود والمواجهة فى الضفتين، وينجاح طيب ولا بأس به فى النهاية.

فإذا عدنا الآن الى رأس الجسر النامى على الضفة الغربية حول الدفرسوار، فقد كان أمامه فرص الانتشار المروحي، أى استراتيجية المروحة، إما شمالا الى الاسماعيلية، وإما جنوبا الى السويس، وإما الى الاثنتين معا. وقد كان شارون يريد الخطة الأخيرة، ولكن قيادة العدو رفضت، كما لم تكن الامدادات او الاحتياطيات كافية للاتجاهين.

ولهذا اتجه التقدم أولا نحو الشمال على طريق الاسماعيلية، ولكن الجيش الثانى استرد الساتر الترابى على ضفة القناة الغربية المواجه لمنطقة الثغرة شمال الدفرسوار، ودمر قوات العدو وضربه عند نفيشة، فظل جيب العدو محدودا للغاية. وهنا عاد العدو فاتجه جنوبا ونجح فى احتلال سرايوم شمال البحيرات المرة الكبرى، ومنها بدأ الزحف تجاه السويس، ولكن هذا انما تم أساسا استغلالا لقرار وقف اطلاق النار.

ولما كان هذا التقدم الأخير قد تم فى نطاق الجيش الثالث وقرب مؤخرته، فإن هذا يفسر تواتر الحديث، ان خطأ أو صوابا، عن متاعب هذا الجيش بالتحديد. وقد كان هدف هذا الزحف أن يحاصر بسرعة مواقع الجيش الثالث من الخلف، وبذلك يعزله بقطاعيه على الضفتين الغربية والشرقية عن قاعدة الامداد والتموين فى الدلتا والعاصمة، كما يقطع مواصلاتهما ومعابرهما عبر القناة. وبذلك كله كان العدو يأمل أن يتحول الاختراق الى انتهاء الطبيعى وهو التطويق، والواقع ان العدو بعد أن حقق بعض النجاح الأولى، قرر أن ينتهز الفرصة ليحرز نصرا عسكريا أساسيا بأى ثمن ليعوض به هزائمه السابقة.

غير أن الشئ الغريب هنا أن العدو، الذى قام بعمليات ارهاب وخطف أى حملة تخريب ونهب اجرامية واسعة النطاق فى المناطق المأهولة من القطاع، اتخذ فى توسعه شكلا انتشاريا مثيرا للغاية. فانتهازا لفرصة احتمالات وقف اطلاق النار التى كانت تلوح فى الأفق، ثم أكثر منها اعلان الوقف فعلا، لجأ العدو المخادع الى الانتشار على أوسع مدى ممكن فيزيقيا بأقل كثافة ممكنة عسكريا. وقد ساعده على هذا طبيعة الأرض والطبوغرافيا فى هذا القطاع الجنوبي المرتفع من الضفة الغربية الذى تكثر فيه، على العكس من القطاع الشمالى السهل المكشوف، التلال والتبات والأودية والخيران التى تصلح كثيرا للتسرب والتسلل والانتشار فى خفاء. كما استغل العدو أن يد القوات المصرية المدرعة لم تكن، على النقيض منه، مطلقة الحرية فى ضرب نيرانها حفاظا على أبناء المنطقة من السكان الوطنيين.

هكذا كان كل هم العدو أن يتوزع على أكبر مساحة متاحة تمهيدا وترتوبا لآى ادعاءات اقليمية قد يساوم عليها فيما بعد. ولهذا أخذ يرسل بوحدات مفتتة وقزمية، مفارز كالشظايا أو الشرانم من دباباته ومدرعاته فى كل اتجاه لتتداخل الى اقصى حد بين

صفوف قواتنا ومواقعنا فيما وصف بحق باستراتيجية حرب عصابات دبابات (الأستاذ محمد حسنين هيكل). وهذا وحده ما سوف يفسر صعوبة الفصل بين قوات المتحاربين فيما بعد، ثم من قبل اتساع نطاق وجود العدو نسبيا.

فهو يوجد - أو كان - فى شريحة أو شريط ضيق طوله نحو ٥٠ كم، أو بالأحرى كلسان مسحوب على ضفة القناة الغربية حتى مدينة السويس جنوبا بضواحيها وموانئها الأدبية والزيتية ومشارف جبل عتاقة، ثم فى بضعة ألسنة دقيقة نحو الداخل تتجه نحو ابوصوير غربا وتقطع عبر طريق السويس - القاهرة الصحراوى فى بعض النقاط (الكيلو ١٠١) جنوبا بغرب.

ولقد كان من هذا الامتداد الأخير بالذات ما رددته العدو ودعايته المغالطة عن اقترابه يوما فيوما من القاهرة، كل يوم على الكيلو كذا (!)، ثم محاولاته قطع طرق المواصلات والتموين بين السويس والقاهرة، وأخيرا ادعاءاته السيطرة على ما سماه «محور القاهرة - السويس» و«حصار» الجيش الثالث. وبالمثل كان من امتداده الأول محاولته الفاشلة ٤ مرات لحصار أو اقتحام السويس المدينة نفسها. ولكن المدينة الباسلة هبت إلى جانب قواتها المسلحة فى حرب شعبية وطلّاع حرب مدن حقيقية حتى أرغمت العدو الغادر على التراجع بعد أن كبذته خسائر جسيمة وفادحة.

ولقد كان صمود السويس نقطة تحول حاسمة فى مصير مغامرة الثغرة كلها. فقد ركز العدو عليها كل أحلامه، وكذلك كل أحقادها. فقد صب عليها أكثف نيرانه جوا وبريا حتى أصيبت بدمار رهيب، بحيث ارتفعت نسبة الخسائر فى المنازل من ٦٥٪ قبل اكتوبر الى ٨٥٪ بعده (قارن وارسو، المثل الكلاسيكى للمدن المدمرة، بالنسبة نفسها). ثم عمد العدو الى تطويق المدينة وحصارها من الشمال والغرب والجنوب، حيث وصل فى الاتجاه الأخير الى جبل عتاقة وكان هدفه فيما يبدو السخنة والزعفرانة أيضا. وبهذا أصبحت المدينة محاصرة تماما، إلا من اتصالها عبر القناة بجناح الجيش الثالث شرقا. والواقع انها كانت الموقع الوحيد فى الجبهة الذى كان محاصرا بالفعل، على عكس بقية مزاعم العدو، وفيما عداه فلقد كان العدو كله محاصرة مواقعه ووجوده.

ثم لجأ العدو الغادر الى قطع المياه عن المدينة، حيث قام بردم ترعة السويس العذبة فى قطاع منها يبلغ طوله عدة كيلومترات، حولها الى طريق للتقدم، فضلا عن

عدة جسور أقامها عليها للعبور، وبالمثل ردم قطاعا من ترعة الاسماعيلية، وبهذا انقطع امداد المدينة بالمياه، فضلا عن انقطاع امدادات التموين والغذاء. ومن هذا الحصار والضرب كان العدو يأمل أن تسقط المدينة أو تسلم في النهاية جوعا وعطشا. ولكن السويس الباسلة ضربت مثلاً رائعا في المقاومة، فمنعت العدو من دخولها تماما، وحولت دباباته على مشارفها الى ركام وحطام، وأجهضت كل خطته للتقدم، فكانت خير ظهير للجيش الثالث شرقا وغربا وأروع مثل للدفاع الشعبى. ولو لم تصمد السويس فلربما تغير مصير معركة غرب القناة، ولكنها بصمودها وضعت حدا لها وختمت على مصير مغامرة العدو الفاسد، الذى غابرها كما جاعا لصا ندلا ومخريا من الوندال، قام بفك وسرقة مصانعها ومصافيها ثم بتدمير وحرق ما تبقى منها.

تلك قصة المغامرة، وتلك نهايتها، وكما هو، فإن هذا كله لم يكن الا وجودا انتهازيا، مخلخلا فطيرا «ومشاة» كما قيل، مسطح بلا عمق، ومساحة أكثر منه كثافة. وأكثر من هذا فإنه كان وجودا غير شرعى، انتهاكيا تم معظمه عن عمد وتخطيط بعد وقف اطلاق النار، فمن نحو ٧٠٠ كيلو متر مربع، أو نحو ٤٧٥ ميلا مربعا ادعى العدو كاذبا سيطرته عليها، أى مساحة بطول ٢٤ ميلا فى ٢٠ ميلا عرضا، لم يزد مدى وجوده قبل وقف اطلاق النار على ٧٠ كيلو مترا مربعا كما أعلنت السلطات المصرية. وفى تقدير آخر ان المساحة التى احتلها العدو قبل قرار وقف اطلاق النار، لا تزيد على ثلث المساحة التى احتلها فى النهاية.

وعلى أية حال فلم يكن للعدو وجود اطلاقا غرب القناة بالقطاع الشمالى ابتداء من طريق الاسماعيلية شمالا، ولا فى أى من مدن القناة الرئيسية، السويس، الاسماعيلية، ويورسعيد. والأهم من هذا وذاك جميعا ان وجود العدو على الضفة الغربية هو برمه وجود محصور مطوق داخل جسم الجيش الثالث بامتداده فى عمق الدلتا غربا وجناحه على أرض سيناء شرقا. فقواتنا غرب القناة تحتل النطاق الدفاعى الثانى، تؤمن المنطقة جنوب الاسماعيلية، وتحاصر قوات العدو غرب القناة وشمال البحيرات المرة. أما قوات العدو المتسللة فقد أصبحت محصورة، كما يحدد كتاب حرب رمضان، بين ترعة الاسماعيلية شمالا، والنطاق الدفاعى الثانى غربا، ومنطقة جبال شبراويت والشهابى وجبل جنيفة وجبل القط جنوبا.

فعلى العكس إنن من مزاعم العدو، لم يكن الجيش الثالث هو المحاصر، المحاصر فقط كان جيبيين داخل وجود العدو: مدينة السويس على الضفة الغربية، وقوة كبريت على الضفة الشرقية، وكلتاها صعدتا لحصار العدو، بوخته وأعطته درسا مذهلا فى ضراوة المقاومة. وفيما عدا هذا فقد كان العدو هو المعزول والمطوق.

فنظرة واحدة الى خريطة توزيع قوات الجانبين على ضفتى القناة، كتلك التى نشرتها وكالات الأنباء مع اتفاق الفصل بين القوات، توضح على الفور أن الوجود العسكرى للعدو غرب القناة هو، أولا، جيب منفصل exclave عن جسمه الأساسى فى سيناء الا من حبل سرى ضعيف لا يربطه به الا بمقدار ما يسهل قطعه عنه. ثم هو، ثانيا، جيب محصور enclave داخل قبضة القوات المصرية التى تطوقه بعمق تام تطويقا دائريا من كل الجهات فيما عدا ثغرة محدودة فى الشرق. وفيما بين هاتين الحقيقتين فإن الوجود الاسرائيلى غرب القناة لم يكن يعدو ، على أحسن تقدير ، إسفينا محاصرا مطوقا تماما ومختنق العنق، يمكن خنقه بالإطباق عليه من الشمال والجنوب بواسطة الجيشين الثانى والثالث.

ومن الناحية الاستراتيجية يتضح على الفور أن هذا ليس الا مأزقا عسكريا، وضع غير سليم وغير متوازن استراتيجيا، يضع قوات العدو جميعا «رهينة» فى يد القوات المصرية المحقة كما عبر الجنرال بوفر، بل وكما اعترف بارليف العدو نفسه فيما بعد. او كما وضعها أحد القادة المصريين، لقد وضع العدو «رأسه فى فم الأسد»، وأصبح معرضا لخطر استراتيجية «الأسنان فى اللحم» اذا تجدد القتال كما وصفها مصدر آخر. ولكن خير ما يصور حقيقة موقف الجيب العدو هو، لاشك، ما صرح به الرئيس السادات نفسه لمجلة نيوزويك فى حديث له فى مارس ١٩٧٤ الى مندوبها دى بورجرىف. «كان باستطاعتنا»، قال سياسته، «استئصال هذا الجيب فى وقت قصير. فقد كانت صواريخنا مصوبة فى وضع الاطلاق على كل واحدة من دباباتهم الأربعمائة التى كانت تتخفى بالليل فى حفر بمواقع ثابتة.. وكان من الممكن فى لحظات قلائل أن يفقدوا نحواً من نصف قواتهم المدرعة فى الضفة الغربية حتى مع حساب الخطأ. وكان لدينا أيضا ٨٠٠ من دباباتنا حول جيبيهم هذا، مستعدة لسحق ما يتبقى من القوات الاسرائيلية». والواقع أنه كان قد بات معروفا لبعض الوقت ان قواتنا المصرية كانت

تعد وتحشد لهجوم ساحق وحاسم يصفى وجود العدو غرب القناة ويقلصه شرقها حتى أتى قرار وقف إطلاق النار فأنقذ العدو منه. غير أن الرئيس عاد أخيرا فكشف عن قرار بتصفية الجيب عسكريا بعد شهرين من وقف النار، رضوخ العدو للانتسحاب فى الفصل بين القوات هو وحده الذى أنقذه منه هذه المرة.

وبالفعل، فمنذ توقف القتال شكليا أخذت القوات المصرية تشدد الضغط على جيب العدو وتحصره فيه بالنيران التى لا تنقطع بل تتصاعد كل يوم ويكل الأسلحة الخفيفة والثقيلة. ومن الواضح أن العدو كان يتعرض على الضفة الغربية لحرب استنزاف أشد وأقوى على الأرجح من تلك التى تعرض لها على الضفة الشرقية، لا تدعه فى هدوء قط، ولا تسمح له بتثبيت مواقعه أو إنشاء دفاعات أو تحصينات هندسية.. الخ.. وكما أعلنت هيئة الطوارئ الدولية مرارا، فإن القوات المصرية ظلت توسع مناطق وجودها وتضيق نطاق وجود العدو بانتظام وبإحكام ويعمق قدر أحيانا بالكيلومتر، وتدفع به دفعا نحو شاطئ القناة.

وعدا هذا فلم يكن للعدو الا طريق واحد عبر القناة، هو وخطوط امداداته وتموينه الطويلة الشاقة من خلفه كانوا تحت رحمة نيراننا وقواتنا. كذلك فإذا كان وجود العدو فى هذا النطاق قد مكّنه من تدمير شبكة دفاعنا الجوى السابقة به، والتى كان يحاول أن يستفيد من قواعد منصاتها فى استحكاماته الدفاعية، فقد أقمنا نحن شبكة جديدة الى الغرب أقوى وأكثر وأفتك. هذا فضلا عن تكثيف قواتنا فى شرق الدلتا وتعزيزها بفرق جديدة متطورة السلاح، بحيث أصبحت نسبة القوات المصرية الى الاسرائيلية غرب القناة ٣ : ١، وبحيث أصبح العدو حقيقة وبقينا بين فكي كمشاة ساحقة. وسنرى بعد قليل كيف أثر العدو الانتسحاب طائعا أو كارها لينجو بنفسه من هذا المأزق المميت، وليتحقق بالتالى ما قاله الجنرال بوفر بصدق من أن «عملية شارون» كلها لم تكن عملية عسكرية بقدر ما كانت «مظاهرة تليفزيونية».

الفصل الرابع

المعركة السورية الكبرى

لـسوريا، فى الاستراتيجية كما فى السياسة، وضع خاص وبارز بين العرب. فكما كانت دائما قمة من قمم العروبة الشامخة طوال العصور الاسلامية ورائدة القومية العربية الاولى بلا منازع فى العصر الحديث، كانت الجبهة السورية فى الصراع العربى - الاسرائيلى قلعة شاهقة، مجازيا كما هى حرفيا، عسكريا كما هى جغرافيا، وقوة ضاربة أساسية باللغة الصلابة والعنف، حفظت التوازن مع العدو على سائر الجبهات وفرضت عليه ضغوطا مضادة مزقت من الوجهة الاستراتيجية وشتته تشتيتا .

واذا كانت الجبهة السورية واحدة فقط من عدة جبهات محاربة فى معركة ١٩٦٧، فإنها فى أكتوبر كانت الجبهة الوحيدة على الجانب الآسيوى، وذلك بعد أن وقفت الجبهة الأردنية المترامية من أسف خارج المعركة. فكانت هى مع مصر قطبى الصراع المسلح الذى اتخذ بذلك محورا أحاديا فى هذه الجولة. وكما هو معروف، فقد كان من الأوليات فى استراتيجية العدو الإسرائيلى، الذى يقع جغرافيا فى حالة حصار أرضى كامل داخل الوطن العربى، ألا يحارب قط فى جبهتين أو أكثر فى وقت واحد. وعلى شبكة كثيفة كفه من طرق المواصلات الجيدة، وعلى أساس من ضالة مساحته الجغرافية، كان العدو يعتمد على، ويتعمد أن، ينفرد بكل دولة عربية على حدة فى حرب سريعة خاطفة ينشئ بعدها فورا الى دولة أخرى بضرية عاجلة مماثلة، وهكذا. ولقد كان هذا بالضبط ما نجح العدو فى تحقيقه فى ١٩٦٧، وكان عاملا أساسيا من عوامل الهزيمة العربية.

العكس تماما ما حدث فى ١٩٧٣، ففى ظل سياسة قومية تحريرية موحدة، وتحت استراتيجية عظمى مشتركة، وبقيادة عسكرية واحدة، كان التنسيق كاملا ومطلقا بين الجبهتين السورية والمصرية، توقيتا وتكتيكا، استراتيجية وتخطيطا، تصعيدا او تخفيفا.. الخ، بحيث كانت الجبهتان فى واقع الأمر كفكى كماشة وضعت العدو لأول

مرة وبصورة جدية «كالبندقية في الكسارة» - هذا تعبير بن جوريون القديم - ووضعت المعركة كلها «بين قوسين» من الارادة العربية.

وبين هذين القوسين تمزق العدو وانشطرت قواته وتبددت قواه، وراح يلهث من الشمال الى الجنوب حيناً وحيناً آخر من الجنوب الى الشمال - نون جدوى مع ذلك. ولعلها لم تكن محض مصادفة ان العدو اكتشف وعانى لأول مرة نقصاً حاداً في أسطول سيارات النقل وشعر بعدم كفايته وحاجته الملحة الى شراء بضعة آلاف من الشاحنات بسرعة لسد هذا العجز الذي خلقته لاشك ثنائية الجبهة بالنسبة له.

ولقد كانت وحدة المعركة العربية على الجبهتين عاملاً أساسياً بلا ريب في انتصار العرب، وجاءت مصداقاً مجدداً وعملياً للقانون الخالد في صراع الأمة العربية مع أعدائها، ألا وهو أن مصير العرب معلق دائماً ورهن أبداً بوحدة القوة السورية والمصرية. سوريا - مصر كانت باستمرار وحدة جيواستراتيجية واحدة، من وضع قدمه في احدهما قادته تلقائياً الى الأخرى، وهما معا قلب الوطن العربي جغرافياً وطيئته تاريخياً، والذبذبات السياسية في مصير العرب ارتفاعاً او اتضاعاً، تحريراً او استعماراً، مرتبطة بالعلاقات بينهما إن وحدة أو تفككا وإن تضامناً أو تباعداً. ولقد أثبتت معركة أكتوبر الجانب الموجب في معامل الارتباط الكامن في هذه العلاقة واستبعدت الجانب السالب. لقد أثبتت المعركة أن في وحدة سوريا ومصر دائماً نصر العرب العسكري والسياسي.

هكذا كان نور الجبهة السورية التاريخي، وهكذا كان في أكتوبر. ولئن كانت هذه الجبهة أقصر بكثير جداً من الجبهة الاردنية المجاورة في طول حدودها المشتبكة مع العدو، فإنها قد عوضت عن الطول بالكثافة، وعن الاتساع بالعمق، وعن القرب بالصلابة. فكما أثبتت سوريا نفسها في الميدان قوة بالغة الضراوة قتالاً وحرباً، حشدت أمام العدو قوة عسكرية تعتبر بكل المقاييس بالغة الضخامة عدداً وعدداً (أكثر من ربع مليون جندي، او نحو ٢٦٠ ألفاً) وتعد بلا شك أعظم مما يمكن أن يتناسب مع حجم سوريا البشري ومواردها الاقتصادية. ولكن سوريا، التي كانت قد نذرت نفسها وعاشت للمعركة فقط، كانت تخصص للقوات المسلحة نسبة من دخلها القومي ومن ميزانية الدولة تعد من أكبر ما خصصته الدول العربية جميعاً، ولم تكن لتقل في ذلك كثيراً عن

العدو الذى يكرس كما هو معروف أعلى نسبة من الدخل القومى فى العالم كله للتسليح والجيش.

وعلى سبيل المثال، فقد قذفت سوريا فى المعركة بأعداد من الدبابات جاوزت فى بعض مراحلها الألف بكثير، قيل فى وقت ما ١٤٠٠، وأكثر منها من المدافع الثقيلة، عدا مئات الطائرات المتفوقة، فضلا عن قوة بشرية هائلة كثيفة، ويكفى للدلالة على ضخامة وكثافة هذه القوة السورية انها ناهزت فى خطوط معينة مثل ما قذفت به مصر تقريبا على جبهة سيناء فى الجنوب. كما أن ضراوة وحدة المعركة على الجبهة الشمالية لم تكن تقل أبدا عنها فى الجبهة الجنوبية. وفى وقت ما وصل عدد الدبابات المتصارعة من الجانبين الى نحو ٢٣٠٠ دبابة.

إلى جانب هذه القوة الأساسية، تدفقت على الجبهة السورية أيضا قوات مساعدة وتكميلية من الدول العربية الشقيقة. القوات العراقية خاصة ثم قوات سعودية وأردنية وأخرى مغربية. وقد ساهمت هذه القوات فى تدعيم طاقة سوريا القتالية مساهمة طيبة.

كذلك لابد أن نضيف هنا القوات الفلسطينية الفدائية التى لعبت دورا مهما على الجبهة السورية، مع وأمام وخلف القوات النظامية، فى قلب صفوف العدو وفى قلب أرضه المحتلة، وأصابته بضربات مؤثرة وكبدته خسائر جسيمة فى الأرواح والسلاح والمنشآت. وقد عبرت إحدى وكالات الأنباء الغربية عن دور الفدائيين الفلسطينيين هذا بقولها «فى الوقت الذى تنور فيه معارك كبيرة بين الاسرائيليين والعرب فى سيناء والجولان، تدور هنا - فى شمال اسرائيل - حرب أقل اثارة ولكنها مدمرة تماما».

وليس من شك فى أن الدور الفلسطينى الباسل كان، على روعته وحجمه، يمكن أن يكون أعظم وأكبر، شيئا كجبهة ثالثة بكل معنى الكلمة، لولا ما كان قد أصيب به من ضربات غير شريفة ولا مشرفة فى مجازر سبتمبر (أيلول) وما بعدها، ولولا أنه لم يتح له أن يمارس نشاطه من جبهته الطبيعية والفعالة وهى الجبهة الأردنية.

وعلى الجملة فلقد قدمت الجبهة السورية مسرحا قتاليا لا يقل ثقلا وقوة وعنفا وكذلك اقتدارا عما قدمت الجبهة المصرية. وقد أدارت سوريا معركتها هناك بكفاءة لا تدانيها الا بسالتها وصمودها واصرارها على النصر وتدمير أكبر قدر من قوة العدو البشرية والسلاحية.. وفى ذلك كله نجحت إلى أبعد الحدود بحيث أصبحت الجولان مقبرة

أخرى للعدو الاسرائيلي، مقبرة - على سبيل التغيير والتوسعة على العدو! - ندية خضراء مشجرة معلقة، حيث كانت سينا مقبرة رملية فقط ، غبراء جرداء مسطحة.. لقد أعادت ملحمة المعركة السورية أمجاد الأموية في أعظم صورها، وضعت المقاتل العربي في موقعه الصحيح على القمة مسجلا بطولات اسطورية، وصححت كل أخطاء يونيو مثلما صححت مسار المستقبل.

المسرح الطبيعي

وهناك بطبيعة الحال اختلافات اساسية بين الجبهتين السورية والمصرية من حيث هما مسارح قتال. فالفارق جذري في الموقع الجغرافي من ناحية وفي بيئة المسرح الطبيعي من ناحية أخرى.

الموقع

فأما الموقع، فإن سوريا إذ تقع الى الشمال من أرض العدو دون فاصل يذكر من اللامعمور، كفاصل صحراء سيناء، لا تعرف فراغا بشريا أو عمرانيا على جبهتها ولا منطقة عازلة تبعد خطوطها الامامية عن خطوط العدو. الجبهة هناك متصلة وواحدة ومستمرة، وكلها باستثناءات محلية نسبيا من المعمور، وحتى مرتفعات الجولان وحوران وما حولهما هي من المعمور الخفيف على أقل تقدير. وغير بعيد الى الخلف من الجولان، بل وشيكا جدا، يبدأ المعمور السوري بكثلته الرئيسية ويكامل كثافته السكانية وازدحامه البشري - دمشق نفسها لا تبعد الا ٧٠ كم عن أقرب نقطة في حدود فلسطين المحتلة (لسان اسرائيل الحالي المتطاول في أعالي ومنايع الأردن).

وعلى جانب العدو، ربما بدرجة أكبر، تنكس الكثافة السكانية على الحدود وخلفها مباشرة تكدسا غير عادي. انها مرتفعات الجليل، أغزر جهات شمال فلسطين مطرا ومن أكثفها انتاجا وزراعة، ومن أشد قطاعات اسرائيل ازدهاما بعمق الحدود والمستعمرات من كيبوتز وموشاف، حشدت هنا أو حشرت اما بحكم الطبيعة الجغرافية وغناها واما لأغراض التوسع والتهديد الاستعماري المخطط. معنى هذا على الفور ان جبهة الصدام وميدان القتال لیس فراغا بشريا خلوا من المدنيين على أي من الجانبين، ولا هم بمنأى او بمنجى من الخطر او الضرب. ويكفى ان نتذكر هنا ان عشرات وعشرات من الالاف من السكان المدنيين قد تعرضوا للطرد من الجولان مرتين على أيدي العدو،

الضارى حقه، فى كل حرب نشبت، أثناء وبعد حرب يونيو ثم فى أكتوبر على السواء. وقد بلغ مجموع هؤلاء اللاجئين الآن ١٧٠ ألفا. وهذا الخطر لا ينفصل بطبيعة الحال عن خريطة جغرافية السكان التى تتكدس فيها التجمعات البشرية بدرجة او بأخرى على جانبي الحدود السياسية.

ولا شك ان هذا الخطر يصدق على العدو الاسرائيلى بدرجة أكبر، اذ أنه يعانى بصفة خاصة جدا من نقص حاد فى القوة البشرية. ومن هنا قلقه بل رعبه التقليدى والمزمن من الجبهة السورية بالذات. حيث ان نيرانها تستطيع أن تصل، حتى من وراء الخطوط العسكرية، الى دائرة واسعة من شمال إسرائيل. ومن هنا أيضا خوفه الدفين من أى تقدم مفاجئ او سريع للقوات السورية، الأمر الذى قد ينقل المعركة الى أعماق العدو المأهولة بكل ما يعنيه ذلك من خسائر مدمرة بشريا واقتصاديا.

ان الخطر السورى الكامن هو، من وجهة نظر العدو، خطر مزبوج، عسكرى ويشرى، حيث الخطر المصرى فى الجنوب خطر عسكرى فقط بحكم بعد المعمور الاسرائيلى الشديد عن ميدان المعركة، وأطماع اسرائيل الاستعمارية فى الجولان هى استعمار استيطانى واستراتيجى. حيث هى فى سيناء استعمار استراتيجى اساسا فحسب، وقد عبر دايان عن هذه الحقيقة بلا موارد أثناء المعركة، فى تصريحاته السرية التى لم تعلن إلا بعد شهور، حيث قال «رغم ان الجبهة المصرية كانت تسيطر على الأنباء، فإن الاستراتيجيين الاسرائيليين كانوا فى شغل أكثر بمعركة الجولان، على أساس ان نجاح سوريا هناك يهدد قلب الأراضى الاسرائيلية اكثر مما يهدده التقدم المصرى فى صحراء سيناء». كما اعترف بأن إسرائيل قصفت دمشق بالقنابل بعد أن أصابت الصواريخ السورية أرض - أرض المستعمرات الاسرائيلية.

ومن هنا وهناك جميعا فى النهاية نستطيع أن نفهم ذلك الحقد الضارى والروح الانتقامية الوحشية التى كان يضمها العدو دائما لسوريا ولوقفها الصلب غير المتهاون، ثم توعدده وارهابه لها علنا قبل المعركة واثناها، وسنرى ترجمة أمينة، بقدر ما هى خسيصة، لهذه الروح العدوانية والشراسة الحيوانية فى كل مراحل المعركة تتمثل فى تركيزه عمدا على الأهداف المدنية والسكان المدنيين العزل من السلاح.

المسرح الجغرافى

هذا عن الموقع الجغرافى. أما عن المسرح الطبيعى او البيئة الجغرافية للجبهة السورية فتختلف كثيرا بطبيعة الحال عنها على الجبهة المصرية.

فأولا: ليس هناك ذلك الفاصل المائى المانع، القناة، يضع خطأ أو خندقا صارما بين المعسكرين، ان أرض المعركة متصلة بلا انقطاع والمواجهة برية تصادمية مباشرة، وثانيا، فبدلا من البيئة الصحراوية الرملية والجافة فى سيناء، فإن هنا بيئة جبلية صخرية وعرة قاسية بقدر ما هى مرتفعة معلقة. وحتى المناخ يختلف: أمطار وبرودة وتلوج فى الشتاء تغطى قمم الجبال وتحد كثيرا جدا من امكانيات القتال فى ذلك الفصل.

واذا أردنا أن نوجز الطبيعة الطبوغرافية للجبهة السورية فى ملامحها الاساسية فيمكن أن نقول ان التربة جرداء موحشة، والأرض صخرية صلبة وحادة شديدة التضرس، اصولها بركانية أحيانا أو غالبا، بها طفوح بازلتية قاسية مدببة زجاجية حادة الزاويا، منها ما لا يصلح حتى للآليات الميكانيكية او ما يصلح للمدركات بالكاد. والأودية الجبلية المنحوتة والأخاديد الغائرة ليست أفضل كثيرا نظرا لضيقها وشدة انحدار سفوحها.

باختصار، الجولان كمسرح طبيعى ميدان قاس معقد لا يسمح الا بمعركة شاقة مريرة بالغة القسوة. فمن ناحية، خطوط المواجهة متداخلة ومتشابكة فى تعقيد شديد. ومن ناحية أخرى، لا مجال هنا للمناورة أو تكتيك الاكتساح والالتفاف الذى تصلح له بيئة سيناء المكشوفة الواسعة المفتوحة، الأنسب هنا هو تكتيك الكمون والتربص خلف المرتفعات ثم الانقضاض المباغت. فى جملة واحدة، فرص المناورة هنا أقل، وفرص المفاجأة أكثر.

وعلى الجملة فإن المسرح الطبيعى، وبالتالي أساليب القتال معه، أقرب نوعا فى الجبهة السورية الى ظروف الحرب فى أوروبا الغربية الباردة المطيرة، الغابية الجبلية، منها الى طبيعة حرب الصحراء المطلقة التى تمثلها جبهة سيناء خير تمثيل. والمعركة نفسها هنا «رأسية» معلقة كما قد نقول، حيث هى «أفقية» مسطحة على جبهة القناة.

ونحن نستطيع ان نفهم هذه الحقائق أكثر، ومعناها الاستراتيجى أيضا، اذا تمثلنا فى أذهاننا خريطة المنطقة الجغرافية، فالقطاع الذى احتلته اسرائيل فى يونيو هو الركن الجنوبى الغربى الأقصى من رقعة سوريا السياسية. شكله العام مستطيل

طسولى تقريبا، مساحته ١١٥٠ كم مربعا، أبعاده القصوى نحو ٧٠ كم بالطول، ٢٥ كم بالعرض، وهذا الرقم الأخير يحدد بالتقريب امتداد جبهة المواجهة المباشرة مع العدو. بالطول، تمتد الرقعة المحتلة من الأجزاء الجنوبية من جبل الشيخ فى الشمال حتى مصب نهر اليرموك فى نهر الأردن حيث تشترك الحدود السورية مع الأردن وفلسطين فى الجنوب. أما بالعرض فتمتد الرقعة من خط الحدود السياسية الذى يتبع قمم جبل الشيخ فى الشمال ثم وادى الأردن والحولة حتى طبرية فى الجنوب. هذا من ناحية الغرب. أما من الشرق فإن حدود الرقعة تتعرج فى تقوس عام، أقصى نقطة فيه شرقا هى الرفيد. وعلى هذا الأساس فإن الجزء الأكبر من الرقعة تقلب عليه المرتفعات والارتفاع. ولكن الارتفاع يتغير ويتدرج على محورين. بالطول يزداد السطح ارتفاعا باطراد كلما اتجهنا شمالا، من سهل وادى اليرموك فى أقصى الجنوب الى أعلى مرتفعات وذرى جبل الشيخ فى أقصى الشمال. أما بالعرض فإن المرتفعات تتحدر بشدة وبسرعة غربا نحو وادى الأردن الرئيسى، وشرقاً بالتدرج الوئيد نحو مرتفعات حوران وبادية الشام. وبهذا يتقوس سطح المرتفعات بصورة عامة ولكنها غير منتظمة او متناظرة ما بين الشرق والغرب. وفى المحصلة العامة ينقسم سطح المنطقة المحتلة الى ثلاثة قطاعات هى من الشمال الى الجنوب: جبل الشيخ، هضبة الجولان، سهل اليرموك.

فأما قطاع جبل الشيخ فيشمل نحو ثلث سلسلة الجبل التى تعرف أيضا بجبل حرمون والتى تسودها الصخور الجيرية. متوسط ارتفاع القطاع يتراوح بين ١٠٠٠، ١٥٠٠ متر، فى حين تصل القمم الى أكثر من ٢٨٠٠ متر أحيانا بحيث تغطى بالتلوج الدائمة طول العام فتبدو القمم بيضاء معممة كالشيخ - من ثم الاسم. والمسرح الطبيعى بهذا كله وعرا للغاية يصعب اختراقه بالعرض من الغرب الى الشرق حيث يعد مانعا طبيعيا خطيرا.

ويتحكم الجبل بارتفاعه فى كل الدائرة التى حوله بما فيها القطاع الأوسط.

هذا الأخير هو المرتفعات السورية بالمعنى المحدد والتى تسميها الصهيونية الجولان. هى تمثل الجزء الأكبر من الأرض السورية المحتلة، وتتوسطها مدينة القنيطرة، كبرى مدنها وعقدة مواصلاتها ومفرق طرقها الجبلية الاستراتيجية، ترتكز الهضبة فى الشمال والشمال الغربى الى كتلة جبل الشيخ، ولكنها اقل ارتفاعا، بين ١٠٠٠، ٥٠٠ متر فى المتوسط، غير انها تتدفع على سطحها سلاسل جبال وتلال ومرتفعات أعلى (كتل الفرس

مثلا) كما تختطها الأودية بالطول والعرض. أرض الهضبة حمراء رمادية، تربتها بركانية غطت قاعدتها الجيرية القديمة الطفوح البازلتية الداكنة وخطوط المخاريط البركانية الحديثة التي تنتشر على سطح الهضبة من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي عامة.

وعموما ترتفع الهضبة نحو ٣٠٠ متر فوق مستوى منخفضات وادي الأردن الأعلى في فلسطين المحتلة، ومن ثم تتحكم في كل مستعمرات العدو ومواقع في وادي الحولة والأردن وطبرية. ومن ناحية الحركة فإن الأرض صالحة على العموم للعمليات الميكانيكية، ولكنها تظل قاسية للغاية. والسفوح والمنحدرات الغربية للهضبة والتي تطل على وادي الأردن هي بالتحديد اصلح طريق للحركة بين الشمال والجنوب. وعليها بالفعل يمتد المحور الشرياني دمشق - القنيطرة - جسر بنات يعقوب.

أخيرا لا يبقى الا قطاع من السهول المتموجة في الجنوب والجنوب الشرقي من الأرض السورية المحتلة، تليه في الشمال، تتدرج باعتدال نحو وادي اليرموك في الجنوب ووادي الأردن في الغرب. والمنطقة مفتوحة بسهولة للحركة والعمليات الحربية ولا تمثل مشكلة طبيعية او عسكرية خاصة.

واذا كانت تلك هي القطاعات الطبيعية لأرض الجولان، فإنها تنعكس مباشرة على قطاعاتها العسكرية، فرغم ان الجولان رقعة مستطيلة تمتد من الشمال الى الجنوب، ورغم ان الجانبين المتحاربين يقع أحدهما الى الشمال والآخر الى الجنوب. فلا يفهم المنطقة تماما كمسرح للعمليات الحربية من ينظر الى معركتها كمجابهة بين شمال وجنوب بالضبط. فليست المعركة اندفاعا مستقيما كالسهم المرسل ينطلق من اقصى الشمال او العكس، ولكن المجابهة أدنى في الواقع ان تكون بين شرق وغرب. وهي إلى ذلك تنقسم الى ثلاثة قطاعات بالعرض لكل منها محور عرضي، وهي في ذلك كله تشبه في معنى ما مسرح سيناء الغربية.

ذلك أن جبهة الهجوم السورية تتمثل هنا في الحدود الشرقية لهضبة الجولان والأجزاء الغربية من هضبة حوران، فهذا هو المنطلق الطبيعي وقاعدة الانطلاق والوثوب المنطقية لاسترداد الجولان. والهجوم السوري يبدأ أساسا من الشرق على طول هذه الجبهة الطولية. وقد كان على طول هذه الجبهة بالفعل، وبامتداد تتمتها الثانوية العرضية.

أن أقام العدو خطا من الاستحكامات الطبيعية والهندسية الكثيفة التي تعتمد إلى أقصى حد على الظاهرات الطبوغرافية من مرتفعات ومنخفضات وتلال وأودية ، وعرف في مجموعته «بخط ألون». وقد كان من أبرز عناصر هذا الخط خندق صناعي من الأسمنت المسلح بعمق ٤ أمتار وعرض ٦ أمتار ويطول ٢٠ كم على طول جبهة المواجهة ، وقد حفر هذا الأخدود الفائر، الذي رصع بالألغام الكثيفة، لكي يمنع المدرعات والآليات السورية من الاقتحام. ولكن القوات السورية عبرته، كما سنرى، على جسور حديدية رغم أنف العدو ورغم نيرانه.

وإذا كان الشرق هو المصدر الطبيعي للهجوم السوري، فإن هدفه بعد ذلك هو التقدم بعرض الجولان على ثلاثة محاور عرضية رئيسية تحاول فيما بينها ان تمزق قوات العدو الى عدة جيوب محاصرة لتعزلها عن بعضها البعض وتضربها على حدة. ويمكن أن ينشعب كل محور منها بعد ذلك في داخل الهضبة الى شعبتين شمالا وجنوبا ليتصل بعضها ببعض امعانا في تفتيت العدو وتطويقه. فإذا ما قاوم او تقهقر فإنه يدفع غربا إلى السفوح الغربية المنحدرة حيث الظروف الجغرافية غير ملائمة للعمل. وهذا أيضا هو الذي يفسر ان المعركة كانت تنور في جميع مراحلها على القطاعات الثلاثة في وقت واحد مهما تغيرت مصايرها.

هكذا تنقسم ارض المعركة الى ثلاثة قطاعات عرضية يتوسط كلا منها تقريبا محوره العرضي الأساسي. غير أننا لا بد أن نذكر أولا أن القطاعين والمحورين الشمالي والجنوبي يعتبران ثانويين نسبيا، أما القطاع الأوسط ومحوره فهما الأهم على الإطلاق، فالقطاع الشمالي أقلها مساحة، ويتركز على محور مجدل شمس - بانياس. والقطاع الأوسط أوسع مساحة، ومحوره يعد العمود الفقري للتقدم والحركة في المعركة كلها. ويمتد هذا المحور من الصمدية الى القنيطرة الى حوالى منطقة سهل الحولة عموما (بحيرة الحولة سابقا) اما القطاع الجنوبي فهو أكبرها مساحة، ومحوره يمتد من منطقة الرفيد والجواخدار في الشرق الى منطقة بحيرة طبرية في الغرب بعامة، والى فيق والحمة بخاصة.

سلبيات يونيو

تلك إذن صورة لفظية لمنطقة المرتفعات السورية، نستطيع أن نرى منها انه كان لسوريا تقليديا ميزة استراتيجية وعسكرية مهمة جدا على العدو الاسرائيلي، الا انها

من أسف ضاعت في يونيو. تلك نقصد ميزة الارتفاع المسيطر والطبوغرافيا الحاكمة. فالمرتفعات السورية كتلة عالية تشرف من علٍ على منابع الأردن وسهول الحولة وطبرية وامتداداتها وكذلك على منحدرات هوامش الجليل الأعلى في شمال إسرائيل. وبهذا تبدو المرتفعات السورية كهضبة شبه مائدية مشرفة، كالقلعة السماء، سفوحها الوعرة في الجنوب والغرب تميل كالمنحدر التقليدي للقلاع glacis ، ومن سطحها تستطيع ان تكشف كل السهل اسفلها في داخل اسرائيل وتسيطر على مواقعه ومستعمراته بحيث تقع هذه مباشرة تحت نيرانها ومدفعتها البعيدة المدى.

ولقد كانت اسرائيل تشكو دائما بمرارة من وضعها الطبوغرافي غير الملائم بالنسبة للمرتفعات السورية، وكانت لا تخفى قط أطماعها ونواياها في اغتصابها والسيطرة عليها عند أول فرصة، وقد واثقتها هذه الفرصة من أسف في يونيو، حين احتلت قطاع الجولان بأكمله حتى سفوح جبال لبنان الداخلية وجبل الشيخ. وبذلك تحسن موقفها الاستراتيجي كثيرا جدا. من ناحية، لأن مرتفعات الجولان توفر للعدو الأمن التام في الجليل الأعلى والأسفل وغور الأردن، ومن ناحية، لأنها خط دفاع طبيعي عميق وعريض ضد أي هجوم سوري يأتي من الشمال. ومن ناحية ثالثة، لأنها في الوقت نفسه تقدم قاعدة انقضاخ مثالية للهجوم او للهجوم المضاد على سوريا. هذا فضلا عن أنها باتصالها المباشر بحدود الأردن الشمالية تعطي العدو فرصة فتح جبهة ثانية مع الأردن في حالة دخوله الحرب.

على أن سوريا لحسن الحظ لم تفقد كل ميزتها الطبوغرافية القديمة، فقد ظلت محتفظة بمناطق جبلية وهضبية مرتفعة خارج الجولان، سواء في كتلة حوران شرقا أو في بقية جبل الشيخ شمالا أو في سلسلة لبنان الداخلية شمالا وغربا. وبهذا فقد كان الطرفان المتواجهان يقفان على قدم المساواة طبوغرافيا من حيث الارتفاع والوضع الاستراتيجي المشرف.

ولقد كان في وجه هذا الوضع المتكافئ بالدقة أن لجأت اسرائيل بخبث الى اقامة مرصد محصن كنقطة مراقبة شاملة على قمة من أعلى قمم جبل الشيخ لتكشف منها بقية المرتفعات السورية وكل مواقع القوات السورية في جبهة المواجهة. وقد كان هذا المرصد - الحصن مبنيا على غرار دششم خط بارليف، إلا أنه معلق في خط السماء على

أعلى الجبل، فقد كان قلعة حجرية مسلحة متعددة الطوابق، ولكنها بكاملها مدفونة تحت الأرض في باطن الصخر، ومدعمة بأسقف وأبواب من الصلب يستحيل تحطيمها حتى بالقذائف المباشرة الثقيلة. وسنرى القيمة الاستراتيجية والدور العسكري الذي لعبه هذا المرصد في المعركة.

ومن الناحية الأخرى، فإن إسرائيل إذا كانت قد امتلكت منذ يونيو ميزة الموقع المرتفع كسوريا أو شاركتها هذه الميزة، فإن هذه المشاركة لم تكن مطلقة أو كاملة، فلقد أصبح على خطوط مواصلاتها وامتداداتها، التي طالت كثيرا وصارت معرضة أكثر، أن تصعد من السهل في الجنوب إلى هضبة الجولان وهي آتية وأن تهبط من الهضبة إلى السهل وهي ذاهبة. وهذه الحركة الصاعدة الهابطة عبء شاق جسميا وميكانيكيا بطبيعة الحال. ولم يكن هكذا وضع خطوط المواصلات السورية، التي تنساب باطراد ورفق نسبيا ما بين مرتفعات الجنوب ومنطقة التلال والمرتفعات المحيطة بغوطة دمشق والمؤدية إليها، وهي المنطقة التي تتعاقب عليها ثلاثة خطوط دفاعية قوية تمثل الدرع الصلبة للعاصمة وتناظر في صورة مضغوطة الخطوط الدفاعية الثلاثة ما بين القناة والقاهرة.

مراحل المعركة

تلك هي الفروق الأساسية بين مسرح المعركة في كل من الجولان وسيناء. وقد انعكست هذه الفروق بطبيعة الحال على الخطط والعمليات الحربية في المعركة. ففيما عدا الاستحكامات الطبيعية والهندسية الكثيفة على الجانبين، لم تكن هنا على الجولان مشكلة عبور مائي وكان التقدم الأرضي ممكنا منذ ساعة الصفر فور اجتياز الخندق. ومن الناحية الأخرى فقد كانت جبهة الجولان تشبه جبهة سيناء من حيث أن عليها هي الأخرى شبكة من صواريخ الدفاع الجوي تعد أيضا من أكثف وأكفأ ما على الأرض من نوعها، تعززها كذلك غابة من المدفعية الثقيلة شبيهة بشقيقتها على الجبهة المصرية نوعا وكثافة وقوة. ولعلنا نضيف كذلك ذلك القدر من التشابه بين الجبهتين من حيث الامتداد المستطيل والانقسام إلى ثلاثة قطاعات ومحاور عرضية.

وفيما بين هذه الاختلافات الطبوغرافية والمشاوآت العسكرية، جاءت المعركة السورية شبيهة بالمعركة المصرية إلى حد أو آخر. بل إلى حد بعيد، في كثير من خططها وخطواتها، وأخذت مراحل وتطورات مناظرة إلى حد معين سواء في حركة المد

والجزر الميدانية او فى الانجازات التدميرية أو فى النتائج الاقليمية. وفيها أيضا تعددت أسلحة المعركة ما بين البر والبحر والجو، كما كانت مجالا لبعض من أضخم وأعتى معارك الدبابات والمدرعات فى العصر الحديث، لا تقل هى الأخرى عن أكبر ما عرفت الحرب العالمية الثانية، قذف فيها بأعداد تعادل ان لم ترجع أحيانا ما قذف به فى سيناء من دبابات فى بعض المراحل. فالمقدر أن سوريا هاجمت فى وقت ما أثناء المعركة بنحو ١٤٠٠ دبابة، عدا مئات الدبابات العراقية التى شاركت فى القتال. أما المعركة الجوية فلم تكن أقل ضراوة بالتأكيد، وفيها أيضا لعبت الصواريخ المضادة للطائرات دورا حاسما ومهلكا لطيران العدو. وأخيرا قامت البحرية كما فى المياه المصرية بدور أكثر من جانبى، نشط وفعال، على طول امتداد السواحل والموانئ السورية.

وعموما يمكن أن نقسم المعركة بحسب تطوراتها وملامحها ونتائجها الى أربع مراحل، تكاد تتعاصر ذبذباتها وارتفاعاتها وانخفاضاتها مع ما كان يحدث على الجبهة المصرية. وسنرى أن التدخل الأمريكى هو القاسم المشترك بين هذه التطورات المتوازية والضابط الكامن خلفها دورا وتوقيتا ومصيرا. وهذه المراحل هى: الأولى، مرحلة الاكتساح السورى (٦ - ١٠ أكتوبر)، الثانية، مرحلة الهجوم الاسرائيلى المضاد (١١ - ١٤)، الثالثة، مرحلة المد السورى الثانى (١٤ - ١٦ أكتوبر)، الرابعة، مرحلة التوازن النسبى (١٧ - ٢٢ أكتوبر).

مرحلة الاكتساح السورى

بدأت مقدمات المعركة، كما على الجبهة المصرية، بعنوان اسرائيلى جوى وبرى مدبر على بعض المواقع السورية. وفى ساعة الصفر نفسها، الثانية بعد ظهر السادس من أكتوبر، بدأ الهجوم السورى الجوى، ويلاحظ أن هذا التوقيت اختير لتوحيد بدء المعركة فى الجبهتين السورية والمصرية لتحقيق المفاجأة الكاملة للعدو من كل جانب. فأنسب توقيت للجبهة السورية حيث لا مانع مائيا هو أول ضوء فى الفجر. وهذا على العكس من الجبهة المصرية حيث يستدعى عبور القنطرة العمل فى ظلام الليل وبالتالى البدء مع آخر ضوء فى المساء.

فى تلك اللحظة التاريخية انطلقت ١٠٠ طائرة قاذفة مقاتلة لتعطى العدو ضربة جوية خاطفة وقاصمة مكافئة لنظيرتها على الجبهة المصرية. ومعها كذلك بالضبط

انطلقت المدفعية السورية الثقيلة فى ضربة هائلة مكثفة - ١٠٠٠ مدفع، كما على القناة -
تدك مواقع العدو فى أعماقه وأنساقه المختلفة. وكما حدث فى الجنوب، فقد العدو كل
توازنه: لقد حققت سوريا المفاجأة وانتزعت المبادأة ووضعت العدو على الدفاع وألقت
به فى دوامة من الاضطراب والارتباك البادى.

وفى حماية مظلة النيران الرهيبة تلك، وفى ظل اهتزاز العدو، زحفت جيوش المدرعات
والدبابات السورية بقوة عارمة وبأعداد لم تعرفها الجبهة من قبل، وراحت تكتسح مواقع
العدو واستحكاماته، كما قصفت كل مستعمراته فى الهضبة. وكما كتب تشرشل الحفيد
«هجم السوريون بقوة أمامية قدرها ١٢٠٠ دبابة، وهو أكثر من ضعف قوة المدرعات عند
روميل فى العلمين وأكبر من ذلك قوة». وقد بدأ الزحف من الشرق على طول الجبهة
بكاملها وفى مواجهة الجانب الشرقى من الجولان برمتها، فى حين أرسلت بعض
القوات المحمولة جوا لإسقاطها على المواقع الخلفية على الجانب الغربى من الجولان.

ولقد كان مرصد جبل الشيخ بالذات من أول أهداف الهجوم السورى المنقضى.
فبواسطة القوات المحمولة جوا، قام فرسان الجو «والمغاوير» (الكوماندوز) السوريون
باقتحام الحصن رأسيا وأفقيا، جسديا وتلاحميا، بحيث تحولت القلعة المدرعة الى مصيدة
موت لحامية العدو، تماما على نحو ما حدث لدشم خط بارليف فى الجنوب. وهكذا سقط
المرصد فى الساعات الأولى من اليوم الأول، وحرّم العدو من نقطة مراقبة خطيرة.

أما على الأرض، فقد تقدم الزحف البرى من الشرق على المحاور الثلاثة، ونجحت كلها
فى اختراق قوات العدو وتحصيناته منذ البداية. وتقدمت القوات السورية المدرعة على
كل محور لينشعب كل منها الى شعبتين نحو الشمال والجنوب، وتم الاتصال بين كل هذه
الشعب بحيث تمزق العدو الى جيوب وتم تطويق منطقة القنيطرة بصفة خاصة بفكى
كماشة من الشمال والجنوب. وفى الجنوب كانت الاندفاع السورية قوية بنوع خاص،
وكان خطرها شديدا لشدة كثافتها ولقربها من حدود العدو. وقد قال الاسرائيليون ان
السوريين كانوا يفوقونهم عددا فى هذه النقطة بنسبة عشرة الى واحد. وقطع السوريون
طريق الامدادات الاسرائيلى الرئيسى بالقرب من جسر بنات يعقوب وهددوا أعالي
وادي الأردن. وقد فشل العدو بطيرانه ومدرعاته فى ايقاف الزحف، وتكسرت كل هجماته

المضادة. وفي اليوم الرابع وحوالي نهاية هذه المرحلة كان قد تم تحرير الجزء الأكبر من الجولان بالفعل.

والواقع أنه منذ بدأ الزحف السوري العظيم «وضحت على الفور، وبشكل وحشي، الطبيعة المكشوفة العارية للمواقع الاسرائيلية» كما كتبت الصنداي تايمز. وكما تضيف الصحيفة نفسها، لم تتوقف موجة الزحف السورية الأولى للاستيلاء على المراكز الاسرائيلية القوية في هذه المواقع، وانما تجاوزتها كالدوامة الكاسحة. وتلك كانت استراتيجية الاقتراب غير المباشر، اختراقا وتطويرا. وفي هذا علق قائد مدرعات اسرائيلي «انهم لم يبقوا على الطرق. لقد ظلوا يتدفقون الى الداخل كالماء، يشقون طريقهم في أي مكان يستطيعون. أما التصدي للمراكز الاسرائيلية القوية فكان مهمة الموجة الثانية». وبهذا أصبحت الهضبة كلها مسرحا مختلطا اشبه بعالم الكوايبس تدور فيه معارك برية منفردة يائسة وقاتل وحشي يدا بيد، في حين كانت القوات الاسرائيلية تتراجع شبرا شبرا.

وبصفة عامة كانت صورة الموقف الاساسي خلال أيام هذه المرحلة الأربعة أو الخمسة هي كالآتي: القوات السورية المدرعة على الهجوم، معها المبادأة والمبادرة، وفي زحف مستمر عنيد على طول القطاع الشمالي من مرتفعات الجولان، العدو، الذي يحتاج الى ٢٤ ساعة في تسلق الطريق الجبلي الملتوي من روش بيناه في الجليل عبر وادي الأردن إلى هضبة الجولان، يتقهقر بغير انتظام رغم مقاومة مستميتة تكسر له خلالها هجومان مضادان رئيسيان قام بهما بكل حشد وعنف. وفي نهاية المرحلة كان جبل الشيخ ومعظم القطاع الشمالي وجزء كبير من القطاع الأوسط قد تم تحريرها ووصلت القوات السورية إلى مشارف القنيطرة عاصمة الجولان الإقليمية والاستراتيجية.

بل لقد اعترفت اسرائيل ان طلائع المدرعات السورية توغلت في وقت ما في نهاية هذه المرحلة في عمق شمال اسرائيل ووصلت الى رأس منحدر وادي نهر الأردن، وأوشكت أن تصل الى حافة التلال المطلّة على الجليل، الى مسافة تتيح شطر القوات الاسرائيلية في الشمال الى نصفين، ولو قد كان هناك اسفين متقدم آخر ليهبط الى الضفة الأخرى من النهر وليكونا معا فكي كماشة لاستطاعا اقتطاع شريحة من أطراف اسرائيل، لسانها الشمالي النائي. «كفضمة التفاحة»، كما وصفها أحد المعلقين الغربيين (جيرار ليجران).

وفى وجه هذا التفوق السوري المطرد على الأرض، وأمام الخسائر المخيفة التى منى بها العدو فى المدرعات والقوات الميكانيكية، وضع هذا ثقله فى سلاحه الجوى. والحقيقة ان ضراوة وكثافة الهجوم الجوى العدو كانت تتناسب تناسباً طردياً مع هزائمه وخسائره على المسرح الأرضى. فباستثناء الليل، لم تنقطع غاراته الجوية المكثفة، على المواقع والقوات السورية، أحياناً بمئات الطائرات، وبصورة قيل «فيتنامية». غير انه كان كلما تصاعد بهجمات الجوية، تصاعدت خسائره من الطائرات بصورة مخيفة تماماً.

فلقد تصدى له الطيران السوري بكفاءة نادرة من ناحية، وشبكة صواريخ الدفاع الجوى من ناحية أخرى، تلك التى تحولت الى مصيدة قاتلة لطيران العدو. وأصبح مشهداً يومياً روتينياً مألوفاً فى سماء المدن والجبهة السورية لقاء الصاروخ بالطائرة فيما وصفه البعض سخرية «بقبلة الموت». اذ كانت طائرات العدو تتساقط كالفراشات، وطيّاروها يصابون بالعشرات. «يبدو أن عملية القبض على الطيارين الاسرائيليين - هكذا كتبت إحدى وكالات الأنباء - أصبحت هواية عند الدمشقيين الذين امسكوا بعشرات منهم حتى الآن!»، او كما عبر مراسل آخر ساخراً «لأول مرة فى التاريخ يجد الطيار المعادى الذى يهبط بالمظلة جميع أهل البلد فى استقباله!». وهكذا تحولت الحرب الجوية الى عملية استنزاف رهيبة لسلاح طيران العدو، الذى فشل بذلك فى شل الزحف السوري المتقدم على الجبهة.

هنا لجأ العدو الى فتح جبهة جانبية أخرى تستهدف اساساً تحويل ثقل القوات السورية بعيداً عن الجبهة فى الجولان، دون جدوى مع ذلك، فتكررت غاراته البحرية على موانئ وسواحل سوريا، خاصة اللاذقية وطرطوس ثم بانياس.. غير أن القوات البحرية والدفاع الساحلى السوري تصدوا بنجاح تام لهذه الهجمات وأغرقوا كثيراً من وحدات العدو، وحين واجه العدو الفشل على هذا النحو برا ثم جوا ثم بحرا، عاد فتحول بسلاحه الجوى إلى ضرب الاهداف المدنية والاقتصادية، الأحياء السكنية والمدنيين فى دمشق وحمص وغيرها، مصافى البترول والمنشآت الصناعية فى حمص وطرطوس وبانياس.. إلخ.. وفى هذه الهجمات الوحشية غير القانونية، التى كانت وحدها دليلاً ساطعاً على عجز العدو فى ميدان القتال الحقيقى، حدثت خسائر جسيمة فى الارواح والمنشآت.

ولكن الطيران السوري رد عليها بقصف منشآت بترويل العدو في حيفا وغير ذلك من الاهداف الاستراتيجية والحساسة في قلب العدو وعمقه بشمال اسرائيل، كذلك انصب القصف المدفعي الثقيل الكثيف والقصف الصاروخي البعيد المدى (صواريخ فروج أرض - أرض) على المستعمرات الاسرائيلية في سهل الحولة والجليل ومرج ابن عامر. وقد اضطر العدو الى إخلاء الكثير من هذه المستعمرات وتهجير سكانها - وبعض هذه المستعمرات يقع على بعد ٢٢ ميلا من اقرب نقطة سورية من خط وقف اطلاق النار السابق ، كما اعلنت اسرائيل في شكاواها العديدة ، والمخادعة ، للأمم المتحدة، بل والى «مسافة ٥٠ ميلا في عمق اسرائيل، كما كتب تشرشل الحفيد.

مرحلة الهجوم الاسرائيلي المضاد

منذ اليوم الخامس او السادس تبدأ مرحلة جديدة في المعركة. فقد حشد العدو كل احتياطيته الاستراتيجي من المدرعات تعززها قواته الجوية، وقذف بها في هجوم مضاد محموم ألقى فيه بكل ثقله وحقده معا، بأمل ان يفرغ من الجبهة السورية ليتفرغ للجبهة المصرية التي زاد حرجه فيها إلى اقصى حد، وقد حقق العدو بعض النجاح بالفعل ، والمهم احيانا على المحاور الثلاثة ، واضطرت القوات العربية للأسف الى التراجع الى الشرق.

والثابت ان التقدم السوري في المرحلة السابقة كان أسرع وأعمق من المرسوم بحيث ابتعد كثيرا عن نطاق حماية شبكة صواريخه الجوية من ناحية وبحيث لم يتسع له الوقت ليحصن مواقعه الجديدة من ناحية اخرى.

وقد ركز العدو الاسرائيلي على المحورين الشمالي والوسط بصفة خاصة لأنهما اقرب الى تهديد دمشق نفسها كما يركز الاول منهما على جبل الشيخ ، أما المحور الجنوبي فطويل ويعيد عن طريق دمشق كما يعرض العدو لهجوم مضاد شامل من مرتفعات حوران .. وحين وجد العدو انه قد حقق نجاحا كبيرا في القطاع الشمالي، قرر أن يستثمر نصره الى اقصى حد.

فحشد كل قواته المتاحة على محور القنيطرة - سعسع، الذي يقع على الطريق إلى دمشق ، لكي يقوم بهجوم شامل وساحق.

ورغم أنه واصل تقدمه وتجاوز خطوط وقف اطلاق النار في قطاعها الشمالي ووصل قرب سعسع، إلا ان العدو كان قد لجأ إلى الحرب النفسية يؤمن بها هجومه، فأنطلق

على العالم سيلا من الدعاية الكاذبة عن تقدم وهمى إلى دمشق، وصدرت تصريحات قائده بأنهم فى الطريق إليها، على بعد اميال منها حدودها اولا بأول ، وأنهم سيدخلونها فى ٢٤ ساعة.. الخ... وبطبيعة الحال لم يتحقق شىء من هذا ولا الفيحاء سقطت. وانكشفت اكنوية الدعاية الاسرائيلية للعالم الذى عدّها دعابة سخيفة وكانت موضعاً لتندرته.

ذلك أن القوات السورية، التى وصلت القوات العراقية ثم الارمنية لمساندتها ، قد صمدت بكل عناد وبسالة للهجوم المعادى وتصدت له بإصرار مخيف، وقد لعبت مشاة الصواريخ فى هذا الصمود دورا كبيرا، إذ كانت تتقدم ليلا وتقترب من بوابات العدو ومدرعاته وتدمرها بالجملة، كذلك أدت القوات المدرعة السورية مع العراقية دورا خطيرا فى تكسير الزحف وإيقافه ثم ارغامه على التراجع، بحيث توقفت قوة العدو عن الحركة تماما فى يوم ١٤ أكتوبر. وكان هذا هو الموقف الذى وصفه كيسينجر بأنه «عائم».

مرحلة المد السورى الثانى

ومن هذه النقطة بدأت مرحلة جديدة فى المعركة، فمنذ اليوم الثامن واصلت القوات السورية التقدم جنوبا فى القطاع الشمالى فى وجه هجوم مضاد جديد للعدو، واستمر الصدام سجالا ثلاثة أيام ، حين أعلن الرئيس السورى فى اليوم العاشر ان القوات السورية تمكنت من تحرير مساحات كبيرة من الأرض المحتلة فى القطاعين الأوسط والجنوبى، فى حين ان مدفعيتها «تقصف الآن مواقع العدو فى سهل الحولة وشمال طبرية» ، ولعل هذه النقطة تحدد ذروة النصر والتقدم السورى.

وفى هذه الجولة دارت معركة من أكبر معارك الدبابات فى التاريخ الحديث، اشترك فيها من الجانبين نحو ٢٠٠٠ دبابة، تغطيتها سحابة كثيفة من الطيران وعلى مدى بضعة ايام اتصلت المعركة التى تكبد العدو فيها خسائر فاحشة على الأرض وفى الجو.. وعاد الزحف السورى من جديد نحو الجنوب وبدأ التقدم فوق اجزاء من الأرض المحررة للمرة الثانية بعد أن تم طرد العدو منها للمرة الثانية ايضا. فعلى محور القنيطرة- سعسع تم دفع العدو الى منتصف المسافة بين سعسع وخطوط ١٩٦٧. وفى اقصى الشرق تم

طرد العدو من تل الفرس ومنطقة القنيطرة ثم من هامش كبير من القطاع الجنوبي. وبذلك تمت دورة شبه كاملة نوعا من المد والجزر ثم المد على جزء كبير من الهضبة انتهت الى حد ما لصالح سوريا.

المرحلة الاخيرة

ومنذ اليوم الحادى عشر من القتال، وتماما كما على الجبهة المصرية، تبدأ مرحلة جديدة واخيرة، افتتحها العدو بهجوم مضاد شرس وعنيف ، شنت سوريا فى وجهه هجوما عريضا وعنيذا حشدت له، كما أعلنت اسرائيل نفسها، «دبابات اكثر من الدبابات التى استخدمتها ألمانيا ضد الروسيا فى الحرب الثانية»، وقد استمرت هذه المعركة بلا هوادة لعدة أيام متصلة، حقق فيها العدو بعض التقدم شمالا، لكنه تكبد خسائر فاحشة فى قواته وعتاده . وقد استطاع العدو، على محورين للتقدم شرق الجولان وغربها، أن يحقق «ثغرة» فى خطوط القوات السورية كذلك التى أحدثها غرب القناة على الجبهة المصرية - ومنذ اليوم الخامس عشر والسادس عشر كان القتال مستميتا حول جبل الشيخ مرة اخرى فى الشمال، وبهذا كانت هضبة الجولان، كلها او بعضها ، قد تم اكتساحها وتبادلها أو استردادها مرتين من كلا الجانبين خلال المعركة، أى خضعت لعملية مد وجزر مزدوجة.

غير ان الموقف العام بعد هذا تجمد نوعا واتخذ القتال صفة محلية وتكتيكية غالبا، بهدف تحسين المواقع المحلية أو القيام بهجمات محدودة أو الرد عليها ردا محدودا. ورغم استمرار المساجلات بالمدفعية والصواريخ فقد تحول القتال الى حرب استنزاف برية وجوية يتبادل فيها الجانبان الضربات المحدودة على التعاقب، وكان من الواضح ان الجانبين قد بلغا حد الارهاق والاعياء، وايضا حد التوازن ، فدخلا فى دور من «تناطح الكباش» كما وصفته «الشرارة» (دار الصياد، بيروت).

وخلف هذا المسرح، كانت القوات العربية تعد لهجوم كبير خاسم، ولكن قرار وقف اطلاق النار كان اسبق، وهنا، كما على الجبهة المصرية، كان اثر الامداد الأمريكى الخاطف قد بدأ يظهر على تطورات المعركة، وتحول المد لصالح العدو بصفة عامة وان كانت خسائره فى تصاعد جنونى.

وكما على الجبهة المصرية ايضا، استغل العدو بخسة فرصة وقف اطلاق النار ليوسع رقعة الأرض التي يحتلها. فدفع بكل قواته ليختلس أكبر نصر ممكن في آخر لحظة متاحة، والمفهوم انه في نهاية القتال تماما كان قد استعاد منطقة الجولان ووصل الى خطوط وقف اطلاق النار كما كانت قبل ٦ أكتوبر ثم تجاوزها بنحو ١٠ كم على امتداد القطاع الشمالى، مثلما فعل على الجبهة المصرية غرب قناة السويس، وكما على الجبهة المصرية، فقد كانت سوريا تخطط لهجوم ساحق وشامل تكسح به العدو نهائيا حين أتى قرار وقف اطلاق النار ليترك الموقف على هذه الصورة، وإذا كانت عملية الفصل بين القوات فى الجولان لم تتحقق حتى الآن وتبدو صعبة شاقة بسبب أطماع العدو، فقد فرضت سوريا عليه حرب استنزاف ضارية بكل الاسلحة الثقيلة سوف يكون لها ما بعدها بلا ريب.

على أننا ينبغي ان نلاحظ ان العدو اذا كان قد نجح فى تجاوز خطوط ١٩٦٧ وتوسع فى جيب محدود جديد عبرها، فإن السوريين ايضا وفى الجانب المقابل جغرافيا قد نجحوا فى التوسع جنوبا غربا ووصلوا الى خطوط ما قبل ١٩٦٧ مع العدو ثم تجاوزوها وتعمقوا فى اطراف أرض فلسطين المحتلة منذ ١٩٤٨ (حيث سبغ الجنود السوريون بالفعل فى مياه طبرية).

والفارق ان التوسع السورى للأسف لم يتح له ان يستمر ويبقى، على العكس من التوسع العدو، الذى على أية حال لم يلبث ان انحسر خاسئا وهو حسير مع إتمام الفصل بين القوات .

خصائص معركة الجبهتين

عند هذا الحد من الدراسة يتعين علينا ان نتوقف لنلخص التقييم العام الشامل للمعركة بجبهتيها فى خريطة بيانية او صورة لفظية محددة كما هى مركزة، فماذا نجد؟ هناك خطوط وملامح او انتهايات اساسية ستة يمكن التعرف عليها والتوصل اليها بدقة، كما تكاد تتكرر بحذاقها على الجبهتين السورية والمصرية، الامر الذى يشير إلى وحدة المعركة بينهما ايقاعا ونبضا، توقيتا وتعاصرا، ضوابط وضواغط، أقدارا ومصيرا.

أولا : من أوضح ، ولعلها أبرز، ملامح المعركة ان اول بدايتها بالدقة هى قمتها المطلقة، بينما على العكس كانت نهايتها هى قاعها، وما بين البداية والنهاية كان الخط البياني اميل الى النزول الخفيف منه الى الاستواء الافقى او افق الاستواء.

فلقد بدأنا بانتصار انفجارى داو حقا هو ملحمة العبور وخلق الخط ، أو ملحمة الساعات الست الخالدة . وبعدها كانت معركة رأس الجسر والقاعدة الارضية قمة اخرى، ولكن - لعلنا لن نختلف - اقل قامة وارتفاعا .

ثم جاءت معركة الدبابات الكبرى قمة اخرى ولكنها فى اتجاه المنحنى نفسه عموما او تقريبا، الى ان سجلت عملية الاختراق انحدارا ملحوظا، فكانت قاع المنحنى كما كانت نهايته.

هذا على الجبهة المصرية ، ولكن ايضا بالمثل على الجبهة السورية : زحف كاسح رائع اولا : ثم ارتدادة محدودة ، فمد مشجع وبارع من جديد، ثم اخيرا تراجع بطيء ولكنه صامد فى النهاية.

ثانيا: على هذا الاساس ينقسم منحنى المعركة ككل، وفى الجبهتين على السواء، الى قسمين وربما بالتحديد الى نصفين، متميزين، فمن بين ايام القتال العشرين ، كانت الايام العشرة الاولى انتصارا مصريا وسوريا مطلقا وأحيانا ساحقا، ولا مبالغة فى هذا، كما لا شك . أما الايام العشرة الاخيرة فإنها النصف المحايد، فهى اقرب على الجملة الى التعادل ، من هنا فإذا كانت المعركة برمتها هى «العصر البطولى» «heroic age» فى تاريخ العرب الحديث ، فإن نصفها الاول هو بدوره العصر البطولى فى ملحمة المعركة نفسها عموما.

ثالثا: ذلك التصنيف او التصنيف انما يرجع الى حقيقة واحدة ووحيدة تعد وحدها من أخص، كما هى من أخص، خصائص حرب أكتوبر: لقد حارب العدو معركتين اثنتين لا معركة واحدة فى هذه الحرب، «معركتين توأمتين» الا انهما مختلفتان جذريا فى النتائج والمصائر، قل فى النوع او الجنس. ولا يعبر عن ثنائية معركة العدو هذه تعبيرا مباشرا وسافرا كما تعبر ثنائية المد والجزر التى شهدتها الجبهة السورية بصورة محددة جدا ودالة الى أبعد حد. كما يرمز اليها ويلخصها تبادل العبور إلى ضفتى القناة بين القوات المصرية والاسرائيلية على جبهة سيناء.

والواقع أن المد والجزر الميدانى الذى حدث اثناء المعركة، إذا نظرنا اليها من بدايتها إلى نهايتها، يمكن ان نصفه فى حالة الجبهة المصرية بأنه مد وجزر «أفقى» توسع ثم انكمش فيه كلا الطرفين المتحاربين يمينا ويسارا مرة واحدة على مستوى واحد.

أما فى سوريا فقد كان المد والجزر مزبوجا، ومن ثم كان «رأسيا» تمدد فيه ثم تقلص كل من الطرفين مرتين «طباقيا» فوق الآخر وتحتة.

أما كيف حارب العدو معركتين لا معركة واحدة، فأمر بالغ الوضوح، فى الأيام العشرة الاولى حاربت اسرائيل معركة مهزومة بصفة مؤكدة، كانت القوة الاسرائيلية فيها على وشك ان تتحطم وتنهار نهائيا وكانت ذخيرتها تنفذ إلا من رصيد أيام معدودات، حين بدأت المعركة الثانية من نقطة الصفر تقريبا فأنقذتها من هزيمة كاملة محققة.

أما هذه المعركة الثانية التى استمرت ايضا عشرة أيام فهى معركة امريكية اكثر منها اسرائيلية، معركة التدخل الامريكى شبه المباشر الذى نقل اليها وفى الميدان شلالا من الاسلحة الحديثة البالغة التطور فاق ما كان لدى اسرائيل قبل الحرب كما وكيفا، فكان الموقف اشبه بعملية «نقل دم» كاملة إلى جريح طريح الميدان على وشك ان يلفظ انفاسه الاخيرة فمنحته «سلفة» جديدة من الحياة a new lease of life وكان الوضع كما لو ان اسرائيل قد بدأت معركة جديدة لأول مرة كأنها لم تحارب على التو معركة سابقة وهزمت فيها هزيمة ساحقة.

وقد عبر الاستاذ محمد حسنين هيكل عن هذه الثنائية نفسها تعبيرا ثاقبا وسديدا ولكن بطريقة اخرى تضغط على العلاقة بين الابعاد الدولية والمحلية للمعركة، فهو أيضا يقسم أيام الحرب العشرين الى قسمين متساويين بالضبط، المرحلة الاولى «كانت الحرب فيها بين العرب واسرائيل مباشرة ويقوة كل منهما بمفرده.. والحركة فيها هى حركة الميزان بين القوة العربية وبين القوة الاسرائيلية .. وفى هذه المرحلة بالتحديد تركزت معظم خسائر اسرائيل فى الحرب كلها، حيث فقدت نصف قوتها المدرعة وثلاث قوتها الجوية ، لقد «هزمنها».. ليس بالضربة القاضية ولكن بالنقط».

المرحلة الثانية «تداخلت فيها تأثيرات التوازن النوى مع حركة الميزان بين القوة العربية وبين القوة الاسرائيلية.. ولم تكن الحرب فيها بين العرب واسرائيل وجها لوجه، ولا مباشرة.. ولا بقوة كل منهما بمفرده، ان ساحة الصراع تغيرت، لم يعد هناك طرفان فيه ولكن اربعة.. لم يعد هناك العرب واسرائيل وحدهما وانما نزل الى الساحة الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الامريكية.. وأصبح الصراع دائراً على مستويين ، صدام اقليمى بالسلح فى الشرق الاوسط، واحتمال صدام عالمى عند القمة بين القوتين

الاعظم». ونتيجة لهذا التغير فإن القيادة الاسرائيلية «تمكنت من استعادة توازنها ، وعادت الى السيطرة على ادوات قوتها، خصوصا بإتمام حالة التعبئة العامة الى حدودها القصوى.. وراح ذلك يظهر في ميدان القتال» ، كما لا بد ان نعترف حتى لا نخدع انفسنا.

رابعا: ثنائية المعركة هذه هي التي تفسر ادعاء اسرائيل بتعادلها او انتصارها المزعوم في الحرب، فهي تريد ان تصور نتيجة معركتها الاولى المهزومة مكافئا موضوعيا ومعادلا استراتيجيا للمعركة الثانية الاقرب الى التعادل.. وهذه مغالطة فجة تتناقض ابسط بديهيات المنطق والواقع.

وواقع الامر ببساطة هو ان اسرائيل حاولت ان تجعل من الحرب الرابعة في اكتوبر نسخة مكررة من الحرب الثالثة في يونيو، فلما فشلت حاولت ان تجعل من المعركة الثانية من حرب اكتوبر نفسها نسخة مقلوبة من المعركة الاولى منها، فلما فشلت في ذلك عسكريا حاولت دعائيا، فلما فشلت حاولت وتحاول الآن سياسيا.

خامسا : إذا كانت اسرائيل قد حاربت او مكن لها من ان تحارب معركتين وتخرج بالتالي بنصف هزيمة، فإن سوريا ومصر على العكس قد حاربتا نصف حرب في معركة واحدة كاملة خرجتا منها بنصف انتصار.. ولا يغير من هذا او يتعارض معه بطبيعة الحال ان مدة القتال هي واحدة بالنسبة لكل الاطراف المتحاربة، وانما المقصود التطورات الاساسية التي طرأت داخل المعركة.

وإذا كانت اسرائيل تدعي لإخفاء هزيمتها أنها حرمت عالميا من ان تحقق انتصارا ممكنا، فإن العكس تماما هو الصحيح ، فإنما مصر وسوريا، بسبب التوازنات والحسابات الدولية ويسبب تدخل امريكا شبه المباشر والقوات الاسرائيلية تكاد تحتضر، مصر وسوريا هما الطرف الذي حرم من استكمال نصره الواقع بالفعل الى منتهاه وقمته، فاخترزلت الحرب بالنسبة اليهما من حرب كاملة الى نصف حرب والنصر الكامل الى نصف نصر.

سادسا : واخيرا.. وفي التحليل النهائي، وبأى حسابات وعلى اى مقاييس، ورغم كل ادعاءات العدو، خرجت مصر وسوريا وهي المنتصرة واسرائيل المنهزمة في الحرب

الرابعة، صحيح لقد كان من الممكن لهذا النصر وتلك الهزيمة ان يكونا اكبر واكمل لولا ان المعركة اوقفت قبل الاوان ولم تستمر الى مداها ومنتهاها الطبيعي فجاءت الحرب، «منقوصة» - أو «مقصورة» ان شئت - وذلك بفعل العوامل الخارجية والتدخل الاجنبى. ولئن كان العدو يزعم انه لم ينهزم وانما انتصر، بل وحقق انتصارا اكبر من انتصاره الساحق فى ١٩٦٧، فهذا لم يخدع أحدا، حتى هو نفسه. ولكن هذا يحتاج الى مناقشة أكثر تفصيلا، ولهذا فليكن سؤالنا الختامى هو: لمن النصر؟

الفصل الخامس

النصر لمن ؟

قد يبدو هذا السؤال غريباً، مثلما هو مؤسف عربياً، وقد يبدو متطفلاً وطفيلياً غير مشروع أكثر مما فيه من فضول مشروع، ولكن لا حيلة لنا فيه، ولا مفر لكاتب من التعرض له بعد أن حاولت الدعاية الاسرائيلية المحترفة أن تطمس معالم الحقيقة وأن تقلب حقيقة الموقف، ولنا على أية حال أن نتذكر أن العدو، هو الآخر، يسأل نفسه مثل هذا السؤال.

ولا يقل أهمية عن هذا أن البعض منا يتسائل أيضاً، يتشكك أو يشكك في حقيقة انتصارنا، بل يذهب إلى أن من «الغفلة» أن نعتبر معركة أكتوبر انتصاراً لنا، وأن حرب أكتوبر ليست «حرب تحرير» بقدر ما هي «حرب تحريك» كما وضعوها في صيغة من السجع السياسى الأثير والمأثور.

ولن نذكر هنا بطبيعة الحال ذلك الرأى الذى يقول بخطأ الحرب كلها، قرار البدء بها، ثم توقفها أو إيقافها وأخيراً قبول المحادثات السياسية.

وعندنا أن الإجابة عن هذا السؤال، مهما كانت أكاذيب العدو أو «غفلة» البعض منا، ينبغى أن تكون موضوعية بحث، نقول ما لنا وما علينا ونضع الحقيقة فى حجمها الطبيعى، واثقين من قبل ومن بعد بأن الحق والحقيقة معنا دائماً وأكثر من أى وقت مضى، أن الموقف الميدانى لم يكن قط غامضاً أو ضبابياً أو متميعاً بحيث يسمح فى تقييمه بوجهات النظر المختلفة فضلاً عن التؤيلات الشخصية أو التحيزات الخاصة والتفسيرات الملتوية، ودعك تماماً من قلب الحقيقة رأساً على عقب كما يفعل العدو الحقود ومن ضللتهم دعايته من بيننا.

موقف العدو

ولنبداً بالعدو، واقع الامر أن العدو بعد أن خسر المعركة العسكرية وقبل أن تبدأ المعركة السياسية، فقد أدار معركة دعائية داوية على مستوى العالم فى هستيريا

محمومة مكابرة ومربية ليشوه بل ليسرق بها انتصارنا وليزيّف لنفسه انتصارا موهوما منتحلا، وخلاصة هذه الحملة الدعائية هي أن العدو لم يهزم والعرب لم تنتصر، بل واكثر من هذا ان العرب هي التي هزمت (كذا!)، بل والاكثر منه ان اسرائيل قد سجلت نصرا عسكريا اكبر وأعظم من انتصارها الساحق في ١٩٦٧، وأن العرب - بالمقابل - تلقوا هزيمة عسكرية اكبر وافدح من هزيمتهم في ١٩٦٧ (كذا!).

واخيرا وليس آخرا ذهبت اسرائيل الى حد القول بأنها لولا التدخل الدولي لوقف اطلاق النار لدمرت الجيوش العربية ولحققت انتصارا اكبر مما حققته بالفعل، وقد عبر حاييم هيرتزوج عن هذا في مؤتمر صحفي يوم ٢٧ اكتوبر بزعمه ان «العالم لم يكن يريد لاسرائيل ان تنتصر. وقد اظهر نحوها في اللحظات الحرجة عداا غريبا لا نستطيع تفسيره الا بأنه نزعة من نزعات معاداة السامية» (!). أما دايان فبعد ان اعترف بأن الجيش الاسرائيلي قد «عجز عن تدمير الجيوش العربية كما وعد». اضاف مستتركا «نتيجة لاسباب سياسية».

ذلك باختصار موقف العدو الدعائي في تقييم الحرب، اما اساس هذه النتائج او الاستنتاجات المثيرة، المثيرة للدهشة بعد السخرية، فهو انه إذا كانت مصر قد عبرت القناة الى سيناء فقد عبر هو القناة الى الضفة الغربية، حيث اصبحت قواته تحارب - كما اعلن وقتئذ - «في افريقيا» (!)، وإذا كانت مصر قد استردت قطاعا على الضفة الشرقية فقد توسع هو ايضا في قطاع مناظر على الضفة الغربية، واخيرا فإن سوريا ومصر وان احرزتا انتصارات ميدانية لا سبيل الى انكارها، فإن العدو بالمقابل سجل مكاسب اقليمية وسعت منطقة احتلاله السابق بنحو ١٠ كم سواء على الجبهة السورية او المصرية، لتمتد بذلك «من سعسع الى الادبية» بعد ان كانت تمتد «من القنطرة إلى القنيطرة» فقط (!).

وإذا كان هذا هو موقف العدو الاسرائيلي المتطرف نفسه، وبخاصة مؤسسته العسكرية المتحكمة، فإن حلفاءه الامريكيين - اكثر تواضعا - ينتهون إلى انتهاء اقل طرفا واعوجاجا ولكنه اكثر خبثا ربما، فالدوائر العسكرية في واشنطن انتهت في تقييمها للمعركة - هكذا حملت وكالات الانباء - الى انه ليس هناك منتصر ولا مهزوم، وأن الجولة انتهت بالتعادل بين الطرفين، هذا بينما تميل اغلب الدوائر المحايدة في الخارج الى

القول بأن العرب على الجملة قد حققوا «نصرا محسودا» ، قدره احدهم - بصيغة اسهم الشركات ؟ - بنسبة ٥١٪ للعرب ، ٤٩٪ لاسرائيل (!) . ولكن هذه النسبة - سنرى - ينبغي ان تعدل. وقد يكون من المبالغة ان نقول ٧٥٪ ضد ٢٥٪، ولعل المقبول شيء وسط بين الطرفين ، اذا كان ولا بد من مثل هذه الصياغة.

وقبل ان نعود الى حقائق الميدان والى ملف المعركة نفسها، فإن لنا يقينا ان نتساءل او بالأصح ان نسأل العدو: فماذا اذن هذا الذي يجرى داخل البيت - الجيتو اسرائيل ؟ كيف ولماذا تحول الى مأتم قومي حار، ومبكى وطنى على مقياس دولة ثم الى مستشفى امراض عصبية (أعلنت اسرائيل ان نسبة الامراض النفسية قد زادت ١٠٪ بعد الحرب!).

ان الخبر اليومي، ام لم نقل الخبز اليومي، الذى يخرج من اسرائيل منذ المعركة انما يصنع مادته الأساسية الحزن العميق والقلق والاكتئاب والخوف من الغد والاحساس العام بالضياح والاحباط وان المستقبل غير مضمون او مؤكد او موثوق به . ثم ما هذا الصراع وهذه الاتهامات الكاسحة المتبادلة بين قادة اسرائيل العسكريين - «حرب الجنرالات» - تلك الآلهة التى هوت والاصنام التى تحطمت ؟ وهذا التحقيق الرسمى الذى تديره الحكومة فى اسباب وملابسات «الكارثة» الوطنية التى اصاب «جيش الدفاع» و«الدولة اليهودية» ؟ ثم سقوط تلك الحكومة نفسها ؟ وو.. الخ؟

لقد اعترف كل قادة وزعماء اسرائيل انها اصببت «بكارثة» مروعة - هذا تعبيرهم - فى ٦ اكتوبر، وتحديثا علنا عن «اخطاء حرب اكتوبر القاتلة». بينما اعترف ابا اييان صراحة «بفشل اسرائيل فى سيناء» . فكيف يتفق هذا مع ادعائهم الانتصار؟ لقد قال رئيس المنظمة اليهودية فى ستراسبورج بعد المعركة بلا موارد «ان الجولة الرابعة قد اسفرت عن كارثة كاملة بالنسبة لاسرائيل.. فنتائج المعارك والانعكاسات التى بدأت تظهر عنها فى اسرائيل تؤكد اهمية الانتصارات التى حققتها القوات العربية فى المعركة، تلك الانتصارات التى أنهت الشعور بالتفوق الاسرائيلي وجيشها الذى لا يقهر، وأكدت كفاءة المقاتل العربى وتصميمه وفاعلية السلاح الذى فى يده». ولئن كان القادة الاسرائيليون، كما يقول كاتب يهودى آخر هو فيكتور سيجلمان، «يدعون ان اسرائيل قد انتصرت فى الحرب، فان الاسرائيليين انفسهم لا يشعرون بأنهم انتصروا على

الاطلاق». وفي المعنى نفسه كتبت مجلة تايم بعد ٥ شهور من انتهاء الحرب، كتبت تقول «ان معظم الاسرائيليين يشعرون الآن أنهم خسروا الحرب العسكرية في اكتوبر الماضى، وأنهم يخسرون الحرب السياسية».

لماذا اذن - دعنا نحن نسأل انفسنا هذه المرة - تذهب اسرائيل إلى هذا المدى المخل والمخل من التناقض الفاضح بين دموعهم في الداخل ودعايتهم في الخارج؟ كيف يحدث ان يتباكى متحدثو العدو وقادته على ان العالم لأمر ما «حرم» اسرائيل من تحقيق نصر، وفي الوقت نفسه يزعمون انهم قد سجلوا نصرا؟ هذه النكسة المقبضة والخسائر الفادحة، كيف تتفق عقلا ومنطقا مع تلك الدعوى الفاحشة.. دعوى النصر أو حتى اللاهزيمة؟

ثمة اسباب ثلاثة اساسية وراء هذه الاكثوية الشاحبة، تستमित اسرائيل من اجلها، وثلاثتها - سيلاحظ - تؤلف حربا نفسية بعيدة المدى متعددة الابعاد.

أولها: ولعلها اقلها اهمية رغم خطره البالغ، تمهيد اسرائيل للمعركة السياسية المصيرية التي ستترجم المعركة العسكرية الى مكاسب او خسائر اقليمية والى تسوية ارضية . فما دام لا غالب ولا مغلوب ، فلا مجال ولا محل لتنازلات سياسية او انسحاب من اراض محتلة. مادام لم يحدث تغيير فى التوازن العسكرى، فلا مبرر لتغيير فى «الحالة الراهنه status quo» اقليميا. تلك هى اللعبة، ولقد بدأتها اسرائيل من قبل بالفعل. ففى وجه المقترحات المصرية فى محادثات الكيلو ١٠١ ثم فى مؤتمر جنيف بانسحاب العدو من طرف واحد، رد بأن هذا «لايعكس حقيقة الموقف فى المعركة» (كذا)، واقترح بالمقابل ان ينسحب من الضفة الغربية للقناة، مقابل ان تنسحب مصر من ضفتها الشرقية فى غرب سيناء.

صفقة صفيقة كما هى سفيهة، وعليها كانت تراهن حتى قريب لكى لا تنسحب الى خطوط وقف اطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر.

أما السبب الثانى العاجل والملح لادعاء العدو بالنصر فهو اعلان الحرب النفسية المباشرة على الروح المعنوية العربية والمصرية، على الوحدة الوطنية داخل كل بلد عربى، وخاصة سوريا، وبالأخص مصر، ثم على الوحدة القومية بين العرب جميعا، وواضح تماما منطق وهدف وأسلوب العدو فى هذه الزاوية . فما دام العرب قد هزموا مرة

ثانية، بل رابعة، بعد كل ما حدث، فما هو الامل، وما جدوى قياداتهم وانظمتهم التي توفر لهم الهزيمة بانتظام؟ محاولة دق الاسفين بين الجماهير والقيادات وبين الشعوب والنظم واضحة، والهدف هو احداث بلبلة وتساؤلات ثم انفجار عربى من الداخل يمزق الوحدة الوطنية والقومية ويقدم العرب فريسة سائغة للعدو وأطماعه التوسعية والاستعمارية التقليدية.

السبب الثالث والاخير هو من وجهة نظر العدو أشد خطرا على المدى البعيد لأنه يلقى بظلاله وانعكاساته على صميم الوجود والكيان الاسرائيلى ذاته، ذلك نقصد انقاذ فكرة الامن الاسرائيلى وهيبة القوة الاسرائيلية وصورة اسرائيل فى العالم، فاسرائيل التي بنت وجودها كله على مبدأ القوة الرادعة الساحقة، واسطورة التفوق العسكرى المطلق لا يمكن ان تسمح لنفسها او ان يسمح لها بأن تهزم، ومن ثم لا يمكن ان تعترف بهزيمة، ان مثل هذا الاعتراف لمرة واحدة كفيل بأن يهدد وجودها الى الابد، وعليها الآن من هذا المنطق وبعد ان هزمت بالفعل ان ترفض الإقرار بالهزيمة وان تقاومه بكل ضراوة حفاظا على روحها المعنوية المتداعية من الانهيار الكلى، وذلك بأمل ان تصحح الموقف بنصر غادر تختلسه فى اقرب فرصة متاحة مستقبلا.

وسنجد بالفعل انه شرط اساسى ومنطقى جدا لموقف اسرائيل الراهن، من انكار الهزيمة وادعاء النصر المزور، ان تباغت يوما ما بالهجوم ، انها لا يمكن ان تخدع نفسها حقيقة، وانما هي تخادعنا نحن ، على نية مبيتة ومحتومة بتحويل هزيمتها الى نصر قريب يجيبها ويمحوها من سجل حياتها.

وهذا انتهاء بديهى كما هو جوهرى بالنسبة للعرب، وعلينا ان نعيه جيدا لانه مؤشر مؤكد نحو سلوك العدو المستقبلى. غير ان هذا موضوع آخر سنعود اليه بتفصيل فى موضعه.

حساب الخسائر والارباح

أما الآن، فلنستعرض كشف حساب المعركة وصولا الى تقييم موضوعى متزن لنتيجتها، بعيدا عن دعاية العدو وادعاءاته وعن التحيز الشوفينى او المزايدة والمناقصة، وهناك اساسان ممكنان للحساب : خسائر الجانبين فى السلاح والرجال، وخسائر او مكاسب الجانبين فى الأرض.

الرجال والسلاح

فإذا بدأنا بالاولى، فإن تقديرات الخسائر تختلف بحسب مصادرها، ولكن المتوسطات المقبولة فى اغلب الدوائر المحايدة والمعتدلة تدور على النحو الآتى :

خسائر العدو فى القوة البشرية عشرة آلاف قتيل- هذا تقدير فرنسى وامريكى يشمل الجبهتين السورية والمصرية. وهناك تقدير رويتر، ٨٠٠٠ قتيل.

وهذا على اقل تقدير يفوق كثيرا مجموع خسائر العدو، كما اعلنها هو نفسه، منذ ١٩٤٨ وحتى ما قبل اكتوبر، والتي تبلغ ٦٠٠٠ قتيل، وإذا كان دايان قد «اعترف» بأن خسائرهم فى اكتوبر ثلاثة امثال ما خسروه فى ١٩٦٧ (وهى فى تقديرهم المعلن ٧٥٩ فردا) فهذا تضليل سافر وكاذب، لأن الارقام التى اعلنتها اسرائيل بنفسها تفوق هذه الحسبة بكثير، ولقد صرح احد كبار الاساقفة الامريكيين بعد زيارة للقدس بأنه علم ان عدد القتلى الاسرائيليين فى اكتوبر يبلغ فى الحقيقة ٣ أو ٤ أمثال الارقام الرسمية المعلنة، وعلى اية حال، فإذا نحن اضعفنا الى قائمة القتلى هذه عدد الجرحى الاسرائيليين الذى يقدر بنحو ٢٠ ألفا، لأدركنا بسهولة صحة القول الدارج من ان فى كل بيت باسرائيل اليوم تقريبا قتيلًا او جريحًا او اسيرا أو مفقودًا على الأقل، أو كما كتب ليفى هيروشليمى فى معاريف ، «لا يوجد حى او شارع او كيبوتز دون عائلات مصابة». أما بحساب القتلى وحدهم، فلقد قدر انه يعادل بالنسبة لعدد السكان فقدان الولايات المتحدة مثلا لثلثى الى ثلاثة ارباع المليون، او مرتين ونصف المرة الى ثلاثة اضعاف خسائر الولايات المتحدة فى فيتنام على مدى ١٠ سنوات ، كما ان هذا يعنى ايضا ان نسبة القتلى الى عدد السكان هى ١ : ٢٠٠ ، أى ٠.٣٪ (١٠.٠٠٠/٣.٠٠٠.٠٠٠) .. أما إذا قارنا بخسائر مصر فى ١٩٦٧ ، التى تعد حالة شاذة جدا، والتي تقدر بصفة غير رسمية بنحو ٢٠ ألفا ، فإن خسائر اسرائيل فى اكتوبر تعادل النصف، غير اننا اذا عدنا فنسبنا الى عدد السكان (٣ ملايين ضد ٣٦ مليونًا) ، فإن خسائر اسرائيل فى اكتوبر تعادل كما لو ان مصر فقدت ١٣٠ ألفا، أى ستة امثال خسارة مصر فى يونيو.

هذا فى القوة البشرية. اما فى السلاح فان تقدير خسائر العدو يدور بالتقريب حول ١٠٠٠ دبابة، وبضع مئات من الطائرات، البعض يقول ٢٠٠، والبعض يصل بها نحو ٣٠٠

طائرة، وآخرون إلى أكثر والمقول ان هذا يعنى ان العدو فقد نصف سلاحه عامة ، وفي تقدير آخر نصف قوته المدرعة وثالث قوته الجوية ، وفي تقدير ثالث ثلاثة ارباع سلاحه الجوى بالذات. وفي هذه الخسائر الرهيبة قال الصحفى الامريكى أرنودى بورجريف «ان ما شهدته على جبهة السويس لم أشهده فى ١٢ حريا».

أما خسائرنا نحن فى السلاح فهى على ضخامتها اقل بكثير وبإجماع الكل من خسائر العدو، على الاقل باعتبار كل من الدولتين العربيتين على حده وهى فى الرجال اقل مما فقدناه فى حرب يونيو . فأما فى السلاح، فكما وضعها المتحدث العسكرى المصرى فى منتصف ايام القتال تقريبا فإن خسائره. ولما كانت خسائر إسرائيل كما اعلنها المتحدث المصرى فى المناسبة نفسها هى نحو ٢٠٠ طائرة، ٥٠٠ دبابة، فيمكن ان نستنتج من هذا وذاك ان خسائرنا كانت ٦٠ طائرة، ١٧٠ دبابة، غير ان هذه الأرقام ، حتى مع حفظ النسب المعطاة، لابد ان تعدل كثيرا - بالزيادة - بعد ان تضاعفت خسائر العدو تقريبا بنهاية القتال.

أما خسائرنا فى الرجال فلم تعلن رسميا، ولكن مجلة «تايم الامريكية» تضعها فى حدود ٣٠٠٠ فرد، وتقول : إن هذا يعنى بحسب نسبة السكان ان خسائر اسرائيل ١٠ أمثال خسائر مصر. وهناك بعض مصادر اجنبية تعطى أرقاما اكبر بكثير ، ولكن هذه لا عبرة بها ولا اعتبار لها، فحتى ها ارتس قد اعترفت بئنه «حتى بالنسبة للاصابات فى الجنود المصريين ، فان التقديرات تشير إلى أنها نسبة لا تكاد تذكر مقارنة باجمالى عدد الجيش . فهى اقل ويكثير من ١٪». ذلك كله رغم ان المفروض نظريا وعمليا ان خسائر المهاجم ترجح دائما وبالضرورة خسائر المدافع، وهى فى حالتنا طفيفة بدرجة نادرة بالنسبة لما حققناه من انتصار وانجاز.

أما على الجانب السورى، فليس لدينا تقديرات متاحة، لكن خسائر العدو على تلك الجبهة لا تقل عن عدة مئات من الدبابات ويضع مئات من الطائرات، إلى جانب رقم كبير من القتلى قد يزيد ايضا عن خسائر السوريين زيادة كبيرة للغاية، أما على الجانب العربى على الجملة فقد ورد فى حديث للمناضل ياسر عرفات ان مجموع شهدائنا على الجبهتين ٩٠٠٠، منهم اقل قليلا من الالف من الفدائيين الفلسطينيين ، بالاضافة الى ٢٠٠٠ دبابة.

وإذا كان لهذا كله من معنى فهو ان الجيش المصرى وكذا السورى خرج كلاهما من المعركة وهيكله الاساسى سليم تماما وقادر على العودة الى القتال بكامل قوته، بينما ان الجيش الاسرائيلى قد خرج بالفعل مدحورا محطما، لولا المساعدات الامريكية الخرافية والجزافية لكان غير صالح للقتال من جديد قبل سنين.

الأرض

يبقى الآن كشف حساب الأرض، الورقة التى ظنها العذور ابحة وبها كان يلعب لعبته الدعائية المكنوية ومناورته السياسية المكشوفة، والنقطة التى لا نظنها جدلية بقدر ما تحتاج الى التصحيح إن فشل التوضيح.

بحسب ما اعلنه المتحدث العسكرى المصرى عشية اعلان وقف اطلاق النار فى ٢٢ اكتوبر، كانت القوات المصرية تسيطر على منطقة من سيناء مساحتها ٣٠٠٠ كيلو متر مربع، تمتد بطول القناة من البحر الى الخليج ويعمق يتراوح بين ١٧ ، ١٢ كم. أما قوات العذوف كانت تضع يدها غرب القناة على رقعة مساحتها ٣٠٠ كيلومتر مربع، ٧٠ كيلومترا منها هى التى كانت قد احتلتها قبل وقف النار.

على هذا الاساس، واضح تماما، حتى من حيث المساحة البحتة، انه لا وجه للمقارنة على الاطلاق ، فالنطاق المصرى قاعدة ارضية عريضة صلبة وثيقة تبلغ عشرة اضعاف مساحة الوجود العدو والعذوانى غرب القناة، والذي لا يعدو جيبا ضئيلا محتوى محصورا تماما فى تضاعيف وقبضة قواتنا، فضلا عن ان معظمه تحقق بالغش والخداع ومفروض أن ينسحب العدو منه بفرض الامم المتحدة والا فبالقهر العسكرى، انه اسفين محكوم عليه سياسيا والا فعسكريا.

وعلى خريطة اتفاق فصل القوات التى نشرتها وكالات الأنباء العالمية، تبدو مساحة الجيب الاسرائيلى غرب القناة مساحة كبيرة طولا وعرضا تبدأ فى الشمال جنوب مدينة الاسماعيلية مباشرة وتنتهى فى الجنوب بعد السويس عند الأدبية وجبل عتاقة، واما نحو الداخل فتتعمق فى كتلة متصلة بلا انقطاع حتى خط يمتد من ابو صوير شمالا حتى الكيلو ١٠١ على طريق السويس - القاهرة جنوبا. وبهذا يبدو الجيب الاسرائيلى فى نحو مجموع مساحة المنطقة المحررة شرق القناة، التى تنقسم الى نطاقين يفصل بينهما نحو ٢٠ كم، ولا يفسر هذا الاتساع غير العادى الا ما رأيناه من تسطح وتخلخل فى كثافته.. هذا أولا.

ثانيا: ليس بالمكاسب الأرضية وحدها تتحدد نتيجة الحرب الحديثة، وخاصة حروب التحرير، وبالأخص حروب الصحراء، لدى تدمير القوة البشرية وقوة السلاح اعتبار أكبر وخطر، وفي هذا فلقد تلقت إسرائيل ضربة صاعقة ونزيفا رهيبا لاشك فيهما، لم تعرفهما من قبل طوال حياتها، يتعديان اعرض أحلام أعدى الأعداء، ويتجاوزان كل حدود مكابرة أو انكار أشد الأصدقاء عنادا وتعصبا.. هذا بينما خرج العرب بالحد المناسب من المكاسب العسكرية وبالحد الأدنى من الخسائر البشرية وخسائر السلاح.

ثالثا: لا سبيل إلى المقارنة أى مقارنة بين الانجازة العسكرية المصرية المتمثلة فى العبور واقتلاع الخط وانتزاع القاعدة شرقا وبين عملية الاختراق العدو غربا. ولدينا فى هذا شهادة ناطق العدو، هيرتزوج، ان «من الضرورى وضع عملية التسلل الى غرب القناة فى إطارها الصحيح، ويجب ألا ننسى فى أية لحظة ان المعركة الحقيقية إنما تدور فى سيناء»، هذا بينما كتب صحفى امريكى هو هنرى تانر يقول «واضح ان الاسرائيليين قد شنوا هذه العملية لأهداف سياسية ونفسية، وخاصة لمحاولة دعم موقفهم فى المساومات إزاء ضغط خارجى متزايد لوقف إطلاق النار». وهناك ايضا حكم ريتشارد كروسمان، الزعيم العمالى البريطانى العريق فى صهيونيته:

«نشاط الاسرائيليين غرب القناة، «طنطنة» فارغة، لن يكسبوا منها شيئا سوى مزيد من الخسائر».

فإذا جئنا الى التقييم الموضوعى المقارن بين الانجازتين العسكريتين المضادتين شرق وغرب القناة، فإن الحقائق الوحيدة التى تبقى وتقوم هى كالتى .. أولا، لقد قلبت الاولى توازنا قائما كاملا برمته وغيروا مصير الصراع لأول مرة، ولكن الثانية لم تغير حتى مجرى المعركة او قلب توازنها المحلى.. ثانيا، ثمة كذلك فارق جوهري بين طبيعة الانجازتين بعد نقطة مهمة جدا فى المقارنة: وجودنا شرق القناة غير قابل استراتيجيا للاقتلاع، ولكن وجود العدو غربها قابل .. ثالثا وأخيرا.. وفى المحصلة العامة، يمكن ان نلخص حقيقة الموقف كله فى ان النصر العربى «نصر استراتيجى» بينما الاسرائيلى «نصر تكتيكى» وهذا بالضبط مفتاح القضية برمتها والقول الفصل فيها.

أما ان يدعى العدو بعد هذا فى دعايته ان نصره مكافئ عسكري لنصرنا، وان النتيجة الصافية بالتالى هى التعادل «بالنقطه»، فهذه مغالطة اما بالغه السذاجة او فائقة الخبث. والاخيرة الأرجح.. بل لقد فضح العدو بنفسه اخطاء وقصور عملية الاختراق بصورة تقلص حتى من قيمتها المحدودة كنصر تكتيكى. ففى الاتهامات الحادة المتبادلة بين جنرالات العدو بسبب الهزيمة، كان الاتهام الاساسى الموجه الى شارون، بطل العملية والذي صور - اسرائيليا - على انه بطل الحرب الرابعة كلها واه الحرب الجديد وملك اسرائيل الأخير، هو انه افسد تنفيذ عملية الدفرسوار بحيث حققت من المكاسب اقل مما حققت من الخسائر، حيث تمت بأكبر قدر متصور من الخسائر البشرية وتبديد السلاح، وهذا اعتراف صريح بما فيه الكفاية يكذب الادعاء البائس بتعادل النصرين العربى والاسرائيلى.

حقيقة الموقف

وإذا كان هذا هو الموقف المكابر والكانب للعدو الرسمى، فإن قطاعا كبيرا من الرأى العام الاسرائيلى قد تولى مهمة الرد عليه وتفنيده، فأكد بصورة قاطعة ان المعركة كانت خاسرة بالنسبة لإسرائيل ووضح حقيقة الهزيمة التى تحاول السلطات الاسرائيلية اخفاها عن شعبها، مثلا كتبت ها آرتس غداة انتهاء القتال تقول : إنه إذا كان الهدف الأساسى امام الجيش الاسرائيلى من القتال هو تحطيم الثقة الذاتية للجيش المصرى عن طريق تدمير سلاحه اورجاله، فقد أكد وقف إطلاق النار انه لم يستطع تدمير جيشى سوريا ومصر، ومن الواضح ان ثقة الجيش العربى بنفسه ومعداته لم تنقوض . «والحقيقة انه حتى بدون وقف النار الآن، فان من المشكوك فيه ان جيش اسرائيل كان سينجح فى تدمير الجيش المصرى، فمن اجل تحقيق ذلك فى وقت قصير، كان جيش اسرائيل يحتاج إلى قوات أكثر مما عنده، بينما من اجل تحقيق الهدف بالمعطيات القائمة كان يحتاج الى حرب طويلة ومضنية».

وفى الصحيفة نفسها كتب زيف شيف فى مقاله «من انتصر؟» يقول : «إن الحد الأدنى الذى كان مطلوبا لنا هو دحر المصريين فى سيناء، وهذا ما لم ننجزه». واضاف «ومن ناحية الارض - وهو الاهم ليست هناك اهمية خارقة لحقيقة اننا نحتل الآن كذا كيلومترا غرب القناة، لانه إذا لم يتم التوصل الى تسوية سيكون من الصعب جدا على اسرائيل التمسك بالخطوط الجديدة إلا بجيش اكبر».

كذلك كتب إوري دان فى معاريف غداة وقف النار ايضا ان «الامر يبدو خطيرا جدا، لان هذه المرحلة من الحرب انتهت عشية وقف القتال دون هزيمة مصر، رغم الضربات التى وجهت لها، وبعد الخسائر التى تكبدناها فى الارواح والمعدات، وواضح انه من غير الممكن قياس النجاح بعدد الكيلومترات المربعة التى يحتفظ بها الجيش الإسرائيلى». كذلك اصبح من أولويات الحياة فى اسرائيل ان تحول دايان الى موضع السخط المستمر والتهجم الثائر المثير بسبب «النفكسات الفاحشة التى منيت بها إسرائيل فى حرب ١٩٧٣» أصبح «وزير العار» كما سبته المظاهرات الغاضبة والحاشدة اليومية، «ورمزا لكل ما هو خطأ فى اسرائيل كما عبر بعض الضباط الشبان .. الخ.

واخيرا.. وفى ندوة عقدت فى القدس فى مارس ١٩٧٤ شارك فيها الجنرال بيليد، اتفق المجتمعون على ان «اسرائيل لم تحقق اى انتصارات فى حرب أكتوبر،» وان كل ما حققته هو مكاسب تكتيكية فحسب، لا تكفى لان تحرز بها اى تغيير اساسى لصالحها، وارجع المنتدون ذلك الى ان اسرائيل فشلت فى ان تتوصل إلى نصر عسكري حاسم، إذ انها وجهت فى البداية هجوما مضادا إلى سوريا لتدمير جيشها فلم تنجح فى ذلك، وعندما حولت قواتها نحو الجبهة المصرية فانها فشلت كذلك فى تحقيق هدفها هناك.

وقد وضع احد المتحدثين ان استراتيجية الدفاع الاسرائيلية مازالت كما هى منذ ما قبل حرب ١٩٦٧، ثم اكد انه اصبح من الضرورى ادخال تغيير اساسى على أساليب اسرائيل التكتيكية فى العمليات كما فى الاستراتيجية نفسها.

ذلك اذن موقف العدو، لا نقول منقسم على نفسه بين الشك واليقين،

والاعتراف. ومن الملاحظ ان العدو قد استخدم كل الالفاظ الممكنة

اصابه فى المعركة، الزلزال، الصدمة، الضربة، وتحدث

المحذقة، عن التقصير، عن الكارثة والفشل.. الخ

«هزيمته» قط. ولكن يجب ألا يخالجناء

باستمرار وانتظام، لا نقول كما

اخيرا بذلك صراحة. قال اليع

هناك أخطاء، ومن الطبيعى ان يح

مبدأنا الا نقول كل الحقيقة، حتى نشر

وإذا كان من المسلم به ان جميع الدول المحاربة فى العالم لا تعلن الحقائق السالبة او حتى الموجبة كاملة تماما لاعتبارات الامن والمعنويات وضرورات الصراع المعقدة... الخ، فقد فسر البعض مزاعم العدو الاسرائيلى على اساس ان معادلة الاعلام العسكرى الاسرائيلى تقوم على ضرب مكاسبه هو وخسائر العدو فى اثنين، وقسمة خسائره هو ومكاسب العدو على اثنين ! ولهذا فإن المحصلة الصافية لا يمكن ان تعدو او تبلغ ربع الحقيقة! ومهما يكن فليس لنا او لأحد ان يأخذ بأقوال العدو او ادعاءاته ببساطة أو بسذاجة، لا سيما عن « نصره » المزعوم.

اما نحن من جانبنا، فليس لنا ان نشك لحظة فى ان النصر الصافى، على الجملة وفى التحليل الاخير، كان لنا. وإذا كان العدو يزعم أنه لولا التدخل الدولى لحقق الانتصار فى نهاية الحرب، وأن قرار وقف اطلاق النار وحده الذى انقذ العرب من الهزيمة ، فعليه ان يذكر أنه لولا هذا التدخل الاجنبى نفسه لما حقق العرب النصر الكامل فى وسط الحرب فقط بل ولسحقوا اسرائيل نهائيا، فكما يقول بوفر «لقد اصاب الشلل اسرائيل فى الفترة الاولى من الحرب حتى حصلوا على معدات أمريكية فائقة التطور، ومع ذلك فلم يستطيعوا ان يحرزوا ذلك التفوق الكامل الذى احرزوه فى ١٩٦٧». أو كما اعلن مسئول كبير فى الوزارة المصرية «الحكومة الامريكية منعت العرب من الحاق هزيمة كاملة باسرائيل». ولدينا ايضا اعتراف دايان من ان «امريكا لا تريد لاسرائيل ان تخسر الحرب». وهناك كذلك استغاثة اسرائيل بأمريكا فى وسط المعركة، تلك التى شبهها البعض بأنها استغاثة غريق على وشك الموت S.O.S message، والتى ارسلتها جولدا مايير شخصيا الى نيكسون يوم ١٢ اكتوبر قائلة فيها «اذا لم تقدم الولايات المتحدة شحنات ضخمة وعاجلة من السلاح، فسوف يؤدى ذلك الى انسحاب اسرائيل من الحرب».

ثم لدينا الآن فى هذا ، وهو الاهم، شهادة مباشرة بل اعتراف صريح من أمريكا نفسها. فقد نقلت الاخبار عن المصادر الامريكية تصريحها بأن اسرائيل كانت «تواجه مأزقا استراتيجيا حرجا وطريقا مسدودا فى اثناء حرب اكتوبر . فقد كشفت الحرب عن اضعاف قابليتها للهزيمة، وان شحنات الاسلحة الامريكية اليومية هى وحدها التى نقلتها». بالإضافة لتلك المصادر فى تلميح كاشف انه «عندما تجد إحدى الدول نفسها عاجزة عن توجيه ضربات لأعدائها، فلا بد ان تعترف انها تواجه مأزقا استراتيجيا». وإذا

كان ذلك كذلك، فإن علينا، مهما يكن، ان نعترف ايضا بأن عملية الاختراق، رغم انها نصر ثانوى بالنسبة لنصرنا الاساسى ولا تغير من النتيجة الشاملة للمعركة، قد اساعت بالتاكيد الى انتصارنا الكبير واخذت بالضرورة شيئا من وقته وسناه وقدره واطفأت قدرا من بريقه ولعانه. هذا عدا ما اعطت من مادة دسمة لدعاية العدو ليقلل زورا وبهتانا من حجم انتصارنا الحقيقى ومن حجم هزيمته الحقيقية ، بل وإلى حد قلب معه هزيمته الحقيقية الى نصر ملفق ونصرنا الحقيقى الى هزيمة مكذوبة . ولولا هذه العملية لظل انتصارنا الاول والاوى بكامل حجمه وثقله ويكل سموقه وشموخه . ومن الملاحظ بالفعل بين جماهير الشعب ان موجة الامل الشاهقة العليا التى اثارتها انتصاراتنا الاولى قد اصابتها بشئ من الفتور والهبوط الملحوظ تلك العملية الاختراقية. ان المد العربى، وإن لم يتحول قط إلى جزر، فقد فقد لا شك بعضا من اندفاعه وارتفاعه.

وها هنا لا بد لنا ان نعترف بأنه كان خطأ لا يبرر كما لا يغتفر ان سمحنا لتلك الثغرة وتلك الاختراق ان تحدثا. لقد كان من الواضح منذ الايام الاولى للمعركة ان العدو مستميت الى حد الانتصار من أجل تحقيق هذا الهدف. وهو من قبل لم يخف تهديده بأن أى محاولة من جانبنا لعبور القناة شرقا لن تستبعد عبوره غربا. وصحيح ان من الثابت الان ان التخطيط المصرى لم يغفل الاحتمال، بل واعد واستعد له وتدريب عليه مرارا. لكن هذا لا يغير من الحقيقة والواقع.

كذلك فلقد كان مفهوما من جانبنا انه مهما تطورت احداث المعركة فى سيناء، فكحد ادنى لن يسمح ولا ينبغى قط ان يسمح للعدو بأن ينقل المعركة الى ارض الوادى. وليس ردا ان يقال ببساطة ان الحرب سجال وكر وفر، تحتل كل الاحتمالات، او انها يوم لك ويوم عليك . وليس ردا - إلا فى سياق واحد فقط، وهو الحرب المتصلة . اعنى انه لا تبرير لعملية الاختراق تلك الا فى سياق استمرار القتال بعدها كما كان قبلها.

أما وقد توقف القتال، فقد اصبح المعنى الوحيد المقبول والبديل الوحيد للاستمرار هو كما سنرى الاستئناف، أى العودة الى القتال، الا اذا انسحب العدو سلما.

مهما يكن، فأما وقد حدث ما حدث، فقد أصبح السؤال هو كيف ننقذ انتصارنا الغالى الثمين (والحقيقى جدا) ونستنقذه من حملة تشوية العدو وتمييعه ان لم نقل تبديده وتخريبه . لقد رد انتصارنا الاول اعتبارنا فى العالم، وقد وجب الان ان نرد له اعتباره هو

الأخر. وهذا يعنى ان واجبنا هو ان نصحح موقفنا، لا نقول شيئاً، ولكن كان يمكن ان يكون اروع وأعظم وأكمل . كان الواجب ان نحول التطور الانتهازي المختلس من «خصوم» علينا وعلى حساب المعركة إلى «اصول» لنا ولنصرنا. فكيف؟

لقد كان المفروض بحسب نصوص اتفاقية وقف اطلاق النار وشروطها الستة التي اعتمدتها الامم المتحدة وضمنتها الدولتان الاعظم ، ان ينسحب العدو «فوراً» الى ما وراء خطوط ٢٢ اكتوبر، أى الى بقعة لا تزيد على ٧٠ كيلو مترا مربعا حول الدفرسوار. ولكن كان من الواضح لمدة طويلة ان العدو يماطل ويسوف ويساوم ليتهرب من قشية الانسحاب الاكبر والكلى التى ستكون وحدها صراعا آخر بلا حدود على ما يبدو. ويبدو كذلك ان العدو لم يكن يريد أن يربط بين الانسحاب الى خطوط ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣ وبين الانسحاب الى خطوط ٤ يونيو ١٩٦٧، بل كان يحاول ويتحايل على عدم الربط بينهما ليساوم بالأولى على الثانية وليضع هذه عقبة مانعة فى سبيل تلك . ولذا كان لا بد من انذاره والزامه بحد زمنى أدنى للانسحاب . فاذا لم يفعل فلا مفر من القوة، لا مفر من العودة إلى القتال.

إن وضع العدو الاستراتيجى غرب القنال لم يكن «هشا» فحسب كما قيل، ولكنه «هامشى» ايضا. اعنى انه وضع «حدى» يمكن ان يتطور (سيان هنا ان تقول يتدهور) الى احد النقيضين بدفعة كبرى اما من هذا الجانب او ذلك. فقد كان من المتصور ان يحاول العدو فى نوبة من اليأس ان يتم اختراقه بمباغطة غادرة، بينما كان يمكن ان يسحق ويباد إبادة كاملة بضربة منا قادرة. ان النصر التكتيكى الذى أحرزه العدو هنا كان يمكن تماما ان يتحول إلى هزيمة استراتيجية كبرى وأخرى له .

وقد لخص نائب رئيس وزراء مصرى هذا الموقف كله بدقة فقال : إنه حين «تحركت اسرائيل بعد ٢٢ أكتوبر فى غرب القناة للحصول على مركز سياسى، وهى تعلم ان مواقعها العسكرية فى المنطقة محاطة بقواتنا المسلحة بل هى فى مصيدة تحرمها من اية قيمة عسكرية، فإن الأمر بالنسبة لرفع هذا الجيب الاسرائيلى كان يتمثل فى إجراء عملية عسكرية كاملة شرق القناة وغربها مثل عملية ٦ اكتوبر. وكانت هناك موازنة بين أمرين وهما: اما دخول المعركة بقواتنا فى الشرق والغرب على ضفتى القناة، او نبحت اقتراح كيسينجر الخاص بفصل القوات ليخرج العدو من الضفة الغربية نهائيا وليس فقط العودة إلى خط ٢٢ أكتوبر، وذلك بعد ان وضع للعدو انه تم تعزيزنا فى غرب القناة بقوة كبيرة فى الفترة الاخيرة».

معنى الانسحاب

وهذا بالدقة ما أثبتته وقائع التطورات اللاحقة، وان يكن بغير طريق القتال، فقد أدرك العدو، كما أعلن الـون ودايان وغيرهما صراحة ، ان حرب الاستنزاف التي تعرضت لها قواته على جبهة القناة كانت ستتصاعد حتما الى حرب جديدة «ستعرض أمن اسرائيل للخطر». او كما اعلنت ماير «لم يكن امامنا من بديل لفصل القوات سوى مواجهة حرب جديدة مع مصر» ولهذا وبعد أقل من ثلاثة أشهر من المعركة، وبعد كل مواقف التصلب والعناد والمزايدة، وبدون أدنى تنازلات من جنب مصر، اضطر العدو مرغما فى اتفاق الفصل بين القوات الى القبول بالانسحاب التام لا من الضفة الغربية برمتها وحدها، ولكن ايضا من نطاق كبير من الضفة الشرقية كذلك.

ففى هذا الاتفاق الذى وصفته صحفية اسرائيلية بأنه «مخاطرة محسوبة تعطى مزايا سياسية واستراتيجية مهمة لمصر»، سلمت اسرائيل بالانسحاب المباشر من جميع الاراضى المحتلة الواقعة غرب خط يوازى قناة السويس بطول امتدادها ويبعد عنها ٣٠ كم، اى قرب مشارف ممرى متلا والجدي، وبالفعل اخذ العدو صاغرا، بعد شهور معدودة من المعركة وخلال اسابيع محدودة منذ الاتفاق ، ينسحب كما جاء، ولكن فى خط محدد عكس ما جاء: من الضفة الغربية أولا ، من الجنوب الى الشمال على التوالي، ثم من الضفة الشرقية، من الغرب الى الشرق على الترتيب. وبذلك اصبحت مصر مسيطرة على جانبى القناة تماما، واتسع نطاقها المحرر فى سيناء، وتحول الميزان الاستراتيجى لصالحها، واصبحت فى الوضع الاستراتيجى الافضل، ومنه يمكنها التقدم فورا الى معركة فاصلة اذا لزم الامر مستقبلا.

واذا كان لهذا الانسحاب من معنى، فهو انه اساسا اعتراف، اعتراف مزيج: أولا، بخطورة وضع الجيب الاسرائيلى غرب القناة، وفى هذا فان اعتراف دايان صريح تماما: «ان وجهة النظر القائلة بأن على اسرائيل أن تحتفظ بمواقعها على الضفة الغربية من القناة هى وجهة نظر خاطئة . انها ربما تؤدى الى انتصار براق، ولكنه لا يؤدى بدوره إلا إلى حالة حرب دائمة». اما الاعتراف الثانى فهو بأن النصر العسكرى الحقيقى فى أكتوبر إنما كان للعرب. وخير ما عبر عن هذا ما قاله مصدر عسكرى فرنسى بعد اعلان اتفاق فصل القوات من «اننا نستطيع الآن ان نقول بعد ثلاثة شهور من النجاح العسكرى

المصري ان ما حدث فى أكتوبر اصبح امرا واقعا مسلما به». وقد فسر ذلك بان اجتياز الجيش المصرى لقناة السويس فى ٦ أكتوبر يمثل نجاحا فعليا واستراتيجية بحيث لا يمكن تصور المطالبة بإجلاء القوات المصرية من مواقعها، بينما ان اجتياز الجيش الاسرائيلى إلى غرب القناة لم يكن مأمونا سواء استراتيجيا أو عسكريا.

وليس من شك فى أن هذا الانسحاب نصر سياسى ، لأنه يعنى أن إسرائيل لم تعد فى وضع الذى يفرض إرادته ، بل هى على العكس التى ترضخ للإرادة العربية . ولاشك كذلك أن هذا النصر السياسى يمثل أولى ثمرات النصر العسكرى فى أكتوبر ، ولولاه لما كان . واعتراف مايبير هنا صريح وقاطع . فقد قالت عن اتفاق الفصل بين القوات أمام الكنيسة انه «ثمرة ما انتهت إليه الحرب ، وانعكاس لانتصارات مصر فى الأيام الأولى من القتال» كذلك فليس أدل على هذا من موقف المعارضة وكثير من الإسرائيليين الذين اعتبروا اتفاق الفصل «استسلاما تاما» و«ليس تخفيضا للقوات وإنما تخفيض لأمن إسرائيل» كما قال بيجين : «وتنازلا من جانب واحد بلا مقابل» عن «الورقة السياسية والعسكرية الرابعة الأساسية والوحيدة» فى يد إسرائيل كما قال شارون بطل الثغرة الذى استقال احتجاجا على الاتفاق ، والذى أعلن أيضا أن صيغة خط الممرات ليست إلا خدعة لأن ممرى متلا والجدي «لا يحميان الا منطقة محدودة من سيناء».

أما كتلة ليكود فقد هاجمت الاتفاق قائلة «لقد تصرفنا كمنهزمين فى الحرب الأخيرة» ، وأضافت «أننا لم نحصل على شىء فى المقابل ، لا الاعتراف بإسرائيل ، ولا وضع حد لحالة الحرب ، ولا حتى مبدأ نزع سلاح الأراضى التى يتم الانسحاب منها» . كذلك وصف بعض أصدقاء إسرائيل الاتفاق بأنه «ليس فى صالحها» . هذا بينما ذهب إسرائيليون كثيرون إلى أن الانسحاب قد يكون الخطوة الأولى «نحو تصفية إسرائيل على مراحل» ، على حين ذهب آخرون الى أن كيسنجر ، مهندس الاتفاق، أراد السلام «فأثانا بكارته» .

ثم نعود ، بعد أن استكملنا رحلتنا طويلة وموضوعية حتى نهايتها، إلى سؤالنا الأصلى : لمن النصر ؟ خلاصة الرحلة كلها وجوهر الحقيقة الواقعة برمتها هى أن النصر الميدانى التدميرى كان لنا بالقطع ، ولكن شابه وضع القوات الاقليمية ، غير أن هذا الوضع تكفلت بتصفيته التطورات التى حتمها النصر الأول . بذلك استرد نصرنا

على الجملة وزنه الحقيقي واتضح أن أبعاده الطبيعية ، ولم يعد هناك من مبرر أو حتى مجال للتساؤل عما إذا كنا انتصرنا أم لم نتصر .

بل إن هناك ملاحظة لعلها اخذت تفرض نفسها بالتدريج على الجميع الآن ، وهي أنه كلما مضى الوقت وتقدم العهد بالمعركة ، زدنا اقتناعا بنصرنا وزاد نصرنا حجما في أنظار العالم . بعد المعركة مباشرة كان ثمة حيرة في حقيقة النصر عند البعض ، ثم عدم وضوح كاف ، ثم اقتناع محدود ، ولكن مع الوقت تحول الاقتناع المتحفظ الى اقتناع مطلق والشك إلى يقين قاطع . كأن حقيقة نتيجة المعركة كانت كلوحة مرسومة كلما اقتربت منها ضاعت ملامحها في تفاصيلها ، ولكي تراها على حقيقتها لابد أن تبعد عنها بقدر كاف .

لقد كان النصر العسكري في حرب أكتوبر عموما لنا بلا ريب ، ويمكن الآن بتحديد أكثر أن نضيف : ربما بنسبة ٢ : ١ بمعنى أن نصرنا يعادل ضعف نصر العدو وأن هزيمته تعادل ضعف هزيمتنا ، وفي المحصلة فإن النتيجة العامة ليست ٥٠ - ٥٠٪ أو ٥١ - ٤٩٪ كما يود أن يحددها البعض . وإذا كان من المبالغة أن نضعها عند ٧٥ - ٢٥٪ فلنقل مثلا ٦٦ - ٣٣٪ بالتقريب ، فإذا بدا لأحد أن هذه مبالغة مسرفة ، فالرد هو أن الأمر أساسا نسبي . بل إننا لنذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إننا إذا فكرنا مليا أو حتى وهليا ، ولكن بموضوعية ، فسنجد على النقيض تماما من أوهام العدو أن النصر العربي في ١٩٧٣ أكبر من النصر الإسرائيلي في ١٩٦٧ نسبيا ، نكرر نسبيا ، وإن لم يكن على الإطلاق بالطبع .

فأسباب متعددة ومعقدة ولكنها مفهومة ومعروفة ، كان الحجم المطلق لنصر العدو في يونيو أكبر جدا من نظيره العربي في أكتوبر ، ولكن بالقياس إلى الظروف الموضوعية والملايسات المحيطة ، لابد أن يعد الأخير أكبر نسبيا إلى حد أو آخر . فنصر العدو في ١٩٦٧ إنما تم بغارة من طراز بيرل هاربر لم تحدث بعدها مواجهة أو حرب حقيقية ، كما أن سيناء كانت غير محصنة للمدافعين ، أما في ١٩٧٣ فقد حقق العرب انتصارهم من موضع الهزيمة أولا ، والهزيمة البشعة ، وهذا فارق نفسي رهيب ، ثم كانت هناك ثانيا استحکامات وتحصينات لا مثيل لها من قبل في سيناء والجولان ، لقد كان نصر العدو في ١٩٦٧ كبيرا لكنه مزيف مختلس ، بل كان كبيرا ، لأنه مزيف مختلس ، وكان نصرنا في ١٩٧٣ محدودا نسبيا ولكنه حقيقي ومستحق إلى أقصى حد .

وإذا كان العدو الإسرائيلي هو أكثر من قتل أو حاول أن يقلل من حجم انتصارنا وقيمته بالدعاية وحملات التشويه ، فذلك أمر طبيعي جدا وجد مفهوم ، لكن الحقيقة ، على غرابتها ، هي أن هذا العدو نفسه هو أكثر من يدرك القيمة الحقيقية لذلك النصر ، ليس في الدنيا من يدركها أكثر منه . هو وحده الأقدر على معرفة معنى تحطيم خط بارليف، الذي يعرف حقيقته أكثر من أي أحد آخر، والعبور والاجتياح ، ثم المعارك الجبارة ثم الصمود بعد التدخل الأمريكى .. الخ .. إن العدو ، أكثر من يقلل من قيمة انتصارنا دعائيا ، هو وحده أكثر من يدرك في قرارة نفسه وبلا أوهام ولا خداع للنفس القيمة الحقيقية لهذا الانتصار.

أما للذين يتصورون منا أن من «الغفلة» وحدها أن نعتبر معركة أكتوبر نصرا لنا ، فنحن نقول إنما الغفلة الحقيقية أن نهدي العدو ، متبرعين أو متسرعين أو متذرعين ، نصرا وهميا لم يحققه ، وأن ننظر بعينه الوحيدة إلى الموقف . من الغفلة حقاً أن نضع انتصارنا في أكثر من حجمه الطبيعي ، بل إننا لنقرر أن أكبر خطر يمكن أن يهدد انتصارنا اليوم هو أن نضعه في أكبر من حجمه الحقيقي . أو كما قال الرئيس الجزائري «لست أحب أن نغالي في تقدير انتصاراتنا حتى لا يقع المواطن العربى في الخطأ الذى وقعت فيه اسرائيل بعد ١٩٦٧» ، «وإن كان يضيف بعد ذلك «أننا لم نهزم اسرائيل ، ولكننا هزمنا الخوف ، وهذا من أهم مكاسب المعركة» ولكنها يقينا أكثر من مجرد غفلة أن نضع انتصارنا في أقل من ذلك الحجم ، ولا خلاف على أن نصرنا جاء منقوصا ، وإنجازاتنا كانت طموحة ولكنها بون المطلوب ، وأن نصرنا لن يأخذ معناه ولا أبعاده الحقيقية إلا إذا استكمل مستقبلا بطريقة أو بأخرى .

لا خلاف ، ولكن الأمر بعد ذلك يتوقف على زاوية الرؤية ، وكيف ننظر إلى تقدير الموقف : أهو كوب نصف ملآن أم نصف فارغ ؟ وهل ننظر إلى أحد وجهى العملة بون الآخر أم اليهما معا ؟ العدو لا يريد إلا أن يرى جانبا واحدا من المعركة هو الجزء الأخير منها ، ولا يريد أن يرى الجانب الآخر الأكبر والأخطر منها ، كأنما هو الوجه الذى لا يرى قط من القمر . إنه لا ينظر الا إلى ١٦ أكتوبر ، ويعمى عينه عن ٦ أكتوبر .

ونحن انتصرنا لأننا بدأنا من نقطة الصفر بل من تحت الصفر فارتفعنا الى أكثر من النصف ، وإسرائيل انهزمت لأنها بدأت من القمة المطلقة فهوت إلى ما بون النصف .

وانجازة أكتوبر الحقيقية هي أنها كسرت الاتجاه النزولى السابق ، فلقد كنا كحجر ضخـم يهوى من قمة جبل شاهق وفى اتجاهه بفعل الجاذبية الأرضية الحتمية الى أن يرتطم بالسفح ويتهشم . ثم فجأة وبقوة الدفع الأقوى تغلبنا على قوة الجاذبية فبدأنا عملية التصاعد . أو اذا شئنا صورة أخرى تقابل صورة راكب الدراجة يصعد الطريق الجبلـى متعلقا بعربة لورى ضخمة، تلك التى رسمها دايان لدور إسرائيل فى معركة العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ، فلقد كنا إلى ما قبل أكتوبر كعربة تعطلت «فراملها» تنزلق على سفح منحدر مخيف ، فجاء أكتوبر كحجر ضخـم اعترض طريق عجلاتها فلوقفها فعادت تصعد المنحدر لأول مرة بقوة وبأقصى سرعة ونحو أعلى قمة .

وإذا كان لنا أن نختتم مناقشتنا بحكم نهائى ومسئول ، فكما لخص الرئيس السودانى الموقف كله «إننا فى السودان معكم نرقب بالأسى محاولات التشكيك فى انتصاركم العظيم» تلك المحاولات التى «لن تنال من انجازكم العظيم .. ونصركم الباهر والذى كان وسوف يبقى مفخرة للأمة العربية .. إن انتصاراتكم فى أكتوبر المجيدة ، لم تكن اقتحاما لمواقع ظنها العدو منيعة ، كما لم تكن اجتيازا لمواقع ظنها العدو حصينة، كما أنها لم تكن تحديا لغرور القوة الإسرائيلية فحسب ، وإنما كانت بداية عصر جديد تخلف كل ما كان قبله من فنون القتال وعلومه» ثم أخيرا كما وضع الرئيس السادات بصورة حاسمة فى تقديمه لورقة أكتوبر «خرج البعض وشكك .. شككوا وما زالوا يشككون حتى هذه اللحظة .. قالوا إن مصر انهزمت ، وأننى لم أكن لدى الشجاعة لأقول أنى انهزمت. كلا ، مصر لم تنهزم. مصر انتصرت أروع انتصار» .

الفصل السادس

٦ أكتوبر والاستراتيجية العسكرية والإقليمية

فى الاستراتيجية العسكرية

منذ الحرب العالمية الثانية ، أكبر ملحمة عسكرية كوكبية فى التاريخ البشرى، وفى ظل العصر النووى نفسه ، لم تحدث حرب ما انقلابا فى الفكر الاستراتيجى والنظريات العسكرية مثلما فعلت حرب أكتوبر . فبإجماع كل الخبراء العسكريين ، قادة ونقادا ، محترفين ومؤرخين ، جاءت حرب أكتوبر «ثورة» استراتيجية جذرية كاملة قلبت معظم مفاهيم الحرب التقليدية وغير التقليدية وثورت كثيرا من قواعد الجغرافيا العسكرية بحيث جعلت من الضرورى إعادة كتابة «كتاب الحرب» من أساسه . ولقد كانت هذه النتيجة هى كبرى مفاجآت هذه المعركة ، لا تقل عن مفاجأتها هى نفسها .

الحرب الكورية مثلا ، وحرب الهند - الباكستان ، وحتى حرب فيتنام المطوطة المطولة التى استمرت سنين عددا ، كانت كلها حروبا تقليدية رغم حداتها وعصرية الأسلحة التى استخدمت فيها . حتى حرب يونيو، التى اعتمدت على نظرية الحرب الخاطفة ، لم تقدم جديدا ثوريا بالقياس إلى نموذجها الأصلى الذى ابتكرته ألمانيا الهتلرية فى الحرب الثانية ، ومن هنا أصبحت حرب أكتوبر تجربة جديدة ، مدرسة جديدة ، انكبت عليها نواثر الجيوش والاكاديميات العسكرية والمعاهد الاستراتيجية ، تعكف على نتائجها ومغازيها ومدلولاتها ومحمولاتها . وسيمضى وقت طويل بالتاكيد قبل أن تأخذ هذه النتائج كل أبعادها وأعماقها الكاملة .

على أن الشئ الذى يمكن القطع به من الآن بكل اطمئنان وثقة هو أن المعركة أثبتت أصالة وجدة كلاهما حقيقية ومحقة من الناحية الاستراتيجية تخطيطا وتنفيذا وتطويرها واستخداما للسلاح . إنها فى كل هذه المجالات تختلف اختلافا بينا عن كل الحروب

المحدودة وغير المحدودة التي شهدتها العالم منذ الحرب الثانية . وهذا هو بالفعل مدار تفردنا ومحور الاهتمام العالمى الملتهب بها .

فمما لم يعد يتطرق اليه شك أن المعركة قد أضافت اضافات رائدة أصيلة محددة وغير تقليدية ولا مسبقة ، وأثبتت بذلك أن المدرسة العسكرية العربية ، وخاصة المصرية ، قد ساهمت مساهمة مبتكرة وفذة فى الفن العسكرى ، ضربت بها أرضا جديدة بكرا فى العلم الاستراتيجى والحربى . المعركة ، باختصار ، أثبتت أن العسكرية العربية قد انتقلت، ربما لأول مرة ، من مرحلة التلمذة الحربية والنقل الى مرحلة الخلق والابتكار .

وأبسط دليل على هذا أن جيوش العالم بدأت تأخذ عن المعركة كثيرا من خبراتها ودروسها ، ومن انجازات العسكرية العربية بعض خطوطها التكنولوجية والهندسية وخططها الاستراتيجية والتكتيكية . على سبيل المثال ، دشم مخابىء الطائرات المصرية المبتكرة منذ ما بعد يونيو اقتبس منها حلف الاطلنطى الكثير كما يقال . وفى هذا قال وزير الدفاع الأمريكى بأسلوب مباشر «ليس ثمة على الاطلاق غير الدشم وسيلة لحماية الطائرات من إغارة الطيران المنخفض » وبالمثل اقتبس حلف وارسو وبعض الاشقاء العرب اضافات الهندسة العسكرية المصرية فى مجال بناء وتصميم قواعد الصواريخ المضادة للطائرات ، والتي توصلت اليها بالتجربة الواقعية أثناء ملحمة إنشاء شبكتها العظيمة غرب القناة فى أخريات حرب الاستنزاف . هناك أيضا تطوير تعدد ممرات المطارات وتصميمها وحمايتها، الاستخدام الثورى للمشاة الصاروخية والميكانيكية فى جبهة القناة أصبح الآن نموذجا يحتذى الجميع .. الخ .

وإذا نحن نظرنا بعد هذا نظرة كلية علوية الى معركة أكتوبر فلا شك أن أبرز ما يجبهنا هو أنها بحق «حرب المفاجآت» فهذه الحرب العجيبة - وعجيبة هى كما سنرى بالتأكيد - مليئة بالمفاجآت النادرة بل التناقضات المذهلة ، كما هى حافلة بالأوليات والأخريات ، بالقمم والكبريات ، بالبدايات والنهايات . انها غنية جدا بالطفرات الاستراتيجية الجديدة وخصبة الى أقصى حد فى نتائجها ودروسها العسكرية بحيث قد تكون استراتيجيا نهاية عصر وبداية عصر ، أى نقطة تحول تاريخية بكل مقياس .

من سجل «الأوليات» بها ، على سبيل المثال ، أنها أول حرب محدودة فى ظل الوفاق ، إنها أول حرب تكنولوجية فى التاريخ . ومن سجل «الكبريات» بها إنها قد تكون أكبر حرب

صحراء فى التاريخ الحديث ، وكذلك أكبر معركة مدرعات فيه . ولكن ممن سجل «أخرياتها» أنها - للمفارقة الغربية - قد تكون أيضا آخر معركة دبابات كبرى فى تاريخ الحروب !

والواقع أن هذه المفارقة الأخيرة تكفى وحدها لتضع أيدينا على المفتاح الحقيقى لجوهر طبيعة هذه الحرب الثورية المثيرة ، والذى هو وحده المدخل الطبيعى لدراستها وتحليلها . إنها أساسا «حرب المتناقضات» - نعم المتناقضات، وإلا لما ثورت القواعد المقررة والأصول السائدة .. ونستطيع هنا أن نرصد خمسا من هذه المتناقضات على الأقل، سندير حولها مناقشتنا وتحليلنا بالتفصيل : حرب محدودة ولكنها بالغة الكثافة ، حرب طويلة ولكن مصيرها تقرر فى ساعات ، حرب الطيران ضد الصواريخ ، حرب دبابات ظاهريا ولكنها حرب مشاة فى الدرجة الأولى ، وأخيراً حرب تكنولوجيا ولكن حرب القوة البشرية أكثر .

حرب محدودة لكنها كثيفة

فأولا ، حربنا بحسب التصنيف الاستراتيجى الحديث والمتداول حرب «محلية أو اقليمية» ، «صغيرة أو محدودة» تنور بين دول اطراف متوسطة أو صغيرة الحجم والقدرات ، فعلى المستوى الاستراتيجى ، كما يقول بوفر ، «فإن الموقف العالمى الحالى ، ووجود القوتين الأعظم وتهديدات الحرب النووية ، قد جعل الحرب بين الدول الصغيرة محدودة من حيث الاهداف ، ومن حيث الزمن ومن حيث الساحة . ولقد كانت حرب رمضان حربا محدودة» . وهى من هذه الزاوية تأتى - بالتعريف - فى الفئة أو الطبقة نفسها التى تضم حرب فيتنام وحرب الهند - الباكستان ، عدا حرب يוניو بالطبع . ومع ذلك فإنها تختلف عنها جميعا اختلافاً كميا يكاد يصل إلى حد الاختلاف الكيفى .

فأما مع حرب فيتنام ، فإن الاختلاف واضح . حرب فيتنام تتفوق خارج كل مقارنة فى المدة والطول بطبيعة الحال ، وكذلك فى كميات الأسلحة الرهيبة والخسائر المادية والبشرية الهائلة بحكم أن الدور الأمريكى هناك كان مباشرا وإباديا من البداية إلى النهاية ، ولكن الفارق الأساسى هو أن المواجهة كانت بين قوات نظامية من جانب «أمريكا» وحرب عصابات وحرب شعبية من الجانب الآخر «الثوار الفيتناميون» أما اذا قارنا حرب أكتوبر بسابقتها ونقيضتها حرب يוניو، فإنها حتى بصرف النظر عن اختلاف النتائج ، أكبر

حجما الى أقصى حد فى كميات الأسلحة وأعداد القوات ، فضلا عن أنواع الأولى ونوعيات الثانية .

والشئ نفسه صحيح حين نقارن بحرب الهند - الباكستان ، على الرغم من الفارق القادح فى حجم السكان والموارد ومساحة الدول الاطراف فى الحالتين «عدد سكان الدول المتحاربة فى حرب الهند - الباكستان نحو ٦٨٠ مليوناً ، مقابل ٤٦ مليوناً فقط لأطراف حرب أكتوبر!» كذلك فرغم تشابه أنواع ومصادر السلاح الذى استخدمه كلا الجانبين فى كلتا الحربين ، اللتين كانتا أيضا مواجهات تصادية بين جيوش نظامية أساسا ، فقد كانت حرب الهند - الباكستان تقليدية بصفة عامة فى استراتيجيتها وأساليب استخدام السلاح فيها ، بينما أبدت حرب أكتوبر أصالة وتفردا غير مسبقين فى استراتيجية الاصطدام والاقتحام بعامة وفى استخدام المشاة والصواريخ بخاصة .

على هذا يمكننا أن ننتهى بسهولة واطمئنان الى أن حرب أكتوبر هى أكبر وأخطر ، كما هى آخر حرب محلية محدودة فى الفترة المعاصرة ، ومع ذلك فإن الأمر أبعد من هذا . فحرب أكتوبر - للغرابة والدهشة - تكاد ترقى أيضا بأبعادها ومقاييسها العسكرية والميدانية الى مستوى حرب كبيرة ، إنها معركة تليق تماما بالدول الكبرى ولا تتناسب فى الحقيقة الا مع أحجامها وطاقاتها وقدراتها . بل ان هذه الدول الكبرى التقليدية ، باستثناء القوتين الأعظم ، تنتظر الآن بدهشة وحيرة لما كشفت عنه الحرب من معدل استهلاك فاحش فى السلاح لا تستطيع ترساناتها أن تصمد لمثله إلا بالكاد ، بل إن من المحللين من يعتبر حرب أكتوبر اعنف حرب عرفتها البشرية وأشدّها ضراوة وكثافة ، وأنها تمثل «مسودة Blue Print» أو تصغيرا «ماكيت» للحرب العالمية التقليدية فى المستقبل ، كذلك التى يمكن أن تنشب مثلاً بين حلفى الاطلنطى ووارسو، إنها باختصار ترسم صورة المستقبل ، حرب القرن الحادى والعشرين، تفعل ذلك أولا بحجم القوات التى قذف بها فى المعركة ، وتفعله بحجم ونوع السلاح الذى استخدم فيها ، وتفعله أخيرا بكثافة الاثنى بالنسبة إلى مساحة الميدان .

فالمقدر أولا أن ما لا يقل عن مليون جندي قد شاركوا فى المعركة من كل الاطراف ، تعاملوا بنحو ١٠٠٠ طائرة وقراية ٢٠٠٠ وربما ٤٠٠٠ دبابة ، والواقع أن أرقام الدبابات بالذات تتضارب ، ولكنها تتضارب دائما نحو الزيادة ، فأما اسرائيل فهناك مصادر تقدر

عدد دباباتها التي اعتمدت عليها في المعركة بنحو ١٧٠٠ دبابة ، وهذا الرقم - تضيف هذه المصادر - يزيد على ما تملكه بولة كبرى كبريطانيا ! بل تذكر مصادر أخرى أن إسرائيل التي كنا نظن أن لديها ١٠٠٠ دبابة ، ٢٧٥ طائرة ، تكشف أن لديها ٢٠٠٠ دبابة ، ٥٠٠ طائرة . أما عن الجانب العربي ففي تقرير اللجنة الكونجرس الأمريكى عن الشرق الأوسط أن الهجوم المصرى اعتمد على ٢٦٤٠ دبابة ، والسورى على ٢١٠٠ دبابة ، أى بمجموع قدره ٤٧٤٠ دبابة «أى أكثر من ضعف وأقل من ثلاثة أمثال الرقم الإسرائيلى» .

بهذا يكون مجموع دبابات كل الاطراف المتحاربة هو ٦٤٠٠ دبابة إلى ٦٧٤٠! وهذا الرقم الرهيب لا ندرى مدى نصيبه من الصحة بالضبط، ولكنه على أية حال يشير إلى مدى فداحة حجم هذه الحرب «المحدودة» . ومهما يكن فقد لا يكون بالرقم المسرف في المبالغة اذا نحن ذكرنا حقيقة أخرى مذهلة ومؤكدة ، وهي أن مجموع ما دمر من دبابات لكل الاطراف المتحاربة في ٢٠ يوم قتال هو ٢٥٠٠ دبابة ، أى أكثر مما تم تدميره في الحرب العالمية الثانية كلها كما تؤكد بعض المصادر. بل لقد ورد في حديث للرئيس السادات الى النيوزويك أن هذا لعدد هو ٢٠٠٠ دبابة : «ان نحو من ٣٠٠٠ دبابة فقد على الجانبين خلال حرب أكتوبر ، وهو أكبر بكثير من أى شىء حدث في الحرب العالمية الثانية» .

هذا عن الدبابات ومعها الطائرات ، أما عن سائر الأسلحة الأخرى بجميع أنواعها ، فلا سبيل الى حصرها ، ولكنها بطبيعة الحال تتناسب مع تلك الأسلحة القاعدية ، ويكفى هنا ، على سبيل المثال ، أن نذكر حقيقة واحدة ولكنها عميقة الدلالة ، فلقد قدر أن ما صبته مدفعيتنا وحدها - والمدفعية المصرية تاريخ عريق مشهور ومشهود له ، كان آخر فصوله معركة المدافع عبر القناة في حرب الاستنزاف - مجموعة ما صبته طوال حرب أكتوبر من البداية الى النهاية يعادل في مجموع قوته التفجيرية قوة قنبلة نووية صغيرة ! فإذا نحن نسبنا هذا كله الى رقعة ميدان المعركة المحدودة نوعا ، لكانت كثافة الحرب من أعلى ما عرف في الحروب الحديثة ، وفي هذا المعنى قال بعض المعلقين العسكريين أثناء المعركة ، مثل ك. تانر مراسل اليوناييتدبرس ، ان خبراء الدفاع فى العالم فى حيرة تامة ازاء هذه الأعداد الهائلة من جانب القوات العربية التى تخوض الان قتالا ضاريا لم تعرفه حتى الحرب العالمية الثانية نفسها ، حتى فى أخطر مراحلها ، حتى فى العظمين أو

ستالينجراد . ثم يردف الكاتب نفسه قائلاً إن خبراء الدفاع يرون أن اشتراك مثل هذه المعدات العسكرية الثقيلة على مساحات أرض صغيرة ومن جانب دول صغيرة نسبياً هو ظاهرة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الحروب ، بما في ذلك معارك أوروبا بين الدول الكبرى خلال الحرب العالمية الثانية ، وهي التي شاركت فيها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وبريطانيا و ألمانيا ما بين سنتي ١٩٣٩ ، ١٩٤٥ .

ولا ننسى بعد هذا أن معظم الأسلحة التي بخلت المعركة هي أسلحة بالغة العصرية والحدثة ، فائقة التطور ، أغلبها بحكم العصر لم تعرفه حرب أخرى من قبل . ومع ذلك فكما أكد الخبراء العسكريون في الغرب فقد كانت هناك قدرة قتالية عالية جداً وخبرة ومهارة فائقة في إدارة معارك الدبابات خاصة والحرب الحديثة عامة أثناء حرب أكتوبر ، فإذا تذكرنا أخيراً أن الدول المتحاربة كلها دول صغيرة نامية أو شبه نامية ، وأنها لا تنتج السلاح ولا تملك امكانيات الصناعات الحربية الثقيلة بل وحتى الخفيفة الصغيرة الى حد أو آخر ، لتأكد لنا تناقض الموقف كله .

ويزداد التناقض الى حد مثير حين ننظر الى المستقبل ، المستقبل القريب جداً ، فلقد أعلنت اسرائيل عن ضرورة مضاعفة اسلحتها للحرب القادمة ، فقررت رفع قوتها من الطائرات إلى ١٠٠٠ طائرة ، ومن الدبابات إلى ٤٠٠٠ دبابة ! هذا بينما أعلن دايان مؤخراً أن العرب قد أعانوا التسليح من جديد بعد أكتوبر ، وزعم إن خطأ أو صواباً أن «إسرائيل تواجه اليوم قوة جوية مشتركة مجموعها ٩٢٠ طائرة ، ٤٠٠٠ دبابة على الجبهتين» . ثم جاء بيجين بعد ذلك فادعى أن لدى مصر وسوريا الآن ٥٠٠٠ دبابة ، سترتفع في بضع سنين إلى ٩٠٠٠ ! فإذا صح هذا تقريباً أو نسبياً ، لكان معناه أن الحرب الخامسة اذا قامت فسيشارك فيها من الطرفين نحو ٢٠٠٠ طائرة ، ٨٠٠٠ دبابة بحسب تكهنات دايان ، أو ٩٠٠٠ إلى ١٣٠٠٠ فيما بعد بحسب تكهنات بيجين ! وهذه أرقام تذكر لا بترسانات الدول الكبيرة ، بل بالأحرى بترسانات الأحلاف الكبرى كالاطلنطي ووارسو !

التفسير يكمن ، مع ذلك ، في عدة حقائق كاشفة ودالة ، أولاها الطبيعة الخاصة للصراع ، فهو ليس خلافاً أو نزاعاً «عائلياً» أو بين «جيران» على حدود أو رقعة أرض أو حقوق ، بل هو صراع وجود ومصير وتحرير بين دولة بخيلة استعمارية استيطانية احتلالية

توسعية وبين دول وطنية عريقة متحضرة على جانب لا بأس به من التقدم والتنمية وتسعى أساسا الى التحرير والاستقلال .

ولا يقل البعد الدولى فى الصراع أهمية بعد ذلك عن البعد المحلى . فالمعركة جزء من صراع القوى التحررية والتقدمية فى العالم ضد المعسكر الاستعماري ، وعلى رأسهما القوتان الأعظم ، وهاتان القوتان هما اللتان تتكفلان بإمداد الاطراف المحلية بالأسلحة المتطورة وبكميات هائلة ومتصاعدة أبدا . بل ان البعض ليعتبر الصراع «منطقة تجارب» للسلاح الجديد الذى تنتجه هاتان القوتان . ومن هنا يشبهون المعركة بالحرب الأهلية الإسبانية فى الثلاثينات ، تلك التى سبقت الحرب العالمية الثانية «وبشرت» بها ، مثلما كانت حقل تجارب وانبوية اختبار وصوبة زجاجية لترسانة اسلحتها المعدة وأساليب استراتيجيتها المخططة.

ولأن نتائج حقل التجارب تعكس أثارها على النموذج الأصلي ، وقد تلقي بظلال شاحبة أو غير مطمئنة أو مستحبة على ترسانة الأسلحة الأم ، فإن القوة العظمى الموردة للسلاح يهملها إلى أقصى حد أن ينتصر الطرف المحلى الذى يستخدم سلاحها لأنه انتصار الى حد معلوم لسلاحها ، ان ذلك يصبح جزءا من صميم صراع القوى العظمى المباشر نفسه وجزءا لا يتجزأ من توازن القوة بينها . ولهذا يتصاعد الصراع المحلى بمنافسة مزبوجة فى الواقع : من اطرافه المتحاربة فى الميدان ، وتلك الموردة للسلاح . وهذا أيضا هو الذى يفسر تصميم أمريكا بعناد وضراوة ، نكاد نقول بحقد وحشى وغل أسود ، على امداد إسرائيل فى قلب المعركة بكل ماتملك فى ترسانتها من أسلحة جديدة ومتفوقة وبكل وسيلة نقل وتوصيل ممكنة وغير ممكنة ، حتى تضمن انتصار سلاحها أو على الأقل تنقذ سمعته وهيئته العالمية ، وهذا نفسه هو الذى جعل كيسنجر وزير خارجية أمريكا يقرر صراحة أنهم ليسوا على استعداد لأن يتركوا السلاح الأمريكى يضرب ويهزم بالسلاح السوفييتى .

حرب طويلة لكن بدايتها خاطفة

بالقياس إلى حرب الأيام الستة الخاطفة فى ١٩٦٧ ، فإن حرب الأيام السبعة عشر شكلا والتي امتدت إلى ٢٠ يوما بالفعل فى ١٩٧٣ ، تعد بلا شك حربا «طويلة» . هى وحدها تعادل طول فترة القتال فى حربى ١٩٦٧ «٦ أيام» ، ١٩٥٦ «١٠ أيام» كما تزيد

على ثلاثة أمثال الأولى ، وقد لا تقل كثيرا عن مجموع أيام القتال في معارك العرب الثلاث ضد إسرائيل منذ ١٩٤٨ ، انها باختصار أطول حرب خاضتها العرب ضد العدو ونجحت في فرضها عليه رغم كل خطئه ومبادئه العسكرية . أما خارج دائرة الصراع ، فإنها تكاد تعادل ضعف طول حرب الهند - الباكستان « ١١ يوما » آخر وأقرب حرب محلية قبل أكتوبر .

مع ذلك ، وهنا المفارقة ، فقد اكتسبت حربنا في بدايتها على الأقل شكل الحرب الخاطفة بطريقة أو بأخرى ، فلا سبيل إلى الشك في أن افتتاحية العبور وملحمة الخط كانتا قطعة من الحرب الخاطفة ، صاعقة سريعة وقصيرة وأخاذا كالعاصفة وضربة المائة والمائتي طائرة الكاسحة في ساعة الصفر لا تفعل سوى أن تستكمل كل مقومات الحرب الخاطفة .

والواقع أن السرعة المطلقة كانت شرط نجاح تلك المراحل الأولى ، بعدها فقط كان يمكن للحرب الطويلة المملوطة أن تبدأ ، تلك الحرب التصادمية والاستنزافية التي كان لابد منها لتحسم الصراع على الأرض . فبينما استغرقت عملية العبور واقتحام خط بارليف ، وانتزاع رأس جسر وموطئ قدم على الضفة الشرقية عدة ساعات فقط استوعبت معركة البر السينائي بقية أيام الحرب التي تناهز العشرين يوما .

والمعتقد أنه بين هذين القوسين الخاطفين ، الضربة الجوية والعبور ، كان قد تحدد مسار ومصير المعركة كلها ، حتى يسمى البعض حرب أكتوبر «بحرب الساعات الست» على غرار ما سميت حرب يونيو «حرب الأيام الستة» أو ربما على سبيل النقيض ، أو لعله الانتقاد . المهم أن حرب أكتوبر وإن تكن أطول حرب في تاريخ الصراع إلا أنها أيضا تنطوي في ثناياها على حرب خاطفة جدا . وتلك كانت المفارقة الثانية في هذه الحرب العجيبة .

كانت المعركة اذن مزاجية تكاملية بارعة ومتوازنة بين نوعي الحرب القصيرة والطويلة الأمد ، تأخذ محاسن ومزايا كل منهما دون أضرار وعيوب أي منهما ، ولكن هذا إنما يذهب ليؤكد لنا ثلاث حقائق لا ينبغي أن تغيب عن أنظارنا قط . تلك على الترتيب هي : إعادة تقدير طول الحرب الحديثة ، أهمية دور موردى السلاح في الحرب الحديثة ، إعادة تقدير قدرات العدو وقدراتنا على أشكال الحرب الحديثة .

فعن الأولى ، لم يعد شك أن الحرب الحديثة هي بطبيعتها أميل إلى القصر ، ومن ثم إلى نوع الحرب الخاطفة بالضرورة ، فالأسلحة الحديثة خاصة الجوية والالكترونية ، شديدة الفاعلية وسريعة المفعول ، شراستها التدميرية بلا حدود . وإذا كانت إسرائيل مجرد مقلد لأستازتها النازية في تبني الحرب الخاطفة ، فمن المحتمل أن هتلر لم يكن المؤلف الحقيقي للبليتزكريج ، وإنما هو اكتشف فقط الامكانيات الكامنة والطبيعية للسلاح الحديث . وإذا كانت حرب فيتنام حرب سنوات ، فذلك لطبيعتها الخاصة جدا سياسيا وعسكريا ، بينما ضاعت باكستان الشرقية في ١١ يوما ولم يكن مجموع الأسلحة والقوات المحشودة في حربها ليقول كثيرا عما ألقى به في معركتنا الأخيرة .

وحسبنا في هذا الصدد أن نذكر أن مجموع خسائر كل اطراف المعركة قد قدر بنحو ٢٥٠٠ دبابة «ذكر وزير الدفاع الفرنسي أن مجموع ما دمر ٤٠٠٠ دبابة ، ٦٠٠ طائرة» ، فإذا علمنا أن طاقة انتاج دولة كبيرة كفرنسا من الدبابات لاتزيد على ٣٠٠ دبابة سنويا ، لكان معنى هذا أن المعركة ألتهمت منها في ٢٠ يوما ما يعدل انتاج ٨ أو ٩ سنوات «في تقرير للكونجرس الأمريكى أن معدل الانتاج الأمريكى من الدبابات هو دبابة كل يوم أو ٣٦٥ تقريبا في السنة» وهو يعنى أيضا أن طول مدة المعركة يتوقف على كمية ورصيد السلاح المتاح للطرفين ، أحدهما أو كليهما ، ويتناسب معه تناسبا طرديا في التحليل الأخير .

وهذا كله يعنى أن الفارق الزمنى بين ما نسميه الآن الحرب الطويلة والقصيرة قد انكمش وتضاؤل كثيرا بحيث اقتربت النهايتان العظمى والصغرى وتقارب النقيضان فأصبح الفرق بينهما محدودا نسبيا كما وكيفا ، لم يعد التمييز بين الحرب الطويلة والقصيرة بالسنين أو بالشهور وإنما بالأسابيع وربما بالأيام ، وعموما فلقد اثبتت معركتنا أن الحرب الحديثة أصبحت قصيرة للغاية ، بضعة أو عدة أسابيع على الأكثر أو في الأعم الأغلب .

ويترتب على قصر الحرب الحديثة نتيجة أخرى بالغة الأهمية ، وهى دور عنصر المفاجأة ، لقد تحدث المعلقون كثيرا ، ويكثر من القلق ، عن دور المفاجأة في انهيار الاستحكامات والخطط الاسرائيلية وانكسار إسرائيل . وكان فى اذهانهم الأخطار المشابهة التى يمكن أن تتعرض لها الدول الكبرى اذا هوجمت فجأة . والسبب

لاشك ، أو جزء منه بالأصح ، أن الحرب الحديثة ، وهي على هذا القصر والسرعة ، لا تكاد تستوعب مفاجأة الهجوم حتى تكون أيامها الباقية قد أصبحت معدودة ، فهي لا تتحمل المفاجأة ثم الاستمرار طويلا .

لقد كان من الممكن في الماضي أن يتلقى طرف ضربة خطيرة في مفاجأة مباغتة ، ولكن تستطيع الحرب أن تمضي بعدها لشهور أو لسنين ، أما الحرب الحديثة التي لا تتجاوز عدة أسابيع في الظروف العادية ، فإن مفاجأة تتم في يوم أو اثنين قد تحسمها ، ربما نهائيا ، فلا تستمر بعدها الا أياما معدودة ، باختصار ، ان الحرب الحديثة ، مثلما هي قصيرة بالطبع ، تعطى الهجوم المفاجيء دورا حاسما أو ميزة لم يسبق لهما مثيل في تاريخ الحروب تقريبا .

وهذا ما يؤدي بنا الى الحقيقة الثانية التي جسمتها المعركة . فلأن صراعنا يعتمد في كلا طرفيه على السلاح المستورد أساسا ، فإن كمية هذا السلاح ، وبالتالي مدى طول المعركة ، تتوقف في المحل الأول والتحليل الأخير على ضوابط خارجية ، هي السياسات أو القدرات التسليحية للقوى العظمى الموردة . وجزء مهم جدا من هذه السياسات «حسابات التوازن» وهذه القدرات «تكنولوجيا اللوجستية أو النقل» هو عملية الإمداد بالأسلحة «أثناء» المعركة ، فقد أصبح لها دور خطير في اطالتها أو تحديد طولها .

ولما كانت القوى العظمى هي وحدها اليوم القادرة على انتاج السلاح العصري المتطور ونقله بالحجم والسرعة اللازمة لحرب حديثة ، فقد بات من المقرر أن الدول الصغيرة والنامية ومن في حجمها لا تستطيع الآن أن تخوض حربا حديثة بغير الاعتماد اعتمادا كليا تقريبا على مورد مضمون من بين تلك القوى العظمى . أبعد من هذا ، يصل البعض الى حد التسبؤ بأن الحروب المحدودة بين الدول غير العظمى غير المنتجة للسلاح العصري الحديث قد تنقرض بالتدريج ويانتظام؟» .

مهما يكن ، فلما كانت الولايات المتحدة ، مورد العدو ، مستعدة للتصاعد إلى النهاية وبلا نهاية في تسليحه كما وكيفا ، فإن هذا يعطى للعدو الاسرائيلي قدرة لم تكن متوقعة أو غير محسوبة على الاستمرار في القتال تكاد تصل إلى حد الحرب الطويلة ، ولقد رأينا كيف أن العدو بدأ بالفعل معركة ثانية جديدة تماما بعد أن كاد رصيده من السلاح والذخيرة ينفد في معركة أولى خاسرة ، وذلك دون انقطاع فعلي ظاهر بين المعركتين .

كذلك فلما كانت اسرائيل تعتمد اقتصاديا وماليا على مساعدات أمريكا وقروضها وجباياتها المتواصلة بلا حدود ، فإن هذا يساعدها على الصمود التعبوى فترة أطول مما كان يمكن لها وحدها ، ويساعدها على الاستمرار فى القتال رغم الحدود الصارمة والسلبيات التى تفرضها التعبئة العامة وغياب الأيدى العاملة عن الانتاج وتوجيه الموارد المالية الى الحرب .. الخ .. ورغم الضربة الحقيقية التى أصابت الاقتصاد الاسرائيلى من الحرب ، فقد ظل القطاع الصناعى مثلاً يعمل بنحو ٧٢٪ من قواه العاملة فى الظروف العادية ، وبالنسبة نفسها تقريبا من طاقة الانتاج ، ٧٥٪ كما أعلن وزير التجارة بارليف ، ولو أن خطوطا معينة هبطت هبوطاً ذريعاً كالبناء الذى تدهور بنسبة ٤٠٪ من حجمه العادى والنشاط التجارى الذى بلغ ٣٠٪ من حجمه العادى . كذلك استطاع اقتصاد العدو أن يتحمل الحرب ٢٠ يوما والتعبئة العامة أو شبه العامة لفترة أطول مازالت ممتدة حتى الآن .

والخلاصة النهائية هى أن إسرائيل وإن كانت بتكوينها الذاتى الخاص قصيرة النفس ولا تتحمل الحرب الطويلة المملوطة جدا ، فإننا ينبغى أن نتحفظ نوعا فلا نبالغ فى حدود هذه الحقيقة . لقد ألفنا أن نقول إن اسرائيل لا تتحمل الحرب والتعبئة العامة لأكثر من بضعة أسابيع أو لنحو شهر على الأكثر دون أن تنهار اقتصاديا ، غير أن التجربة إنما تشير الى صعوبات هائلة حقا ، لكن دون أن تصل الى حد الشلل المقعد ، وبالفعل ، أعلن القائد العام المصرى مؤخراً أن إسرائيل لا تتحمل التعبئة العامة لأكثر ولكن ليس أقل ، من ثلاثة شهور ، والسبب فى هذا ، أولا وأساسا ، أن وراء اسرائيل المنظورة إسرائيل غير المنظورة التى تدخل المعركة دائما وعند الضرورة بطريقتها الخاصة ثم ثانيا ما رأينا من أن «طويلة وقصيرة» و«خاطفة وتقليدية» أصبحت مفردات متقاربة نسبيا فى قاموس الحرب .

الحقيقة الثالثة والأخيرة التى تؤكد المعركة هى أننا إذا كان علينا ألا نبالغ فى تقدير عجز اسرائيل دون الحرب الطويلة المدى أو ضعفها ازاها ، فليس لنا كذلك أن نفترض أنها وحدها التى تملك القدرة على الحرب الخاطفة ، لقد ظلت اسرائيل طويلا تتباهى فى العالم بقدرتها على الضربة الخاطفة المكثفة التى تعبر عن قدرات خارقة فى الاعداد والتخطيط والتنظيم والتنفيذ تمثل فى الواقع جماع القدرة الحضارية والتكنولوجية لأى دولة . وكل ما كتبتة إسرائيل وأذاعته فى العالم ، بحيث جعل من الضربة الجوية فى

صباح ٥ يونيو بل ومن معركة يونيو كلها أسطورة سحرية ، إنما كان يعنى شيئا وحدا أرادت أن تثبته فى عقل العالم ووجدانه وهو احتكار الكفاءة ، رمزا وترجمة عملية للتفوق الحضارى والتكنولوجى والعسكرى .

ولقد جاءت حرب أكتوبر تكذيبا عمليا لهذا الادعاء العريض ، فقد أتت مقدمتها الخاطفة ضربة لأوهام العدو النظرية كما كانت لقواته المسلحة فى الميدان، من ناحية لأنها أثبتت القدرة العربية على التخطيط الثاقب والواثق والانضباط المطلق والتنفيذ الدقيق السليم لعملية هى بالطبع فائقة التكثيف والتعقيد - والمخاطرة أيضا . ومن ناحية أخرى لأنها أثبتت عجز العدو عن توقى الضربة المفاجئة وكشفت مدى الفوضى والانهايار فضلا عن الجزع والرعب الذى أصاب قياداته وقواته التى أمسكت بها القوات العربية وهى «عارية» كما وضعها صحفى عربى . وفى هذا كله فلقد استفاد العرب من أخطائهم فى يونيو وطبقوها على العدو . ان الحرب الخاطفة لم تعد حكرا على العدو ، لأنها أيضا ملك للقدرة العربية ، فضلا عن أنها الى حد معلوم شئء كامن فى طبيعة الحرب الحديثة عامة وفى عملية العبور والاجتياح فى حالتنا خاصة .

حرب طيران حسمتها الصواريخ

من أكبر مفاجآت أكتوبر التى ألهمت خيال العسكريين فى كل الدنيا وأثارت دهشتهم «وكذلك مخاوفهم» بروز دور الدفاع الجوى بعامة والصواريخ المضادة للطائرات بخاصة ، وبالأخص صواريخ «سام» بأنواعها وعائلاتها وينسلها وأجيالها المتعاقبة «٢.٢ ثم ٦.٧» . وهذه الصواريخ تتعامل مع الطيران العالى والمنخفض ، كما تنقسم الى ثابتة ومتحركة ذات قواعد أرضية أو ميكانيكية أو محمولة على أكتاف المشاة . ولم تكن سام ٢ ، ٣ جديدة على المعركة ، فقد أثبتت وجودها فى نهاية حرب الاستنزاف بعد أن أقيمت شبكة الصواريخ المصرية الشهيرة على القناة قبل وقف اطلاق النار فى ١٩٧٠ ، تلك التى وصفتها مايير فى حينها بأنها «كعش الغراب المشنوم ، كلما دمرنا إحداها نبتت أخرى بدلا منها» .

فى تلك المرحلة أسقطت الصواريخ عددا ضخما من طائرات العدو بصورة روعته ودفعت به فى النهاية الى قبول وقف اطلاق النار ، (فى نوفمبر ١٩٧٠ قدرت مجلة افيبشون ويك الأمريكية خسائر اسرائيل بنحو ٥٠ طائرة ، ثلثها دمر ،

والثلثان اصابات) ولعلنا نذكر كيف تورط أبا اييان حينذاك فى تصريحه المشهور عن «تاكل» سلاح طيرانهم ، ثم صرخته «إنهم يسقطون طائرة بملايين الدولارات بصاروخ بالآلاف الدولارات!» ..

واستفادة من هذه التجربة المريعة ، كان العدو قد استعد بالأجهزة الالكترونية الأمريكية المضادة للحد من خطر هذه الصواريخ ، غير أن سام ٦ و ٧ كان المفاجأة الكبرى التى وقف طيران العدو المدجج أمامها عاريا عاجزا شبه مجرد من السلاح ، فتهاوت طائراته أثناء المعركة بالعشرات حتى بلغت المئات ، فانتوم وسكاي هوك وميراج وكذلك هليكوبتر مصفحة .. الخ .. والصورة نفسها تكررت على الجبهة السورية ، وبالنتائج الباهرة نفسها ، وإذا صحت التقديرات الأمريكية فإن ٨٠٪ من مجموع الطائرات الإسرائيلية التى اسقطت فى أكتوبر سقطت بفعل الصواريخ أرض - جو مقابل ٢٠٪ فقط سقطت فى المعارك الجوية المباشرة .

والطريف أن العدو حتى بعد أسبوع تساقط الفانتوم فى نهاية حرب الاستنزاف عاود الحرب النفسية ضدنا حفاظاً على اسطورة تفوقه الجوى . فظل يشيع فى الدنيا أننا غير قادرين حتى على حسن صيانة أسلحة دفاعنا الجوى فضلا عن حسن استخدامها ، وعلى هذا الأساس كتب أصدقائه - النيوزويك فى ١٩٧٣ - أنه «يمكن لإسرائيل أن تكتسح طول مصر وعرضها بدون أى مقاومة أو مواجهة من قوات الدفاع الجوى ، كما يمكنها تدمير عناصر الدفاع الجوى بالسرعة نفسها التى تم بها ذلك عام ١٩٦٧» .

ولكن فى أكتوبر فشل طيران العدو فى التشويش على دفاعنا الجوى كما كان يأمل ، «وتغلب الذكاء المصرى على الخداع الإسرائيلى» كما وضعها قائد قوات الدفاع الجوى المصرى ، وبهذا فشل فى ضرب معايرنا وجسورنا أولا ثم زحف مدرعاتنا بعد ذلك ، وكانت المعركة مبارزة مصيرية بين التفوق الجوى الذى بنى عليه العدو كل استراتيجيته وبين دفاعنا الجوى الذى كان بلا شك أساس كل استراتيجيتنا القتالية والذى غير شكل المعركة والذى لولاه لتغير الموقف كثيرا وربما النتيجة أيضا . لقد جيد دفاعنا الجوى طيران العدو . ونحن وإن لم ننتزع السيادة الجوية من العدو فقد حرمناه منها . وبذلك كان الموقف أقرب إلى التعادل أو التكافؤ الجوى ، الأمر الذى ترك للمعركة البرية أن تمضى حرة مباشرة فكان نصرنا المحقق فيها أمرا مقضيا .

ولنتوقف قليلا هنا عند تعليقات بعض المراقبين المحايدين ، قال توماس تشيتام مراسل اليونائيتيد بريس « ان الطيران الاسرائيلي لم يتمكن من تحقيق النجاح الذي كانت عامة الشعب الاسرائيلي تتوقعه له قبل الحرب . لقد اتضح من خلال سير العمليات أن التأكيدات الرسمية التي كانت تتحدث عن قدرة القوات الجوية الاسرائيلية على القيام بعمل سريع ضد العرب في حالة تجدد القتال كانت مزاعم غير دقيقة» أما جان فرانسوا لى موف فقد كتب يقول «لقد شد انتباه الخبراء الغربيين الذين درسوا سير الصراع العربى الاسرائيلي وفنون الحرب التي استخدمها المتحاربون أنه بينما انتصر الاسرائيليون عام ١٩٦٧ بفضل تفوقهم الجوى الكامل ، اذ بنشاطهم الجوى يتضاغل هذه المرة في القتال والقصف بفضل تسليح العرب بالصواريخ طراز سام» حتى العدو نفسه قالها ، فقد نقلت الجيروزاليم بوست عن قائد من القوات الجوية الإسرائيلية تصريحه بأن «الدفاع الجوى المصرى يتمتع بكفاءة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الحروب ، تفوق تلك التي واجهها الأمريكيون في فيتنام» «مقتبسة في كتاب حرب رمضان» .

ولم تكن تلك الطفرة نقطة التحول الحاسمة في المعركة وحدها فقط ، ولكن في كل تاريخ الحرب الجوية الحديثة . فعلى حد تعبير الجنرال بوفر «لقد أدى توفر الصواريخ المضادة للطائرات لتقديم الوقاية الفعالة للقوات البرية - حتى في غياب الحماء بواسطة الطائرات - أدى الى خلق موقف جديد تماما لم يسبق ممارسته في الحروب السابقة ، وأعنى به ذلك التوازن بين القوات الجوية لدى الطرفين الذي خلق موقفا يختلف تماما عما لمسناه في الحرب العالمية الثانية أو في الجولات العربية الإسرائيلية السابقة ، عندما كان أحد الخصمين ينجح في احراز التفوق أو السيطرة الجوية على سماء المسرح خلال المرحلة الافتتاحية أو الأولى للحرب». فرغم أن الطيران المصرى والسورى تصدى باقتدار وكفاءة وندية كبيرة لهجوم العدو الجوى ، فقد كان تركيزنا الأساسى في المواجهة على الدفاع الجوى ، احتفاظا بقوة الطيران الرئيسية لمراحل الصراع القادمة . وبهذا انحصرت المعادلة أساسا في الدفاع الجوى العربى ضد الهجوم الجوى العدو ، فكانت حرب صواريخ في الدرجة الأولى ، وإذا كان السلاح الجوى هو العمود الفقري في جهاز الردع العسكرى الإسرائيلي ، فقد كان الدفاع الجوى هو العمود الفقري لقواتنا في ردع الردع الإسرائيلي .

وهنا كانت المفارقة : فلقد كنا - جويا - «نهاجم» بالدفاع ، بينما كان العدو «يدافع» بالهجوم ، وفى هذا السياق كتبت مجلة تايم الأمريكية «ان التقدم المصرى عبر قناة السويس قد برهن على أن الصواريخ المضادة للطائرات وللدبابات على السواء يمكنها أن تلعب دورا هجوميا أيضا - رغم أنها أسلحة دفاعية - حيث انها مكنت القوة المهاجمة من اقامة وحماية رموس الجسور وتدعيمها بقوات المشاة الميكانيكية والمدفعات بعد أن قامت بشل فاعلية طيران العدو ومدفعاته - التى تمثل أسلحة الردع الإسرائيلية - وكبدته الكثير من الخسائر» .

لقد انتصر الدفاع المهاجم على الهجوم المدافع ! انتصر الدفاع ، وعلى صخرته العتيدة تحطم سلاح الطيران الإسرائيلى ، العمود الفقرى «لجيش الدفاع» ، أو بالأحرى «سلاح القرصان الجوى فى «جيش العدوان الإسرائيلى» ومعها تحطمت الى الابد اسطورة التفوق الجوى الاسرائيلى التى ملأ العدو بها الدنيا ضجيجا ودعاية ، وحاول أن يملأ بها قلوبنا خوفا أو قلقاً . كذلك تحطمت تلك الفروق الصارمة يضعها البعض بين أسلحة «دفاعية» وأخرى «هجومية» ، وأثبتت المعركة أن كل سلاح يصلح ويمكن أن يستخدم للغرضين ، وإنما يتوقف الأمر على الاطار أو السياق الاستراتيجى .

ولعل من الملائم والمفيد هنا أن نقتبس خلاصة تحليل مركزة وواعية لمعركة أكتوبر الجوية قدمها الجنرال السوفييتى ميخائيل تومينكو فى النجم الأحمر ، فهى تلقى من الضوء بقدر ما تبدد من وهم . فحرب الشرق الأوسط كما يقول الجنرال دمرت اسطورة جيش الدفاع الإسرائيلى «الذى لا يهزم» والدفاعات العربية المضادة للطائرات «قد لقنت درسا قاسيا لقراصنة الجو ، وظهرت مقدرتها على الدفاع عن مواقع قواتها وعن المنشآت العسكرية والمدنية وعلى الحاق خسائر جسيمة بالعدو» ويضيف تومينكو أن «إسرائيل التى كانت تأمل أن تحتفظ بالتفوق الجوى قد أخفق سلاحها الجوى فى الالتجاء الى أسلوبه المفضل الذى كان يعتمد على الأعمال الفجائية» . ثم يحلل الجنرال أسباب الخسائر الفادحة فى الطيران الإسرائيلى ، فيردها الى الروح القتالية العالية للعاملين على الصواريخ المضادة للطائرات وللطيارين على المقاتلات ، وما وصلوا اليه جميعا من مستوى فى التدريب ، والى هذا يضيف ثقتهم بقواتهم وإيمانهم بعدالة القضية العربية ، ثم أخيرا وليس آخرا تنظيم أجهزة الدفاع الجوى والتعاون الوثيق بين كل هذه الأجهزة والعناصر .

تلك إذن قصة الصراع على سماء المعركة وتلك نتائجها . وإذا كان هناك من مغزى تطورى شامل لها ، فهو بلاشك تناقص دور الطيران نسبيا فى المستقبل ، لقد كان الطيران - اعظم سلاح هجومى فى الحرب الحديثة - يتسيد أسلحة الجيوش عموما وباطراد ، ويوشك فى وقت ما أن يحتكر كل الأهمية والسيطرة بينها . كانت الحرب بمعنى آخر ، «تنتقل» حثيثا ويقوة من الأرض الى السماء ، وتتنذر اذا ما استمر الاتجاه دون تغيير بأن تغادرها تقريبا تاركة لها دورا طفيفا متضائلا باطراد . حرب أكتوبر انزلت الحرب من السماء واعادتها إلى الأرض أكثر ، وبالتالي أعادت الى القوات البرية كثيرا من قيمتها القديمة ، إن الطائرة وإن لم تفقد قيمتها فقد فقدت سيادتها .

أما على المستوى العام والعالمى ، فقد أحدث ذلك كله انقلابا كاملا وثورة جذرية فى استراتيجية الحرب الحديثة كما اتفق كل المختصين ، فكان حكمهم بالاجماع أن عصرا جديدا قد بدأ فى تاريخ الحرب الحديثة ، وأن سام ، وسام ٦ بخاصة ، هو الذى دشّن هذا العصر وهو سيده ، انه أساسا عصر الصواريخ والدفاع الجوى ، بينما تراجع عصر التفوق الجوى تقريبا أو هو فى سبيله إلى الانكماش ، لا ، ولم يعد السلاح الجوى سيد حرب الصحراء كما أوحى التجارب السابقة ، ولا هو بالضرورة سيد الحرب الحديثة عموما ، أو كما ذكر لى موف «يرى بعض الخبراء العسكريين أن مبدأ التفوق الجوى الذى اعترف به خبراء الاستراتيجية منذ الحرب العالمية الثانية قد يعاد النظر فيه على ضوء أحداث الجولة الرابعة ، بينما لا يتردد البعض الآخر فى تأكيد أن هذا المبدأ قد انهار تماما» .

انقلاب راديكالى وخطير فرض على كل الدول والجيوش والصناعات الحربية أن تعيد حساباتها وخططها الاستراتيجية كلية فى مواجهة عصر الصواريخ الجوية . ومن ناحية أخرى انتهى البعض إلى أن امتلاك عنصر المفاجأة العسكرية لا يكفى لتحقيق النصر ، ما لم يصاحبه ضرب القوة الجوية للعدو منذ اللحظة الأولى ، هذا بينما راح البعض الآخر يتنبأ بأن طيران المستقبل سيكون كله بلا طيارين ، وآخرون ذهبوا إلى أن تكاليف انتاج الطائرات سترتفع الى مستويات فلكية وممانعة .. الخ .. الخ .

وقد عبر عن هذه الطفرة كلها بالدهشة «والقلق أيضا!» وزير الجيش الأمريكى نفسه حيث قال «إن عبور القوات المصرية لقناة السويس فى مواجهة التفوق الإسرائيلى فى

القوة الجوية يعتبر علامة بارزة فى الحروب الحديثة سوف تؤدي الى تغييرات فى الاستراتيجية العسكرية العالمية .. ان حرب الشرق الأوسط قد فجرت وبددت الكثير من المفاهيم ، فالأول مرة فى التاريخ الحديث تتمكن قوة عسكرية من انجاز عملية عبور ضخمة لقناة تمثال النهر دون أن تفقد أى طائرة من طائراتها ، وذلك فى وجه عدو يملك سلاحا جويا متفوقا ، ولقد تمت عملية العبور بصواريخ متطورة ، مما يجعل من الضرورى ادخال تغييرات جديدة على الاستراتيجية العسكرية . وعلى هذا الأساس أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية عن بدء برنامج لتطوير أسلحة الدفاع الجوى ، يركز على انتاج طراز معدل من الصواريخ المضادة للطائرات ويعطى الأولوية للصواريخ أرض - جو .

وبالمثل أعلن جباليليه وزير دفاع فرنسا أن حكومته ستطبق الدروس المستفادة من معارك الميدان فى الشرق الأوسط فى تطوير خططها العسكرية والدفاعية ، خاصة فى مجالات الصواريخ الدفاعية المتوسطة المدى والمشاة الميكانيكية والصواريخ المضادة للدبابات .. الخ .

وأخيرا ، وعلى سبيل المثال أيضا ، فلقد بدأ حلف الاطلنطى ينظر بقلق حاد إلى التوازن العسكرى بينه وبين حلف وارسو ، فسلح الحلف الأخير هو نفسه السلاح الذى استعمله السوريون والمصريون فى أكتوبر بكفاءة وخطورة ، وبالتالي يلقى بظلال كئيبة على مصير وفاعلية أى مواجهة مسلحة فى أوروبا ، لاسيما أن سلاح حلف الاطلنطى هو نفسه سلاح إسرائيل فى المعركة بل قد يكون أقل تطورا من هذا الأخير فى خطوط معينة اختصته بها أمريكا دون حلفائها الأوروبيين . أما من جانب الصناعات الحربية ، فقد أوقفت بعض مصانع السلاح فى العالم بالفعل انتاج بعض خطوطها التقليدية والمفضلة سابقا ، وبدأت تخططا جديدا تماما للانتاج .

حرب دبابات ضد مشاة

وهذا الذى قلناه عن الحرب الجوية يصدق تماما ، وربما بصورة أكثر درامية ، على الحرب البرية ، وبخاصة حرب المدرعات أو الدبابات. فقد سجلت معركة أكتوبر انقلابا آخر لا يقل خطرا ونتائج واثارة فى الحرب الميكانيكية ومعارك المدرعات ، كما سجلت مفارقة أخرى فذة فى تاريخها .

فمن الغريب أن الحرب شهدت ما قد يعد أكبر معركة دبابات فى التاريخ الحديث ، أكبر على وجه اليقين من العلمين وعلى وجه الاطلاق من ستالينجراد ، ولقد رأينا كيف شاركت من الجانبين نحو ٤٠٠٠ دبابة فى الصراع الرهيب ، وكيف بلغت الخسائر المشتركة نحو ٢٥٠٠ أو ٣٠٠٠ دبابة . ومع ذلك فلقد أثبتت المعركة نتيجة ثورية ومتناقضة جدا : أثبتت فى تقدير البعض نهاية عصر الدبابة ، لقد كانت المعركة أكبر ، وربما فى الوقت نفسه ، آخر معركة دبابات فى التاريخ المعاصر على ما يبدو ! لقد ولدت الدبابة فى الحرب العالمية الأولى ، وماتت فى حرب أكتوبر ، عمدت فى بريطانيا ودفنت فى سيناء والجولان على مايرى البعض ، خلقها الانجليز وخنقها العرب .

الأغرب بعد ذلك كله أنها ليست كما ظن الكثيرون معركة دبابات ، بل معركة مشاة أولا وقبل كل شئ .. ذلك أن المفاجأة الصادمة هنا كان ظهور الصواريخ المضادة للدبابات والموجهة الكترونيا ، سواء المحمولة على منصات وقواعد متحركة أو المحمولة على أكتاف المشاة «صواريخ ساجر وسنايبر ومولوتكا والاربيجى السوفييتية الصنع ، يقابلها صواريخ س . س - ١١ وتاوا الأمريكية الصنع» ، هذا بالطبع عدا المدفعية المضادة للدبابات وغيرها . فكانت أرتال دبابات العدو ومدرعاته ، التى يعتمد عليها بعد السلاح الجوى مباشرة ومعها أساسا ، كانت تذوب وتتلشى أمام صواريخنا المضادة بأنواعها المختلفة «أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية أن المصريين دمروا نحو ٢٠٠ دبابة إسرائيلية فى الأيام القليلة الأولى من المعركة باستخدام القذائف الموجهة الكترونيا» .

ولقد كانت الصدمة الصاعقة للعدو بوجه خاص هى صواريخ المشاة ، هؤلاء الذين لم يكن يعتد بهم تقليديا فى الحرب المدرعة الحديثة، والذين كانوا - كالفرسان من قبل - يمثلون آخر مخلفات وزوائد وبقايا الحرب القديمة ، ولعل مما له مغزاه الدال فى هذا السياق ذلك التشبيه التاريخى الذى ذكرته النيوزويك نقلا بعض الخبراء العسكريين ، فلقد قارنوا بين نجاح الأسلحة السورية والمصرية الجديدة وبين الدمار الذى أحدثه اكتساح المشاة الانجليز للفرسان الفرنسيين فى موقعة كريسى الشهيرة فى منتصف القرن الرابع عشر ، فقد فتك المشاة المزودون بالأقواس البعيدة المدى بالفرسان الراكبة فتكا ذريعا .

ففى أكتوبر كان رجل المشاة الراحل يواجه الدبابة المدرعة بشخصه وبصاروخه على كتفه ، فيحيلها بقذيفة واحدة أحيانا الى حطام يحترق . ومن هنا فكما كانت المعركة

تصادمية بين مدرعات ومدرعات وبين دبابات وصواريخ مضادة للدبابات ، كانت أيضا مواجهة بين المدرعات بمدافعها وبين المشاة بصواريخها . وليس هناك أدنى شك في تفوق الجانب العربى فى الحالىن . فكما اعترف ألون فى حديث الى ايديعوت أحرونوت ، فإن المشاة المصريين برهنوا على بسالة عظيمة ، كما أن القوات العربية تعلمت جيدا كيف تقاتل ليلا . وكما صرح وزير الدفاع الأمريكى فى مارس ١٩٧٤ فإن الدراسات التى أجراها خبراء الأسلحة فى الجيش الأمريكى على الدبابات التى استخدمتها إسرائيل فى أكتوبر لم تثبت وجود عيوب خطيرة فيها ، ولكن اللوم فى الخسائر الجسيمة التى منى بها الإسرائيليون فى دباباتهم إنما يقع على «الأساليب الإسرائيلية الطائشة والاستخدام العربى المركز للصواريخ المضادة للدبابات» .

ويقدر ما أعاد هذا كله المشاة الى قلب الصورة بقدر ما حدد مصير المدرعات، إنها عودة المشاة وربما نهاية الدبابات أو بداية نهايتها . فلم تعد المدرعات سيدة الحرب البرية، ولا الدبابة بالضرورة سيدة حرب الصحراء تصل فيها وتجول فى مناورات الحركة السريعة والالتفاف الواسع المدى كما كان دورها فى العلمين مثلا. وإنما انتقلت السيادة الأرضية عموما إلى الصواريخ المضادة للمدرعات ، وعلى رأسها المشاة الصاروخية بالذات .

وقد أدى هذا كله بأحد المعلقين العسكريين الى انتهاء خطير مؤداه أن مستقبل الدبابة فى خطر «وأن أيام الدبابة قد أصبحت معدودة فى الحرب الحديثة» كما كتبت مجلة تايم فى نوفمبر قائلة «ان التكنولوجيا المصرية قد جعلت العصر الذى كانت الدبابات والطائرات تسود فيه ميدان القتال يذهب فى ذمة التاريخ» ولكن البعض يرى أن من الحكمة أن نتحفظ قليلا ، فربما كان مثل هذا الجزم القاطع سابقا لأوانه ، ولابد من التريث بعض الوقت قبل أن تتحول الدبابات والمدرعات نهائيا إلى قطع متاحف .

وعلى أية حال فلقد فرضت معركة أكتوبر على العسكريين قضية الصراع على السيادة فى الحروب بين الدبابة والصاروخ المضاد لها . وإذا كان البعض يرى أن تجربة أكتوبر قد أفقدت الدبابة سيادتها ، فإن هناك من يعتقد أن من الممكن لها أن تحتفظ بأهميتها ويدور مهم اذا ما ركبت عليها حوامل صواريخ مضادة . فإذا صح هذا أو حدث ، فلن يكون له فى الحقيقة من معنى سوى أن الدبابة قد بعثت وعاشت مرة أخرى من خلال مصل أو لقاح مضاد اتخذته بالدقة من سمها القاتل نفسه .

هذا عن الدبابات ، أما عن المدفعية ، من الناحية الأخرى ، فلقد أثبتت المعركة خطورتها وأكدت دورها وبقاها ، وذلك أمر منطقي في الواقع ، فما الصواريخ نفسها ، سواء المضادة للدبابات أو للطائرات ، الا امتداد وتطوير بشكل ما للمدفعية ، وعلى أية حال ، فمن السهل بعد هذا أن نتصور الانقلاب الهائل والعميق الذي سوف تحدثه هذه التطورات على هياكل الجيوش وصناعات التسليح واستراتيجية الحرب في المستقبل على المستوى العالمى جميعا ، ولقد قررت أمريكا أخيرا بالفعل مضاعفة انتاجها من الدبابات ومن الصواريخ المضادة لها في الوقت نفسه ، الأولى تعويضا لاستنزافها على يد إسرائيل، والأخيرة كدرس أكتوبر بلاشك .

حرب التكنولوجيا ضد القوة البشرية

ونصل أخيرا من مجموع هذه الانقلابات والطفرات الثرى الى خاتمة ، وربما كبرى ، الحقائق - النقائص التى دفعت بها حرب أكتوبر الى المقدمة . انها أول حرب الكترونية فى التاريخ كما وصفت ، ولكنها بمنطق ديبالكى مثير أعادت الى عامل القوة البشرية وزنه وقيمتها الحاكمة . أى أنها بداية حرب التكنولوجيا العظمى ، ولكن أيضا نقطة عودة القوة البشرية .

والأصل - نظريا - أن التكنولوجيا فى الحرب بديل القوة البشرية تختزلها وترثها وقد تجبها تماما ، مثلما تحل الآلة محل الإنسان فى الحياة العادية وحضارة السلم . ولكن معركة أكتوبر ، على شدة اعتمادها على أحدث وأرقى ما توصلت اليه تكنولوجيا الحرب وصناعة السلاح ، هى التى لأول مرة أعادت التوازن الى طرفى معادلة التكنولوجيا - الإنسان ، وأعادت القوة البشرية بالتالى الى مكان الصدارة فى الحرب الحديثة .

وللقوة البشرية Manpower - والتعبير أصلا من وضع الجغرافى البريطانى الكبير هالفورد ماكيندر ، صكه وأشاعه منذ الحرب العالمية الأولى - للقوة البشرية جانبان متكافئان فى الأهمية : الكم والكيف ، ولكيف بدوره جانبان معادلان: المادى والمعنوى . فليست القوة البشرية إذن مجرد حجم أو كثافة ، أى عدد القوات ، وإنما هى أيضا نوعية الرجال ، تدريبهم وكفائهم وقيادتهم وخططهم ، ولكن أيضا وأولا وقبل كل شىء روحهم المعنوية ودرجة الإقدام والشجاعة والفدائية والإيمان والاقتناع بالهدف الخ .. ويغير هذا مجتمعا لا نفهم معنى القوة البشرية.

فإذا عدنا إلى المعركة ، فسنجد الصاروخ القاسم المشترك الأعظم فى الدفاع، سواء على الأرض ضد المدرعات أو فى الجو ضد الطائرات، سواء ثابتا أو متحركا، محمولا على قاعدة ومنصة أو على أكتاف المشاة. إنها إذن ليست معركة دبابات وطائرات ضد دبابات وطائرات فقط، ولكنها بالدرجة نفسها أيضا معركة مشاة وصواريخ ضد دبابات وطائرات. وفى هذا قال الجنرال بوفر «لقد ابرزت حرب أكتوبر دروسا عديدة فى المجالات التكتيكية والتعبوية والاستراتيجية. فالصواريخ الموجهة المضادة للطائرات والمضادة للدبابات قد أثبتت كفاءتها ويطشها الشديد. ويفضل هذه الصواريخ فشلت الدبابات والطائرات الاسرائيلية فى إحراز التفوق ومالت الموازين الى جانب العرب» . ومن هذه الزاوية فإذا كان من الصحيح تماما ما اضافهُ بوفر بعد ذلك من أن الحرب اثبتت «أن المعركة فى مجالها الفنى سوف تزداد تعقيدا، نظرا لأن كل خطوة للتطور سوف تعقبها خطوة أخرى مضادة لهذا التطور، وسوف يصبح التفوق التكنولوجى تبعا لذلك شديد الوقع عظيم التأثير على احداث القتال». فلا شك أيضا أن هذا كما رأينا قد أعاد المشاة الى قلب الصورة ومقدمة المعركة، وحد أو خفف من حاكمية الاسلحة الحديثة وخاصة الطيران والمدرعات. وعلى هذا فان المغزى الأعم والأعلى هو إعادة القوة الى عنصر القوة البشرية، جنبا الى جنب مع عامل التفوق التكنولوجى. نعم، العدد والحجم، الكثافة البشرية ونوعية الرجال ومعنويات المقاتل، كلها عادت الى الصدارة. وهذا قلب آخر مثير لقوانين الحرب الحديثة .

وثمة انقلاب ثالث أو رابع أو عاشر تنبىء أو تشى به هذه التطورات لا يقل أثارا وإثارة ، لقد رأينا ان الحرب الحديثة بطبيعتها وبتكنولوجيتها تميل باطراد الى أن تكون حربا قصيرة سريعة مختزلة ومضغوطة، لكن هناك تحفظا استراتيجيا مهما تعلية عودة الأهمية الى عامل القوة البشرية. ففي رأى البعض من الاخصائيين أن تزايد دور القوة البشرية المطرد سيفرض على حرب المستقبل اتجاها مضادا نحو الطول الى حد أو آخر. ستعود الحرب طويلة نسبيا، ليس بطولها فى الماضى البعيد بالطبع، ولكن ليس كذلك بقصرها الشديد الذى يسود حاليا. لن تعود حروب السنوات العديدة، ولكن ستنتهى حروب الايام المعبودة ، لتسود حروب الشهور المعقولة .

وإذا بدا الآن ان معظم هذه الانقلابات والاحتمالات الاستراتيجية التى كشفت عنها المعركة أقرب أن تكون عودة بدرجة ما وبصورة أو بأخرى الى الماضى – العدد والحجم ،

الشجاعة والاقدام، معركة كريسى ، البشر أكثر من السلاح استطالة الحرب نوعا - فليس هذا رجعة أو ردة الى الخلف ولا هو يعيد عقارب الساعة الى الوراء كما قد يبدو على السطح، وانما هو بالاحرى عودة الى الطبيعة، الى طبائع الاشياء، بعد أن كانت التكنولوجيا قد فصلتها عنها كثيرا أو قليلا. الحرب ستعود بالتدرج الى البيئة، تتلام وتنسجم معها أكثر، تعكسها ولا تعاكسها، تماما مثلما تتجه الحضارة المعاصرة العادية إلى العودة الى الطبيعة والى البيئة والى الجغرافيا .

والجدير بالملاحظة بعد هذا أن الانقلاب فى جملته يأتى لصالح كثافة السكان ولصالح الدول والجيوش الكبيرة الحجم والشعوب الفقيرة والاقلة تنمية وبالتالي فى صف العرب عامة ومصر خاصة فى مواجهة اسرائيل، وبصفة أعم فى صف دول العالم الثالث. لقد فتحت المعركة باب الأمل العسكرى أمام الدول المتخلفة نسبيا. فلقد كشفت حرب أكتوبر عن بديل متاح وميسور للتفوق التكنولوجى الساحق يوازيه ويوازنه ويحيده أو يحد منه، ذلك هو الخزان البشرى العميق وأعماق الشخصية المحاربة.

ولقد كان مما راع العدو الاسرائيلى بالفعل وروعه فى المعركة قوة الكثافة البشرية (أو كثافة القوة البشرية، سيان) المصرية التى اطلقت عليه أثناء العبور واقتحام الخط وبعدهما. وكما رأينا فلقد حشدت مصر للمعركة ١.١ مليون جندى وسوريا ٢٦٠ ألفاً ، أى بمجموع ١.٣٦٠.٠٠٠ جندى أى مليوناً وثلاث المليون .

ولعلنا كذلك نذكر كيف أعلن العدو شاكيا صارخا أن نسبة المشاة الصاروخية المصرية الى المدرعات أثناء المعركة بلغت ٣:١ ومن ناحيتنا نحن، فلقد عبر الرئيس السادات فى حديث له الى مجلة الحوادث اللبنانية عن ذلك بصورة حاسمة بقوله : إن اسرائيل اعتمدت على التفوق الجوى لأن القوى البشرية اللازمة لم تكن متوافرة لديها، ولكن حرب أكتوبر اثبتت أن التفوق فى القوى البشرية كان اساس التميز الاستراتيجى، وهذه القوى هى التى أخرجت العدو من المعركة». كذلك عبر أحد القادة المصريين عن الموقف بصورة ثاقبة أمسكت بجوهر التطور كله حين قال إن قواتنا استخدمت فى العبور اعقد الاسلحة المتطورة جنبا الى جنب مع ابسط الوسائل «واكثرها بدائية» .

من الاولى اسلحة الدفاع الجوى والأعاقبة اللاسلكية والرادارية، ومن الثانية سلام الحبال وعربات الجر وتجريف الرمال :

وإذا كان لهذا كله من معنى استراتيجى ، فهو أن العرب قد استثمروا عامل الكثافة البشرية الى أقصى حد ووظفوه فى المعركة بنجاح تام. فالتفوق العددي ، وهو مكفول لنا تماما ، هو من أكبر اصولنا فى الصراع ومن أكبر «خصوم» العدو وكان حتما أن نوظفه بكفاءة ، على الأقل تعويضا بالكم عن الكيف ، تماما كما توظف الصين مثلا كثافتها السكانية الهائلة فى مشاريع السلم والحرب على السواء . ولعلها أكثر من مصادفة تشبيه جونين للمد المصرى الذى اجتاح قواته فى سيناء بموجات الهجمات «الصينية». ولقد كان من اخطاء يونيو وادعائها إثارة للدهشة أن العدو حشد فى المعركة قوة بشرية تفوق مجموع القوى العربية مجتمعة! أما معركة اكتوبر، رغم انها اساسا حرب العلم والتكنولوجيا وأول حرب الكترونية فى التاريخ ، فقد أثبتت أن للقوة البشرية - لا يزال - دورها وقيمتها الحيوية ، وخطأ كبير أن يظن أحد أن العدد الحديثة حتى اليوم، تغنى كلية عن العدد فالتفوق البشرى العددي هو بمثابة مضاعفة لعدد الجيوش ورصيد لا ينفد فى وجه أى انتكاسة عارضة. فمع التفوق العددي ، حتى مع تفوق العدو نوعيا يمكنك ان تستهلكه الى حد الاستنزاف بجيش تلقى به وراء جيش إلى أن تنهكه وتنتصر عليه .

كل هذا عن العدد والحجم الخام. ولكن جانب الكيف والنوع والمعنويات لا يقل خطرا أو اثارة فبصفة خاصة يعيد هذا التطور الخلاق الاعتبار الى عامل كان مهما جدا فى القديم وحروب الماضى وخاصة العصور الوسطى ثم أصبح متنجيا فى عصر الحروب العلمية الحديثة، ونعنى به عامل الشجاعة والاقدام أو الفروسية. . فقد كان يقال إن الحرب الحديثة حرب ذكاء وعلم وآلات متطورة وتخطيط معقد. لم يعد فيها مكان كبير للحماسة أو الشجاعة .. إلخ .

حرب اكتوبر اعادت للبسالة والشجاعة وروح التضحية والاقدام كل قيمتها فلأول مرة يلتحم المشاة بالدبابات والمدرعات وجها لوجه، ويتحول المشاة الى دبابات حية فى مواجهة وصفت ببلاغة ولكن بجدارة بأنها مواجهة بين اللحم والصلب وبين الأعصاب والنيران . ولأول مرة يصمد رجال الصواريخ على الارض لسيال نارى متصل من السماء ويقفون فى وجه الطيران الغامر، لقد كانت المعركة معركة الاقدام الراجلة والاقدام الجسور ضد القلاع الزاحفة والفرسان المدرعة، معركة المشاة الحاملة ضد المدرعات المحمولة، أى اساسا حربا بين الشجاعة والمناعة وبين البسالة والحصانة .

وعند هذه النقطة تثور مفارقة أخرى تضاف الى قائمة متناقضات هذه الحرب الفريدة. وهى مفارقة دالة وكاشفة بقدر ما هى طريفة ولاذعة ايضا، لأنها تسخر من العدو فى صميم وهم أثير لديه. فلقد أُلِفَ منظرو العدو أن يصوروا الصراع بين العرب وإسرائيل على أنه صراع بين جثة ضخمة ثقيلة غليظة ولكنها متبلدة وعاجزة عن الحركة ، وبين كائن صغير دقيق الحجم ولكنه حركى قادر مفعم بالنشاط والمهارة .. إلخ ، بالتشبيه العبرى التوراتى الأثير : بين جوليات وداود . وقد صنع العدو من هذا المثال الساخر رأسمال عدائيا كاسحا فى العالم وصورة باهرة للدولة الصغيرة المتحضرة المتقدمة التى تقهر دولا عديدة ضخمة وشاسعة .. الخ .

حرب أكتوبر جاءت لتسخر بدورها من هذه السخرية ! فمما لاشك فيه أن من الظاهرات اللافتة للنظر جدا فى المعركة أن العرب إنما تصدت لسلاح طيران ومدركات العدو بالصواريخ أكثر منها بالطيران والمدركات . وهذا بحذافيره - أليس كذلك ؟ - هو صميم الصراع بين الوحدات الضخمة الحجم والثقيلة الوزن فى جانب ، وبين الوحدات الصغيرة الخفيفة الوزن والحمل فى الجانب الآخر ، تماما كالأرمادا الإسبانية قديما ، تلك القلاع الضخمة الثقيلة العائمة ، ضد سفن القرصنة البريطانية المرنة الخفيفة السريعة الحركة ، فى ذلك الصراع البحرى المصيرى الذى أنهى خرافة «الأرمادا التى لا تقهر» "The Invincible Armada" ولعها أكثر من مصادفة أن العدو لم يكن يتحدث ، هو الآخر إلا عن جيش الدفاع وسلاح الطيران «الذى لا يقهر».. لقد قهرت المرونة والوحدات السلاحية العربية الصغيرة «غول» الوحدات الضخمة الثقيلة للعدو، ولكن داود هذه المرة عربى وجوليات هو غول العدو!

وهذا بالضبط هو الرد الصحيح الوحيد على كل ما ادعاه العدو أو روج له اصدقاؤه تبريرا للنكسة التاريخية التى منى بها فى المعركة، فلقد ركز كثيرون على الاسلحة المتطورة الممتازة، وخاصة صاروخ سام ٦، فى ايدي السوريين والمصريين، كبطل المعركة ونجمها الوحيد، وذلك عمدا ليبعدوا المقاتل العربى خلف تلك الاسلحة عن دائرة الضوء والتركيز، غير أن الواضح تماما أن فاعلية وكفاءة تلك الاسلحة بالذات، والممتازة بلا أدنى شك، إنما تتوقف أساسا على اليد التى تمسك بها وتشغلها وتسيطر عليها، وكان الانسان العربى المحارب هو البطل الحقيقى فى المعركة .

وهذه الحقيقة نفسها هي التي تفسر تخطيط العدو في تبرير هزيمته. فهو مرة يقول إنه فوجيء بموعد الهجوم ثم عاد يقول بل بكمية ونوعية الاسلحة والتدريب ، بل لقد وصل الى حد البحث عن «السلح السرى» أو «العقار السرى» (حبوب الشجاعة) الذي حملة المقاتل العربى (كذا) . ولم يكن ذلك كله فى الحقيقة سوى تبرير خاطيء لعدو فاشل على أنه فى النهاية اضطر الى أن يعود فيعترف بأن مفاجأة المعركة كانت هى نوعية المحارب العربى . رئيس اركان العدو بنفسه أعلنها : «أن كل حرب تحمل معها مفاجأتها»، قال ديفيد اليعازر «وهناك أشياء لا بد لنا أن نتعلمها وأن نصحح معلوماتنا بشأنها . وكبرى هذه المفاجآت أن الجنود المصريين، وكذلك السوريين، قد أظهرُوا قدرا من الكفاءة والتضحية بالنفس وتوفير الدافع يفوق بكثير ما أبدوه فى الحروب السابقة. إن الجيش الاسرائيلى قد فوجيء تماما بتدريب وكفاءة الجندى العربى». لقد اكتشف العدو، متأخرا جدا ، أن «السلح السرى» أو «العقار السحرى» الذى توهمه مع المقاتل العربى انما هو المقاتل العربى نفسه !

والشئ نفسه اعترف به بارليف حين قال ان المصريين حاربوا هذه المرة بدوافع وطنية أكثر قوة من أى وقت مضى، وأنه لا يستطيع أن يقلل من القوة القتالية للمصريين فى المرات السابقة فقد كانت صفوفهم صعبة التفطيت عندما كانوا يقاتلون من مواقع دفاعية جيدة، ولكنهم فى هذه المرة كانوا أكثر جسارة وتصميما وكانت روح الفداء لديهم لا نزاع فيها ، بل وصلت الى حد المخاطرة. ثم اضاف بارليف أن المصريين والسوريين فضلا عن ذلك قد دخلوا هذه الحرب بأسلحة جديدة وبكميات هائلة لم تحسن المخابرات الاسرائيلية تقديرها. ولهذا وقعت المفاجأة ، ونجح المصريون والسوريون فى تحقيق انتصاراتهم .

عن الاستراتيجية الإقليمية :

دراسة مقارنة

من الضرورى، كما هو من المفيد أن ننظر الى السادس من اكتوبر فى اطار الاستراتيجية الإقليمية لنقارنه بما سبقه من معارك ومواجهات عسكرية داخل المنطقة أو خارجها. فمن اوجه الشبه والاختلاف المرصودة نستطيع أن نحدد الخصائص الأساسية والخصوصية المنفردة لحرب أكتوبر، ولا شك أن حرب يونيو هى أول ما يفرض نفسه على

الدراسة المقارنة ، على أن من المستحسن واللازم أيضا أن نجمع الاثنين معا، يونيو واكتوبر فى إطار واحد هو إطار الصراع العربى - الاسرائيلى عموما. غير أننا سنجد أن هذا يوحى على الفور بالمقارنة بالصراع الأوروبى - النازى فى الحرب الثانية. وهناك أيضا تشابه جزئى وثانوى، لكنه جدير بأن يذكر، بين حرب اكتوبر وبين حرب الهند - الباكستان الأخيرة. وسنبداً بإشارة سريعة إلى المقارنة الأخيرة، نتفرغ بعدها بتفصيل للمقارنة بين قصة النازية وخطتها فى أوروبا ونظيرتها الصهيونية فى الشرق الأوسط .

الصراع العربى - الاسرائيلى والصراع الهندى - الباكستانى

فعن حرب الهند - الباكستان ، هناك عدة ملامح تذكر بالصراع العربى - الاسرائيلى ، مع فارق اساسى وشرطى للغاية يتعلق بالحقوق الشرعية والمواقف القانونية الأساسية فى الصراع والتي لن نتعرض لها هنا. ففيما عدا هذا التحفظ الجوهرى، ويعيدا تماما عن مقارنة الشرعية الاقليمية بين اطراف الصراع فى الحالتين. وكذلك مع التسليم بوجود اختلافات اخرى عديدة قد ترجع اوجه التشابه، يمكن أن نعدد مظاهر التقارب الآتية :

فتولأ : هناك فارق حجم وموارد ضخم الى أبعد الحدود بين الهند والباكستان (٥٥٠ مليوناً ضد ١٣٥ مليوناً) كذلك الذى بين العرب واسرائيل (١٢٥ مليوناً ضد ٣ - ٣,٥ مليون) ولكن لأسباب خارجية متعددة ومختلفة كان هناك تقارب ما فى مستوى التسليح وقوة السلاح بين جانبى كلا الصراعين .

وثانيا : قامت بين الهند والباكستان ٣ حروب منذ التقسيم ، مقابل ٤ حروب بين العرب واسرائيل منذ الاغتصاب. ولعلها مصادفة أو أكثر من مصادفة ان الصراع فى الحالين دينى فى الاساس وينتظم بولة دينية من جانب واحد على الأقل غير أن الفارق الأساسى هو الوضع الاستعماري الاغتصابى الدخيل لاسرائيل فى الشرق الاوسط، وهو بطبيعة الحال فارق جذرى وحاسم يطغى على كل ما عداه من فروق فضلا عن التشابهات، ولهذا لا يحتمل مزيدا من الضغط والتأكيد ولا تأويلا أى تأويل .

وثالثا : كانت الولايات المتحدة تقف بانتظام مع الطرف الاصفر (الباكستان هنا، واسرائيل هناك) كحليف بدرجة أو بأخرى يورد له السلاح الاساسى ويسانده سياسيا واقتصاديا وفى جانب الطرف الاكبر (الهند هنا، ومصر وسوريا وغيرهما هناك) وقف

الاتحاد السوفيتي مؤيدا بالسياسة والاقتصاد وموردا للسلاح. الفارق الوحيد أن المساعدات السوفيتية للآخرين متكافئة متزنة ومتناسبة مع احجامها، أما مساعدات أمريكا للباكستان فلا تقارن قط بسيل مساعداتها المتدفق على إسرائيل.

رابعا : فى الحرب قبل الاخيرة (الحرب الثانية بين الهند والباكستان ١٩٦٥) والثالثة بين العرب واسرائيل (١٩٦٧) سجل الطرف الاصغر على الاكبر انتصارا ساحقا بدرجة أو بأخرى وفى كل منهما لعبت الحرب الجوية الخاطفة دورا أو آخر. وفى الحالتين بدا أن هذا الانتصار الضخم قد جاء مضادا للتوازن الطبيعى للقوى بين الطرفين وربما غير معبر عن حقائق القوة بينهما، ولكنه بالدرجة نفسها قلب الموازين الاستراتيجية فى الصراع .

خامسا : فى الحرب الأخيرة (١٩٧١ فى شبه القارة، ١٩٧٣ فى الشرق الاوسط) التى كانت حربا محدودة فى الحالتين دامت ١١ يوما فى الأولى ونحو ٢٠ يوما فى الأخيرة، لم تلعب الحرب الجوية الخاطفة دورا حاسما وكانت المواجهة برية تصادمية أساسا، وفيها كان النصر حليف الطرف الاكبر الأول مرة فى الحالىن تقريبا. وكان التنسيق بين هذا الطرف وبين الاصدقاء الكبار السوفييت وكذلك السلاح السوفيتي عاملا مهما فى تحقيق هذه النتيجة .

سادسا : تشترك الحرب الأخيرة فى كل من الحالتين فى انها اول حرب محدودة فى ظل الوفاق الدولى بين القطبين الاعظم، واكدت بذلك أن الوفاق ليس قييدا على الحروب المحلية ولا مانعا لها، وأن كان عليها أن تعمل فى ظله وبالتنسيق معه ومراعاة توازناته العالمية الحرجة. غير أن هناك فارقا مهما أيضا بين الحريين بعد ذلك، فحرب الهند، الباكستان دارت والوفاق لم يزل بعد فى مرحلته التكوينية نسبيا، ولا نقول الجنينية . أما معركة اكتوبر فقد وقعت والوفاق قد اكتمل نضجا وتبلورا ، أو هو على الاقل فى سبيله الى ذلك . حرب شبه القارة هى الأولى شكلا فى ظل الوفاق، ولكن حرب شبه الجزيرة هى الأولى موضوعا ، من هنا تعد حرب اكتوبر بجدارة أول حرب محلية حقيقية تتم فى ظل الوفاق .

سابعا : وفى الحالتين ، بينما جاء انتصار الطرف الاصغر فى الحرب قبل الأخيرة مدويا من الناحية العسكرية، جاء عقيما من الناحية السياسية، فقد جمد الاوضاع الراهنة دون أن يفرض الحل النهائى. أما فى الحرب الأخيرة، فرغم ان انتصار الطرف الاكبر

كان أقل بريقا وحجما وربما نويا من الناحية العسكرية، فقد كانت آثاره حاسمة من الناحية السياسية .

فمعركة الهند - الباكستان قلبت التوازنات الاقليمية فى شبه القارة تماما، اذ انشطرت دولة الباكستان وتقلصت الى وحدة سياسية مقلمة متوسطة الحجم كايран المجاورة تقريبا، بينما خلقت دولة جديدة تماما هى بانجلاديش ، على حين طفرت الهند الى الصدارة كقوة شبه عظمى فى جنوب آسيا .

بالمثل فى حرب اكتوبر، لأول مرة تعاد اسرائيل الى حجمها الطبيعى كدولة صغرى فى مثل حجم الأردن المجاور تقريبا، ويسترد العرب مكانتهم العالمية مرشحين ، ربما لدور قوة كبرى أو شبه عظمى، مع احتمال ان تتمخض التسوية ايضا عن قيام دولة فلسطينية جديدة ؟ مثلما قامت بانجلاديش .

معركة يونيو ومعركة اكتوبر

تلك مقارنه عاجلة وعابرة على مستوى الاستراتيجية العسكرية والاقليمية بين معارك الصراع العربى - الاسرائيلى ، والصراع الهندى - الباكستانى . والتشابه جزئى بطبيعة الحال ، ولكن لعله يكون مقنعا مثلما هو دال وأن يلقى من الضوء اكثر مما يلقى من الظلال. وعلى أية حال، فان المقارنة بين الصراع العربى الاسرائيلى والصراع الاوربى النازى هى ما تعيننا أساسا. ولنبدأ أولا بالمقارنة بين معركتى يونيو ١٩٦٧ واكتوبر ١٩٧٣. ثمة نقاط أساسية خمس، وكلها أوجه اختلاف جنى - بالطبع .

أولا : معركة يونيو هى النموذج الكامل للحرب الخاطفة، ولكن أيضا وأساسا لضربة «بيرل هاربر» الفادرة فقد بدأت بهجوم شامل، مبيت وغادر، على السلاح الجوى المصرى وهو على الارض اخرج على الفور من المعركة فكان الوضع اشبه بمبارزة اطاق أحد طرفيها بسيف الطرف الآخر على غرة قبل اشارة البدء القانونية ، فتحوّلت المبارزة على الفور إلى التحام بين حامل سيف واعزل من السلاح . وكانت البقية محتومة ! طعنة نافذة فى جسم الأخير. هكذا تحولت المعركة فى سيناء الى مواجهة بين جيشين فى جانب، جوى وبرى وبين جيش واحد برى فى الجانب الآخر. أو بالأحرى لم تحدث مواجهة حقيقية. فبعد أن فقد غطاءه الجوى، أصبح سلاح المدرعات المصرى هدفا مباشرا وسهلا لسلاح طيران العدو.

أما فى اكتوبر فقد انعكس الوضع بصورة أو بأخرى فقد تحول الجانب العربى من الدفاع الى الهجوم وأحرز قصب المبادأة ونجح فى مفاجأة العدو بضربة جوية شاملة وخاطفة قد تقل حجما وابعادا عن حرب العدو الخاطفة فى يونيو ولكنها لم تكن أقل فاعلية وكفاءة ، وإن كانت أبعد شىء عنها من حيث اخلاقيات الشرف والنزاهة. وبعدها أصبحت المواجهة حقيقية بين جيشين فى كلا الجانبين ، جيش برى وآخر جوى. من هنا كانت معركة اكتوبر اختبار قوة حقيقى للطرفين، حيث كانت معركة يونيو تجربة غدر من طرف واحد .

ثانيا : فى يونيو توسع العدو توسعا دائريا أى على الجبهات العربية يمينا ويسارا: شمالا فى الجولان وشرقا فى الضفة الغربية للاردن، وجنوبا فى سيناء، وبهذا وصل الى حدود طبيعية مانعة وموانع مائية من الدرجة الأولى : المرتفعات السورية ونهر الاردن وقناة السويس وبهذا أيضا تحقق له احتلال مساحة شاسعة من الارض العربية بلغت أربعة أمثال مساحة الارض السليبية فى فلسطين المحتلة نفسها ، وتراحت «من القنطرة الى القنيطرة ومن شرم الشيخ الى جبل الشيخ» كما وضعها السوفسطائيون من فلاسفة العدو .

فى اكتوبر على العكس، نجح العرب فى رد العدو على اعقابه عن قطاعين مهمين فى غرب سيناء بطول القناة وفى بعض أطراف القطاع الشمالى من الجولان بعرض المرتفعات . وإذا كانت هذه المناطق المحررة لا تمثل إلا كسرا صغيرا من الارض المحتلة فى يونيو، فإن الحرب لم تنته والمعركة مستمرة نظريا وعمليا. ويمكن أن تكون تلك القطاعات المحررة عتبة عريضة أو خشبة قفز وثيقة لخلع العدو عن بقية الارض العربية . وإذا كان العدو قد فاته الغدر على طريقة بيرل هاربر أو غيرها فى بداية المعركة مثلما فعل فى يونيو فقد لجأ الى التعويض بالخداع فى آخرها. فسواء على الجبهة المصرية أو السورية استتمت فى نهاية القتال ، ولكن اساسا بعد وقف اطلاق النار رسميا ليفتح ثغرة ليتسلل منها إلى مكاسب إقليمية أو عسكرية أو سياسية وقد نجح بالفعل على الضفة الغربية للقناة وفى تخوم القطاع الشمالى من الجولان . غير أن وجوده غير الشرعى - لا يعدو فى الحالىن جييا محاصرا كان يمكن تصفيته وسحقه اذا عاد القتال ولهذا سارع بالانسحاب منه فى الفصل بين القوات .

ثالثاً : كانت حرب يونيو حرباً جوية فى الدرجة الأولى بداية ونهاية وحسماً بالتالى اعطت سنداً للنظرية القائلة بأن الطيران هو سيد حرب الصحراء مثلما اعطت مادة لدعاية العدو الراجعة عن تفوقه التكنولوجى والجوى.. إلخ . حرب أكتوبر ، على النقيض ، تأتى حرباً جوية وميكانيكية ، حرب طيران ومدرمات ، قاذفات مقاتلة ودفاع جوى، وصواريخ ومشاة، وعلى النقيض أكثر جاءت لتكتسح نظرية الطيران سيد حرب الصحراء ومعها اسطورة التفوق الجوى الاسرائيلى بل وكذلك جاءت لتنسخ نظرية منافسة هى نظرية الدبابات سيدة الارض فى حرب الصحراء.

وعلى العموم فعلى حين لم تغير حرب يونيو شيئاً من قواعد الحرب التقليدية بما فيها حتى نظرية الحرب الخاطفة التى كانت تقليداً لا تجديداً، قلبت حرب أكتوبر معظم نظريات الحرب المقررة وهزت اركان الاستراتيجية ومعطياتها الثابتة هذا عنيفا وعميقا على نحو ما رأينا تفصيلا فى الصفحات السابقة .

رابعاً : حرب يونيو هى أقصر حرب خاضها العرب ضد اسرائيل وحرب أكتوبر هى أطولها ، استطالت كما رأينا الى ثلاثة - اربعة أمثال الأولى ، وبينما كانت الأولى جولة واحدة ناجزة ، انتظمت الثانية بصورة ما جولتين فقدت اسرائيل أولاهما بصورة قاطعة ، وكادت تفقد بها الحرب نهائيا لولا التدخل الأمريكى غير المباشر - ولكن غير المستتر - الذى منحها فرصة جديدة من الحياة والمقاومة لتبدأ الجولة الثانية التى انتهت الى شكل من التعادل . وبهذا كانت نتيجة الحرب الصافية نصراً محدوداً ولكنه اكيد للعرب .

ولئن بدأ هذا النصر أقل ضخامة وبريقاً من نصر العدو فى يونيو من الناحية العسكرية ، فان العكس صحيح تماماً من النواحي الأخرى. فنصر العدو العسكرى فى يونيو أتى عقيماً من الناحية السياسية ، اذ عجز عن فرض ارادة اسرائيل على العرب وبقي الوضع الجديد معلقاً . اما نصر العرب المحسود عسكرياً فى أكتوبر فقد جاء مع ذلك خصباً الى أقصى حد من الناحية السياسية وغنياً جداً بالتداعيات الجيوبوليتيكية . فلقد قلب الميزان الاستراتيجى فى المنطقة تماماً وفتح الباب لفرض الاوضاع السياسية الجديدة وكانت له انعكاسات عالمية على موازين السياسة الدولية المعاصرة تزداد كل يوم وضوحاً وستقرض نفسها لا شك فى الواقع الدولى إن عاجلاً أو آجلاً.

خامساً: حرب أكتوبر فى المحصلة النهائية وترتبط على كل ما سبق، هى انعكاس تام وقلب كامل لحرب يونيو. انهما طرفا نقيض عسكريا وسياسيا، اقليميا وعالميا ، كالقطب الموجب والسالب على الترتيب ، أو كالقرار والجواب، أو كالنفى والاثبات . السادس من أكتوبر هو نفى النفى، هو النقيض الموضوعى للخامس من يونيو ، وهو النسخ التاريخى لمسح يونيو. لقد قلب يونيو الصراع وتركه «واقفا على رأسه». فأعاد أكتوبر اقامته على قدميه .

فى البداية انتزع العرب المبادأة والمفاجأة والهجوم لأول مرة، ووضعوا العدو على الدفاع لأول مرة. فى الميدان : كان يونيو آخر نصر عسكري يحققه العدو، وكان أكتوبر اول نصر عسكري يسجله العرب. وفى الرأى العام العالمى : فى يونيو كان الانحياز الاستفزازى بل والعدائى كاملا ضد العرب ولصالح العدو ، ولكن فى أكتوبر كان العدو فى عزلة شبه تامة عن العالم. فى السياسة : انتهى يونيو الى طريق مسدود والى حالة من الجمود هى حالة اللاحرب واللاسلم، أكتوبر أنهى هذه الحالة وفرض على العالم ضرورة الحل الحقيقى للأزمة .

الصراع العربى الاسرائيلى والصراع الأوروبى - النازى

يبقى الآن أن نضع ٦ أكتوبر مع ٥ يونيو داخل اطار الصراع العربى الاسرائيلى موضع المقارنة مع استراتيجىة قيام وسقوط النازية اثناء الحرب الثانية، وبين النازية والصهيونية عدد من أوجه التشابه والتقارب، بل أكثر منها علاقة نسب مباشرة، فما خرجت الصهيونية إلا من رحم النازية فكانت هذه جلادتها وولادتها فى الوقت نفسه ورغم ما فى ذلك من تناقض ظاهرى. ولنا بكل تأكيد ان نتحدث عن «الصهيونازية -Zio-nazism» كمرادف لنازية العنصرية الاسرائيلية، إلا انها أكثر تحديدا ووضوحا وادخل الى العقلية الاوربية التى تعرف جيدا معنى النازية بكل محمولاتها وابعادها. على أن ما يعنينا الآن من علاقة النسب والتشابه بين النازية والصهيونية هو الجانب الجيوستراتيجى وحده، وهو الذى سنركز عليه .

فالعنصرية العدوانية فى كل من ألمانيا النازية واسرائيل الصهيونية توسعت من حولها توسعا دائريا فى كل الجهات والجبهات ، وبسرعة كاسحة فى حرب خاطفة فى الحالىن.

الأولى على امتداد أوربا من الأطلسى حتى البحر الاسود وكذلك حتى شمال افريقيا،
والثانية من قناة السويس حتى نهر الاردن والجولان. وكما كان لألمانيا جبهتان اساسيتان
محيطتان فى وقت واحد، شرقا فى الاتحاد السوفيتى وغربا فى أوربا الغربية، كان
لاسرائيل ايضا جبهتان، شمالا وشرقا مع سوريا والاردن وجنوبا مع مصر .

وهناك تناظر مركب بشكل ما فى الجغرافيا الاستراتيجية للحرب والمعارك الكبرى
داخل الاطارين تأخذ مصر فيه من سمات الجبهة الشرقية مرة والغربية مرة. فعلى أقصى
ضلوع منطقة النفوذ والتوسع الالماني حدثت معركتان تاريخيتان فاصلتان ، وتكادان أن
تكونا متعاصرتين (١٩٤٢)، هما اللتان حددتا مصير الصراع: العلمين على اطراف شمال
افريقيا وعتبة مصر فى أقصى الجنوب الغربى، وستالينجراد فى قلب روسيا الاوربية فى
أقصى الشمال الشرقى. وكلتاهما كانتا من معارك الدبابات العظمى فى التاريخ الى
جانب نور الطيران الحاسم .

وبالمثل فى اطار صراع الشرق الاوسط، شهدت سيناء فى أقصى الجنوب الغربى
والجولان فى أقصى الشمال الشرقى الصدمات الرئيسية فى حرب يونيو، ولكن اساسا
فى حرب اكتوبر حيث دارت معركتان فاصلتان من كبرى معارك الدبابات فى التاريخ
حتى لتكادا تعادلان ان لم تفوقا نظيرتيهما حجماً مثلما توازيهما موقعا ودورا . وفى
كل الحالات كانت هذه المعارك هى نقط التحول لأول ولآخر مرة فى اتجاه الصراع
ورسمت بذلك مؤشرات النصر أو الهزيمة .

وإذا شئنا مزيدا من التفصيل فى هذه المقارنة فثمة هذه الأرقام الدالة فى العلمين
مثلا، قدرت قوة بريطانيا بنحو ١٤٠٠ دبابة، حيث لم تملك المانيا وايطاليا إلا ٥٥٠ دبابة
فقط، أى بمجموع كلى نحو الالفى دبابة . أما فى ستالينجراد فكانت المواجهة بين ٩٠٠
دبابة للسوفييت، ٧٠٠ فقط للألمان ، بمجموع كلى قدره ١٦٠٠ دبابة. وللمقارنة ، فان هذا
الرقم الأخير قد لا يزيد كثيرا جدا عما ألقى به أى طرف من اطراف حرب اكتوبر طوال
المعركة ويقل بالتأكيد عما قذف به أكبر اطرافها ، بل أن مجموع ما قذف به فى المعركتين
العالميتين القديمتين، وهو ٢٥٥٠ دبابة ، ليقل كثيرا بالتأكيد عن نظيره فى معركة اكتوبر
والذى يتراوح حول ٤٠٠٠ دبابة وربما رجحها . بل لعل من المثير ان نلاحظ ان ذلك

المجموع ، ٢٥٥٠ دباية، هو نفسه مجموع عدد خسائر الطرفين المتحاربين فى معركة اكتوبر وحدها !

هذا كله من ناحية التشابه العام بين خريطتى الصراعين العربى - الاسرائيلى والاوربى - النازى جيوستراتيجيا . ومن ناحية اخرى نجد موقف مصر فى يونيو يشبه موقف الاتحاد السوفيتى فى الحرب الثانية من منظور معين . فكما توغلت المانيا فى الاتحاد السوفيتى الى خط مدن لىنجراد - موسكو - ستالينجراد ، توغلت اسرائيل فى سيناء اثناء حرب يونيو الى اقرب خط مدن القناة بورسعيد - الاسماعيلية - السويس . وكما هجر الاتحاد السوفيتى سكانه وصناعاته الى ما وراء الاورال ، هجرت مصر سكان ومصانع الاسماعيلية والسويس وجزءا كبيرا من سكان بورسعيد الى ما وراء القناة .

كذلك فكما صمد الاتحاد السوفيتى فى عمقه الاستراتيجى ويجرمه الهائل أمام الزحف الالمانى ، صمدت مصر فى وجه النصر الاسرائيلى بفضل ثقلها ووزنها وعمقها الكبير . وكما جمد الاتحاد السوفيتى بصموده القوة الالمانية فى صحراء جليدية قارصة فعقم الحرب الخاطفة الى أن تمكن من التحول مع الغرب الى الهجوم ثم سحق النازية نهائيا ، فكذلك أدى صمود مصر وسوريا الى تجميد القوة الاسرائيلية فى صحارى رملية حارقة فعقم حربها الخاطفة الى أن كانت ساعة الصفر والنصر فى ٦ اكتوبر .

وإذا كانت تلك هى الصورة العريضة للتشابه الجيوستراتيجى بين المسرحين والملحمتين فلعلنا سنلاحظ كيف تأتى مصر بخاصة قاسما مشتركا حلقة وصل بينهما . فكما تمت العلمين الفاصلة على ارضها اثناء الملحمة الاوربية، كانت سيناء هى ارض الصراع الحاسم فى دراما الشرق الاوسط . واللافت المثير حقا ان الصراع فى الحالىن كان ضد النازية عموما : القديمة هناك والجديدة هنا ، نازية اوربا سابقا ونازية الشرق الاوسط حاليا .

وهنا ايضا نلاحظ كيف تبرز مصر وعلى جانبيها يمينا ويسارا ، بالتحديد على كتفيهما قد دارت اثنتان من كبرى معارك الدبابات فى التاريخ الحديث، ان لم تكونا كبراها على الاطلاق كما يذهب معظم العسكريين ، العلمين وسيناء . وإذا كان لاجتماع معركتين تاريخيتين عظيمين على ارض بولة واحدة من معنى ، فهذا المعنى بلا شك هو

اولا خطورة واهمية موقع مصر الجغرافى : لقد تحول الموقع الى موقعة ، ثم هو ثانيا بور مصر الاستراتيجى الحاسم فى الصراعات العالمية والاقليمية : انها الصخرة التى تحطم عليها المد النازى غربا والصهيونى شرقا .

وفيما عدا هذا فان هناك تناظرا غريبا بين المعركتين حتى من داخل المنظور المصرى نفسه ، رغم ان الاولى كانت لحساب الاجانب والثانية لحساب الوطن. ففضلا عن التناظر فى الموقع على بوابتى مصر ومدخلها الشرقى والغربى، فان كلا منهما يمثل عنق زجاجة عنق مصر كذلك فالمسرحان كلاهما بيئة طبيعية واحدة اساسا هي البيئة الصحراوية، وبالتالي فراغ عمرانى وبشرى وعازل استراتيجى مهم. ومن الطبيعى بعد ذلك أن المعركتين كانتا على السواء حرب صحراء بكل ما تعنى استراتيجيا وتكتيكيا من التركيز على الحرب الميكانيكية والجوية أو المدرعات والطيران وكمجال مثالى للمناورات الشاسعة المدى والكر والفر بلا حدود .

بل أكثر من ذلك أخذ هذا الكر والفر نمطا متشابها فى الحالتين، نمط المد والجزر تقدما وتقهقرا عدة مرات ما بين الشرق والغرب أو استراتيجية «شد الحبل tug of war» كما تسمى أحيانا ففي العلمين زحفت قوات المحور من شمال افريقيا وليبيا على بوابة مصر الغربية ثم ارتدت أمام زحف الحلفاء المضاد ثلاث مرات على الاقل حتى كانت الجولة النهائية فى العلمين. وفى سيناء تقدم الزحف الاسرائيلى بصورة أو بأخرى ، وحده أو فى حماية الحلفاء، غدرا أو غصبا ، ثم انحسر كليا أو جزئيا ، ثلاث مرات أيضا فى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ .

وهنا نلاحظ أن معركة العلمين اشبه عسكريا بمعركة اكتوبر من أى منهما بمعركة يونيو ، وذلك من حيث الاستراتيجية والسلاح والمدى الزمنى . فبينما اعتمدت يونيو على الحرب الجوية الخاطفة السريعة، كانت العلمين كاككتوبر حرب مدرعات وطيران علي السواء، تصادمية طويلة ورهيبة. واخيرا فانهما تتناظران حجما وحشدا وخسائر بل ونتائج مصيرية رغم أن الواحدة كانت عالمية والثانية محلية : دبابات بالآلاف وطائرات بالمئات فى الحالىن، وخسائر جسيمة فى السلاح، ثم فى النهاية أول انكسار للطرف النازى فى الصراع بعد سلسلة انتصارات متصلة ، وأول انتصار

للجانب التحريري بعد هزائم متكررة ، ومن نقطة التحول في الصراع هنا وهناك على حد سواء .

تلك خطوط عريضة في المقارنة بين قصة صعود وسقوط النازية الألمانية في اوربا وقصة نشأة وانكسار الصهيونية الاسرائيلية في الشرق الاوسط ، قد لا تزيد على بروفيل عام ، ولكنها كافية لأن تجعل من المناظرة بينهما تناظرا ايضا. وإذا كان لنا بعد هذا ان نتتبع هذا التناظر الى انتهاء . فان هذا المنتهى هو النهاية المحتومة للصهيونية تماما كما حدث للنازية. انها مثلها كيان محكوم عليه جغرافيا وتاريخيا، استراتيجيا وحضاريا، فلسفيا . وانسانيا ، وهو محكوم عليه لأنه أساسا كيان ضد الطبيعة وضد الحياة . لقد خرجت الصهيونية من رحم النازية ، ثم كررت دورة تاريخها الطبيعي، وستتم الدورة وتدور الدائرة كاملة تدفن مثلها في مقبرة التاريخ ..

الباب الثانى

٦ أكتوبر

فى استراتيجية السياسة العالمية

منذ الحرب العظمى الثانية، لا نكاد نعرف حربا محلية خصبة بآثارها الإقليمية وحبلها بتتائجها العالمية مثل حرب أكتوبر. قد تكون حربا محدودة بالمقياس العسكرى، إلا أنها بلا حدود فى انعكاساتها وإشعاعاتها السياسية: وربما كانت مجرد حرب محلية جيوسراتيجية، ولكنها بلا مبالغة كوكبية جيوبوليتيكية. وهذه واحدة أخرى من مفارقات هذه الحرب الفذة، إنها ليست فقط حربا عصرية باللغة العصرية، وإنما هى كذلك حرب العصر بالضرورة والامتياز.

أو كما قال الجنرال بوفر «الحرب بدلت الموقف تماما فى الشرق الأوسط، فلقد رأينا حربا محدودة فى المكان والزمان، لكنها حققت هدفا سياسيا مهما»، هذا بينما قال ريمون آرون إن حرب أكتوبر «من أكبر مفاجآت العصر»، كما عدها جالليه وزير دفاع فرنسا «نقطة تحول فى التاريخ المعاصر». وبالمثل اعتبر وزير خارجية السودان أن «٦ أكتوبر تحول سيكون له أثره على تاريخ البشرية». وبالمثل تكلم الرئيس تيتو مخاطبا صديقه وضيغه الرئيس السادات فى بربونى عن أحداث تجرى أخيرا فى الشرق الأوسط «يمكنها أن تؤثر بشكل مصيرى على التطور اللاحق ليس فقط فى تلك المنطقة بل على نطاق أوسع فى العالم أيضا». هذا فى حين قال السادات نفسه إن ٦ أكتوبر «غير التاريخ ليس فقط فى بلدنا أو أمتنا، وإنما غير تاريخ العالم كله». يحدث هذا ويصدق إلى أقصى حد رغم أن انتصارنا لم يكن كاملا تماما حيث إن المعركة لم تتم إلى آخر المدى، وهذه وحدها مفارقة أخرى لا تقل إثارة.

الحرب الفيتنامية مثلا، تلك الملحمة الرائعة والمروعة معا، كانت أطول بكثير جدا بالطبع، وربما أشد ضراوة وترويعا، كما لم تكن مشحونة بأخطار أقل كثيرا، ومع ذلك لم يكن لها الوقع والإيقاع والإشعاعات والانعكاسات العالمية الحاسمة والفاصلة التى لمعركة أكتوبر، خذ حرب الهند – الباكستان الأخيرة أيضا، غيرت خريطة شبه القارة تماما، فلقت بولة قائمة وخلقت بولة قائمة، وقلبت ميزان القوة فى جنوب آسيا: لكن كل تلك آثار إقليمية فى الصف الأول أكثر منها عالمية الصدى أو المدى.

كذلك كانت كوبا مواجهة نووية مباشرة وسافرة، حيث لم تزد معركة أكتوبر على تهديد بالمواجهة، أو بالأحرى على «تشنج نووى» أمريكى، ومع ذلك فلا مجال للمقارنة بين الأزمتين من حيث شلال النتائج السياسية العالمية.

أما حرب أكتوبر، فإننا نستطيع أن نضعها ببساطة كالآتي: حرب كان لها دور وفعل الزناد trigger action، أطلق رصاصة تتابعت بعدها الطلقات الأكبر والأبعد مدى في سلسلة من الأفعال وردود الأفعال chain reaction، بدأت من أدق دقائق الموقف العسكري المحلى نفسه في الميدان إلى أكبر وأخطر القضايا النظرية الكوكبية كفلسفة الحضارة المعاصرة نفسها والنظام العالمى الراهن.. الخ. أو كما عبر الأستاذ أحمد بهاء الدين في صورة دقيقة وشيقة، كانت الحرب «بمثابة القنبلة التى تنفجر فى مخزن للقنابل فتنفجر سائر القنابل وتتطاير شظاياها على مساحة واسعة.. كل قنبلة موقوتة تنفجر، ثم لا يلبث انفجارها أن يفجر قنبلة أخرى مجاورة». «وتكاد لاتكون هناك قضية – كما يضيف فى مكان آخر – إلا وطرحتها حرب أكتوبر للنقاش وعرضتها لامتحان عسير».

كذلك لا يكاد يمضى يوم منذ ٦ أكتوبر إلا ويكشف للخبراء والمراقبين فى العالم كله أثرا جديدا أو وقعا بكرا أو نتيجة انقلابية، ليس فقط فى الجوانب العسكرية والنظريات الاستراتيجية، وإنما كذلك فى توازنات القوى العالمية ومناخ السياسة الدولية بعامه. ومن المحقق أنه مهما قيل فى هذا الصدد فإن أحدا لن يستطيع لوقت طويل جدا أن يقدر تلك المعركة حق قدرها أو أن يحدد وزنها كاملا على أى مستوى. المستقبل وحده هو الذى سوف يضعها فى مكانها الجدير فى تاريخ عالمنا المعاصر.

لقد أحدثت المعركة كثيرا من التغيرات المهمة فى موازين القوة العالمية والإقليمية وحسابات الصراعات الدولية والمحلية، كما صفت وستصفى كثيرا من الحسابات السياسية المعلقة والقديمة. وفيما عدا هذا فإن المعركة قد زلزلت كثيرا من المعتقدات السائدة والأفكار المستقرة والثوابت المقررة فى كل مجالات الحياة السياسية ومستوياتها، وبدأت ترسى مكانها بدائل جديدة ووريثة، وليس يقل أهمية ونتائج أنها قد بددت كثيرا من الأوهام وحطمت غيرها من الأساطير التى عاشت أو عشت طويلا، ليس فقط فى عقل العدو ومعسكره بل وفى عقولنا وأصدقائنا كذلك. باختصار، لقد نسخت حقائق قائمة وأقامت غيرها، ثم فجرت أوهاما دفينية وخلقت معتقدات جديدة.

وهناك بعد هذا حقيقة أولية تفرض نفسها على الملاحظة بشأن موقع أكتوبر العالمى ووقعه الدولى، تلك هى أن تأثيرات ٦ أكتوبر فى كل المجالات السياسية وعلى كل

مستوياتها أكبر جدا من المعركة نفسها ومن حدود ميدانها المباشر. والواقع أننا نستطيع بسهولة أن نضعها قاعدة عامة أن المعركة أكبر في حجمها العسكرى نفسه من إنجازاتها الإقليمية أى الأرضية البحتة حتى الآن، وأكبر في نتائجها الاستراتيجية العامة والفكر العسكرى من حجمها العسكرى بدوره، ثم هى أخيرا أكبر وأكبر في نتائجها السياسية العالمية من نتائجها فى مجال الفكر الاستراتيجى العسكرى العام.

والى هذه المتتالية الدالة يمكن أيضا أن نضيف حقيقة لا تقل خطورة ومغزى، تلك هى أن أغرب ما فى المعركة أن نتائجها المستقبلية أكبر من نتائجها الحاضرة، وغير المباشرة أكبر من تلك المباشرة، كما أن نتائجها البعيدة المدى أكبر من نتائجها القصيرة المدى. ويمكن أن نعبر عن هذا كله بطريقة أخرى وفى عبارة مركزة فنقول إن نتائج ٦ أكتوبر هى «بالقوة» أكبر منها «بالفعل». إنها معلقة ومتعلقة بالمستقبل أكثر مما هى محققة فى الواقع، وأكبر وأخطر نتائج أكتوبر بلا جدال هى تلك التى لم تتحقق بعد.

والسؤال الذى يقترح نفسه، بل يطرح نفسه طرعا، عند هذه النقطة هو: لماذا كل هذه الأهمية غير العادية لمعركة أكتوبر؟ ما الذى يمنحها هذا الخطر والخطورة الفائقة وهذه الأبعاد العالمية؟ إنها معركة محدودة، بل نصف معركة هى، ونصف نصر بعد ذلك، ولكنها قلبت العالم كله قلبا، فلماذا؟ ليست المصادفة بالقطع «ولا التحيز بالطبع!»، وإنما هناك ثلاثة أسباب محسوسة جدا وأكثر من مقنعة: خطورة المنطقة نفسها، طبيعة الصراع الداخلى، امتداد الصراع الخارجى.

فتؤلا : خطورة المنطقة نفسها لا خلاف عليها، فهى «عاصمة العالم استراتيجيا» مرتين، مرة بموقعها الاستراتيجى الحاكم فى قلب العالم، ومرة لأنها «عاصمة العالم بتروليا» – والبتترول نفسه وبدوره أهم سلعة استراتيجية فى العالم. المنطقة إذن مركز ثقل مؤثر وحساس وقطب جانبيى شديد الإغراء لكل المصالح العالمية، من ثم فإن كل ما يحدث فيها تنتشر آثاره بعيدا كموجات الزلازل ويتردد صداه مضاعفا داويا كما لو خلال مكبر صوت.

ثانيا: طبيعة الصراع الداخلى «أو الداخلى، سيات» ليست مما يسمح بأنصاف الطول أو بأنصاف الأفعال وربود الأفعال. فهو صراع مصيرى وبقائى، صراع وجود لانزاع حدود، فإما أن يكون أحد الطرفين أو لا يكون، وهذا وحده يكفى لتفسير ضخامة

الترسانات المسلحة المحشودة فيها وتطور الأسلحة المستعملة بها بدرجة قد لا تملكها أو تعرفها حتى بعض الدول الكبرى، أو على الأقل بدرجة لا تتناسب مع الحجم البشرى ومستوى التنمية الراهنة للمنطقة، ولنا أن نلاحظ هنا كم يصبح من الخطورة أن تكون المنطقة، التى هى «بئر بترول» العالم، «برميل بارود» أيضا.

ثالثا: امتداد الصراع الخارجى يأتى نتيجة منطقية وحتمية للعاملين السابقين، ولكنه يضاعف آثارهما بمعدل الربح المركب، فبحكم طبيعة العصر، ينطوى كل صراع محلى اليوم على عنصر دولى. إلا أن الصراع العربى - الإسرائيلى هو الوحيد الذى يتقاطع فيه المستوى العالمى والمستوى المحلى بأكبر درجة من التشابك والتفاعل. وفى النتيجة فإن منطقتنا تنفرد بأنها منطقة التقاطع الحرج والتداخل الأقصى بين البعدين المحلى والدولى. من ثم فإن الصراع المحلى «يتلبس» إلى أقصى حد مع الصراع العالمى، وبالتالي يصبح هو نفسه بمثابة صراع «اختزالى catalyst يختزل كثيرا من صراعات العالم ومصالح القوى المخفية وراءها. بل نستطيع أن نقرر أن الصراع العربى - الإسرائيلى أصبح اختزالا موضعيا مكثفا للصراع العالمى جميعا، فكان بصفة خاصة استقطابا محليا للاستقطاب الثنائى فى الماضى وهو الآن استقطاب للوفاق الثنائى. ويؤدى هذا كله إلى أن المنطقة، وقد رأيناها عاصمة العالم استراتيجيا، تتحول هى نفسها إلى كشف جيوبوليتيكي re-agent، أى محك أو حجر مغناطيس عالمى - touchstone, load-stone، وتصبح بمثابة بارومتر الجيوبوليتيكا الكوكبية، ولم يكن غريبا بعد ذلك أن يتحول الإقليم الكشاف إلى منطقة اختبار واستكشاف لأسلحة الأقطاب العظمى مثلما هى منطقة ارتطام بينها.

لكل هذه الأسباب مجتمعة تبدو معركة الشرق الأوسط أكبر من حجمها الطبيعى، وتكاد تخرج عن أبعادها الذاتية، وبالتالي تأتى بنتائجها وآثارها عالمية إلى أبعد الحدود متجاوزة الدائرة الإقليمية أو المحلية بالتأكيد. وليس لنا أن ندهش، ولا لأحد أن يتهمنا بالمبالغة، حين نجد هذه النتائج والآثار تتخلل النسيج السياسى للعالم كله وتفرض نفسها على توازن القوى المعاصر برمته، وليس من قبيل الحماس أو الانفعال أن نعددها، كما سنرى، أخطر نقطة تحول فى عالمنا المعاصر وفى استراتيجية السياسة العالمية منذ الحرب الثانية.

ومن الناحية الأخرى، وقبل أن نذهب إلى أبعد من هذا المدى من السياق، قد يكون من الخير لنا والمفيد أن نسجل رنة تحفظ ولا نقول نبذة تحذير، فحتى لا نقع في خطأ «صيفة منتهى المبالغة» أو نتورط في مزالق «أفعل التفضيل»، ينبغي أن ندرك ونقرر بوضوح مرة أخرى أن كل نتائج أكتوبر التي أُلحنا إليها إجمالاً والتي سنفصل القول فيها تفصيلاً إن هي بعد إلا بدايات وإرهاصات فقط، لم تكتمل ولم تتحول إلى حقائق نهائية بالضرورة حتى الآن، ليس فقط لأن هذا يحتاج إلى فسحة كافية من الوقت، ولا كذلك لأن هناك مقاومة من الأطراف المعادية أو المعنية لفاعلية وأثار أكتوبر، بل ومحاولة حاقدة لحصرها وتضييعها وإهدارها واستنزافها، وإنما كذلك لأن أكتوبر نفسه ليس إلا بداية مهما كانت موفقة، ومجرد افتتاحية أيا كانت براعة الاستهلال فيها، إنه الخطوة الأولى الحاسمة في رحلة الألف ميل، ولكنه بالقطع ليس نهاية المطاف، إننا لم نملك المستقبل بعد، وهو عريض جداً، ولكننا ملكنا مفتاحه بالتأكيد وفتحنا باب الأمل على مصراعيه.

وإذا كان لهذا من درس أو مغزى، فهو أن علينا نحن أن نكافح من أجل أعمال آثار المعركة وتحقيق نتائجها كاملة، واجبنا أن نحارب من أجل أن يتحول الممكن والكامن إلى كائن وواقع. إن نتائج المعركة الكامنة معلقة ومشروطة ورهن بأن نستكمل نحن شوط الصراع إلى نهايته. وإذا كانت هناك معركة سياسية لتميع نتائجها أو إجهاضها، فإن علينا أن نشن معركة مضادة وأن نضرب والحديد ساخن لكي نجنى ثمار النصر كاملة. ويجب أن يكون مفهومنا جميعاً أن نتائج أكتوبر لن تحقق نفسها بنفسها أوتوماتيكياً ولن تقدم نفسها لنا تلقائياً وذاتياً. وليس دورنا بعد النصر دور المتفرجين أو المنتظرين سقوط الثمرة ناضجة، وليس لنا كذلك أن نبيع جلد الدب قبل أن نصيده، والمعركة السياسية بعد كل معركة حربية لا تقل خطورة أو خطراً ولا أهمية أو مشقة.

إن عظمة وجبروت النصر الذي أحرزناه، أيا كان عنصر النسبية فيه، شيء يجب أن نحرص عليه تماماً وعلى ترجمته إلى مكاسب سياسية وأرضية حقيقية مكافئة، ذلك لسبب بسيط، وهو أن هذا النصر بهذا البريق والوهج والبعث وعودة الروح والثورة القومية لن يتكرر بسهولة كل يوم، كما لن يستمر طويلاً إذا ترك ليتآكل مع الزمن ويفقد بريقه، فالزمن عامل خطير من عوامل التعرية، في السياسة كما في الطبيعة، إنها حقا لتكون

خطيئة مأساوية، إن علينا أن نمسك به، نصرنا، لا ندعه يفلت أو يتبدد، بل نعمقه، ونعمقه بأن نستكمّله، وإذا كان لنا أن نستقرئ كل المؤشرات والدلائل، خيرا من أن نستبق الحوادث، فإنها تكاد تصرخ أن هذه المعركة لن يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها: نصر محقق جديد.

ولعلنا الآن بحيث نستطيع أن نتقدم إلى دراسة آثار أكتوبر ونتأجه دراسة تحليلية منهجية أصولية مفصلة. من الممكن أن نقسم هذه الآثار والنتائج على أساس مزيج من التصنيف النوعي والإقليمي، فنبدأ بنتائج المعركة على العرب أولا، وفي القلب تأتي مصر ٦ أكتوبر وسوريا، ثم ننتقل إلى العدو المباشر لرصد صورة إسرائيل بعد المعركة، ثم نتوسع إلى محيط السياسة العالمية كبعد أخير، وهكذا تنقسم فصول هذا الباب إلى ثلاثة: العرب والسادس من أكتوبر، ٦ أكتوبر والعدو الإسرائيلي، العالم والمعركة.

الفصل السابع

العرب والسادس من أكتوبر

حين وصف بعضهم ٦ أكتوبر بأنه بعث أو ميلاد جديد للعرب، وحين ذهب آخرون إلى أنه أعظم وأمجد أيام العرب منذ قرن ونصف القرن على الأقل، أى نقطة الأوج والذروة فى تاريخهم الحديث جميعا، لم يكن ذلك من قبيل الحماسة أو المزايدة العاطفية ولا كان فيه من الرومانتيكية الجامحة أو المجنحة أكثر مما فيه من الموضوعية العلمية الصارمة، وإذا كان هناك من يرى فى ذلك «كثيرا من المبالغة، وقليلًا من الدقة العلمية»، وأن ٦ أكتوبر مرحلة مهمة من مراحل الصراع فقط، وتغيير كمى لا كيفى بعد، فإن الاختلاف فى النهاية نسبى، وخطر التقليل قد يكون أسهل ولكنه أسوأ من خطر التهويل، ويبقى ٦ أكتوبر تغييرا ضخما وجذريا بكل مقياس وعلى أى أساس.

ذلك لأنه بقدر ما يكون عمق السقطة السابقة يكون ارتفاع القفزة اللاحقة، ولا يستطيع أن يقدر معنى ومدى وحجم النصر العربى فى أكتوبر إلا من يستطيع أن يتخيل مدى الانهيار والسقوط ونوع المصير الذى كان يمكن أن ينتهى إليه العرب لو أنهم هزموا فيه فوق هزيمتهم فى يونيو وبعدها، ولو أننا فكرنا بهدوء وواقعية فيما كان يراد بنا ويخطط لنا على أيدي العدو وأطماعه وطموحاته، لتأكد لنا بلا أدنى شبهة أننا على الأقل وعلى الأسوأ قد نجونا من خطر ماحق كان يدبر لنا وكان يمكن فعلا لو تحقق أن يودى بنا، وعلى الأغلب والأرجح قد ضمنا مستقبلنا وأمنا مصيرنا إلى الأبد، وعلى الأكثر والأحسن سوف نحقق كل أهدافنا وأمالنا القومية العظمى كاملة يوما ما فى المستقبل القريب أو البعيد، أو كما يقول بهاء الدين مرة أخرى «هزيمة يونيو لم تجعلنا نركع» ولكن ظل «سيفها مسلطا فوق رؤوسنا، قريبا جدا من أعناقنا.. حرب أكتوبر كسرت هذا السيف المسلط، وحطمت القيد الذى كان يكبلنا»..

فليس سرا أن نكسة يونيو كانت قد أصابت الوجود العربى فى مقتل أكثر مما كانت جرحا داميا أو كسرا أليما.. وقدّر البعض مابين جيل إلى جيلين حتى تخرج العرب من

كارثتها العسكرية وتعيد بناء قواتها المسلحة. بينما ذهب ريمون أرون إلى أن العرب لن يفيقوا من هول ما حدث إلا بعد قرن كامل، ففي يونيو خسروا في ستة أيام سوداء ليس فقط ما كلفنا ستة أعوام حالكة كالحة من الانهيار والعار والتمزق ومهانة الهزيمة، كل يوم بسنة، ولا كذلك ما قيمته ستة آلاف مليون جنيه من السلاح وحده خسائر مباشرة ، أى كل يوم بألف مليون جنيه، هذا عدا ستة آلاف مليون أخرى خسائر مادية واقتصادية غير مباشرة، ولكنها أكثر منه جميعا شوهت ستة آلاف سنة عريقة من التاريخ المجيد، كل يوم بألف سنة.

ولم تكن بشاعة الهزيمة لتكمن في ذاتها فحسب، فالعرب قد عرفت وامتصت هزائم كثيرة في تاريخها المفعم، ولا كانت كذلك في حجمها، وقد كان مخيفا مهينا بصورة غير متصورة وإن لم تكن بالضرورة غير مسبوقة، وإنما كان هول الهزيمة في مصدرها ومعناها، فمن مثل عدونا الإسرائيلي المعقد القمى، بكل أحقاد و صفاره وسعاره، وأكثر منها وأخطر خططه وأوهامه المجنونة ونواياه المعلنة والمكتومة كاستعمار استيطاني إحلالي إبادة وأبدى، من مثل هذا العدو كانت الهزيمة إذلالا دمويا مشينا للماضى والحاضر برمته يسفحهما سفحا ونذير شؤم سوداوى للمستقبل يئده إلى الأبد.

معنى نكسة يونيو

من هناك جميعا لم يكن من المبالغة فى شىء أن تعد سنوات ما بعد يونيو السوداء بمثابة ردة فى تاريخ العرب الحديث إلى «العصور المظلمة». وفى الوقت الذى كان العالم يطفرفا نحو آفاق عصر جديد ونحو حضارة لم يسبق لها مثيل فى درجة التطور والتعقيد والإمكانيات، وحتى المتخلفون كانوا يلهثون للحاق بالعصر، بدا للبعض كما لو أن العرب وقد انزلقوا وحدهم فى حمأة هذه الرجعة التاريخية قد أمسوا وكأنهم أمة منقرضة لن تقوم لها قائمة، ميئوس منها، شاخت واستنفدت أغراضها ومبرر وجودها، وتلك فقط إنما علامات الزوال واللام الاحتضار. أما من ترفق منهم فقد قال : إن العرب قد توقف بهم التطور عند صلاح الدين أو على الأكثر عند محمد على..

ولم يكن ذلك صحيحا بالطبع، بل بالقطع، ولكن كان لابد من تحد عملى قاطع، ومن ثم جاء ٦ أكتوبر بمثابة بداية «عصر النهضة» العربى المحدث بعد تلك «العصور المظلمة» التى انتهت إليها النكسة، لقد رد هذا اليوم اعتبار العرب فى العالم، ونسخ كل النظريات

والنظرات الاستخفافىة والاستهزائية التى نسجت حولهم، وأعاد تأكيد وجودهم إنسانىا، كما أعاا إقاماة تارىخهم على قدمىه بعء أن كان قء انكفاً على وجهه ثم انقلب على رأسه. غىر أنه أكثر من ذلك أىضا ساعا على وضعهم فى مكانهم الحق والمستحق فى العالم كقوة كبرى كامنة أو قاءمة، لقء فءح باب الأمل كاملا أمامهم، لا لىلحقوا بالعصر فقط، بل لىسبقوه إن أرادوا، بءىء ىمكن لنا، رىما بقلىل من مبالغة ولكن بأكثر منه من الصءة، أن نعتبر السادس من اءءوبر بمءابة البءاءة المسبقة والطافرة للقرن الءااى والعشرىن فى تارىخهم الءضارى.

بل أكثر من قرن جءىء، كوكب جءىء، فلو أننا فقط نجءنا - وهذا شرط لازب - فى أن نستكمل المعركة والنصر بءىء نستخرج منهما كل نءائجهما المنطقىة ونعتصر ثمراتهما الطبىعىة كاملة، لكنا بمءابة من انءقل إلى كوكب جءىء الىس هذا - فى النهاءة - معنى ءءىثنا الشائع عن البءء عن مكان جءىء ءءء الشمس؟ أو لم نكن بعء ىونىو- كما رءءنا كءىرا - فى مفءرق طرق مصىرى وعنق زجاجة تارىخى، اما أن نفشل فننزلق إلى الخلف عشرات السنىن ءبىسى الزجاجة المغلقة واما أن نقتءم عنقها فنطفر منطلقىن إلى أوسع آفاق المستقبل واعرض امكانيات التطور، نءءرق ءاجز الءءلف، نءقق الوءءة ونءءل ءائرة القوة والسىاءة العالمىة، إلى آءره؟ ءسنا، لقء قرءت المعركة الاءءىار الاءىر.

الآءار العالمىة

ونستطىع الآن ان نءصر الآءار السلبىة لهزىمة ىونىو فى ءلاءة مءالات نءللها ءباعا: عالمىا، قومىا، ووطنىا. فءولا، على المستوى العالمى لم ىكن هناك أءنى شك ان العرب فقءوا كءىرا ءءا من وزنهم السىاسى ومن هبىءهم ومكانءهم ءءولىة، وانءقلوا فى معاءلة القوة العالمىة قرب ءءوم ءءء الخموء، وءءولوا على ءرىطة اسءرائىجىة السىاسة ءءولىة إلى منءقة ضغط منءفض، أى إلى «انءفاض ءىوبولىءىكى» أغرى ءىارات ضغط القوة من ءوله ومن بعىء بالءءفق لملء الءءلللء الناشئ، ولا نقول الفراء.

ءضاءء - علىنا من أسف أن نءءرف - قاماة العرب فى المءءمع ءءولى وءفت موازىنهم فى ءساب الصراءاء العالمىة، وىءا كما لو قء آءى على الانسان العربى ءىن من الءهر لم ىكن شىئا مءكورا. ءءى لقء طمع فىنا اءىانا الصغار قبل الكبار، القوى المءلىة

المجاورة قبل القوى العظمى النائية، بل لقد تكامل الاثنان فى مشروعات ومخططات مشتركة بزعامة القوة الأعظم المعادية وهى الولايات المتحدة. وكانت الاستراتيجية العظمى فى هذا هى الحصار والعزل فى الخارج، والضرب والتفتيت فى الداخل. فمن ناحية بدأت الولايات تعد لسقوط المنطقة كاملة فى قبضة نفوذها وفرض الوصاية عليها، بطرد القوة المكافئة والمضادة منها، وتصفية النظم الوطنية بها، ثم تقنين السيادة الاسرائيلية المباشرة عليها. ومن الناحية الأخرى أخذت تمهد بالسلاح والاقتصاد وبالاستراتيجية الاقليمية والاستراتيجية البحرية لخلق مناطق «أقطاب مضادة» للمنطقة العربية تقوم على ضلوعها مباشرة سواء فى آسيا أو فى افريقيا، «ترث» دورها القيادى فى الشرق الأوسط الكبير وتنتزع منها زعامتها فيه إلى الأبد، وذلك بزعم أنها أصبحت مجرد جسم مترهل متخلف مضروب وإن كان غنياً، وعاجز ثقيل الحركة بقدر ما هو ضخّم ومتراكم.

على المستوى القومى

هذا عالميا، أما قوميا فلم يكن شك أن اللطمة التى أصابت العرب عامة قد أساءت إساءة بالغة إلى مصر خاصة، باعتبارها عاصمة العرب استراتيجيا والقوة الوطنية الكبرى التى يقع عليها تاريخيا وجغرافيا وديموغرافيا وتكنولوجيا مسئولية الدفاع القومى فى الصف الأول والتحليل الأخير. ولما كان هذا العجز العارض قد جاء فى مرحلة، عرضية هى الأخرى، أخل فيها البترول بدرجة أو بأخرى بتوازنات القوة فيما بين الدول العربية نفسها، فقد استغل الاستعمار هذه الفرصة للطعن فى زعامة مصر والتشكيك فيها- محاولة انتزاعها أمر غير وارد أصلا لأنها، بترول أو لابترول، مستحيلة، ضد الطبيعة والجغرافيا والتاريخ والمستقبل.

وقد يمكن بصورة تقريبية نسبيا ولكنها مقربة للغاية ان نشبه موقف العرب فى العالم ومصر بين العرب بعد النكسة بموقف العالم السلافى وعلى رأسه الروسيا بعد حرب اليابان والحرب العالمية الأولى وقبل ثورة اكتوبر، حيث كانت اوربا تنظر إلى كل منهما كمارد ضخّم الجثة راقد على أطرافها وتخومها ولكنه عاجز لا يأخذه أحد بجدية. وهناك فروق عديدة وعميقة جدا بالطبع، ولكن المقصود فقط هو الموقف العسكرى وموازن القوة والهيبة بالنسبة للعالم الخارجى. فالعالم السلافى عائلة كبرى واحدة رغم الاختلافات

والخلافات ورغم التعدد السياسى، تجمعها الأصول الاثنولوجية إلى حد معين والقرابة اللغوية إلى حد آخر، ثم كان هناك الدين والكنيسة، وأخيرا نمط الحياة العامة وقالب الحضارة.. الخ.. وفى وسط هذه المجموعة المترامية الممتدة كانت روسيا بضخامتها وجرمها العملاق ومواردها تقف تقليديا وتاريخيا كحارسة السلافية وحاميتها العتيدة ولكن مع تضعضع روسيا القيصرية ثم هزيمتها على يد المانيا فى الحرب الأولى، بدت كحارسة عاجزة مضروبة ومحتلة مقتطعة أجزاء من اراضيها، لا تملك أن تحمى نفسها فضلا عن الأخوات الصغريات. إلى أن قامت الثورة، ثم إلى أن كانت الحرب العالمية الثانية حيث حققت إلى القمة دورها التاريخى فى تحريرهن وحمايتهن. بالمثل كان وضع العرب ومصر فى العالم بعد يونيو، بل ربما منذ ١٩٤٨ وسنرى بعد قليل كم يصل التشابه إلى منتهاه وكيف تعادل حرب أكتوبر فى أثرها عندنا ثورة أكتوبر عندهم.

وعدا هذا فلقد حمل أعداء القومية العربية على فكرة الوحدة العربية، التى لاشك اهتزت بعض الشئ فى قرارة النفس العربية، وان لم يصل الأمر قط إلى حد الشك فيها أو فقد الايمان بصحتها أو بحتميتها ولكن الاستعمار اهتلها سانحة للهجوم بالجملة على كل أعمدة العروبة والقومية والوحدة وذلك للاجهاز عليها مرة واحدة وإلى الأبد. فزعم، على سبيل المثال، أن العرب مجرد مجموعة غير متجانسة: لا جنسا ولا لغة ولا لونا ولا ديناً، إلى آخر تلك النظريات السقيمة الخاطئة التى دفع بها الأعداء بثا للبلبة والتخريب..

ولا مفر لنا من أن نعترف أن هذه الحرب النفسية نجحت نسبيا فى خلخلة التماسك العربى إلى حد ما، وبدا لوقت ما كما لو ان العرب قد خضعوا لحركة مركزية طاردة centrifugal وقعوا فى عين دوامتها الكاسحة، وأنهم يتصرفون كما لو كانوا أمة غير واحدة. بل بدا أحيانا - ولكن فقط على السطح وللمراقب السطحى - كما لو أن العرب ليسوا أصلا وأساسا «أمة واحدة» وأن القومية العربية لم تكن مجرد مثالية اسطورية فهى ليست أكثر من حقيقة تاريخية ولكنها بالتأكيد ليست حقيقة واقعة فعلا.. إلخ.

ووطننا

أخيرا، على المستوى الوطنى، غنى عن القول أن صدمة النكسة قد هزت الوجدان الوطنى حتى النخاع، وأحدثت مرارة الجرح كثيرا من التقلصات الحادة بل والتشنجات العنيفة فى الجسم السياسى، وحدثت فجوة تصديق وثقة ساحقة بين القاعدة والقيادة فى

كل بلد من البلاد العربية تقريباً. وعلى الجملة فقد انعكست كل تفاعلات الهزيمة على الوحدة الوطنية، وأصبحت مشكلة الوحدة الوطنية هي قضية الجبهة الداخلية الأولية والآنية.

ولحسن الحظ فإن الوطنيات العربية، بفضل رصيدها التاريخي الزاخر والهائل من التماسك والتجانس والوعي، تجاوزت الأزمة وسرعان ما التأمّت جراحها والتحمت صفوفها في وجه الخطر الخارجي، بل لقد اتخذت تلك الوطنيات من الوحدة الوطنية خط دفاعها الأخير الذي تخفّدت فيه تعيد ترتيب بيتها من الداخل وتستعد للتحدي، ومنه بالفعل قفزت قفزتها التحريرية الرائعة في اللحظة المقدورة.

وفضلاً عن هذا فلقد سجلت الوحدة الوطنية مكاسب ثورية وتقدمية محققة صنعتها في ظلّ النكسة وبرغمها بل وكرد فعل متحد ومصل مضاد لها. فكانت الثورة في السودان ثم في ليبيا، وكذلك في اليمن الجنوبية ثم في العراق... إلخ وكان هذا كله اعلاناً بنذ الهزيمة ورفض نتائجها وعلامات على طريق الصمود حتى فجر النصر.

بعث أكتوبر

الآن يأتي ٦ أكتوبر لينسج هذه الصورة كلها، بل وليقلب التوازنات والاضاع جميعاً رأساً على عقب. وكما قال الجنرال بوفر «ان النجاح العظيم الذي حققه العرب في هجومهم يوم ٦ أكتوبر يكمن في أنهم حققوا تأثيراً سيكولوجياً هائلاً في معسكر الخصم وفي المجال العالمي الفسيح ويبقى عليهم بعد ذلك أن يفكروا في نتائج هذا التأثير على العالم ليحصلوا على مناصرتهم وتأييده» انه أول انتصار عسكري حقيقي يحرزه العرب في العصر الحديث. أو كما قالت المجاهد الجزائرية «ان الأمة العربية كلها تحس اليوم بفخر عظيم وشكر عميق لجيوش مصر وسوريا التي حققت للعرب أول انتصار لا رجوع فيه. ومهما تكن النتائج النهائية للمعركة، فلسوف تبقى حقيقة أنها أنهت مهانة ١٩٦٧، وجددت الكرامة العربية».

انه - لابد لنا أن ندرك جيداً وأن نقرر منذ البداية - نهاية عصر كامل وبداية عصر جديد تماماً، وطنياً وقومياً وعالمياً. اننا نعتبر السادس من أكتوبر خط التقسيم التاريخي بين مرحلتين أساسيتين ومتناقضتين كل التناقض في تاريخ الصراع العربي - الاسرائيلي ما كان منه وما سيكون: مرحلة الجزر العربي حيث كان المنحنى في نزول مستمر للأسف

بالنسبة لنا ولصالح العدو باطراد، ومرحلة المد العربى حيث غير التطور مساره بزاوية حادة صاعداً إلى أعلى لصالحنا وعلى حساب العدو ووجوده الطفيلى البغيض.

ليس انفعالا غير منضبط اذن أو تهويلا غير مسئول، ولا هو من السابق لأوانه كذلك، أن نقول ان ٦ أكتوبر يتجاوز فى معناه التحريرى والتاريخى ومفراه النضالى كل ابعاده الراهنة المباشرة، الميدانية منها والدبلوماسية، العسكرية أو السياسية، أو غير ذلك. انما السادس من أكتوبر هو - بلغة الرسم البيانى - نقطة الانعكاس العنيفة والحاسمة point of inflection فى ذلك الخط الخطأ والاتجاه النازل أبدا الذى اتخذته منحنى الصراع منذ بدأ فى ١٩٤٨ وحتى الأمس القريب والى أن ينتهى بالتحرير الشامل والاسترداد النهائى للأراضى المحتلة والسليبة والمقدسة على السواء ومن هنا يشبهه البعض بحق بمعركة حطين بالنسبة للصليبيات ، لم تكن النهاية ولكن بداية النهاية، لم تكن التصفية نفسها ولكنها كانت نقطة الانكسار ومنعطف التحول اليها. ومن ثم فمعركة أكتوبر هى حطين الصهيونيات. وآخرون يقولون معركة ذى قار فى التاريخ العربى.

إن السادس من أكتوبر - نحن نجادل - انما هو فى واقع الأمر الخط الأول فى خريطة سياسية جديدة تماما للشرق الأوسط والوطن العربى الكبير، والخطوة الافتتاحية من خطة مستقبلية كاملة عنوانها التصفية والاسترداد والعودة، وتصفية الاغتصاب، استرداد فريوس العرب المفقود ، وعودة فلسطين، والشعب إلى الوطن والوطن إلى الشعب. ان تاريخا جديدا تماما، تاريخا يكرأ واعدا مبشرا واثقا إلى أقصى حد، قد كتب ويكتب حتى الآن بالدماء على الرمال، وان مستقبلا جديدا ليصنع الآن صنعا بقوة السلاح وبسلاح القوة على أرض سيناء والجولان ليفرض نفسه فرضا على «أرض اسرائيل» المزعومة..

فاذا بدا للبعض فى هذا قليل أو كثير من التجاوز أو التفاؤل، فلنسمع معا ما يقوله الآخرون. يقول الكاتب الأمريكى انوارد شيهان عن أكتوبر «ان هذه الحرب لم تقيم من حيث ما حققته من نتائج عسكرية، بل من حيث انها نقطة تحول تبشر بنهاية عصر التدهور العربى الذى دام أكثر من خمسة قرون». ثم يضيف أن «هذه الحرب سوف تحتل مكانة فى التاريخ العربى المعاصر، بل ربما التاريخ العربى بأكمله. فلقد تكون لها من الوجهة السياسية والمعنوية أهمية تضارع الفتوح العربية الأموية فى العصور الوسطى

وهزيمة الصليبيين ومولد القومية العربية والوطنية المصرية واسترداد قناة السويس». أو فلنقرأ ما كتبته النيوزويك فى دراسة علمية وضعها أخصائيون لا يمكن ان يتهموا بالانحياز إلى العرب: «لدى العرب الآن مشروعات تعميرية طموحة، اذا تحولت إلى واقع فقد يكون العرب بالفعل على مشارف عصر نهضة حقيقية». أو ما كتبته الديلى تلجراف: «لقد غيرت الساعات الست الأولى من يوم ٦ أكتوبر مجرى التاريخ بالنسبة لمصر وبالنسبة للشرق الأوسط كله». أو اخيرا كما قال كريستوفر ميهيو فى شهادة مقتضبة ولكنها جامعة «لقد غيرت حرب أكتوبر مجرى التاريخ العربى الحديث».

فاذا ما عدنا لنقترب من دقائق الموقف المعاصر وتفاصيله الحية، فماذا بالضبط فعلت المعركة؟ أولا وقبل كل شئ لقد مزقت حرب أكتوبر ونصر العرب شبكة العلاقات والتوازنات القديمة والقائمة فى العالم من حولنا، بكل معطياتها وفرضياتها وقيودها ونذرنا، وبدأ نسيج جديد تماما يتخلق بدلا منها. وفى كلمة اختزالية واحدة، يمكن أن نلخص التغيير الجذرى كله فى أننا (ومعنا أصدقاءنا وأنصارنا) قد تبادلنا المواقع والمواقف مع العدو الاسرائيلى (وخلفه معسكره والمتواطئون معه) وطنيا كان أو قوميا أو عالميا.

وطنيا

فوطنيا، اذا كان لنا أن نبدأ بالدائرة الأصغر ومن البسيط إلى المركب، فجرت شرارة المعركة تيار الوطنية العارمة، صحيا قويا وغلابا. فكان نداء المعركة هو نداء الدم، وكان نداء الدم نداء الوحدة. وفى لحظة تاريخية فذة تحول الجسم السياسى فى كل قطر عربى إلى كتلة واحدة صلبة متماسكة كالبنيان المرصوص، ليس بها من الثقوب أو الثغرات الا ما اصابها من رصاص الميدان، وغير منفذة لرصاص الدعاية العدوة أكثر مما يعد الرصاص منفذا للماء.

نعم، لقد تلاحمت خيوط الوحدة الوطنية، القاعدة والقيادة، الشعب والجيش، الجبهة الداخلية والميدانية، كما لم يحدث قط من قبل فى تاريخ الصراع. فلا شئ فى الدنيا - هكذا اثبتت المعركة - كالحرب يستثير الوحدة الوطنية، ولا شئ بعدها كالنصر العسكرى يدعم ويقوى هذه الوحدة. نعم، ان الحرب هى النار التى تصهر الوحدة الوطنية، والنصر هو «الأسمنت» الذى يلحمها بعد ذلك، أما السبيكة التى صبت وصقلت فخرجت من المطهر

صافية نقية من كل الشوائب فهي الشعب بكل أصالته ، والكل هو في النهاية البوتقة العظمى المقدسة التي نسميها الوطن.

قوميا

بالمثل قوميا . لم تكذ الطلقة الأولى في المعركة تدوى حتى انطلقت الأمة العربية بأسرها في مد قومي طاغ، أذهل حتى العرب أنفسهم، حتى أشدهم تفاؤلا، فضلا عن الأصدقاء، ودعك تماما من الأعداء، هؤلاء الذين لم يشكوا قط ولا اخطأوا الحسابات في أن قوة العرب في وحدتهم وضعفهم في تفككهم ، وأن قوتهم هم أنفسهم في ضعف العرب وتفككهم فقط ولا قوة ولا مكان لهم ان اتحد العرب. راجع مثلا قول دايان «ان تناقضات الدول العربية سياج أمن يحمي اسرائيل».

وحتى بشهادة الآخرين، فان «انتصار مصر الحاسم في حرب أكتوبر»، كما تقول صحيفة لاسويس، «عزل اسرائيل نوليا، في حين حقق للعرب تضامنا واتحادا بالفعل والعمل، وليس بالأقوال كما كان يتصور البعض خطأ». ومن قبل كتبت النيوزويك أن «حرب أكتوبر جاءت بفجائية لا يعادلها سوى الأداء العسكري العربي الممتاز، ووجد ١٠٠ مليون عربي أنفسهم وجها لوجه أمام حقيقة عزيزة عليهم هي الوحدة. وأيا كان، فلقد كان السبب الرئيسي لهذه الوحدة العربية هو يقينا وقبل كل شئ ذلك النجاح العربي الذي تحقق لهم في ميدان القتال ثم في فرض الحظر على امدادات البترول».

لقد جاءت المعركة أعظم بوتقة وأدق كشاف لحقيقة العروبة وجوهرها الأصيل، فبرزت القومية العربية حقيقة واقعة ملء السمع والبصر والوجدان - والميدان أيضا. فلقد ألهمت المعركة خيال العروبة وفجرت كل طاقتها الكامنة وجسمتها قوة محاربة فدائية واحدة. فتنادت كل الدول العربية إلى ساحة المعركة منذ اللحظة الأولى، وألقت كل منها بكل مواردها وامكانياتها وثقلها في الميدان، رجالا وسلاحا، مالا وبترولاً. تلاشت كل الحساسيات والحسابات القديمة، وانفكت العقد الوهمية والتحفظات، تقاربت كل الأنظمة والمذاهب، ذابت دول المساندة في دول المجابهة، وانصب المغرب في المشرق. (راجع في هذا، على سبيل المثال فقط، ما قالته النيوزويك من انهم الآن في لبنان يقولون انهم عرب، بينما كانوا قبل ٦ أكتوبر يتحدثون عن الفينيقية..).

وبهذا أيضا توسعت حركة التحرير الوطنى مع معركة التحرير الوطنى جغرافيا ونضاليا وفكريا لتتحول من مجرد أزمة الشرق الأوسط «اللفاتية» إلى قضية العربية بأسرها من المحيط إلى الخليج. وفى هذا الإطار برزت ليبيا وهى عمق استراتيجى فعال ومثمر جدا لمصر، بالسلاح والمال والبتروكوقود، وكطريق وكميناء بديل أمين.. الخ، مثلما برز العراق عمقا استراتيجيا ضخما ومساندا مقتدرا لسوريا، ليس فقط بتأمين ظهرها وظهيرها وفتح طريقها ولكن أولا وقبل كل شئ بسلاحه ورجاله. وكما قدمت السعودية مشاركة بترولية ومادية ومعنوية عظيمة باذلة وبإذخة، سياسيا وماليا بل وسلاحا وجنودا، قامت الجزائر الثائرة بدور قيل أكثر من رائع عسكريا وسياسيا واقتصاديا. كذلك فعلت بقية دول المغرب ومن قبلها الكويت ودولة الامارات العربية وسائر دول الخليج. بالمثل قدمت اليمن الشعبية والشمالية معاونة استراتيجية قيمة فى حصار باب المندب بحريا ومن الناحية المادية البحتة، على سبيل المثال فقط، اذا كانت دولتا المواجهة قد صببتا فى المعركة ما لا يقل بحال عن العشرة آلاف مليون جنيه وذلك عبر سنوات الاعداد لها، فقد شاركت دول المساندة بنصيب كبير فى دعمها قدرته بعض المصادر الخارجية بنحو الثلاثة بلايين دولار، فضلا عن بليون رابعة بعد ذلك.

لقد اندغم الجميع فى جبهة حرب واحدة طولها القومية وعرضها الوحدة، وتحققت جماعية القيادة، وبدا قادة العرب كما لو كانوا «فرسان المائدة المستديرة». ويعد ان كنا نعيش (أو نعانى) معركة القومية، عايشنا قومية المعركة. فى الجبهة السورية كانت القوات العراقية والمغربية والسعودية ثم الأرمنية تحارب مع الجيوش السورية المستبسة والقوات الفلسطينية الفدائية وعلى الجبهة المصرية شارك السلاح الجزائرى واللىبى فضلا عن قوات رمزية من السودان والكويت والمغرب.. الخ حتى بعض الدول العربية وزعت قواتها الرمزية على كلتا الجبهتين. انها وحدة الدم تختلط بوحدة التراب على خط النار.

وخارج جبهة القتال وإلى جانبها، فتحت جبهة البترول، فبدأت دول البترول العربية حربا حقيقية، حرب البترول. بإرادة ذاتية وبون ضغوط من الأشقاء بدأتها، فكانت عوننا لنا وعوانا على الاعداء وانصاف الاعداء وأرباع الأصدقاء من أدعياء الحياض واللامباليين أو المتعاطفين مع العدو سرا، السنتهم مع العرب واسلحتهم مع العدو. ومازالت المعركة مستمرة وهى اذا كانت تحتاج وحدها إلى وقفه خاصة مفصلة، فان ما

يعنيها منها هنا هو مفزاها القومي الكبير العام: ما معناها؟ ومعنى وحدة العمل العربي؟ علام يدل هذا كله، وإلى أين يؤدي؟.

بغير مقدمات مطولة، هناك ثلاثة معان. أولا أن القومية العربية حقيقة واقعة، ارتفعت إلى مستوى المعركة مثلما ردت هذه لها اعتبارها لقد أعادت المعركة خلق العالم العربي، وخلقت منه «عالمًا جديدًا شجاعًا». الحرب أثبتت وحدة العرب، وحققت العرب وحدة الحرب. وهي وحدة عسكرية وسياسية، وأيضا اقتصادية وإعلامية، أي وحدة واقعية تتجاوز كل مشاكل الوحدة الدستورية ولكنها تكاد تتجاوزها عمليا في التنسيق والتضامن والتنظيم. وعلى هذا الأساس تقدم التفاعل العربي في ظل المعركة، كما لوحظ، من وفاق عربي إلى تضامن عربي إلى وحدة عربية ومن بين الكل خرجت «القوة الذاتية» العربية وهي القاعدة الأساسية والأصولية في المعركة والصراع جميعا.

ولقد تجلى هذا - بالمناسبة- ابلغ ما تجلى في مؤتمر القمة بالجزائر أول مؤتمر عربي منتصر منذ بدأت مؤتمرات القمة، وأول مؤتمر ناجح لا فاشل، وهجومى لا دفاعى. كذلك بدا الوطن الكبير أثناء المعركة وبعدها، ولكن أساسا من خلالها، بدا أشبه «بكومونولث عربي» تلقائي، وربما قال البعض «اتحادا كونفيديراليا» بون الاسم والشكل. ولا ينفي هذا بطبيعة الحال وجود بعض صعوبات واختلافات، إلا أنها ثانوية وعارضة وضعتها المعركة على الرف مؤجلة أو مجمدة ولا شك كذلك أنها ظاهرة ذات دلالة مهمة أن جامعة الدول العربية قد بدأت مؤخرا في مراجعة نظامها الأساسي والتفكير جديا في تعديل وتطوير كيانها إلى مستوى أعلى يتلاءم مع التطورات الضخمة التي أحدثتها المعركة في الصف العربي .

المعنى الثاني للموقف العربي أن البترول أثبت نفسه سلاحا سياسيا من الدرجة الأولى وسلاحا قوميا في الدرجة الأولى: لقد نجحت المعركة نهائيا في «تسييس» البترول بعد أن كان ذلك أملا بعيدا بل مستبعدا جدا في نظر البعض . وقد تحقق هذا بفضل جهود دائبة وصامته في مجال العلاقات الثنائية. وبطبيعة الحال فلقد كانت هنا أيضا صعوبات ومشاق في التخطيط والتنسيق والتنفيذ، ولكنها كلها توارت خلف الدفع القومي الباهر. ومن الواضح أن سلاح البترول لم يكن ليسبق منطقيا وعمليا السلاح العسكري، بل كان

لابد للأخير أن ينطلق ويعمل قبل ان يشرع الأول ليعمل على الفور. لقد كان توزيع الأنوار رهنا أيضا بحسن ترتيبها. وهكذا بالفعل كان.

ويبقى أخيرا معنى ثالث لا يقل دلالة وخطرا. لقد مارست مصر دورها الطبيعي والطليعى فى قيادة الصراع وإدارته بالعمل الهادئ الفاعل وبتنكار الذات بون ادعاء فظ غليظ منفر. فمصر، التى قدمت نحو ١٠٠ ألف شهيد وانفقت نحو ١٥ ألف مليون جنيه على مدى ٢٥ سنة منذ بدأ الصراع العربى - الاسرائيلى، حشدت لمعركة أكتوبر وحدها ١.١ مليون جندى تحت السلاح لمواجهة كل الاحتمالات وهذا بالتأكيد أضخم حشد عسكرى محلى عرفته منطقة الشرق الأوسط فى تاريخها الحديث وربما القديم وبهذا العطاء الذى لا حد له، ارتفعت إلى مسئوليتها التاريخية كقلعة العروبة، واضعة قدرها على كتفها وقلبها على يدها، فالتف العرب حولها مبايعين مزكين، واستعادت هى حجمها الطبيعى بينهم - ثلث العرب- واستردت مكانتها التى امتازت حينها بالهزيمة، وفى الوقت نفسه وفرت لكل منهم نورا مشرفا وبناء. لقد كانت معركة أكتوبر بالنسبة لمصر بين العرب كثورة أكتوبر بالنسبة للاتحاد السوفيتى بين السلاف، وخرجت منها وهى «كروسيا العرب» لا «كبروسيا العرب» كما كان الاستعمار يزعم ويردد تمزيقا وتآليا ومن الناحية الأخرى اثبتت مصر ٦ أكتوبر ان الزعامة السياسية الحصيفة الرشيدة انما هى فن توزيع الأنوار، لا احتكار الأنوار، هى اولوية بين أكفاء primus inter pares، وليست منافسة فجأة على الصدارة الشكلية الجوفاء.

عالميا

إذا انتقلنا أخيرا إلى المستوى العالمى ، فماذا فعل ٦ أكتوبر بالعرب وللعرب؟ أول شئ ان الحرب كشفت عن مفاجأة مذهلة: نحن أقوى مما كنا نظن، ومما كان اعداؤنا يتصورون، بل وكذلك أصدقائنا! فى ساعات انهارت كل الأفكار المسبقة المهينة والنظريات المشبوهة الموضوعية (وغير الموضوعية) لتشويه وتحطيم العالم العربى سياسيا ومعنويا ونفسيا ودعائيا. ثم فى ايام فقط كانت الصورة كلها قد انقلبت بطننا لظهر. ونستطيع هنا أن نقسم دراستنا إلى عنصرين: الانسان العربى والسياسة العربية، أو المقاتل العربى والدولة العربية.

الانسان العربى المقاتل

فقد كان أول ما أثبتته المعركة أن الانسان العربى مقاتل، مقاتل ممتاز، شعب محارب قادر على قبول التحدى وعلى تحدى العصر، وفى الوقت نفسه نسفت كل دعايات العدو المفرضة عن «الشعب غير المحارب» و«الجندى الذى لا يجيد إلا الفرار عند اول مواجهة» و«الانسان غير القابل للتعليم وغير القادر على استيعاب فنون الحرب الحديثة».. الخ لقد اعادت المعركة ثقة الانسان العربى فى نفسه كمحارب، واعادت تقدير العالم واحترامه له عسكريا، كما اعادت بعث العسكرية العربية فى أشرف صورها وأكثرها اشراقا. وفى هذا قالت التايمز «ان العرب حققوا الانتصار، وبرهنوا على قواتهم تستطيع أن تقاتل وأن تستخدم الأسلحة المعقدة بنجاح كبير، كما أن القادة العرب اثبتوا انهم يقوبون ببراعة».

بل وكما اعترف عالم نفس اسرائيلى «لم تعبر العرب السويس فقط، بل انهم حاربوا جيدا أيضا ولم يفرؤا وقد بدؤوا الادعاء الاسرائيلى بأنه لا يمكن لأى قدر من العلم أن يحسن قتال العرب. لقد تذكر العالم فجأة، كما قالت صحيفة غربية، أن العرب فتحوا أوروبا من قبل وغزوا العالم وأسسوا امبراطوريات وهزموا الأتراك وهددوا الاستانة..!

ومن زاوية القدرة التكنولوجية، لدينا أكثر من شهادة من محايدين وغير محايدين. فقد كتب درو ميدلتون «لقد اكدت عملية العبور المصرية للقناة أن تلك القوات قد تطورت تكنولوجيا منذ ١٩٦٧. واثبتت تلك العملية أن المصريين قادرون على الابقاء على السر، وان فى وسعهم بعد ما حققوا من مفاجأة وبنجاح أن يتصرفوا فى انضباط». كما أضاف أن «جميع التقارير التى وصلت إلى مصادر غربية تشير إلى أن الجيوش العربية تقاتل بعناد وحماسة. وكانت القيادة على مستوى الكتائب والأسراب من مستوى مرتفع، كما كانت القيادة العامة تتسم بالفطنة والحكمة».

هذا بينما قالت الأوبزيرفر «منذ عام أو عامين كانت اسرائيل تبدو متقدمة فى سباق التكنولوجيا العسكرية. وقد تنبه المصريون فيما يبدو - خلال حرب الاستنزاف عام ١٩٦٩ - إلى أهمية النور الذى تلعبه التكنولوجيا فى القتال.. ويبدو الآن، وبعد معارك أكتوبر ١٩٧٣، أن مصر قد لحقت باسرائيل وسبققتها تكنولوجيا فى ميدان الصواريخ والالكترونيات».

وبصيفة حاسمة أيضا قالت الجارديان «لقد برهن الجيشان المصرى والسورى على انهما أفضل تدريباً وأحسن تشكيلاً واستعداداً وأشدّ جُلداً وأفضل عتاداً».

أما النيوزويك فقد كتبت فى نهاية الحرب قائلة ان الروح القتالية العالية والأسلحة الحديثة التى لدى الجيش المصرى كانت وراء الخسائر العالية فى الأرواح التى يصعب على اسرائيل تحملها، فضلاً عن أنها «افقدتها توازنها». ثم اضافت ان الشراسة العربية فى القتال لم تقدر حق قدرها منذ بداية الحرب، كما ان وجود عدد كبير من الكفاءات العربية وراء خطوط القتال جعل من المستحيل أن يتعرض العرب لنقص فى الرجال. «وحتى ثقة الاسرائيليين فى أن لديهم تفوقاً تكنولوجياً واضحاً على العرب فى مجال السلاح قد سقطت «مثل الطائرات» بفعل النجاح العربى الملحوظ فى استخدام الأسلحة المضادة للطائرات والدبابات».

حتى العدو نفسه اعترف. مثلاً أرى يعرى، عضو المابام الاسرائيلى، قال ان حرب اكتوبر بمدتها ومعاركها وعدد ضحاياها قد اثبتت مدى التقدم الكبير الذى احرزته القوات العربية وقدرة مقاتليها على استخدام الأسلحة الحديثة المتطورة والمعقدة.

وهذا بينما كتبت معاريف فى حقد ولوعة «لقد سبقت السلحفاة العربية الأرنب الصهيونى». حتى قادة العدو لم يملكوا الا ان يعترفوا:

«كان الجندى المصرى يتقدم فى موجات بعد موجات، وكنا نطلق عليه النار وهو يتقدم، نحيل ما حوله إلى جحيم ويظل يتقدم، وكان لون القناة مخضباً بلون الدم ومع ذلك ظل يتقدم» - هكذا تكلم جونين مهندس الهزيمة المباشر. اما من خلف الخطوط فقد جاء صوت الجنرال أوزى ناركيس المشهور بتعليقاته العسكرية ليسلم بأن «لا مفر من ان نشهد لجهاز التخطيط المصرى بالبراعة. لقد كانت خططهم دقيقة، وتنفيذها أكثر دقة ولقد حاولنا جهدنا إعاقة عملية العبور وردّها بالقوة على أعقابها، غير اننا ما كدنا نتمثل ما حدث الا وكانت نتائجه قد تحققت لهم، كأنما أغمضنا أعيننا وفتحناها فاذا هم قد انتقلوا تحت النار من غرب القناة إلى شرقها، وفاجأونا صباح ٧ أكتوبر بخمس فرق كاملة أمامنا على الضفة الشرقية من القناة». وأخيراً هناك اعتراف آلون : «ليس هناك وجه للمقارنة بين المعارك التى خاضها المصريون فى أكتوبر والمعارك التى خاضوها من قبل، حيث كان واضحاً حرصهم على عدم تكرار الأخطاء السابقة إلى حد أن كلمة «الانسحاب» اختفت تماماً من القاموس المصرى».

أما من المحايدين فإن الجنرال بوفر يلخص لنا الموقف كله فى جملة مركزة ولكنها جامعة: «لقد دخل العرب مدرسة الحرب الحديثة، وبنجاح». وفى مناسبة أخرى نراه يقول، فى شهادة واقعية بعد زيارة لميدان المعركة وما رآه حوله، أن العرب قد حاربوا «بأكفأ مستوى يعرفه العصر». والواقع أن تجربة المعركة أثبتت أن التفوق الكمى العربى أخذ فى التحول تدريجيا إلى تفوق كیفى أيضا، وأن التفوقين، هذا وذاك، هما بسبيلهما إلى الانتقال نهائيا إلى العرب. أو كما قال ديفيد اليعازر «لقد فوجئ الجيش الإسرائيلى بأن الكم المصرى قد تحول إلى كيف». وفى هذا أيضا كتب أرى يعرى يقول إن التقدم العربى فى الكيف يضاف إلى المزايا الهائلة التى يتمتع بها العرب من حيث الكم، ثم ينتهى إلى أن هذا يدعو إلى تغيير النظرية القائلة بأن إسرائيل يمكنها بتفوقها فى الكيف أن تضرب العرب فى كل جولة جديدة.

وأخيرا يصل بنا أحد المعلقين العسكريين البارزين فى الغرب إلى قمة الشهادة، وكذلك منتهى النبوءة، فيقول «إن الطريقة التى خارب بها الجندى العربى فى ١٩٧٣ ضربت التفوق الإسرائيلى المطلق، وتلك كانت واحدة من كبرى حقائق الجولة الرابعة بين العرب وإسرائيل. وهى على هذا الأساس نذير شؤم لإسرائيل فى الجولة الخامسة، ونذير كارثة فى السادسة، وقد تكون نهاية كل شىء فى السابعة».

والخلاصة التى يمكن أن نخرج بها من كل هذه الشهادات والمؤشرات هى أن المعركة قد أثبتت، أول وآخر وأخطر ما أثبتت، الروح القتالية العالية المندفعة والكامنة فى الجندى العربى، وأكدت فدائية المقاتل العربى واستبساله وإقدامه بلا تردد، لا ينكص ولا يتراجع عن تحقيق هدفه مهما كان السلاح الذى يواجهه. ليس هذا فحسب، إذ أثبتت المعركة أيضا قدرة المقاتل العربى على استيعاب أعقد الأسلحة الحديثة والمتطورة والسيطرة عليها بكل كفاءة واقتدار وتطوير التكنولوجيا وتكييفها والتكيف معها والتعامل بها على كل المستويات، كذلك الأمر مع فنون القتال، التخطيط، التنفيذ، المناورة والحركة... إلخ. فعلى سبيل المثال، أثبتت المعركة خطأ الاتهام الذى روجه العدو عنا من أن العرب لا يجيدون القتال إلا من المواقع الثابتة، فأكدت للعالم تقدمهم بنجاح تام من القتال الثابت إلى القتال المتحرك. كذلك أثبتت قدرة الدبابات المصرية والسورية المتفوقة على القتال الليلى، على

عكس الجولات السابقة، وبالمثل سلاح المشاة المصرى، بينما لم يشترك مشاة إسرائيل فى أى قتال ليلى تقريبا رغم تدريبهم عليه.

وفى هذا كله وغيره نسخت الحرب ونسفت إلى الأبد كل الأساطير والدعايات الشوها، الظالم والكاذبة، التى ركز العدو عليها كل جهوده وأبواقه لإلصاقها بالمقاتل العربى ونوعيته، أولا لتثبيتها فى نفسيته هو ثم ثانيا لترسيخها فى عقلية العالم. (أو كما عبر كاتب أوربى كبير بقلق أكبر «إن ما هو خطير فى تدمير خط بارليف وحصون الجولان ليس تحرير جزء من التراب العربى المحتل، وإنما هو فى تدمير صورة ثابتة عن الإنسان العربى كانت رائجة عندنا»!) فتلك الأساطير والأكاذيب، التى خرجها العدو من تجارب الماضى ودلل عليها بها، لم تكن تقوم على أى أساس من الحقيقة أو الواقع كما يدرك هو فى قرارة نفسه. فكل تجارب الماضى لم تكن اختبارا لقدرة وطبيعة المقاتل العربى كفرد أو كمجموعة بقدر ما كانت سجلا لأخطاء القيادات المهزوزة غير الناضجة أو غير المؤهلة.

فمن الثابت المقرر، كما عبر أحد كبار العسكريين المصريين أثناء أكتوبر، أن «حرب ١٩٤٨ كان فيها فقط بعض المواجهة، وحرب ١٩٥٦ قليل من المواجهة، وحرب ١٩٦٧ لا مواجهة تقريبا». الحرب الرابعة، وحدها، كانت أول اختبار حقيقى ميدانى حاسم لنوعية المقاتل المصرى والسورى كجندى محارب، وفى هذا الاختبار الأول، بقدر ماتحطمت خرافة العسكرية الإسرائيلية وانكشفت حقيقة المقاتل الصهيونى، بقدر ما أثبت هو نفسه ووجوده وتفوقه بلا حدود، أو كما قال معلق عسكري غربى، استرد اعتباره وشرفه العسكرى، وهذا تطور بالغ الخطورة والدلالة، له ما بعده فى المستقبل، مستقبل الشرق الأوسط كله.

حتى العدو نفسه تغيرت نظرتة إلى الإنسان العربى والمقاتل العربى، واعترف. أو كما ذكر تيرنس سميث «أصبح الإسرائيليون من الجندى الذى يقف على خط النار إلى الوزير فى الحكومة ينظرون إلى العرب نظرة مختلفة بعد حرب أكتوبر». أو كما كتب أريك رولو، إن الإسرائيليين ما عابوا يستخدمون التعبير العبرى الشائع «أرافيت زى أرافيت» «أى العربى لا يعدو أن يكون عربيا!» والذى يمثل قمة التهوين من شأن العرب بل والتحقير لهم، وأصبحوا الآن يقولون «لقد أجبرنا العرب بالقوة على احترامهم!» إننا نعرف الآن أن فى

استطاعتهم أن يكونوا على القدر نفسه من الشجاعة، وأن فى إمكانهم استيعاب الفنون العسكرية الحديثة».

بل الواقع أن من أطرف نتائج أكتوبر وأكثرها مدعاة للتفكير أن العدو نفسه لم يعترف فقط بكفاءة وندية المحارب العربى فى تلك الحرب، ولكن أيضا «بأثر رجعى» عام على حروب الماضى! لقد «أعاد اكتشاف» حقيقة معدن المقاتل والإنسان العربى - فقط متأخرا ربع قرن! انظر مثلا ما كتبه الجنرال متتياهو بيليد فى معاريف: «من الواضح حتى الآن أن الجندى المصرى يظهر روحا قتالية قوية، ولم يفقد إرادته على مواصلة القتال، إننا نعرف هذه الظاهرة جيدا، منذ حرب ١٩٤٨، وخلال حرب سيناء كذلك فى ١٩٥٦، لم تكن قليلة الحالات التى حارب فيها الجندى المصرى حربا عنيدة، فى المعارك الدفاعية وفى جميع الحالات كان المصرى موجودا فى تجهيزات محمية يعرفها، ولم يفاجأ بالهجوم عليه، وإذا لم يحدث انهيار فى الجيش، ولم تتولد ظروف جديدة لا يلم بها إلاما تاما، فإنه سيستمر فى تنفيذ مهمته بإخلاص، وهذا ما يحدث الآن فى جبهة القناة».

أو أنظر إلى ماكتبه المدعو تيدى برديس فى دافار: إن الثغرة بين التوقعات والواقع الذى نشأ هذه المرة تكمن فى الحقيقة التى نسيناها، وهى أن العربى لم يكن خلال الأعوام الخمسة والعشرين الماضية مقاتلا رديئا، بل قاتل بشجاعة وتصميم، إلا أن أصحاب شعار «هذه ليست لعبتهم» طمسوا هذه الحقيقة وشوهوها، كذلك فإنهم تناسوا نتائج البحوث السيكولوجية على الأسرى المصريين ١٩٦٧، تلك التى كانت بعيدة تماما عن الاستهتار بالجندى المصرى، الذى وجد أنه يتمتع بقوة تحمل كبيرة وكفاية جسمية جيدة وروح هجومية، ثم عدد الكاتب حالات من الصمود المصرى النادر نسيت بسبب «أقوال العجرفة والتعالى التى كانت تصدر عن القادة والسياسيين»: جيب الفالوجا ١٩٤٨، نموذجا لقوة صمود المصرى المحاصر، صمود أبوعجيلة ١٩٥٦، حيث اضطر الجيش الإسرائيلى إلى العمل ٣ أيام لاختراقهم «١٠٠ ساعة فى الوحل»، شجاعة ومهارة المصريين فى الإغلاق المتتالى للثغرات التى كانت قوة إسرائيلية مختارة تحاول شقها على مفترق طرق رفح فى ١٩٦٧.... إلخ.

الدولة والسياسات العربية

ذلك كله عن الإنسان العربى كرجل محارب بين إنسان العالم، أما من الناحية السياسية العالمية فإن الانقلاب لا يقل خطرا ولا مغزى، وهو فى الواقع مترتب مباشرة على

الانقلاب الحربى. فلأول مرة خرج عرب ٦ أكتوبر وهم صنعة التاريخ بعد أن ظلوا طويلا لعبة التاريخ، وتحولت المنطقة من منخفض سياسى إلى منطقة ضغط سياسى مرتفع مؤثر وفعال، ومن إقليم جيوبوليتيكى سالب إلى إقليم موجب يساهم اليوم جديا فى تشكيل التوازن العالمى وتضاريس السياسة الدولية، باختصار، أصبح العالم العربى فاعلا بعد أن كان مفعولا به بانتظام أو مجرد رد فعل على أفضل تقدير. ولأول مرة فى تاريخها الحديث تقريبا، أصبح العالم العربى عاملا مهما فى تحقيق التوازن السياسى فى المنطقة، إن لم يكن الأساسى، ولا نقول الوحيد، ولأول مرة يصبح مصير المنطقة معلقا بقواها الداخلية وإرادتها الذاتية أكثر مما هو متعلق أو مرتبط بعوامل وقوى من خارجها. ولأول مرة كف العالم العربى عن أن يكون لعبة السياسة الدولية المفضلة، بما فى ذلك الاستقطاب أو الوفاق، وعدا ذلك تم تصحيح ميزان القوة الذى كان قد اختل بوضوح فى غرب آسيا وتم وضع حد للاستراتيجيات الإقليمية المضادة بها، بل لقد غيرت المعركة ميزان القوة فى قارة آسيا عموما.

ليست إسرائيل وحدها إذن التى ردت إلى حجمها الطبيعى، العرب أيضا، بل العرب أكثر، والأكثر فى المستقبل، لقد انقلبت كفتا الميزان بينهما، أو بالأصح عادتا فاعتدلتا وصححتا، وكما قالت جريدة انجليزية أخيرا: «شئ واحد مؤكد الآن، أن العرب أصبحوا فى الوقت الحاضر فى مركز تفاوضى أقوى بكثير مما كانوا عليه.. وأن إسرائيل قد أصبحت فى مركز أسوأ بكثير مما كان العرب أو أى أحد يعتقده ممكنا قبل بداية الحرب». وحتى أولئك الذين يشككون فى النصر العسكرى العربى أو يقللون منه، لا يملكون أن يشككوا فى نتائج العالمية السياسية والنفسية أو أن يقللوا منها، مثلا كتبت مجلة تايم فى حديث لها مع الرئيس المصرى «إن المؤرخين سوف يتجادلون طويلا حول ما إذا كانت الجيوش المصرية قد أحرزت بالفعل انتصارا عسكريا فى حرب أكتوبر. ولكنهم – على الأرجح – لن يختلفوا حول الرأى القائل بأن نتائج الحرب قد أعادت للعالم العربى قدرا من الثقة بالنفس كانوا فى أشد الحاجة إليه وكان غائبا عنهم منذ الهزيمة المهينة فى عام ١٩٦٧».

وليس أدل على الهيبة الدولية الجديدة والمكانة المرموقة التى حققها عرب أكتوبر من نظرة العالم الجديدة إليهم. فبديل الإشفاق والرتاء الممزوج بالاستخفاف إن لم يكن ماهو

أسوأ، حل الاحترام والتقدير الذى لا يخلو أيضا من إعجاب، أو كما ذكرت ورقة أكتوبر «لقد رفعت حرب أكتوبر من شأن العرب جميعا، وأصبح العالم كله يعترف بالوجود العربى ويدور العرب ويعمل على كسب ودهم». أو كما كتبت النيوزويك «الزمن تغير فجأة. تبدلت نظرة العالم إلى العرب، وأصبح ينظر إليهم بكل الجدية، بعد طول معاملة لهم على أنهم شعوب همجية ودول متخلفة، وبالمثل بدأ العرب ينظرون إلى أنفسهم على ضوء جديد». بل إن قطاعا كبيرا من العالم، وخاصة من العالم الثالث، أصبح يتطلع إلى العرب ويرنو ساعيا إلى التقارب معهم. «اعتبر مثلا التقارب الإفريقى الكبير، أو فكر فى معنى ما قاله رئيس النيجر من أن فى الإفريقيين دماء عربية كما أن فى العرب مؤثرات افريقية، وأنه هو شخصا تجرى فى عروقه دماء عربية الأصل والنسب بنسبة معينة».

وعدا هذا فلا يكاد يمضى يوم منذ أكتوبر دون أن يزور سياسى قيادى أو وفد كبير من دولة ما من دول العالم دولة عربية أو أخرى، بينما تتجول الوفود العربية بدورها بكثافة على اتساع العالم لتقابل بالترحيب والاحترام. أما عروض القروض والمعونات ومشروعات التنمية والمشاركة فى التعمير فلا تكف عن التدفق تباعا من كل الجهات، وهذا كله صورة مرآوية مقلوبة أخرى لما حدث فى أعقاب يونيو، حين كان الكل فى «زيارة للمنتصرين» وكانت الأموال تنهال على إسرائيل بغير حساب.. لقد أصبح العالم العربى بوضوح بؤرة اهتمام العالم ومحط أنظاره كقوة ضاغطة مؤثرة فيه لها وزنها وتقديرها، وورث العرب مكان إسرائيل السابق فى قلب العالم وعقله.

وحسبنا فى هذا الصدد أن نشير مثلا إلى مؤتمر القمة الإسلامى الثانى الذى عقد فى لاهور أخيرا تقديرا ومساندة من العالم الإسلامى لقلبه العربى، فعلى العكس من المؤتمر الأول الذى عقد فى الرباط منذ ٤ سنوات فى ظل الهزيمة، جاء المؤتمر فى ظل النصر فكان نجاحا كاملا، وكما جاء المؤتمر دفعة معنوية كبيرة للعرب، كان تأكيدا لانتصارهم ولنفوذهم المتعاضم فى العالم بعد النصر، وبالمثل كان دور العرب وخاصة مصر فى تحقيق التصالح والتقارب بين الباكستان وبنجلاديش داخل المؤتمر دليلا على مكانتهم المرموقة فى العالم الإسلامى.

وعلى الجانب الآخر، جانب العدو، جاء المؤتمر ضربة سياسية أخرى ومزيلا من الحصار، إقرأ مثلا ما كتبه هاتسوفيه صحيفة الحزب القومى الدينى فى إسرائيل: «إن

نداء تحرير القدس الذى وجهه مؤتمر لاهور يأتى فى وقت أصبح العالم الإسلامى فيه أقوى من الناحيتين السياسية والاقتصادية بصورة لم تحدث منذ أربع سنوات» (حين عقد مؤتمر الرباط). أو اقرأ ما كتبته معاريف: «لقد أوضح مؤتمر لاهور تماما التناقض بين الواقع الذى يحيط بنا والواقع الذى نعيش فيه وبين الوحدة المتزايدة للعالم العربى والفرقة التى تنهكنا».

ليس هذا فحسب. بل إن العالم العربى نفسه «يتوسع» الآن بصورة لافتة ولا يمكن أن تكون بلا مغزى، فليس من المصادفة وحدها على الأرجح أن يتم انضمام بولتين من افريقيا، موريتانيا والصومال، إلى الجامعة العربية فى وقت واحد تقريبا قبيل وبعد انتصار أكتوبر مباشرة، كأنها جميعا على ميعاد، لقد اتسعت جغرافية العروبة كما ارتفعت قامتها.

ويسترعى الانتباه هنا، كما يستدعى التفسير بالحاح، أن تتبثق كل هذه الانطلاقة والطفرة الإيجابية من أمة قيل عنها بالأمس فقط أنها قد أصيبت بتصلب الشرايين، إن لم يكن بالشيخوخة المبكرة أو القديمة. فكيف نعلل هذه المتناقضة إذا كانت صحيحة، وإن صحت فإلى أى حد؟ وما هو التشخيص أو التكييف العلمى الدقيق لهذا التطور؟ الإجابة تكمن فى دورة حياة الدول الجيوبوليتيكية كما وضعها العالم الجغرافى فإن فالكنبرج، تلك التى تحدد مراحل تطور الدولة كجسم سياسى وككائن عضوى بمعنى ما فى أربع: مرحلة النشأة أو الطفولة التى تنطوى فيها الدولة على نفسها ترتب بيتها من الداخل وتحمى حدودها فى الخارج، ثم مرحلة الشباب أو التوسع وفيها تنطلق إلى دور خارجى إيجابى إما من التوسع أو فرض النفوذ، ثم مرحلة النضج أو الاستقرار حين تكون قد وصلت إلى أوج القوة ولا تريد إلا المحافظة على الوضع الراهن والتوازنات القائمة، ثم أخيرا مرحلة الشيخوخة أو الانهيار التى تعجز فيها عن المحافظة على نفوذها أو حدودها فتبدأ تفقد منها تدريجيا حتى تنكمش وتتقلص وربما تسقط لتقوم دولة جديدة تبدأ دورة جديدة، وهكذا.

والدول العربية كنظم سياسية معاصرة تعتبر، ابتداء، بولا حديثة فى مرحلة النشأة، لأنها رغم عراققتها التاريخية الألفية إنما بدأت دورة جيوبوليتيكية جديدة بالأمس القريب فقط حين تحررت من الاستعمار الأوروبى واستكملت استقلالها النهائى منذ ٢٠ سنة أو ١٠

سنوات على الأكثر أو في المتوسط، وبعض هذه الدول كمصر وسوريا والعراق كانت تزحف حثيثا نحو مرحلة الشباب وقد انطلقت بالثورة والتنمية، والبعض الآخر كان على الطريق بفضل ثورة البترول وثروته الدافقة كالسعودية وربما الجزائر وليبيا... إلخ. ولكن هزيمة يونيو ردت أكثر هذه الدول إلى الخلف كثيرا، رغم أنه كان وضعاً مؤقتاً معلقاً بالضرورة، وهنا يأتي دور أكتوبر: إنه بالدقة والتحديد قد «جدد شباب» العرب جميعاً، وبدأ مرحلة جديدة من «تجديد شباب» الدول العربية *political rejuvenation*، وخاصة منها دول المواجهة والطليعة، وهذا هو المعنى الأول والمباشر لأكتوبر في الكيان الدولي العربي، إنه بداية مرحلة جديدة في المورفولوجيا السياسية للدول العربية.

ومن هذا المنطلق والمنطلق بالتحديد فرض العرب على العالم واحدة بل سلسلة من أكبر وأخطر «المتغيرات» في السياسة الدولية بعد أن كانت مصايرهم رهنا بالمتغيرات الدولية تتقاذفها وتعصف بها دون أن تملك هي من أمرها شيئاً، لقد كان الجميع يتحدثون طويلاً وكثيراً عن المتغيرات الدولية قبل أكتوبر، فأصبح أكتوبر هو أبرز المتغيرات الدولية وأقواها أثراً. وكان أوضح تعبير عن هذا هو بروز «شخصية دولية عربية» على المسرح العالمي.

عرب أكتوبر كقوة عظمى

وإذا كان من العسير القول بأن العرب يشكلون بعد «نظاماً سياسياً» مستقلاً في المجتمع الدولي، فإن المؤكد أنهم أصبحوا يزحفون حثيثاً نحو مركز بارز من مراكز القوة العالمية متعددة الأقطاب، وقد تحدثت الصحافة العالمية بالفعل عن العرب المنتصرين كقوة كبرى أو شبه كبرى، مرشحة بغير منازع واضح لمركز «القوة السادسة» في عالم ما بعد الوفاق. ولم يكن ذلك قطعة من الإثارة الصحفية ولا انطباعاً عابراً تحت وهج المعركة. فبعد نصف عام من توقف القتال، عاد التقرير السنوي لمعهد الدراسات الإستراتيجية بلندن فأكد الحكم بصيغة موضوعية وقاطعة فقال «إن حرب أكتوبر، بسلحيها العسكري والبترول، قد جعلت من العرب قوة سادسة في العالم بعد أمريكا وروسيا والصين واليابان وكتلة أوروبا الغربية». (لا داعي هنا، ولا هو من المفيد، أن نخدع أنفسنا فننساق وراء ما يزينه لنا بعض «غلاة الأصدقاء» من أننا إنما مرشحون لمركز «القوة الثالثة»؛ حيث أن الصين مازالت إمكانية لم تتحقق وكلا من أوروبا الغربية واليابان عملاق اقتصادي

ولكنها قزم سياسى لم تزل). هذا، وليس غريبا أن نتكلم عن العرب، وهم الذين ينقسمون سياسيا إلى ٢٠ دولة، كقوة عظمى واحدة، فإن أوروبا الغربية - لنتذكر - تقع بدولها التسع فى الوضع نفسه تقريبا.

وعند نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة كان علماء السياسة والجغرافيا السياسية لا يرون من القوى الكبرى الجديدة المحتملة أو الممكنة بعد الخمسة الكبار، الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وأوروبا الغربية واليابان والصين، كانوا لا يرون سوى الهند والبرازيل. غير أن هذه النبوءة لم تتحقق إلا جزئيا بزحف الهند إلى موقع القوة شبه الكبرى بعد حرب الهند - الباكستان الأخيرة، أما الآن فإن صعود القوة العربية البارزة بعد أكتوبر يشى بخريطة جديدة تماما لتوزيع القوة فى العالم.

والواقع أن العرب يملكون كل خامات القوة الكبرى، مساحة أرض وتعداد سكان وموقعا جغرافيا وموارد طبيعية ومستوى حضاريا، بل إن الكثيرين ينظرون اليوم إلى العالم العربى باعتباره - كما يعبر بحق حازم الببلاوى - «احتياطي نمو العالم ورصيد المستقبل» من وجهة نظر التنمية الاقتصادية والتطور المادى والصناعى، فبمساحته الشاسعة وتعداد سكانه الكبير، ولكن أكثر بكثافة سكانه المحبودة بحكم سيادة الصحراء على الجزء الأكبر منه، فإن الإقليم بدخوله البترولية المليارية إلى جانب انتاجه الزراعى، والصناعى يعد الآن من أغنى أقاليم العالم الجغرافية والسياسية فى مستوى الدخل القومى ووفرة رأس المال وإمكانيات التصنيع والاستثمار.... إلخ. كذلك فقد كانت المنطقة دائما حبلى باحتمالات الوحدة، كما كان الكل يشعر بطريقة ما بأنها مؤهلة بالطبيعة لدور غير عادى وللبروز كقوة من قوى العالم الأساسية.

غير أن هذه العناصر الأولية كانت دائما وحتى قريب مجرد إمكانيات كامنة بالقوة لا كائنة بالفعل، وكانت المنطقة دائما خطيرة جدا فى السياسة الدولية وفى نظر العالم، ولكن كغنيمة ثمينة يتصارعون عليها، لا كمركز قوة ذاتى مرموق، فقد كان محور السياسة الاستعمارية العالمية فى هذا الجزء من العالم تقليديا هو منع قيام قوة قومية كبرى فيه بأى ثمن. وكانت لعبة تمزيق المنطقة أولا، ثم عملية خلق إسرائيل فيها ثانيا، هى أدوات تنفيذ تلك السياسة، وكان وجود إسرائيل وحده، فضلا عن وصمة هزائمها المتتالية للعرب، ضمانا أبديا بتعقيم القوة العربية كفيلا باستحالة ترجمة الممكن إلى واقع فى هذا المجال.

أو كما تقول ورقة أكتوبر «لقد كانت عناصر القوة العربية الكامنة، بالنسبة للعالم، مجرد احتمال نظري، بينما كانوا يرون في إسرائيل القوة الفعالة المؤثرة في رسم مجرى التاريخ في المنطقة، والكفيلة بتشكيل مستقبله».

انتصار أكتوبر قرر العكس، فتح الباب أمام انطلاقة عربية عظمى يمكن أن تستقر بها في النهاية في نادي الكبار. أو إذا اقتبسنا ورقة أكتوبر مرة أخرى «حرب أكتوبر طرحت الإمكانات العربية كحقيقة واقعة، لا كمجرد احتمال بعيد.. وصارت أى سلطة وطنية في أى بلد عربى تشعر بعزة جديدة، ويعاملها العالم معاملة الند للند.. لم يعد العالم العربى غنيمة يختلف الأقوياء على أنصبتهم فيها، أو ترسم مصائرهما فى عواصم بعيدة، بل صارت طرفا قويا يتحدث عن نفسه بنفسه».

لقد تغيرت ليس فقط خريطة الشرق الأوسط السياسية، وإنما كذلك خريطة العالم السياسية جميعا. وإذا كان هذا التغيير جنينيا فقط حتى الآن بطبيعة الحال، فالمسألة أولا مسألة وقت، وهى ثانيا مسئولية العرب أنفسهم الآن، فعليهم وحدهم ألا يكفوا لحظة عن استكمال نصرهم واستثمار نتائجه الطبيعية، وقد لخصت الصنداي تايمز الموقف كله كالآتى: «إن العلاقات مع الدول العربية طرأ عليها منذ أكتوبر الماضى تغير جذرى، ولم يكتف العرب باكتشاف وحدتهم الحقيقية لأول مرة عن طريق استخدام سلاح البترول، بل إنهم استطاعوا أن يستخدموا قوتهم الاقتصادية بما حقق لهم نجاحا سياسيا كبيرا، وسعوا عن طريق الضغط على أوروبا إلى تغيير السياسة الأمريكية نفسها إزاء إسرائيل، وكذلك نجحوا فى إحداث صدع فى حلف الأطلنطى بفرض حظر بترولى على الدول غير الصديقة، وحملوا وزير خارجية أمريكا على بدء إجراء حوار معهم اتسم بتأييد وجهة النظر العربية، وأخيرا نجحوا عن طريق مضاعفة أسعار البترول ثلاث مرات فى تعزيز سيطرتهم على النظام النقدى فى العالم».

عن مصر مثلا، إذا أخذنا نموذجا منفردا، كتبت الإيكونوميست أخيرا أنها تبشر بنهضة اقتصادية كبرى، ثم قالت إن هذا الانطلاق المصرى سببه «النجاح الهائل الذى حققته مصر فى عملياتها العسكرية ضد إسرائيل فى أكتوبر الماضى الذى رفع ثقتها بنفسها ويقدراتها الذاتية وقدرات الأمة العربية كلها». كذلك كتبت مجلة بيزينيس ويك الأمريكية أن «مصر على وشك الانطلاق إلى ازدهار اقتصادى»، وأن المال للاستثمار

يتدفق إليها، من الدول العربية البترولية، بدافع القومية العربية، ومن الدول الصناعية بدافع الحرص على كسب الثقة وضمان إمدادات البترول العربى، كما من الاتحاد السوفييتى الذى «أصبح مجرد مجموعة أجنبية أخرى تحاول الاستثمار فى مصر». هذا بينما تنبأ البعض أنه لم يمض عقد أو أكثر إلا وتكون مصر قد انتقلت إلى قائمة «الدول الغنية» فى العالم، حتى كيسنجر اعترف أخيرا بأن أمريكا تعتبر مصر «قطب الرضى» فى استراتيجية الشرق الأوسط.

أما على مستوى استراتيجية السياسة الكوكبية فيمكن القول فى الواقع إن مرحلة تعدد مراكز القوى العالمية ثم مرحلة الوفاق بعدها، أو باختصار مرحلة توازن القوى الجديد على الطريقة المترنيخية المحدث وأسلوب القرن التاسع عشر المجدد، هى فى التحليل الأخير مرحلة إعادة تحديد علاقات القوى العظمى بالعالم الثالث بالتحديد، ذلك الوليد الجديد الذى لم يكد يفوز باستقلاله عن قوى الاستعمار القديم ثم عن كتل الصراع الاستقطابى حتى وجد نفسه مشوشا مضطربا لايزال بين مراكز القوة المتعددة الجديدة التى تتسابق عليه وتتجاذبه أو تتنازعه.

ويمكن القول فى هذا المجال إن العالم العربى هو أول قطاع من هذا العالم الثالث يدخل ويحسم هذه المرحلة بثقة واقتدار، فهو الذى دشنها والآن يهندسها، حيث أصبح أول منطقة من العالم الثالث تصل إلى احتمالات القوة العظمى العالمية، وهو بذلك أيضا يفتح الباب أمام العالم الثالث لى يتقدم إلى مكان ومكانة أكثر تكافؤا فى العالم، ويعطيه الفرصة لى يضيق هوة القوة المخيفة بينه وبين العالمين الأول والثانى، وكما حدد الرئيس السادات، فإن حرب أكتوبر هى «بالتأكيد انتصار لدول عدم الانحياز، وأثبتت أننا نستطيع أن تكون لنا إرادة فعالة فى عالم مابعد ٦ أكتوبر. والمشكلة الآن هى ماذا سنعمل نحن ودول عدم الانحياز فى هذا العالم. فالموازن الدولية قد تغيرت، والعلاقات السياسية لابد أن تعاد صياغتها، وأننا نواجه عالما جديدا، لن يكون عالم ماقبل ٦ أكتوبر ولكن عالم مابعد ٦ أكتوبر».

وكنول قوة عالمية تنبثق من صميم العالم الثالث، يمكن أن يكون للعالم العربى رسالة خاصة، وظيفية إقليمية، تكاد تنفرد بها بين القوى العظمى مثلما ينفرد بين أقاليم العالم كإقليم جغرافى وتاريخى وكموقع جيواستراتيجى وجيوبوليتيكى وكمنطقة حضارية وثقافية،

فالمَنطقة، التي كانت القوة الأعظم المطلقة في العالم يوما ما، بل لأكثر من مرة، وربما كذلك لأطول فترة عرفتْها منطقة مماثلة في التاريخ، يمكن بكل خصائصها ومعطياتها ومؤملاتها الطبيعية تلك أن تكون عقدة قوة في قلب العالم خالية من عقد القوة بمعناها السيئ.

إنها - توضيحا - مؤهلة لأن تكون بمثابة جيروسكوب سياسى وبؤرة انفتاح ماصة صدمات ومصب تيارات، أى عامل ثقل وتوازن بين القوى العظمى الأخرى يمنعها من التصادم أو الإخلال بتوازن العالم، يخفف من حدة التناقض بينها، يقرب بين بعضها البعض وبينها بين القوى الصغرى، ويقارب الشرق من الغرب ويقدم الجنوب إلى الشمال ويسد الفجوة بين الأقوياء والضعفاء ويضيق الهوة بين الأغنياء والفقراء ويحل المعادلة الصعبة بين الأصالة والمعاصرة وبين القوة والسلام. إنها رسالة تاريخية تحدد لها الجغرافيا، وإنسانية رغم أصلها الإقليمي.

وإذا كان هذا هو الجانب الإيجابى والشرق من نتائج صعود أو بداية صعود عرب أكتوبر إلى مركز القوة العالمية، فيجب ألا ننسى جوانبها الشاقة والشائكة أيضا، فلقوة ثمنها الباهظ وضريبتها المستمرة التي يتعين دفعها واجبات ومسئوليات ومخاطر وأخطارا، ولكن قبل كل شيء صراعات وصدمات ليس فقط مع الأنداد أو الصغار وإنما حتى مع الكبار بل ربما أساسا معهم، وليست لعبة الكبار لعبا ولا نزهة سياسية أو استراتيجية رخيصة هنية أو هينة، وإنما هي أساسا صراع قوة، فالقوى الكبرى لا تحب ابتداء بمنافسين أو مشاركين جدد، ومن المسلم به أنه ما من أحد في العالم كان يريد لقوة كبيرة أن تنبثق في هذه المنطقة الخطيرة من العالم بالذات. فإذا ما فرضت نفسها وقامت، كما قد بدأ يحدث بالفعل، فإن عليها أن تتوقع وتحمل مخاطر ومتاعب ومقاومة القوى الكبرى الأخرى، ولقد بدأت بوادر هذه المتاعب بالفعل، حتى مع بعض قدامى الأصدقاء الكبار، وهذا ما يفرض على القادمين الجدد إلى دائرة القوة ليس فقط الحد الأقصى من الحذر والتنبه، ولكن كذلك أن يرتفعوا بوعى واقتدار وبذل إلى مستوى المسؤولية ومتطلباتها.

وإذا كان لنا عود مفصل إلى هذه القضية في دراستنا للعالم والمركة، فإن علينا هنا أن نسجل ثلاث ظاهرات بل حقائق أعقبت حرب أكتوبر وترتبت لاشك عليها، فثولا، لا

سبيل إلى الشك في أن العرب، أرابوا أو لم يريدوا ، أدركوا أو لم يدركوا ، فقد بدأوا يدخلون لعبة القوة العالمية، أى لعبة الكبار، وبالتحديد مع القوى الكبرى، وبالذات مع العملاقين ثم إلى حد ما مع أوروبا الغربية، وبعد أن كان العرب لعبة هؤلاء الكبار، أصبحوا هم بأنفسهم طرفا متناميا في لعبة الكبار، وقد ترتب على هذا بدء ظهور تعديلات مهمة في علاقات العرب بالقوى الكبرى الخارجية، وكما كانت حرب أكتوبر هي السبب المباشر في هذه التعديلات ، فقد جاءت أيضا المناسبة التاريخية لها، ولهذا نرى فترة ما بعد أكتوبر فترة تغير جوهري في تلك العلاقات وإعادة توجيه لها وصياغة جديدة لمعادلتها.

ثانيا، تأخذ هذه اللعبة أساسا شكل لعبة التوازن، توازن القوى، وذلك لتحقيق أكبر قدر من الاستقلال والأمان إزاء كل وأى من أطراف اللعبة. والمعنى الجوهري لهذا أن العرب قد بدأوا يخرجون من دائرة الاستقطاب الثنائي القديم ومناطق النفوذ النسبية التي كانت تحكمهم وتشلهم قبل أكتوبر إلى سياسة توازن القوى الجديدة، وبعد أن كانوا يخضعون لقواعد «لعبة الشطرنج» بين العملاقين checkmate، أصبحوا هم الذين يمارسون «سياسة المضاربة» بينهما عن طريق مضاربة كل منهما بالآخر stalemate. ومحور هذه السياسة هو الانتقال المتوازن من الاعتماد الكامل على أحد العملاقين، وهو الاتحاد السوفييتي، إلى التعامل المتوازن والمتكافئ مع العملاقين كليهما، كسبا للواحد دون فقد للآخر، وتحييدا للعدو وتحديدا للصديق.

ثالثا، مانراه الآن من صعوبات جديدة أو متجددة بين العرب والاتحاد السوفييتي والأخذ والرد والشد والجذب بينهما، خاصة بل أساسا على سياسة التسليح، هو إلى حد معين مظهر من مظاهر دخول العرب دائرة القوة العالمية ولعبة الكبار. فهناك خطة أو محاولة واضحة لتحديد قدرات العرب وقوتهم بتحديد إمدادات السلاح إليهم، وبالمقابل أتت خطة العرب في تنويع مصادر سلاحهم، وتقارب العرب مع أوروبا الغربية والاتجاه إليها كمورد سلاح متطور، ثم محاولة تحسين العلاقات مع أمريكا، هي مظاهر أخرى للحقيقة نفسها ، وهي دخول العرب حلبة القوى الكبرى بصراعاتها وتوازناتها.

معركة البترول

لا سبيل إلى الفصل بطبيعة الحال بين حلقات هذه الثلاثية المترابطة: أكتوبر – العرب – البترول. ولهذا لابد من دراسة خاصة مركزة، لا لاقتصاديات البترول بالمعنى الواسع،

ولمنا لـجـيـوـبـولـيـتـيـكا البترول بالأحرى والأخص. نريد، يعنى، تحليل الجوانب السياسية للبترول كبعد أساسى وعنصر أصيل فى معركة أكتوبر دون أن نفقد أنفسنا أو نضيع فى خضم الأرقام والإحصائيات التقليدية التى تزخر بها الدراسات الاقتصادية عادة.

دور البترول ودورته السياسية

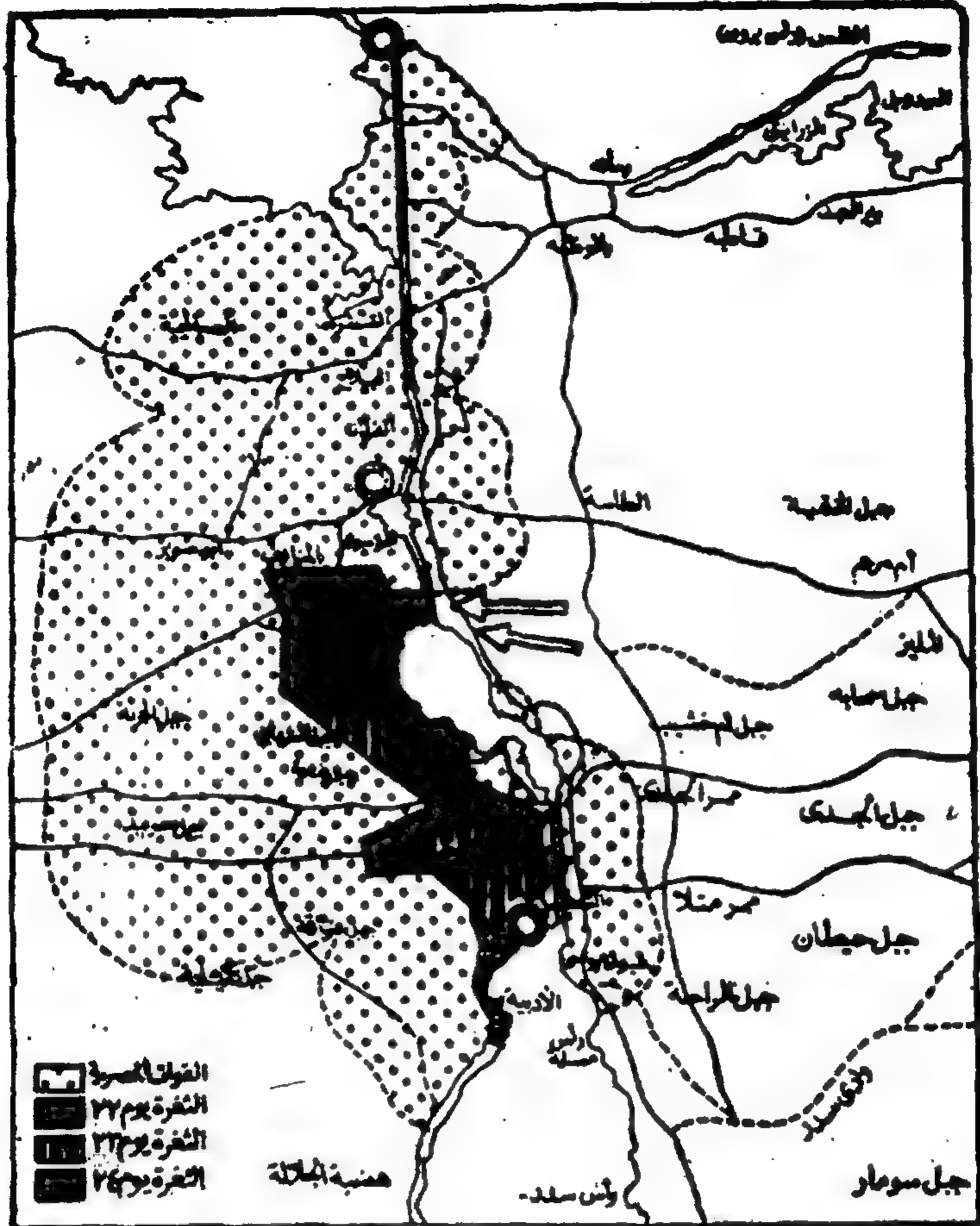
ولقد مرت تجربة البترول كسلاح سياسى فى عدة مراحل. فلقد طالما تكلم العرب عنه ولوحوا به، دون أن يجمعوا هم أنفسهم على رأى موحد أو موقف عملى، ودون أن يأخذهم الآخرون بجدية أو اهتمام. كذلك حاول الكثيرون عزل البترول عن السياسة وعن المعركة، بزعم أنه سلاح اقتصادى فقط لا دخل له بالسياسة، ولم يكن ذلك صحيحا على الإطلاق، فلقد كان البترول دائما فى قلب السياسة العربية ومحور السياسة الدولية فى المنطقة، بل لقد كانت كل الأخطار التى تعرض لها الوطن العربى فى العقود الأخيرة تدور حول البترول مباشرة وغير مباشرة. وكان السباق الاستعمارى رهيبا من أجل بترول العرب، وبالمثل كان صراع القوى حول هذا السباق.

بل إن من الثابت المؤكد أن خلق إسرائيل نفسها كان على علاقة عضوية بالبترول، ومنذ البداية إلى النهاية كان الاستعمار يستخدم إسرائيل «كـلب حراسة» لمصالحه فى المنطقة «ماذا سوى البترول؟» وإرهابيا مخصصا لتأديب أصحاب البترول حتى لا يتمرروا على حظيرة الاستعمار البترولى يوما ما. فإلى جانب تهديد مصر والقناة، كانت وظيفة إسرائيل الأخرى باستمرار هى تهديد العرب والبترول، العرب حاملة البترول وإسرائيل حاملة الطائرات.. وآخر حالة فى هذه النقطة هى إيماءات وتلميحات ثم تصريحات إسرائيل قبل أكتوبر عن التهديد بضرب مناطق البترول العربية إما لحسابها مباشرة أو لحساب أمريكا رأسا. فى المرة الأولى حدث هذا ضد ليبيا الثورة حين تصاعدت مواقفها القومية، وفى المرة الثانية حين تفاقمت أزمة الطاقة فى أمريكا والعالم حيث قال أحد قادة إسرائيل ببساطة أنه ليس بين جيش إسرائيل والكويت سوى الصحراء..

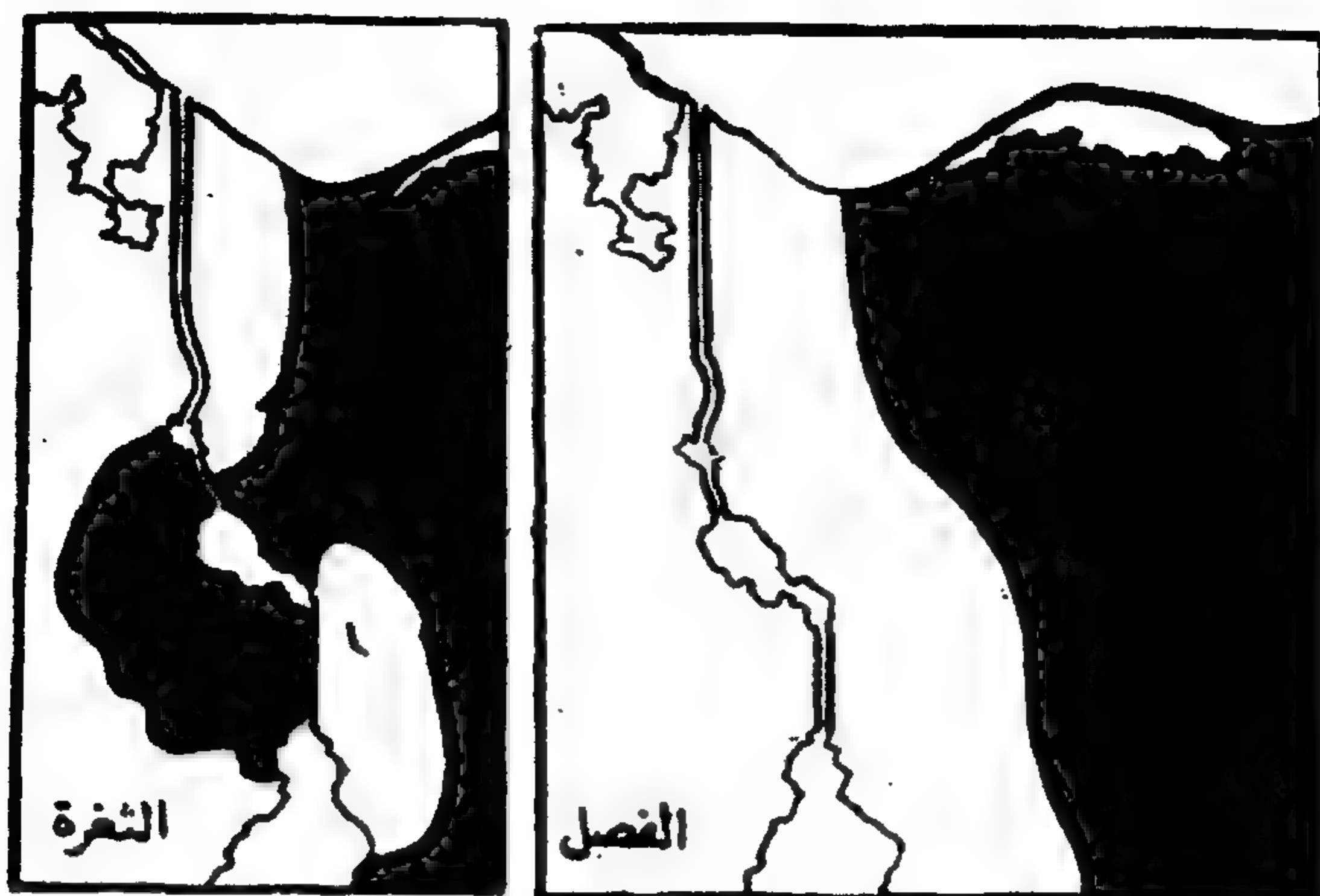
أبعد من هذا، لقد كان البترول العربى هو شريان حياة إسرائيل المادية والاقتصادية. وتلك كانت قمة المتناقضة التاريخية والمأساة السياسية، فلو أننا حصرنا أرباح ومكاسب الاحتكارات والاستثمارات الاستعمارية فى بترول المنطقة منذ بدأت، ثم حصرنا الهبات والمنح والمساعدات والقروض المالية التى صبها الاستعمار فى جسم إسرائيل منذ كانت،



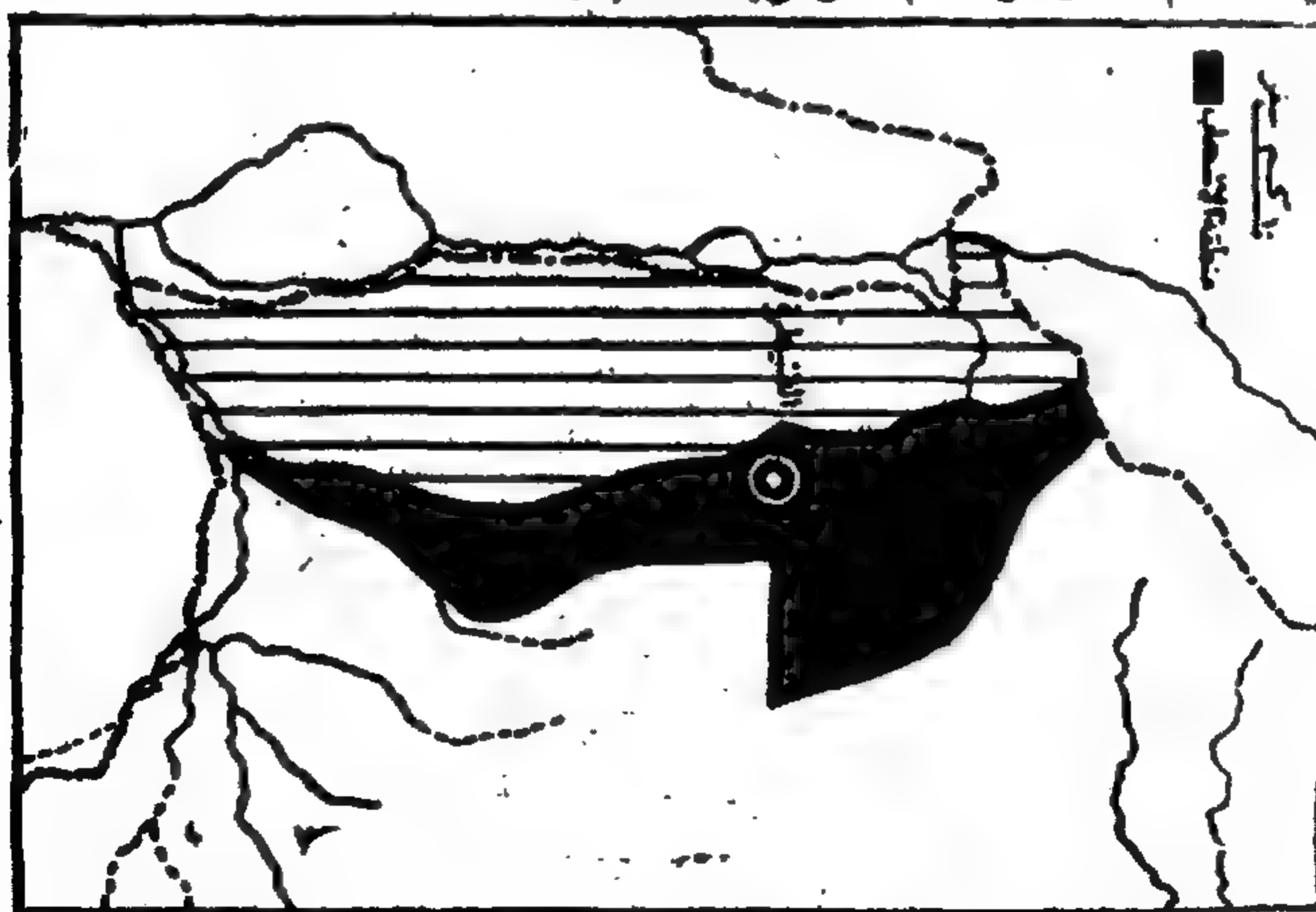
شكل ١ - سيناء - جوانه مصر ومدخلها الشرقي - ثلاثيه في ملت - أو مدقة أكثر - ملت في الجنوب يستقر على قاعدته مسطيل في الشمال - المسطيل هو ميدان الحرب وأرض المعركة الحقيقي - المعركة تحددتها سسة استراتيجيه شعبيه - سسة - مسطح ثلاثيه - خطوط الهجوم الطبيعي - أو محور الاستراتيجيه - ثلاثيه - ثلاثيه متعدد من خطوط الدفاع الطبيعيه الطوله - والمحور الاستراتيجي - الثلاثين هو أهمها - ونقط تقاطع التل أكثر وأثر إيجابي.

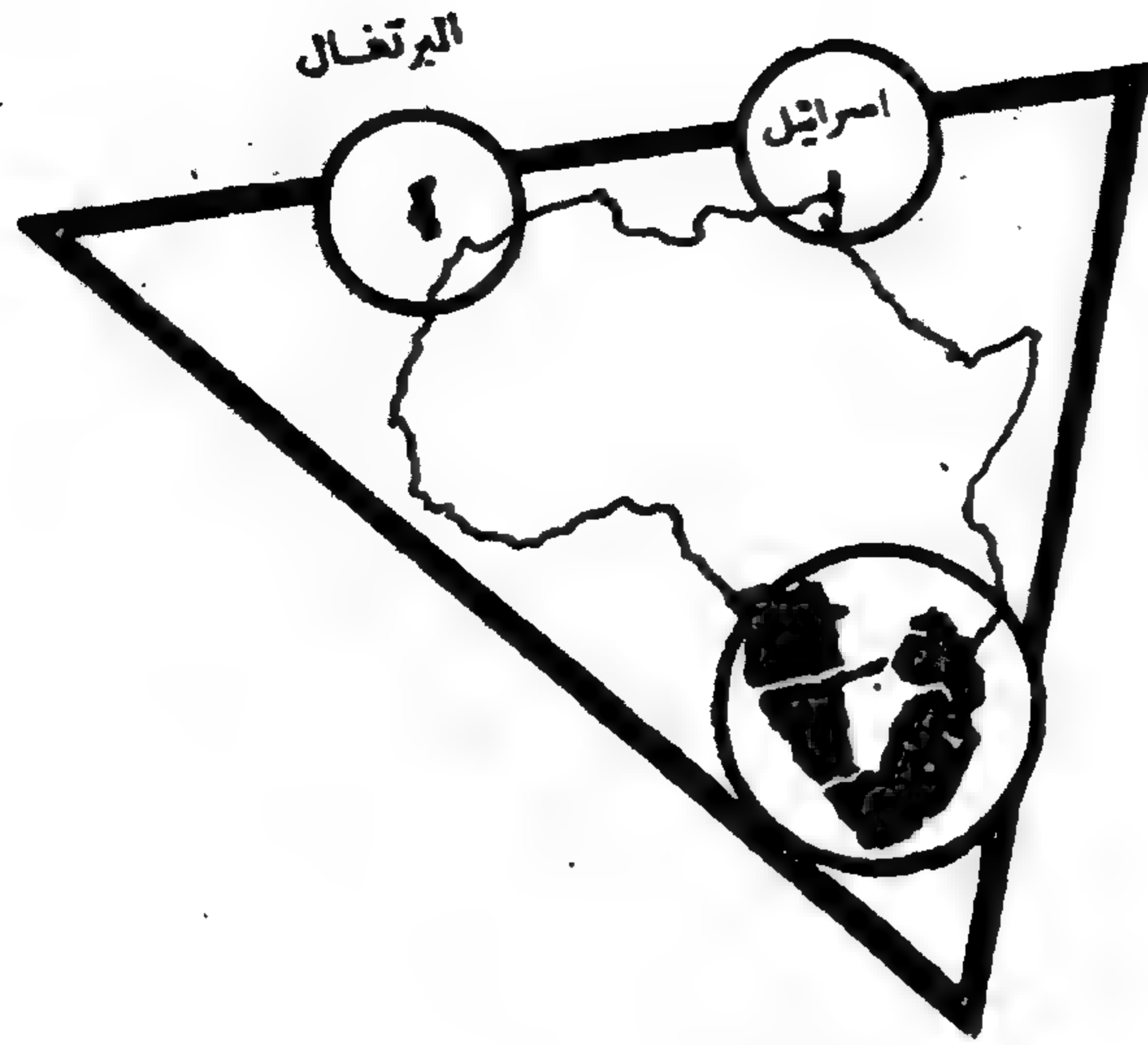


شكل ٣ - قصة الثغرة في خريطة ، أو محاولة الحصار التي تحولت الى مصيدة . الاسهم توضح مدخل أو غلق الثغرة عند الدفرسوار . التسلل بدأ في الشمال في ظل احتمال وقف النار ، ثم توسع بالتدريج نحو الجنوب بعد اعلان وقف النار . بدل أن يكون الجيش الثالث محاصرا ، أصبح جيب العدو هو المحاصر بين شقي الجيش الثالث في الجنوب والثاني في الشمال . جيب كبريت المحلى الضئيل هو وحده الموقع المصري المحاصر ، ولكن العدو كله محاصر حوله بدوره داخل نطاق القوة المصرية الشاسع . أما حصار السويس بالتسلل الفادر فقد عجز أمام دفاع المدينة الباسلة حتى ارتد خائسا وهو حسير بعد أن تكبد أفدح الخسائر .



شكل ٦ - الفصل بين القوات . الفصل اتفاق عسكري محض ، ولكنه دليل قاطع على النصر العسكري العربي ، (٢) نصر سلبى عربى ناصع وخطوة أولى نحو الانسحاب الاسرائيلى الشامل . اعلى : خريطة الثغرة والفصل على الجبهة المصرية كما أعلنتها وكالات الأنباء . القوات المصرية تسيطر على الضفة الشرقية بصلابة تامة من رملة في الشمال الى رأس منبلة في الجنوب ، اى من البحر الى الخليج ، باستثناء سمر الثغرة . بالفصل . انسحب العدو الى الشرق من خط يوازي القناة ويقع على بعد ٢٠ كم منها . استقل : الفصل على الجبهة السورية . مساحة المرتفعات السورية المحتلة بعد يونيو (الجولان) تبلغ ٧٥٠ كم^٢ ، ومساحة الجيب المحتل في اكتوبر ٥٠٠ كم (المجموع ١٢٥٠ كم^٢) ، بالفصل انسحب العدو من ٦٢٢ كم^٢ ، اى من نصف الارض المحتلة جميعا .

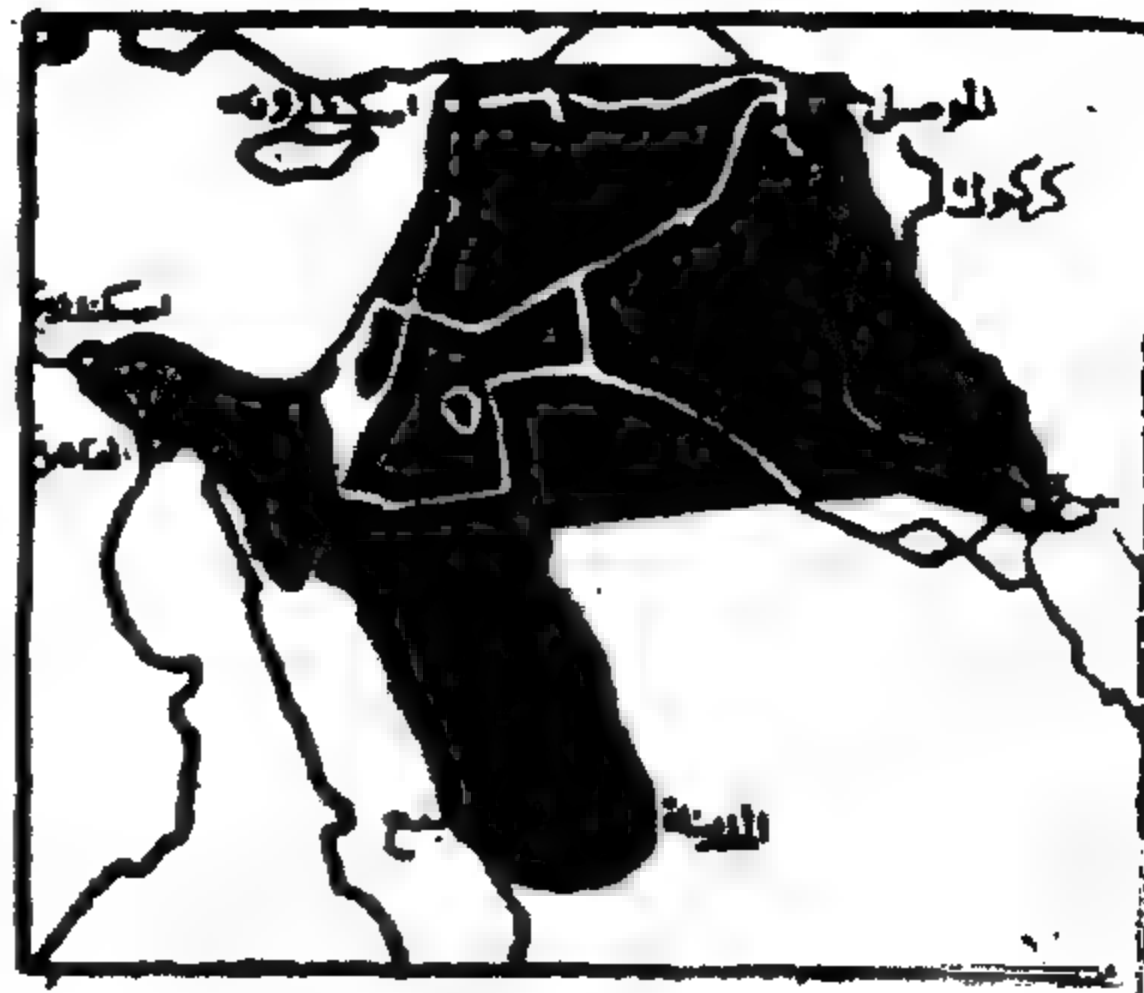
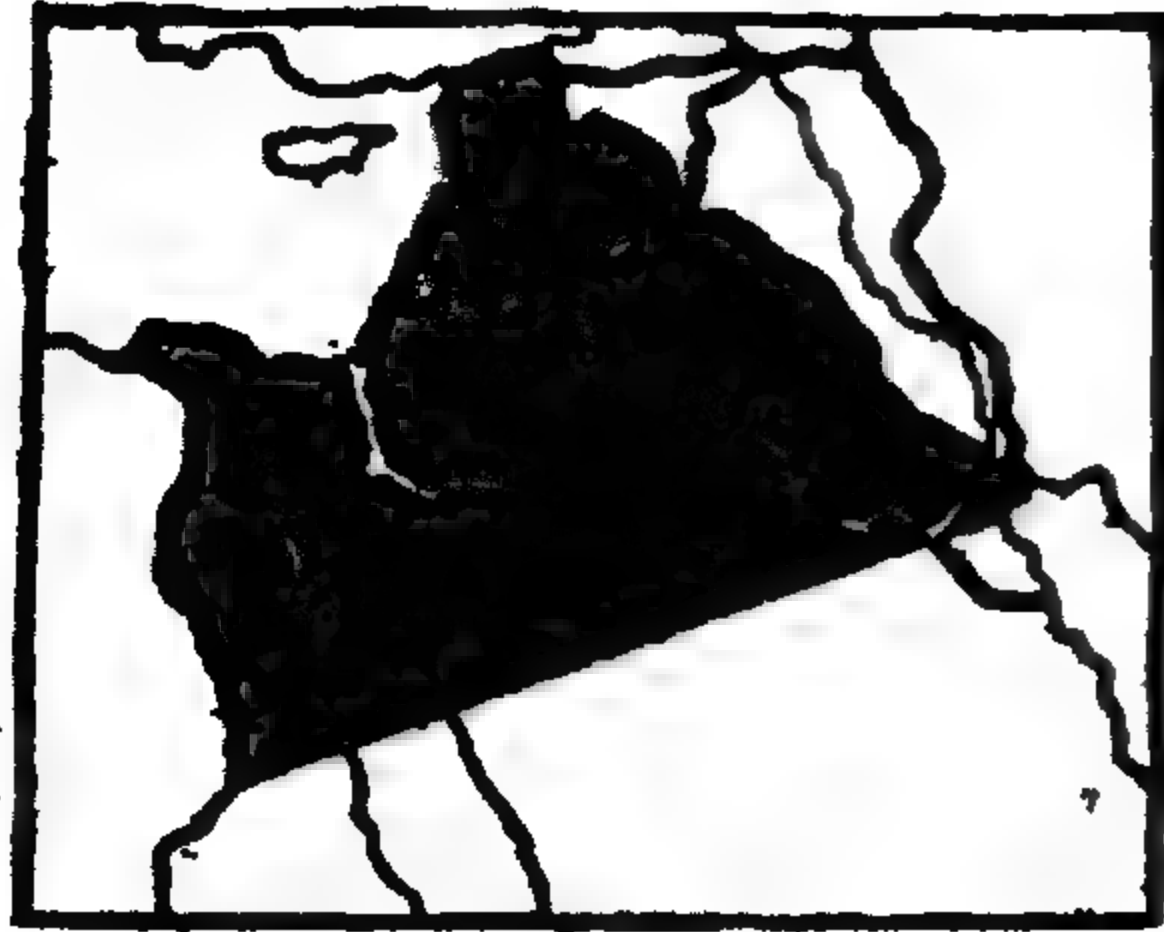




شكل ٧ — طرد إسرائيل من أفريقيا أثناء أكتوبر . أفريقيا تحاط علم
أركانها الثلاثة بالاستعمار الاستيطاني الأبيض .



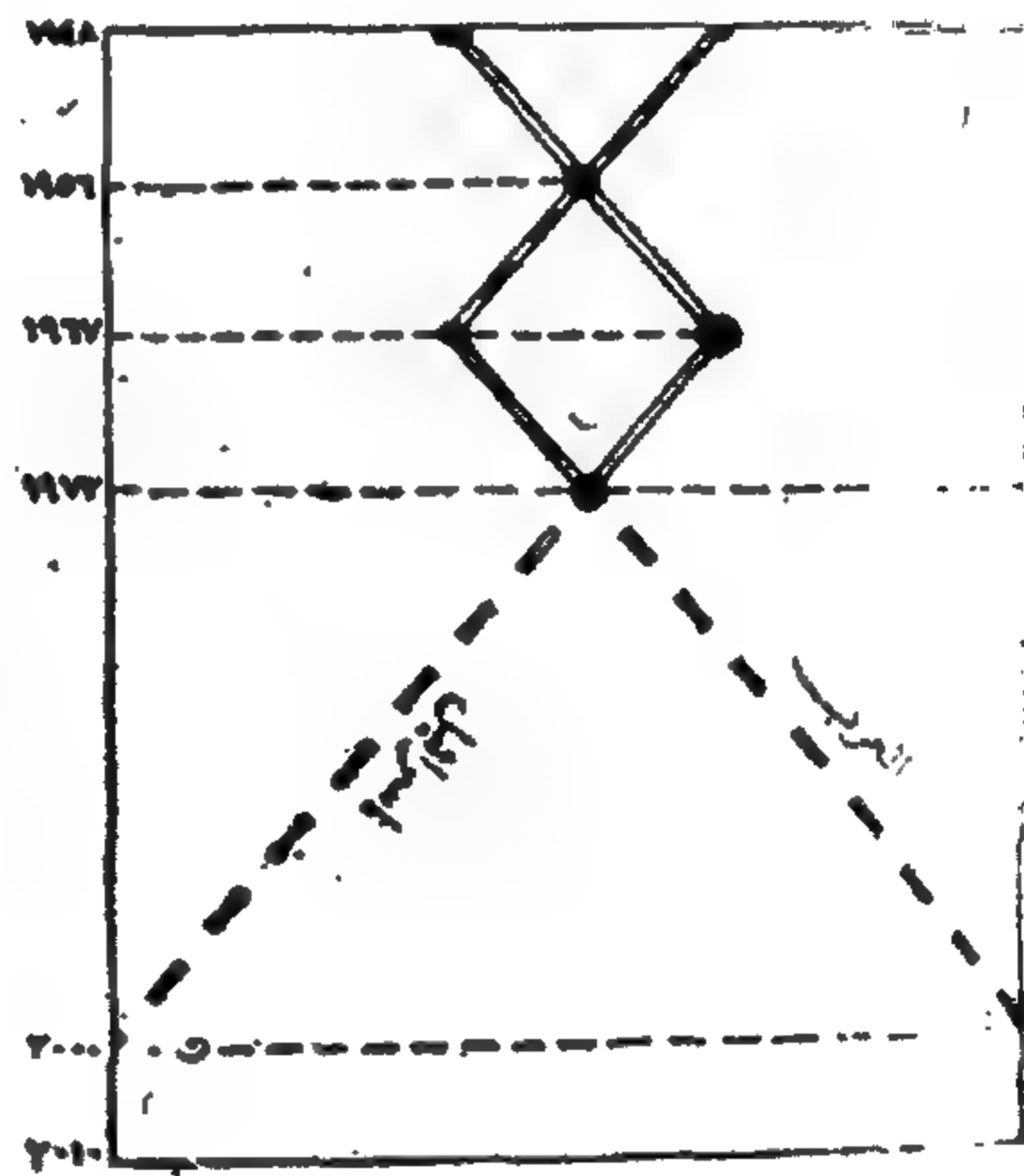
شكل ٨ — خريطة مقارنة بين توسع الاستعمار النازي في أوروبا أثناء
الحرب العالمية الثانية وتوسع الاستعمار الصهيوني في الشرق الأوسط .



شكل ٩ - إسرائيل الكبرى : الحلم الجنون الذي تحطم على واقع أكتوبر . تفسيران مختلفان للأطباع الصهيونية السفينة : إلى اليمين : الأطباع تبتلع كل العراق ونصف مصر ، وإلى اليسار : نصف العراق وكل مصر . في الحالتين يدخل بقية المشرق العربي ، بما في ذلك الأراضي الإسلامية المقدسة وبعض مناطق البترول !



شكل ١٠ - خريطة طباقية مقارنة بين الصهيونيات والصليبيات . النواة الصلبة مشتركة ، ولكن الأولى توسعت شمالا أكثر ، والثانية جنوبا أكثر . غير أن النهاية ستكون واحدة .



شكل ١١ - رسم بياني تخطيطي لنحني الصراع العربي - الإسرائيلي ، ما كان منه وما قد يكون . إذا استمرت الاتجاهات الجديدة ، فمقد لا تعمر إسرائيل أكثر مما عمرت حتى الآن .

والتي بدونها ما كانت لتعيش فضلا عن أن تحقق مستوى معيشة وتنمية تتفاخر به كذبا وادعاء على العرب «المتخلفين» حولها، لو أننا حصرنا هذه وتلك لوجدنا الأولى أضعاف الأخيرة ، أى أن الاستعمار البترولى ، كان يمول إسرائيل إلى حد التخمّة بجزء فقط من مكاسبه من البترول العربى .

فلو أضفنا بعد ذلك سيل السلاح المتطور المتدفق على إسرائيل لتقتل به العرب (تذكر : «ادفع دولارا ، تقتل غريبا»!) وتستبقيهم رهينة الاستعمار الصهيونى والإمبريالى وتنتزع أوطانهم بالقطاعى، لأدركنا أن البترول كان سلاحا يأخذه الاستعمار من العرب باليمين ليضعه فى يد إسرائيل بالشمال لتقتلهم هى به بكتا اليمين والشمال معا. البترول، فى الخلاصة الصافية ، ثروة فريدة تخرج من أرض العرب لتعود، بعد دورة غير مباشرة ولكنها غير خافية، سلاحا فى يد عدو العرب يقتلهم به فى أرضهم أو يطردهم منها كلية.

ولما كانت أمريكا بوجه خاص هى المسيطر على الجزء الأكبر من امتيازات واحتكارات البترول العربى (أكثر من ٦٠٪)، وكانت أيضا المورد الأساسى للسلاح والأموال لإسرائيل، فإنها بذلك كانت «الوسيط» الأول بين العرب كضحية وبين إسرائيل كقاتل، تماما مثلما كانت «الوسيط» الأكبر بتروليا بين العرب كمنتجين وأوربا كمستهلكين. إن الدور والدورة أوضح ما يكونان ، وإسرائيل تعيش وتسمن وتفرد على دماء العرب مرتين، بيدها وبيد أمريكا، مباشرة وغير مباشرة ، بيولوجيا واقتصاديا، حرفيا ومجازيا، لاجئين وبترولولا، ودعك تماما من الاعتبار الأصغر، على خطورة الجسيمة، وهو احتمال إعادة تصدير البترول العربى نفسه أو مشتقاته من الغرب إلى إسرائيل، تدير به آلة اقتصادها وآلة حربها ضد العرب.

وكان لابد إذن للعرب من «تسييس» بترولهم، وتحويله من سلاح اقتصادى بحت إلى سلاح سياسى مسلط، حاسم وبتار. وفى ظل الوفاق العربى الحكيم، برز البترول لأول مرة «ملكا King Oil»، ومنذ اللحظة الأولى فى المعركة العسكرية، ازبجت بمعركة سياسية موازية لاتقل خطرا وفاعلية.

حرب البترول النفسية

ومنذ تلك اللحظة أيضا لجأ الاستعمار إلى لعبة الحرب النفسية مرة أخرى. فزعم حيناً

أن «سلاح البترول الذى يهدد به العرب هو سلاح وهمى»، كما قالت مايير، «فلقد عرفت القيادات العربية طعم الرخاء الاقتصادى، وهى ليست على استعداد للتضحية بهذا الرخاء فى سبيل قضية عربية مشتركة» كما فسرت. ثم إن البترول ليس ذلك السلاح السياسى المطلق الذى يتصوره العرب، فليس أمام العرب إلا أن يبيعوه أو يشربوه كما قال أبا إيبان (!). وأضافت أمريكا بالذات أنه سلاح مفلول غير مؤثر بالنسبة لها، بزعم أنها لاتعتمد عليه إلا غرارا ولما. كما أفاضت فى الحديث عن «البدائل» ما ظهر منها وما بطن، ومشروعات كبرى لتحقيق «استقلالها القومى» فى الطاقة سنة ١٩٨٠... إلخ. ثم زعم الاستعمار حيناً آخر أنه لايتصور حقا أن تتحد كلمة العرب وأنهم لم يتفقوا قط إلا على أن يختلفوا، وأن الأمر كله لايعود أن يكون تهديدا أجوف غير جاد، أى «تهويشا» سياسيا bluff ليس إلا. فلما لمسوا أن الخطر حقيقى ووشيك، راحوا يروجون أن العرب لن ينجحوا فى استخدام سلاح البترول بقوة وكفاءة، وأنه سوف يرتد لذلك إلى صدورهم، كذلك هذبوا بعقوبات مضادة كتجميد إن لم يكن مصادرة الأرصدة العربية فى البنوك الغربية، وكحظر توريد السلع الغذائية والصناعية فضلا عن الأسلحة إلى الدول العربية، ومحاصرتها حصارا بحريا أو قاريا... إلخ.

وفى النهاية، حين شعروا بعقم هذه الإجراءات التهديدية وبأنها هى التى قد ترتد إلى صدورهم حيث أن أمام العرب بنوكا وأسواقا وأسلحة بديلة فى العالم الواسع، لجأوا إلى التهديد العسكرى السافر، سنحتل مناطق البترول، تلك «السلعة الحضارية»، لصالح «العالم المتحضر». وفى هذا المعنى تواترت الأنباء عن اتصالات بريطانية - أمريكية لتخطيط العملية، وعن مناورات حربية أمريكية على مسارح صحراوية لحرب صحارى البترول، وعن تحذيرات علنية بأن على العرب ألا يستبعدوا إمكانية العمل العسكرى المباشر للاستيلاء على مناطق البترول ومنابعه... إلخ. وقد رد العرب على الفور بأنهم على استعداد للاستغناء عن دخل البترول لسنين طويلة بل ولتدمير الآبار والعودة إلى حياة الصحراء إذا لزم الأمر، وبالفعل، أعلن أن كلا من الكويت والسعودية قد قامت بإحاطة حقول بترولها بحزام من المتفجرات لنسف الآبار عند أول بادرة غزو غربى معاد. ولا يفوتنا هنا فى التهديد الغربى العسكرى مغزى كلمتى السلعة «الحضارية» والعالم «المتحضر»، فهو ينضح بروح ورائحة العنصرية الكامنة والدفينة، فالصورة المتضمنة من

وجهة العقل الغربى هى ببساطة أن البترول كمصادفة جيولوجية جاء لسوء الحظ فى أيدى أمة من البرابرة تنذر بأن تتحول به إلى أمة من الوندال تخرب حضارة العالم الزاهية التى بناها بعلمه وعمله وتقدمه..

وإذا كانت أمريكا السياسية والرسمية، أكثر من أى أحد آخر، خلف كل هذه الدعايات والادعاءات والتهديدات، فقد كان يكمن خلفها بدورها جماعات الضغط الصهيونية الأمريكية وأصدقائها من محترفى السياسة الحزبية هناك، ومن خلف الجميع كانت تكمن «أو تبرز؟» إسرائيل التى حاولت عبثاً مغالطة أن تصور أزمة الطاقة فى العالم وفى أمريكا خاصة بأنها أزمة وهمية غير حقيقية أو مهمة، وأنه على أية حال فإن أمريكا لن تسمح لنفسها أن «تبيع الدم الإسرائيلى من أجل البترول العربى» (كذا) كما ردد مرارا وزيرها المغرور أبا إيبان، ولكن إسرائيل فى هذا إنما كانت تخدع نفسها فقط، والدعاية لاتغنى عن الحقيقة أو تغييرها، أو كما قال الصهيونى لأكير لم يكن فى استطاعة هذه الدعاية الساذجة أن «تجعل آبار البترول فى السعودية وليبيا والعراق تختفى أو أن تنقلها إلى صحراء النقب».

أو إقرأ ما قاله ايتسهاك رابين فى أغسطس ١٩٧٣ حين كان سفيرا لدولته فى الولايات المتحدة ولاحظ مافيه من دس واستعداء يطفح بالحقد: «إن هناك وعيا متزايدا هنا فى الولايات المتحدة بأن من المسموح به للعالم المتمدين فى حالة الاضطراب أن يستولى بالقوة على منابع البترول العربية. إن فى أمريكا من يقول: إذا كان بعض النظم التى تنتمى إلى القرون الوسطى ينوى حقا تهديد الاحتياجات البترولية لعدة مئات من الملايين فى العالم المتحضر، فإن من الطبيعى حينئذ أن يلجأ الغرب إلى استخدام الوسائل الفعالة لمنع حدوث ذلك».

غير أن المعركة، وهذا من نافلة القول وتحصيل الحاصل، بددت كل الأوهام. فقد أثبتت المعركة أن البترول كسلاح سياسى قد يكون أقوى من القنبلة الذرية كسلاح حربى، ولعل مما له مغزاه أن جريدة كالدنداي تايمز اعترفت، بعد أكثر من نصف عام على انتهاء معركة أكتوبر، بأن المعركة أثبتت أن «البترول سلاح لا يعادله سوى القنابل الهيدروجينية». ثم أضافت «إنه إذا كان ماوتسى تونج قد قال إن القوة السياسية تتبع من فوهة البندقية، فقد أظهر أكتوبر أنها تتبع من برميل البترول». البترول، باختصار، أخطر

وأرشف مادة استراتيجية فى عالمنا المعاصر وحضارة العصر. إنه، نكاد نقول حرفيا، دم الحضارة الصناعية، وخط الحياة بالنسبة لجميع خطوط الإنتاج الحديثة، من أضخم جهاز تكنولوجى إلى أصغر منشأة هندسية، بغيره تشل الحضارة الحديثة ويتدهور مجتمع الوفرة والاستهلاك ويرتد العالم المتطور إلى حضارة ما قبل العصر الصناعى ولا نقول حضارة العصور الوسطى.

والعالم العربى من ناحيته هو «عاصمة العالم بتروليا» كما قلنا: أكثر نوعا من ثلثى احتياطى العالم بأسره، أكثر كثيرا من نصف تجارته الدولية، وأكثر جدا من ثلث الإنتاج العالمى، وعلى هذا فإن العرب، أكبر مصدر فى العالم، فى موقف احتكارى لاجدال فيه، وفى مركز قوة تفاوضية لاسبيل إلى تجاهله، ابتداء من تحديد الإنتاج إلى ضبط الأسعار حتى سياسة الحرمان المطلق denial measure. وكل عام يمضى، بل كل يوم، تزداد فيه هذه الاتجاهات نموا وتبلورا وهذا الموقف قوة وتسييدا.

وإذا كانت هناك مناطق أو دول لا تعتمد مباشرة وبصورة حاکمة على بترول العرب فى تسيير عجلة انتاجها ودورة ألتها الصناعية، كالولايات المتحدة أساسا، فإن هناك عوالم بأسرها تعيش عليه: أوروبا الغربية واليابان أساسا، الأولى بنسبة نحو ٧٠٪ فى المتوسط (تتراوح من دولة إلى أخرى بين ٥٠٪ كحد أدنى، ٩٥٪ كحد أقصى)، والثانية بنسبة ٨٥ – ٩٠٪ (باعتبار الشرق الأوسط كله) وبين هذين الطرفين النقيضين لاتكاد دولة فى العالم تستغنى عن البترول العربى بنسبة أو أخرى، بما فى ذلك لأسباب فنية حتى بعض الدول المنتجة للبترول.

وفضلا عن هذا فإن سوق البترول العالمية. هذا السائل الإكسبرى، هو نظام مغلق closed system من الناحية العملية، أشبه فى دينامياته بالأوانى المستطربة، كل نقص هنا يستتبعه تغيير هناك، والعكس، وكل برمىل يحبس عن السوق تنعكس آثاره على مستهلكيه هنا وعلى غير مستهلكيه هناك، ويصدق هذا إلى أقصى حد فى السنوات الأخيرة بوجه خاص حيث زاد الطلب على العرض بشدة وبانتظام، بحيث تنبأ البعض «بمجاعة بترولية» إذا استمرت هذه الاتجاهات، بينما أصبحت «أزمة الطاقة» من قبل من مفردات السياسة الدولية الدارجة والسارية والاكثر شيوعا – وإقلاقا أيضا..

البتروى «ملكاء»

فى إطار هذه المعطيات الجبرية، ألقى العرب بسلاحهم المشرع والمشروع فآلقوا بالعالم الاقتصاى المعادى أو اللامبالى فى نومة من الفوضى وفى اضطراب صاىم بىء كل غفلة ووهى. فكما جاءت معركة أكتوبر صدمة صاعقة للعدو الإسرائيلى، جاءت معركة البترول صدمة كهربائية للغرب أفاق عليها من التنويم المغناطيسى الصهيونى (أو بالأصح الاستنامة له).

وبطبيعة الحال فإن خفض انتاج البترول العربى أو حظر تصديره لم يكن هو الذى خلق ماسمى بأزمة الطاقة فى العالم أو فى أمريكا، فالحديث عن هذه المشكلة سبق معركة أكتوبر بسنة وبعض سنة على الأقل. ولكن كان للمعركة، كما فى كثير من جوانبها الأخرى، دور المفجر والمعجل والمضاعف multiplier .. فقد جاءت اللحظة الحرجة تاريخيا وسيكولوجيا فضاعفت أبعادها بمعدل هندسى لا حسابى.

ومن حسن الحظ أن المواجهة جاءت بعد أن كان موقف العربى المالى العالمى قد تغير تماما عما كان مألوفاً من سنين. فلقد كان تراكم لهم فائض مالى هائل فى السنوات الأخيرة أصبح يغنيهم عن لهفة انتظار الدخل السنوى وحررهم من ضغوطه الآنية. ومن حسن الحظ أيضا أن توقيت الطبيعة جاء هو الآخر متوافقا مع توقيت المعركة، فقد دشنت معركة البترول والشتاء الأوروبى القارس على الأبواب، أو كما قال بعضهم فى الغرب، لقد جند «الجنرال شتاء» نفسه فى خدمة «الملك بترول»!

أما النتائج الاقتصادية المباشرة فكانت بالغة الأثر بل باترة: هزة خطيرة فى الإنتاج وضغوط انكماشية وأخرى تضخمية بعيدة المدى، بطالة متزايدة وأحيانا مخيفة، غلاء جارف وارتفاع فى الأسعار مع انخفاض فى مستوى المعيشة وفى معدلات التنمية الاقتصادية، شلل جزئى أو زاحف فى النقل والمواصلات والحركة، اختلال تام فى نمط الحياة اليومية والمنزلية.. إلخ.

أما بالنسبة للمستقبل، فقد ولت إلى الأبد - هكذا أبرك الغرب الصناعى - أيام الطاقة الرخيصة بغير حدود، «أيام العز» الذهبية the real bonanza days، والانطلاق الصناعى الفائق على حساب العالم المتخلف، وإفراط الصناعة فيه - Over industrialization كمكافئ موضوعى (أو غير موضوعى!) لتفريط الصناعة

في العالم الثالث under-industrialization ويمكن القول بكل ثقة إن أحوال العالم الاقتصادية على النحو التقليدي السائد حتى قريب لن تعود قط ثانية. بل أكثر من هذا، وكما قرر بيير ميسمير رئيس وزراء فرنسا بكل جلاء، بدأ العالم يدخل الآن مرحلة اقتصادية جديدة تماما بسبب حرب أكتوبر. لقد ثورت الحرب العربية الناجحة، عن طريق البترول العربي الحاكم، هيكل الاقتصاد العالمي، مثلما ثورت بفعلها المباشر الاستراتيجية العالمية.

أما على المستوى الحضاري، فقد أثبتت معركة البترول وأكدت فضل العرب على المجتمع الصناعي الحديث، فالتجربة الواقعة أثبتت أن البترول عامة والبترول العربي خاصة هو الذي صنع الثورة الصناعية الثانية، ثورة العلم والتكنولوجيا، في الغرب بعد أن استنفدت الثورة الصناعية الأولى، ثورة الفحم، أغراضها وعصرها، هو البترول، وخاصة العربي، الذي جعل ممكنا المجتمع الاستهلاكي ومجتمع الوفرة والرفاهية والرخاء ومجتمع مابعد الصناعة، إن البترول العربي وقناة السويس هما أخطر أعمدة حضارة أوروبا الصناعية المعاصرة، إغلاق القناة خنق أوروبا، وخفض البترول أصابها بالأنيميا والشلل، بل هما أيضا أعادها إلى الماضي الغابر: الأول أعاد شبكة النقل العالمي إلى نمط العصور الوسطى حول الرأس، والثاني أعاد عصر الخيول وعربات الخيل ومواقد الخشب والفحم!

بل لقد أثارت الأزمة الأسئلة الفلسفية الأساسية عن حضارة هذا العصر وحضارة المستقبل ومستقبل الحضارة، إلى أين، وإلى متى هذا الاقتصاد الهدمي والاستنزاف النهم المسعور لموارد الطبيعة المحدودة غير المتجددة، ما جدواها حضارة الاستهلاك المحمومة هذه... إلخ؟ لقد فرضت الأزمة على الإنسان وعلى البشرية، باختصار، وقفة حضارية مع النفس قد تتمخض في أسلوب جديد للحياة على هذا الكوكب الصغير وعن فلسفة جديدة لروح العصر.

ومن الغريب، أو لعله ليس غريبا، أن الصهيونية العالمية حاولت بالحقد كله أن تنفث سموم دعايتها في أنحاء العالم لكي تدق أسفينا بين العرب والغرب خاصة ولكي «تقلب المائدة» على العرب الذين شبهتهم «بقطاع طرق القرون الوسطى» (لاكير)!. ففي البداية، حين برزت وحدة العرب وصلابة الموقف العربي، أثارت الصهيونية نغمتها المكنوية عن

«هذه الحرب الصليبية» التي يجدها «التعصب العربى» على العالم الغربى ويشنها على الغرب المسيحى» (كذا!). ولم يكن هناك قلب للحقائق أبشع ولا أخطأ من هذا، فإنما الصهيونية وحدها هى صليبيات العصر، والعرب وحدهم هم ضحيتها.

أما فى النهاية، حين تبددت هذه الدعاية المبتذلة فى مناخ الإهمال والازدراء، بدأ الحديث عن «الابتزاز البترولى» العربى، وهى النغمة التى لاتزال أمريكا ترددها للآن. وتلك أيضا دعوى رخيصة مضللة، فإنما سلاح البترول العربى سلاح مشروع للدفاع عن النفس، والدعوة إلى عدم استعماله دعوة إلى الانتحار. أما الابتزاز فهو فن قننه بل وشرعه الآخرون، وضد العرب بالتحديد، حرب التجويع وسلاح القمح، سياسة القروض وسحب عروض التمويل، خفض أسعار الخامات... إلخ. ذلك وبنون أن نذكر أن الوجود الإسرائيلى برمته ومن أساسه فى المنطقة هو ابتزاز أمريكى نووى وغير نووى، كما أن النفوذ الصهيونى فى أمريكا هو بدوره ابتزاز إسرائيلى، سافر ومستمر، بل إن آخر مظاهر الابتزاز الأمريكى هو تهديدها المتكرر بحظر صادراتها الغذائية وخاصة القمح والحبوب إلى الدول العربية والنامية كرد مضاد على حظر البترول.

استراتيجية المعركة

إن الكلاب تنبح، ولكن القافلة تسير، قافلة العرب، باقتدار وذكاء، وفى مرونة واعية وانضباط فى التوقيت والتصعيد والتهبيط، شهد بها الجميع، راح العرب يطبقون خططهم فى خفض الإنتاج وفى تصنيف الأعداء وفى تحديد الأسعار (كان أول رد فعل حائق خرج من إسرائيل عن سرعة تحرك ومرونة العرب هى أنهم قد تعلموا فيما يبدو الكثير من الدبلوماسية مثلما تعلموا من فنون القتال منذ حرب يونيو). فأما عن الخفض، فقد بدأ أولا بقرار بتحديد الإنتاج بنسبة ٥ - ١٠٪ مما كانت عليه معدلات شهر سبتمبر السابق للمعركة، على أن يترك لمن يشاء من الدول العربية أن يرفع الخفض إلى ٢٥٪، تزداد بعد ذلك بنسبة ٥٪ كل شهر.

غير أنه بتلقائية فذة، قفز معدل الخفض فورا وعند الجميع إلى نسبة «السقف» المحدد، ٢٥٪. لهذا، وحين أتى الخفض آثاره وأحس الجميع بوطأته، ومنعا لحدوث أى شرخ أو مضاعفات فى العلاقة الجديدة الناشئة مع أوروبا الغربية، عاد العرب فقرروا تهبيط نسبة

الخفض إلى ١٥٪ ابتداء من يناير ١٩٧٤، وذلك باعتبار هذه النسبة الحد الكافى للتأثير دون الإضرار.

أما عن التصنيف، فلم يكن سلاح الحرمان عشوائيا بلا تمييز، ولو قد كان، ووضع الكل فى سلة واحدة لجمع الكل أنفسهم فى جبهة ومواجهة واحدة ضد العرب، وهذا بالدقة ما حاولته أمريكا حين راحت تضغط على أوروبا الغربية واليابان بخاصة لتكوين جبهة من المستهلكين تقاوم ضغوط المنتجين العرب، «اتحاد المستهلكين» المقول الذى يكاد يذكرنا سياسيا واقتصاديا «بجمعية المنتفعين» سيئة السمعة والمصير التى حاولوا فرضها إبان أزمة السويس ١٩٥٦ .. ولم تخف أمريكا أغراضها الحقيقية، من هذه الدعوة، إذ وضحت أن هدفها هو «إرغام» الدول العربية على تخفيض أسعار البترول أولا وضمان تدفقه ثانيا، لقد تزعمت أمريكا حملة العداء ضد العرب وحرب البترول المضادة، فهل نجحت؟ .

تحت ضغط المصالح البترولية الحقيقية، ورغم كل الضغط الأمريكى السافر والمباشر، تباعدت اليابان بحذر شديد عن هذه اللعبة الخطرة، وأعلنت للعرب، وهى التى يعتمد اقتصادها اعتمادا شبة كلى على بترولهم والخليج، أنها حريصة كل الحرص على عدم التورط فيها، كما تباعدت بوضوح عن إسرائيل سياسيا واقتصاديا، فأعلنت تأييدها السياسى لحقوق العرب العادلة وقرار ٢٤٢، وطبقت قواعد المقاطعة التجارية للمصالح الإسرائيلية وذلك رغم تهديدات الصهيونية الأمريكية بمقاطعتها عالميا، كذلك تقدمت إلى العالم العربى بعروض القروض والمساعدات الاقتصادية ومشروعات التنمية والمشاركة فى الإنتاج الصناعى وإعادة التعمير وتصنيع البترول.... إلخ.

وهنا يمكن القول باطمئنان إن أزمة الطاقة التى تعرضت لها اليابان قد فرضت عليها موضوعيا أن تخرج من عزلتها السياسية لتلعب دورا عالميا لأول مرة منذ الحرب الثانية، وكان الشرق الأوسط هو مسرحه الأول والأساسى، وعلى هذا يمكن القول أيضا بثقة وتأكيد إن العرب وأكتوبر بالتحديد هى المناسبة التاريخية كما هى العوامل الضابطة أو الضاغطة التى ساعدت هذا العملاق الاقتصادى الذى كان قزما سياسيا تقليديا أن يرتفع سياسيا إلى مستواه الاقتصادى، يتخلص أكثر من وقر الوصاية الأمريكية الكاتمة،

ويقترب أكثر وأكثر من مكانه المحجوز له في نظام تعدد المراكز في العالم، وهذا أثر آخر من آثار أكتوبر المحققة على هيكل السياسة العالمية.

هذا عن اليابان ، أما عن أوروبا الغربية، التي لاجدال في دور أكتوبر في تعميق، استقلالها وتباعدتها عن أمريكا، والتي تقود فرنسا معركتها للاستقلال القاري والوحدة الأوروبية، فقد عارضت اقتراح اتحاد المستهلكين الأمريكي وأوضحت بإصرار أن هذا إجراء سيعده العرب عملا عدائيا وسيعطيه الانطباع بالتحدي والمواجهة ولن يفعل في النهاية سوى أن يوسع الهوة ويضاعف الأزمة بدل أن يحلها، وكاقتراح مضاد، طلبت فرنسا تشكيل اتحاد من المنتجين العرب والمستهلكين في الغرب للتنسيق والتفاهم. وفي الوقت نفسه قاومت فرنسا كل الاتجاهات الانتهازية داخل السوق الأوروبية التي حاولت أن تتلاعب بالموقف العربي أو أن تدور من حوله.

ومن الضروري هنا أن نلاحظ بموضوعية أن الموقف الأوربي يمتاز مع ذلك بثلاث ظاهرات حتى الآن، أولا أنه غير متجانس تماما، فما زالت هناك دول مترددة أو غير متجاوبة مع الحق العربي، وعلى الأقل فإن دولة واحدة معادية للعرب علنا (هولندا). ثانيا، أنه لا يخلو جزئيا من انتهازية بادية، وربما من تلاعب غير مخلص، وهو في كل الأحوال موقف اضطراري أكثر منه عن قناعة وعدل، ثالثا، وأخيرا، أنه لم يزل يقدم الكلمات والبيانات أكثر من الأفعال والضغط، بزعم أنه لا يملك وسيلة لذلك على أي من أمريكا أو إسرائيل.

ومن الناحية الأخرى فقد بدأت بعض الدول الأوروبية تعقد عقودا مباشرة وطويلة الأجل مع بعض الدول العربية لضمان حصولها على البترول بكميات ضخمة ولعشرات السنين المقبلة، وأول وأبرز مثال لذلك فرنسا مع السعودية، بينما يبدو أن بريطانيا واليابان تحاولان تكراره، ومن هنا فقد تتمخض الأزمة في النهاية عن نتيجة تاريخية حاسمة وهي إعادة إقامة العلاقات البترولية بين العرب وأوروبا الغربية على أساس مباشر يستبعد دور الشركات الأمريكية، وسيط استغلالي طفيلي.

ولعل هذا بالدقة ما تخشاه الحكومة الأمريكية وما تصارع ضده صراعا محموما، فالخوف عندها هو أن تتمخض المواجهة عن «أبعادها» من العالم العربي بتروليا بأوضاعها الاستغلالية المفروضة القديمة، وحلول أوروبا الغربية محلها برغبة العرب

وبشروطهم ويأوضاع جديدة من وضع العرب أنفسهم، فلو حدث هذا لانقلب الموقف الذى كان قائما بين المتنافسين فى حرب ١٩٥٦، حين انتهزت أمريكا الفرصة لتطرد «الاستعمار القديم» من المنطقة وترثه فيها كاستعمار جديد، والفارق الأساسى فى الحالة الجديدة إذا تحققت هو أن التقدم هذه المرة سيكون من صيغة «الاستعمار الجديد» إلى صيغة «الوفاق الجديد».

ومهما يكن من شىء، فالواضح حتى الآن أن السياسة الأمريكية البترولية المضادة للعرب قد فشلت، وكان التخطيط العربى أبرع، وبدلا من أن تشق أمريكا الصف العربى شق العرب الصف الغربى. ذلك أنهم صنفوا المستهلكين حسب مواقفهم من القضية العربية ومن إسرائيل إلى ثلاث فئات: الأصدقاء، ولهم أن توفر كل حاجاتهم المشروعة من البترول دونما فرص للتسرب أو التسريب، من هؤلاء فرنسا وبريطانيا ثم بعض دول أخرى من أوروبا الغربية، فضلا عن الدول الإسلامية والافريقية ودول عدم الانحياز التى وقفت بجانب العرب. ثم هناك المحايدون الذين كفوا عن الانحياز إلى العدو أو السير فى ركاب الولايات المتحدة. وعلى هؤلاء يسرى التخفيض، ولكن دون حرمان. هنا وضعت بقية دول أوروبا الغربية، كما كانت تأتى اليابان التى حسنت موقفها كثيرا فنقلت إلى قائمة الأصدقاء، وأخيرا فإن هناك الأعداء، على رأسهم أمريكا، الهدف الأساسى لحرب البترول فى الصراع العربى - الإسرائيلى جميعا. أما فى الذيل فدول توابع أمثال هولندا والبرتغال وغيرهما. والحرمان الشامل هو هنا الحد الأدنى الممكن من العقاب الواجب.

وربما حاولت هذه الفئة الأخيرة، وغيرها، أن تخترق حاجز الحرمان أو أن تتسلل حول حائط المقاطعة بطريقة أو بأخرى، وهناك فعلا إشارات غامضة وشواهد متواترة على وجود بعض ثغرات فى تنفيذ الحظر كانت تؤدى إلى وصول بعض التسرب إلى معسكر الأعداء. بل لقد أعلنت أمريكا رسميا عن «تزايد» امدادات البترول العربى الواصل إليها دون أن تفصح عن مصادرها وكيفيةها، ولاشك فى أن الشركات الأمريكية العاملة فى المنطقة العربية هى التى كانت تقف وراء هذا التلاعب، ومن الضرورى التنبيه لهذه الثغرات وسدها مهما كانت ثانوية - ويبدو أنها ليست كذلك تماما.

كذلك كان لابد من ضبط معدلات التخفيض فى الإنتاج والتصعيد فى الأسعار بحيث لا يتأثر الأصدقاء فى الغرب الصناعى أو فى العالم الثالث الفقير أكثر مما يتأثر الأعداء، وحتى لا يضار الاقتصاد والعملات والنقد الأوروبى واليابانى أكثر من الاقتصاد والدولار الأمريكى، كما حدث بالفعل على ما يبدو حيث حققت أمريكا مكاسب ملتوية من أزمة الطاقة محليا وعالميا وتحسن وضع دولارها على هذا الأساس.

والواقع أن هناك من يرون أن التكتيك الذى نفذت به استراتيجية تحديد ضخ وتصدير البترول لم يلحق ضررا كبيرا أو مؤثرا بأمريكا بقدر ما أضر بأصدقاء العرب الأوربيين، فالشركات الأمريكية المنتجة فى العالم العربى هى تلقائيا شركاء فى لعبة الأسعار، بل الشركاء الأكبر، وهى مستفيدة منه بالضرورة، بل إن لها مصلحة فى رفع الأسعار، وأكثر من ذلك ثبت أنها كانت تناور منذ مدة وتتلاعب بالأسعار وأنها حققت بالفعل أرباحا فى العام الأخير أكثر مما حققت فى أى عام مضى.

وهناك أيضا مؤشرات على أن أمريكا رحبت فى قراراتها بالأزمة من حيث أنها شلت الاقتصاد الأوروبى واليابانى المنافس لاقتصادها، وجدت فيه كذلك بالتالى أداة لإعادة سيطرتها السياسية على أوربا الغربية وإخضاعها لضغوطها من جديد، وبهذا كله فقد يكون من المحتمل أن أمريكا أفادت من معركة البترول بدرجات متفاوتة اقتصاديا وسياسيا، إلى جانب معاناتها وخسائرها بالطبع . أو فلنقل أفادت بقدر ما أضررت سواء على هذا المستوى أو ذاك .

معركة الأسعار

تبقى أخيراً معركة الأسعار . لقد أضر المنتج العربى للبترول فى السنوات الأخيرة بسبب سلسلة تخفيضات قيمة الدولار الأمريكى وغيره من العملات الغربية ، ونزلت براء وس الأموال العربية ودخل البترول العربية خسائر فادحة فى يوم وليلة تقدر بمئات الملايين من الدولارات ، فضلا عن الزيادات المحمومة والمفتعلة فى أسعار السلع الصناعية والمنتجات الغذائية التى فرضتها الدول الصناعية على صادراتها إلى الدول العربية وغير العربية فى العالم الثالث . وقد وصلت هذه الزيادات فى بعض السلع إلى نحو ثلاثة وأربعة الأمثال فى بضع سنين فقط . ومعنى هذا باختصار أن العرب كانوا يصدرون دم حياتهم إلى أمريكا والغرب ، فتصدر أمريكا إليهم التضخم وهبوط العملة وانخفاض مستوى المعيشة .

من هنا كان طبيعيا أن يقترن خفض انتاج البترول العربى منذ المعركة برفع أسعاره ، أولا اعادة للتوازن بين أسعار الخامات والمصنوعات فى دورة التجارة الدولية ، وثانيا تعويضا عن نقص الدخول البترولية الناشئ . بل أن المقدّر أن القيمة الحقيقية لدخول الدول البترولية قد تقصر ، حتى بعد كل زيادة أسعار البترول الأخيرة ، دون مثيلتها منذ سنوات بل وحتى أيام المناصفة ، وذلك لانخفاض قيمة العملات من جهة وارتفاع أسعار الواردات الصناعية والغذائية من جهة أخرى .

على أية حال ، فلسوف يسجل التاريخ لمعركة أكتوبر فضلا كبيرا على العرب ، مثلما سجل للعرب فضلا كبيرا عليها . ليس فقط أنها قد ضاعفت من دخولهم البترولية بصورة صاروخية ، ولكن - وهو الأهم - أنها فتحت أمامهم عصر «التحرير الاقتصادى» على أوسع أبوابه . فلقد كانت المعركة مناسبة ملائمة جدا لأن يحقق العرب استقلالهم الفعلى عن شركات البترول الاحتكارية التى كانت تتولى تحديد أسعار البترول المعلنة وتتلاعب بها تلاعبا فاضحا ، وهذا عدا ما كانت تفرضه عليها من معدلات ومستويات لا ترتبط بالقيمة الحقيقية للسلعة فى السوق العالمية . فلأول مرة فى تاريخ البترول العربى انتزعت الدول المنتجة حق تحديد الأسعار من جانب واحد .

هكذا ، من دولارين أو أكثر قليلا بالكاد قبيل المعركة ، قفز السعر للبرميل إلى ١٤ ، ١٥ دولارا بل وإلى ١٨ دولاراً فى سقفه الأعلى ، وإلى ١١ دولارا فى المتوسط ، وذلك فى غضون شهرين تقريبا . وعموما قدرت الزيادة بنحو ٤٠٠٪ فى الشهور الثلاثة الأخيرة . لقد أنفق العرب منذ نهاية الحرب الثانية أكثر من ٢٥ سنة وهم يكافحون ويصرخون ليزحف ثمن البرميل من بضعة شلنات إلى دولارين كحد أعلى ، فإذا به بفضل أكتوبر يتضاعف من هذا الحد إلى تسعة أو عشرة أمثال فى أقل من ٥٠ يوما ! وفى أعقاب العرب توا ، ابتداء من أندونيسيا إلى ايران ومن فنزويلا إلى بيرو ، جاء بقية المنتجين .

بهذا أجد ، من الناحية الحسابية البحتة ، أن الدول العربية البترولية قد تضاعفت دخولها من البترول عدة أضعاف بفضل المعركة ورغم خفض الانتاج ، هذا الخفض الذى حافظ أيضا على رصيدها للمستقبل البعيد بعد النزح المقتن والمنظم الذى مارسه الشركات عقودا ، ويكفى فى هذا الصدد رقم واحد : قبل حرب أكتوبر بلغ مجموع دخل الدول العربية من البترول يوميا نحو ٣٠ مليون دولار ، وبعد الحرب ورغم خفض الانتاج

والصادر بنسبة ١٥ - ٢٠٪ تقريبا قفز مجموع الدخل اليومي إلى ١٠٠ مليون دولار، أو بنسبة ٣٣٣ ٪، أى أكثر من ثلاثة أمثال . وهكذا أيضا حققت دول العرب البترولية لحسن الحظ ويفضل المعركة أرباحا مباشرة تعادل أضعاف ما دفعوه فى تمويلها من دعم ومساندة (يقدر البعض نسبة هذا التمويل إلى هذه الأرباح بنحو ١٪) . وبهذا جاءت المعركة نصرا اقتصاديا لدول المساندة ، كما جاءت نصرا عسكريا لدول المواجهة ، وكما جاءت نصرا سياسيا للجميع .

وفيما عدا هذا فلقد يرى البعض ، موضوعيا ، أن هناك من كان يحاول أن يستغل الفرصة لصالحه أكثر منها لصالح القضية المصرية ، أو أن بعض الدول البترولية غالت نوعا فى رفع الأسعار ، أو أن هناك خطرا من الفصل أو محاولة الفصل بين حرب البترول وحرب أكتوبر بالتدريج جريا وراء المكاسب المادية . والمهم على أية حال أن يظل المبدأ المسود هو أن البترول فى خدمة المعركة وليست المعركة فى خدمة البترول .

ومن هذه الزاوية ، لم يعد هناك شك أن مشكلة العالم الآن لم تعد تدفق البترول بقدر ما أصبحت ارتفاع أسعاره . وهناك حسابات مفصلة يقدمها الغرب عن الخسائر والأضرار المادية التى ستلحق باقتصادياته وإنتاجه نتيجة لأسعار البترول الجديدة ، وتقدر هذه الحسابات بمئات المليارات من الدولارات سنويا . كذلك رأى البعض أن خطر التهديد العسكرى - الأمريكى أساسا - لمناطق البترول قد زاد وأصبح واردا بعد موجة رفع الأسعار بالذات ، وأن على العرب أن يأخذوا ذلك التهديد بجد واهتمام . وفى المقابل ، أعربت بعض الدول العربية عن اقتناعها بأن تلك الزيادة فى أسعار البترول كان مبالغا فيها بعض الشيء ، وأبدت رغبتها فى تخفيضها نوعا ، ولو أن البعض الآخر يعارض ويربط بين أى تخفيض فيها وبين تخفيض الدول الغربية لأسعار منتجاتها الصناعية والغذائية . وعلى الجملة يبدو أن المرونة والحقن اللذين اتسمت بهما سياسة الضخ والانتاج قد تمتدان أيضا إلى سياسة رفع الأسعار .

انقلاب تاريخى وكوكبى

وعلى أية حال ، ومهما تكن التطورات المقبلة ، فيبقى أن المجابهة الحادة قد تركت بصماتها عميقة إلى الأبد على عالم البترول وغيرت هيكل العلاقات الاستغلالية التقليدية التى سادت طويلا وصفتها إلى غير رجعة . كيف ؟ من ناحية لقد تحرر العرب من ابتزاز

الشركات فحرروا معهم سائر المنتجين ، وبذلك حطم عالم البترول كل محاولات الغرب لفرض الوصاية الاقتصادية عليه . لقد أعطى العرب ، كأمر واقع ، قيادة ناجحة وشجاعة للعالم الثالث، ستمتد آثارها ومضاعفاتها لا شك إلى بقية دوله ، وأعطى البترول نموذجا طموحا وقادرا لكل المواد الأولية الخام فى العالم .

ومن تحصيل الحاصل بلا ريب أن نقول إن البترول كسلعة استراتيجية مطلقة الحاکمية هو المادة الخام الوحيدة بين خامات العالم التى كانت قادرة على أن تعطى ، وأعطت بالفعل ، تحديا وتهديدا وندية حقيقية لأقوى صناعات العالم التكنولوجية الغلبة والعالم الصناعى المسيطر . ومن السخرية لا شك أن يصور الغرب الموقف كله بالمقلوب ، فيحاول أن يتباكى على مصالح الدول النامية وامكانيات تنميتها نتيجة رفع أسعار البترول العربى . ولكن الحقيقة أنه انما يحاول أن يدق اسفينا بينها وبين الدول العربية يشق به جبهة العالم الثالث الموحدة ويقلب بذلك المائدة على العرب .

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى أثبت العرب بمعركة البترول حقيقة انقلابية مذهلة بقدر ما تبدو شاذة . فلقد الفنا أن نتحدث عن الاقتصاديات العربية كالاقتصاديات تابعة *economies dominées* يعنى لاقتصاديات الغرب السائدة *-dominant economies* . الآن فإنه العكس تماما أو تقريبا : تبدو الدول الصناعية الفائقة التقدم وكأنها «التابعة» لدول البترول العربية على شدة تخلفها ! بل أن البعض ليتنبأ بأن المصالح العربية فى دول الغرب الكبرى هى التى قد تتعرض من الآن فصاعدا لاحتمالات «التأميم» ، بعد أن كان التأميم هو الخطر المعلق فوق رؤس مصالح تلك الدول المتقدمة والموجودة فى العالم العربى المتخلف ! لكنما هو البترول ، عصب الحضارة الحديثة ومانح الحياة للصناعة .

وحقيقة الأمر كله إذا نظرنا إليه ، كما ينبغى ، فى إطاره الواسع ، هى أن معركة البترول التى فجرتها معركة اكتوبر هى الطلقة الأولى فى معركة اقتصادية كوكبية أوسع مدى بكثير هى معركة الصراع بين الخامات ودول الخامات من ناحية وبين الصناعات ودول الصناعات من الناحية الأخرى ، وبالتالي بين العالم الثالث والعالم المتقدم . وهذه المعركة هى بدورها تعبير عن تغير هيكل العلاقات الجغرافية بين هذين العالمين فى عصر ما بعد التحرير وتصفية الاستعمار ثم عصر الاستقطاب فالوفاق وما بعدهما .

لقد كنا نقول دائما إن عصر الثورة الصناعية كان عصر الصراع على الخامات والأسواق . أما الآن فإن عصر الثورة التكنولوجية المعاصرة ، بما حقته من وفرة الانتاج المثيرة ورفع مستوى المعيشة الباذخ مع استهلاك فاحش وضغط رهيب على الموارد الطبيعية المتناقصة لعالم متزايد العدد ، هو عصر يطوف فيه الصراع من أجل الخامات على الصراع من أجل الأسواق . إن الغرب المعاصر ، بطفرته الانتاجية المذهلة وبمجتمع الوفرة والاستهلاك والرخاء المفرط ، لم يعد ينظر إلى العالم الثالث كسوق إلا نظرة ثانوية بالنسبة لسوقه هو المشتركة ذات الامكانيات والأبعاد الهائلة . غير أنه ، على النقيض تماما ولكن للسبب نفسه ، عاد ينظر إليه بكل اهتمام وتكالب كمستودع للخامات . إنها عودة الصراع على الخامات إلى بؤرة السياسة العالمية ، وذلك أيضا في ظل توازنات قوة جديدة . والبتترول هو رأس الحربة في هذا الصراع الكوكبي الجديد ، كما أن العالم العربي هو رأس حربة العالم الثالث في معادلة القوة العالمية الجديدة .

والخلاصة ؟ الخلاصة لقد أتت معركة أكتوبر ثورة بالبتترول وفي البترول وعلى البترول ، سياسيا واقتصاديا وماليا ، عربيا وعالميا . فجرت أولا مشكلة الطاقة العالمية بعد أن كانت كامنة أو شبه ذلك ، وضعت حضارة العالم المعاصر وحضارة الاستهلاك وجها لوجه أمام مشكلة المستقبل والبقاء وجدوى فلسفتها الأساسية ذاتها ، وأخيرا قلبت سوق النقد الدولية وكشفت عجز النظام النقدي العالمي الراهن وضرورة تغييره . وفي النتيجة فلقد غيرت المعركة أيضا موازين القوى في عالم البترول بين المنتجين والمستهلكين ، بين دول الخامات المتخلفة ودول الصناعة المتطورة ، أو بين «الذين يملكون والذين لا يملكون» Haves & Have No's ، وذلك نحو قدر أكبر من العدالة والتوازن . أو كما عبر الرئيس السادات في حديث له إلى مجلة نيوزويك «لقد غيرت أحداث ٦ أكتوبر كثيرا من الأمور في العالم . بل أنها فرضت «اعادة النظر» بطريقة جذرية على العلاقات بين الدول الغنية التي «تملك» والدول الفقيرة التي «لا تملك شيئا» في جميع انحاء العالم» .

بهذا كله بدأت الهوة السحيقة بين المتقدمين والمتخلفين وبين الشمال والجنوب ، تضيق نسبيا ، وأخذ الانحدار الجيوبوليتيكي الرهيب بين الطرفين يقل تدريجيا . أنه نمط جديد وثوري من أنماط القوة في عالم ما بعد أكتوبر ، ربما يشي بانبثاق «نظام عالمي جديد» ، المعركة وحدها والعرب اساسا هم مهندسو الأول والأخير . أو كما تقول ورقة أكتوبر «إن

الدول النامية أخذت بعد حرب أكتوبر تحس بأنها تملك عناصر قوة تتمثل في مواردها من المواد الأولية ، وأن صوتها في المجتمع الدولي يجب أن يسمع ، وأن مصيرها يجب أن يتحدد بمعرفتها وليس بقرارات تؤخذ في غيبتها .

حرب عادلة

أخيراً ، لنا أن نتساءل : هل حقق سلاح البترول أغراضه ؟ البترول بطبيعته كأداة سياسية سلاح طويل المدى بطيء المفعول ، يحتاج لأعماله بفاعلية مؤثرة إلى جرعات متتابعة متصاعدة وغير متباعدة من أعمال القوة وسائر الضغوط السياسية . ولكن المثير أن أثر البترول قد ظهر بأسرع مما كان مقدرًا . إن البترول هو أداة الحل السياسي ، حيث القتال هو أداة الحل العسكري . وقد كانت الاستراتيجية العظمى في بترول العرب هي أن يضغطوا به على أصدقاء إسرائيل وأمريكا لعزلهما أولاً ، ثم ليضغطوا هم ثانياً على أمريكا حتى تضغط هي على إسرائيل لكي تتسحب من الأراضي المحتلة . ولقد قلبت معركة البترول الموازين السياسية والدبلوماسية ضد إسرائيل كما قلبت الموازين العسكرية والاستراتيجية معركة الميدان من قبل .

وإذا كان قطاع كبير ، الأكبر في الواقع ، من العالم قد تعرض لمتاعب وصعوبات شديدة أو محدودة في العملية ، فلم يكن القصد من ذلك عقاب أحد ولا الإضرار بمصالح واقتصاديات أي أحد . ومع ذلك فإن العالم كله مسئول عن خلق إسرائيل ثم السكوت عليها وعلى أفعالها «وفتوحاتها» ، دع عنك أولئك الذين يؤازرونها ويشجعونها على العدوان بكل وسيلة منظورة وغير منظورة . على هذا العالم - ولنقلها ولا نخف - يقع دم الفلسطينيين والعرب من الضحايا واللاجئين والمشردين ، وعليه وزر اضطهادهم وتشنتهم . أنه لمن أبسط مبادئ العدالة الإنسانية - أليس كذلك ؟ .. أن يتنوق هؤلاء جرعة مما يجرعه الفلسطينيون والعرب كخبز يومي بانتظام واستمرار على مدى ربع قرن من الزمان .

إن تجربة معركة البترول تنبيه عادل للعالم أن العدالة لا تتجزأ ، كما أن السلام لا يتجزأ ، أو كما قال السادات «رسالة حاولنا أن ننقلها إلى العالم كله ، وهي أن العرب بعد السادس من أكتوبر يستحقون مكانهم تحت الشمس» . أو كذلك كما قال بومدين «إننا كنا ننتظر ولا نزال ننتظر أن تعيد أوربا تقييمها لعلاقتها مع الأمة العربية ، لا على أساس أنها مصدر الطاقة ولكن على أساس أنها مجموعة بشرية لها قيمتها ولها حقها في

الحياة» . المعركة حدث للجميع على الضغط على أمريكا ، والمطلوب من أصدقاء البترول العربى الآن المزيد من الفعل لا القول ، والضغط لا البيانات . عليهم أن يحاصروا أمريكا دبلوماسيا إلى حد الارهاق والاثام والادانة .

أما هذه ، فقد كانت هناك أسلحة أخرى إن احتاج البترول إلى أسلحة معاونة، هناك الأرصة العربية الضخمة فى بنوك الغرب . هناك التجارة الواسعة النطاق . مع أمريكا .. إلخ . وإن أجلا أو عاجلا كان على أمريكا أن تختار بين بترول العرب أو فتوح اسرائيل ، بين الاستثمار البترولى أو الاستثمار الاسرائيلى . ومنطق المصالح الحقيقية يقول إنه لا خيار أمامها فى الحقيقة ، ويوما ما ستتصادم حتما مع محميتها - أو معنا . وهذا فعلا هو ما بدأ يتحقق إلى حد أو آخر . فلقد سلمت أمريكا أخيرا فى اتصالاتها مع العرب بحقوقهم وتعهدت بتغيير موقفها المتحيز للعدو ويأتى تعمل على فرض الحل السلمى العادل فى وقت معقول . وعلى هذا قرر العرب فى مارس ١٩٧٤ رفع الحظر البترولى عن الولايات المتحدة ، بالإضافة إلى وقف خفض والغائه عن الدول الأوربية الصديقة ، واستمرار حرمان هولندا ، على أن يعاد النظر فى الموقف البترولى كله فى يونيو .

غير أن هناك نقطة مهمة فى موضوع البترول ، وإن كانت أدخل فى باب المستقبل . لقد تحول البترول العربى من مجرد سلاح اقتصادى إلى سلاح سياسى ، وأغلب الظن أنه لابد يتحول فى المستقبل إلى سلاح عسكرى . لقد رأينا كيف أن الصراع العربى - الاسرائيلى صراع لن يحسمه فى النهاية وعلى المدى البعيد الا المجابهة العسكرية ، وأن مناط المجابهة العسكرية الناجحة هو أساسا السلاح المتقدم الوفير ، وأن هذا السلاح محكوم بسياسات عليا للدول الأعظم ، وأن اختراق هذا الاطار يكمن فى غزو أسواق جديدة حرة مفتوحة للسلاح المتطور وأخيرا أن هذا لا يعنى الا غرب أوروبا فى الدرجة الأولى والتحليل الأخير .

الآن لا سبيل إلى فتح هذه الأسواق ، المغلقة أمامنا حاليا بدعوى الحياد ، الذى هو حياد بين المعتدى والمعتدى عليه ، إلا بالضغط ، والضغط البترولى أساسا . ولهذا لابد أن يأتى اليوم الذى يطلب فيه العرب أن يتم تبادل سلعتهم الاستراتيجية بسلع استراتيجية مكافئة ، البترول بالسلاح . إن هذا هو التحدى المستقبلى الذى على العرب أن يستعدوا له يوما ما فى القريب العاجل أو غير العاجل . وهو تحد لا نشك أن النصر فيه مكفول لمن يملك زيت الحياة الصناعية وزيدها . والمفهوم أن هذا قد بدأ يتحقق بالفعل ، وإن كان فى مراحله الأولى .

الفصل الثامن

٦ أكتوبر والعدو الاسرائيلي

من يونيو إلى أكتوبر

حين اختلس العدو نصره السهل الرخيص في يونيو ١٩٦٧ ، كان تقديره أن تلك هي «آخر الحروب» وأنهم قد أصبحوا سادة المنطقة نهائيا وإلى الأبد ، وأن حالة اللاحرب واللاسلم باقية لعشر سنوات قادمة على الأقل ، وأن العرب على الطريق إلى التسليم وتوقيع صك الاستسلام . وعليه ، جلس إلى جانب التليفون في انتظار مكالمة من المهزومين يضعون بها أنفسهم تحت تصرفه . أو كما وضعها دايان ، صاحب تلك الكلمات الشهيرة ، «إنها الحرب التي انتهت كل الحروب ، ولم يبق أمام العرب إلا طلب المقابلة لتقديم فروض الطاعة ، لا سيما أنهم يعرفون رقم التليفون والعنوان ، ٣١ شارع كابلان ، القدس» .. وهكذا لم يعد السؤال الذي يؤرق العدو هو ما إذا كانت اسرائيل قد «وجدت لتبقى» ، بل أصبح ما إذا كانت الامبراطورية الصهيونية هي التي بقيت لتوجد . لقد فتحت سيناء والضفة الغربية والجولان - هكذا وقر في قرارة العدو - الطريق «من النيل إلى الفرات» وإلى «أرض اسرائيل» أو «اسرائيل الكبرى» .

غير أن الصمود العربي ورفض الهزيمة - على سلبيته الآنية - حرم العدو من جنى ثمار العدوان ، فوجد أن أصابعه إنما تنقبض على نصر عسكري ساحق ولكنه عقيم بلا نصر سياسى يتوجه . وعلى الفور أصبحت سياسة العدو الفعلية - المعلنة أو المبيتة لا يهم - هي سياسة «الأمر الواقع» ، سياسة «الضم الزاحف» أو «الضم البطيء» كما وصفها بعض قادته . وكان من الواضح تماما للجميع أن العدو قد قرر البقاء إلى ما لا نهاية في الأراضي المحتلة الجديدة ، وأن الأمر ليس الا دورة أخرى من دورات التوسع الاقليمى «العقدى» المرسوم ، لا رجعة فيها ولا عودة إلى حدود ما قبل يونيو .

والواقع أن العدو بدأ يشعر باطمئنان لا حد له ، وأن الأمر استتب له إلى الأبد . يقول الكاتب الصهيونى ولتر لاكير في كتابه «المواجهة» : «لقد كان المراقبون الأجانب

والاسرائيليون على حد سواء متفقين تماما على أنه لم يسبق لدولة في التاريخ أن شعرت بهذا القدر من الأمان ، ولم تكن فرص الحرب في يوم من الأيام أقل مما كانت عليه ، وكانت اسرائيل تعتقد أنها القوة العسكرية الوحيدة فيما بين فرنسا والهند .

وعلى هذا الأساس أخذ العدو في صمت وسرعة يخلق «الحقائق الجديدة» على الأرض والطبيعة : تفريغ السكان بالطرد والابادة والتهجير الجبرى ، ابتلاع الأرض بوضع اليد والمصادرة ، التوطين والتهويد ، تغيير التركيب الجغرافى والديموغرافى وتهويد اسماء الأماكن ، محو القرى العربية و زرع المستعمرات الاسرائيلية (نحو ٥٠ مستعمرة) ، فرض «السلم الواقعى» كبديل عن «السلم القانونى» .. الخ . وهذه ، للذكرى ، بعض تصريحات العدو : دايان : «يجب علينا أن نثبت الأمر الواقع بالنسبة للأراضى التى احتلناها ، دون أن نجهر علانية بضمها اليها .. إن أفضل وسيلة لتحقيق ذلك هو أن نوطن اليهود بالسرعة القصوى فى المناطق المحاذية لنهر الأردن وفى مرتفعات الجولان وأن نقيم مراكز زراعية فى سيناء» ، «وفى جميع الحالات التى نقرر فيها انشاء قرى اسرائيلية ، فإن علينا أن نأخذ فى الاعتبار أن هذه المناطق ستظل تحت سيطرتنا ، كما ينبغى أن تنضم إلى الحدود الجديدة للبلاد بعد إبرام معاهدة الصلح» . ماير : «على اسرائيل أن تحتفظ بجميع الأراضى التى احتلتها فى حرب يونيو ، عدا تلك المناطق التى تضم كثافة سكانية عربية» . دايان : «الضفة الشرقية للقناة وشبه جزيرة سيناء هى حدود اسرائيل الآمنة مع مصر» . آلون : «اسرائيل ليست بحاجة إلى طلب الاذن من أحد قبل أن تقدم على اقامة مستوطنات لها فى الأراضى المحتلة» ... الخ .

هذا فى الأراضى المحتلة . أما على مستوى العالم العربى فقد كانت فترة ما بين الحربين بحق فترة العريضة و«البلطجة» الاسرائيلية المثالية بلا رادع وبلا حدود ، أو كما كانوا يسمونه «دور رجل البوليس» فى المنطقة . فقد وصل الغرور والصلف ، وكذلك الارهاب الاسرائيلى إلى الذروة . غاراته الجوية وقرصنته المدنية وحملاته «التأديبية» وعملياته التخريبية لم تنقطع على الدول والأهداف العربية المحيطة ! أضف تهديداته العلنية من حين إلى حين بغزو واحتلال العواصم العربية ويضرب مناطق البترول ، ثم حديثه المستمر عن «ذراع اسرائيل الطويلة» و«يدها القوية العليا» وقدراتها العقابية التى

لا حد لها ... الخ ، تلك وحدها تملأ مجلدات . بالمثل تصريحات قادة العدو وساسته عن خططهم ومشاريعهم فى اقتطاع الأرض العربية ورسم خريطتها النهائية .

حسبنا هنا فقط أن نقول إن العدو ، الذى أحرز سمعة سياسية لا شك فيها فى العالم ، والذى رفعه النصر من مرتبة التابع الذيل للولايات المتحدة إلى مرتبة الشريك الأصغر ، هذا العدو وصل به غرور القوة وصلف التسلط إلى حد يتأخم جنون العظمة السياسى والتآله الدولى ، أحيانا بصورة تدعو إلى السخرية . فمن ناحية بدأ العدو يمارس ترف الوصاية التى لم تطلب منه على العالم الخارجى وبور الناصح المتبرع له . أو كما قالت مجلة «نيو ستيتسمان» ، كنا نرى الاسرائيليين دائما مغرورين يعطون دروسا للجميع ، يقولون للانجليزى ماذا يتعين عليه أن يفعل لحل المشكلة الأيرلندية ، وللأمريكى ماذا يفعل لحل مشكلة الزنوج .. الخ .

ومن ناحية أخرى ، أخذ العدو يتصرف باعتبار اسرائيل «الدولة الأولى primate state» ، الحاكمة والمتحكمة المعترف بها عالميا واقليميا فى الشرق الأوسط ، هى التى تقرر مصيره وتفرض عليه وصايتها ، وتل أبيب هى عاصمته السياسية العليا أو عاصمة العواصم super-capital التى تتعامل باسمه مع العالم . ومن ناحية أخرى فإن العدو لم يلبث أن ذهب إلى حد اعتبار نفسه على المستوى الاقليمى «قوة عظمى super-power» ، أى القوة الأعظم فى الشرق الأوسط بل وفى البحر المتوسط . ومن الغريب أن العدو لم يتورع ايضا عن أن يعلن أنه أقوى من أى دولة فى أوروبا باستثناء فرنسا ، التى عاد فأغفلها من الاستثناء ! الأغرب أن أحدا فى أوروبا لم يعلق بكلمة على هذه الوقاحات الزرية . ويكفى هنا أن نقتبس الجنرال شارون . قال أولا «اسرائيل قوة عظمى عسكريا ، قادرة على غزو المنطقة من الجزائر حتى بغداد فى مدى اسبوع واحد» ! ثم عاد فى مناسبة أخرى فردد ما قاله ديان «يمكن لاسرائيل أن تهزم جيوش الدول الاوربية مجتمعة» ! وأخيرا قال إن اسرائيل تعتبر أقوى دولة فى العالم ما بين أمريكا وروسيا ! ثم جاء رابين فأضاف بدوره أن لدى اسرائيل خططا لكل الاحتمالات ، «حتى لاحتلال القطب الشمالى» !

الأغرب من الكل أن جنون العظمة وغرور القوة بلغا باسرائيل حد تهديد القوتين الأعظم ، نعم الأعظم . فلعل منا من يذكر تصريح دايان بعد ٥ يونيو مباشرة بأنه على

استعداد لمحاربة «الروس» (كذا!) ، وكلنا لا شك نذكر لا تزال تصريحه أيضا بعد اكتوبر باستعداده «لمقاومة» الولايات المتحدة إذا ما أرادت أن تفرض ارادتها على اسرائيل . وفيما بين التصريحين أضاف عزرا وايزمان «أنتا نستطيع أن ننتصر في مواجهة القوات السوفيتية نفسها» ! وهو تصريح ، على أية حال ، أشد تواضعا من تصريح وزير البوليس شلومو هيليل بعده عن استعداد اسرائيل «لمحاربة العالم كله إذا اقتضى الأمر» ! .. ولكن أليس سلاح الطيران الاسرائيلي هو «أكفأ سلاح طيران في العالم» (كذا) ، أو ليس جيش الدفاع الاسرائيلي هو «الجيش الذي لا يقهر» ، ثم أليست اسرائيل هي داود الصغير الأسطورة والعالم هو جوليات الجديد ، الشعب المختار والجويم على الترتيب ؟

ليس مبالغة إذن تشخيصنا لاسرائيل بجنون العظمة . ولا تجنيا كذلك . فلسنا وحدنا الذين نقول بذلك . إنه لا أقل من رجل الدولة الأمريكى - اليهودى - كيسنجر الذى يقولها بل ويمارسها . فلقد أعلن أخيرا مؤرخ اسرائيلي - يقال له ياكوف تالمون - أن كيسنجر يعتبر اسرائيل دولة مصابة بمرض جنون العظمة ويعاملها كما يعامل طبيب نفسانى مرضاه من المجانين ، وخاصة عندما يعالجهم بالصدمات الكهربائية .. وقد أضاف تالمون هذا أن الدول المجاورة لاسرائيل تلفظها وترفض الاعتراف بشرعية وجودها ، وهى مضطرة لذلك إلى القيام بتصرفات ترفضها المنطقة المحيطة بها . وقديما اتهم الرايخ الثالث كدولة بجنون العظمة سياسيا ، بينما اتهم به هتلر عقليا ..

غير أننا نخطئ كثيرا إذا رددنا كل هذا الغرور إلى مجرد النرجسية الحادة أو جنون العظمة . العدو أخبث ، ونحن أذكى ، من ذلك . فالحقيقة أن تلك كانت قطعة مزبوجة من الحرب النفسية المخططة بإحكام وعناية . فمن ناحية كان العدو بتهديداته الراحدة تلك واستعراض عضلاته الراحدة على هذا النحو الفج إنما يحاول أن يزرع فينا ويخلق «مركب نقص وطنى» ، نشعر معه بالضعف والعجز ازاءه ، فنسقط له بسهولة . ومن الناحية الأخرى فقد كان «مركب العظمة» الذى يعانى منه العدو انما هو فى واقع الأمر ، وكما هو واقع كل مركب عظمة ، «مركب نقص مقلوب inverted inferiority complex» . فلقد كان العدو يدرك فى قرارة نفسه أنه هو ، وليس الجندي العربى ، المتهم فى نوعيته كمحارب والمطعون والمشكوك فى حقيقة قدراته القتالية . وبهذه الدعاية المزبوجة كان يحقن نفسه أيضا بأقصى جرعات ممكنة من التحصين النفسى ضد هذا الشعور

الداخلي . ولدينا فى هذا شهادة قاطعة لبن جوريون نفسه : «لقد كان علينا بعد اقامة اسرائيل» ، قال هو فى الخمسينات الباكورة ، «أن نبرز حقيقة تاريخية ونقضى على خرافة ، هى أن اليهودى جندى ردىء ، غير قادر على حمل السلاح» .

كذلك لابد أن نضيف من أسف أن نتائج جولات الصراع المسلح منذ بدأ وحتى يونيو كانت كلها تشجع العدو على المضى إلى آخر المدى فى خداع نفسه وخداعنا . فإذا نحن نظرنا إلى الخط البيانى للصراع المسلح بيننا وبين العدو منذ ١٩٤٨ لوجدناه دائما فى اتجاه واحد صاعد بإطراد لمصلحة العدو . فاسرائيل ، كسيدتها أمريكا ، لم تهزم قط عسكريا . وهى لم تضرب قط على أرضها منذ ١٩٤٨ ، مثلما لم تطأ أمريكا قدم غاز منذ ١٨١٢ . وهى دائما كأمريكا على جانب الهجوم سياسيا وعسكريا ، بينما نحن على الدفاع أبدا . وهى كأمريكا لم تخسر سلاحا أو رجلا أو بيتا على أرضها طوال حروبها ، كما لم تزد كل خسائرها فى الأرواح منذ ١٩٤٨ وحتى يونيو ١٩٦٧ على ٦٠٠٠ فقط .

أكثر من هذا ، كان حجم نصر العدو فى تصاعد مطرد من جولة إلى أخرى . ففى ١٩٤٨ هزمتنا اسرائيل بصعوبة أكثر مما وجدت من صعوبة فى هزيمتنا سنة ١٩٥٦ ، ١٩٥٦ بصعوبة أكثر مما وجدت فى ١٩٦٧ . وفى كل جولة لاحقة كانت اسرائيل تجد أن عدد الدول العربية المحاربة أكبر ، وعدد أيام القتال أقل ، وحجم نصرها أكبر . ولم يكن فى ذلك كله ما يقنع العدو بالتعقل أو بمراجعة النفس أو كبح جماح غروره المستشرى . ولهذا كان منطقيا مع نفسه ، هكذا اعتقد من وجهة نظره ، حين قدر للحرب القادمة ساعات لا أكثر !

معنى ٦ أكتوبر

فى الثامنة والدقيقة الخامسة من مساء السادس من اكتوبر ، كان هذا الصرح الشاهق من البارانونيا السياسية قد انهار وتقوضت أسسه وجنوره . انهارت الأسطورة وبناتها مرة واحدة وإلى الأبد فى ساعات ست تاريخية غيرت وجه التاريخ بل والجغرافيا ، نسخت الماضى بكل سوابه وسوءاته ، ونسجت المستقبل بكل آماله المشرقة . لهذا كان لابد أن يعد ٦ أكتوبر نقطة التحول العظمى فى تاريخ الصراع العربى - الاسرائيلى جميعا ، ما كان منه وما سيكون .

لماذا أيضا ؟ باختصار شديد ويتحدد قاطع ، لأن «مبرر وجود» اسرائيل يتعرض لأول مرة منذ قيامها غير الشرعى «لاختبار أحماض» حاسم وياتر ويوضع لأول مرة موضع الشك والتساؤل والتهديد . نعم، مبرر الوجود *raison d'etre*. فاسرائيل لم تقم ولم تستمر ولن تبقى إلا على أساس واحد ووحيد ، منه استمدت وجودها وبغيره تفقده . هذا الأساس هو القوة ، القوة المسلحة ، القوة العسكرية بالتحديد . وفيما عدا منطق القوة وعامل القهر العسكرى ، فإن اسرائيل لا تعدو أن تكون خرافة جيوبوليتيكية ، مجرد حزمة مفككة واهية وملفقة من الأكاذيب الدينية المتهافئة والأوهام العنصرية البارانونية والانحرافات التاريخية المريضة . إن القوة ، بالنسبة للوجود الاسرائيلى ، هى شرط البقاء ، بل هى البقاء ذاته ، وبغير القوة تفقد اسرائيل مبرر وجودها الحقيقى ومعه صميم وجودها نفسه . وتلك حقيقة يعلمها علم اليقين كل قادة اسرائيل ، بل كل قطيعها البشرى ، صقورا وحمائم ، ذئابا وأبناء أوى ، مجرمى حروب أو تجار حروب .. الخ .

الآن ، ولأول مرة منذ قيام دولة اليهود المزيفة ، فإن عامل القوة هذا يجابه برد فعل مقتدر ومتحد من القوة المضادة لها فى الاتجاه والمائلة لها فى الطاقة . الآن ولأول مرة منذ ١٩٤٨ تنوق اسرائيل طعم الهزيمة العسكرية الحقيقية ، وتتحطم اسطورة التفوق العسكرى المطلق التى اختلقتها اختلاقا بالحرب النفسية الرهيبة والدعاية المرسومة الكاسحة والتى ساعدنا من أسف على تجسيمها وتضخيمها بقصورنا نحن وتقصيرنا وأخطائنا أمدا طويلا .

الآن ولأول مرة منذ ١٩٤٨ يتحقق توازن قوى جديد ، عسكريا وسياسيا ونفسيا وتكنولوجيا . فالهزيمة العسكرية الأولى سوف تكون حدثا تاريخيا أعظم ، سيفرض تداعيات بالغة الخطر والنتائج . ونحن الآن ولأول مرة إزاء صراع انقلبت أوضاع أطرافه رأسا على عقب ، وإزاء معادلة قوة تعدلت أوزان حديها جنريا . منذ الآن سنحارب اسرائيل جديدة ، اسرائيل ردت إلى حجمها الطبيعى وقامتها القميّة بعد أن جربت من عقدة النصر المركبة ومركب التفوق العسكرى ووهم التآله الحريى المقرور أو المرسوم . باختصار ، سنحارب اسرائيل انكسر «عمودها الفقرى النفسى» ، فلم تعد ذلك العدو «الذى لا يقهر» ، وإنما القابل للهزيمة بل والذى بالفعل هزم . منذ الآن ستكف اسرائيل ،

«طفل أمريكا المدلل enfant gâté»، عن أن تكون «طفل العرب المرعب - enfant ter-rible» أو عصا الاستعمار الغليظة في المنطقة . وحتى إذا عانت الأوضاع الإقليمية إلى ما كانت عليه يوم ٤ يونيو ١٩٦٧ ، فستكون إسرائيل غير ما كانت : قبله كانت دولة لم تهزم قط ، ويعدده ستكون دولة مهزومة . وذلك - في ظروفها - كيان منهار ستتخر في عظامه ونخاعه جرثومة الهزيمة ، وإن يفلت من ضغوط التآكل والتمزق الداخلي التي ستعريه وتكشف زيفه الكامن وجوهره المصطنع أكثر من أى شئ آخر وأكثر من أى وقت مضى . لقد أثبتت حرب أكتوبر أن إسرائيل هي الدولة - المشكلة في الشرق الأوسط . وليس الشرق الأوسط هو المنطقة - المشكلة في العالم ، أو على الأقل فإنه ليس كذلك إلا بها وبوجودها . إسرائيل ، لا العرب ، هي الآن مشكلة العالم ، كما كانت بالأمس جذر المشكلة ، وتصفية الأخيرة إنما تكمن في معالجة الأولى على نفس الأساس . لقد تحول، ولا نقول نهائيا تحدد ، مصير إسرائيل .

فإذا بدا هذا كله ادعاء عريضا أو نبذة عالية بالغة الحدة مسرفة في الحماس والتفاؤل ، فيكفى أن نورد شهادة فرانسوا ميتران ، الزعيم الاشتراكي الفرنسي والصديق القديم لإسرائيل . «أن حرب أكتوبر» - قال ميتران أخيرا - «مرحلة مهمة ، إذ أوضحت لإسرائيل أنه لا ينبغي لها أن تعتقد أن بإمكانها تحقيق كل شئ . ولقد أوضحت شجاعة الجندي المصرية لإسرائيل أن هناك حقائق وقوى لا يمكن أن نتجاهلها» . ثم يضيف «لقد وضعت أكتوبر حدا للنزعة الحربية في إسرائيل منذ ١٩٦٧ . وهي العلامة التاريخية لانتهاء هذه الطريقة من التصرف . والتوازن الجديد في المنطقة لا يمكن أن يتم على أساس استمرار واستقرار وضع الغزو والاحتلال» . بالمثل يقول الجنرال بوفر إن «الجيش الإسرائيلي لم يعد يتمتع بالتفوق الساحق الذي كان يتمتع به سابقا . وتلك حقيقة لا تقبل الجدل ، واعتقد أنهم قد فهموها تماما» . ثم يضيف «وإذا لم ترضخ إسرائيل للحل الوسط فإن عليها أن تواجه حروبا أخرى» .

فإن عدّ هذا غير كاف ، فإننا نقول إن الأحداث الكبرى تتطلب فكرا كبيرا وحسا تاريخيا ملهما ، يمثل ما أن التحديات الكبيرة هي التي تصنع الأمم الكبيرة ، وفضلا عن هذا فإن تجربة التاريخ تعلمنا أن كل حرب منتصرة أو منهزمة ترسم وحدها مستقبل أى أمة لعشرات وربما مئات من السنين . إن الحرب هي أعظم محدد للتاريخ ، يمثل ما أن

النصر هو أروع ملحمة فى تاريخ الشعوب . ولا يصدق هذا على صراع فى التاريخ مثلما يصدق على الصراع العربى الاسرائيلى نظرا لطبيعته الخاصة جدا والرهان الفادح الذى ينتظمه . نعم ، أعطى نصرا عسكريا واحدا ، لا أقول ساحقا بالضرورة أو صاعقا ، يكفى فقط أن يكون محققا ، ليكون نقطة انكسار بل وانعكاس لكل أوضاع المنطقة ، اعطى فقط نصرا عسكريا واحدا ، أغير لك مصير الصراع ، مصير مصر ، والعرب .

وإذا كان لنا من تحفظ استدراكى بعد هذا كله ، ورغم خطر التكرار ، فإننا نعود فنقول إن معنى ٦ أكتوبر كما يتحدد من هذا المنظور معلق بشرط ضمنى ولكنه جوهري جدا وهو أن ينتهى كما بدأ بالنصر القاطع المحدد . ولقد حققنا حتى الآن انجازات عسكرية وسياسية رائعة ونصرا محققا ومعقولا ، ولكن مازالت أمامنا معارك أقسى وأشق وأطول بالتأكيد . إن كل شيء الآن معلق بأن نتم ما بدأناه ونستكمل نصرنا إلى مداه .

ونستطيع الآن ، بمزيد من التحديد والتحليل ، أن نحصر النتائج الموضوعية الايجابية والممكنة لأكتوبر سنوء بالنسبة للعدو أو بالنسبة للعلاقات المتغيرة بينه وبين العرب . ويصيفة جامعة مانعة ، يمكن أن نقول إن اسرائيل والعرب ، أو أن يونيو وأكتوبر ، قد تبادلوا المواقع ، بكل ما تعنى هذه من أوضاع وتوازنات وتداعيات ، عسكريا وسياسيا ونفسيا ومصريا ، أنيا ومستقبليا ، ابتداء من السلاح المحطم والأرض المفقودة والجنود الفارة وطواير الأسرى إلى المعنويات المنهارة وسخرية «الأحذية» العسكرية المتروكة (!) إلى البلاغات الحربية والدعائية الكاذبة وفجوة الثقة والتصديق العالمية وحتى الأغاني الشعبية ... إلخ .

ففى كل هذه الجوانب وغيرها يمكننا بسهولة تامة أن نقول عن اسرائيل أكتوبر ما قيل عن عرب يونيو ، بحذافيره وطبق الأصل أحيانا . أنها كما قد نقول صورة مرآوية معكوسة enantiomorph ، أو كما وضعها أحد الكتاب الصحفيين فى الغرب بصورة شيقة كما هى بقيقة أن حرب أكتوبر هى «حرب المرأة» . «فهناك بالفعل ما يفرى بهذه التسمية ، ذلك أنك إذا أمسكت بمرآة لحرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ ، فإن الصورة المعكوسة ستكون من نواح عديدة هى الصورة نفسها التى يراها المرء بعينه فى مسرح الحرب

القائمة» ، حرب أكتوبر . باختصار ، لقد انعكست الأنوار في الحربين وتبادل حدا معادلة القوة طرفيها المتناقضين كل مكان الآخر . وفي إطار هذه الصيغة العامة الشاملة ، هناك موضوعان أساسيان للدراسة : انقلاب التوازن الاستراتيجي ، انهيار نظرية الأمن الاسرائيلي .

انقلاب التوازن الاستراتيجي

هذا أبرز نتائج المعركة وأكثرها مباشرة . فلقد قلبت المعركة ميزان القوة الاستراتيجي لصالح العرب لأول مرة وضد اسرائيل إلى الأبد . ولأول مرة تصبح اسرائيل مفعولا به والعرب فاعلا ، بعد أن ظل العكس هو القاعدة التي لا استثناء لها أبدا . فالحرب قد أثبتت بما لا يدع مجالا للشك ، كما قال زعيم الشعب الفلسطيني المناضل ياسر عرفات ، إن «التوسع الاسرائيلي ليس قرارا اسرائيليا ، وإنما الوجود الاسرائيلي نفسه رهن الإرادة العربية» .

لقد تغيرت خريطة المنطقة ، بل وصورة العالم ، ودفن الماضي تماما يوم ٦ أكتوبر ، ولن يعود الماضي قط ، ولن تعود منطقة الشرق الأوسط إلى ما كانت عليه أبدا . ومهما حدث أو يحدث فلن تعود الأوضاع والتوازنات القديمة في المنطقة . أو كما قالت التايمز «إن خسائر اسرائيل الأساسية هي في سمعتها كقوة لا تقهر ، والكسب الأساسي للعرب هو الثقة بالنفس وثقة الآخرين بهم عسكريا . ولن يغير أي عمل اسرائيلي من أحد الأمرين» . أو كذلك كما قالت الديلي تلجراف «مهما كانت النتيجة النهائية لمعارك الشرق الأوسط ، فإن الأمور لن تصبح كما هي مرة أخرى . وهذا يسرى على الجانبين . ثمة تغير نفسي لا بد من وقوعه» .

لقد انتهت الأسطورة الباهرة المتفوقة ، تحولت إلى مجرد خرافة ضخمة ، وعادت دولة عادية جدا ، ارتدت إلى حجمها الطبيعي المجرد بغير تورم أو انتفاخ مصطنع ، وكفت نهائيا عن أن تكون مركز الثقل في المنطقة أو مقرة مصيرها . أو كما اعترف الجنرال أوزي بن أري «لقد كان شعورا مصيريا فظيعا . كان شعورا بثننا نتضاغل ، وبثنهم المصريين ، يتضخمون» . بل لقد نقل الصحفي تيرنس سميث عن بعض كبار المسؤولين الاسرائيليين قولهم إن اسرائيل لا تشعر بأنها حرة التصرف كما كانت ، وانهم عرفوا حدود المساحة التي تستطيع اسرائيل أن تتأخر فيها ، وذلك في عالم تحكمه دبلوماسية

القوى الكبرى . «ونحن واعون تماما - هكذا اضافوا - بأن إسرائيل لم تعد سيدة مصيرها كما كانت - أو على الأقل كما كان يبدو - بعد حرب ١٩٦٧» .

ولقد كان الكل دائما فى إسرائيل على وعى تام بحقيقة ومدى وعمق اعتمادهم على الولايات المتحدة ، ولكنهم الآن - ربما لأول مرة - يعترفون بذلك علنا . والفضل فى ذلك يرجع إلى أكتوبر . ففى قلب المعركة وقف دايان فى الكنيسة ليقول لمعارضى وقف إطلاق النار «كيف يمكن معارضة بولة ترسل اليكم الذخيرة فى الصباح لإطلاقها بعد الظهر ؟» أما بعدها فقد قال : «الذين يطالبوننا بشن حرب جديدة من أجل الأسرى عليهم أن يعرفوا أن إسرائيل لا تستطيع أن تحارب مرة أخرى ما لم تكن مستعدة إلى تأييد أمريكا السياسى والمادى» . كذلك صرح مسئولون اسرائيليون أثناء محادثات الفصل بين القوات على الجبهة المصرية بكلام صريح واضح : «لقد تأكد لنا أننا لا نستطيع إلا أن نجادل حول التفاصيل الصغيرة ، ولكننا مرغمون - فى التحليل الأخير - على السير فى الطريق الذى تريده الولايات المتحدة» . هذا بينما كتبت هارترس تقول «إن اهتمامنا بأمن بلادنا لا ينبغى أن يذهب بنا إلى حد قيام مواجهة بيننا وبين الولايات المتحدة تضاف إلى مواجهتنا مع الدول العربية .

ومن ناحية أخرى كتبت الفينانشيال تايمز تقول إن الاسرائيليين قد ادركوا مدى سيطرة الولايات المتحدة على إسرائيل ، لأنه لولا المساعدات العسكرية الأمريكية لإسرائيل أثناء الحرب لتعرضت إسرائيل لكارثة . ثم أضافت الصحيفة أن هذا الإدراك يعد من أكثر العوامل اثارة للكآبة لدى الاسرائيليين . ونقلت عن صحفى اسرائيلى قوله «إن السياسة قد يخفون ذلك ، ولكن كل انسان فى إسرائيل يعرف أننا خاضعون للولايات المتحدة» . وقد صرح يشاياهو ليبوفيتش ، عالم اسرائيلى ، بأنه «أصبح من المؤكد أمامنا جميعا أن إسرائيل ليست سوى وكالة لأمريكا فى الشرق الأوسط . إننا مثل الكلاب التى وضعت لحراسة المصالح الأمريكية فى المنطقة . وأن وجودنا هنا يعتمد اساسا على مدى نجاحنا فى تنفيذ ما يطلب منا » . وترجمة هذا كله هو أن حرب أكتوبر قد عرت تبعية إسرائيل لأمريكا مثلما عرضتها لعوامل التعرية .

وحقيقة ما حدث ، وهو أسوأ ما يورق إسرائيل بل ويفزعها ، هو أزمة انكماش وضمور عضوى ووظيفى وعملية تقلص تاريخى . فالذى حدث فى أكتوبر هو وضع حد

نهائى ونهاية غير محدودة «الدور الخاص» الذى حاولت اسرائيل أن تقوم به فى المنطقة ،
ومعه ذلك «الوضع الخاص» الذى حاولت فرضه عليها وانتزاع الاعتراف به منها . ولقد
كان هذا الدور «التاريخى» المأمول بورا غير طبيعى بلا ريب ، بل وشاذاً على التحقيق فقد
كان فضفاضاً وأكبر جداً من أن يتناسب مع حجم اسرائيل أو طاقتها الحقيقية . غير أن
هدفه ودافعه كان المجد وبريقه وحب العظمة والفخار وهالة الشهرة السياسية .
ولقد سرّ اسرائيل تبوؤ فى هذا الدور كقزم يتبختر فى ثوب فضفاض ، ولكنه فى أكتوبر
تعثر فى هذا الثوب وسقط ، ولم يعد ينتظره الآن إلا مستقبل شاحب باهت فى الظل وعلى
الهامش ، ووضع عادى ككرة خامل الذكر بلا ضجيج ولا بريق . وما التشنجات الداخلية
فى اسرائيل الآن ، والتي تكاد تصل إلى حد الصرع ، إلا آلام هذا التقلص القابض
والمقبض وهذا الانكماش الحاد العنيف . لقد تمت - أو كادت - دورة كاملة من قيام
وسقوط أو صعود وأفول القوة الاسرائيلية ، وعبرت دولة اسرائيل خط الزوال ، ولعلها
مهما طال الأمد فى الطريق إلى مرحلة الشفق ولا نقول الغسق .

أما حلم الامبراطورية الصهيونية من النيل إلى الفرات فقد انتهى إلى الأبد ككل حلم
«فاوستى» مجنون ، إذ أن اسرائيل قد انتقلت بصورة قاطعة من مرحلة التوسع إلى
مرحلة التوقف ثم الانكماش . منذ السادس من أكتوبر ، لنا أن نقول ، انتهى «سفر
التكوين» وبدأ «سفر الخروج» ، وتحولت سيناء إلى «تية جديد» لاسرائيل . أو كما قال
فيكتور سيجلمان ، فى مقال يقرأ من عنوانه «نهاية دولة اسرائيل الكبرى» ، أن الفكرة
الثابتة والعقيدة الراسخة التى سيطرت على اذهان الاسرائيليين تماماً وعاشوا فيها
وعاشت فيهم حتى شهور مضت قد «اختفت تماماً دون أن تخلف أية آثار .. ومن الواضح
الآن أن المواطن الاسرائيلى قد تخلص من عقدة «القوة العظمى» فى وجه الدول العربية ،
وهى العقدة التى تقمصت شخصيته فى أعقاب حرب يونيو ، ثم جاءت حرب أكتوبر
لتبديها نهائياً . وعاد المواطن الاسرائيلى إلى طبيعته ، الصغير ، الوحيد ، الخائف» .

وإذا كان من المسلم به إن اسرائيل ستظل باقية إلى أمد لا يمكن التنبؤ به ، فإنه لن
تصبح بعد الآن ذلك السرطان الأخطبوطى المدمر الذى كانته ، بل ستتقلص إلى مجرد
بؤرة صديدية مزمنة ، أو قرحة حادة على الأكثر . وعموماً يمكن القول بأن المعركة ، التى
هى نقطة التحول فى الصراع كله بلا جدال ، هى نقطة انعكاس لا مجرد انكسار فى

منحناه العام . وإذا كان عمر الضلع الصاعد من المنحنى هو ٢٥ سنة تقريبا ، فقد لا يزيد عمر الضلع الساقط عن هذا المدى نفسه ، وإن كان الجزم صعبا ، أو كما تقول الفيجارو «مصر وخلفها ٧٠٠٠ سنة من الحضارة تشتبك في حرب طويلة الأمد مع إسرائيل التي تكافح اليوم لكى تعيش غدا ، ثم لا تفكر قط فيما قد تتول إليه بعد ٢٥ سنة مثلا» .

وإذا كان البعض منا لا يرى أن المعركة تثير مسألة بقاء إسرائيل ويتساعل عما إذا كان مثل هذا السؤال صحيحا أو مبررا علميا وموضوعيا على ضوء أبعاد المعركة ونتائجها ، فمما لا شك فيه أن السؤال غير وارد على المدى القريب أو المتوسط ، ولكن الأمر ربما اختلف على المدى البعيد ، كما أن العدو نفسه يثيره . أو كما قالت الصنداي تايمز «أن هذه الحرب (تعنى حرب أكتوبر) قد جعلت بقاء إسرائيل حتى نهاية القرن موضع تساؤل» . وعلى الأقل فليس هناك شك أن الحرب قد أثبتت أن إسرائيل تفتقر إلى مقومات البقاء الذاتى أو الاستمرار الذاتى . والواقع أن حرب أكتوبر كان لها من الآثار أعمق مما توقع لها الجميع . والخطر على الكيان الاسرائيلى نفسه مثار ، ليس لأن العرب يتحدثون عن تدميرها ، ولكنهم هم أنفسهم الذين يتساعلون ويتوجسون . الصحفي الصهيونى جوزيف كرافت ، مثلا ، تحدث عن «الزلازل الذى زعزع اسباب بقائها كله» . كذلك جاء أخيرا فى تقرير لروبرت سليتر مراسل اليوناييتيد بريس من إسرائيل أن المفكرين الاسرائيليين أصبحوا الآن يفكرون فى مستقبل إسرائيل : بشعور من القلق لم يكن يخطر لهم ببال من قبل ، بل أن الزعماء الاسرائيليين مرغمون الآن على أن يلقوا نظرة جديدة على استراتيجية بقاء إسرائيل ، كما يعكف صانعو السياسة الآن على تحديد موقفها على خريطتها الجديدة ، وهو ليس بالأمر الهين . وفى ذلك قال هاركابى إن الخطأ الأساسى الذى وقعت فيه إسرائيل قبل أكتوبر هو أنها لم تدرك مأزقها فى العيش فى بيئة معادية ، وأنها كانت تقلل دائما من أهمية مشكلاتها مع العرب .

فإن هذا حدث ، والاتجاهات الجديدة استمرت ، فقد لا يأتى على إسرائيل سنة يقال لها سنة ٢٠٠٠ ، أو يفتتح القرن الحادى والعشرون ولا مكان على خريطة الشرق الأوسط لشيء يقال له إسرائيل . وأيا ما كان ، فلقد فقدت إسرائيل ماضيها بقدر

ما فقدت الأمل في المستقبل ، عادت دولة بلا مستقبل مثلما بدأت دولة بلا تاريخ .
وبالمقابل ، فإن مستقبل الصراع العربي بقدر ما كان ماضيه اسرائيليا .

انقلاب التوازن العسكرى

ذلك فى بروفيله العام هو انقلاب التوازن الاستراتيجى ، نستطيع الآن أن نحله إلى عوامل أولية خمسة : انقلاب التوازن العسكرى ، انقلاب الاستراتيجية الاقليمية ، الانقلاب السياسى ، الانقلاب النفسى ، الانقلاب الاقتصادى . فأما انقلاب التوازن العسكرى ، أولا ، فإن الحرب الرابعة – أو الرائعة إن شئت – قد جاءت لتنتهى اسطورة العسكرية الصهيونية والقوة الاسرائيلية «التي لا تقهر» . فبعيدا جدا عن أن تأتى الحرب الثالثة «آخر الحروب» فى الصراع ، كما تاهت وتباهت اسرائيل طويلا ، جاءت آخر نصر عسكرى تختطفه ، بينما خرجت من الحرب الرابعة وهى مهزومة فعلا بصورة أو بأخرى . بل خرجت منها وقد اتضح للاسرائيليين ، كما يقول اريك رولو ، «أن العرب كادوا يدمرون اسرائيل كلها لولا طائرات النقل الأمريكية التى نقلت اليهم الذخيرة والطائرات والأسلحة الحديثة . فلولا هذه المساعدات العاجلة لما أمكن لاسرائيل أن تواصل الحرب» . بل لولاها ، كما يضيف تقرير معهد الدراسات الاستراتيجية فى السويد ، لكان الطريق إلى تل أبيب نفسها ورأسا مفتوحا أمام القوات المصرية تماما مثلما كان الطريق إلى القاهرة مفتوحا أمام القوات الاسرائيلية فى ١٩٦٧ . لقد أثبتت المعركة أن اسرائيل ليست «فوق الهزيمة» ، وانما قابلة للهزيمة ، بل ومهزومة فعلا . أو كما وضعها البعض فى سخرية بليغة كما هى لاذعة «أخيرا ، أثبتت حرب اكتوبر أن «الله ليس يهوديا» ، على الأقل إله الحرب! » ... أو كما تساعل حتى لاكير «ترى هل حدث للجيش الاسرائيلى ما حدث للجيش البروسى فى عهد فردريك الثانى ، حيث كان أفضل جيش فى أوروبا لمدة عشرين سنة ، ثم انهارت بروسيا بعد موت ملكها فى بينا وأورشنتات؟» ..

والواقع أن من أخطر ما أثبتته حرب اكتوبر حقيقة نكاد لفرط ما بها من مفاجأة وبداهة معا أن ننساها ، وهى أن اسرائيل أضعف مما كان الجميع يعتقدون ، بمن فيهم وعلى رأسهم اسرائيل نفسها . وإذا كان الاعتراف سيد الأدلة ، فإن اعتراف دايان سرا اثناء الحرب هو – بحكم منصبه – سيد الاعترافات . «ان الحرب قد أظهرت للعالم – صرح هو للصحفيين – أننا لسنا أقوى من المصريين ، وأن هالة التفوق والمبدأ السياسى

والعسكري القائل بأن اسرائيل أقوى من العرب ، وأن الهزيمة ستلحق بهم إذا اجتروا على بدء الحرب ، هذا المبدأ لم يثبت .. أننا سوف نضطر إلى أن نتعايش مع حقائق حياتنا ، مع شعبنا ، ومع العالم ، ومع العرب» .

هذا ولما كانت الحرب قد أثبتت أيضا بدء تحول التفوق العربى الكمى إلى كفى ، فلا أمل إذن "أمام اسرائيل فى «الحل العسكرى» قط بعد الآن . وإذا كانت القوة ، والقوة العسكرية بالتحديد ، هى أساس الوجود الاسرائيلى ، فالواضح المؤكد أن الطريق قد أصبحت مسدودة أمام العدو على المدى الطويل . لقد فقدت اسرائيل دورها الوحيد ، دور رجل البوليس المحلى ودور الرجل القوى («البلطجى») فى المنطقة ، أو دور كلب الحراسة . البلطجى شاخ وهرم ، والكلب فقد أسنانه . وعلى أحسن الفروض ، لقد تحولت اسرائيل عسكريا من نمر ، لا نقول من ورق ، إلى ذئب ، إن يكن ضاريا فإنه قابل للترويض وإلا فالتدمير .

وفى ختام هذا الموضوع ، قد يكون من المفيد أن نسرد بعض اقتباسات من بعض المصادر العالمية ، بغض النظر عن مدى حيادها ، وكذلك بون تعليق منا ، فما أغناها عنه . قالت النيوزويك «أن كل يوم يمر يحطم الأساطير التى بنيت منذ انتصار اسرائيل الساحق عام ١٩٦٧ . ولقد كانت هناك اسطورة تقول أن العرب ليسوا بحاربين وأن الاسرائيلى سوبرمان ، لكن العرب اكتشفوا أن الاسرائيلى رجل عادى» . وقالت الفيجارو «كل شئ حدث كان غير متوقع ، ولن تبقى الأمور بعد الآن كما كانت فى الماضى إن الاسرائيليين لم يعوبوا سادة الموقف فى الشرق الأوسط . والعرب لم يعوبوا المهزومين التقليديين» . والمعنى نفسه تقريبا تؤكد لاستامبا الايطالية : «ظلت اسرائيل تبدو كالقوة المسيطرة فى الشرق الأوسط حتى حرب يوم الغفران ، فى أكتوبر التى أكدت أن هذا الوضع قد انتهى» .

كذلك كتب الجنرال جالو يقول «لقد حقق العرب انتصارا سياسيا ومعنويا مهما تكن النتيجة النهائية للحرب . فإذا ما انتصرت اسرائيل عسكريا (وهو ما لم يحدث) فإن ذلك سيكون الحرب الأخيرة التى تنتهى بانتصارها» (وهو ما لم يعد فيه شك) . وبالمثل كتبت الديلى تلجراف «لقد أصبح من المستحيل أن تلحق اسرائيل بالعرب هزيمة حاسمة . ولقد جاءت الحرب الأخيرة نذير شؤم لما سوف تجلبه مواصلة اتباع السياسة الاسرائيلية

الحالية . كما أن الخصم العربى كفاء وقوى على نحو متزايد . كل هذا بالإضافة إلى معاناة اسرائيل من جرح سوف يستنزف كل قواها . ولعل خير ما نختم به هذه الاقتباسات ما قاله الرئيس بومدين بتحليل صائب كما هو ثاقب : «لقد ثبت أن انتصار اسرائيل فى الحرب مستحيل ، وإن تكون الكلمة لها فى معركة قادمة لأن عوامل نصرها تتناقص يوما بعد يوم» .

انقلاب الاستراتيجية الاقليمية

هذا الانقلاب أصبح حقيقة واقعة بفضل المعركة وحدها أيضا . فمنذ حرب ١٩٥٦ حين نفذت اسرائيل من مضيق تيران إلى البحر الأحمر والبحار الجنوبية وتسلمت إلى افريقيا ، ولكن بالأخص منذ حرب ١٩٦٧ حين انفتح امامها طريق الجنوب على مصراعيه بلا رادع ، والعدو يحاول أن ينسج استراتيجية اقليمية واسعة طموحا ، لا يتخطى بها نطاق الحصار العربى فقط ولكن ايضا يضرب بها حصارا مضادا قاريا وبحريا حول العالم العربى ذاته جميعا ، فمن خلال وجوده المتوسع والمستشرى فى افريقيا المدارية ، كانت اسرائيل تسعى لفتح جبهة عريضة فى ظهر العرب وظهرهم القارى قل على غرار ما حاولت البرتغال بصورة ما فى عصر الكشوف الجغرافية فى مناورة التفاف تضع بها العرب المسلمين بين فكي كماشة من شمال وجنوب .

وفى فترة ما بين الحربين ، ٦٧ - ١٩٧٣ ، ركزت اسرائيل على القطاع الشمالى من الجبهة فى الشرق الأوسط والبحرين المتوسط والأحمر . وكانت خطتها العظمى أن تطوق العرب بمثلث تتوسطه هى وترتكز رء وسنه على الأسطول السادس الأمريكى فى البحر المتوسط من ناحية وبعض الدول الصديقة فى القرن الافريقى والخليج العربى من الناحية الأخرى . وداخل هذا المثلث ، كانت تحلم بتحويل البحر الأحمر إلى «بحيرة اسرائيلية» أو خاضعة للسيطرة الاسرائيلية بالاشتراك مع الولايات المتحدة . وعلى هذا الاساس رسمت استراتيجيتها البحرية فى الأحمر ، وسعت إلى السيطرة على مدخله الجنوبي . ومنذ أوائل السبعينات كثر الحديث عن قواعد لها مؤجرة أو محتلة ، بحرية وجوية ، فى بعض جزر ذلك المدخل .

هذه الاستراتيجية الاقليمية كلها تحطمت على صخرة المعركة فى يوم وليلة . فمن قبلها ، ولكن أساسا أثناءها ، بدأ «شلال» جارف من قطع العلاقات الدبلوماسية بين

الدول الافريقية مع اسرائيل ، بحيث تم «طردها» من القارة تقريبا . ومن الناحية الأخرى مدت البحرية المصرية المتفوقة ظلها وسيطرتها على البحر الأحمر ، وفرضت بالتعاون مع اليمن الجنوبية الشقيقة حصارا بحريا محكما على مضيق باب المندب . وقد أفقد هذا شرم الشيخ قيمتها الاستراتيجية على الفور ، وأثبت أن ليس لها كل تلك الأهمية الكبرى التي كانت اسرائيل تدعيها وتبنى عليها أطماعها التوسعية فى سيناء . أو كما قال القائد العام للقوات المصرية «إن شرم الشيخ لم تعد مفتاح ايلات ، وانما «نزل» المفتاح إلى أقصى الجنوب» عند باب المندب . ولقد اعترف بعض الاستراتيجيين الاسرائيليين بالفعل بأن المعركة «أثبتت أن شرم الشيخ لم تعد تعتبر حيوية لأمن اسرائيل» . ويمكن أن نضيف كذلك أنها أفقدت اسرائيل حرية الحركة البحرية تماما نحو الجنوب وتركبتها «حبيسة» حقيقية للبحر الأحمر .

هذا الحصار المحكم ما معناه ؟ المعنى الأول أنه عقم ميناء العدو ايلات ، «نافذة الجنوب» ، وعطل حركة تجارة المرور على الطريق البرى بين البحرين . كذلك فإنه أوقف حركة التصدير والاستيراد جنوبا ، وأخطر منه أوقف امداد العدو بالبتروال الايرانى . وما فتئت اسرائيل تصرخ من هذا الحصار ، دون جدوى . ودون جدوى كذلك جاءت تحركات الأسطول الأمريكى فى المحيط الهندى وحوض بحر العرب ، البوابة الجنوبية للشرق الأوسط ، تلك التحركات - التحرشات التى تحمل طابع التهديد الاستفزازى والتلويح بالتحدى للحصار المصرى لباب المندب .

والخلاصة الصافية هى أن مشاريع الحصار الاسرائيلى القارى والبحرى القديمة قد انقلبت رأسا على عقب لتقع فى حصار عربى مطبق برا وبحرا ، شمالا وجنوبا ، افريقيا واسيوى . إنها صورة مرآوية معكوسة حتى التفاصيل ، ونمط جيواستراتيجى مقلوب ظهراً لبطن .

الانقلاب السياسى

أبرز ما انعكس اكتوبر داخل اسرائيل ، انعكس على الحياة السياسية . فمنذ اكتوبر تعيش اسرائيل فى أزمة سياسية خانقة ومزمنة ، تتعاضم كل يوم وتتفاقم ككرة الثلج . فالصراعات والتصدعات الداخلية ممثلة فى الصدامات الحزبية وتضارب جماعات المصالح والضغط وتحولات رأى العام ثم انهيار مكانة المؤسسة العسكرية أصبحت كلها نظام

الحياة السياسية اليومى ، ووصلت فى وقت ما إلى حد احتمالات انقلاب على الطريقة الاسرائيلية ، أى انقلاب عسكرى صامت بلا رصاص ، انقلاب ائتلافى أو غير ائتلافى فى الحكم . ولئن كانت الانتخابات الأخيرة لم تحقق هذا الاحتمال ، فإن كل الدلائل الراهنة تشير إلى أنه لم يستبعد بعد تماما .

وفى ظل هذه الفوضى النيابية المربكة ردد البعض ، مثل عضو الكنيست شموئيل تامير ، أن أخطاء الحكومة القاتلة التى أدت إلى كارثة يوم الغفران مازالت قائمة ، بينما دعا البعض الآخر علنا . مثل رئيس تحرير ايديعوت أحرونوت، إلى «إقامة حكومة عسكرية وإلى إلغاء جميع الحريات الديمقراطية». بل لقد أشارت وكالات الأنباء الامريكية مرة إلى مؤامرة انقلاب يعدها دايان بتأييد امريكا للاطاحة بمايير (٩) .

ومن جهة أخرى وصلت أزمة الحكم وصراع السلطة إلى حد البحث فى قيام أول حكومة أقلية فى اسرائيل منذ نشأتها ، وذلك بعد أن هوت المعركة بالأغلبية البرلمانية لحزب العمل الحاكم إلى الحد الأدنى وبعد تفسخ الائتلاف الوزارى المعراخى تحت وقر المشاكل المصيرية التى أثارته الهزيمة . وقد كانت تلك هى الأزمة الطاحنة التى شقت حزب العمل وهددت بتمزقه وباعتزال دايان، الذى طالب الكثيرون برأسه، ثم مايير التى صرحت (أو صرخت!) وقتئذ أن الحزب «ينتحر على طريقة الهاراكيرى» . ولم تسو الأزمة مرحليا بعودة الحكم الائتلافى إلا كحكومة انقاذ وتحت ضغط الموقف العسكرى المتفجر على جبهات القتال وبخاصة الجبهة السورية.

غير أن الأزمة لم تلبث أن عادت متجاوزة كل الحدود والأبعاد والأعماق المتوقعة وغير المتوقعة بل وغير المتصورة . وكان نشر تقرير لجنة تحقيق اجرائات هو زناد التفجير ، وان كانت هزيمة أكتوبر هى بالطبع القنبلة الموقوتة الكامنة أسفل هذا كله . فقد أدانت اللجنة رئيس المخابرات زئيرا ورئيس الأركان اليعازر وحملتهما مباشرة مسئولية النكسة ، فاستقالا ، ولكن بعد أن نقل اليعازر الاتهام إلى دايان ، الذى نقله بدوره ولكن بطريقة ملفوفة إلى مايير ، بينما عممت المعارضة الاتهام على الحكومة بأكملها باعتبارها مشتركة دستوريا فى المسئولية الوزارية ، وأخيرا ألقى شعب إسرائيل بدوره بالاتهام على الحكومة والمعارضة جميعا باعتبارهما معا طبقة الساسة والحكام المحترفين.

وهنا عاد الصراع يتركز داخل الحكومة ، واستقطب بالتحديد داخل العسكريين ، أى داخل المؤسسة العسكرية . بين القيادة العليا والدائرة المحيطة مباشرة ، أو بين دايان فى جانب والوزراء العسكريين الثلاثة بارليف ورايين وياريف فى الجانب الآخر، وكان صراع العسكريين هذا ، كما صرحت مايير ، هو الذى فجر الحكومة من الداخل . وهنا لم تملك مايير إلا أن تعلن أنها قد وصلت إلى نهاية الطريق وأنها لم تعد قادرة على الاستمرار فى حكم هذا البلد «الذى أصبح من الصعب جدا على رئيس حكومة أن يتولى أموره» ، وقدمت استقالتها لتعزل إلى الأبد . غير أنها عادت فاضطرت إلى الاستمرار كحكومة انتقالية مؤقتة ريثما ينجح خليفتها المرشح رابين، الذى ظفر بالترشيح على منافسه بيريز، فى تشكيل حكومة جديدة ، الأمر الذى ظل معلقا لفترة طويلة.

فبغض النظر عن الأطماع والمنافسات الشخصية لآخرين فى الرئاسة، فإن هناك الخلافات الحزبية الأساسية الحادة . كتلة ليكود المعارضة عرضت نفسها بالفعل على رئيس الدولة لتولى الحكم كبديل عن حزب العمل المنقسم والمعراخ المهدد . والحزب القومى الدينى يشترط اشراك ليكود فى الحكومة الجديدة لتكون ائتلاف وحدة وطنية شاملة . كذلك يفعل الأحرار المستقلون الذين يرفضون رئاسة رابين ولو بالائتلاف القديم . هذا على حين لم تقبل مايير مطلقا برابين مرشحا لخلافتها.

وعدا هذا فلقد حذرت مايير مرارا، من بعد كما من قبل فى الانتخابات، من اشراك ليكود بأى صورة ، إذ أنها «واثقة تماما أنه إذا وقعت زعامة الدولة فى أيدي ليكود فإن هذه ستكون كارثة حقيقية بالنسبة لإسرائيل»، لماذا ؟ - لأن «تشكيل حكومة وحدة وطنية تشترك فيها كتلة ليكود اليمينية المعارضة من شأنه أن يخلق أزمات جديدة بين الولايات المتحدة وإسرائيل» . لماذا مرة أخرى ؟ - «لأن الولايات المتحدة ، المورد الأساسى للأسلحة لإسرائيل ، لن ترتاح إليه»، وعلى النقيض تماما من هذا ، كان هناك رأى يقول «يجب ألا تتركوا مايير تقود الحزب ، لأنها لو بقيت أكثر من ذلك فسوف تسلم البلاد إلى كتلة ليكود» !

وهكذا ، سلسلة من المتناقضات والتضارب لا تنتهى . وإذا كان حزب العمل قد قرر نهائيا تشكيل حكومة أقلية ، لأول مرة فى تاريخ إسرائيل ، ويدون الحزب القومى

الدينى لأول مرة أيضا ، فان هذا الوضع الجديد لا يبدو مستقرا أو قابلا للاستمرار طويلا. وما زالت إسرائيل تبحث عن حكومة ، والحكومة عن رئيس . فإذا لم تنجح ، فقد ترغب على العودة إلى الانتخابات من جديد فى غضون شهور فقط من انتخاباتها العامة الأخيرة . وما زالت الأزمة مستمرة. ان إسرائيل معلقة سياسيا فى الداخل ، تماما كما هى فى الخارج .

والسؤال الآن : ما معنى أزمة الحكم والسياسة المستعصية هذه، وما هو مغزاها الصراعى بالنسبة لنا ؟ من أطناب التزديد وحده بالتأكيد أن نقول إن هذه الأزمة هى النتيجة الحتمية والنهائية لمعركة أكتوبر ونكسة إسرائيل فيها . ولئن كانت إسرائيل قد انفتت شهورا ترفض الاعتراف بالهزيمة أو تقاوم الاعتراف الكلى بها، فان هذا الشرخ السياسى العميق انما هو الآثار المتخلفة belated effects للزلزال الاستراتيجى الذى صدع الكيان الإسرائيلى بعد عملية «البركنة» العسكرية العربية المدمرة . لقد تحولت الصدمة التى هزت إسرائيل إلى صدع ، والصدع إلى صراع ، ثم الصراع إلى صرع !

إن سقوط حكومة ماير هو سقوط وزارة الحرب وحكومة المعركة، وهو أول ظهور كامل وعلى لنتائج أكتوبر . وهو كذلك دليل على مدى فداحة الشرخ الذى فلق البناء السياسى الإسرائيلى، الصرح والأساس ، أى الكيان برمته . وهو ليس شرخا بسيطا أو خلا سطحيا ، بل هو انكسار متعدد الأعماق والمستويات والشقوق ، رأسى وأفقى ، بالعرض والطول ، سطحي وجذرى ، غائر وزاحف ، موضعى وجسدى .. إلخ . والحقيقة أنه لا يقل عن انقلاب سياسى كامل، يأخذ شكل انقلاب عسكرى بالتحديد ، وانما على الطريقة الإسرائيلىة ، وربما بصيغة جديدة . ولهذا فالأزمة ليست أزمة فرد (دايان) ، ولا حكومة (ماير) ، ولا نظام (المؤسسة العسكرية) حتى كيان (إسرائيل)، وانما هى أزمة هذا كله .

فعلى المستوى الفردى ، لقد سقط دايان أخيرا نهائيا وإلى الأبد ، ليس منذ رشح رابين للخلافة بونه، ولكن منذ طالب ياكوف شابيرو لأول مرة باستقالته، بل بالأحرى منذ وطئت قدم أول جندى مصرى أرض سيناء. ولقد تعرض دايان منذ ذلك الوقت لهجمات قاسية ولحملات تحقير لا تتصور، فى حرب الجنرالات ، فى معركة الحزب ، فى

كواليس مجلس الوزراء ، فى أروقة الكنيست ، فى الشارع ، من رؤسائه ومرءوسيه ، من المعارضة ومن أتباعه وحوارييه ، من المجندين والمدنيين ، ومن الشباب والشيوخ. وأصبح حامى إسرائيل وملكها السابق يوسم ويوصم علنا «بوزير العار» «ورمزا لكل ما هو خطأ فى إسرائيل» ، موضع سخط الجميع والمشجب التى تعلق عليه كل الأخطاء .

وقد حاول دايان أن يقدم اليغازز كبش فداء لينجو برأسه أو بجلده ، ولكنه لم يلبث أن أصبح الضحية ، وإن جر معه مايير وحكومتها إلى المذبح . وإذا كان دايان قد ظل هكذا يقاوم الموت ويتشبث بحلاوة الروح حتى آخر رمق وإلى آخر لحظة ، فالحقيقة أنه انما كان يحتضر أثناء المعركة ، وبعدها مباشرة مات ميتة طبيعية ، وإن لم يدفن إلا بالأمس القريب فقط حين صدر تصريح الدفن باستقالة مايير . وكما ولد فى سيناء - هو من مواليد ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ - دفن أيضا فى سيناء ، سيناء أكتوبر . على أنه يستطيع الآن أن يستريح فى قبره ، بعد أن أطاح برأس الحكومة مثلما فقد رأسه ، محطما المعبد على رأسه وعلى رءوس أعدائه .

أما عن الحكومة ، الائتلافية ، فقد كانت حلبة للصراعات الفردية والحزبية الضارية من كل نوع وعلى كل مستوى . ولقد اعترف ايبان أن «هناك أزمة ثقة ، ليس فقط فى المعراج وحده ، بل داخل كل الأحزاب» . وهذا صحيح ، ولكنه بون الحقيقة . فحزب العمل يتفتت ويتاكل من الداخل بالصراع بين السياسيين والعسكريين ثم بين العسكريين والعسكريين ، وكان هذا الأخير هو الذى أسقط الحكومة مباشرة . ويسقوطها سقط «الحرس القديم» . ذلك الذى حكم الدولة منذ أقامها ، والذى تكون من شيوخ المهاجرين القدامى وأبناء الأجيال المخضرمة أمثال مايير وسابير وجاليلى (ومن قبل بن جوريون وشاريت وأشكول) .

ولقد كان ذلك أيضا رمزا ونتيجة لصراع الأجيال المزمّن والحاد فى إسرائيل . فلقد كان الشباب ينظر إلى القيادات الحاكمة على أنهم أولئك المهاجرون من روسيا وبولندا منذ ٤٠ سنة ، الذين تحجرت عقولهم وعقائدهم على قوالب عتيقة عاجزة عن التطور ولم تعد قابلة للحياة ولا بقادرة على أن تتناغم مع متغيرات العصر ومن المشكوك فيه الآن أن تتغير أو تتعلم . والانتقال الآن من زعامة مايير إلى زعامة رابين، إذا تحققت ، هو

انتقال من قيادة جيل الرواد المهاجرين إلى جيل الصابرا من شباب مواليد فلسطين المحتلة.

وبينما يحدث هذا داخل الحزب الحاكم ، فانه يحاصر باطراد من الخارج ويكاد يختنق بمنافسة الأحزاب الأخرى التى تحمله مسئولية الكارثة التى حلت بإسرائيل ، وتترىص به وتنتظر سقوطه . ولكن تلك الأحزاب نفسها تعاني هى الأخرى من الداخل وتتقلب صفوفها وتختل ولائاتها التقليدية. والكل يعمل - يبدو - بمبدأ «على وعلى أعدائى» . لقد انكشف زيف اسطورة الديمقراطية الشكلىة الإسرائيلية ، عرتها حرب أكتوبر وأزالت القشرة الهشة عن مجتمع الحكم العسكرى الكامن فى كيان الدولة.

لكن هذا كشف بدوره عن أزمة النظام . أزمة المؤسسة العسكرية الحاكمة . فهذه المؤسسة، التى تمثل قمة السلطة الحقيقية فى إسرائيل وحاكمة الحكومة وبولة فوق الدولة، قد تلقت ضربة قاصمة بالهزيمة العسكرية، وأصبحت مكانتها موضع تساؤل بل وشجب صريح من كل الأحزاب والسياسيين والطوائف والأجيال والمدنيين بل والمجندين . هوت إلى الحضيض سمعتها ، بينما هوت آلهتها وأصنامها إلى الأبد، ابتداء من دايان إلى شارون ، فلم يعد، ولن يكون بعد ، فى إسرائيل ملك ولا بطل ولا منقذ ولا «موسى» جديد . ولكن المؤسسة العسكرية تحارب بشراسة من أجل الحفاظ على مصالحها ووجودها وسيطرتها . ومن أجل هذا دار الصراع داخلها ، وبسببه سقطت الحكومة الائتلافية.

ولكن الغريب أن الحكم سقط كالثمرة الناضجة فى أيدي المؤسسة . فلعل أبرز مغزى لانتقال الحكم - إذا الأمر تم - من مايير إلى رابين هو انتقال قمة القيادة من أيدي السياسيين المدنيين إلى أيدي الساسة العسكريين. فإذا نجح رابين فى تشكيل حكومة ، فسيكون أول رئيس وزارة عسكرى يحكم إسرائيل منذ انشائها . ولهذا فان الأزمة السياسية الخطيرة التى تعيشها إسرائيل الآن أدنى أن تكون بالفعل انقلابا عسكريا على الطريقة الإسرائيلية وانما بصيغة جديدة مختلفة عما حدث عشية حرب يونيو مثلا .

لقد تلقت المؤسسة العسكرية فى إسرائيل أول لكمة مهينة ومزلزلة فى تاريخها ، ولكنها للغرابة والدهشة برزت منها وهى على قمة السلطة . وان دل هذا على شىء فانما يدل يقينا على أن الكيان الإسرائيلى فى جوهره كيان عسكرى لا غنى له عن مؤسسته

العسكرية منتصرة كانت أو منهزمة. غير أنه أيضا مؤشر بليغ إلى اتجاهات المزاج الإسرائيلي الكامنة واحتمالات حركته في المستقبل ردا على الهزيمة.

كذلك فلعل «عودة» المؤسسة إلى الصدارة على هذا النحو المتناقض هو نوع من الاعتراف والتعويض الصامت بأن الخطأ لم يكن خطأها وحدها، بل خطأ جهاز الحكم ونسوة الدولة كلها، عسكريا وسياسيا وغير ذلك . ولكن الذي لا يبدو أن الإسرائيليين قد فطنوا إليه بعد واستوعبوه جيدا هو أن مثل هذا الاعتراف انما يعنى أن الخطأ الجوهرى كامن فى الكيان ذاته ، فى الوجود الصهيونى ومبدأ الدولة اليهودية على أرض فلسطين المغتصبة واستراتيجية إسرائيل نحو العالم العربى . غير أن هذا موضوع آخر، وهو بالدقة ما سيقدر مصير الدولة فى المدى البعيد ، فضلا عن احتمالات المستقبل فى المدى القريب.

ولكن هذا الانقلاب السياسى الضارب فى أطناب العدو ، ماذا يعنى فى النهاية من المنظور العربى ؟ كما قال المناضل ياسر عرفات فى حديث له إلى مصطفى نبيل بالمصور أنه لا يعنى إلا «عمق الأزمة التى ولدتها حرب رمضان ، والتفسيخ والضعف اللذين تمر بهما إسرائيل» . وهنا يجدر بنا أن نسجل ملاحظة مهمة . لقد عشنا طويلا وسياسة القوة والردع «والحملات التأديبية» الإسرائيلية تتحكم أحيانا بل كثيرا فى السياسات العربية الداخلية البحتة ، تحدد حريتها فى الحركة والعمل داخل ذات حدودها، وتفرض عليها بطريق غير مباشر أن تفعل هذا ولا تفعل ذاك، بل وفى النهاية تسقط الوزارات وتقيمها .. إلخ . حدث هذا مثلا فى محاولة تحويل مجرى نهر الأردن قبل يونيو حين أجهضت إسرائيل المشاريع العربية بتهديد القوة، وحدث بعد يونيو فى صورة إسقاط أو تشويه زعامات عربية كانت عتيقة ، وحدث فى لبنان حيث تعدد سقوط الحكومات بصورة مؤسفة تحت ضربات إسرائيل وعربيتها العسكرية بحرية كاملة داخل الحدود .. إلخ.

لكننا الآن ولأول مرة نشهد المشهد معكوسا : المسرح السياسى فى إسرائيل أصبحت القوة العربية المنتصرة هى التى، على البعد ، تؤثر فيه وتحكم اللعبة السياسية وتلعب بالسياسات الحزبية إلى حد ما وتعكس ظلها على أزمات الحكومة فى إسرائيل بدرجة أو بأخرى. انقلاب مهم كما هو دال ! ولعل آخر وأبرز مثال له هو أزمة الحكم الأخيرة فى

إسرائيل وتشكيل الوزارة الجديدة بعد الانتخابات . فلقد كان تفاقمها أثرا مباشرا من آثار معركة أكتوبر ، كما كان الاسراع المهرول إلى احتوائها بأى ثمن نتيجة مباشرة لضغوط الجبهة السورية التى لم يتم الفصل بين القوات عليها بعد . وأخيرا كان سقوط وزارة مايير ، وتعثر تأليف وزارة بعدها على يد رابين ، لوقت طويل ، ثم ضعف هذه الوزارة البادى، تعبيرا عن عمق الطعنة التى وجهها العرب إلى قلب إسرائيل السياسى . لقد أسقط العرب الحكومة الإسرائيلية لأول مرة منذ ربع قرن.

الانقلاب النفسى

من المظاهرات الدالة ، والتى لا تخلو من مؤشرات طريفة ومسلية أيضا ، أن الميزان النفسى وتوازن المعنويات قد انقلب هو الآخر ما بين العرب وإسرائيل نتيجة للمعركة ، فقد انعكست كل الأوضاع والأحوال والملابسات والأنوار بين الطرفين فيما قبل أكتوبر وبعد أكتوبر أو بالأصح فيما بعد يونيو وبعد أكتوبر . فكما يقول لاكنيز : «ربما كانت أهم نتيجة درامية لحرب الأيام الستة هى المحصلة النفسية. فقد كانت إسرائيل تعاني من مرض الاختناق فى الأماكن المغلقة ، وعندما تحولت إلى دولة أكبر اختفى الشعور بأنهم محاطون بسور من كل جانب . وكان هذا أول تغيير كفى ، وكانت هناك رغبة جارفة فى عدم العودة إلى الاختناق القديم». ولكن حرب أكتوبر عادت فقلبت الميزان النفسى وأعادت الشعور القديم بالاختناق والحصار مضافا اليهما الانكسار.

فهم الآن الذين يعيشون فى بكائية وطنية كبيرة بحيث تحولت إسرائيل كلها إلى «حائط مبكى واحد» . «ان الشعور بالأسى» ، أذاعت وكالة أنباء من تل أبيب «يسود شوارع إسرائيل حيث الوجوه مقطبة وجامدة . ولم يحدث من قبل أن تركت حرب مثل هذا الشعور بالحسرة والمرارة فى إسرائيل ، وما عاد يتردد فى إسرائيل اليوم سوى حديث الموت هنا وهناك». يحدث ذلك بعد أن كانت الأراضى المحتلة هى «مبكى العرب الكبير» ، كما وصفوها هم أنفسهم بعد يونيو سخرية وشماتة . وهم الآن الذين يقولون إنها حرب حياة أو موت والذين يتساعلون - حرفيا - «أن نكون أو لا نكون» ، السؤال الهاملى الشكسبيرى الذى كنا نرده بعد يونيو . وأخيرا وليس آخرا فانهم هم الذين يعانون بصورة فادحة وصارخة من تمزق وانهيار الوحدة الوطنية، فى الوقت الذى تلاشت فيه هذه المشكلة من المجتمع العربى نهائيا وأصبح التلاحم الوطنى فيه أقوى منه فى أى وقت مضى.

وفيما عدا هذا ، فيبدو أن المراحل النفسية الدرامية والمأساوية التي مررنا نحن بها بعد يونيو ، تعيشها إسرائيل الآن تباعا مرحلة بعد أخرى! فبعد صدمة الدهول التي أحدثتها الضربة العربية التاريخية ، تلك التي وصفها الرئيس بأنها «ضربة لن تنساها إسرائيل إلى الأبد» ، اجتاحت العدو ، فضلا عن الحقد المكبوت والمكتوم ، موجة كثيفة من الحزن والقهر والكمد الكظيم أو المتفجر . وأغلب الظن أن إسرائيل الآن لا تزال في مثل المرحلة التي مررنا نحن بها عقب يونيو مباشرة حين كنا بين تصديق وتكذيب لم نزل ونحن لم نكن قد وعينا بعد المعنى الرهيب للهزيمة بكل ثقلها ووقرها وضغوطها المخيفة وبكل محمولاتها وتداعياتها وأخطارها البعيدة المدى. وحين تفتيق إسرائيل من آخر بقايا أوهام الماضي ، فستدرك تماما ذلك المعنى ، لتدخل به مرحلة جديدة قد تكون أشد خطرا هي مرحلة إعادة التفكير في الذات والفوص في الأعماق . وحين تفعل ، فستكون أعمق هذه الأعماق هي فكرة «الأمن» ، العمود الفقري في الوجود الإسرائيلي، والكلمة التي أدمنت إسرائيل ترديدها في العالم منذ نشأتها أكثر بالتأكيد من أى كلمة أخرى في قاموس السياسة العالمية جميعا ، وربما إلى درجة الملل والغثيان بالفعل .

أما الآن فانها مرحلة الانهيار النفسى الداخلى وتعذيب الذات بعد مرحلة الانبهار الذاتى والنرجسية المفرطة والبارانويا السائدة التى أزمنت طويلاً. وأصبحت إسرائيل نموذجا مجسما للباثولوجيا النفسية والاجتماعية إلى جانب كونها أصلا دراسة فى الباثولوجيا السياسية والاستراتيجية . وهكذا بدأت سلسلة الاعتراف بالخطيئة وعملية الاستيطان الداخلى بل والندم وإن يكن الشائى لا التائب . ولدينا فى هذا الصدد مجموعة من الاعترافات «والبيكائيات» بأقلام العدو ، كتبها صحفيون وساسة وعلماء نفس . وكلها فى غنى عن التعليق ، ويكفيها منها مجرد السرد والاقتباس . ولعل من المناسب، مادمننا نتكلم عن الانقلاب النفسى ، أن نبداً بعلماء النفس والسيكولوجيين.

تعددت شهادات هؤلاء الاخصائيين ، ولكنهم أجمعوا على أن إسرائيل خرجت من حطام الحرب وهى تشعر بالتوتر والقلق والاضطراب أمام مستقبل غير مؤكد ولا مضمون ، وإن هذه الحالة العصبية انعكست فى شكل زيادة ملموسة فى عدد المترددين على مراكز الصحة النفسية والعصبية أثناء الحرب ويعدها . وقال طبيب نفسى بارز فى

جامعة تل أبيب إنها حرب مريرة حتى أن الناس لا يشعرون بسعادة إذا بلغتهم أنباء طيبة، ثم تنبأ بأن الأثر النفسى للحرب على الإسرائيليين سيكون أشد وأقوى على المدى البعيد لأن «جميع زعمائنا الأحياء الذين كنا نؤلهم قد خذلونا . بل وخذلنا الأفكار كذلك» . وأضاف المصدر نفسه أن العرب نتيجة للحرب قد «زاد احترامهم لأنفسهم ، بينما كف الإسرائيليون عن أن يعتبروا أنفسهم من طبقة الإنسان السوبرمان والعرب أقل منهم مستوى على الدوام».

وقال عالم نفسى آخر إن الحرب قد أعادت إلى أذهان الإسرائيليين شيئا يعرفونه دائما ولكنهم كانوا يؤثرون تجاهله فى الماضى، وهو أنهم يعيشون فى بولة صغيرة يحيطها «أعداء» . وأرجع العالم خطورة الاستجابة العربية فى أكتوبر إلى الاستفزاز الإسرائيلى الغر. فقال «لقد بنينا جيشا كبيرا ولكننا فى الوقت نفسه خلقنا جو الحرب والتحدى لجيراننا . وكنا نسألهم : ألا تستطيعون أن تكونوا مثلنا ؟ أليس فى قدرتكم أن تقاتلوا مثلما نقاتل ؟ قالوا بلى ، نستطيع . وهذا ما فعلوه . واعتقد أن الحرب الأخيرة كانت دورهم ليصبحوا الأبطال، وليغيروا الصورة التى كانت فى أذهاننا».

فإذا انتقلنا من علم النفس إلى عالم الصحافة ، وجدنا العينات بلا حصر. مثلا كتب كاتب منهم أن معركة أكتوبر «نسخت كل المفاهيم السياسية والعسكرية التى اكتسبناها من يونيو» . وقال آخر انها «أعادت شعورنا بالخوف على حقيقة كياننا كما كنا سنة ١٩٤٨»، وأضاف ثالث «إننا نحس كما لو كنا نعيش بعد زلزال أصاب بلادنا» . وفى المعنى نفسه قال معلق إسرائيلى معروف «اتضح لنا فى النهاية أن مجتمعنا الصغير الأنيق كان يعيش داخل قشرة بيض سهلة الكسر». أما صحيفة معاريف فقد كتبت ما مؤداه أن إسرائيل كانت تعيش فى «جنة البلهاء fools' paradise»، فأتت حرب يوم الغفران كضربة مارد جبار أو كصاعقة البرق فأيقظتها منها. وقالت هارتس «السؤال المطروح، إذن ، هو : إذا كنا قد عجزنا عن تدمير المعدات «السوفيتية» (كذا) وإبادة الجيش المصرى، فما الذى أحرزناه إذن ؟» ثم أجابت قائلة «أن المكسب المهم ، والوحيد ، لنا هو العبرة من حرب يوم الغفران. لن يكون هناك مجال لعدم المبالاة والتبجح ولا للحديث عن الاستعداد لامتنصاص الضربة الأولى». وباللهجة نفسها كتب شبتاي نيفيت ، وهو معلق عسكري ، يقول «لقد لقن الجنود العرب إسرائيل درسا بأنها بالغت إلى حد

السفه فى الثقة بالنفس». وبالمثل قال ميكونس عضو الكنيست انه بعد مرور ٢٥ سنة من غسيل المخ المنظم والعامد أصبح يسود إسرائيل الآن شعور بعدم الثقة . كذلك نشر أخيرا فى إسرائيل كتاب عن محنة أكتوبر وضعه مجموعة من الصحفيين ، اعترفوا فيه أولا بأنهم كبقية الكتاب الإسرائيليين قد «شاركوا فى نشر الاستخفاف والاستهتار العام بالعدو ، والثقة المبالغ فيها بالنفس، فكان ذلك مساهمة فى الخلل العام الذى أدى إلى الحرب ونتائجها» . أما عن هذه فقد قالوا «لقد رأينا الحرب ووجهها الخفى عن الكثير من الأعين. وعدنا من الحرب جزءا من شعب مهموم قلق تلاحقه علامات الاستفهام. ووقفنا مشدوهين أمام أولئك الذين يحاولون الاستمرار وكأن شيئا لم يحدث وكأن الحرب التى وقعت لم تغيرنا جميعا. وقفنا مذهولين أمام محاولات التغطية والتضليل واخفاء الحقائق التى أدت إلى هذه الحرب، وأوهام القادة الذين يحاولون التنصل من المسؤولية الرهيبة . ونحن لا نريد المساهمة فى مؤامرة الصمت التى أدت إلى هذا الزلزال».

أما على المستوى السياسى فقد اعترفت مايير بأن صدمة حرب أكتوبر قد غيرت الحياة فى إسرائيل وتركت آثارها «على أفكارنا وأعمالنا وطريقة حياتنا فى جميع المجالات». وقبل سقوط حكومتها نهائيا عادت إلى النعمة نفسها قائلة ان إسرائيل قد تلقت صدمة عنيفة وقوية، «ولن تعود إسرائيل قط كما كانت». ويكاد دايان يكرر المعنى نفسه . «كانت حرب أكتوبر»، قال هو فى ديسمبر ١٩٧٣، «بمثابة زلزال تعرضت له إسرائيل . وما حدث فى هذه الحرب قد أزال الغبار عن العيون وأظهر لنا ما لم نكن نراه قبلها . وكل هذا أدى إلى تغيير عقلية قادة إسرائيل . غير أن أيام إسرائيل العصبية القصوى لم تحدث بعد ، وعلينا أن نبقى صامدين خلال فترة المحنة التى لاتزال أمامنا».

أما اييان فقد قال «لقد كنا نعيش فى وهم النولة القوية منذ ١٩٧٠». واييان بالتحديد واحد من أكثر من تحدثوا بلا تحفظ عن اسراف الإسرائيليين فى الاعتقاد فى تفوقهم والتفاخر الفج الأجوف بقوتهم ، ودعا الإسرائيليين إلى التواضع وعدم المبالغة فى أسلوب «البلاغة الوطنية» . ففى أكثر من حديث له قال ان كل شىء قد تغير بالنسبة لإسرائيل بعد حرب أكتوبر ، فقد تمكن العرب من أن يقنعوا العالم كله بقدرتهم على حمل السلاح ،

وتمكنوا من استعادة كرامتهم. ثم أضاف أن نتائج حرب يونيو كانت قد خلقت «اقتناعا فكريا خطيرا» بأن إسرائيل لا تقهر، ولقد «جعلنا ذلك مغالين أكثر مما ينبغي في الثقة بأنفسنا وأكثر عنفا مما ينبغي ، كما أننا أدلينا في أحيان كثيرة بخطب رنانة تفتقر إلى التروى».

غير أننا لا شك نصل إلى ذروة الاعتراف مع كاتزير، رئيس إسرائيل، «أن إسرائيل»، قال هو في حديث موجه لمواطنيه ، «كانت تعيش فيما بين سنتي ١٩٦٧، ١٩٧٣ في نشوة لم تكن الظروف تبررها. بل كانت تعيش في عالم خيالي لا صلة له بالواقع . إن هذه الحالة النفسية مسئولة عن الأخطاء التي حدثت قبل حرب أكتوبر وفي الأيام الأولى للحرب ، لأنها كانت قد تفتت في كل المجالات العسكرية والسياسية والاجتماعية وأحدثت بها مواطن ضعف خطيرة يجب أن يشترك الإسرائيليون جميعا في تحمل مسئوليتها .. يجب علينا أن نتعلم بعد هذه الحرب الفظيعة أن نكون أكثر تواضعا وأقل نزوعا إلى المادية ...».

ولعل هذه الاقتباسات - الاعترافات فيها الكفاية أو أكثر من الكفاية لتصور حقيقة السيكلوجية الإسرائيلية بعد الهزيمة ، سيكلوجية الهزيمة. وواقع الأمر أن إسرائيل، التي أسكرتها خمرة النصر مرارا وطويلا، كانت كأي مدمن مزمن تعيش في أحلام يقظة وفي حالة من الغيبوبة السياسية - الوطنية أفاقت منها فقط على وقع الحقائق الصادمة والصدمة السيكلوجية القاسية.

ولسوف يكون لهذا الوعي المسترد ما بعده . فإذا كانت الضربة العسكرية التي تلقتها إسرائيل بمثابة العوامل التكتونية، أي انفجارات الأرض الباطنية من زلازل وبراكين بلغة الجيولوجيا ، فإن آثار الهزيمة النفسية وفعلها هي بالضبط بمثابة عوامل التعرية في التشبيه ، بطيئة سارية وخبيثة، ولكنها مؤثرة ومدمرة إلى أبعد الحدود ، تتسلل وتتسرب إلى الأعماق فلا تنتهي إلا بالتقويض الجذري والانهيار من الداخل. إنها حرب المدى البعيد والنفس الطويل.

الانقلاب الاقتصادي

قبل حرب يونيو ١٩٦٧ كانت إسرائيل تمر بأزمة اقتصادية حادة ومستحكمة ، كان من أبرز أعراضها تضخم شديد أدى إلى سلسلة من خفض العملة وبطالة قدرت بنسبة

١٠٪ من مجموع القوة العاملة وتدهور في مستوى المعيشة وتزايد في عجز الميزان التجاري وميزان المدفوعات ثم تواتر في الاضرابات المتلاحقة، وحتى الهجرة الخارجية فاقت تقريبا الهجرة الداخلة . وكما كانت الأزمة دافعا جوهريا من دوافع الحرب ، وكانت الحرب مخرجا مقصودا من الأزمة ، جاءت الحرب فعلا بموجة من الرخاء الشديد . فلقد تدفقت القروض والمساعدات على إسرائيل المنتصرة، وتكاثر بها «مؤتمرات المليونيرات» من يهود العالم ، وانهارت عليها الهبات ومشاريع التنمية المشتركة ، كما عاد ميزان الهجرة اليهودية فانقلب لصالح إسرائيل.

ونتيجة لهذا كله ارتفع معدل التنمية ونمو الإنتاج والدخل القومي في إسرائيل حتى وصل في بعض السنوات إلى ١٠٪، ١١٪، كما تحققت العمالة الكاملة، بل واستوعبت أكثر مما استطاعت أن تستقطب من الأيدي العاملة العربية في داخل الأراضي المحتلة، وارتفع مستوى المعيشة بصورة ملحوظة ، وبدأت إسرائيل كلها وكأنها مشروع استثماري ناجح للغاية لا ينقصه حتى مغانم الحرب الدسمة وموارد الأراضي المحتلة الجديدة ابتداء من بترول ومنجنيز سيناء إلى برتقال وحمضيات غزة وفواكه وخضراوات الضفة الغربية إلى أسماك البريول والعقبة.. إلخ . لقد أثبتت التجربة مرة أخرى أن إسرائيل «تعاني» من «حالة» السلام اقتصاديا متلما تعاني سياسيا واجتماعيا ، بينما تفره على العكس وتزدهر على حالة الحرب وذلك في تلك المجالات كلها على السواء . وبدأت السنوات السبع السمان.

هذه القاعدة القديمة جاء أكتوبر ليكسرهما ويقلبها رأسا على عقب. فكأن هزيمة عسكرية حقيقية تلحق بإسرائيل، انكشف الاقتصاد الإسرائيلي على حقيقته، وتعرضت إسرائيل لأسوأ أزمة اقتصادية وحالة انكماش عرفت منذ نشأتها . فالخسائر الجسيمة في السلاح والمعدات ثم نفقات استعاضتها بجديد ونفقات القتال والتعبئة وانخفاض الإنتاج مع تناقص الصادرات وتزايد الواردات، كل هذا أدى إلى تفاقم الحالة الداخلية وأصبحت الحياة اليومية تختنق بالضرائب الباهظة والغلاء الفاحش وبالتالي بالاضرابات المتلاحقة .. إلخ . وعلى الجملة فلقد ولت بلا تحفظ أيام الرخاء . وبعد السنوات السبع السمان بدأت السنوات العجاف، كم لا ندري بعد ، ولكنها ستطول بلا شك .

ويبدو كذلك أن الهجرة قد بدأت تتأثر هي الأخرى بعد أن أصبحت إسرائيل بيئة

حياتية طاردة أو على الأقل غير جاذبة أو جذابة . فقد أعلن المكتب المركزي للإحصاء في إسرائيل أن عدد النازحين في ١٩٧٣ بلغ نحو ١٣ ألفاً، وأن معدل الهجرة النازحة بلغ قمته في أواخر العام، بينما انخفضت أرقام المهاجرين إلى إسرائيل خلال يناير ١٩٧٤ عن مثيلاتها في يناير ١٩٧٣. كذلك سجلت أرقام هجرة اليهود السوفييت إلى إسرائيل في الشهور الثلاثة الأولى من ١٩٧٤ انخفاضا بنسبة ٢٥٪ عن مثيلاتها في ١٩٧٣، وفي إبريل ١٩٧٤ وصل الانخفاض إلى نسبة ٥٠٪. وخلال الشهور الأربعة مجتمعة هبط عدد المهاجرين الروس إلى ٦٧٠٠ مقابل ١١ ألف في الفترة المماثلة في ١٩٧٣.

وفي مارس ١٩٧٤ نشرت هآرتس نتائج استطلاع للرأي كشفت الكثير عن احتمالات الهجرة من إسرائيل فقد ظهر أن شخصا من كل عشرة يفكر في الهجرة من إسرائيل نتيجة لارتفاع الأسعار والاستياء من نتائج حرب أكتوبر. والتفكير في الهجرة أقوى بين الجيل الجديد . فمن بين البالغين الذين اشتركوا في الاستطلاع، قرر ٦٥٪ الهجرة بالفعل ، بينما يفكر فيها بجدية ٥١٪ . أما بين مجموعة العمر ١٨ - ٢٩ سنة ، فإن ٢٠٪ ذكروا أنهم يفكرون في الهجرة . وكشفت استطلاعات أخرى تالية أن ١٥٪ على الأقل من جيل الصابرا - مواليد إسرائيل - يريدون الهجرة منها فوراً إن أمكن . على أن نقطة الهجرة هذه ينبغي أن تنتظر مزيداً من المؤشرات ومزيداً من الوقت.

ليس هذا فحسب ، بل لقد انقلبت الصورة كذلك بالنسبة للعرب . فإذا كانت سوريا ومصر قد وضعتا الكثير من مواردهما وميزانيتهما في المعركة، وتعرضتا لخسائر عديدة في الممتلكات والمنشآت ، وكلفتهم الحرب مع سائر الدول العربية عدة بلايين من الدولارات، فقد استطاع الاقتصاد العربي بعامة أن يمتص صدمة الحرب وأن يتكيف معها بل وأن يخرج منها بأقل قدر من الخسائر وأكبر قدر من المكاسب، وبعد اقتصاد الحرب القاسي والتقشف الصارم فيما بين الحربين ٦٧ - ١٩٧٣ ، انفتح باب التوسع أمام الاقتصاد العربي الذي انفتح هو الآخر على العالم بلا قيود أو معوقات. ولن نكرر هنا مكاسب أسعار البترول الجديدة، ولا عروض القروض ومشاريع التعمير والاستثمارات العالمية التي تدفقت على الدولتين المحاربتين وغيرهما . ولكن يكفي أن نقارن هذا بما في إسرائيل اليوم وبما كنا عليه بعد يونيو لكي ندرك أن انقلاباً اقتصادياً حقيقياً قد وقع في منطقة الشرق الأوسط عموماً نتيجة لحرب أكتوبر.

فى هذا الإطار الأساسى، نستطيع الآن أن نفصل خسائر العدو الاقتصادية بشىء من التحديد ومن واقع تصريحاته هو وأصدقائه. خلال الأيام الخمسة الأولى فقط من المعركة أنفقت إسرائيل، هكذا أعلن وزير المالية سابير، نحو ٢ بليون دولار، أى بمعدل ١٠ ملايين دولار فى كل ساعة قتال فعلى (٥ - ٦ ساعات يوميا) . وبعد انتهاء الحرب ذكرت معاريف أن قيمة خسائر المعدات والأسلحة بلغت بليون دولار ، كما بلغت بليوناً آخر قيمة تكاليف التحصينات التى دمرت ونقص الربح الناتج عن انخفاض الإنتاج. ولكن وكالة اليونايتد بريس عادت فذكرت أن الرقم الأخير وصل إلى ٢ بليون دولار ، وأن مجموع خسائر إسرائيل العسكرية والاقتصادية خلال الأسبوعين الأولين من الحرب تصل بذلك إلى ٢ بلايين دولار. وعلى هذه الأسس كان المقدر أن الحرب قد كلفت إسرائيل فى شهر ما يعادل ميزانية عام بأكمله.

لكن مرة أخرى عاد سابير فأعلن أن تكاليف الحرب قد زادت على المقدر سابقا وهو ٣ مليارات دولار، وأن العجز التجارى المقدر لسنة ١٩٧٤ قبلا وهو ١٥ مليار سوف يرتفع إلى ٢٥ مليار. وجاء التوضيح فى النيوزويك التى ذكرت أن التقدير الاجمالى النهائى لتكاليف الحرب من ذخيرة ووقود وصل إلى ٥٥ مليار دولار ، وهو ما يوازى عدة أضعاف قيمة الميزانية الكلية للدولة . ولكن مسئولين إسرائيليين آخرين صرحوا بأنه ليس من مصلحة إسرائيل الافصاح عن الأرقام الحقيقية لخسائرها فى الحرب لأن هذا يخدم العرب، بينما قدر مسئولون آخرون مجمل النفقات بنحو ٧١٠٠ مليون دولار . وقد عاد سابير بعد ذلك فأعلن بالفعل أن حرب أكتوبر كلفت إسرائيل واقتصادها (خسائر الإنتاج والاستثمار) ٧١٤٠ مليون دولار. وأن ثلث الميزانية سيوجه للدفاع. ومن جهة أخرى قدر سابير أن تكاليف الحرب كانت تكفى لشراء ١٢٠ مليون طن من القمح، أى حاجات إسرائيل منه لمدة ١٢٠ سنة مقبلة ، أو ما يعادل ٥٠٠ مليون طن من الوقود بأسعار سنتين مضتا . كما أعلن سابير بعد ذلك أن إسرائيل اشترت ما قيمته ٧ بلايين دولار من الأسلحة منذ ١٩٧٠.

وقد لخص تقرير لإحدى لجان الكونجرس الأمريكى اقتصاديات الحرب الإسرائيلية بعد انتهاء المعركة، فذكر أن الحرب قد كلفت إسرائيل ٢٥٠ مليون دولار يوميا، وهو ما يزيد على ١٠ أضعاف ما تحملته فى عام ١٩٦٧. وأشار التقرير إلى أن ما استوردته

إسرائيل للاغراض الحربية والدفاعية فى ١٩٧٣ يعادل ما استوردته فى ١٩٦٧ نحو ١١ مرة ، وأن هذا يمثل ثلث جميع الواردات الإسرائيلية ونحو ٤٠٪ من الدخل القومى . أما المديونية الخارجية لإسرائيل فقد قدرها التقرير بنحو ٥ بلايين دولار ، أى بمعدل ١٥٠٠ دولار للفرد الواحد، وهو أعلى معدل مديونية فى العالم. وانتهى التقرير إلى أن الحرب قد كلفت إسرائيل غاليا ويا همظا، وانهم أتركوا نهائيا أنهم لا يمكنهم خوض حرب جديدة كل عدة سنوات كما كان الحال فى السابق.

ورغم التغطيات الكثيفة التى ترد من الخارج - أكثر من ٢٢ مليار دولار قيمة سلاح بديل شبه مجانى من أمريكا، ومئات الملايين من الدولارات من اليهود الأمريكين .. إلخ - فقد قدر أن إسرائيل تحتاج إلى ما قيمته ٣٠٠٠ مليون دولار من العتاد الحربى لتعويض خسائرها. ولذلك ينتظر أن ترتفع الميزانية العسكرية لإسرائيل إلى حوالى ٣٠٠٠ مليون دولار سنويا، يغطى نصفها المشتريات العسكرية من الخارج والنصف الآخر الامدادات والخدمات العسكرية، وترتبطا على هذا فسيكون على أمريكا أن ترفع معونتها العسكرية لإسرائيل من معدلات ما قبل الحرب التى تقدر بحوالى ٤٠٠ مليون دولار سنويا إلى ١٥٠٠ مليون دولار سنويا .

وقد عبر عن هذا الوضع كله بطريقة أخرى وزير المالية سايبير، الذى قال ان الخطط التى كانت موضوعة قبل حرب أكتوبر كانت تخصص ١٧٪ فقط من اجمالى الناتج القومى لنفقات الأمن. ولكن هذه الخطط «قد سقطت من النافذة نفسها التى سقطت منها الافتراضات القائلة بأن العرب لن يتجاسروا على مهاجمة إسرائيل». ثم أضاف أن الضغوط المالية للحرب قد قفزت بنفقات الدفاع إلى ٣٠٪ ثم إلى ٤٨٪، أى نصف اجمالى الناتج القومى. وفى ظل هذه الظروف - تعلق اليونايثد بريس - تجد إسرائيل نفسها تعتمد الآن ، أكثر من أى وقت مضى، على أمريكا لمساعدتها على البقاء «وانقاذها من الفرق فى البحر الأحمر». ولا تأتى هذه المساعدات فقط من جانب اليهود الأمريكين الذين يطلب منهم أن يحفروا فى جيوبهم بعمق أكثر من ذى قبل، وإنما كذلك من جانب الكونجرس الأمريكى. وهكذا أثبتت المعركة مرة أخرى وأكثر من أى وقت مضى صحة كلمة الرئيس السادات من أن إسرائيل تعتمد على الولايات المتحدة فى كل شىء «ابتداء من رغيف الخبز حتى طائرة الفانتوم».

واضح إذن تماما أن الحرب إن لم تكن قد دمرت أو خربت اقتصاد إسرائيل ، فقد أصابته بضرية في الصميم. ويتعبير سايبير «وان الأيام السعيدة قد انقضت اننا الآن في حالة حرب من الناحية الاقتصادية» ، أو بتعليق اليونانيد بريس «أن الحرب التي اندلعت في أكتوبر لم تنته، وانما انتقل ميدان المعارك من الجبهة المصرية والجبهة السورية إلى أرفف المحلات التجارية بإسرائيل». فلقد ارتفعت أسعار كل السلع والخدمات، ووصل الارتفاع أحيانا إلى ١٠٠٪، وأصبحت الأحزمة مشدودة إلى آخرها على البطون. فقد تأثرت جميع خطوط الإنتاج «من المقابر إلى الصناعة، ومن المزارع إلى الفنادق السياحية». وانتشر الكساد وقل السياح وأفلس بعض المؤسسات كما توقفت شركات أخرى مثل شركة زيم للملاحة . وفي الوقت الذي ارتفعت الضرائب إلى حدها الأقصى، ارتفعت أسعار كل السلع والخدمات بشكل جاد، وبذلك تحولت الأزمة، أو امتدت بالأحرى، من المجندين إلى ربات البيوت ومن المنتجين إلى المستهلكين. وأخيرا أعلن المكتب الحكومي للإحصاءات في إسرائيل أن العجز في ميزان المدفوعات خلال الربع الأول من ١٩٧٤ قد بلغ ٤٢٦ مليون دولار ، أي بزيادة ٩٠٪ عن الرقم المماثل في العام الماضي.

أما عن المستقبل فان الصورة ليست أكثر اشراقا. فإلى أمد طويل ستظل التعبئة الجزئية قائمة تحرم الإنتاج نسبة معلومة من الأيدي العاملة، كما ستبقى كثير من خطوط الإنتاج موجهة نحو الاقتصاد الحربي. فمثلا بينما كان نصف إنتاج الصلب والالكترونيات ووسائل النقل يصب في مجال الدفاع، يقدر أن هذه النسبة سوف ترتفع في العام القادم إلى نحو ٧٥٪. وقد قدر اقتصادي إسرائيلي معروف يدعى يوفال اليتسور أنه لا مفر من تخفيض مستوى المعيشة الإسرائيلي بعامة خلال السنة القادمة أو السنتين بنحو ١٠٪ على الأقل، كما قرر بصفة جازمة عن الاقتصاد الإسرائيلي أن «الظروف التي سادته قبل ٦ أكتوبر ١٩٧٣ لن تعود ثانية».

ولقد لخصت النيوزويك الموقف برمته بدقة حين عقيبت قائلة أن الحرب قد كلفت إسرائيل غالبا ، ولولا وقف إطلاق النار لوجدت تلك الدولة حياتها وقد اقتصرت على الكفاف. لقد خسرت إسرائيل - نحن تلخص - الجبهة الاقتصادية كما خسرت الجبهة العسكرية، وإسرائيل اليوم دولة مأزومة كما هي دولة مهزومة. ان طفل الشرق الأوسط المدلل قد أصبح طفل المنطقة العليل، ولا نقول رجلها المريض، وتحول ما كان بعد بلغة

الاستعمار العصا الغليظة إلى ما يمكن أن نسميه بالتعبير التوراتي «بالقشة المكسورة broken reed» .

انهيار نظرية الأمن الإسرائيلي

نصل الآن إلى حجر الزاوية وركن الأساس في الوجود الإسرائيلي جميعا، قضية الأمن التي أغرق العالم بها حديثا وتفسيرا. ما هي بالضبط في النظرية والتطبيق؟ وماذا فعل بها ٦ أكتوبر ، وإلى أي حد بالدقة عصف بها؟

إذا بدأنا من البداية، فسنجد باختصار أن قضية الأمن مشكلة تاريخية قديمة تطارد «اليهودي التائه» نفسيا وماديا في الشتات عبر القرون والقارات. وأيا كانت الدوافع أو الأصول المعقدة، الحقيقية أو الوهمية، فقد أصبح الأمن عقدة مزمنة، ملازمة لعقدة الاضطهاد. وقد كان «الجيتو» هو الرد، ولا نقول الحل ، التقليدي، ذلك الحى الغامض المعزول المسور والمحصن المتوقع داخل المدينة، فيها وليس منها، يحقق الرغبة المرضية في التباعد وعدم الاندماج أو الذوبان في مجتمع الجويم العريض بون أن ينفصل مع ذلك عن مصالحه ومعاملاته بل والتطفل على خدماته وموارده.

ومنذ ظهرت الصهيونية السياسية في القرن الماضي ، لم يكن «الحل الصهيوني» «المشكلة اليهودية» إلا تكبيرا أو تعظيما maximization لعقلية الجيتو تلك. ولم يكن يستهدف إلا جميعا مجسدا في بقعة واحدة للآلاف من خلاياه المبعثرة والمبعثرة في تضاعيف الشتات. وإذا كانت فلسطين، بمنطق أسطورة غيبية محرفة بقدر ما هي منحرفة ، قد أصبحت الضحية، فقد كان معنى هذا أن تتحول بعد تفرغ من أصحابها الأصليين والشرعيين إلى جيتو واحد أعظم يختزل ويختزن كل جيتوهات العالم المفتتة.

بذلك اجتمعت الأسطورة الدينية مع العنصرية العرقية مع الاغتصاب الاستعماري لتكون الدولة - الجيتو أو الجيتو - الدولة ، إسرائيل. وبذلك أيضا تحول الوجود اليهودي في فلسطين . بالتسلل فالهجرة ثم بالاغتصاب فالغزو ، من لاجئين «ويشوف» (جسم المجتمع اليهودي في فلسطين الانتداب). إلى مستوطنين ومستعمرة ، ثم أخيرا إلى دولة ومشروع امبراطورية! ولم يكن شعار الصهيونية «لأرض بلا شعب لشعب بلا أرض» إلا تزييفا فاجرا وقلبا وحشيا للحقيقة وغطاء للاغتصاب، أما صحته هذا الشعار المزعوم فهي «أرض شعب لشعب الأرض» (أي فلسطين العرب ليهود العالم على الترتيب).

ومنذ اللحظة الأولى ، أصبحت مشكلة إسرائيل الأولى والأخيرة هي مشكلة «الامن» المزعوم، وتحول الامن إلى دعوى عريضة جدا، فأصبح محور كل شىء فى الوجود الإسرائيلى، بل فى كل الدنيا، وأصبح أصغر حدث جار وأبسط حقائق الحياة اليومية فى إسرائيل أو خارجها يترجم إلى صيغة أمن ويقيم باعتبارات الامن ومقاييسه . باختصار ، أصبح أمن إسرائيل هو «بقرتها المقدسة» وهو «عبء الرجل الإسرائيلى»، بل يكادون يقولون عبء العالم أجمع!

غير أن دعوى الامن الإسرائيلى هذه فيها من الادعاء والدعاية بل ومن المغالطة بقدر ما فى الكيان الإسرائيلى نفسه من خطأ أساسى أو خطيئة أصلية . وحقيقة الامر أن الامن قد أصبح تبريرا للقتل، بمثل ما أن الصهيونية نفسها تبرير للسرقة. والامر كله تحول إلى حلقة مفرغة مفرغة، حلقة لولبية صاعدة أبدا، بدايتها الامن ونهايتها الأرض.

كيف ، ولماذا ؟ تفسير ذلك أن إسرائيل ، ككيان عدوانى غاصب وكاستعمار استيطانى احتلالى مطلق فى الأصل والأساس، تجد نفسها جزيرة مقطعة محاصرة ببحر شاسع خضم من العرب أصحاب الأرض الشرعيين، متفوق فى المساحة والعدد والثروة خارج كل مقارنة. وهى من ثم تجد الامن شرط البقاء، والقوة صمام الامن ، والأرض عصب القوة، ومن هنا أصبح الامن مردافا للأرض، أى للتوسع ، أى للغزو والامبراطورية فى نهاية المطاف .

وبعبارة أخرى فان إسرائيل، بصميم كيانها وتكوينها المجلوب، لا يمكن أن تعيش داخل حدود الأرض المفتتحة فى الأراضى المقدسة بغير توسع وإلا اختنقت. وهى بالأحرى لا يمكن أن تكون – بالتعريف الصهيونى – «دولة اليهود» فى العالم «والوطن الطبيعى لليهودية العالمية» إلا إذا كانت دولة توسعية بالضرورة .فالتوسع إذن شرط البقاء كما هو شرط الامن ، ومن ثم فان «إسرائيل الصغرى» ليست سوى النواة «لإسرائيل الكبرى» من النيل إلى الفرات. والمشرق العربى بذلك هو «المجال الحيوى -Lebensraum الحتمى الذى لا سواه لإسرائيل كما كان وسط أوروبا بالنسبة للنازية ، وعليها أن تقيم فيه «نظاما جديدا New Order » تابعا وخاضعا مثلما أقامت النازية فى أوروبا أثناء الحرب الثانية.

الأمّن = التوسّع

ومنذ نشأت الصهيونية ، لم يخف صهيونى واحد ابتداء من هرتزل عبر وايزمان وجابوتنسكى ويوبر إلى بن جوريون واشكول وجولدمان وحتى مايير ودايان وبيجين وسائر المعاصرين ، لم يخف واحد منهم أن التوسع هو لب الصهيونية وأساسها كما هو شرطها ومقياس نجاحها . ومن المستحيل تماما أن نحصر كل تصريحاتهم السافرة فى هذا الصدد ، ولكن لمجرد الذكرى والتاريخ لابد أن ننتخب عينات ممثلة منها . هرتزل ، الذى قال ابتداء لمن سألوه عن جدوى وعد بلفور «بوطن قومى لليهود» لا ينص على «دولة» لليهود أن «كل صهيونى سيفهمه على أنه يقصد دولة» ، قال بعد ذلك وقبله «كلما حصلنا على مزيد من الأرض نكون على استعداد للقيام بتضحيات أكبر» ، كما قال «كلما ازداد عدد المهاجرين زادت حاجتنا إلى الأرض» . «والرجال المستيئون الذين هم أفضل الغزاة» سيكونون عماد الجيش الصهيونى ، بينما سيكون العرب «قطيعا من الوحوش علاجه الوحيد هو الإبادة الجماعية» - هكذا أيضا كتب هرتزل . ولا يكاد يختلف عن هذا ما قاله وايزمان أو زانجويل . وعند مناحم شاينكين كذلك .. أن «المرء لا يشتري أرضا بل يستولى عليها ويأخذها بنفسه ولنفسه» . أما نبى الإرهاب الصهيونى جابوتنسكى فهو القائل «عليكم إن تحتفظوا بالسيف ، لأن القتال بالسيف ليس اختراعا ألمانيا ، بل هو ملك لأجدادنا الأوائل . إن التوراة والسيف أنزلا علينا من السماء» . وبعد هذا قال بوضوح تام «المنطقة المفتوحة للاستعمار اليهودى والمزعم إقامة الوطن القومى اليهودى على أرضها فيما بعد لا تنحصر من حيث المبدأ فى منطقة الانتداب البريطانى» .

أما تلميذ جابوتنسكى وخليفته فى الإرهاب مناحم بيجين فقد أعلن بلا مواربة أنه «لن يكون سلام لشعب إسرائيل ولا لأرض إسرائيل ، حتى ولا للعرب ، مادما لم نحرر وطننا بأكمله ، حتى ولو وقعنا معاهدة صلح» . وأخطر من ذلك قال : «كن أخى أو أقتلك» ، وأشهر منه قال : «أنا أحارب ، إذن أنا موجود» ، ومعناها الحقيقى «أنا أتوسع ، إذن أنا موجود» . كما يمكنك دائما أن تقرأها بالمقلوب : «أنا موجود ، إذن أنا أحارب» ، «أنا موجود ، إذن أنا أتوسع» ، وبالمعكوس أيضا : «أنا لا أحارب ، إذن أنا غير موجود» ، «أنا لا أتوسع ، إذن أنا غير موجود» .. إنها مرة أخرى تلك الحلقة اللولبية الجهنمية .

حتى جولدمان ، السلامى وداعية التعقل كما يوصف (!) ، يقول «لا توجد أى دولة أخرى فى العالم يعيش ٩٠٪ تقريبا من شعبها خارج حدودها» . وقد وضعت النقاط على هذه الحروف الخطة الاستراتيجية للجيش الإسرائيلى المنشورة فى عام العدوان ١٩٥٦ حيث قالت بلا لبس «إن المهمة القومية التى تضطلع بها دولة إسرائيل - وهى جمع شتات الجاليات اليهودية المبعثرة فى العالم وتهجيرها إلى إسرائيل - تستدعى هجرة متصلة تستمر على الأقل لمدة جيل واحد (٢٠ عاما) . وعلى الدولة الإسرائيلىة أن تؤمن الأحوال الطبيعية لحياة هؤلاء السكان .. ولهذا فإن مهمتنا هى احتلال الأراضى العربية وتوطيد سيطرتنا عليها» .

ولقد كان من أجل جلب وحشد هذه «الأغلبية المغتربة» ، وما تحتاجه من أراض جديدة بالتأكيد مضافة بالتوسع والفتح والغزو ، حرص إسرائيل نفسها منذ البداية وعن عمد وتخطيط على أن تكون دولة بلا حدود ، وذلك على عكس كل الدول السوية التى نعرف . وليس محض مصادفة أن بن جوريون الذى وضع هذه السياسة هو نفسه القائل «إن الجيش الإسرائيلى هو خير مفسر للتوراة» ، وهو كذلك الذى شبه الصهيونيين فى فلسطين بالغزاة الفاتحين الأسبان فى العالم الجديد Conquistadores .

الآن ، وعلى هذه الأسس ومن أجل هذه الأهداف بالضبط ، تحددت استراتيجية الأمن الإسرائيلى المقول . فالأمن هو أساسا «سياسة القوة» ، صيغة منتهى القوة ، وخطة «صعق الفئران» كما سموها . أما طريق ذلك فهو تحقيق التفوق العسكرى المطلق والدائم على العرب مجتمعين . وهذا هو المعنى الوحيد المقبول لتوازن القوى مع العرب . فبمثل هذا الميزان المختل المعوج يمكنها دائما أن تطالب «بالحدود الآمنة» ، ثم تمارس «الحرب الوقائية بحرية كاملة وبطريقة خاطفة» ، بحيث تحقق سياسة «الأمر الواقع» فى المنطقة ، وتضمن أن تقع الإرادة العربية أسيرة خطة الترويع والتهديد ثم الردع والتأديب . وبذلك كله تفرض فى النهاية «السلام الإسرائيلى» بعامل القوة وبقوة السلاح .

السلام الإسرائيلى = سياسة القوة

ولكن ، قبل أن نمضى فى مناقشتنا إلى أبعد ، ماهو بالدقة معنى هذا السلام الإسرائيلى المزعوم والمفروض ؟ إنه الاستسلام ولا سواه ، من جانب العرب ولا سواهم . السلام الإسرائيلى هو الاستسلام العربى ، وذلك جوهر المعادلة المطلوبة بلا زيادة

ولا نقصان . «كن أخى أو أقتلك» إنما ترادف «كن عبدى أو أقتلك» . إنه السلام القائم على الظلم والقهر ، سلام القوة والأقوى ، وسلام السادة والأرقاء . من هنا كان صميم نقيض السلام الحقيقى وتورية وقحة عن الحرب . إنه قلب كامل وغطاء مقلوب لسياسة الدم والحديد والتوسع والعدوان .

ولقد أرغمت هزيمة أكتوبر بعض مثقفى الإسرائيليين على الاعتراف بهذه الحقيقة بكل سفور . فمئذ أسابيع كتب أستاذ بالجامعة العبرية ، يقال له لييوفيتش ويقال إن له مكانته فى إسرائيل ، كتب فى ها أرتس يقول : «لقد كان الخط القائد لسياستنا ، ولا يزال ، هو الرأى القائل بأن وضعنا دائما من اللاسلم واللاحرب مع حرب كامنة هو أفضل وضع بالنسبة لنا وينبغى المحافظة عليه بكل وسيلة .. وبذلك وضعت مشكلة الأمن فى مركز كل تفكير وكل نشاط سياسى واقتصادى واجتماعى وثقافى .. لقد سادت هذه السياسة الإجرامية والشريرة طوال ٢٥ سنة .. حتى وصلت بنا إلى الأزمة التى نعيشها الآن .. إننا لم نسع إلى السلام طوال ٢٥ سنة ، وكل التصريحات بهذا الصدد ليست إلا تصريحات متلونة وكذبا عامدا» .

ذلك هو السلام الإسرائيلى وموقعه فى نظرية الأمن . ومن أجل هذه الاستراتيجية العظمى كانت «عسكرة» إسرائيل ، كما تسمى ، تلك السياسة التى حولتها إلى ثكنة وترسانة مسلحة حتى الأسنان وجعلت منها مجتمعا عسكريا أساسا ، صلبه وقلبه هو المؤسسة العسكرية الحاكمة والمهيمنة ، وجسمه هو مجموع سكان البلد من الناحية العملية . ولقد كان فى هذا المعنى بالتحديد ما قيل من أن إسرائيل لم تعد دولة لها جيش وإنما جيش له دولة .. والواقع أن إسرائيل منذ وقت مبكر أصبحت دولة جيشها هو تقريبا شعبها وشعبها هو عمليا جيشها ، بمثل ما أصبح جيشها بدوره هو حدودها وحدودها هى عمليا مدى ما يصل إليه جيشها على الأرض وعلى الطبيعة ، أو كما وضعها دايان بكل سفور وقحة «حدودنا هى ماتصل إليه مدرعاتنا» .

والحقيقة أن أحدا لن يفهم الكيان الإسرائيلى إذا فهم دور الجيش فيه كما يفهم دور الجيش فى كل دول الأرض العادية التى نعرف . وأحد كذلك لن يفهم الجيش الإسرائيلى إذا فهم الكيان الإسرائيلى كما يفهم كيان أى دولة عادية سوية معروفة على وجه الأرض . فالوجود الإسرائيلى ، كاغتصاب قائم على القهر والسلب ، لايجعل من الدولة دولة العنف

والقوة من حيث المبدأ والبداية فقط ، ولكنه يجعل العنف والقوة بحد ذاتها أيديولوجية قومية ضرورية لضمان وتكوين الشخصية القومية والذاتية الوطنية نفسها .

وعلى هذا فإن وظيفة الجيش فى الوجود الإسرائيلى ، كالوجود الإسرائيلى نفسه ، وظيفة غير عادية ، بل ويمكن بلا حرج أن تقول شاذة . إنه سبب ونتيجة فى آن واحد ، مبرر وجود ومقرره معا ، غاية ووسيلة على حد سواء . وإسرائيل دولة عسكرية تماما كما هى دولة دينية ، وكلتا الصفتين مترتبتان على بعضهما البعض مثلما هما مرتبطتان بعضهما البعض ، وإسرائيل لا تتصور بدون أى منهما . إن «جيش الدفاع» هو كالصهيونية نفسها ، بل اليهودية ، عقيدة وديانة ، إلا إنها علمانية ، والحرب هى صناعة الأمة الحقيقية بمثل ما أنها هى من صناعة الحرب.

ليس ذلك لأن الجيش هو الذى خلق الدولة وهو الذى يحافظ على بقائها ويوسعها فقط ، ولكنه أيضا هو وحده الذى يخلق الذاتية اليهودية والشخصية القومية من عدم الشتات وعجز الماضى ، فالجيش بوتقة إسرائيل ، تلك «الأمة» من المهاجرين ، فيه تتصهر أشتات الشتات بكل أخلاطها وتناقراتها ، وبفضله ومن أجله «تؤم» الخلافات والتناقضات والصراعات الاجتماعية والطبقية والطائفية ، ومنه تتخلق فى النهاية الوحدة الوطنية الجديدة المنشودة .

وهكذا فإن وظيفة الجيش فى الكيان الإسرائيلى ودوره مزيج : داخلى وخارجى ، رأسى وأفقى ، أو كما نقول إسرائيلى «وعربى» . الجيش هو عمود إسرائيل الفقرى وذراعها الطويلة كما هو قلبها وكبدتها الحيوى ، هو صلب الجسم السياسى ومعظم الجسم البشرى ، فى الداخل أداة الوحدة الوطنية ، وفى الخارج أداة التوسع .

عن الجانب الأول ، انظر مثلا ما يقوله مناحم بيجين «إن الإرهاب والحرب وحدهما هما اللذان استطاعا أن يحولا هذه الغرائب الشاذة ، التى لم تكن فى ظاهرها تبشر بأى أمل بشعب قادر ، وأن يرفعا عن اليهود انحطاطهم التاريخى الذى وصل بهم إلى قيمة التراب . ذلك أن الكراهية هى الدافع للارتقاء فى تاريخ عالمنا ، وأنتا عندما نحارب فقط فإننا سوف نستشعر للوهلة الأولى وجودنا» .

أما عن الجانب الثانى فيقول آلون «سوف يبقى الجيش الإسرائيلى ونظرية الأمن العنصرين الأساسيين لتحقيق الشخصية الوطنية الجماعية .. إن المحارب الإسرائيلى هو

وحده الذى يقف متحديا للقيـد الديمقراطي على إسرائيل الذى يفرضه تعدادها المحدود ،وهو وحده الذى يقف متحديا مشكلة العمق الجغرافى المحدود لإسرائيل» . (الاقتباسان من مقال للأستاذ مكرم محمد أحمد بجريدة الأهرام) .

والواقع التاريخى والسياسى من جانبه لايدع مجالا لأى شك فى حقيقة هذه الفلسفة العدوانية التوسعية وتلك الاستراتيجية العظمى المخططة والمبيتة . فلقد فرضت إسرائيل على المنطقة أربع حروب فى غضون ربع قرن ، حتى جعلت منها «بؤرة حرب» مزمنة . ومنذ ١٩٤٨ أثبتت التجربة الإسرائيلية الدموية أن «مع الأكل تأتى الشهية» ، ومع الوقت تتحول الشهية إلى شهوة ، ومع الاثتين تتحول الشهوة إلى شره . أو أن شئت فقل أثبتت أن نظرية الأمن هى كمن يشرب ماء البحر ليرتوى ، فلا يزداد إلا ظمأ ، فيشرب أكثر فيظمأ أكثر ، وهكذا إلى حد الانفجار .

وتعبيرا عن فلسفة الردع العسكرية وروح التوسعية الإقليمية هذه ، جنبا إلى جنب مع غرور القوة المتغترسة ، يمكن أن نقتبس هنا بعض تصريحات العدو وتهديداته بعد يونيو ، فى تلك الفترة بالذات تبلورت كل مفاهيم نظرية الأمن الإسرائيلى وبرزت فرضياتها ومعالمها تماما . «إن الأمل الوحيد فى ردع العدو حتى لايفرض حربا على إسرائيل» ، قال آلون ، «يرتبط بقوة جيش الدفاع وبطريقة استخدامها» . أما هذه القوة وهذه الطريقة فقد حددهما بارليف بوضوح فى أن «القوات التى تحتل المراكز الأولى فى سلم الأولويات هى السلاح الجوى ، والقوات المدرعة ، والقوات المحمولة جوا . أما عناصر قواتنا المسلحة الأخرى فهى إلى حد كبير عناصر مساعدة» . وفى مناسبة أخرى عاد آلون يقول «إن هدف هذه القوات الصريح والمعلن هو ردع العدو عن بدء حرب جديدة . فإذا قامت الحرب رغم ذلك ، فإن علينا أن نضمن النصر الإسرائيلى بأكبر قدر من السرعة والكفاءة مع أقل قدر من الخسائر» .

أما المعلق العسكرى زيف شيف فكتب يقول بعد يونيو «لقد تخلصت إسرائيل بفضل الوضع الجغرافى –الاستراتيجى الراهن من مخاوفها القديمة وهى أنها أن لم تكن البائدة إطلاق النار فقد تهزم أو تضطر إلى دفع ثمن فادح من الضحايا» . وفى الخط نفسه أعلن بيان أن «هدف إسرائيل هو تحويل خطوط وقف إطلاق النار إلى سلام دائم مع العالم

العربى . والوصول إلى ذلك علينا حماية حدودنا الجديدة بطريقة تبدد أبنى أمل قد يطوف بأذهان أعدائنا بالقدرة على طردنا بقوة السلاح» .

واستطرادا للمنطق نفسه قالت ماير «إن أعداءنا يحافظون على وقف إطلاق النار لا عن رغبتهم فى السلام وإنما من خوفهم من الدبابات والجنود والطيارين الإسرائيليين» . وردد المعنى نفسه مورديخاى هود قائد الطيران الأسبق حين قال «لقد تمت المحافظة على الهدوء النسبى المستمر منذ سنتين بفضل قوة الردع التى يمتلكها جيش الدفاع . إن قوة الردع التى يمتلكها جيش الدفاع تنبع من لياقة هذا الجيش واستعداده وقوة سلاح الطيران» .

إلى هذا المدى بالفعل وصلت فلسفة «عبادة القوة» عند إسرائيل ، وجها آخر منطقيا وحتميا «لعبادات الذات» - فسياسة القوة إنما هى المكافئ الموضوعى لسياسة العنصرية. وفيما بين الاثنتين ، عبادة القوة وعبادة الذات ، أصبح التوسع «حقا طبيعيا» ، إن لم يكن حقا «الها مقدسا» (!) لإسرائيل ، ورسالة الأجيال المباركة . ولم يكن هذا خافيا على الكثيرين فديجول مثلا واجه الإسرائيليين فى ١٩٦٨ بقوله «يعتقد الإسرائيليون أن كل شئ مباح لهم . أنهم يتوسعون خارج حدودهم سعيا وراء أعداء حقيقيين أو وهميين» . ثم اعتبر فى هذا مثلا قول دايان المشهور بعد يونيو : «الجيل السابق أقام النبوة ، وجيلنا امتد بحدودها إلى خطوط آمنة ، وعلى جيلكم أن يحمل هذه الحدود إلى حيث آمال الأجداد فى أرض إسرائيل الكبرى» ..

وعند هذا الحد أيضا يكتمل لنا بروفيل دقيق للكيان الصهيونى فى إسرائيل . فهو بتركيبه النفسى والعنصرى والعسكرى والجغرافى يكرر ويجمع فى آن واحد وفى جسم واحد ملامح مدينة قمة التل أو «أكروبوليس» العصور القديمة التى تتحكم من عل فى السهل تحت أقدامها ، ووضع قلعة العصور الوسطى المحصنة التى تنقض على الريف المحيط بغاراتها من وقت لآخر ، ثم نور بروسيا - «بروسيا الشرق الأوسط» - بسياسة الدم والحديد والضم ، ثم أخيرا حالة ألمانيا النازية بعنصريتها الاستعمارية وعسكريتها التوسعية ومجالها الحيوى واستراتيجيتها الأثيرة فى الحرب الخاطفة . والحقيقة أن إسرائيل الفاشية المتحجرة بدأت ببربرية العصور القديمة ولانقول الحجرية ، وانتهت تلميذة مخلصه لجلالها النازى فلسفة وجودا ووسائل .

وعدا هذا ، تدل كل وقائع ومؤشرات السنوات الأخيرة على أن غرور القوة وصلف التسلط وصلا بإسرائيل إلى حد يتأخم جنون العظمة السياسى كما رأينا. فهي وقد بدأت بفكرة «الشعب المختار» وعقدة العرق والتفوق العنصرى ، فقد انتهت إلى أن تعتبر نفسها «الجنس السيد» أو السوبرمان (كذا) بالقياس إلى الإنسان العربى . ويدعوى التقدم الحضارى والتفوق التكنولوجى على العرب انتهت إلى الاعتقاد بأنها تمثل «المدينة» والعالم المتقدم فى الشرق الأوسط ، حيث العرب هم «الريف» أو عالمه الثالث على الترتيب . وعلى هذا الأساس وذاك عدت نفسها الدولة السيدة أو السائدة والقائدة فى المنطقة - Su per- Stete ، ومنها قفزت كما رأينا إلى دعوى القوة العظمى فى المنطقة - Super Power أيضا ، وهكذا : ثلاثية مريضة من مركبات الاستعلاء تدور حول محور معنى واحد هو التسيد وتشترك فى مقطع لغوى واحد هو أعلى : سوبرمان، دولة سوبر، سوبر باور!

٦ أكتوبر وأمن إسرائيل

لقد سبق أن تعددت المواجهات العسكرية بين العرب وإسرائيل دون أن تكون أى منها نقطة تحول جذرى أو تحول أكثر من محلى، لأن نتائجها الميدانية كانت من اسف تسير فى اتجاه واحد، رتيب كما هو كئيب، يتفق تماما مع موازين القوى العالمية السائدة ومضارباتها. لكن حرب أكتوبر وحدها تآتى لتقلب التوازنات المحلية ونتائج الصراع الميدانى، ليس فقط لأول مرة فى تاريخ الصراع، ولكن أيضا لأول مرة فى ظل الوفاق الدولى الجديد ومناخه. من هنا جاءت المعركة أول «اختبار قوة» حقيقى للعدو المباشر ومعسكره.

ففى هذه المعركة الفاصلة نالت إسرائيل صدمة كهربائية، ان لم تكن صاعقة مدمرة بصورة مباشرة ، فانها بآثارها غير المباشر والبعيدة المدى قد ألقى ظلالا كثيفة وكئيبة على بنائها التحتى والقومى على السواء وسلطت نيزبات عسيقة ومخلخلة على صميم كيائها وعلى جنور هيكلها المادى والايدىولوجى جميعا. وبصفة محددة فان هذه الاهتزازات استقطبت فى نظرية أمنها المقولة بكل معطياتها وفرضياتها وادعاءاتها المزعومة، وكانت محصلة نتيجتها الصافية هى فشل وافلاس بل وانهايار هذه النظرية ومعها فلسفة الردع.

فلقد اثبتت المعركة أن الأمن ليس بالأرض، وأن الأرض ليست بالقوة، وأن القوة ليست بالسلاح، وأن السلاح لا يفرض السلام، كما أن السلام لا يفرض. ولما كان دور الجيش في الوجود الاسرائيلي هو ما رأينا، وكانت نظرية الأمن عنده تعنى ما تعنى، فيمكننا أن ندرك أى ضربة قاصمة تلقتها اسرائيل في صميم عمودها الفقرى وجهازها العصبى المركزى بل وجسمها وكيانها كله.

ولدينا فى هذا مجموعة شهادات واعترافات قاطعة من العدو نفسه. يقول يوثيل ماركوس: «لقد أصيبت ثقة الجمهور بضربة قوية، حين بدأ يتضح لنا أن نظرية سياسية كاملة متعلقة بالأمن قد انهارت». ويقول بنيامين كادر، أستاذ بالجامعة العبرية، فى رسالة إلى ماير «.. كانت أياما صعبة لأن نظريات أساسية قد انهارت خلالها، ولأن بديهيات قد تحطمت عشيتها، ولأن اساطير كثيرة قد انتهت بعدها». ويقول «شبتاي تيفت»: «كانت قوة الردع هى القيمة العليا فى مفهوم أمن اسرائيل وكانت جوهره . ولكن ثبت أنه كلما قويت ضربات جيشنا، كلما قوى فى قلوب العرب الاصرار على تنمية قوتهم ومجابهتنا من جديد». هذا بينما حذر أمنون روبنشتاين قائلا «لقد أثبتت حرب أكتوبر أن علينا أن نفهم أن لقوتنا حدودا، وأن نحسب قوة الآخرين ومشاعرهم. ومن يقترح علينا غير ذلك فهو يقترح على اسرائيل مصيرا أسود». وأخيرا يأتى اعتراف وزير العدل الاسرائيلي السابق، الذى استقال احتجاجا على بقاء دايان بطل النكسة فى الحكم، ليلخص الموقف كله: «إن الحرب ليست الوسيلة التى يمكن بها فرض اسرائيل على العرب». والمعنى نفسه أكدته الجارديان حين قالت «أن اعتماد اسرائيل فى علاقاتها مع العرب على قوتها العسكرية كان باهظ الثمن فى الماضى، وقد يؤدى إلى الكارثة فى المستقبل».

انهارت، اذن، نظرية الأمن الاسرائيلي، ولا سبيل إلى الشك فى هذا ذلك مجمل الحقيقة. أو كما وضعها جيمس شلزينجر وزير الدفاع الأمريكى نفسه «لقد فشلت نظرية الأمن الاسرائيلي.. والاسرائيليون يدركون الآن أن أمنهم لا يمكن أن يتحقق بمجرد الاحتفاظ بالتفوق العسكرى، ولقد أصبحت الآن هالة الدولة التى لا تقهر موضع تساؤل». أو كذلك بعبارة ناداف سافران فى مجلة فورين أفيرز، فإن الحرب لقنت اسرائيل درسا جديدا فى الأمن، وربما تعلم الاسرائيليون شيئا جديدا عن أساس أمنهم تلك هى خلاصة الخلاصة. أما تفصيلا فنحن نستطيع أن نرصد ونسجل لأكتوبر المؤشرات الثلاثة الآتية: خطر القوة غير الذاتية ، وقصور الأمن الجغرافى، وهم التفوق التكنولوجى.

خطر القوة غير الذاتية

أثبتت المعركة خواء وعجز منطق القوة كمحور لنظرية الأمن الاسرائيلي. فأسطورة الجيش الذي لا يقهر، والقلعة التي لا تقتحم، وسلاح الطيران سيد سماء الشرق الأوسط، وآلة وألهة الحرب الاسرائيلية، ونوعية المقاتل الاسرائيلي والسلاح الاسرائيلي، إلى آخر كل هذه المقولات الدعائية كلها قد ضربت في الصميم مرة واحدة وإلى الأبد على يد القوة العربية المضادة - ويمكن أن نضيف بالاستدلال: والمتفوقة أيضا.

والسؤال الذي يقفز على الفور هو: لماذا، وما الذي حدث هنا والآن بالدقة خلافا لما أوحى به تجربة الماضي فيما قبل أكتوبر؟ والرد الوحيد هو أن التحدى العربى الجاد كشف لأول مرة عن حقيقة فائقة الأهمية والمغزى وان لم تكن جديدة فى حد ذاتها.

هذه الحقيقة هي أن القوى الاسرائيلية هي أساسا قوة مستعارة منحولة وليست أصيلة، قوة غير نابعة من الذات ولا من عند نفسها، وإنما مستوردة من خزان القوة الأمريكية وبحرها المحيط. فحين جوبهت القوة المستعارة بقوة مكافئة لها وأصيلة على الجانب المضاد كان أمرا مقضيا أن تتصدع الأولى وأن تنهار.

إن اسرائيل ككيان جيوبوليتيكي وجيوستراتيجى هي بوضوح كيان «محكوم عليه» بالجغرافيا والتاريخ، بكثافة السكان، بكثافة الانتاج، بالكثافة الحضارية.. الخ. ولم يكن وجه الغرابة أن تنكشف وتتعرى خرافة القوة الاسرائيلية التي بنتها وضخمته إلى حد التورم والانتفاخ آلة الدعاية الصهيونية. الغرابة الحقيقية انها لم تنكشف من قبل، وأن القوة العربية الحقيقية لم تكشف جوهرها الكامن منذ البداية. ان الهزيمة الاسرائيلية فى ٦ أكتوبر ليست استثناء لقاعدة، ولكنها عودة إلى القاعدة الأصولية والطبيعية، عودة إلى الطبيعة، إلى الجغرافيا، «قدر الدول السياسى» كما وضعها ديجول ذات مرة..

قصور الأمن الجغرافى

وعلى ذكر الجغرافيا، فلعل وأبلغ ما اثبتته حرب أكتوبر أن فكرة الأمن ليست، ولا يمكن أن تكون، فكرة جغرافية محضة فى عصر العلم والتكنولوجيا. الأمن ليس جغرافيا صرفا، أو هو لم يعد بالجغرافيا وحدها.

فحين اجتاحت القوة المصرية الطافرة والظافرة عائق القناة واقتحمت من بعده خط بارليف القوى الذى أسرف العدو فى تحصينه وأسرف على نفسه فى الدعاية له، وحين

اعتلت القوات السورية العارمة والمقدمة مرتفعات الجولان الوعرة واقتحمت معاقل خط ألون ودشمه ومخابئه وأوكاره ودكت خطوط دفاعه فيها، فانها فى تلك اللحظة نفسها فجرت ونسفت إلى الأبد دعوى «الحدود الآمنة» (اقرأ: الحدود الآتمة!) التى ملأ العدو بها الدنيا ضجيجا وتضليلا. ولعل مما له مغزاه العميق هذا التساؤل الذى شاع أخيرا فى اسرائيل: أليس من المفارقات الغريبة أن تنتصر اسرائيل فى ١٩٦٧ من «حدود غير آمنة»، بينما تنكسر فى ١٩٧٣ من «حدود آمنة»؟

خذ مثلا، كمجرد نموذج، تعريف ايجال ألون فى كتابه «الأمن الاسرائيلى»، ١٩٥٨، للحدود الآمنة. «إن الحدود الآمنة - يقول بالنص - هى تلك الحدود السياسية الدفاعية التى تركز إلى عمق اقليمى وإلى موانع طبيعية تحول دون تقدم جيوش برية مسلحة بالمدركات وتوفر وسائل الانذار الفعالة ضد اقتراب الطائرات المعادية. ومن ناحية أخرى فإنها الحدود التى يمكن أن تستخدم كقواعد للهجوم المضاد». والتفسير الحقيقى الوحيد لهذا التعريف هو أن الحدود الآمنة هى تلك التى يمكن منها القيام بهجوم جديد: ان الحدود الآمنة عند اسرائيل هى «الحدود الهجومية».

لعل من الواضح الآن جيدا أن دعوى الحدود الآمنة هذه هى دعوى ملفقة ونظرية حتمية بالية بعثها العدو من جبانة الفكر العسكرى المنقرض لتكون مبررا للاغتصاب وابتلاع الأرض المحتلة ووضع اليد عليها نهائيا. فالحقيقة أن ادعاءات العدو الاقليمية ومطالبته بحدود آمنة يمكن الدفاع عنها إن هى إلا فكرة عتيقة تمت إلى تاريخ العسكرية الغابر وإلى عصر ما قبل المدفعية على الأقل وهذا بالضبط ما أثبتته حرب أكتوبر، وما فرض نفسه على بعض الكتّاب الاسرائيليين.

مثلا كتبت صحيفة هاموديع تحت عنوان «الأمان المفقود» «لقد خلق العمق الاستراتيجى الذى حصلت عليه اسرائيل منذ حرب الأيام الستة فاصلا طبيعيا بين الجبهة والمؤخرة. وحتى فى ذلك الوقت كانت البلاد كلها جبهة، وليست القدس وحدها التى تقع على خط الحدود وكانت تتعرض لعمليات القصف التى وجهت ضد السكان المدنيين، بل وحتى مدن السهل الساحلى المنخفض كانت قريبة من الجبهة. وهكذا لم يكن هناك فصل بين المؤخرة. غير أن هذا الفاصل لم يكن الا للرؤية فقط. وحقيقة أنه لم تسمع فى مدن اسرائيل ومستعمراتها أصوات المدافع، ولكن ذلك لم يقلل من احساس الشعب بأنه فى حصار».

حتى نظرية مستعمرات الحدود ومستوطناتها في الجولان كدرع دفاعية واقية لإسرائيل، وكذلك نظرية الفراغ العمراني والبشرى في سيناء كعامل مساعد على صد الهجوم المصري، ككلاهما قد سقطتا كما قال ديفيد شليف في دافار. فعن الأولى، إذا كان ديفيد اليعازر قد قال إن هناك أهمية قصوى من ناحية الأمن لسلسلة المستعمرات المقامة في الجولان تكاد تقارب أهمية الجيش الإسرائيلي نفسه، فقد اتضح في الجبهة السورية - يقول شليف معارضا - أن مستوطنات مدنية قليلة السكان، كما في هضبة الجولان، ليست بقادرة على صد وإيقاف هجوم واسع النطاق للمدركات السورية تشترك فيه مئات الدبابات ويشارك فيه القصف المدفعي والصاروخي البعيد المدى.

أما عن النظرية الثانية فقد أثبتت المعركة أن الفراغ العمراني لم يجد إسرائيل شيئا، حيث أن غياب السكان المدنيين في سيناء وقطاع القناة لم يمنع الغزو المصري وعبور القناة. «لقد تبذرت في حرب يوم الغفران كما يبدو، هاتان النظريتان».

وعند العالم الخارجي أيضا أن نظرية الحدود الآمنة بالمفهوم الإسرائيلي قد ماتت وشبعت موتا. «إن الأحداث الخطيرة التي تجرى الآن في الشرق الأوسط - كتبت الإيمانيتيه في نورة المعركة - توجه ضربة قاتلة إلى نظرية الحدود الآمنة كما يفهمها حكام تل أبيب». وبالمثل وفي نفس الوقت كتبت الديلى تلجراف أن «أسطورة الأمن الإسرائيلي قد تحطمت تماما. وعلى إسرائيل منذ الآن أن تتخلى عن فكرة أن أمنها يمكن أن يتحقق بمجرد احتلال قطعة من الأرض دون أى برنامج سياسى». أما السناتور الأمريكى المعتدل فولبرايت فلم يكن يقل وضوحا ولكنه كان أكثر عمقا، إذ قال «من المحتم على إسرائيل أن تتخلى عن خرافة الأمن العسكرى المطلق عن طريق احتلال الأرض، مع الاعتراف بأن الأمن العسكرى المطلق لدولة ما يعنى عدم الأمن المطلق للدولة المجاورة لها». وفي مقال له في الموند يصل موريس ديفيرجيه إلى القمة في كشف وتفنييد مفهوم الحدود الآمنة الإسرائيلي. «ولكن ما هى الحدود الآمنة؟.. إن مفهوم الحدود الآمنة عند هؤلاء الاسرائيليين يرتبط بمفهوم «المجال الحيوى»، ومعناه المجال اللازم لإسرائيل لكي تتمكن من تعبئة جنودها المستوطنين لمواجهة هجوم ما.. وبهذا المعنى فإن الحدود الآمنة لن تكون آمنة إلا لفترة وجيزة محدودة بتقديم الوسائل الحربية التي يتبناها الخصم».

وأى طالب للجغرافيا العسكرية، فضلا عن الجغرافى الأكاديمى، يدرك تماما أن كل العوامل الجغرافية والحواجز الطبيعية والعوائق التضاريسية هى سلاح ذو حدين، وأنه ليس ثمة شئ «كحدود طبيعية» و «كحدود أمنة» فى عصر الطيران والذرة والمدفعية عابرة الدول والصواريخ عابرة القارات. أو كما قالت التايمز «إذا أريد لإسرائيل أن تتخلى عن الأسطورة القائلة بأنها لا تقهر، فإن عليها أن تصل إلى القناعة بأنه لا توجد حدود عسكرية أمنة». إن الأمن فى عصر التكنولوجيا الحديثة- لتعلم إسرائيل الآن ان لم تكن تعلم - ليس بالطبوغرافيا، ولا المنعة والحماية هى الجغرافيا كذلك، بل ليست حتى بالتكنولوجيا ذاتها بعد ذلك جمعيا.

وهم التفوق التكنولوجى

نعم، ليس الأمن بالتكنولوجيا هى الأخرى، وهذا ما ينقلنا إلى الضلع الثالث والساقط من مثلث نظرية الأمن الاسرائيلى. لقد روجت إسرائيل وحمايتها طويلا لفكرة تفوقها التكنولوجى «الخرافى» بالقياس إلى تخلف العرب «المخيف». بل لقد وصل الأمر بإسرائيل إلى حد أن قدرت أن العرب لن يعبروا تلك الهوة التكنولوجية ويلحقوا بها قبل منتصف القرن الحادى والعشرين على الأقل! وكان التفوق الجوى بالذات هو نقطة ارتكاز هذه الفكرة الغشوم. لماذا، وعلى أى أساس؟- لأن العرب - هكذا نظر العدو - عقلية يدوية غير آليّة، ويدوية لأنها يدوية، ويدوية لأنها بدائية وصدق الكثيرون هذه السذاجات أو السماجات، بحيث وقع حتى وقر فى روع البعض، حتى منا، أنه لا ندية ولا تكافؤ وأن الهوة سحيقة والصراع عقيم.

وكان هذا بالضبط هو هدف العدو من تلك النظرية التى لم تكن قطعة من العلم الموضوعى بقدر ما كانت قطعة من الاعلام الدعائى والحرب النفسية.

فبعيدا عن التهوين أو الاستخفاف، فلقد كان فى تلك الدعاية، كما فى كل دعايات العدو الجهول، من الخديعة أضعاف مما بها من الحقيقة. وكان ذلك جزءا لا يتجزأ من طبيعة الحرب النفسية كما هو كامن فى سياستها. ومهما يكن، فلقد جاءت المعركة لتحيل تلك النظرة أو النظرية ركاما وأطلالا مع حطام الطائرات الفانتوم والميراج المتساقطة بالمتات، فضلا عن قلاع الدبابات المحطمة بالآلاف، والتى استحالت بها صحراء سيناء ومرتفعات الجولان جبانة كبرى «للحديد الخردة، و«أرد أمريكا» كما سخر البعض، أو رمزا

حيا (أو ميتا!) للمقولة الشهيرة «مصر مقبرة الغزاة» كما قد نضيف نحن. أو كما قالت النيوزريك «لقد سقطت ثقة اسرائيل فى تفوقها التكنولوجى على العرب، تماما مثلما تهاوت طائراتها بفعل شبكة الصواريخ المصرية العملاقة».

وتفسير ذلك ببساطة أن الحرب أثبتت، أولا، أن الانسان لا السلاح هو الأساس والفيصل، فالسلاح بالرجل وليس الرجل بالسلاح، وثانيا، أننا أيضا نملك السيطرة على التكنولوجيا وعلى حضارة العصر وروحه، وأن التفوق التكنولوجى ليس حكرا على العدو أكثر مما يعد التخلف فرضا أبديا على العرب. وحين تحقق هذا، أصبح فى حكم المحتوم أن يتحول التفوق العربى العددي الهائل إلى تفوق كفى أيضا أشد هولا وخطرا. وهذا بالفعل ما حدث فى أكتوبر، وبأكثر منه سيحدث فى المستقبل.

وعلى هامش القضية، بل فى صميمها اذا كنا نعى حقيقة أن الصراع معركة حضارية إلى جانب كونه معركة عسكرية وسياسية، ولابد أن نلفت النظر إلى مغالطة مزبوجة، ساذجة بقدر ما هى جذرية، فى منطق العدو ودعايته. فحتى تفوقه التكنولوجى المزعوم، والذي إن صح لم يكن الا منحولا منقولا من الغرب عامة وأمريكا خاصة، لم يكن ليحتم انتصاره فى الصدام بالضرورة. فما أكثر فى التاريخ قصص الغارات المتبربرة المنتصرة على مراكز الحضارة العريقة الكثيفة. بل لقد كان موت معظم الحضارات التاريخية الكبرى على يد أمثال تلك الجماعات المتخلفة البربرية التى لا تملك سوى القوة الحربية الصرف. فالتفوق التكنولوجى الحربى لا يرادف بالضبط أو بالضرورة التفوق الحضارى.

وأغلب الظن أن العدو كان يدرك هذه الحقائق فى قرارة نفسه، بل انه ليدرك يقينا أنه هو نفسه بقدر ما يبدو متفوقا تكنولوجيا وماديا يعد متخلفا حضاريا وثقافيا وانسانيا وايدولوجيا. غير انه كان يخدع نفسه كما يخدعنا كجزء من حربه النفسية ضدنا. وعلى أية حال فقد اضطر العدو إلى أن يعترف فى النهاية. ففى كتابه «المواجهة» يقول لأكبر عن العلاقة بين الجيش والمجتمع أو بين التفوق التكنولوجى والتقدم الحضارى «كان ثمة تحليل لحرب الأيام الستة يقول ان مرجع النصر فيها هو التفوق التكنولوجى والنظام لطرف حارب ضد أناس متخلفين تعليميا واجتماعيا. وقد اثبتت هذه الحرب (أكتوبر) أنه يمكن

بناء جيش متقدم جدا عن القاعدة الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والتكنولوجية التي ينتمى اليها. وربما كان ذلك هو أخطر دروس الحرب على الاطلاق!.

مهما يكن، وعلى أية حال، فلقد كان من المغالطة السافرة الحديث عن التفوق الاسرائيلي الحضارى على العرب بصفة مطلقة وبون عنصر النسبية والنسب الصحيحة. فعلى الأقل، فان الدول العربية مجتمعة تملك بحكم الحجم المطلق عددا حقيقيا من العناصر والأفراد العلميين والفنيين والتكنولوجيين أضعاف ما تملك اسرائيل بلا شك ، بل ربما أضعاف مجموع سكانها بلا تحديد. بل لعل مصر وحدها، بحسبانها كبرى الدول العربية، تملك من هذه العناصر عددا يعادل ان لم يفق ما تملك اسرائيل. إن التفوق الكيفى، حتى إن صح، عارض مرحلى جدير بأن ينوب فى بحر التفوق الكمى بحكم العصر وقوانين الاحتكاك الحضارى والتنوير.

الفصل التاسع

العالم والمعركة

أن يقول أحد إن معركة أكتوبر هي نقطة التحول الحاسم في تاريخ العرب الحديث، أو أنها خط التقسيم التاريخي الفاصل في الصراع العربي - الاسرائيلي، فتلك على الأقل فرضية معقولة تتناسب مع أبعاد المنطقة المحلية والاقليمية، إن لم تكن حقيقة واقعة تثبتتها عشرات الأحداث والشواهد والمؤشرات اليومية الجارية. أما أن نقول أيضا إنها أخطر نقطة تحول في تاريخ العالم المعاصر والسياسة العالمية في عصر الوفاق أو منذ الحرب الباردة، فمعقولة قد تبدو للبعض فضفاضة أو ادعاء عريضا.

الحقيقة، مع ذلك، هي هذا بالضبط. إنها نهاية عصر وبداية عصر، على المستوى العالمي كما هي على المستوى الاقليمي والمحلي. وبالتحديد نهاية عصر ما بعد الحرب الثانية أو الحرب الباردة وبداية عصر ما بعد الوفاق. فآثار ٦ أكتوبر ونتائجه السياسية تتجاوز تماما النطاق الاقليمي لتتأثر اشعاعاتها وانعكاساتها على النطاق العالمي بأسره تقريبا بحيث تلقى بظلالها وأصدائها على الأفق الكوكبي بغير مبالغة. سوف يثبت المستقبل - نحن نرجح، ولا نقول نقطع - أن حرب أكتوبر هي أخطر حدث كوكبي في توازنات القوى الجديدة في العالم منذ أزمة كوبا، وربما منذ حرب فيتنام، وربما كذلك منذ الحرب الكورية، وقد نضيف الحرب العالمية الثانية نفسها. يكفي أنها أكثر من أي عامل آخر قد عمقت من اتجاه العالم إلى تعدد المراكز وظهور مراكز قوة عالمية بازغة أو نامية على حساب الولايات المتحدة بصفة خاصة.

فاذا بدا في هذا قليل أو كثير من التجاوز أو الترخص والتضخيم أو التفتخيم بالقياس إلى حجم المعركة ومقياسها المباشر، فالرد هو أن العبرة إنما هي باللحظة التاريخية للحدث وكثافة الملامح والعلاقات المتشابكة فيه ومغزى الضوابط والضوابط المتفاعلة معه ثم أخيرا بمدى الاستقطاب والاختزال الذي يفرضه هو على كل هذه المعطيات والمتغيرات.

ومن هذه الزاوية يمكن أن نقرر بلا مخاطرة أن حرب أكتوبر قد أثبتت نفسها أكبر محول ومفاعل، أكبر مكثف ومختزل، سياسى فى الاستراتيجية العالمية. فما نعرف تقريبا حربا محلية محدودة منذ الحرب العالمية الثانية ثرية فى آثارها وثرية بنتائجها الدولية كإكتوبر. إنها على أقل تقدير أكبر المتغيرات العالمية منذ وبعد الوفاق، وهى بدورها قد فرضت متغيرات عديدة على كل المستويات العالمية والاقليمية والمحلية. إنها - هذه الحرب العجيبة سياسيا كما هى عسكريا - نقطة الاختزال وبؤرة التكاثر لتطورات وتغيرات عصر بأكمله وعالم بأسره. وعلى هذا الأساس وحده - نحن نجادل - ينبغى أن تفهم وأن تحلل.

وليس أقطع ولا أوضح فى هذا التقدير العالمى من شهادات القيادة العربية العليا المسئولة التى يتوافر لدينا نخبة جامعة منها. فلنستمع أولا إلى تقييم الرئيس السادات. «إنها ببساطة - قال سيادته مخاطبا الصحافة العالمية فى مؤتمر لاهور - معركة ٣٠٠٠ دبابة خلال ١٧ يوما فقط من القتال...»

معركة يعترف العالم كله اليوم بأنها نقطة تحول فى تاريخ العالم. ولن يعود العالم إلى ما قبل العاشر من رمضان، ولا عسكريا ولا اقتصاديا. كل شئ لابد أن يتغير. وقد بدأ فعلا هذا التغير فى موازين القوى».

وبالمثل يقول الرئيس الأسد «حرب أكتوبر سطرت صفحة مشرقة فى التاريخ العربى.. حرب أكتوبر خلقت أوضاعا جديدة، ليس فى اقتصاد الوطن العربى فقط، بل وفى الاقتصاد العالمى أيضا». كذلك صرح وزير الخارجية المصرى للصحافة العالمية قائلا «لا أبالغ فى القول إن هذا التاريخ يعتبر نقطة تحول جديد، لا فى تاريخ المنطقة العربية فحسب، وإنما فى أوضاع وموازين القوى المعاصرة».

ويبقى فقط أن نجيب أولا على السؤال المنطقى والحتمى: كيف، ولماذا لننظر اذن إلى خريطة السياسة العالمية من منظور الصراع العربى - الاسرائيلى قبل المعركة، نحدد معالمها وتضاريسها ومؤشراتهما، ثم نرصد ما طرأ عليها من تغيرات وانقلابات بعدها. ومن حجم الفارق بين الخريطتين يتحدد لنا الحجم الحقيقى لدور المعركة.

خريطة الاسلام واللاحرب

إن للقضية أبعادا بولية تتعدى حدود المنطقة وأطراف الصراع المباشر، فذلك أمر طبيعى فى عالمنا المعاصر الذى أصبحت فيه كل المشكلات المحلية بحكم طبيعة العصر

نفسه مشكلات دولية بدرجة أو بأخرى. وليست قضيتنا باستثناء ولا هي بشنود. الفارق فقط هو في الدرجة لا النوع. فهنا يجتمع البعدان المحلى والدولى ويتشابكان في تداخل مربك ومعقد كما لم يحدث في أى مشكلة محلية أخرى. وهذا التداخل العميق هو أعقد ما في القضية، بل هو عقدتها الصماء وهو يعنى أن القضية ليست ثنائية مطلقة، بل هناك رباعية تتألف من القطبين المحليين العرب واسرائيل، والقطبين الأعظم الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة، فضلا عن إطار كامل من الأطراف والمؤثرات الثانوية والجانبية.

ولئن كان هذا يرجع في جزء منه إلى الطبيعة والأصول العالمية للعدو الصهيونى ثم سياسته المخططة في مرحلة ما في تدويل الصراع، فان جزءا آخر يرجع إلى، كما يدل على، عجز أى من الطرفين المحليين حتى الآن عن حسم الصراع لصالحه مرة واحدة وإلى الأبد. ويتضح هذا الوضع الأخير في «متناقضة» حرب يونيو، حيث حقق العدو نصرا عسكريا حاسما وفشل في انتزاع النصر السياسى، في حين انهزمنا نحن عسكريا ثم صمدنا سياسيا.

والشئ المهم هنا، كائن القانون، هو أن الجانبين الدولى والمحلى في القضية يتناسبان تناسباً عكسياً. فكلما ضعفنا، ضعف الجانب المحلى وزاد عنصر الدولية في القضية، وكلما زاد هذا الأخير فقدنا حرية الحركة وخرج زمام الأمر والمصير من أيدينا حتى ليمكن في حده الأقصى أن يفرض علينا الحل من الخارج. وعلى هذا فان مستقبل الصراع كله يتوقف في النهاية على تغليب هذا الجانب أو ذاك على الآخر.

وبالتالى فان كل شئ يتوقف في نهاية النهاية على مدى قوتنا أو ضعفنا، فهذا هو العامل المحدد. فالملحظ مثلا أننا في مراحل قوتنا نسبيا نريد القضية محلية ولا نريد تدخل العالم، بينما في مراحل ضعفنا، كما كان الحال بعد هزيمة يونيو، نريدها قضية دولية حماية لنا من مخططات العدو الاسرائيلى الذى يحاول تثبيتا لأمره الواقع واستغلالا لنصره أن ينفرد بنا وبمصير الصراع وأن يقنع العالم أن القضية مجرد صراع محلى وليست قضية دولية تهدد السلام والأمن العالمى وأنه قد فرض الحل المحلى بنجاح ولا مبرر لحل أو تدخل دولى .

والعدو الاسرائيلى، وهو عدو حياة وجد فرصة عمر في غفلة من زمن كانت أطماعه بعد يونيو قد اتخذت خطا تصاعديا بانتظام لاشك فيه. لقد ظفر بنصر، أيا كانت اسبابه أو

ملابساته، يتعدى أعرص أحلامه هو نفسه وأكثرها وحشية، حتى لقد كان على استعداد فيما يبدو بعد زهول المعركة مباشرة لأن يقبل الحد الأدنى أو الأوسط من المكاسب، كالأمن مثلا مقابل الأرض، أى الاعتراف مقابل الانسحاب.

ولكن مع ترسخ الاحتلال، تورمت نفسيته ومعها أطماعه وغروره وأصبح يطلب الأمن والأرض معا، كل شئ - يعنى - مقابل لاشئ وبتعبير مباشر: أصبح يطلب الاستسلام الكامل علنا، وبغير قيد أو شرط تقريبا - «المفاوضات المباشرة» التى كان يطالب بها لم تكن الا غطاء مقنعا أو مقنعا لتوقيع صك الاستسلام. ولن نقتبس هنا أيا من تصريحات زعماء العدو، اذ لا حصر لها كما لا حاجة لنا بها. المهم أنه بدأ يضع موضع التنفيذ كل مشاريعه وخطته الاستيطانية لتحويل الأمر الواقع الجديد إلى حقيقة جغرافية وسياسية أبدية.

وفى الاتجاه التصاعدى (أم هو التنازلى؟) نفسه، جاء الخط البيانى لتحرك الولايات المتحدة السياسى. فبعد أن «مرت» قرار الأمم المتحدة بشأن التسوية السلمية لأزمة الشرق الأوسط، ركزت استراتيجيتها الدولية على تمزيقه وتعويقه حتى أصبحت فى النهاية تتجاهله تماما وتحاول ارغام العرب على التنازل الواقعى عنه والبدء من لا شئ، أى من حقيقة الأمر الواقع وثقل الهزيمة فقط. وبالمثل فعلت بمهمة يارنج حتى أصيبت بالشلل الزاحف فالنصفى فالكلى. وبالمثل أيضا جرت المناقصة السياسية على مبادرة روجرز: من «صفقة» حل شامل package deal، إلى حلول منفصلة منفردة، إلى حل جزئى، إلى حل ميكروسكوبى تقلص بل تقزم إلى عملية فتح القناة وبقاء كل شئ كما هو تقريبا!

من هنا تعثر الحل السلمى، الحل السياسى كما يوصف، بالسكتة القلبية مات، والأصح أن تقول ولد ميتا ولم يكن اعلاننا فى مرحلة ما أن «القتال هو قرارنا» الا تصريحاً بالدفن. أما لقاء القمة فى موسكو بين نيكسون والزعماء السوفيت فلم يزد بالنسبة لأزمة الشرق الأوسط عن «جلاسبره روسيه»، اتفق فيها الطرفان على انهما اختلفا أو على ألا يختلفا. وكل قيمته الحقيقية أنه قطع على أعلى مستوى كل شك باليقين فى صحة تصريح الدفن. والشئ نفسه يقال عن لقاء القمة الثانى فى واشنطن.

وعند هذا الحد، وبعد أن طاردت الولايات المتحدة نور الأمم المتحدة فى حل الأزمة حتى طردته، ثم نور الأربعة الكبار من بعده، ثم لم تنجح مع ذلك كله فى «أمركة» القضية

نهائيا، فان الخطر الذى بات يتهدها كان هو الوقوع فى مأزق الاستقطاب الثنائى لتصبح جزءا صغيرا وجزءا لا يتجزأ من لعبة الصراع الثنائى stalemat الذى اتجه عالميا إلى التعايش السلمى والتعاون السلمى على أساس من «الحالة الراهنة» والحلول السلمية والوسطى، التى قد لا تعنى فى حالة الشرق الأوسط إلا «الأمر الواقع».

وإذا كان خطر أمركة القضية هو ضياعها فى النهاية، فقد كان الخطر فى حالة الاستقطاب الثنائى هو تجميدها، وضعها فى «التجميد أو التبريد العميق»، «على الرف» أو «تحت البساط» كما تعددت الأوصاف والتوصيفات وقتئذ. ولعل هذا هو بالتقريب ما كانت تمثله مرحلة الاحرب والاسلم التى سادت إلى ما قبل أكتوبر. وكما أن احدا فى العالم باستثناء العرب أنفسهم لا يريد ذهاب اسرائيل كدولة، فلم يكن فى العالم قبل أكتوبر باستثنائهم أيضا من يريد أو يجد مصلحة فى وضع نهاية لذلك الوضع المريع والملائم للجميع..

وإذا كان لنا أن نلخص الموقف كله فى تلك المرحلة، فيمكن أن نضعه كالاتى. قضية الصراع العربى - الاسرائيلى، أو أزمة الشرق الأوسط كما تسمى تجاوزا أو تبسيطا، متعددة الأطراف والمستويات والأبعاد بطبيعتها، لكن يتجاوزها أساسا فى علاقة عكسية، رهيبة ولكنها رهيبة، محوران أو قطبان متنافران: الطرف المحلى والطرف الدولى. وبين قوتى الشد والجذب هاتين، فانها ظلت أزمة عالقة ومشكلة معلقة، وتتذبذب متأرجحة بين حالة من التميع وأخرى من الرهو الممض، لم تكن تمثلها كما مثلتها مرحلة الاحرب والاسلم. وتلك المرحلة بدورها لم تكن تعنى مثلما كانت تعنى تحويلها من قضية حية ملتهبة ومتفجرة فى قلب حلبة الصراع العالمى وفى عين أعصار السياسة الدولية، إلى مجرد مشكلة هامشية روتينية، راكدة راقدة، موضوعة «فى النفطالين» ومودعة فى أرشيف الدبلوماسية الدولية الرتيب.

ولأسباب معقدة جدا، أكبر بكثير وأقوى بكثير جدا من أبعاد القضية المحلية لأنها تتعلق بهيكل النظام العالمى برمته، الفوقى والتحتى، فقد كاد الحل الدولى يكون إما فاقداً وإما مفقوداً، إما لا حساب له وأما على حسابنا . وفى النتيجة، وفى الظروف، فلم يكن ليفض ذلك الوضع المعلق إلا الحل المحلى. من هنا فقط، من أرض المعركة، من المعركة المحلية، كان يمكن للامل أن ينبثق. لقد كان مصيرنا «معلقا»، ولكنه - للغرابة والدهشة! - كان «معلقا» بارادتنا..

العرب ، اسرائيل ، والوفاق

اسرائيل هي آخر دولة خلقها الاستعمار القديم، وبعده عاشت في حماية الاستعمار الجديد، لكنها أيضا أول دولة خلقت في العصر النووي. هي اذن بنت ونبت الحرب الباردة منذ نهاية الحرب الثانية، بل لقد ولدت في أوج القوة الأمريكية وذروتها حين كانت هذه تنفرد بالقنبلة النووية ومن ثم بالسيطرة العالمية شبه المطلقة. ومنذ ولدت اسرائيل على يد الاستعمار القديم إلى أن انتقلت مسئولية بقائها إلى الاستعمار الجديد وهي تعيش تحت ظل الحماية والرعاية الأمريكية، ولكنها في الوقت نفسه كانت تفره وتضمن على التناقضات والصراع بين المعسكرين وبين العملاقين. فقد أفادت اسرائيل افادة كبرى من مناخ الحرب الباردة وفي ظل الاستقطاب الثنائي وبفضل الشلل النووي، وذلك في ضمان أمنها وفي تأمين بل وتعاضم قوتها. وتلك بالدقة كانت المشكلة الأساسية والأساسية أمام العرب.

ولقد كان أمل اسرائيل أن تكسب أيضا، بل أن تكسب أكثر، في ظل الوفاق الأخير بين الدولتين الأعظم. ولاشك أن الوفاق هو أهم وأخطر المتغيرات الدولية التي شهدتها العالم منذ الحرب الثانية، وضع نهاية للحرب الباردة، وبدأ حالة من الاسترخاء العسكري والسلام السياسى بين الكتل، فغير المناخ السياسى الدولى، وفوق ذلك أحدث سلسلة كاملة من المتغيرات المترتبة تمثلت في مجموعة من الوفاقات والتقاربات الأصغر بين أجزاء كثيرة من العالم.

ولقد تعرض الوفاق لكثير من التشكيك والحملات، سواء عن حق أو غير ذلك، وتساعل البعض، سواء عن حسن نية أو عن نية مغرضة، عما اذا لم يكن يتعارض مع أهداف ومصالح حركة التحرير الوطنية في صراعها مع الامبريالية والاستعمار في العالم عامة والعالم الثالث خاصة والعالم العربى بالأخص. ويعيدا تماما عن الاتهام غير الصحيح قطعاً بأن الوفاق كان يعنى (التخلى) الجزئى من جانب الاتحاد السوفيتى عن حركات التحرير الوطنية فضلا عن الاتهام ، الظالم والخاطى كلية «بالتواطؤ» مع الامبريالية الأمريكية، فالأرجح عند البعض أنه ألقى ظللا معينة على امكانيات الصراع ضد الامبريالية والاستعمار، وربما وضع كذلك حدودا لها.

من المحقق أن الوفاق لا يعنى توقف الصراع بين القطبين أو الكتلتين، وانما هو قد قدم شكلا جديدا محكوما ومضبوطا من الصراع السلمى يتحاشى أساسا أن يصل إلى

حد الصدام أو المواجهة النووية التي تهدد سلام العالم أجمع. غير أن هذا بالدقة فتح الباب للولايات المتحدة لكي تمارس سياسة الابتزاز النووي ضد القوى الوطنية والتحررية في العالم.

وبالنسبة للعالم العربي، فقد كان معنى هذا أن تنطلق إسرائيل بلا رادع لتطبق سياستها في ابتلاع الأراضي العربية المحتلة منذ يونيو وتفرض سلام الأمر الواقع وسلام القوة.

وقد كانت قضية التسليح هي مدار الخلاف بين سياسة الوفاق وسياسة التحرير في المنطقة. فبينما صعدت أمريكا سياسة تسليح إسرائيل حتى الأسنان بكميات لا حد لها وبنوعيات متطورة إلى أقصى حد، التزم الاتحاد السوفيتي في تسليح الدول العربية بحدود معينة. ورغم أن مصر توجهت إلى الاتحاد السوفيتي بحديث خاص على لسان رئيسها «انني انبه الأصدقاء السوفيت إلى أن محاولات الحل السلمي بغير القوة وهم وخداع، وأن استمرار وقف إطلاق النار لا يخدم في النهاية إلا إسرائيل وحليفاتها أمريكا»، فقد تحفظ الاتحاد أكثر من مرة على طلبات السلاح المصرية كما وكيفا وتوقيتا.

وبهذا استغلت أمريكا الوفاق لفرض الإبقاء على الوضع الراهن في المنطقة من خلال ما تسميه سياسة المحافظة على التوازن العسكري في المنطقة وبدا، على الأقل على السطح، أن الوفاق بقدر ما أفاد إسرائيل عسكريا وسياسيا وزاد من تلاحمها وتقاربها مع أمريكا، قد ضاعف من صعوبات العرب التحريرية وألقى عليهم مزيدا من الأعباء النضالية، مثلما باعد بينهم وبين أصدقائهم الكبار إلى حد أو آخر. وبقدر ما خرجت إسرائيل وهي أكبر المنتفعين بالوفاق في العالم، بدا العرب حين وهم نسبيا الأخسرون منه في العالم.

ولما كانت أزمة الشرق الأوسط هي كبرى ازِمات العالم المستعصية والمتبقية وأشدّها خطرا وتفجرا، فقد بدا للبعض أن حالة الاحرب واللاسلم المفروضة عليها كانت تتفق تماما مع الوفاق، كما بدا هذا الأخير للبعض وفاقا على بقاء وأمن إسرائيل بالتحديد أساسا وفي الدرجة الأولى. والواقع كما أوضح الرئيس السادات فيما بعد «أن أمريكا تضمن أمن إسرائيل، وأن روسيا أيضا تضمن أمن إسرائيل»، وأن المجتمع الدولي كله حين لا يذهب إلى أبعد من قرار مجلس الأمن يضمن أيضا أمن إسرائيل».

كذلك فقد أشاع الوفاق الدولي، شأن كل مرحلة انتقال، حالة من الفوضى المربكة والاضطراب المقلق فى العلاقات الدولية المستقرة. فلبعض الوقت كانت التشكيلات السياسية والتوازنات والمحاور والاستقطابات الدولية قد اهتزت واضطربت وتداخلت كرد فعل للوفاق الأعظم. وبالتالي تغيرت كثير من المفاهيم التى كانت مستقرة وتعرض بعضها، عدم الانحياز مثلا، للتساؤل وإعادة التقدير والتقييم أو التقويم. وبالنسبة للقضية العربية، فلقد كانت النتيجة الصافية هى قدر أو آخر من التميع والغموض فى مواقف الدول المختلفة من الصراع.

وفيما عدا هذا، فلقد خلق الوفاق روحا عامة من الاتجاه إلى التسويات وحل المشاكل بالتنازلات. وفى هذا المناخ وجدت حالة الاحرب والاسلم المخيمة على الشرق الأوسط بيئة ملائمة للتجمد وحده وغير ملائمة للتسخين على الإطلاق. ورغم تحول قطاع كبير مهم من رأى العام العالمى إلى جانب الحق العربى بفضل الجهود الدبلوماسية والاعلامية التى بذلتها التحركات السياسية العربية المتتابة بلا كلل، فقد بات واضحا أن أحدا لا يريد الحرب عامة، حتى للتحرير الوطنى أو كانت حربا عادلة مشروعة. لا أحد يريد للعرب أن يحاربوا ليستربوا أرضهم، باختصار لا أحد يريدنا أن نحارب، الأصدقاء كالأعداء. الكل ينصح بالحل السياسى، والحل السياسى - الكل يعلم - ليس بمستطاع. والحقيقة أنه كما كان هناك استهتار اسرائيلى باد بنا وبقوتنا عسكريا، كان هناك إلى حد ما استهتار عالمى بحقنا سياسيا.

وفى وجه هذه المتغيرات الجديدة، كان الحل المنطقى هو إعادة تأكيد البعد المحلى للقضية بالنسبة للبعد الدولى، وذلك «باستراتيجية الاقتطاع» التى تقتطع القضية بقدر الامكان من دائرة الاستقطاب الثنائى. وهذا لا يكون إلا «بالحل المحلى» الذى يعيد الحياة والحرارة إلى جبهة القتال. ولايعنى الاقتطاع هنا المقاطعة أو الانسلاخ أو الانعزالية عن العالم وقواه وضوابطه، فهذا مستحيل كما هو ضار، ولكنه يعنى التنسيق الدقيق الوثيق مع أصدقائنا الكبار على نحو ما فعلت الهند مثلا فى صراعها الناجح الأخير.

وعلى هذا الأساس لم يكن سوى «القوة الذاتية» العربية متغيرا مضادا تشرعه الدول العربية فى وجه المتغيرات الدولية، بمعنى الانتقال من الاعتماد على توازن القوى إلى الاعتماد على القوة الذاتية أساسا. إنها «الثابت» الحقيقى الوحيد فى التحليل الأخير

وعلى المدى الطويل وفى وسط كل المتغيرات الكامنة أو الكائنة أو الممكنة. هى «الجيروسكوب» الوحيد المضمون لسفينة العرب فى بحر المتغيرات المتلاطم والبوصلة التى لا تضل ولا تضلل فى عصر الوفاق الضبابى الباهت.

وخامات القوة الذاتية العربية المباشرة فى المعركة أكبر وأوفر مما نظن وأشهر من أن تكرر: القوة البشرية (خاصة المصرية) كسلاح ووقود عسكرى معوض عن أى نقص تكنولوجى، البترول (خاصة فى المشرق) كسلاح سياسى قاطع فى عصر أزمة الطاقة، الأرصة العربية (خاصة البترولية) فى عصر أزمة النقد الدولية. غير أن الإرادة والوحدة، الإرادة العربية الموحدة باختصار، هى وحدها الروح التى يمكن أن تمنح الحياة والحركة لهذه المادة الخام.

وإذا كان الحل العسكرى وحده لا يكفى نظرا للحقد الأمريكى الضارى الذى يتحول إلى حقن لاسرائيل لا حد له بالسلاح المتفوق، وكان الجهد المصرى وحده لا يكفى لجسامة الموقف وتعقده، فإن «الحل الذاتى» المثالى هو ذلك الذى يجمع فى اقتدار وتناغم بين الحلين العسكرى والسياسى: الأول ضد اسرائيل أساسا، والثانى ضد أمريكا أساسا، الأول بيد سلاح مصر أساسا، والثانى بيد وبترول العرب أساسا. ان التحرير ان يكون «عبء الرجل المصرى» فى الدرجة الأولى وبالمعنى الميدانى المباشر، فانه أيضا «عبء الرجل العربى» بدرجة لاتقل خطرا وفاعلية وان كانت بمعنى أقل مباشرة. وهذا ما ينقل البؤرة فورا إلى وحدة العمل العربى.

ومن هنا كان «الوفاق العربى» هو الرد المنطقى والحتمى على «الوفاق الدولى». فلقد أثبتت سنوات ما بعد يونيو أن الخطر الاسرائيلى مسلط على العرب جميعا بلا استثناء، وأن العداء الأمريكى موجه للعرب جملة وتفصيلا. أنهم جميعا مهددون فى حاضرهم أو مستقبلهم. انهم جميعا شاءوا أو أبوا فى «مركب» واحدة، والعالم بالفعل ينظر اليهم كشئ واحد ويضعهم فى «سلة» واحدة. والحقيقة أنهم بغير الوحدة يمكن أن يكونوا فى عصر الوفاق أضيع منهم فى أى وقت مضى، ولا نقول أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام. والوحدة وحدها هى العاصم والضمان وصمام الأمن والأمان.

والوحدة التى نقصد هنا ليست بالضرورة الوحدة الدستورية، فهذه عمل وقت السلم أكثر منها عمل وقت الحرب، المقصود الآن هو وحدة العمل التحريرى، وحدة الحرب، وحدة الجبهة والمجابهة ووحدة الموقف السياسى والعسكرى.

وهناك عوامل وقضايا عديدة وشائكة باعدت بين العرب وقسمتهم فى وقت ما إلى جبهات صراع مرير ومحاور استقطاب حاد. ومن المسلم به أن من أبرز تلك القضايا الجدل الايديولوجى والصراع المذهبى. وتلك كانت «الحرب الباردة» بين العرب. وكما قسمت الحرب الباردة الشرق والغرب إلى المعسكرين الاشتراكى والرأسمالى، فقد انقسم العالم العربى أيضا إلى معسكرين مماثلين.

وسواء كانت الحرب الباردة العربية انعكاسا محليا بدرجة أو بأخرى للحرب الباردة الكبرى أو لم تكن، وسواء صح ما يقال أحيانا من أن هذه الأخيرة انتهت كنتيجة لتغلب التكنولوجيا على الايديولوجية، أو المصالح على المبادئ، أو الاستهلاك على التسليح، وسواء صح كذلك أو لم يصح ما رددته الغرب عن «نهاية الايديولوجية» وانتهاء عصرها أو عن التطورات الداخلية فى بنى المذاهب الايديولوجية جميعا، فالمحقق أن الوفاق الأعظم وضع نهاية مؤقتة للجدل المذهبى أو هو على الأقل قد خفف من حدته ووضعه فى الظل.

لهذا فلم يكن من المستكثّر - أليس كذلك؟ - أن يؤجل العرب بصفة مؤقتة هذه القضية إلى أن يتم التحرير على الأقل. ذلك لا يعنى التراجع عن المثل التقدمية والمبدأ الاشتراكى قط، بل وذلك دون المساومة على مبدأ المزيد من الاشتراكية فى المستقبل، ولكن أيضا دون أن تضيق قضية التحرير فى غمار الجدل المذهبى، والأرض والمصير بسبب قضية الفكر والعقائديات.

وإذا كان الوفاق الأعظم يمثل تقارب الأضداد، الولايات والاتحاد يتقاربان، وكذلك الولايات والصين، وكانت الكتل الدولية تنوب بالتدريج فتوريا الغربية والشرقية تتقاربان ببطء بينما يتحرر أعضاؤهما بحذر من قبضة القطبين الأعظم، إذ كان ذلك كذلك، فلماذا لا يتقارب العرب فى وجه العالم ومتغيراته دون تفريط بالضرورة فى المواقع والمواقف المبدئية الأساسية؟

لاسيما أن القطبين الأعظم قد أخذوا، أيضا، يتباعدان عن أصدقائهما من العرب بقدر ما تقاربا من بضعهما البعض، وفى فترة المساجلات والمساومات البترولية التى «سبقت حرب أكتوبر»، كان من الواضح مثلا أن أمريكا ابتعدت عن السعودية بمقدار ما ابتعد الاتحاد السوفيتى عن مصر منذ سحب الخبراء العسكريين ومشاكل التسليح..

الخ . وكان من حسن الحظ أنه بالقدر نفسه تقاربت مصر والسعودية من الجهة الأخرى .
وذلك هو النمط الذي أخذ يسود العلاقات العربية عامة بعد الوفاق الدولي بالتدرج .
فاذا كان الاستقطاب الثنائي القديم بين الكتلتين قد شجع على تعرض العرب لحركة
طاردة مركزية ، فقد وجب الآن - هكذا شعر العرب - أن يخضعهم الوفاق الثنائي لحركة
جاذبة مركزية . كان المطلوب - يعنى - وفاق عربى ، ليس بأى شكل مضاد للوفاق
الدولى فى ذاته ، ولكن كمصل مضاد لأعراضه وأمراضه . المطلوب ببساطة تجميد
الخلافات العربية حتى يتم التحرير .

ولقد كان هذا بالفعل يتفق مع أولويات شعارنا القائد: حرية ، وحدة ، اشتراكية .
فرغم أن هذه الثلاثية تؤلف مثلثا متساوى الاضلاع، بمعنى أن لكل بعد من أبعاده قيمة
متكافئة ، فإن المتغيرات الدولية الزلقة كانت تفرض علينا أن نضغط على الحرية - وهى
هنا لاتعنى إلا حرية الأرض ، أى التحرير ، أى الأرض المحتلة وفلسطين - كهدفنا الأول
والأعظم . ورغم أن قوميا عربيا واحدا ليس على استعداد لأن يعقد موازنة أو يجرى
اختيارا بين الحرية والوحدة ، فكلاهما أمل شاق وعزيز ، فلا شك مع ذلك أن التحرير
يأتى أولا ، قبل التوحيد وقبل المذهب . وتلك كانت الصيغة العملية التى قام عليها الوفاق
العربى الجديد ، ومنها تقدم إلى المعركة فى أكتوبر .

أكتوبر آخر وأخطر المتغيرات

عند أول طلقة يوم السادس من أكتوبر اهتزت الأرضية السياسية العالمية ، تلك
الأرضية الصعبة الوعرة غير المواتية للقضية العربية ، اهتزازا عنيفا ، وتغيرت تضاريسها
ومعالمها كما لو أصابها زلزال . كذلك لم يلبث المناخ الدولى «الانقلابى» الملبد أن انقلب
الى طقس «اعتدالى» موات . وكان «أروع مافى حرب رمضان هو قرار الحرب نفسه .
كان قرارا عربيا ، لا شرقيا ولا غربيا » كما قال ياسر عرفات بحق وبلاغة معا . أو كما
وضح الرئيس السادات نفسه بعد ذلك «كان قراراً القتال مصريا ١٠٠٪ وإرادة حرة
١٠٠٪ .. كان قرارنا بأن نواجه قدرنا بأنفسنا قرار مصريا - سوريا خالصا» مثلما كان
نصرنا فيما بعد «نصرا عربيا بكل الوضوح اللازم» . ويمكن على هذا الأساس أن نحدد
ثلاث نتائج مباشرة للمعركة العسكرية فى مجال المعركة السياسية : أنها فرضت القضية
على العالم فرضا ، حددت اتجاه الرأى العام العالمى ، وفرضت على دول العالم تحديد
مواقفها من الصراع بوضوح ، ولتحلل هذه النتائج تباعا بشىء من التفصيل .

المعركة تفرض القضية

كانت أسرع نتيجة للمعركة أنها فرضت نفسها على العالم كله فرضاً ، رفعت درجة حرارة القضية من نقطة الصفر وخط التجمد وبرودة الصقيع الى سخونة النار الملتهبة ، ونقلتها من زاويا النسيان وهوامش اللا مبالاة فوضعتها فى قلب العالم وعلى رأسه . وبعد أن كان العالم قد اقتنع بأن أزمة الشرق الأوسط قد «استنقعت» ولم يعد للعرب إلا الاستسلام ، «وضعت حرب اكتوبر كل العواصم فى العالم فى حالة تعبئة عامة ، شعر كل فرد فجأة ، سواء كان فى باريس أو فى ألاسكا، فى طوكيو أو نيروبي ، بأنه مستهدف ، وهذا يعنى أن دور المتفرجين قد انتهى» ، كما كتبت - ولو من موقف العداء - فرانسواز جيرو .

وبعد أن كانت الدول العربية تسعى عبثاً وراء الرأى العام العالمى وتخطب ود الدول الكبرى وتستثير نفوذها ومساعدتها الحميدة فى الأمم المتحدة وخارجها ، أصبح الكل هم الذين يسعون وراء الدول العربية ويخطبون صداقتها . وبعد أن كنا نكافح بلا جدوى فى سبيل تطبيق قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ وفى سبيل تفسير نصوصه وصيغه الملثوية، فرضت المعركة على الجميع وعلى رأسهم أمريكا الاعتراف بالقرار وتأكيدہ وتصحيح تفسير نصوصه .

لقد أثبتت المعركة للعالم أنه لا يستطيع أن يتجاهل القضية ، وفرضت عليه الالتزام بمسئوليته الدولية عن المساهمة فى حلها ، بل وفرضت عليه الاعتراف بالشعب الفلسطينى وجوده وحقوقه ووضعته وجها لوجه أمام هذه المسئولية بصورة جادة كما هى قاطعة ، وإذا كانت المعركة قد أثبتت بذلك صحة المبدأ الجوهرى الذى لم يغب لحظة عن العقيدة العربية وهو أن «ما أخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة» فقد كان من النتائج الهامشية بل الأساسية للمعركة أنها أعادت للشرعية الدولية معناها واحترامها بعد أن ضيعتها مرحلة الاحرب واللاسلم ، وللأمم المتحدة وجودها الذى عبثت به اسرائيل وكادت تقضى عليه عمليا رغم أنها هى الدولة الوحيدة التى تدين لها بوجودها .

ومن المثير أن نلاحظ هنا مفارقة غريبة حقا ولكنها مفهومة جدا مع ذلك . لقد رأينا أن القضية صراع وعملية شد وجذب بين البعدين المحلى والعالمى ، فور ابتداء المعركة وأثناءها أصبح البعد المحلى هو السائد والمسيطر ، اذ بات الحسم يتم على أرض

الصراع مباشرة ، بينما تراجع البعد العالمى الى حده الأدنى .. ومع ذلك لم تكن القضية عالمية ، بمعنى الاهتمام العالمى بها ، أكثر منها منذ تلك اللحظة . لكنما هى طبيعة الاشياء وحقيقة السياسة الدولية . فالعالم لا يحترم الا الأقوياء ولا يعرف الا القوة ولا يعترف إلا بالأمم الواقعية .

والواقع ان استراتيجية الحل السلمى التى تبناها بعد هزيمة يونيو كانت استمرارا بطريقة أخرى لاستراتيجيةنا ازاء استشرء وتوسع الخطر الصهيونى فى العالم وخاصة فى العالم الثالث كالقارة الأفريقية واللاتينية. فلقد كانت تلك الاستراتيجية تقوم على محاصرة أطراف الاضطراب لا ضرب الرأس .. وقطع الاطراف ، على ضرورته ، لا يقتل الرأس ، بل لقد كانت الاطراف دائما تنمو ، كما فى أفريقيا ، من جديد، حيث كان العدو يواجهنا بحصار مضاد . أما الاستراتيجية الفعالة فهى : اضرب الرأس ، تمت الاطراف ، اضرب النار ، تمت المحاولات العاجزة والشوواء ، ابدأ المعركة العسكرية بنجاح ، تصحح المعركة السياسية نفسها بنفسها . وهذا بالدقة وماحقته اكتوبر من أول طلقة .

المعركة تحدد الرأى العالمى

انعكس تأثير المعركة مباشرة وبلا فاصل زمنى أو ساتر اصطناعى على الرأى العام العالمى ، وخلاصة التفاعل بين المعركة والرأى العام العالمى هى أنها باختصار كسبته بقدر ماكشفته ، وبلورته بقدر ماشكلته، كشفته ، لأنه كان الى حد معين علامة استفهام معلقة ، فتحيز الرأى العالمى الى جانب اسرائيل ، ذلك الذى وصل الى درجة هستيرية محمومة بل مجنونة حقا خلال حرب يونيو ، لم يكن مستبعدا تماما عند تفجر المعركة رغم التحولات المهمة والخطيرة التى حدثت ما بين الحربين. فبعيدا تماما عن أن تكرر التجربة الظالمة نفسها ، كان هناك كثير من النار تحت الرماد لم يزل . ولاشك أن اسرائيل كانت قد فقدت جزءا كبيرا من تعاطف العالم القديم معها ، وفقدت معه قطاعا أكبر من الرأى العالمى ، وتغيرت النظرة العامة كثيرا الى الحق العربى ومال الميزان العاطفى الى كفتهم بدرجة كبيرة ، ولكن ظل السؤال الأساسى هو : أجزرى Landslide هو أم جزئى هذا التحول؟ أهى عزلة دائمة أم مؤقتة ؟

كذلك فلا جدال أن الدول العربية أجادت بعد مرارة التجربة القديمة فن مخاطبة الجماهير العالمية وأحسنّت إدارة تحركاتها السياسية مع الدول الأجنبية بحيث غيرت الكثير من المواقف والمفاهيم ، ومن المحتمل هنا أن الدول العربية أفادت قبل المعركة من تجربة الهند الناجحة في حربها الأخيرة مع الباكستان حيث لجأت الى سياسة حملة السلام الدبلوماسية والاتصالات الهادئة مع دول العالم دون الحديث عن الحرب أو التلويح بها ، وفي الوقت نفسه وضعت الخصم في موقف يحتم عليه هو التهديد وحديث الحرب غير الأثير لدى الرأي العالمى . وهكذا بالفعل صنعت الدول العربية ، حتى أحكمت عزلة اسرائيل في العالم وعن الرأي العام الى حد غير مألوف .

ومع ذلك كله فقد كشفت المعركة عن عدة حقائق دالة . أولا ، حدوث نوع من «الردة» بقدر معلوم فى الرأي العام العالمى فور أنباء المعركة ، لاسيما أيام الانتصارات العربية الباهرة والكاسحة فى البداية . ولقد عكست الصحافة العالمية بلا مواربة كثيرا من الترقب وأكثر منه من القلق على اسرائيل فى تلك المرحلة ، كما عكسته الاستفتاءات العامة التى أظهرت انحيازا غالبا لإسرائيل وإن لم يكن على مثل درجته المحمومة أيام يونيو . بل لقد عسكرته أيضا مواقف وتصريحات بعض الحكومات الغربية التى ظلت محايدة نسبيا ، اذ سرعان ماكشرت فجأة عن أنيابها ولم تخفها إلا بعد أن اطمأنت فى النهاية على «بقاء ووجود» اسرائيل . وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على وجود نواة صلبة دفيئة من المتعصبين للعدو ، تمثل فى الواقع أحقادا دفيئة - تاريخية ربما ؟ - لا سبيل الى اقتلاعها فى يوم وليلة فضلا عن تجاهلها أو التقليل من شأنها . والحقيقة أن العالم مازال بعضه يفكر ويتصرف عنصريا بوعى أو دون وعى، تحت الجلد أو فوق السطح .

ثانيا ، كشفت المعركة عن نوع من الازدواجية والانقسام فى الرأي العام فى دول العالم المختلفة ما بين الحكومات وما بين الشعوب ، ففي أوروبا بينما اتخذت بعض الحكومات الغربية مواقف محايدة أو شبه محايدة بدرجات متفاوتة من التحفظ أو الحذر ازاء الصراع المسلح فى الشرق الأوسط ، اخذت شعوبها كما أوضحت استفتاءات رأى الجماهيرية درجات أكبر وأعنف من الميل الى العدو الاسرائيلى ، ويرجع هذا فى جزء منه الى أن الحكومات كأجهزة مسئولة ، أكثر ارتباطا بالمصالح وحساسية لها ،

بينما أن الشعوب أكثر ارتباطا بالعواطف وتعكس المشاعر والكوامن التلقائية بحرية أكثر غير أنه يرجع أيضا الى حرص الحكومات على أن تمسك العصا من الوسط .

وإذا كان هذا هو الوضع العام فى نول أوروبا الغربية ، فقد يكون العكس صحيحا بدرجة أو بأخرى بالنسبة للدول الأفريقية . فرغم التقاربات المهمة والخطوات المتقدمة التى حققتها العلاقات العربية - الأفريقية بشأن صراع الشرق الأوسط عبر سنوات ماقبل المعركة ، فلقد كان لبعض الحكومات الأفريقية قدر من التحفظ والحذر والتردد فى حين كانت شعوبها نسبيا أكثر تعاطفا وتدفقا مع الحق العربى . لقد كانت الشعوب بعامة أقرب ميلا من حكوماتها الى القضية فى حالة أفريقيا ، بينما كانت الحكومات بعامة أقرب من شعوبها فى حالة أوروبا .

المعركة تحدد مواقف الدول

أيا كانت اختلافات الميول الداخلية أو حدود المواقف الخارجية فى مجال الرأى العام العالمى ، فقد جاءت المعركة لتفرض على الجميع أن يقترب من الموقع العربى قدر ما أرغمته على الابتعاد عن موقع العدو الإسرائيلى . ثم جاء إعمال سلاح البترول ليؤكد هذا الاتجاه ويدعمه . وبذلك ازدادت التحولات الكمية فى موقف الرأى العام العالمى ، ثم تطورت التحولات الكمية الى تحولات كيفية لصالح العرب. ويمكن أن يقال إن المحصلة الصافية لمعركة الرأى العام هى كسب العرب لها على الجملة وبالقدر نفسه اكتمال واحكام عزلة اسرائيل . ذلك يصدق على أوروبا الغربية كما يصدق على أفريقيا ، وعلى نول عدم الانحياز كما على العالم الثالث .

وإذا كان لهذا التحول من معنى ، فهو أن معركة الرأى العام العالمى هى جزء من المعركة السياسية التى سبقت المعركة العسكرية ولحققتها . وكجزء من المعركة السياسية ، فانها تخرج فى التحليل الأخير وهى مثلها صراع قوة ، تحكمها مثلها حقائق القوة وحدها وأساسا . أنها معركة ضغوط متبادلة ومصالح مشرعة. وإذا كان لهذا الموقف بدوره من درس عام يعلمه ، فهذا الدرس هو أن الرأى العام بطبيعته هلامى حول قلب ، لا ضمان له ، ونكاد نضيف : ولاضمير أيضا . فهو - كرأس المال - جبان الى حد ما ، يتبع الأقوى غالبا ، ويخضع للأمر الواقع ربما أكثر مما يقاومه ، وهو لايقود السياسة

بقدر ما يتبع السياسة ، الرأى العام العالمى لايعترف فى نهاية الأمر الا بمن يفرض نفسه عليه ، بالأمر الواقع ، بالقوة ، بالنصر ، يضعه ازاها فجأة ووجها لوجه . أنك لا تكسب المعركة العسكرية فى الميدان بالرأى العام العالمى ، ولكنك تكسبه اذا كسبتها ، وهذا بالدقة ما فعلنا فى اكتوبر .

ثالثا ، كانت النتيجة النهائية للمعركة «أو الفورية ، أو الاثنان معا اذا شئت ، سيان» هى أنها بعد أن صهرت التجمد جمدت التميع ، اذ فرضت على الجميع أن يحدد موقفه بغير هلامية أو موارد أو التواء ، وبالأفعال والوقائع يثبتها لا الأقوال والكلمات المتعاطفة أو لمتقاطعة أو المعسولة أو المخادعة ، فليس خافيا أن كثيرا من المواقف المتعاطفة قبل المعركة كان ادعاء «نصف قلبى» والبعض تحركات شفاه وألفاظ السنة ، فاتر وفطير ، بينما كان البعض الآخر مشبوها بادی الانتهازية على وجه اليقين . أولئك هم من سماهم بهاء الدين ببلاغة «أصدقاء العطف» قلوبهم «فى أعماقها .. ليست مع حقوقنا ، وعقلهم الباطن يخشى انتصارنا ! وقد خانت البعض مشاعرهم بالفعل ، فوجدناهم يتوجسون النصر العربى» .

والحقيقة أن فترة الاحرب واللاسلم كانت قد وضعتنا لبعض الوقت - أو هكذا توهم البعض - تحت تكرم ، ولانقول رحمة ، كل ذى شأن وكل غير ذى شأن فى العالم ، يتبرع مهما كان وزنه أو عجزه بالتدخل والحكمة واقتراح انصاف الحلول وأشباه الحلول ، يبدى الصداقة وهو ألد الخصام ، والاهتمام وهو يبحث فقط عن دور عالمى يلعبه أو هبة دولية يكتسبها على حساب القضية وتحت ظل استراتيجة الحل السلمى.

المعركة ، بضرية واحدة ، نسخت هذا كله ، ألزمت كل واحد أن يكشف أوراقه ، وفرضت على الكل أن يحدد موقفه بصراحة . وكان المعنى المباشر لهذا هو عملية «فرز» تحدد بها العدو من الصديق وأعادت تشكيل المعادلات العالمية وتوازن القوى الدولية . ومن المسلم به، حتى من الأعداء ، أن العرب قد أداروا هذه العملية بذكاء واقتدار ، تعلموا من أخطاء الماضى واستفادوا من تجارب الآخرين واستلهموا حقائق العالم الجديدة ومتغيراته . قال دايان بعد المعركة : «لقد وضعوا - يقصد العرب - فى حسابهم أيضا المناخ الدولى والدور الذى يمكن أن يقوم به الاتحاد السوفييتى ، وأهمية الوفاق بين الأمريكيين والسوفييت . لقد أدرك العرب متغيرات العالم فى عام ١٩٧٣ . ويمكننا نحن أيضا أن ندركها» .

عملية الفرز الناجحة تلك ، يمكن القول بصيغة شاملة أن نتيجتها ، بعد عزل الأعداء الأصلاء ، هي حركة تصعيد أو ترقية عامة Up - grading فى مواقع ومراتب الآخرين : الأعداء الثانويون حيدوا ، والمحايدين صادقوا والأصدقاء صدقوا ، المواقف البازغة نمت ، والنامية طورت ، والمتطورة تبلورت . فممن حيدوا بعض دول أوروبا الغربية المذبذبة لاسيما منها الدول الصغيرة والتي كانت شديدة الولاء لإسرائيل ، وممن صادقوا الدول الأفريقية التي اكتمل عدم انحيازها وانتقلت بصورة نهائية وجماعية من معسكر العدو أو من الأرض المشتركة الى معسكر العرب . وممن صادقوا أيضا بدرجات متفاوتة بعض دول أوروبا الغربية الكبيرة ، خاصة فرنسا وبريطانيا التي أظهرت فى أعين إسرائيل «جانب حياد يتأخم العداء» أما الذين صدقوا فدول المعسكر الاشتراكي وعلى رأسهم الاتحاد السوفييتي الذي أثبتت صداقته منذ أول طلقة فى المعركة بعد اختبار صداقة شاقة استمر قبلها لسنوات . ولقد كانت لنا «وقفة مع الصديق» فحولتها المعركة على الفور الى وقفة للصديق معنا . هذا كله بطبيعة الحال عدا الدول الصديقة تقليديا كدول عدم الانحياز والعالم الإسلامى ، فضلا عن قوى التقدم فى العالم الثالث والعالم أجمع . وحتى أمريكا اللاتينية اتجهت أثناء الحرب صوب موقف محايد .

وعلى الجانب الآخر من التل ، انعزل تماما معسكر الأعداء الأصلاء والضالعين معهم من توابع المعسكر ، إسرائيل وأمريكا وحولهما بعض الدول الرجعية والعنصرية فى أوروبا وأفريقيا مثل هولندا والبرتغال وجنوب أفريقيا وروديسيا . لقد تحققت نبوءة ديجول فى ١٩٦٨ من أن الاسرائيليين «إذا استمروا فى تعنتهم هذا ، ولم يكتسبوا فضيلتى التواضع والقناعة ، فسيفرض الجميع من حولهم» لقد اكتملت عزلة إسرائيل ، تلك التى عبرت عنها جولدا مائير بقولها «من المؤلم والمحزن حقا أن تكون صغيرا ووحيدا فى الوقت نفسه» ولو أنها أيضا لم تنس أن تضيف فى صرخة هستيرية «ويل للعالم اذا توقف عن دعم إسرائيل» وردد ايبسان المعنى نفسه «إن مايؤلنا فى الأوضاع الدولية الراهنة هو هذا التخلى الكامل عنا » مضيفا على الفور «إننا أمام ميونيخ جديدة» ولكن إسرائيل لم يجدها شيئا توابع المعسكر ، بل عبرت عن ذلك بنفسها حين كتب كاتب فيها يقول «منظر الأصدقاء أحيانا أكثر مدعاة للأسف من منظر الأعداء» .

أما ديان فقد صور هذا الوضع بقوله «سياسات الدول المختلفة فى العالم تجاه

المسائل المتعلقة بمنطقتنا قد تغيرت .. لقد خسرنا كثيرا في الحرب ، فضلا عن أن أفريقيا وأوروبا باعنا إسرائيل بثمن بخس» «كذا» ثم فسر هذا بأن «العالم في ١٩٧٣ أصبح ساحة شديدة التعقيد ، فيها دول عربية أقوى وأكثر طموحا ، وفيها أزمة للطاقة ، وفيها سياسة بترولية عربية أكثر نسبيا عن ذي قبل ، وتدخل مباشر من جانب القوى الكبرى ، كما فيها مستقبل الوفاق السوفييتي الأمريكي» وفي مناسبة أخرى كرر نفسه قائلا : «يوجد عرب كثيرون ، ولديهم وفرة من البترول، وهناك أصدقاء كثيرون للعرب ، وأصدقاء للبترول» «حقا ، أن العالم بعد أكتوبر» كما تقول ورقة أكتوبر ، «غير العالم قبله» !

وغنى عن الذكر كم هاجمت إسرائيل والصهيونية أصدقاء العرب ونعتتهم بأقحش ألوان القذف والسباب ، فأوروبا ، التي وقفت «كما لو كانت إسرائيل على كوكب آخر .. قد أظهرتها الأزمة على حقيقتها .. انتهازية .. ضد سامية ، ولامستقبل لها ، وأشبه بالمعادلة التي تقول أن ٩ في صفر تساوي صفرا . وأي قيمة لأوروبا اذا كانت ترتجف أمام شيوخ الخليج» .. الخ .. الخ ! أما إفريقيا «فمرتشية ، ومواقفها عاهرة»! «التعبيرات كلها لولتر لاكير» وبطبيعة الحال فان ذلك لم يغير من الواقع ، ولكن بذلك كله اكتملت معالم الخريطة السياسية للعالم أثناء المعركة ، غير أن هذه الخريطة الخطيرة تستحق وحدها وقفة خاصة، ولهذا فلتكن هي موضوع بحثنا التالي . وهناك أربعة مواقف أساسية يهمنا أن نحللها ونحدد علاقتها بالمعركة : الوفاق الدولي ، أوروبا الغربية، أفريقيا المدارية ، وأخيرا وفي الجانب المضاد الولايات المتحدة .

الوفاق والمعركة

فأما الوفاق بين الدولتين الأعظم ، فرغم أنه سياسة عالمية تغطي العلاقات المتعارضة والمتعايشة بينهما على امتداد الكرة الأرضية جميعا، فان مشكلة الشرق الأوسط تحتل منها موقعا مركزيا ، بؤريا ، محوريا، نظرا لخطورتها القصوى بما تمثل من مصالح حيوية للقطينين وبما تحمل من أخطار الصدام المباشر بينهما ، والحقيقة أننا اذا استعرضنا المشاكل المأزومة في العالم بين القطبين لوجدنا الشرق الأوسط في الصدارة المطلقة ، فهو الآن الوحيد الذي يمكن أن يؤدي - كما صرح نيكسون مرارا - الى صدام نووي . فحتى غرب أوروبا توصلت الى مرحلة التسوية والتهدة والوفاق . إن هنا فقط آخر بقايا الاستقطاب الثنائي وآخر مخلفات الحرب الباردة .

وحتى بعد انتهاء الحرب بشهور ، وفى مناسبة الحديث عن السلام ، كرر الرئيس الأمريكى أن «الشرق الأوسط أهم من فيتنام بالنسبة للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى كما أنه ينطوى على احتمالات حدوث مواجهة بين الدولتين الأعظم أكثر مما كان عليه الموقف فى فيتنام ، وليس يمكننا أن نخاطر بمواجهة بين الدولتين الأعظم فى تلك المنطقة ، إن الشرق الأوسط من المناطق الساخنة فى العالم ، ومن مصلحة أمريكا وروسيا أن تعملأ من أجل تحقيق السلام هناك ، وإن كانت مصالحهما لاتتوافق دائما» الشرق الأوسط هو الاقليم الذى بأخر تعبیر لنیکسون «يمكن أن يصبح بلقان السبعينات بغير الدور الذى قامت به الولايات المتحدة » .

ومشكلة الوفاق أن أحد الطرفين ظل يمارس سياسة عدوانية استفزازية وهجومية داخله ، هى سياسة «الابتزاز النووى» لصالح حليفه فى المنطقة . فالسياسة الأمريكية العلنية والعنيدة كانت وتظل هى اغراق اسرائيل بالسلح المتفوق والمتطور ، لا لتضمن به التوازن فى المنطقة كما كانت تزعم بخبث ساخر ، ولكن لتؤمن به التفوق الإسرائيلى الدائم على العرب وتفرض الأمر الواقع فى المنطقة الى الأبد ، وهو احتلال الأراضى العربية . فاذا ما تقدم الاتحاد السوفيتى لامداد العرب بسلح مكافئ كما وكيفا ، أو حتى مقارب ، هددته أمريكا ولوحت فى وجهه بالصدام النووى ، فأحجم أو تردد قليلا أو كثيرا .

وفى النتيجة فلقد فرضت أمريكا كأمر واقع تصعيدا مستمرا كاللؤلؤ الصاعد فى حجم الصراع وأخطاره ، لا المحلية فقط بل والعالمية أكثر . وبهذا أيضا أصبح الصراع المحلى فى الوقت نفسه محكوما ومضبوطا بسياسة الوفاق . غير أن درجة الضبط والتحكم هذه تختلف بالنسبة للعرب عنها بالنسبة لإسرائيل .. فبينما تعربد هذه تسليحيا فى المنطقة بلا حدود ولا رادع مثلما تعربد أمريكا وفاقيا ، يجد العرب يدهم مغلولة أكثر أو قل أقل حرية وقدرة . ومن هنا بدا للبعض فى حين ما سواء خطأ أو صوابا أن الوفاق قد قيد حرية العرب وقدرتهم على الحركة ، وأنهم لذلك «محاصرون» بالوفاق ، دون أن نذكر الرأى المتطرف الذى كان يضيف أنهم هم «ضحيتة» الوحيدة .

ولم يكن ذلك كله صحيحا تماما بطبيعة الحال ، كما لم يكن بعيدا كل البعد عن الصحة كذلك . فقد كان الوفاق كأكبر المتغيرات الدولية منذ الحرب الثانية هو مجرد

صيغة جديدة ومنضبطة للصراع العالمى ، قد يستحيل اختراق حاجزه اختراقا تاما مطلقا ، ان لم يكن الشئ فلمجرد أنه مصدر التسليح الأساسى والوحيد تقريبا فى كل صراع محلى وبالأخص الصراع العربى - الإسرائيلى - ولكنه بالتأكيد لا يمنع فضلا عن أن يلغى الارادات المحلية تماما ولا الحروب المحلية أيضا . هناك داخل حدود الدائرة الواسعة للوفاق الأعظم ، مجال كبير للحركة والعمل المحلى يمكن «اقتطاعه» منه دائما . الاختراق ، بعبارة أخرى ، مستحيل ، ولكن الاقتطاع ممكن . والسياسة الناجحة هى تلك الأقدر على الاستفادة من الوفاق ، والفاشلة هى وحدها التى تبرر عجزها بقيوده البعيدة ، وهذا ما عبر عنه بايجاز وزير خارجية مصر حين قال «إن الوفاق الدولى كان يمكن أن يضر بنا لو قبلنا الأمر الواقع ، ولكننا تحركنا فى جميع المجالات» .

ولكن خير من شخص الموقف وعبر عنه هو بلا شك الرئيس السادات نفسه الذى وضح فى سلسلة من الأحاديث الصحفية والخطب السياسية كيف كان قرار المعركة معركة فى حد ذاته ، فإشارة لقاء القمة الأول بين دولتى الوفاق الى «الاسترخاء العسكرى» فى المنطقة أمر «كان يعنى حينئذ أن حالة اللا حرب واللا سلم التى سادت المنطقة والتى سببت لنا الكثير من المتاعب والمآزق .. والتى كانت كفيلة بأن تحقق لإسرائيل على المدى الطويل كل ما تريد دون أن تطلق طلقة واحدة .. يراد لها أن تستمر» وفى اللقاء الثانى سارت القوتان الأعظم خطوة أخرى فى الاتجاه نفسه ، وتأكد أن المشكلة يراد لها أن تتجمد من جديد «لأن الدولتين الأعظم كليهما كانتا تريدان تجميد الوضع برمته» فالبيان الذى صدر «يؤكد بما لا يدع مجالا لأى شك أو لبس على تجميد القضية ، انتظارا لحل سلمى» .

وهكذا كان مغزى اللقائين «من الاتفاق على عدم الصدام فى أى جزء من العالم لايعنى الا الاتفاق على عدم الصدام فى الشرق الأوسط، لأن كل ماعداه قد تم تصفيته وانتهى» هذا فضلا عن أن «العاملين الكبيرين ، روسيا وأمريكا ، يحرصان على وجود إسرائيل ويتصرفان كل بطريقته للحفاظ على ذلك، فأمريكا تعطى التفوق الكامل لإسرائيل على العرب مجتمعين تحت اسم نظرية توازن القوى ، والسوفييت من جانبهم يضعون قيودا على مايقدمون للعرب من السلاح والتكنولوجيا التى هى مباحة من جانب أمريكا لإسرائيل بالكامل» .

وعلى هذا الأسس يعضى الرئيس ملخصاً موقف العملاقين... «كان الموقف الأمريكى... يعتبر العرب، مصر والعرب، جثة هامدة... وكان الاتحاد السوفييتى على أصواره أن... نستبعد المعركة العسكرية تماماً وأن تنتظر القضية حلاً سلمياً... كان العملاقان يعتقدان... أن دخول مصر الحرب انتحار... من هنا «كان قرار القتال مصرياً ١٠٠٪ وضد ارادة... العملاقين، وبإرادة حرة ١٠٠٪» وجاءت الحرب مفاجئة كاملة للاصدقاء كما كانت... للاعداء.

بل أكثر من هذا كشف الرئيس أن أمريكا كما حاولت أن تفرض على العرب وقف القتال منذ ساعاته الأولى والعودة الى الخطوط السابقة رغم انتصارهم، ثم كررت المحاولة عدة مرات خلال الأيام الأولى مع الوقوف على الخطوط الجديدة، فكذلك أبلغ الاتحاد السوفييتى مصر بعد ست ساعات من بدء القتال والنصر أن سوريا طلبت وقف إطلاق النار، ولكن سوريا نفت ذلك بشدة، وتكرر هذا أيضاً عدة مرات. «وهنا لا نجد اسخف ولا أكذب من ادعاء الصهيونية - وولتر لاكين مثلاً - من «أن الروسيا كانت متورطة فى الحرب وأعدت لها وعلمت بها» وأنها كانت قبيل المعركة تناقش مع العرب تفاصيل الاستعدادات الأخيرة للهجوم وو... الخ» وبالمثل تسقط الى الأبد «نظرية التمثيلية» تلك التى شاعت حيناً وأشاعت أن المعركة لم تتم الا بترتيب وكاتفاق بين القوتين الأعظم بل وبينهما وبين طرفى الصراع المحليين «ا».

هكذا لم يكن الوفاق يريد الحرب، وحين قامت حاول أن يوقفها. وحين حاول تغلبت... الارادة المحلية الحرة. أو كما خلص الرئيس «كان قرار ٦ أكتوبر قراراً حراً، وكان ضد... ارادة الدولتين الكبيرتين اللتين قررتا فى مؤتمرين متتاليين تجميد مشكلة الشرق الأوسط، ثم علنت الدولتان واحترمتا قرارنا وإرادتنا» وهكذا «بالتأكيدات أثرت حرب ٦ أكتوبر فى سياسة الوفاق السدولى، ولكن فى أى اتجاه» هذا ما نريد أن نراه.

من هذا الموضع، موضع الارادة المحلية الحرة والقوة الوثيقة متفاعل العرب مع... مركب الوفاق، فبعد أن كلنوا محاصرين «بالوفاق الأعظم» الى جد أو آخر، فرضوا عليه... «بالوفاق العربى» استراتيجية الاقتطاع... لقد فرضت الحرب نفسها على الوفاق، ففرضت... عليه أن يحدد أبعاده وأعمقه الحقيقية. وبذلك جاءت معركة أكتوبر أول «اختبار أحماض»

قاس لصيغة الوفاق الجديد الفضفاضة ، فكانت هي التي نقلت المعادلة الدولية الجديدة مما بدا للبعض حالة مقلقة من التميع الهلامي والغموض السديمي الى حالة من التبلور المعقول وتحديد الحجم الطبيعي والنسب الصحيحة .

أو كما قال الجنرال بوفر ، كان في الحرب شيء «كشف عن الانطباعات الخادعة التي كانت تحجب المتناقضات السوفييتية - الأمريكية وعدم الاستقرار الذي يكتنف التقارب بينهما» وبالمثل قال اليك دجلال هيوم وزير خارجية بريطانيا «إن الاحداث التي تلت وقف اطلاق النار وبينها اعلان حالة التأهب بين القوات الأمريكية والسوفييتية قد أظهرت أن الطريق مازال طويلا أمام الوفاق قبل أن يمكن القول بأنه قد أمكن تحقيقه ، وأن سياسة الوفاق لا تزال بحاجة الى مزيد من التدعيم قبل اعتبارها سياسة لارجوع فيها» وكذلك كتبت فرانس سوار أن «ماحدث يوضح الى أى مدى يعتبر الوفاق هشا» .

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقول إن المعركة قد حددت بدقة «زاوية الانفراج» في الوفاق بعد أن بدت وكأنها قد تجاوزت الحد بدرجة أو بأخرى لقد «قننت» المعركة حدود الوفاق بأن انقضت من احتمالات ، ولانقول مزالق ، التطرف والاندفاع أو فقدان التوازن والاتجاه . إنها هي التي صحت مساره ومنحت سفينته «جيروسكوب» ثقيلًا يحفظ توازنها وبوصلة هادية ترشد وترشد توجيهه في بحر الصراع القطبي المتلاحم الخوان ، لقد أصبحت المعركة من المتغيرات الدولية المؤثرة ، آخر المتغيرات ، فرضت نفسها على أكبر المتغيرات منذ ربع قرن وهو الوفاق، فعدلته وغيّرت من معطياته وأثرت فيه بقدر ماتأثرت هي به .

وبطبيعة الحال فإن هذا لم يكن بالعملية السهلة ، بل تم من خلال صراعات قوى رهيبية وعاتية وصدامات ارادات غير تقليدية وفوق عادية ، أعنى بالتحديد نووية ، وفي البداية لم يكن هناك من رمز للصراع سوى نينك الجسرين المتعامدين بحرا وجوا من التسليح الكثيف كأنهما سيفان متقاطعان في مبارزة سلاح تاريخية عبر البحر المتوسط ، واحد عرضى من أمريكا الى إسرائيل ، والثاني طولى من الاتحاد السوفييتى الى العرب ، الأول يدور مع عقارب الساعة، كما قيل، والثاني عكسها .

لكن الأزمة بين القطبين إنما وصلت الى الذروة حين شرعت أمريكا سياسة الابتزاز النووى لما بدت هزيمة إسرائيل ماثلة على أفق سيناء . فقد أغرقتها على الفور بمدد جديد

وخطر من السلاح المتطور ، كما هددت بالتدخل العسكرى بطريقة سافرة . فقد أعلن نيكسون أن «موقف الولايات المتحدة من أزمة الشرق الأوسط الآن تمليه الاعتبارات نفسها التى أملت الموقف الأمريكى تجاه أزمة لبنان سنة ١٩٥٨ وأزمة الأردن سنة ١٩٧٠» . هذا بينما صرح كيسنجر فى ١٢ أكتوبر بأن «الشرق الأوسط قد يتحول الى منطقة تدفع بالقوى النووية العظمى الى المواجهة، إن الصعوبة التى يواجهها كل منا هو أن كلا من الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة ينظر الى أزمة الشرق الأوسط من خلال منظاره الخاص .. فالأمريكيون بنوا صداقة تقليدية مع اسرائيل ، بينما بنى الروس صداقة مع بعض الدول العربية» .

وقد دعا هذا كله الاتحاد السوفييتى الى الانذار بالتدخل المباشر لو لم تتوقف اسرائيل عن القتال بعد أن تقرر وقف إطلاق النار .. وهدد هذه الأخيرة بأنها ستعرض «لالتدمير» . ورغم أن حدود هذا التدخل غير معروفة بالضبط ، فليس هناك شك فى جدية الاتحاد السوفييتى واهتمامه . وفى هذا قال دايان بوضوح «كانت موسكو جادة تماما فى تهديدها بالتدخل ضدينا اذا لم ننسحب» . وقال أيضا «لست أشك الآن فى استعداد السوفييت واصرارهم على التدخل العسكرى المباشر ضدينا اذا دعا الموقف الى ذلك» هذا بينما أعلنت مايير أن «التهديد السوفييتى هذه المرة لم يكن أقل فعالية من تهديد ١٩٥٦ ، وربما أشد» كما صرحت بعد تسوية الأزمة بأن «بلادها قد نجت من خطر كبير» . كذلك اعترفت دافار بأن «الضغط الأمريكى علينا كان نتيجة للضغط السوفييتى على أمريكا» .

أما على الجانب الآخر ، فسواء كان «التشنج النووى» الأمريكى حقيقيا أو «تهويشا» - والأخير الأرجح ، وسواء كان حبالا لوجه الصراع أو تحويلا للأنظار عن مشاكل الحكم الداخلى «فضيحة ووترجيت» - والأخير الأرجح أيضا - سواء هذا أو ذاك فقد كان خطر التصعيد قائما وخطأ العزلة بالاثم ماثلا كالشبح المخيف .

فقد فاجأت أمريكا العالم باعلان حالة التأهب النووى القصوى فى كل قواعدها حول الكرة الأرضية بدعوى أن «الأمر بالتأهب صدر لنظهر للاتحاد السوفييتى أننا لانستطيع أن نقبل اجراء من جانب واحد ، من جانبهم ، لتحريك قوات عسكرية الى مسرح الصراع بين اسرائيل والدول العربية» . وكانت الإشارة فى هذا هى الى أن الاتحاد السوفييتى -

كما أدعت أمريكا - قد وضع ٧ فرق محمولة جوا على أهبة الاستعداد لارسالها فورا الى الشرق الأوسط . وفي وجه هذا الاستفزاز الحرج اتخذ الاتحاد السوفييتي موقفا يتسم بالحزم دون التهور . فأعلن «أن هذه الخطوة لا تساعد على الانفراج الدولي ، وأنها اتخذت بوضوح في محاولة لارهاب الاتحاد السوفييتي ، وأن الذين اتخذوها عليهم ان يدركوا أنهم قد اخطأوا العنوان» .

في تلك الساعات المصيرية توترت العلاقات بين القطبين الى حد مذر ، ويات العالم يخشى على الوفاق من حرب أكتوبر إما تصادما عسكريا نوويا والا فعودة الى الحرب الباردة ، ولكن «أمريكا وروسيا» كما قال إليك دجلاس هيوم ، «تمكنتا في الوقت المناسب من الحيلولة دون تدخل عسكري في الشرق الأوسط وذلك لتجنب مواجهة نووية بينهما» ثم اضاف «عنصر الحظ كان له دور في تمكين البذور الأولى لسياسة الوفاق بين أمريكا وروسيا من تحقيق وقف إطلاق نار فعال ولكن مستوتر في الشرق الأوسط» .

أو كما قال نيكسون نفسه «أعتقد أنه بدون الانفراج ربما واجهنا نزاعا ضخما في الشرق الأوسط ، غير أننا تجنبناه بمساعدة الانفراج» أو كذلك كما أعلن برجينف فيما بعد على منبر البرلمان الهندي «أن الأمور كانت ستختلف اذا لم يكن هناك عامل الانفراج في العالم والذي ظهر خلال العامين أو الثلاثة الأخيرة . ولو كان النزاع الحالي قد اندلع في وضع التوتر الدولي الشامل وتفاقم العلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي فلربما صار الصدام في الشرق الأوسط أكثر خطورة ولما كانت هناك امكانية لمباراة مشتركة بين الاتحاد والولايات كنتك التي أدت الى قرارات مجلس الأمن المعروفة والتي جعلت ممكنا وقف اطلاق النار» .

هذا من ناحية ولكن من الناحية الأخرى تعرض الوفاق لكثير من الشك في صلابته وحتى امكانية بقائه ، بل وصل البعض الى حد القول بأن الوفاق «ذهب مع الريح» وانتهى، أو كما قال الصحفي الأمريكي برنارد جيرترزمان «لقد أدى نشوب القتال في ٦ أكتوبر الى تزايد النقد لسياسة الوفاق والى انتشار رأى في واشنطن مؤداه أن الوفاق قد مات» ولاشك أن من أبرز أصحاب هذا الرأي أو المروجين له الصهيونيين الأمريكيين الذين كانوا يعانون الوفاق منذ البداية لحساب اسرائيل ، فعلى سبيل المثال كان السناتور هنري جاكسون ، من إصدق أصدقاء اسرائيل ، هو الذي اتهم نيكسون وكيسنجر

بأنهما «يبيعان اسرائيل من أجل الوفاق والمحافظة عليه» «كذا!». وعلى العكس من هؤلاء ، أكد شلزينجر أن النتيجة النهائية كانت اعترافا بقوة الوفاق .

على أن الحرب ، فى الواقع الملموس لم تؤد الى انهيار الوفاق ، فقط أصابته بارتجاج واهتزاز عنيف أثبتا أنه ظاهرة تحت التكوين لم تزل ، لم تتحدد قسمااتها وملامحها وأبعادها بعد بصفة نهائية .. ومن هذه الزاوية بالذقة لعبت هى دورها ذاك فى تشكيله وتحديدده . وأهم من ذلك أنها أثبتت من خلال المواجهة بين العملاقين أن أحدا منهما ليس على استعداد للتراجع أمام الآخر بعمامة أو التخلي عن أى من مواقعه فى العالم بخاصة أو عن صديقه فى الصراع المحلى بالشرق الأوسط بالأخص .

ففيما يختص بالجانب الأمريكى - الإسرائيلى فإن أمريكا عمليا تكاد تعتبر اسرائيل جزءا منها . أما فيما يختص بالجانب العربى - السوفييتى فإن البعض يرى إن صوابا أو خطأ أن أى تخل من السوفييت عن العرب يؤدى الى القضاء على مكانتهم وهيبتهم ومراكزهم المكتسبة فى الشرق الأوسط كله ، لصالح الصين خاصة ، وربما لصالح أمريكا نفسها أيضا ، بل أكثر ، ولكن تجربة المعركة والمواجهة أثبتت ، فعلا وعلى العكس ، أن الاتحاد السوفييتى ، وإن كان يمكن أن يبذل أكثر ويؤيد أكثر ، لم يتدخل ، بل تدخل ، ولم يتراجع ، بل تماسك وتمسك ، بل لقد أجهل الاتحاد فى تلك الفترة أن محور الاستراتيجية السوفييتية الخارجية هو العالم الثالث ، ومحور العالم الثالث هو العالم العربى ، ومحور العالم العربى هو مصر ، أبعد من هذا ، أثبتت الأزمة أن الوفاق ليس «تواطؤا» بأى معنى ، ولا هو قيد على حرية الشعوب النامية والتحرير ، وأنه لا تعارض بين حركة التحرير الوطنية وبين الوفاق ، على العكس قد يكون الوفاق قييدا مفيدا وصحيا على سياسة التهديد والابتزاز الأمريكية وضابطا لاحتمالات تدخلها مباشرة ضد العرب ولصالح اسرائيل ، وأن مناخ التعايش السلمى هو الذى يخلق ظروفها أكثر ملاءمة لحل عادل للمشاكل الدولية المهمة .

تلك كانت ملحمة المواجهة الرهيبة والرهيفة ، وإذا كان السلام العالمى قد خرج من أزمة الوفاق سليما بالكاد ، وخرج الوفاق من أزمته أكثر واقعية وتحديدا وبلا أوهام ، وخرجت أزمة الشرق الأوسط من الوفاق بضمان لحلها حاسما ، فقد كان على العرب أن يستخرجوا النتائج الضرورية من التجربة برمتها، فما هو الدرس الأساسى الذى يعلو

فوق كل التفاصيل والدقائق ؟ لقد تمخضت المعركة عن تغييرات مهمة فى العلاقات بين كل من طرفى الصراع المحلى وبين كل من طرفى الوفاق ، نتيجة لما بدا من تحويلات أو تحفظات أو توترات فى مواقف أساسية ، وكذلك كرد فعل توازنى أو تعويضى للمتغيرات الدولية التى سبقت المعركة وتلتها .

فقبل المعركة كان الشرق الأوسط «مستقطبا بين إسرائيل والولايات المتحدة من ناحية، ومصر والاتحاد السوفييتى من ناحية أخرى» «السادات» وكانت أمريكا وإسرائيل قد نجحتا كذلك فى أن تصورا للعالم أن «كل من يقف مع إسرائيل فهو يقف مع الغرب ضد الخطر السوفييتى ، وكل من يقف مع العرب فهو يفتح الباب أمام هذا الخطر» «بهاء الدين» ولكن حرب أكتوبر انتهت هذا الوضع وهذا التصور وفرضت تغييرات ومتغيرات جديدة أثارت كثيرا من التآزم والحساسية فى علاقات بعض تلك الأطراف من القوى المحلية والقوى الأعظم ، كما أثارت أكثر منها من التساؤل واللفظ فى بعض الأوساط العربية بحيث تحتاج الى وقفة خاصة وتوضيح شامل .

فمن ناحية غيرت أمريكا موقفها من العداء المطلق للعرب والانحياز التام لإسرائيل الى قدر معقول من الحياد النسبى أو العملى ، على نحو ماسنرى فى دراستنا للموقف الأمريكى ، وبينما حدث هذا التقارب أو التفاهم النسبى مع أمريكا ، حدث على العكس بعض التوتر والتآزم والتباعد النسبى وسوء الفهم أو التفاهم مع الاتحاد السوفييتى . ولم يكن هذا لاحقا للمعركة فحسب بل سبقها بعدة سنوات ، ولكن فى كل الأحوال لم يكن غير مسألة السلاح محورا له وأساسا .

فقبل المعركة حجب الاتحاد عنا كما رأينا بعض أنواع الأسلحة خاصة الهجومية كما حدد من حجم الباقي ، وإذا كان قد عاد أثناء المعركة فأرسل السلاح بلا توان ، فلم يكن ذلك بغير حدود وشروط ، كما تقاضى ثمن بعضه مقدما «دفعت الجزائر للاتحاد ١٠٠ مليون دولار للبدء فى شحن الأسلحة» . كذلك عادت القيود والتحديدات على السلاح بعد المعركة .

وقد دعا هذا البعض الى التساؤل عما اذا كان الاتحاد صديق العرب التقليدى قد «خاض الحرب معنا كمجرد تاجر أسلحة ، ولولا المال العربى لتوقف هذا السلاح» وعما اذا كان «قد أراد لنا نوعا من النصر يكون دعاية للسلاح الروسى، ولكنه خذلنا قبل

النصر النهائي» كذلك جرى التساؤل عما قيل من أن المارشال جريتشكو صرح لأحد القادة العرب أنه «لو دخلتم تل أبيب لما عدتم بحاجة إلينا ولأخرجتمونا من المنطقة» من حديث الصحفية اللبنانية علياء الصلح إلى الرئيس السادات .

كذلك فلقد اعتبرت مصر أن مسألة الأسلحة أصبحت من أسف «أداة لممارسة سياسة النفوذ» للتأثير على تصرفات مصر والضغط عليها . وقد دعا هذا مصر إلى اتخاذ قرار بالكف عن ، والتحلل من ، الاعتماد الكلي على الاتحاد للحصول على جميع حاجاتها من الأسلحة وتنويع مصادر تسليحها .

وفي هذا السبيل اتجهت مصر إلى أسواق السلاح في أوروبا الغربية، كما أعلن رئيسها للنيويورك تايمز أنه «سيكون سعيدا للغاية إذا كانت الولايات المتحدة على استعداد لأن تبيع لنا السلاح» مضيفا في الوقت نفسه أنه «سيكون سعيدا أيضا إذا رغب الاتحاد السوفييتي في التفاوض من أجل مبيعات جديدة» .

وإذا كان من الثابت المعلن أن العرب بدأت بالفعل تحصل على سلاح أوربي ، فإن الأخبار التي وردت عن الحصول أو محاولة الحصول على سلاح أمريكي لم تزل في مرحلة التكهنات ، غير أن شلزينجر وزير الدفاع الأمريكي ألمح إلى أن احتمال بيع الأسلحة إلى مصر «سيبحث بعناية» وأن أمريكا ستنتظر «بتعاطف» إلى أي طلب من مصر لشراء أسلحة ، ولو أنه لم يجزم بأن أمريكا قد تلقت مثل هذا الطلب ، ومن جانبها ، فإن الأيماءات المصرية وإن لم تكن قاطعة ، لم تستبعد الاحتمال كلية .

ومن ناحية أخرى وكخطوة أبعد ، تبحث مصر منح الأساطيل الغربية ومنها الأسطول الأمريكي تسهيلات مماثلة للتسهيلات التي يحصل عليها الاسطول السوفييتي في موانئها ، على غرار ماتفعل يوجوسلافيا ، وذلك تحقيقا للتوازن الاستراتيجي في البحر المتوسط .

وإذا كان السلاح هو محور الخلاف بين مصر والاتحاد ، والسلاح أهم عنصر منفرد في مركب القوة والصراعات العسكرية، فإن هناك عناصر خلاف أخرى على ما يبدو ، وأن أتت كعوامل من الدرجة الثانية أو كنتائج مترتبة . فليس سرا أن توتر العلاقات قد تكرر حتى كان يزمن لعدة سنوات قبل المعركة ، كما كان واضحا أن سياسة تهجير اليهود السوفييت إلى إسرائيل والسماح بها كانت قد أصبحت ورقة ضغط خافت ولكنه غير

خاف ، وبعد المعركة اثار الاتحاد موضوع ماسماه ابتعاد أو انحراف مصر عن الاشتراكية ، «وأيضاً الانفتاح الاقتصادي قيل عنه ما قيل» غير أن هذا كله موضوع داخلي ، فضلاً عن أنه غير صحيح .

ولعل الأهم منه ومن الكل خشية الاتحاد من تزايد النفوذ والوجود الأمريكى فى المنطقة بعد أن تزايد التقارب أو الانفراج بينهما ، ومن ثم خشيته على وضعه فى المنطقة ومصالحه الاستراتيجية فيها وبورهم بها . وقد زاد هذا القلق بصفة خاصة بعد النشاط الدبلوماسى غير العادى لكسينجر ، الذى سرق كل الأضواء فى الشرق الأوسط ، والأمر بهذا جزء لا يتجزأ مباشرة من صراع القوى العظمى والقوتين الأعظم داخل الوفاق .. ولم ينكر حقيقته ولاحاول اخفاء خطورته أى من الاطراف المعنية .

فأما الاتحاد السوفييتى نفسه فلم يخف من جانبه استياء الكرملين ازاء التقارب المتزايد بين مصر وأمريكا ونظرتة القائمة تجاه الخطوات الجزئية الأمريكية ونشاط كيسنجر ، كما لم يخف خشيته من تضائل نفوذه فى المنطقة .. وقد نقلت وكالات الأنباء على لسان «دبلوماسى شيوعى كبير فى لندن» أن الاتحاد سيطلب من أمريكا «الحد من السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط» لأن غضب السوفييت من انحسار نفوذهم فى المنطقة قد تحول الى خوف على ماتبقى من مواقع أقدامهم ، وأن الكرملين مصمم على الاحتفاظ بمواقعه فى المنطقة ولو بثمن غال اذا اقتضى الأمر . وحذر المصدر من أن السوفييت جادون فى ذلك ، لأن المصالح الاستراتيجية الأساسية للاتحاد فى خطر ، وكذلك مراكز الشخصيات الرئيسية فى القيادة السوفيتية ، ثم أضاف المصدر نفسه أن اتفاق الفصل بين القوات فى سيناء وماترتب عليه من صداقة بين مصر وأمريكا قد أثار مخاوف السوفييت لما له من آثار مدمرة على مركزهم فى الشرق الأوسط .

وقد خلص المعلقون الغربيون من هذا الى أن المتشددى فى موسكو قد وجهوا انتقادات حادة لما يجرى فى الشرق الأوسط وبور أمريكا فيه ، ولكن الرغبة فى استمرار الوفاق حالت دون خروج السوفييت علناً ضد هذا القرار . غير أنهم أصبحوا الآن مصممين على العمل من أجل استعادة مراكزهم المفقودة . والمفهوم أن الاتحاد ، الذى كان يتوقع هذه الصعوبات مع مصر ، تحرك بسرعة لتقوية مركزه فى العالم العربى ، وذلك أساساً بالعمل الوثيق مع سوريا عن طريق تقديم شحنات أسلحة متطورة وسخية

إليها وحثها على اتخاذ موقف أكثر تشددا في حل مشكلة الشرق الأوسط وتمام الفصل بين القوات على الجبهة السورية على غير نمط الفصل على الجبهة المصرية ثم الاصرار على اشراك موسكو في كل خطوات الحل .

وأما الاعلام الأمريكى فقد تساعل ، كما فعل في حديث له مع الرئيس المصرى ، عما اذا كان نشاط الدبلوماسية الأمريكية في المنطقة قد أثار شعور السوفييت بالقلق .. فصرح الرئيس من جانبه بأنه في الواقع يعانى من ذلك منذ أول زيارة لكيسنجر حيث «أصيب علاقتى بالسوفييت بالتوتر الشديد بعد ذلك التاريخ» أو أصبحت «مشبودة بعض الشئ» ، فقد «تسبب نجاح كيسنجر في حساسيات كبيرة بالنسبة للسوفييت ، وأصبح كيسنجر يسبب لهم نوعا من الحساسية» .

أما الصحافة العالمية ، ربما إثارة ومبالغة ، أو ربما محاولة لتوسيع الفجوة أو لدق اسفين نهائى أو للصيد فى الماء العكر ، فقد اعتبرت الموقف المصرى «ضربة للاتحاد السوفييتى» «التايمز» «وانهاء للعلاقة الخاصة بين مصر والاتحاد السوفييتى» «الهيرالد تريبيون» بينما اعتبرتة الايمانيتيه «نقطة تحول ومرحلة جديدة من التدهور البطيء فى العلاقات الذى بدا ملموسا غداة حرب أكتوبر ، وآخر سلسلة الأزمات التى كانت دائما تصل الى ما قبل حافة الانهيار الكامل مباشرة» .

هكذا نرى أنه اذا كانت قد نشأت لاسف فجوة أو جفوة بين الاتحاد ومصر ، فالواضح أيضا أن هناك من له مصلحة فى نشوئها ومن يسعى الى تحويل الفجوة الى هوة والجفوة الى قطيعة وأكثر من هذا وأخطر ، حاول البعض أن يصور الموقف على أنه تغير استراتيجى وانقلاب أساسى فى التوجيه الخارجى لمصر ، بل وصلوا الى حد الزعم بأنه تبادل كامل فى المواقف والمواقع فيما بين مصر والقطين ، بمعنى أن مصر انتقلت من صداقتها السابقة للاتحاد السوفييتى الى صداقة الولايات المتحدة ، فأصبح الصديق القديم عدوا والعدو القديم صديقا «كذا!»

وفى تأويل آخر أنه على الأقل تبادل جزئى فى المواقف والمواقع فيما بين مصر واسرائيل من ناحية والاتحاد والولايات من الناحية الأخرى ، بمعنى أنه اذا كانت علاقات مصر بالاتحاد قد شابها التوتر والتحفظ بدرجة أو بأخرى وتقاربت مع الولايات بدرجة أو بأخرى ، فقد شاب العلاقات الإسرائيلية - الأمريكية هى الأخرى قدر من الحذر والتحفظ بينما قد تأخذ العلاقات السوفييتية - الإسرائيلية فى الانفراج بقدر ما بالمقابل .

غير أن هذا برمته ليس صحيحا على الاطلاق .. وكانت مصر حريصة جدا على أن توضح ذلك وأن تحاصر الخلاف مع الاتحاد وتحصره وألا تخرج به أو تسمح لأحد أن يخرج به عن حجمه الحقيقي أو يسيء تصويره وتفسيره . ولهذا بادرت فى سلسلة من التصريحات والخطب على لسان رئيسها الى تصحيح الصورة وتحديد الموقف بدقة وحزم . وبالاستعانة بالاقتباسات الدالة من هذه الخطب يمكننا أن نلخص حقيقة الموقف فى النقاط الآتية :

فأولا : ليست الخلافات مع الاتحاد بجديدة ، فهى تسبق ٦ أكتوبر ، بل وتسبق ٥ يونيو ، فقد حدثت علنا فى ١٩٥٩ . وهى اذا كانت قد تجددت أثناء وبعد أكتوبر ، فلقد كانت مصر حريصة كل الحرص على ضبط النفس وعدم الاستجابة لأى استفزازات . أنها لاتريد أن توسع الفجوة، وتعمل جادة على رآب الصدع .

وثانيا : فان مصر التى أعلنت مرارا صداقتها مع الاتحاد السوفييتى ليست صداقة مرحلية بل هى استراتيجية وأساسية ، لاتزال حريصة على هذه الصداقة «إننا لا نريد أبدا أن نفرط فى صداقة الاتحاد السوفييتى ولا أن ننقص من رصيده لدينا ، ونحن قد نختلف من وجهة نظرنا لا لحساب أحد» .

ثالثا : إن بوصلة السياسة المصرية هى مصلحة مصر أولا وأخيرا ، فهى الثابت الأساسى بين كل المتغيرات «ومن مصلحة مصر ألا يكون لها أى صراع مع قوة كبرى أو أى قوى أخرى ، إلا اذا بادرتنا هذه القوى بالعداء أو بالصراع .. ولا مصلحة لنا فى أن نعادى أحدا .. علاقاتنا لابد أن تكون طيبة مع الكل لصالح مصر» .

رابعا : وعلى هذا الأساس ، وفى ضوء المتغيرات الدولية المعاصرة ، فان «الموقف هو أننا نمر الآن بنقطة تحول فى هذه المنطقة» فنحن «فعلا فى مرحلة اعادة تشكيل علاقاتنا على أساس مبادئنا وهى الحياد الايجابى الواضح الكامل بين المعسكرين فى هذا العالم .. ونحن نريد اتباع سياسة عدم انحياز متوازنة» واذا كان هذا هو المفهوم الصحيح لعدم الانحياز منذ كان ، فإنه الآن أصبح مايكون فى عصر الوفاق الدولى .

خامسا : «نحن لانريد صداقة أحدا على حساب أحد . بصراحة نحن لانصادق أمريكا على حساب الاتحاد السوفييتى ، ولن نصادق الاتحاد السوفييتى على حساب أمريكا .. وتحسن العلاقات مع واشنطن لا يستوجب أن يسفر عن توتر مع موسكو» .

وقد فصل الرئيس هذا التعميم فى حديث له الى محطة التليفزيون الأمريكى قائلا «إننى اعتمد على القوتين الأعظم وأنا أحاول تحقيق التوازن فى علاقاتى معهما .. وقبل ذلك كانت لنا علاقات غير متوازنة ، فكانت علاقاتنا معهم أكثر ودا ، وكان هناك نوع من المواجهة بيننا وبينكم ، أما الآن حينما أحاول تحقيق التوازن فى علاقاتنا يصاب السوفييت بالتوتر والحساسية ، هذا هو التفسير الحقيقى للموضوع برمتى ، وأنا لا أغير موقفى ، فأننا لا أعتمد مثلاً على السوفييت يوماً ثم انتقل الى الاعتماد على الأمريكين فى اليوم التالى. ليس الأمر كذلك اطلاقاً .. ولكننى أحاول أن أحقق التوازن فى علاقاتى» .

نحو علاقات أفضل

تلك إذن هى قصة متغيرات الوفاق الذى أبرزتها معركة أكتوبر، ومعها قصة العلاقات المتغيرة بين مصر وطرفى الوفاق ، ولنا الآن أن نتساءل : مامغزاها ، مامداها ، والى أين ؟ لنقرر أولاً ، اذا لم نكن ندرك جيداً ، أن علاقات الصداقة بين الدول هى فى جوهرها علاقات مصالح ، وبالتالي علاقات قوة تحت السطح ، ومن ثم وفى التحليل الأخير صراع قوة ، الا أنه صراع حميد . صداقة الدول ، باختصار ، ضغوط حميدة متبادلة ، وبغير هذا المفهوم فان الصداقة بين الدول ، لاسيما اذا كانت بين طرفين غير متكافئين كما بين الدول العظمى والصغيرة ، يمكن أن تحمل أو تتردى فى شبهة التبعية ومناطق النفوذ ، ومصر قد كافحت بمرارة وبطولة ضد الاستعمار والامبريالية لتخرج من مناطق النفوذ ، وهى منطقياً ليست على استعداد لأن تستبدل نفوذاً بآخر .

واذا كانت علاقاتها بأصدقائها الكبار ، الاتحاد السوفييتى ، قد تعرضت لبعض التآزم والتوتر من أجل تصفية العدوان الإسرائيلى قبل وبعد أكتوبر ، وفى ظل الوفاق وبسببه ، فإنها بعد النصر أقدر على «تقنين» علاقاتها معهم . وليس هناك شك فى أن موقفنا الصلب فى أزمتنا الأخيرة مع الاتحاد ، تلك التى لم نكن نريدها أو نسعى اليها ، هى تعبير عن بروز القوة العربية وعلى رأسها القوة المصرية بعد أكتوبر، ودليل على أنها قد دخلت دائرة القوة ولعبة الكبار وأصبحت طرفاً موجبا فيها بعد أن كانت طرفاً سالبا ، وبعد أن كانت مهددة بحصار الوفاق اذا بها تحتويه وتحيده وتوازنه. والأزمة التى نشأت مع الاتحاد السوفييتى هى رمز للضغوط الايجابية التى استطاعت مصر القوية أن تفرضها عليه .

ورغم كل الصعوبات والمتاعب التي ترتبت على هذا الأزمة ، ففي يقيننا أنها تطور صحي ومفيد ، كان لابد منه لمصلحة الطرفين ، وستخرج منها صداقتهما وهي أوضح أساسا وأكثر صحة كما هي أكثر واقعية وكرامة فمن الأكرم للاتحاد أن تكون علاقاته وصداقته مع مصر قوية عزيزة محررة لضعيفة محتلة ومع مصر منفتحة على العالم الواسع المتغير لا منغلقة في دائرة ضيقة مغلولة يدها .. وإذا كان على مصر أن تحرص كل الحرص على صداقة الاتحاد ، ليس فقط تقديرا للماضي ولكن كذلك تأهبا للمستقبل ، فإن على الاتحاد أيضا أن يدرك أنه لم يعد في الامكان أن تظل علاقات الصداقة بين الكبار والصغار تابعة لعلاقات الكبار والكبار وخاضعة للعبة توازن القوى بينهم . والصداقة الخالصة المخلصة لا تحتمل تحفظات ولا شبهات أو شكوكا ، كما أنها لا يمكن أن تكون في اتجاه واحد أو من طرف واحد ، وإنما هي في الاتجاهين ومن الطرفين تجيء .

وأخيرا فإن هناك مؤشرات على أن هذه السياسة المصرية الصلبة سوف تنجح وأنها على وشك أن تعطي ثمارها ، فخشية أن يفقد الاتحاد هذه الصداقة المؤثرة ، أبدى مؤخرا دلائل على التفهم والرغبة في التقارب وهناك حديث عن اتصالات لعقد مؤتمر قمة يبدأ صفحة جديدة مشرقة .

وبالنسبة للمستقبل ، يجدر بالعرب ، من ناحية ، أن يعيدوا توطيد علاقاتهم مع أصدقائنا الكبار السوفييت على أسس جديدة وثيقة ، وألا يسمحوا لأحد مطلقا أن يدق بيننا وبينهم اسفيننا لابعادنا عنهم . ليس ذلك فقط لأن الاتحاد هو المصدر الأساسي لتسليحنا المتطور ، ولكن أيضا للمساعدة في إقامة صناعة سلاح متطورة متقدمة على الأرض العربية ، وكذلك لأغراض التنمية والتطوير الحضارى الضرورية .

ومن ناحية أخرى ، علينا أن ننتفح على أوسع جبهة ممكنة من الاصدقاء في العالم ، لضمان مورد تكميلي وإضافي للسلاح المتطور والتكنولوجيا الحضارية والصناعية الحديثة، وكذلك لكسب أكبر قطاع من التأييد السياسى .

وهذا يعنى فى المقام الأول نول غرب أوربا ، وهو ماينقلنا أيضا الى موضوع أوربا الغربية والمعركة .

أوربا الغربية والمعركة

لم تنفصل أوربا الغربية قط عن صراع الشرق الأوسط منذ بدا ، ولكن طبيعة تلك العلاقة تغيرت مرتين على الأقل ، مرة تغيرا جذريا بعد نهاية العصر الأمبريالى وتصفية الامبراطورية الأوربية فى العالم العربى، ومرة تغيرا تدريجيا ولكنه مطرد منذ حرب يونيو .. فى المرحلة الأولى كان انحياز أوربا الغربية لإسرائيل بديهية دبلوماسية ، فهى التى خلقتها أصلا تاريخيا وسياسيا بل ومنها استمدت هذه جسمها البشرى نفسه .. وفى المرحلة الثانية كانت قد زالت أسباب العداء الأوربى العربى التقليدي المتحكم بتصفية الاستعمار وخروجه من المنطقة، ولكن كانت أوربا بعيدة عن الحياد لم تزل فى الصراع العربى - الإسرائيلى - وقد انعكس هذا بصورة صارخة وأليمة فى موقف أوربا الحكومات والشعوب من حرب يونيو .

بين أوربا والعرب

ولكن بعد يونيو نتيجة للجهود العربية السياسية الصبورة والدعوب ، ونتيجة أيضا للمتغيرات النولية الشاملة ، بدأ البندول يتذبذب تدريجيا نحو قدر أو نوع من الحياد ، المتحفظ أحيانا أو الجزئى أحيانا .. وأصبحت أوربا الغربية ميدانا لمعركة سياسية حادة بين قوى الشد والجذب المضادة العربية والإسرائيلية . وقبل أكتوبر كان العرب قد نجحوا فى جذب فرنسا خاصة ثم بريطانيا الى حد أقل نحو موقف أكثر ملاءمة وتوازنا من قضية مطالبة اسرائيل بالانسحاب من الأراضى المحتلة وتنفيذ قرار ٢٤٢ كما اتسع نطاق هذا الموقف تدريجيا ليشمل دول السوق الأوربية المشتركة ، ولو بدرجات متفاوتة .

وعموما فلقد تمت عزلة إسرائيل عن أوربا الغربية بدرجة دعنتها كثيرا الى مهاجمة دولها وأحيانا الى اعتبارها «معادية» ورمتها أحيانا أخرى «بعداء السامية» وأحيانا كذلك «بالجبن والخيانة .. الخ» وكانت فرنسا ، التى رادت الاتجاه الجديد وقادته منذ ديجول ، هى مصب غضب وتهجم اسرائيل الأكبر، ويعبارة موجزة ، يمكن أن نلخص الموقف المتغير فى أنه بينما كانت أمريكا فى علاقاتها العربية قد تحولت بوضوح من نمط الاستعمار الجديد الى جوهر الاستعمار القديم ، كانت أوربا الغربية قد انتقلت من الاستعمار القديم الى الاستعمار الجديد .

وتتخلص استراتيجية المواقف الإزائية بين أوروبا الغربية وكل من العرب واسرائيل فى مجموعة من قوى الشد والجذب المتبادلة والمتعارضة وفى سلسلة من الضغوط والاختبارات المتضادة التى من محصلة التفاعل والتوازن بينها خرجت النتيجة النهائية كما برزت فى معركة أكتوبر ، وأقطاب هذه القوى التى تقع موزعة بينها أوروبا الغربية أربعة هى : أمريكا ، الوفاق ، العرب ، اسرائيل .

فمن ناحية كانت أوروبا الغربية مرتبطة تقليديا «بعلاقة خاصة» مع أمريكا فى حلف الاطلنطى ووحدة الغرب فى وجه «الخطر الشيوعى» . ومن ناحية أخرى كانت مرتبطة تقليديا «بعلاقة خاصة» أخرى مع اسرائيل نتيجة لتاريخ قديم معقد «وعقدة ذنب» حقيقية أو متوهمة . وعلى النقيض من هذه الارتباطات برز اتجاهان اوروبيان حاسمان ، الاتجاه الأول سياسة أوروبا الغربية المستقلة وسعيها نحو الوحدة الأوربية لتكون قوة عظمى فى وجه أخطار الحرب الباردة فى ظل الاستقطاب الثنائى سابقا ثم أخطار الوفاق الثنائى فى ظل تعدد المراكز أخيرا . لقد فرضت المتغيرات الدولية الجديدة على أوروبا الغربية أن تبحث عن نفسها وعن شخصيتها المستقلة ، وأن تبحث لنفسها عن مكان جديد فى العالم تتخلص به من التبعية والوصاية الأمريكية الضاغطة التى تشل إرادتها ، كما تتخلص به من احتمالات الصدام أو التقارب بين القطبين النوويين العملاقين .

الاتجاه الثانى هو رغبة أوروبا الغربية فى تأمين وتعميق مصالحها الحيوية المتعاضمة مع العالم العربى : اقتصادياً وبتروليا واستراتيجيا . ففوائض رؤس الأموال العربية والتجارة العربية الواسعة الامكانيات والنفوذ فى سوق المال الغربية وحضارتها أكثر من أى سلعة أخرى وأكثر من أى منطقة أخرى فى العالم تقريبا ، فضلا عن ارتباط الأمن الأوروبى ارتباطا حتميا بالسلام فى الشرق الأوسط ، حيث لا سلام لأوروبا بغير سلام البحر المتوسط ، ولا سلام فى البحر المتوسط بغير سلام الشرق الأوسط ، كل هذا وغيره جعل أوروبا الغربية تتفتح على مصالحها الحقيقية وأين تكمن . فلم تعد تجد لها مصلحة فى معاداة العالم العربى لحساب اسرائيل ، ولا أن تتورط فى صراع يهددها بأخطار نووية .

عند هذا الحد حدث بالتدريج لقاء مصالح منطقى وحتمى بين أوروبا الغربية والعالم العربى . وهو لقاء مزيج فى الواقع من جانب كلا الطرفين : خروج كل منهما من مأزق

الاستقطاب الثنائي ثم الوفاق الأعظم من بعده ، وبناء كل منهما لقوته المادية والاقتصادية الذاتية . والواقع أن هذا اللقاء هو منطق الطبيعة وطبيعة الأشياء . فليس أقرب الى أوروبا من العالم العربى جغرافيا وتاريخيا ، بل وحضاريا وبشريا ، فضلا عن التكامل الاقتصادى .

وقد انعكست آثار هذا النمط الجديد من التوازن على معركة أكتوبر بصورة مباشرة وبالغة الدلالة . فقد كان موقف دول أوروبا الغربية موقفا «بتروليا» أساسا فاتخذت موقف الحياد من المعركة فى الشرق الأوسط فى وجه الضغوط الأمريكية والهيستيرية الصهيونية المألوفة . أو كما عبر كاتب فرنسى «ان الشخص العادى فى العواصم الأوروبية ، بعد أن تبنى النسخة الاسرائيلية عن حقيقة مايجرى فى الشرق الأوسط طوال ست سنوات ، بدأ يتململ ويطالب بالاطلاع على نسخة مختلفة . وواضح أنه لا توجد فى الميدان الا نسخة بديلة واحدة ، هى تلك التى كشفت عنها حرب أكتوبر بصورة حاسمة» . وكانت الايمانيتيه أقطع حين كتبت تقول « المشكلة هى أن اسرائيل تحتل وتتوسع ، وعلى أوروبا أن تغطى نفقات هذا الاحتلال والتوسع . بعبارة أخرى ، إنه لكى تزدهر اسرائيل ينبغى على أوروبا أن تعود الى عصر الشموع والدراجات» . لقد تغيرت بوصلة أوروبا .

فرنسا ،مثلا أعلنت على لسان وزير خارجيتها أن «هناك حاجة الى أن نقرر أولا ما اذا كان العائد الى بيته الذى طرد منه معتديا . اننا لا يمكننا أن نلوم أناسا يريدون استرجاع أراضيهـم ، أو نحاول اتهامهم بالعدوان» . هذا بينما قال زعيم أحد أحزابها «يجب ألا ينسى أحد للحظة أن المصريين يحاربون فوق تراب مصرى ، وأن السوريين يحاربون فوق تراب سورى» .

أما بريطانيا فقد أعادت تأكيد اعلان هاروجيت الذى صرح به وزير خارجيتها فى ١٩٧٠ وجاء فيه بالنص : «يجب أن تنسحب اسرائيل من الأراضى المصرية والأردنية الى الخطوط التى كانت عليها قبل ٥ يونيو ١٩٦٧ ، وأن تتخلى عن احتلال هضبة الجولان فى سوريا» . وبذلك صححت تفسير قرار ٢٤٢ ، كما أعلنت حظر تصدير السلاح الى الشرق الأوسط . كذلك أعلن وزير خارجيتها أكثر من مرة أن «المناطق العازلة لا يمكنها أن تعطى اسرائيل أمنا دائما» ، و«أننا فى مباحثات السلام ، يجب ألا نهمل أمن العرب

أيضا» وأخيرا أنه «لايقوم سلام فى الشرق الأوسط على أساس استمرار احتلال القوات الاسرائيلية للأراضى العربية» .

ورغم تناقضات والتفاقات معينة بل وانحرافات ناشزة فى مواقف بعض دول غرب أوروبا تجعل حيادها غير مخلص وربما مشكوكا فيه ، ورغم أن الحياد السليم نفسه ليس عدلا حين يكون بين المعتدى والمعتدى عليه ، فقد كانت أوروبا الغربية الرسمية على العموم بعيدة عن روح العداء للعرب أو الانحياز لاسرائيل . ولأول مرة منذ ربع قرن أصبحت أوروبا تتحدث عن «أمن العرب» جنبا الى جنب مع «أمن اسرائيل» . أو كما يلخص كل من ميشيل جالليه وكريستوفر ميهيو على حدة ولكن فى اتفاق واضح ، لقد غيرت حرب أكتوبر موقف الدول الغربية وأوروبا الغربية من القضية العربية وأصبح هناك ميل أكثر الى تفهمها .

ومما يستحق التسجيل هنا أن حكومة العمال الجديدة فى بريطانيا - ولحزب العمال علاقات وميول صهيونية جامحة وتعهدات وثيقة ، وكثيرا ما أعلن زعماءه بتحد سافر انحيازهم المطلق لاسرائيل برغم أنها «زميلة فى الاشتراكية» - هذه الحكومة سارعت فور وصولها الى الحكم فأكدت للدول العربية استمرار السياسة البريطانية السابقة والحياد تجاه الأزمة وعدم الانحياز الى اسرائيل . وذلك لاشك تحت ضغوط سلاح البترول المسلط حظره على عنقها .. بل لقد أعلنت حكومة العمال أن العلاقات مع العرب تعد أحد محاور رئيسية ثلاثة فى سياستها الخارجية - المحوران الآخران هما الصداقة مع الولايات المتحدة والتفاهم مع أوروبا . كذلك صرح جيمس كالاهاى وزير خارجيتها أن بريطانيا ترى أنه لن تكون هناك تسوية نهائية لأزمة الشرق الأوسط «إلا إذا نصت هذه التسوية على ايجاد شخصية للشعب الفلسطينى» ، كما أعلن أنها ترحب بالحوار بين دول السوق الأوروبية والعرب حول مستقبل العلاقات الاقتصادية والتجارية بينهما .

غير أنه ليكون من تبسيط الأمور المخل أن نصور أو نتصور الموقف الأوروبى حتى فى أحسن حالاته واحتمالاته ، مواتيا أو ملائما تماما وبلا تحفظات للقضية العربية . فعدا «الأغلبية الصامتة» التى لعلها أقرب الى اللامبالاة ، كانت هناك النواة الصلبة أو «الأقلية الصاخبة» من أصدقاء العدو فى كل الدول الأوروبية وعلى جميع مستوياتها . وقليل من الاقتباسات الموجزة من الصحافة الأوروبية اثناء المعركة يكفى لالقاء بعض الضوء عليها

«فى تاريخ أوربا» كتبت الأوبزيرفاتير : «سيكون أكتوبر ١٩٧٣ بداية تاريخ الانهيار الكبير فى حضارة العرب» أما الأكسبريس فقالت «تحقق الأوربيون الآن أنهم سيعلقون لسنوات عديدة الى الولايات المتحدة من الناحية العسكرية ، والى العرب من ناحية الطاقة» . هذا بينما أغلقت الفيجارو المثلث بقولها «أصبحنا (الأوربيون) مستعمرين لثلاثة أطراف : العرب ، السوفييت ، أمريكا» !

وفىما بين موقف الأغلبية والأقلية ، أثبتت دوائر الحكومات أنها عرضة ، بعد التحفظ والحذر ، للتذبذب والتلاعب الى حد أو آخر ، وهى على أية حال مرهونة بتغير الأحزاب الحاكمة . ومن هذه الزاوية نلاحظ أنه قد حدثت عدة تغييرات شبه متعاصرة فى الحكومات والأحزاب الحاكمة فى عدد من الدول الأوربية بعد أكتوبر كأنها على ميعاد : مجيء حزب العمال فى بريطانيا ، استقالة برانت فى ألمانيا الغربية ، مجيء ديستان فى فرنسا .. إلخ . ورغم أنه من المحقق أن المواقف الأساسية لأوربا الغربية لم ولن تتغير فى المدى القريب عما كانت عليه أثناء أكتوبر ، فلا ينبغى أن نغفل أن هناك احتمالات ببعض التحفظ ومحاولات للإمساك بالعصا من الوسط .. إلخ ، وعلى أية حال ، فعلى العرب ألا يكفوا عن الحوار والاقناع والضغط على أوربا الغربية ، حفاظا على موقفهم ان لم يكن تطويرا له .

بين أوربا وأمريكا

هذا من ناحية أوربا ، والعرب . أما مع أمريكا فقد اتسعت الفجوة الناشئة بين أوربا الغربية والولايات المتحدة ووصلت الى حد الشرخ العميق حين رفضت الأولى أن تكون معبرا للسلاح الأمريكى الى اسرائيل أثناء المعركة مما عرض حيادها للخطر . ثم وصل الشرخ الى حد الصدع حين أعلنت أمريكا حالة التأهب النووى فى قواعدها الأوربية دون موافقة أو حتى علم الدول الأوربية ، مما عرضها هى نفسها لخطر الصدام النووى . وفى هذه الأزمة تبادلت أوربا وأمريكا الاتهامات المباشرة والقاسية . أوربا تحدثت عن «التأهب الزائف» و«الاجراءات المسرحية الخطرة» وعن تجاهل أمريكا لها تماما فى التأهب النووى «الى حد مهين» .

فرانس سوار ، مثلا كتبت عن قرار التأهب النووى الذى «بدا متطرفا ، أشبه بعملية تهويش يقوم بها لاعب قمار» . والصحف البريطانية كذلك هاجمت أمريكا قائلة إنها

عاملت بريطانيا «معاملة مهينة وكأن بريطانيا جمهورية للموز» (أى جمهورية تابعة لأمريكا) ، وردت سبب الخلاف الى عاملين : اهمال أمريكا التشاور مع لندن حول التأهب ، ثم الانتقادات العلنية من نيكسون وادارته للحلفاء .

وعموما فقد اتهمت الصحافة الأوربية بالاجماع الحكومة الأمريكية بأنها «أهملت اهمالا مشينا التشاور مع حلفائها قبل اعلان حالة التأهب بين قواتها داخل البلاد وفى قواعدها بالخارج» . وانتقد البعض قرار نيكسون بأنه «اجراء لم يكن له ما يبرره ، وتجاوز فيه حدود ما كانت تقضى به الظروف أثناء الحرب بين العرب واسرائيل» . وقد لخص معلق أوربى الموقف كله فى أن «الولايات المتحدة ، فيما يبدو ، لاتستشير أوربا فى أوجه تعاونها مع الاتحاد السوفييتى ، وهى لاتستشيرها الآن فى تحركات مجابهتها أيضا . إن هناك شعورا متزايدا بأن الأمريكيين لن يتشاوروا - معنا حول أى شىء يفعلونه ».

ولم يكن الساسة الأوربيون أقل انتقادا أو صراحة وعنفا من الصحافة . ان الحرب - قال ميشيل جوبير وزير خارجية فرنسا - أكدت شكوك فرنسا عن سياسات الوفاق الأمريكية السوفييتية ، ولقد «أهانت» الدولتان الأعظم أوربا بتجاهلهما لها فى محاولتهما لأنها القتال .. وهما «تتجاوزان حدودهما» فى سياسة توازن القوة والوفاق . أما هارولد ويلسون - فى المعارضة وقتئذ - فقد اعتبر التأهب بلا تشاور « اهانة تدعو الى أقصى درجات الغضب» .

أما الأمريكيون ، من جانبهم ، فقد ردوا بحدة كبيرة ومرارة أكبر ، فعلقوا على العلاقات «الهشة» التى كشفت عنها الحرب بين الأمريكيين والأوربيين «أصدقاء الرخاء» . وقالوا كذلك ان المسئولين الأوربيين يسعون الى أن يتصلوا من السياسة الأمريكية المؤيدة لاسرائيل وأن «يطلقوا أنفسهم» عنها حفاظا على مصالحهم فى استمرار تدفق البترول . وفيما بعد وصفت الحكومة الأمريكية بيان السوق الأوربية المشتركة ازاء الأزمة والذى حدد موقفها بالحياد بأنه «ينم عن الجبن والتهيب» . هذا بينما شاع عن كيسنجر قوله المقتضب للمحيطين به أنه «مشمئز» من موقف الحلفاء الأوربيين ..

ومما لاشك فيه أن الخلاف تحول الى أزمة حقيقية حادة بين الأمريكيين والأوربيين . وفيما بين الاثنين ، كتب البعض أن العلاقات بين أمريكا وأوربا الغربية «لم تكن قط

أسوأ مما هي عليه الآن منذ حرب السويس قبل ١٧ عاما مضت . وقد بدا .. أن أدوار عام ١٩٥٦ قد قلبت رأسا على عقب . فالولايات المتحدة تبدي نفس الازدراء الغاضب تجاه حلفائها في حلف الأطلسي بسبب افتقارهم المزعوم الى التأييد فيما يتعلق بالشرق الأوسط على نحو ما أبداه كل من أنتوني ايدن وجي موليه تجاه الرئيس ايزنهاور أثناء حرب السويس» (روبرت ستيفنز) . مصدر آخر قال انها «أعمق خلافات خلال ٢٤ عاما من تاريخ حلف الأطلسي» ، بينما صك بعضهم التعبير الساخر «المحيط المتجمد الأطلسي» كناية عن صقيع البرودة الشديدة التي رانت على شاطئ المحيط ، في حين قال دبلوماسي غربي «الآن بدأت الحرب الباردة بين أوروبا الغربية وأمريكا»!

وقد حاول الجانبان فيما بعد تهدئة حدة الموقف بالتدريج وان يدفعنا الشجار بطريقة دبلوماسية . فاعتبره البعض نوعا من «النزاع العائلي» داخل الأسرة الواحدة ، وقيل ان امريكا عبرت عن شعورها بالندم في النهاية على عنف وخشونة لهجتها أثناء المساجلة . وقد أمكن بالفعل تجاوز الأزمة ، غير ان جذورها ظلت بلا شك هناك وبقي في النفوس كثير من المرارة وتحت الرماد بعض النار في انتظار أول مناسبة جديدة لتندلع من جديد . وقد كانت أزمة الطاقة ومعركة البترول هي تلك المناسبة . فما أن هدأت أزمة التآهب النووي بالكاد ، حتى تفجرت أزمة البترول ، وفيها بدا التناقض بين أوروبا الغربية وأمريكا أعماق وأخطر لأنه تناقض مصالح حيوية ومصيرية مباشرة . وبهذا أصبح التناقض في الواقع مزبوجا : الوفاق والبترول . وبهذا أيضا كشف الخلاف بين القارتين عن طبيعته الحقيقية ، وهي أنه صراع قوة من أجل النفوذ وتصادم مصالح رأسمالية من أجل البقاء .

وقد عبر نيكولاس كارول عن هذا بأن الوفاق بين الولايات والاتحاد أنهى دور أوروبا «كوسيط» بين الطرفين ، وقضى بذلك على مطامح فرنسا القديمة بالذات في أن تكون جسرا للتفاهم بين الشرق والغرب . بينما أضاف وليم سافير أن خوف أوروبا من الاتحاد السوفييتي دفعها في الأصل الى الولايات المتحدة ، ولكن خوفها الآن من فقد البترول أخذ يدفعها بعيدا عنها . وبهذا وذاك لم يعد حلف الأطلسي بعد أكتوبر كما كان قبله ، وتحول «عام أوروبا» الاحتفالي الذي كان يخطط له نيكسون الى «عام الشرق الأوسط» المتأزم ، ومشروع «ميثاق الأطلسي الجديد» المتلاحم الذي كان يرسمه كيسنجر الى مشروع «شخصية أوربية جديدة» أكثر استقلالا وتباعدا .

وواقع الأمر أن أوروبا الغربية اذا كانت قد اخذت تخشى من ان تفقد دور الوساطة السياسية فى الوفاق بين العملاقين الذى يختزل بذلك وظيفتها ، فقد بدأت أمريكا كذلك تتوجس من أن تفقد من جانبها دور الوساطة الاقتصادية فى البترول بين أوروبا والعرب وأن تحتل أوروبا مكانها فى بترول العرب ، وياتى تعارض بكل قوة نمو العلاقات البترولية المباشرة بين حلفائها الأوربيين والعرب وتعمل بكل وسيلة للحيلولة بون أوروبا الغربية والعرب . لقد بدأت الحرب الاقتصادية بعد السياسية . وهكذا رفضت أوروبا الغربية الانصياع لدعوة أمريكا الى مواجهة بترولية مع العرب ، ورسمت على العكس سياسة للتقارب المباشر معهم.

وحين قرر مجلس السوق الأوربية المشتركة عقد مؤتمر عربى - أوروبى للتعاون فى شئون الطاقة والتكنولوجيا ، كشف رد فعل أمريكا عن عمق الصدع وخطورة الصراع . فقيام تعاون مباشر بين السوق الأوربية والعرب - هكذا أعلنت المصادر الحكومية الأمريكية - «قد يؤدى الى مواجهة فى الشرق الأوسط بين أمريكا وحلفائها الأوربيين» . ويعد أن أعربت هذه المصادر عن أسفها لأن الأوربيين لم يستشيروا أمريكا قبل القرار ، الذى رأوا فيه رغبة من جانب فرنسا فى تنظيم الوحدة الأوربية ان لم يكن ضد أمريكا فعلى الأقل بعيدا عن السياسة الأمريكية ، قالت انها «تحتفظ بحق العمل كما يفعل الأوربيون» . ثم أضافوا «إننا لا نريد مواجهة مع أوروبا . لكن اذا لزم الأمر فلن يتمكن الأوربيون من منافستنا فى الشرق الأوسط ، واذا حاربناهم فستكون الغلبة لنا» .

وعلى الفور رد بيير ميسمير رئيس وزراء فرنسا بأنه «لا يمكن حل مشكلات الطاقة الا بالتعاون مع كل دول الشرق الأوسط وليس بالمواجهة بين الكتل المتصارعة واهتمام فرنسا بالعالم العربى لا يرجع تاريخه الى حرب أكتوبر أو أزمة البترول ، ولكنه اهتمام اتخذ طابع الاستمرار قبل ذلك بكثير . وفرنسا على استعداد لمعاونة الدول العربية المنتجة للبترول على استغلال امكانياتها المالية لتحقيق أهداف التنمية بها» .

ذلك كان آخر ما انتهى اليه التراشق عبر الأطلنطى ، ومن الواضح تماما أن الصراع قد وصل الى نقطة أخطر بكثير مما كان يتوقع الكثيرون . وقد عبر كيسنجر أخيرا عن هذه الحقيقة بصراحة تامة فقال ان «أصدقاء أمريكا الأوربيين يشكلون لها مشكلة فى

السياسة الخارجية أكثر من أعدائها . كذلك عاد فاكس أن «الخلافت القائمة بين أمريكا وأوروبا حقيقية وخطيرة» ، وسوف تحتاج الى وقت وصبر لحلها . كذلك أعلن نيكسون نفسه أن أوروبا لا يمكن أن تجمع بين عداوتها البادية لأمريكا وبين الاعتماد عليها في مسائل الأمن والاستراتيجية ، أو كما وصفها «أن أوروبا لا تستطيع أن تتبع سياسة تعاون مع أمريكا في الأمن ، وسياسة مواجهة ضدها في الاقتصاد .. ولا يمكن استمرار العلاقات الأوروبية الأمريكية على أساس التعاون العسكري والمواجهة الاقتصادية» .

وعلى الفور بادر ميسمير فرد قائلا «على أوروبا أن تتطور مستقلة عن شركائها» ، بينما كان جوبير أشد حسماً «على أوروبا أن تستعد للاستغناء عن مظلة أمريكا الذرية إذا كانت هذه تتعارض مع كرامتها» . وعن تلويح أمريكا بسحب قواتها ومظلتها الذرية من أوروبا ، كتبت الموند بلا مواربة «هذا ابتزاز» . والواقع أن صراع القوة كامن في كل هذه المواقف ، أمريكا تريد أن توطد زعامتها وسيطرتها على أوروبا «الآبقة» ، وأوروبا تريد أن تسترد سيادتها واستقلالها عن «التبعية» الأمريكية . قال بومبيدو «أن أوروبا يسيطر عليها الأمريكيون ليست أوروبا على الإطلاق» ، بينما رفض رئيس وزرائه ميسمير صراحة محاولات أمريكا زعامة العالم الغربي مطالباً بأن تكون أوروبا الغربية على قدم المساواة مع أمريكا .

وهنا عاد نيكسون فقال ان الأوروبيين اتخذوا موقفا معاديا للولايات المتحدة في بعض المسائل . ولكن سحب القوات الأمريكية من أوروبا كاجراء انتقامي أمر ينطوي على تهديد للسلام ، ويبدو الآن أن تكتيك الولايات المتحدة هو دق اسفين بين فرنسا وزميلاتها الأوروبيات لعزلها وتصفية زعامتها المتحدية ، وقيل في هذا ان من المؤكد ان الدول الأوروبية اذا ما خيرت بين أمريكا وفرنسا فستختار الأولى بلا تردد ، وهو ما أشار اليه جوبير بكلمة «الخيانة» .. ومن الناحية الأخرى فالمعتقد ان هذه الخلافت ستسوى بطريقة أو بأخرى تحت صيغة ما مقبولة للجميع في وقت قريب أو بعيد ، وان كانت المناقشة لاتزال سجالا عبر المحيط وفوق رأس الخلف .

نتائج المعركة

والسؤال الآن هو : الى أين ؟ ما النتائج والاحتمالات والانعكاسات وما علاقتها

بالعرب والصراع العربى ضد اسرائيل ؟ ولعل أول رد هو ان هذه المواجهة الباردة (أم الساخنة؟) بين الحليفين كان من أبرز وأخطر نتائجها تعجيل اتجاهات الوحدة الأوروبية واندفاع أوروبا إليها بصورة حاسمة . كما قال الجنرال بوفر مثلاً «... يبقى على أوروبا المنقسمة ، هذه التى استنامت الى وهم الوفاق ، أن تدرك موقفها الخطير بين الدولتين الأعظم . والنتيجة التى يجب عليها ان تستخلصها هى أن تسرع خطاها نحو الاتحاد» .

وهذا ما يؤدى بنا الى حقيقة فائقة الأهمية ، هى أنَّ الشرق الأوسط حتى منذ الخمسينات كان عاملاً دقيقاً لا فى السياسة الخارجية الأوروبية فقط وإنما فى سياسة الوحدة الأوروبية نفسها ، فمنذ وقت مبكر ، أدركت أوروبا (هالشتاين بصفة خاصة) أن السوق الأوروبية المشتركة ما كانت لتتحقق لولا أزمة السويس ١٩٥٦ التى تعارضت فيها مصالح ومواقف الأوروبيين والأمريكيين . ثم ازداد ادراك الأوروبيين لضرورة الوحدة مع كل حرب لاحقة بين العرب واسرائيل ، حتى ليقال ان حرب ١٩٥٦ هى التى خلقت الوحدة الأوروبية وحرب ١٩٧٣ هى التى عمقتها ودعمتها الى الأبد (أنتونى سامسون) .

ومن هذه الزاوية فالواقع أيضاً أن حرب أكتوبر هى التى حررت أوروبا أو ساعدت على تحريرها بصورة نهائية وحاسمة من الوصاية والتبعية الأمريكية ، لأن هذا هو المعنى الحقيقى للوحدة الأوروبية . كذلك يمكن أن نضيف ان حرب أكتوبر قد حررت أوروبا من نازية جديدة على ضلوعها الجنوبية (اسرائيل الصهيونية) ، مثلما حررتها الحرب العالمية الثانية من قبل من نازية قديمة فى قلبها (المانيا الهتلرية) . وفى المحصلة العامة ، نرى أن دفعة الحرب العربية المنتصرة هى التى وضعت حداً أو آخر «للعلاقة الخاصة» بين أوروبا وكل من أمريكا فى جانب واسرائيل فى الجانب الآخر ، وأنها هى بذلك التى ساعدت أوروبا الغربية على بلورة استقلالها الجديد ووحدتها الناشئة . لقد جاءت حرب أكتوبر بمثابة معجل أو مفاعل وحدوى لأوروبا . وإذا كان البعض ، مثل بيتر شور الزعيم العمالى البريطانى ، يرى على العكس أن «السياسة العربية البترولية قد قضت على أسطورة الوحدة الأوروبية» فهذا لا يعبر الا عن اتجاه ثانوى ويكاد يمثل الاستثناء لا القاعدة .

ويقدر ما تباعد الموقف الأوربي عن الأمريكي في ١٩٧٣ ، تقارب مع الموقف العربي .
ويتعبير آخر ، بينما تباعد شاطئاً الأطلنطي ، تقارب شاطئاً المتوسط . وحتى منذ ما بعد
يونيو ازداد التدخل المطرد في العلاقات بين أوروبا الغربية والعالم العربي الى حد زالت
فيه كثير من الحساسيات والعقد القديمة وبدأت معه صفحة جديدة تنبئ بمستقبل كبير .
الرئيس بومبيدو ، مثلاً تحدث عن العلاقات الجغرافية والتاريخية والمصالح الاقتصادية
والثقافية بين أوروبا والعرب . بينما اقترح ميشيل جوبير وزير خارجية فرنسا على السوق
الأوروبية عقد مؤتمر يضم دول السوق والدول العربية لدراسة امكانيات التعاون بين الدول
«المتقاربة جغرافياً» . وعن وحدة البحر المتوسط وشعوب شاطئيه كذلك أسهب الكثير من
الكتاب الأوروبيين .

وبعض المفكرين الأوروبيين دعوا بصورة محددة الى فكرة ارتباط وتعاون أوربي -
عربي كوحدة متكاملة - أورابيا Eurabia كما صكوها - على غرار أورافريقيا ،
وتشمل كل مجالات الحياة . إلخ . أما السوق المشتركة فقد سبق أن طرحت إبان الأزمة
فكرة الدعوة الى مؤتمر اقتصادي مع العرب يحقق ضمان تدفق البترول العربي إلى
أوروبا ، ويوفر الحاجات التكنولوجية والمالية الأوروبية للعرب . ثم قرر مجلس السوق
أخيراً عقد «مؤتمر أوربي - عربي على مستوى وزاري لتنظيم وسائل التعاون في شئون
الطاقة والاقتصاد والتكنولوجيا والعلوم» .

وكتعبير استراتيجي جامع عن هذه العلاقات المطلوبة ، ذهب حتى فرانسوا ميتران ،
زعيم الاشتراكيين الفرنسيين نوى العلاقات التقليدية الوثيقة مع العدو الاسرائيلي ، الى
أنه «إذا كان عليهم كاشتراكيين فرنسيين ان يحددوا محورين حول أوروبا السياسية ،
فانهما يتمثلان في محاولة حل مسألة الأمن الجماعي مع روسيا السوفيتية ، وتكوين
حلف للبحر المتوسط مع البلاد الواقعة على شواطئه . ذلك لمحاولة ايجاد توازن مع قوى
الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، لا عن طريق انشاء حلف عسكري ، وانما عن
طريق خلق قوة جديدة تنبع من وحدة العلاقات الاقتصادية والتجارية والثقافية
والانسانية ، بحيث لاتصبح القرارات التي تتخذ في المناطق الممتدة من السويد
حتى السعودية ، أي من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، تصدر مركزياً بمكالمة
تليفونية بين نيكسون وبرجنيف ، وانما تصدر عن الشعوب والدول صاحبة حق
السيادة في تقرير مصير هذه المنطقة» .

تلك كلها وجهات نظر مختلفة ، تبدأ وتنتهى بزوايا ومستويات متباينة ، وقد لا تكون جميعا خالصة لوجه العرب أو مخلصه لقضيتهم ، لكنها تتجه دائما الى تصور عالم جديد من العلاقات بين أوروبا والعرب . ولقد يكون من السابق لأوانه ان يتحدث أحد عن «وفاق صغير Little Entente» يربط بصورة ما نسبية ومخففة بين العرب وأوروبا الغربية ، متعامدا على «الوفاق الأعظم» ومتوسطا بينه وموازيا له ، ولكن ليس من المستبعد أو المستكثر ان ينبثق مثل هذا المحور البازغ أو البرعم يوما ما فى المستقبل القريب أو البعيد .

افريقيا والمعركة

وقد يكون الوقت مبكرا كذلك لأن نتكلم عن وفاق آخر ، «الوفاق الأصغر» مثلا ، بين العرب وافريقيا كنتيجة للمعركة ، ولكن المعركة قد أُلقت البذرة بالفعل . فلقد دشنت المعركة انقلابا كاملا فى العلاقات الافريقية - العربية والافريقية - الاسرائيلية فى آن واحد ، دعم الأولى بقدر ما هدم الثانية . وبذلك تحققت وحدة القارة الافريقية كما لم تتحقق من قبل ، وتلاحمت الوحدة العربية - الافريقية - مثلما لم تفعل قط .

هكذا ، وكما تقارب شاطئ البحر المتوسط فى الشمال ، تقارب أيضا ساحلا الصحراء الكبرى حتى التصقا وحتى اختفت الصحراء كفاصل أو عازل سياسى ، وبعبارة أخرى ، فكما «عبرت» العرب البحر نحو الشمال فتداخلت علاقاتها وصادقاتها مع أوروبا ، عبرت أفريقيا بدورها الصحراء نحو الشمال لتتداخل هى الأخرى وتتلاحم مصيريا مع العرب . وبهذا وذاك يبرز نمط جيوبوليتيكى جديد مشترك يجمع بين الجميع له مغزاه الكبير وقد تكون له أهمية كبرى فى المستقبل . ولكن فلنفصل أولا قبل ان نصل الى هذا النمط .

منذ وضعت اسرائيل قدمها فى «حذاء» الاستعمار القديم الذى غادر افريقيا بعد الاستقلال ، ومنذ مدت أمريكا ذراعها لترث الدور الامبريالى فى القارة ، أصبحت الساحة الافريقية مسرحا ضخمًا للصراع السياسى والدبلوماسى بين العرب واسرائيل . ومنذ نفذت اسرائيل الى البحر الأحمر واكتمل التسلل الصهيونى الى افريقيا ، استطاعت اسرائيل ان توطد لنفسها موطئ اقدام راسخة فى بعض بولها ، اتخذت منها قواعد للمزيد من التوغل والتغلغل .

وعن طريق المساعدات المتنوعة وعدد من مشروعات التنمية والتطوير والتدريب سواء زراعيا وصناعيا أو تجاريا وعسكريا ، نجحت اسرائيل لبعض الوقت والى حد معين فى ان تنمى علاقاتها ومصالحها فى القارة . وأكثر من هذا استطاعت ان تخدع الافريقيين الى حين عن حقيقة دورها كمخلب قط للامبريالية وحصان طرواده للاستعمار وكعميل وسمسار له من الباطن ، فضلا عن كيانها الاستعماري ذاته الذى يكرر بكل أمانة وبكل تفصيل صورة الاستعمار الاستيطاني الأبيض الذى يعد سرطان القارة وجذامها العنصري ويطوقها من الجنوب بجهة مثثة فى جنوب افريقيا وناميبيا وروديسيا ثم موزمبيق وأنجولا .

وقد بذلت الدول العربية جهودا دبلوماسية وسياسية مستمرة بلا كلل من أجل كشف حقيقة اسرائيل وتعريتها أمام الافريقيين . وعبر سلسلة من الاتصالات المكثفة ، توجتها من حين الى آخر مؤتمرات الوحدة والقمة الافريقية ، نجحت الدول العربية فى تحويل المد بالتدريج وفى ان تحول دون استئثار الخطر الصهيونى فى القاهرة . وقد ظهرت آثار هذه الجهود بعد يونيو ، حين اخذت افريقيا تلعب دورا متناميا فى البحث عن حل للزمة . فكانت بعثة «حكماء افريقيا» وكان مؤتمر أديس أبابا الذى سجل أكبر تأييد أدبي ودبلوماسي للقضية العربية فى تاريخ العلاقات العربية - الافريقية حيث أدان العدوان الاسرائيلي بحسم وطالب بحزم بالانسحاب .

غير أن معركة أكتوبر جاءت نقطة التحول الحاسمة بل العارمة . فقبيل المعركة كانت مجموعة من الدول الافريقية قد فطنت نهائيا الى الخطر الاسرائيلي على القارة وعلى السلام العالمى فقطعت العلاقات الدبلوماسية معها . ولكن تلك لم تكن سوى البداية التى تنتظر المعركة لتأخذ منها إشارة الانطلاق . فاذا بسلسلة متتابعة ، لن تلبث بعدوى صحية أن تحولت الى شلال منهمر ، من قطع العلاقات تترى وتتواتر من كل أركان القارة . واذا نحو ٢٩ دولة افريقية تقطع علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل فى غضون شهر واحد تقريبا ، قل بمعدل دولة كل يوم ! بل لقد تصادف بالفعل أن أعلنت أكثر من دولة واحدة قطع العلاقات فى يوم واحد ! لقد كان ذلك بحق «شهر أفريقيا» ، مثلما كانت سنة ١٩٦٠ هى تحريرياً «سنة افريقيا» . كأنما القارة قد تخصصت فى المفاجآت السياسية بالجملة ، مركزة مكثفة فى فورة عنيفة بعد طول كمون !

ولقد فقدت اسرائيل فى هذه الموجة المدية الكاسحة مواقع لها كانت تحسبها لأسباب خاصة جدا منيعة وأمنة جدا ، سواء ذلك فى منطقة القرن الافريقى أو فى قلب القارة أو غربها . واذا كانت قد تبقت بضع دول لم تزل على علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل فتلك وحدات صغرى أساساً تعاني من أوضاع جغرافية سياسية شاذة تضعها فى تضاعيف وتحت رحمة كتلة الاستعمار المتخلف فى أقصى جنوب القارة ، لقد تم ، عمليا ، « طرد » اسرائيل من القارة السوداء .

مامعنى هذا ، وماذا بعده ؟ لقد أدركت افريقيا نهائيا ان اسرائيل هى جنوب افريقيا العرب وروديسياهم ، أو موزمبيق الشرق الأوسط وأنجولاه . أدركت أنها عنصرية افريقيا السمراء ، حيث تلك الدول هى عنصرية افريقيا السوداء ، وهى مثلها عدوة افريقيا القاتلة . لقد رأت افريقيا أخيرا كيف أنها محاصرة بين مثلث ضخم من العنصرية البيضاء تركز روعه على أطراف القارة الثلاثة : جنوب افريقيا وروديسيا وموزمبيق وأنجولا فى جنوب القارة ، ثم البرتغال المتروبول الاستعمارية على ضلوعها فى الشمال الغربى ، ثم أخيراً اسرائيل الصهيونية الدخيلة على ضلوعها فى الشمال الشرقى . فكان حقا على افريقيا أن تلفظ اسرائيل من بيتها الى أن تلفظ من بوابتها .

مرة أخرى ، مامعنى هذا ، وما محمولاته ؟ لقد غيرت حرب أكتوبر المنتصرة موقف افريقيا ، الذى لم يكن يخلو من شىء من تحفظ هنا ويعض من تردد هناك . غيرته مرة واحدة والى الأبد ، فاكتمل عدم انحيازها تماما ، وأكملت وحدة القارة الحتمية . واذا كان رئيس زائير قد قال مرة « اذا كان للمرء أن يختار بين صديق وشقيق ، فإنه يختار الشقيق » . فقد عاد بعد المعركة ليقول ان هذا كان قبل أكتوبر ، أما الآن فاسرائيل ليست صديقا بل هى عو .

لقد وجدت افريقيا فى النصر العربى نصرا لها ولكل العالم الثالث . انه أول نصر عسكرى حقيقى عصرى ضخم ومباشر تسجله افريقيا بل المتخلفون على الاستعمار « الأبيض » فى التاريخ الحديث . ولهذا بلا شك مغزاه الواضح فى الصراع ضد العنصرية العالمية . ولقد عبر رئيس زائير عن هذا بجلاء فى خطابه أمام مجلس الشعب المصرى حين قال « حين وضعتم النهاية لأسطورة التفوق العنصرى للصهيونيين ، فإنكم تكونون قد عاونتم فى التقدم بقضية الشعوب الافريقية التى تناضل والسلاح فى أيديها ضد

الاستعماريين والعنصريين» . كما أضاف في مناسبة أخرى «لقد استطاعت مصر أن تفرض السلام على من يتحدث عن الحرب» .

بهذه الصفة ، وبغيرها كثير ، بدت مصر في نظر القارة وكأنها «يابان افريقيا» ، أول دولة افريقية تهزم دولة «أوروبية بيضاء» هزيمة عسكرية ايجابية داوية ، مثلما فعلت اليابان سنة ١٩٠٥ ، ويقدر ما شعرت افريقيا بالشرف والفخر لهذا النصر ، جاءت مبايعة للعرب ومصر بالقيادة في القارة والزعامة في العالم الثالث . فطرد اسرائيل على ذلك النحو ، الذي يكاد يرقى بشكل ما الى سحب اعتراف ، هو أيضا ترشيح بل تنصيب من جانب القارة لمصر والعرب كقلعة النضال المشترك ضد الامبريالية وكدرع الحرية فيها .

ويعنى هذا أيضا أن كل محاولات الاستعمار للدس والوقية ولدق اسفين بين العرب والافريقيين قد فشلت وتحطمت على صخرة الوحدة الطبيعية بينهم ، تلك التي تستمد مقوماتها من الوحدة الجغرافية المباشرة ثم من وحدة التحرير الوطنى والكفاح ضد الاستعمار والامبريالية والعنصرية («حلف المقهورين» كما دعاه البعض) . تبخرت أسطورة الصحراء كعازل بين شمال وجنوب ، بين عرب وزنوج ، بين افريقيا عربية وأخرى سوداء .. الخ . تحطمت كذلك أكنوبة تجارة الرقيق (لوحظ عودة الدعاية الأمريكية الى هذه النغمة القديمة بعد المعركة - لكن نون جدوى) .

ومن الناحية الأخرى ، فإن لهذا الموقف الافريقى تبعاته الكبيرة على العرب . لقد ضحت افريقيا بمصالح ومكاسب مادية لاتخلو من قيمة في سبيل الحق العربى . ولابد لنا أن نسدد هذه الخسائر بمعدل الربح المركب ، بل أضعافا مضاعفة ، ليس فقط تعويضا ولكن ليدرك الجميع أن صداقة العرب دائما أجدى وأنفع . اننا لابد ان نتحرك بسرعة وبلا أدنى تردد لنملأ «الفراغ» الجديد فى افريقيا ، حتى يكون «الخروج» الاسرائيلى منها نهائيا بلا عودة . والعرب يملكون بلا ريب كل مقومات المساعدة ماليا وتكنولوجيا وحضاريا . ومن حسن الحظ أن موتمر القمة العربى الأخير فى الجزائر قد قنن هذه السياسة بالفعل وخطط لبنك تنمية عربى - افريقى برأسمال كاف ، كما بدأ التنفيذ على الفور .

تلك انن صورة افريقيا الجديدة من خلال عدسة المعركة . غير أن من المستحسن فى نهاية هذا المسح أن نضعه فى اطار مشترك مع الموقف الأوروبى ليكون المنظور أوسع

والرؤية أشمل . لقد تقاربت أفريقيا كثيرا من الحق العربي من الجنوب ، كما تقاربت أوروبا الغربية من الشمال . وبذلك أصبحت هناك سلسلة متتابعة من ثلاث حلقات تتراص فى محور رأسى واحد من المواقف السياسية المتشابكة ولا نقول المتشابهة يحتل وسط العالم المهم ، بادئا من أوروبا فى الشمال ومنتھيا بأفريقيا فى الجنوب وعقدته وحلقة الوصل فيه كما هو مبرر وجوده هو العالم العربى فى وسطه . وهذا المحور النسبى يتعامد - سنرى - على محور معسكر العدو الأفقى الذى يمتد بالعرض ما بين اسرائيل وأمريكا والذى أن لنا أن ننتقل اليه .

الموقف الأمريكى

فاجأ العرب الولايات المتحدة مفاجأة صادمة بالحرب وبتتيجتها المفزعة ، ولكنهم لم يفاجئوا بموقف الولايات المتحدة وعدائها الرهيب .. فالولايات هى الى قريب العدو الأكبر والأصلى للقضية العربية . أما اسرائيل فمجرد يدها الضاربة فى المنطقة . وقد كان أكتوبر هزيمة وصفعة كبرى لأمريكا بالدرجة نفسها التى جاءت لاسرائيل . فلقد أثبتت فشلها فى كل خططها وادعاءاتها تقريبا : فشل مخابراتها وأجهزة تجسسها فى حساباتها وتنبؤاتها عن مدى اقدام العرب وقدرتهم على السرية وعلى المبادأة ، فشل أسلحتها فى ضمان النصر لحليفها وصنيعتها ، فشل سياستها فى تمزيق الصف العربى وتفتيت وحدته .. إلخ .

وبوجه عام ، كان خطأ حسابات أمريكا مزبوجا مضاعفا ، فكما استبعدت - خطأ - امكان اقدام العرب على الحرب وقدرتهم على الهجوم ، استبعدت - خطأ أيضا - احتمال استخدامهم لسلاح البترول أو اجترائهم على رفعه فى وجهها . (عن الأولى أعلن كيسنجر شخصا قبيل المعركة «أن القتال أمر غير محتمل الى درجة أنه ليس هناك فرصة تسمح به» ! وعن الثانية كان سيسكو قد أكد أمام الكونجرس فى الصيف الماضى «إن البلاد العربية المنتجة للبترول ، وخاصة المملكة السعودية ودول الخليج ، لن تستخدم سلاح البترول ، وأن مصالحها الوطنية تأتى قبل تأييدها للنزاع العربى الاسرائيلى» !)

لقد سقطت كل نظريات الحل الأمريكى مع كل أسلحتها حطاما على أرض الشرق الأوسط ، تماما مثلما سقطت نظرية الأمن الاسرائيلى . ان المد الرجعى العالمى الذى تقوده أمريكا والذى وصل الى قمته فى يونيو ١٩٦٧ ومن بعدها زحف على العالم فى

موجة عاتية سواء في الشرق الأوسط أو في إفريقيا أو بين دول عدم الانحياز والعالم الثالث ، هذا المد انقلب حسيرا وانحسر أخيرا الى جزر عميق على صخرة أكتوبر .

الاستراتيجية القديمة

فمنذ يونيو كانت الاستراتيجية الأمريكية في المنطقة هي تصفية الأنظمة التقدمية والمقاومة الوطنية والقومية العربية بعد ان تم ضربها وحصارها بالنكسة . وكانت سياستها في ذلك أن تفرض الاستسلام على العرب باسم السلام ، والعمل على «تركيعهم» بدعوى الحل السلمي . فلم يكن هذا الحل السلمي الا وسيلة لتسليم العرب كالثمرة الساقطة الى اسرائيل . وباختصار . كان «السلام الأمريكي» هو نفسه «السلام الاسرائيلي» وكان «الحل الأمريكي» هو بعينه «الحل الاسرائيلي» .

وفي هذا السبيل حاربت أمريكا كل الجهود الدولية لاقرار السلام القائم على العدل وتطبيق قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ ، ولأول مرة في تاريخها تستعمل حق الفيتو عدة مرات ضد العرب . وطوال الوقت عملت على أن تحتكر وحدها حل الأزمة ، أو بالأصح حق الحل . أجهضت جهود مبعوث الأمم المتحدة يارنج ، وعوقت حتى عقلت تحركات حلقاتها الكبرى في غرب أوروبا ومحاولاتها للاسهام في حل الأزمة ، وفوق الكل عارضت دور الاتحاد السوفييتي وسعت الى طرده من القضية «فهو اذا كان يملك ان يقدم السلاح للعرب فانها هي وحدها التي تملك أن تقدم السلام» ، بل وسعت الى «طرده» هو نفسه من الشرق الأوسط أصلا - هذا تعبير كيسنجر الذي تورط فيه قبيل الوفاق . وبهذا كله أوصلت أمريكا الحل السلمي الى طريق مسدود ، وعلقت الأزمة في حالة مجمدة من السلام المتفجر والانفجار الكامن هي تلك التي اصطلح على تسميتها بحالة اللا حرب واللا سلم .

وخلال سنوات ست متصلة كان تكتيك الولايات المتحدة هو ان تدفع بالعرب الى «المفاوضات المباشرة» مع اسرائيل «بغير شروط مسبقة» أي بعد القبول باسقاط حتى قرار ٢٤٢ ، ثم من المفاوضات المباشرة الى الصلح النهائي ، أي الاعتراف والتنازل عن الاراضي المحتلة والوطن السليب ... الخ . وفي الوقت نفسه أمعنت في سياستها الداعية من المحافظة على التوازن العسكري في المنطقة ، أي ضمان التفوق العسكري المطلق لاسرائيلها على العرب مجتمعين . وقد وصلت أمريكا في هذا المجال الى حد من التصعيد

لم يسبق له مثيل فى تاريخها أو تاريخ ربيبتها من قبل . فكما أعلن نيكسون بنفسه ، بلغ حجم السلاح الأمريكى الذى تدفق على اسرائيل فى ادارته وحده أكثر من كل مجموعته منذ نشأة اسرائيل وحتى بداية عهده .

وقد كان المعنى الوحيد لهذه الاستراتيجية ولهذا التكتيك هو أن أمريكا انما تخير العرب فى الحقيقة بين اختيارين : إما العبودية وإما الانتحار ، اما أن ينتحروا طواعية على مذبح اسرائيل بصما على صك التسليم ، واما أن تتولى اسرائيل بنفسها قتلهم بالسلام الأمريكى المسلط والرهيبة . وكان اعتقاد أمريكا الجازم والكامن وراء هذا المنطق أنه ما من اختيار ثالث أمام العرب . انها هى وحدها التى تملك أن تمنع أو تمنح - حتى حق البقاء والحياة .

بالمعركة ، وبالعبر ، بتدمير الخط ، اثبت العرب ان هناك - على العكس - ذلك الاختيار الثالث ، الاختيار العربى البحت النابع من الارادة الحرة والقوة القادرة ، أكثر من ذلك ، اثبتوا - بالبترو - انهم هم الذين يملكون أن يمنحوا أو أن يمنعوا . أبعد منه أيضا ، نجحت المعركة فى ان تعرى بصورة نهائية وحاسمة حقيقة العلاقة غير الشرعية المشروعة المشبوهة والشوهاء بين النجمة الخماسية والنجمة السداسية ، ونجحت فى تأزيمها ووضعها فى مأزق حقيقى لأول مرة ، بل ونجحت كذلك فى تأزيم موقف الولايات المتحدة فى العالم كله ، بما فى ذلك أقرب أصدقائها وحليفاتها .

فبعد مفاجأة المعركة الصادقة ثم الانتصارات العربية الباهرة ، أسفرت أمريكا عن وجهها القبيح بغير نقاب . فهددت على لسان رئيسها بإمكانية التدخل العسكرى على غرار تدخلها فى لبنان والأردن من قبل . ثم على جسر من الحقد الضارى ، مدت جسرهما الدموى الجوى والبحرى لتعوض وتدعم اسرائيل بالسلاح المتطور بلا حساب . بون أن يمنع هذا تدمير هذا السلاح المتطور على أرض سيناء والجولان بلا حساب أيضا . فصعدت علمية الامداد من جديد بكميات ونوعيات من مستوى جديد ، سلمته فى حقل القتال نفسه ، ومن تلك الأسلحة ما لم يسبق استعماله قط فى ميدان وما لم تحظ به حتى كبرى حليفاتها فى أوروبا الغربية وما هدد الترسانة الأمريكية نفسها بالنضوب .

ولقد رأينا كيف أن أمريكا حاربت فى الحقيقة معركتين لاسرائيل خلال الحرب: الأولى بالسلاح المقدس المختزن من قبل ، وهى التى كادت تفقدها اسرائيل ، والثانية بامداد

السلاح المباشر العاجل والمحمول جوا وبحرا ، وهى وحدها التى انقذت اسرائيل من هزيمة كاملة محققة ، والفارق الوحيد بين الاثنتين ان احدهما أكثر أو أقل مباشرة من الأخرى . ولقد كان موقف أمريكا فى كل هذا شديد الوضوح كما كان بالغ الضراوة : ليس فقط ألا تسمح بهزيمة السلاح الأمريكى على ما اعتبرته السلاح «الروسى» ، الأمر الذى يدمر هيبتها الاستراتيجية فى العالم كله ، ولكن أيضا ألا تسمح بهزيمة حقيقية لعملياتها اسرائيل والا فقدت كل لعبة القوة العالمية والشرق الأوسط معها .

عزلة أكتوير

من أجل هذه المحظورات ، كانت أمريكا على استعداد لأن تقع فى أقصى المحاذير مع اصدقائها كما مع أعدائها على حد سواء . فمع أقرب وأقوى حليفاتها فى غرب أوروبا، كشرت عن أنيابها الأطلنطية لأنها أخفقت فى القبول بأن تحول وتحرف الحلف من هدفه الأسمى المشروع وهو الدفاع عن أوروبا ضد الخطر الشيوعى الى قاعدة لعملياتها العدوانية ضد العرب ولحساب اسرائيل، وهى العمليات التى لا مصلحة لأوروبا فيها. وفى هذه المواجهة تجاهلت أمريكا تماما مصالح أوروبا، وكذلك اليابان، البترولية التى تعتمد على العرب تماما، حيث لا تتأثر هى كثيرا بهذا العامل. وتضاعف الصدد بعد أن كشرت أمريكا عن أنيابها الذرية للاتحاد السوفيتى، الأمر الذى عرض أمن أوروبا للخطر النووى المباشر من فوق رأسها ومن وراء ظهرها .

وقد كان مغزى هذا كله بارزا مثلما هو مروج بالنسبة للأوربيين : ان الولايات تضع أمن اسرائيل فوق أمن أوروبا الغربية، وهى على استعداد لأن تعرض الأخيرة للخطر النووى لمصلحة وحساب الأولى. اسرائيل، فى كلمة أخرى، أهم عند أمريكا من أوروبا. ولم يكن ذلك كسفا جديدا تماما لدى الأوربيين، فمن قبل مثلا شحنت أمريكا اسرائيل بأسلحة متطورة حجبتها عن أوروبا نفسها وجحدتها اياها. ومن بعد كذلك أغدقت على اسرائيل بقرار واحد ٢٢٠٠ مليون دولار، ومن بعدها مباشرة ٣٠٠٠ مليون أخرى، تسليحا ومنحا أو كقروض، وذلك فى الوقت الذى تهدد أوروبا فيه بسحب قواتها المرابطة بها لكى توفر بضع مئات من ملايين الدولارات لا أكثر. لهذا ولغيره لم تفاجأ أوروبا تماما بالتحول الأمريكى، ولكن الجديد أن الصدمة الأوربية كانت مؤثرة، وبالمثل جاءت الافاقة.

هناك تحول الشرخ السياسى بين امريكا وحلفائها الى أخدود عميق - وكما تباعد شاطئنا الأطلنطى بين أمريكا وأوربا الغربية، تباعد على الجانب الآخر شاطئنا الهادى بينها وبين اليابان. فاذا أضفنا الموقف الافريقى الذى تباعد عن معسكر العدو، وكذلك بول عدم الانحياز، أمكننا أن نتصور العملية كلها كحركة تباعد وانفصال شبه عالمية عن الفواة الأمريكية، قل مجازا عملية «زحزحة قارات Continental Drift» بالمعنى الجيوبوليتيكي بدل الجيولوجى. وهى عملية تترك أمريكا بالتدريج جزيرة سياسية مطردة العزلة حتى عن الأصدقاء فضلا عن الأعداء.

فاذا نحن تذكرنا أن المعسكر الغربى أو «العالم الحر» - كما سُمى - كان بعد الحرب الثانية مباشرة كالكتلة الصلبة الصماء الواحدة المندمجة بشدة وتماسك حول نواتها الأم أمريكا كأنها معا قارة اليابس كله أو أغلبه سياسيا، قل قارة بانجيا Pangea السياسية على غرار مايسمى الجيولوجيون يابس الكرة الأرضية حين كان كتلة قارية واحدة ثم انفصلت بالزحزحة القارية الى القارات الحالية، نقول اذا تذكرنا هذا ثم قارنا ذاك لأدركنا كيف تعرضت الولايات المتحدة لزحزحة قارية حقيقية وكوكبية على المستوى السياسى جردتها بالتدريج من قاراتها الأطراف الى أن اكتملت العملية على يد حرب أكتوبر. لقد تمت عزلة الولايات.

واذا كان هناك من استثناء لهذه العزلة الباردة، فانما هو الاستثناء الذى يؤكد القاعدة ولا ينفيها . فمن بين الحليفات الأوربيات ، لم يكن هناك من تعاطف مع اسرائيل سوى هولندا ، ولم يكن هناك من قدم قاعدة للجسر الأمريكى سوى البرتغال . والواقع أن محور الولايات - البرتغال - اسرائيل كان هو كل ماتبقى لها أثناء المعركة . وبهذا كان محورا أحاديا مثلما هو معزول ، يترامى (أو يترنج) فى وحشة العراء بين كتلة أوربا المحيدة الى الشمال وكتلة العالم الثالث الى الجنوب .. والطريف ان الحلقة الوسطى فى المحور لم تلبث أن انهارت حين قام الانقلاب فى البرتغال ، ذلك الذى قد يكون ثمرة من ثمار النصر العربى فى أكتوبر بطريقة غير مباشرة ، والذى يعد نذير شؤم لمصير الاستعمار الاستيطانى العنصرى الصهيونى المماثل فى فلسطين .

هذا عن موقف أمريكا مع أصدقائها . أما مع الاتحاد السوفييتى فقد وصلت المواجهة الى حد التهديد بحرب نووية ، وقد كان هذا هو قمة الابتزاز النووى ، وهو أيضا ما أكد

النظرية القائلة بأن بقاء اسرائيل والوجود الاسرائيلي نفسه أصبحا الآن وظيفة لهذا الابتزاز الأمريكى النووى ، وبهذا الابتزاز غير المسئول ، وبعد أن تحطمت أسطورة اسرائيل التى لاتهزم ، كانت أمريكا تحاول فيما يبدو أن تفرض على الوفاق سياسة «لا غالب ولا مغلوب» فى الشرق الأوسط ، سياسة «اللا نصر واللا هزيمة» بدلا من ، وبعد ، سياسة «اللا حرب واللا سلم» التى انهارت الى غير رجعة قط . .

أما التهديد النووى فأدنى على الأرجح الى سياسة «التهويز» ، يعيد ذكرى سياسة «حافة الهاوية» التى هندسها دالز ، ويستغل الى أقصى حد وبلا خلق استراتيجية الرعب والترويع . انه ليس من المسموح به للعرب على الاطلاق - هكذا كانت تتوعد وترعد أمريكا - أن يحققوا نصرا كاملا أو حاسما على اسرائيل ، وإلا فانها الحرب النووية . أما ضد من ، فهذا أوضح من أن يذكر . وفى ظل هذا التهديد المخادع ، تعتمد أمريكا مع اسرائيل فى الواقع العملى سياسة «الفتنة» ، صيغة منتهى الفتنة ، بمعنى أن تفرقها بالسلح المتفوق والكاسح كما وكيفا ، تاركة لها هى ادارة المعركة وضامنة فى تصورهما ان تحقق النصر به . وهذا يفرض التصعيد المطرد والخطير على حجم الصراع وحجم القتال ، ويستهدف تعجيز العرب أو أصدقائهم عن اللحاق بسياسة التسليح المسعور هذا . وقد أعلنت أمريكا أخيرا جدا أنها قد تمت بالفعل تعويض اسرائيل عن جميع خسائر أكتوبر فى السلاح ، وكان ذلك فى حدود صفقة الـ ٢٢٠٠ مليون دولار التى تقررته اثناء المعركة . ثم عادت أمريكا فأعلنت عن صفقة جديدة قيمتها ٢٠٠٠ مليون دولار ، تتضمن أحدث ما فى الترسانة الأمريكية بما فى ذلك حاملات الطائرات والهليكوبتر التى تدخل صراع الشرق الأوسط لأول ومرة ، بما فى ذلك أيضا مالم يزل تحت التصميم وماسيزيد عما تطلبه اسرائيل نفسها - «الى ان تقول كفى»! ..

وتلك جميعا كانت هى اللعبة الأمريكية المزبوجة التى ينبغى أن يتنبه ويتصدى لها كل أعداء الامبريالية والاستعمار. إننا منذ بدأ الصراع وإلى ما قبل أكتوبر كنا من الخوف من أمريكا فى هزيمة لإسرائيل بانتظام. والآن تريد أمريكا أن تجعلنا من خوف الحرب النووية العالمية بلا نصر على إسرائيل. وبهذا تضمن أمريكا تميمع الصراع وامتداده إلى ما لا نهاية دون حسم قاطع ، ومعها تضمن بقاء إسرائيل إلى الأبد.

العلاقة الامريكية - الاسرائيلية فى عالم متغير

غير أن أمريكا كانت تخطئ حسابات الزمن وقراءة «وردة» الرياح العالمية، رياح التغير ومتغيرات العصر، وتسير ضد التيار، تيار التاريخ والمستقبل، سواء على المدى القريب أو البعيد. انها كالقوة الأعظم الأولى فى العالم قد بدأت تعبر خط الزوال، أو على الأقل نقطة الأوج، بدرجة أو بأخرى. فهى من قبل قد فقدت الكثير من قوتها وسيطرتها النسبية فى العالم بالقياس إلى ما كانت عليه منذ ربيع قرن بعد الحرب الثانية. فمنذ تلك القمة المطلقة على عرش القوة، أخذت الولايات تتلقى الضربات والهزائم فى أركان العالم. ومنذ هزيمة فيتنام بوجه خاص، ثم مع تغير موازين القوى فى العالم وتعدد المراكز ، ثم أخيرا بالوفاق ، وهى فى مرحلة انحدار قوة واضحة لاشك فيها.

إن ظل أمريكا - القاتم - على العالم قد أخذ ينحسر تدريجيا، وقبضتها عليه تتراخى باطراد. ثم جاءت معركة أكتوبر أخيرا ضربة قاصمة لكل من إسرائيل وأمريكا على السواء. ولعل مما له مغزاه أن كلا منهما فقد نور رجل البوليس فى وقت واحد تقريبا: أمريكا، نور رجل البوليس العالمى، وإسرائيل ، نور رجل البوليس المحلى فى الشرق الأوسط . وليس مصادفة كذلك أن عزلة الاثنتين معا فى العالم تتزايد بسرعة نادرة فى السنوات الأخيرة، حتى أصبحت أمريكا هى الحليف والصديق الوحيد تقريبا لإسرائيل. إن الحبل السرى بين إسرائيل وأمريكا أصبح الشريان الوحيد الذى يربطها بمصادر القوة المادية والمعنوية، العسكرية والسياسية والاقتصادية. وإذا كان هذا هو الذى أنقذ إسرائيل من هزيمة كاملة فى سيناء والجولان، فقد زاد من تبعيتها لأمريكا إلى حد يفقدها باطراد حرية الحركة والارادة المستقلة، ويجعلها أكثر من أى وقت مضى مستعمرة ورهينة أمريكية اسما وفعلا وشكلا وموضوعا، وأخطر من ذلك يربط مصيرها ووجودها بمصير أمريكا فى عالم القوة والمصالح المتغير أبدا .

إن العلاقة الخاصة، الحميمة والمحسومة، بين الاثنتين تتعرض الآن لضغوط متغيرات دولية طاغية، وتعيش فى عالم متغير وتحت مناخ غير موات لها. فإلى جانب شحوب صورتها فى العالم، فإن موازين القوة، عالميا واقليميا، تحولت وتحول باطراد لغير صالحهما بل وضد مصالحهما المشتركة أو المنفردة، لقد بدأ مع أكتوبر ويفضله المد

التقدمى والتحررى فى العالم، وارثا المد الرجعى الذى بدأ مع حرب يونيو. وقد جاء أكتوبر انتصارا لكل جبهة التحرر الوطنى والتقدمية والمعسكر الاشتراكى وأعداء الامبريالية فى العالم. ومن أبرز مؤشرات هذا التحول أن إسرائيل إنما ضربت أول ضربة حقيقية فى وقت أصبحت فيها حاميتها أمريكا أقل قدرة من أى وقت مضى على فرض إرادتها على العالم.

وعند هذه النقطة بالذات أيضا يأتى سلاح البترول العربى بكل ثقله ليضع العلاقة الإسرائيلية - الأمريكية لأول مرة أيضا فى مأزق حقيقى جدا وليضع أمريكا أمام اختيار رهيب: أما فطامها إسرائيل من المساندة الظالمة، وأما فطامها هى نفسها من البترول العربى. وفى هذا كتب اريك رولو يقول «إن الاسرائيليين قد أفاقوا أخيرا من أحلامهم بعد معارك ٦ أكتوبر، فقد اتضح لهم مدى انعزالهم بوليا. فحتى الحليفة الأولى - أمريكا - لم تتأخر فى الوقوف ضد أطماعهم عندما هدد العرب المصالح الأمريكية تهديدا مباشرا بعد قطع البترول عنها».

هكذا أثبتت حرب أكتوبر أن إسرائيل هى أسوأ استثمار للغرب فى المنطقة، بعد أن كانت تبدو أحسن استثمار، فبعيدا جدا - وهى التى فشلت فى حماية نفسها - عن أن تكون حامية للمصالح الأمريكية أو حارسة عليها فى المنطقة، أصبحت هى نفسها خطرا حقيقيا على المصالح الأمريكية البترولية وغير البترولية فيها. انها لم تعد تخدم مصالح أمريكا، بل هى الآن تهدمها. وبعد أن كانت أمريكا تعد العرب حاملة البترول وإسرائيل حاميته، فرض أكتوبر معادلة جديدة مؤداها أن العرب هم حارسو البترول الحقيقيون وإسرائيل هى حارسته. لقد أحدثت الحرب، نحن نخلص، انقلابا صامتا ولكنه مرئى فى علاقة المصالح بين أمريكا وإسرائيل، وهذا هو مأزقهم التاريخى الذى سيكون له بالقطع ما بعده.

أمريكا وسلاح البترول

ونحتاج هنا إلى نظرة فاحصة إلى حقيقة موقف أمريكا البترولى ثم انعكاس الموقف العربى عليه. أمريكا تنفرد بوضع بترولى خاص، تحسبه نقطة قوة لها فى وجه الضغط العربى، ولكنه فى الحقيقة نقطة ضعف. فهى وحدها من بين الدول الصناعية الغربية الكبرى التى لا تعتمد على بترول العرب الا بنسبة محدودة نوعا. ومن هذه الحقيقة حاولت

دعائيا كما رأينا أن تثبط من همة العرب وتشجيع أن سلاح البترول سلاح غير فعال أو مجد.

فعند بدء المقاطعة العربية المطلقة، أعلنت أمريكا أن نسبة اعتمادها على البترول العربي لا تزيد على ٢٪، عادت فرفعتها إلى ٧٪، من مجموع استهلاكها القومي، وأن من الممكن تعويضه بوسائل ومن مصادر أخرى عديدة. ثم اتضح أن هذه النسبة تصل في الحقيقة إلى نحو ٢٠٪ كما أعلن فرديريك بينت وزير التجارة الأمريكي، بينما اعترف هنري جاكسون رئيس لجنة الشؤون الداخلية بمجلس الشيوخ الأمريكي أنه «قد اتضح أن أزمة الوقود في الولايات المتحدة أسوأ مما كنا نتوقع جميعا» وستؤدي إلى أضرار «لم نكن نتصور مداها في البداية». وبالفعل، لم يلبث اقتصادها وصناعاتها، فضلا عن نظام حياتها اليومي وحضارتها التقليدية، أن اختلت وتخلخت بشكل حاد وعنيف.

والى هذا فقد وقفت أمريكا في ساحة المحكمة وقفص الاتهام أمام العالم كله، فهي المتهم الأول في أزمة الطاقة وخفض البترول في العالم أجمع. وعنادها ومعاداتها للحق العربي كان يطيل الأزمة ولا يعاقب إلا بقية المجتمع الدولي ولا يعنى في النهاية إلا أنها تبيع مصالح العالم بأسره من أجل الفتوح والغزوات الاسرائيلية والاغتصاب العدوانى الصهيونى.

من هنا أصبحت أزمة الطاقة في الولايات هي أزمة المجتمع الأمريكى من الداخل، بينما أصبحت أزمته في الخارج هي أزمة السياسة الأمريكية العالمية برمتها. وبذلك باتت الحكومة الأمريكية محاصرة ومتهمة ومدانة داخليا وخارجيا. لقد غزت أزمة الطاقة، ومعها لأول مرة أزمة الشرق الأوسط، كل أركان وطبقات وبيوت المجتمع الأمريكى من الداخل. أصبحت أزمة الشرق الأوسط لأول مرة مشكلة أمريكية خاصة تعنى كل أمريكى بعد اللامبالاة والاستخفاف إن لم يكن الانحياز والتواطؤ، تماما كما كانت أزمة حرب فيتنام.

وتاما كأزمة فيتنام، فإنها بدأت تشطر المجتمع الأمريكى وتقسمه من الداخل وتخلق تناقضا بين سياسة الحكومة الفعلية ومصالح الدولة الحقيقية. لقد عرت أزمة الوقود الحكومة أمام الشعب، وكشفت كيف تبيعه لصالح شعب أجنبى غريب، وأن

المصالح الاستراتيجية الحقة لأمريكا لا تكمن كما تزعم الحكومة مع إسرائيل والدفاع
الظالم الأعمى عن اغتصابها ، وإنما هي مع المصالح والحقوق العربية تكمن.
ومن هنا فإن رأيا عاما بارزا، أو حتى جنينيا لايزال، بدأ يتكون ويتكامل ضد سياسة
الحكومة: بعض كبرى شركات البترول ذات المصالح المحققة في العالم العربي، بعض
الأقليات كالزنج، وقلة من العناصر الليبرالية والمثقفين.. إلخ. على سبيل المثال منشور
مدير إحدى كبرى شركات البترول الأمريكية قبل المعركة، الذي حذر من ضياع المصالح
الأمريكية في الشرق الأوسط، وأثار ثائرة الصهيونية. مثل آخر: أحد الشيوخ الأمريكيين
يعلن بعد المعركة أن أمريكا قد أصبحت «رهينة إسرائيلية» .. إلخ. حتى باري جولدووتر،
داعية الحرب النووية في فيتنام، صرح بأن «الشعب الأمريكي سئم حروب إسرائيل» !
وذلك كله ما باتت الحكومة تخشى أن ينتشر ويستشري فيتحول إلى جماعة ضغط فرأى
عام سائد يكرر في النهاية قصة انشقاق المجتمع الأمريكي من الداخل أيام فيتنام. وهذا
أيضا بعض السبب في أن إدارة نيكسون حاولت باستماتة أن تتحاشى توزيع البترول
بالبطاقات حتى آخر لحظة كي ما تعطى المواطن الضحية شعورا كاذبا بالرخاء وعدم
خطورة الأزمة.

وهو كذلك بعض السبب في تلويح أمريكا للعرب بالتدخل العسكري المباشر لاحتلال
مناطق البترول لصالح «العالم المتحضر» . مثلا أعلن وزير الدفاع شلزينجر أن التدخل
العسكري «احتمال، وإن كان بعيدا جدا» ، وحذر من أن «حقوق الدول في الاستقلال
والسيادة لا يجوز استخدامها بحيث تصيب العالم الصناعي في قلبه.. فهذا خطر عليهم
كما هو علينا». وحتى فولبرايت الليبرالي لم يتورع عن التهديد، حيث قال إن على العرب
أن يعاملوا ثروتهم البترولية على أنها مسئولية دولية، وأن الدول الصناعية القوية قد ترد
بشكل ما على سبيل الانتقام. غير أن هذه اللهجة العتيقة البالية، دبلوماسية الزوارق
المسلحة أو بالأحرى دبلوماسية القراصنة، لم تفعل سوى أن أكدت الروح العنصرية أولا
والعدوانية ثانيا الكامنة وراء كل السياسة الأمريكية الخارجية.

أما العرب كما رأينا فلم يرتعدوا أو يرتدعوا، أعلنوا ببساطة قبولهم للتحدي وحزموا
بالفعل أبارهم بالديناميت. ومن الملاحظ بعد هذا الاصرار والصمود العربي أن أمريكا
عادت فخفت من لهجتها. فقد أعلن شلزينجر بعد ذلك ما نفى به ما سبق التصريح به من

تهديدات واحتمالات التدخل العسكرى. كما عادت أمريكا فقبلت مرغمة حذف كلمة «الابتزاز» من حديثها عن البترول العربى !

ولما كانت أزمة الطاقة فى أمريكا قد ظلت فى مراحلها الأولية، فإنها لم تعكس قط ثقل العقاب والحرمان العربى بكامله. غير أن الوضع كان حريا بأن يختلف كثيرا وربما وصل إلى حد «الكارثة القومية» لو أن الأزمة طالت شهورا أخرى أو أكثر - وقد كان العرب أعلنوا استمرار الحظر حتى يبدأ الانسحاب الإسرائيلى أو على الأقل اعلان تعهد إسرائيل بالانسحاب الكامل مع ضمان أمريكى بالتنفيذ. وقد دأبت أمريكا على أن تروج من حين إلى حين أن العرب على وشك رفع الحظر. ولكن هذا لم يتحقق الا فى مارس ١٩٧٤ بشروط العرب، وهى إعادة النظر فى القرار فى يونيو، الأمر الذى يعنى فى الحقيقة إعادة فرض الحظر إذا لم تنفذ أمريكا تعهداتها.

وفى هذا الصدد حذر فولبرايت فى دراسة أعدها وفد من لجنة الشئون الخارجية بالكونجرس من أن العرب قد يعوون إلى استخدام بترولهم كسلاح حتى تجاب مطالبهم ضد إسرائيل. فقد وجد الوفد فى كل دولة عربية زارها إيمانا تاما فى صحة وقيمة استخدام البترول كسلاح لإرغام أمريكا على الضغط على إسرائيل. ذلك أن التوصل إلى الفصل بين القوات فى السويس أثبت للعرب أن البترول سلاح فعال. ومن ثم يبدو من المعقول - يضى التقرير - توقع استخدامه مرة أخرى كوسيلة للضغط على أمريكا فى معالجة المشاكل السياسية الأكثر حيوية والمتعلقة بالفصل على الجبهة السورية ومستقبل القدس والشعب الفلسطينى.

ومن جانبهم ، فلقد أكد العرب حين أصدروا قرارهم شبه الاجماعى برفع الحظر أن «الذى يرفع يستطيع أن يحظر من جديد» وأن «استخدام البترول كسلاح سياسى سيكون دائما تحت تصرف العرب إذا لم يتم انسحاب إسرائيل من الأراضى العربية المحتلة». وهذا يفسر النص على إعادة النظر فى الموقف فى يونيو. وإذا كان العرب قد اعتمدوا صيغة تعميمية لىون تحديد أو تسمية دولة بعينها، وكانت أمريكا على لسان رئيسها قد لجأت إلى التهديد بأنها لن تخضع لآى ضغط من جانب الدول العربية ولن تقبل رفع حظر مشروط ، وحذرت من أن الرفع المؤقت أو المشروط «ستكون له آثار عكسية للاهداف التى تسعى إليها الدول العربية» فلم يكن هذا وذاك فى الحقيقة إلا لحفظ ماء وجه

أمريكا. ومن هذا الموقف وحده نستطيع أن نتفهم ما أعلنه نيكسون من أنه «لا يعتبر رفع الحظر العربي البترول قرارا مشروطا»، كما أكد في الوقت نفسه «أننا نسعى إلى تحقيق سلام دائم مهما حدث للحظر».

ذلك كان الموقف حتى قريب . فاذا ما استمر الشوط إلى نهايته المفترضة فقد ترغم أمريكا على أن تضغط جديا على إسرائيل للانسحاب . لكن هذا لن يكون الا بعد صراعات قوة طاحنة داخل المجتمع الأمريكي عامة وداخل الادارة الأمريكية نفسها ثم مع الحليف الإسرائيلي المعاكس. كما أن هذا الضغط ليس من المحتم أن يكون كاملا أو مؤثرا بالضرورة. غير أنه في كل الأحوال سيؤدي إلى تخلخل في التطابق التام السابق بين وجهتي نظر أمريكا وإسرائيل، وقد يتسع مع الوقت إلى شرح أساسي في العلاقات بينهما (؟). وكما أن إسرائيل قد تعلمت أن الأمن ليس بالقوة، فكذلك قد تتعلم أمريكا مستقبلا أن البترول ليس بإسرائيل. بل الواقع أن هذا ما حدث بالفعل، وهناك مؤشرات حقيقية على تغير في الموقف الأمريكي، الذي ينبغي أن يكون موضوعنا التالي.

وأثناء حرب أكتوبر، بالطبع، وإلى ما بعدها لبعض الوقت، لم يكن هناك أي دليل على أن أمريكا قد غيرت أو ستغير موقفها العدائي من العرب - إلا أن يكون التغيير في اتجاه التصاعد. غير أن المفاجأة الكبيرة هي أن تغيراً محسوساً ومهما قد حدث بعد ذلك بالفعل، لا شك بسبب الحرب نفسها ونتائجها غير المتوقعة. ولهذا يتعين علينا أن نميز في دراستنا هذه للموقف الأمريكي بين مرحلتين، وهو تمييز كان مستحيلاً وغير متصور على الإطلاق منذ عام فقط بل أقل من العام. وربما كانت ثورة العام من ١٩٧٣ إلى ١٩٧٤ هي الخط الفاصل بين هاتين المرحلتين بالتقريب. فأما المرحلة الأولى فهي مرحلة التطابق التام أو شبه التام بين أمريكا وإسرائيل ، وأما الثانية فهي مرحلة اهتزاز التطابق أو مرحلة الاختلاف البارز التي ظهرت بالتدريج خلال الشهور القليلة الأخيرة.

مرحلة التطابق

فعندما قامت الحرب كان انحياز أمريكا لإسرائيل كاملاً ومطلقاً. فهي وإن لم تثر مسألة من الذي بدأ بالهجوم أي بالعنوان (ببساطة لأنها كانت أسخف من أن تثار)، فقد حاولت أن ترغم العرب على عدم مواصلة القتال منذ أول يوم، مرة بدعوى الخوف عليهم من هزيمة ساحقة قاضية تنتظرهم على يد إسرائيل كالمعهود (كذا)، ومرة

بدعوى ضبط النفس والحرص على السلام العالمى.. إلخ . ولكن الأخطر من هذا أنها، رغم بعض التردد المؤقت، اتخذت القرار المعادى باغراق اسرائيل بالسلاح المتطور والمتفوق حتى تقول هذه «كفى».

وكان الأمر المؤكد أنها تريد أن تعيد التفوق العسكرى للعدو وأن تطمس انتصار العرب بأى ثمن واجهاضه إن أمكن لصالح اسرائيل. ومن الثابت أنها دخلت المعركة بالفعل وإن يكن بصورة غير مباشرة، إلى الحد الذى دعا الرئيس السادات أن يكتب بنفسه إلى الرئيس الأسد أثناء المعركة قائلاً «.. فى الأيام العشرة الأخيرة فانتنى على الجبهة المصرية أحارب أمريكا بأحدث ما لديها من أسلحة».

كذلك فلقد كانت هناك عدة علامات كما حدثت بعض تطورات ومواقف فى أعقاب الحرب مباشرة لم تكن تشجع كثيراً على التفاؤل بصدد الموقف الأمريكى. فثمة مجموعة من الشيوخ الأمريكيين حرضت إسرائيل علناً على عدم الانسحاب من شبر واحد من الأراضى المحتلة(!)، بينما ذهب السناتور هنرى جاكسون الصهيونى المتعصب إلى أنه «يجب عدم مكافأة العرب والروس بتنازلات لأنهم الذين بدأوا الحرب» (كذا!) . ولن نذكر هنا تلك النظرية المفرطة فى التشاؤم والتي كانت تقول إن أمريكا قد تشجع وتدفع إسرائيل إلى الحرب من جديد لتفرض وضعاً عسكرياً جديداً أفضل يساعد أمريكا على فرض تسوية سياسية ملائمة من وجهة نظرهما معاً. ولكن يكفى أن نذكر تصريحات الرئيس نيكسون المتعددة، خاصة فى اتصالاته مع ماير، عن التزام الولايات بضمان قوة وأمن إسرائيل ورخائها ورفاهيتها.

وحتى البعض ممن يعدون أصدقاء العرب أو غير المنحازين من الساسة الأمريكيين نصح العرب بالألا يتوقعوا أن يستربوا كل أرضهم المفقودة فى يونيو. فمثلاً صرح فولبرايت بأن العرب لا يمكنهم أن يتوقعوا استعادة كل بوصة من الأرض التى خسروها عام ١٩٦٧ فى التسوية النهائية. وبعد أن وضح للاسرائيليين أن عليهم أن يروضوا أنفسهم على حل وسط وأن الوقت لم يعد فى جانبهم، أضاف أن التعديلات فى الأراضى التى تطالب بها إسرائيل يجب ألا تكون جوهرية.

وعدا هذا فلقد كان البعض يرى فى الموقف الأمريكى من أوروبا أثناء الحرب مؤشراً كافياً جداً لتحديد اتجاه أمريكا ونواياها فى الضغط على إسرائيل من أجل سلام عادل

ودائم في المنطقة. فلقد أشار هؤلاء المعقبون إلى أن أمريكا التي اضطدمت اضطداما خطيرا مع كبريات حليفاتها في أوروبا الغربية لسبب ثانوي نسبيا وهو مجرد عدم المساهمة في نقل السلاح الأمريكي إلى إسرائيل أثناء الحرب ، لا يتوقع منها منطقيا أن تصطدم مع إسرائيل نفسها لمصلحة العرب.

لكل هذا ولغيره كثير كان الرأي الغالب بين المراقبين حتى أواخر العام الماضي تقريبا هو أن تأثير الحرب على السياسة الأمريكية في المنطقة كان لايزال ثانويا وطفيفا، وأن أهدافها الأساسية ظلت قائمة كما هي، وهي باختصار أن إسرائيل قبل وفوق الجميع. بل لقد كان البعض لا يستبعد أن تتفق أمريكا مع إسرائيل فيما بعد على «جولة حرب جديدة، تريان أنها أصبحت قادرة عليها، لاعادة «عقارب القوة» إلى الورا».

التغير الأمريكي واهتزاز التّطابق

غير أن هناك ، فيما بدا على وجه اليقين ، تغيرا طرأ على موقف أمريكا، وإن بقي أن نعرف حجمه ومداه وإلى أي حد. وإذا لم يكن هناك شك في وقوع التغيير، فكذلك لا شك البتة في سببه. «ما الذي غير موقف أمريكا؟.. نحن الذين غيرنا موقف أمريكا» - كما تسأل ثم أجاب الرئيس السادات. فلا جدال أن حرب أكتوبر هي المسئولة عن هذا التغيير، ولا مجال للشك أو التشكيك في هذا. بل لقد اعترف الرئيس الأمريكي نيكسون شخصيا بذلك حين قال «لقد كان على الولايات المتحدة - بعد حرب أكتوبر - أن تقوم بدور ايجابي بهدف التوصل إلى تسوية دائمة في الشرق الأوسط». فلقد كان هناك دائما خطران مسلمان ومعلقان على رأس أمريكا (ومعها اسرائيل) ما لم يتم التحرك بسرعة نحو تسوية سياسية مقبولة عربيا .

الخطر الأول عودة العرب إلى الميدان ، وهذا أمر مفهوم ولا يحتاج إلى تعليق، لأن توقف القتال نفسه كان ملعقاً بشرط تحقيق تلك التسوية. وفي هذا كانت أمريكا تخشى دائما تصاعد الصدام المحلي إلى مواجهة نووية مع الاتحاد السوفيتي. أما الخطر الثاني فسلح البترول الذي ظل يعمل بلا توقف عدة شهور بعد المعركة وكان له أثره الخطير في الحياة الأمريكية والاقتصاد الأمريكي، فضلا عن الحرج السياسي البالغ والعزلة اللذين استشعرتهم الولايات من جراء الضغوط السياسية والمادية والمعنوية التي كانت تتعرض لها (وتبذل مثلها أيضا) كل دول العالم التي أضيرت من خفض انتاج البترول العربي.

وقد تبدى تحرك أمريكا والتحول الجنينى فى موقفها فى الاتصالات الدبلوماسية المكثفة التى قام بها كيسنجر بوجه خاص مع العرب وبالأخص مع مصر . ثم تأكد الاتجاه فى الفصل بين القوات على الجبهتين المصرية ثم السورية وبور كيسنجر فيه . ثم استمر هذا الاتجاه البارز أو النامى الذى كشف عنه أساسا الرئيس السادات شخصيا وبنفسه فى سلسلة من الأحاديث الصحفية العالمية والخطب الجماهيرية ، نقتبس منها هنا بحسب تسلسلها الزمنى .

فأولا أوضح الرئيس أن «تغييرا جوهريا قد طرأ على السياسة الأمريكية.. فعلى الرغم من أن الولايات المتحدة أمدت إسرائيل على نطاق واسع بأكثر الأسلحة والمعدات العسكرية تعقيدا وتقدما، إلا أنها أدركت بسرعة خطورة العواقب الناجمة عن حرب ٦ أكتوبر . وكانت هذه هى نقطة التحول التى أفضت بالولايات المتحدة إلى نظرة جديدة تجاه الشرق الأوسط، وإلى أن تشرع تبعا لذلك فى انتهاج سياسة تعمل من أجل السلام القائم على العدل فى المنطقة».. ثم وضع سيادته، موجهها حديثه إلى أرندى بورجريف مندوب النيوزويك الأمريكية، كيف أن «محادثاتي مع الدكتور كيسنجر قد أقنعتني بأنه يرفض الفكرة السانجة التى يذهب إليها بعض الاستراتيجيين عندكم ممن ينظرون - أو كانوا ينظرون - إلى إسرائيل باعتبارها رجل البوليس الأمريكى فى هذا الجزء من العالم».

وفى مناسبة أخرى صرح الرئيس بأننا «لا نريد من الولايات المتحدة أن تكون إلى جانبنا، وإنما أن تكون إلى جانب العدل. وأعتقد أنهم يتغيرون، وأن كل شىء سوف يسير على ما يرام». وفى مؤتمر لاهور كان فى استطاعة الرئيس أن يعلن «الآن يمكن القول إن الأمل كبير فى أن تؤدي المحادثات التى تجرى حاليا حول الشرق الأوسط إلى سلام دائم». وفى مناسبة تالية انتهى الرئيس على هذا الأساس وغيره مما «لا أستطيع اليوم أن اكشف عنه» إلى أن «أمريكا اتخذت موقف المؤيد للسلام القائم على العدل والتزمت به بواسطة الدكتور كيسنجر فى كل تصرفاتها حتى هذا اللحظة». ولهذا «يجب ألا تؤخذ الأمور بنفس أسلوب ما قبل ٦ أكتوبر». ثم تساعل «هل من مصلحتنا أن نأخذ عداوة الشعب الأمريكى بعد هذا الموقف؟» «وحيث أنه لم تكن هناك مشاكل بيننا (وبين أمريكا) سوى هذا الانحياز الأمريكى لإسرائيل، وإذا استطعنا أن نصل إلى تفاهم .. فلن يكون هناك ما يعكر صفو العلاقات».

وفى حديث إلى مجلة شتيرن الألمانية أكد الرئيس مرة أخرى «أن الموقف فى أمريكا تغير تغيرا حاسما.. ولا بد أن أقول إن تغيرا كاملا قد حدث. ويقتضىنى واجبى نحو أمتى أن استغل هذا الموقف الجديد. ما الذى كان عليه الحال قبلها؟ مواجهة مع أمريكا، ولم يفدنا هذا اطلاقا. وكنت دائما أقول : لا بد لنا قبل إزالة التوتر مع إسرائيل، من إزالة التوتر مع الولايات المتحدة». وأخيرا وفى خطابه إلى الأمة بمناسبة ورقة أكتوبر، أعلن الرئيس أن «أمريكا ليست معنا، ولكنها لم تعد ضدنا الآن .. أمريكا واقفة فى الوسط بيننا وبين إسرائيل .. لقد استطعنا تحييد أمريكا التى كانت منحازة لإسرائيل وتتبنى وجهة نظرها بالكامل».

أما من ناحية أمريكا نفسها ، فقد تتابعت، أو بالدقة تصاعدت، من جانبها التصريحات والمواقف التى تشير إلى التغير عقب أكتوبر. نعم، كما عبرت التايمز بحق، «لقد جاءت لحظة الصدق بالنسبة لأمريكا فى الشرق الأوسط». ولقد كان كيسنجر يردد دائما أن «أمريكا ملتزمة بالدفاع عن أمن إسرائيل وبقائها، لكنها غير ملتزمة بالدفاع عن فتوحاتها». وبعد الحرب فلقد أضاف أن أمريكا ستحجب تأييدها عن أى طرف يبدأ القتال مرة أخرى فى المنطقة. وفى خطوة تالية أوضحت الولايات المتحدة أنها تشعر أنه يجب التوصل إلى بعض الحلول الوسطى لتجنب اندلاع حرب جديدة فى الشرق الأوسط، وكذلك خطر مواجهة بين أمريكا وروسيا فى المنطقة.

وأخيرا ، وليس آخرا ، صرح الرئيس نيكسون بنفسه بعد رفع حظر البترول العربى عن أمريكا أن الولايات المتحدة سوف تواصل مساعيها لاقامة علاقات أفضل مع مصر والنول العربية. وكان مما قاله إن من مصلحة إسرائيل فى المدى البعيد أن تكون أمريكا صديقة للدول العربية، ولو أن اقامة الصداقة بين أمريكا واحدى جارات إسرائيل لن تجعل من أمريكا عدوا لإسرائيل، التى أكد أن واشنطن مستمرة فى تأييد استقلالها وسلامة أراضيها. ثم أضاف الرئيس الأمريكى أنه لن يكون هناك سلام دائم فى الشرق الأوسط ما لم يساند الاتحاد السوفيتى جهود الولايات المتحدة. أو كما قال بالتفصيل «لا يمكن أن يكون هناك سلام دائم فى الشرق الأوسط الا إذا كانت الولايات المتحدة تعمل من أجله ، ولا يمكن أن يكون هناك نور تقوم به الولايات المتحدة الا إذا كان الاتحاد السوفيتى معها». ثم أكد فى النهاية أن النزاع العربى - الاسرائيلى سيكون كما كان دائما أحد أهم الموضوعات فى محادثات القمة المرتقبة فى موسكو خلال يونيو ١٩٧٤.

هكذا نرى بالفعل أن هناك علامات ومؤشرات على تغير الموقف الأمريكى، وإن كان من السابق لأوانه كثيرا، كما هو من المستحيل بالطبع، أن يجزم أحد بمدى وحجم ذلك التغير، وإلى أى حد يتناسب هذا مع ، أو يقصر بون ، المطلوب لفرض التسوية على الطرف الرافض. وإذا كان البعض أو الكثير منا ومن غيرنا قد تساعلوا بحق عن السبب فى هذا التغير الذى يبدو غريبا نوعا ما، هو فجائى جدا، حيث أن «أمريكا، عدوتنا التقليدية وصديقة إسرائيل، أصبحت فجأة ولية أمر سلامنا» كما سألت الرئيس السادات الصحفية اللبنانية علياء الصلح ، فإن هناك على ما يبدو مجموعة معقدة ومتشابكة من الأسباب والدوافع الاستراتيجية والتكتيكية.

بالأولى نقصد خشية أمريكا من عواقب التصاعد والتصادم النووى، وربما كذلك ضغوط الوفاق، ثم خطر البترول المسلط، وأخيرا خوفها من أن تفقد المنطقة العربية أو أصدقائها أو مصالحها فيها نهائيا ، ورغبتها كذلك فى استعادتها بل وإن أمكن «طرده» منافسيها بها سواء من الشرق أو الغرب.

أما الأسباب التكتيكية، التى قد تبدو دخيلة وعارضة ولكنها فاعلة ومؤثرة مع ذلك، فتتمثل فى مشكلة الادارة الأمريكية الداخلية، أى أزمة وترجيت. فالمقول إن تلهف الرئيس الأمريكى على تحقيق نصر سياسى عالمى داو فى الشرق الأوسط، على غرار ما فعل مع السوفييت ثم الصين، يمكن أن يبعد به أنظار وانتباه الأمة عن الأزمة ويغرقها به ويعوض عنها، قد يكون من نوافع أمريكا إلى البحث الجاد عن حل لأزمة الشرق الأوسط..

فإن صح هذا، ولعله لا يخلو من صحة، لكان معناه أن العوامل التى حدثت بالقيادة الأمريكية إلى موقفها «النووى» المتطرف غير المعقول أثناء المعركة، هى نفسها التى تدفعها الآن إلى الإصرار على دور رجل المطافىء. ولئن بدا فى هذا قدر أو آخر من التناقض، ولا نقول الانتهازية، مما يجعل الدور الأمريكى فى المرحلة الأخيرة سلاحا ذا حدين بدرجة أو بأخرى، فذلك أمر مفهوم فى السياسة، حيث تسيطر المصالح لا الاخلاقيات وتسود.

على أن المهم أن هذا بالنقطة ما يجعل البعض يتخوف من الاعتماد أكثر مما ينبغى على الدور الأمريكى، حيث قد يعجز أو يسقط فجأة داخليا لذلك السبب نفسه. ولكن كما وضع الرئيس المصرى لجنة شتيرن ، فإنه لا يعتمد على «الاله الجالس فى واشنطن».

وانما على الشعب والجيش والامة العربية يعتمد. ومن جهة أخرى فان الدوافع المحلية التكتيكية الأمريكية تعد نقطة ضعف أخرى لها ازاء الضغوط الاسرائيلية المضادة المتمثلة فى ضغوط الصهيونية الأمريكية القوية النفوذ واستغلالها أزمة ووترجيت الداخلية لابتزاز الرئاسة وفرض حدود معينة على مرونتها فى السياسة الخارجية المتعلقة بمشكلة الشرق الأوسط. والملاحظ فعلا تزايد الحصار المضروب حول الرئيس الأمريكى فى قضية ووترجيت، كما يلاحظ سقوط فولبرايت فى انتخابات الكونجرس، وقد تكشف الأيام عن أصابع الصهيونية وراء هذه التطورات. غير أن هذه وأمثالها مشكلة أمريكا مع إسرائيل أو اسرائيل مع أمريكا أكثر مما هى مشكلتنا مع أمريكا.

الباب الثالث

بعد أكتوبر

الفصل العاشر

احتمالات المستقبل

فى الحديث عن المستقبل واختياراته المحتملة أو احتمالاته المحتملة، لابد لنا من ناحية الدراسة الاكاديمية البحتة ان نفرق ابتداء بين بعدين وهدفين اثنين وأن نميز بينهما تمييزاً واضحاً، المدى القريب والمدى البعيد. الأول هو «إزالة آثار العدوان»، أى العودة إلى ما قبل يونيو كهدف مباشر لا يقبل تأويلاً أو تأجيلاً ولا مساومة أو تنازلاً أو انصاف حلول. والثانى هو قضية فلسطين الأساسية، قضية الحق التاريخى والوطن السليب والشعب الطريد، كيف يعود، ومتى، ولا نقول هل؟.. الخ. وهذا يعنى على الفور أيضاً قضية الوجود الاسرائيلى والاغتصاب الصهيونى الجاثم على أرض فلسطين المحتلة.

واذا كانت الرؤية واضحة نوعاً واختيارات الحلول، واختباراتها أيضاً، سهلة الحصر والتحديد والتحليل نسبياً فى حالة الهدف الأول، فانها فى الثانى معقدة حرجية وشائكة إلى أقصى حد. والمشكلة إلى هذا أن الفصل التام الصارم بين المرحلتين أو الهدفين غير ممكن نظرياً وشبه مستحيل عملياً. العدو على الأقل يربط بينهما ربطاً مباشراً ويرتب أحدهما على الآخر، وسنرى لماذا . كما أننا من جانبنا نربط بينهما ولكن لأسباب أخرى مناقضة تماماً.

والنتيجة أن الصورة المترتبة تخرج كلها وهى أشبه بالأحاجى أو الألغاز الصينية Chinese puzzles أو تلك المجموعة من الأشكال والقوالب والقطع الهندسية التى يراد لها ان تؤلف نمطاً معقولاً ولكنه يكاد يكون مستحيلاً jig-saw puzzle على أننا فى الاثناء يمكننا أن ننظر إلى البعدين القريب والبعيد كما لو خلال منظار تلسكوبى ، أول البعدين هو عدسته القريبة وثانيهما البعيدة. ولهذا فلنبداً بمشكلة الوضع الراهن والأهداف المباشرة مركزين عليها بقدر الامكان، دون أن نتجاهل خلفيتها ووراها الذى يفتح رأساً على جذور وأعماق المشكلة الأصلية الأم.

إزالة آثار العدوان

حين قبلت مصر وسوريا وقف اطلاق النار، استجابة لطلب مجلس الأمن فى ٢٢ اكتوبر، فانما قبلتاه من موقف القوة. وكان هذا أول مرة منذ ١٩٤٨ تقبل فيها الدول العربية وقف الاطلاق من هذا الموقف، موقف المنتصر، وليس من موقف الضعف والهزيمة كما حدث فى ١٩٤٨، ١٩٦٧، كذلك فلقد قبلت الدولتان القرار على أساس أنه يؤمن - بضمين الدولتين الأعظم - تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الذى يتضمن أول ما

يتضمن النص على انسحاب العدو الاسرائيلي من جميع الاراضى التى احتلها فى عدوان ١٩٦٧.

وحين قبلت اسرائيل وقف الاطلاق فى لهفة بادية، فانما كان لتفقت من احتمال هزيمة كاملة. وعندما خرقتة بعد ذلك مباشرة غيلة وغدرا، فانما بهدف ان تقلب هزيمتها نصرا، ولكن عبثا. اما عندما عاد مجلس الأمن فأصدر قراره بالعودة إلى خطوط ٢٢ أكتوبر، وقدمت الولايات المتحدة نقاطها الست لتنفيذه، فانما قبلت اسرائيل بهدف أن تمتص طاقة الضغط الدولى وتكسب وقتا ثميناً ثم لتراوغ وتعوق حتى تجمد الموقف على ما هو عليه. وقد تم لها هذا بالفعل، ولكن إلى حين، من خلال مباحثات الكيلو ١٠١ التى تحولت إلى حلقة مفرغة من التلاعب والتسويف والمماطلة حتى رفضت مصر الاستمرار فيها وانسحبت منها.

وبذلك لم يبق الا مؤتمر السلام المنعقد فى جنيف الذى كان اقتراحا مصرياً اصلاً، أى مبادرة عربية من مركز القوة، والذى تدور مباحثاته تحت اشراف مشترك للقوتين الأعظم ولكن فى نطاق الأمم المتحدة. وبذلك أيضاً انتقلت، تأجلت، مهمة محادثات الكيلو ١٠١ بالضرورة إلى جدول أعمال مؤتمر جنيف. وعندما ناورت اسرائيل من اجل هذه النتيجة، فقد كان ذلك بهدف ان تدخل المؤتمر من موقف عسكري أقوى مما لو كانت قد انسحبت إلى خطوط ٢٢ أكتوبر.

ولكن مصر كانت يقضى لهذه المناورة وغيرها، وعرفت كيف ترد عليها عملياً وبلا ضجيج. فقد راحت تدعم موقفها على الجبهة وتحسن مواقعها القتالية كل يوم وسلطت على العدو حرب استنزاف جديدة كما دعاها هو نفسه فى شكاواه التى لم تنقطع. وأخيراً فانها أخذت تتقدم بقواتها وخطوطها الامامية ويبدأ ولكن أكيداً، محددة رقعة وجوده ومحكمة عليه الحصار أكثر وأكثر.

لقد بدأت المعركة السياسية بعد أن توقفت المعركة العسكرية، وانتقل الصراع من الميدان إلى المائدة، وخرجت القضية من البعد المحلى إلى البعد الدولى. والواقع كما رأينا أن البعد المحلى خلال المعركة نفسها كان على أشده وهو السائد مباشرة، بينما تراجع البعد الدولى نسبياً إلى الهوامش رغم كل خطره وأخطاره. أما منذ بدأت المعركة السياسية فقد انعكس الوضع وعاد البعد الدولى وهو المسيطر والغالب، ومعه يمكن أن

تبدأ بل بدأت بالفعل، معركة حقيقية وضارية من أجل تحقيق أو تجميع نتائج المعركة العسكرية وتثبيت أو تضييع النصر الذي حققه العرب في القتال ثم في النهاية لمنعهم من قطف ثماره السياسية الطبيعية.

وموقف العدو (ومعسكره) مفهوم تماما - من وجهة نظره - منطقيا كما أن موقفنا نحن مفهوم تماما منطقيا وموضوعيا ونضاليا. فهو مثلنا يريد أن يخرج من المعركة بالحد الأقصى من المكاسب والأدنى من الخسائر، وذلك بعد أن لم يحسم القتال الموقف لصالح أحد الطرفين حسما مطلقا بحيث يملأ ارادته الساحقة على الآخر. والحد الأدنى المعلن الذي نقبل به نحن كعرب هو عودة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل ٥ يونيو، أي الحالة القائمة قبل الحرب *status qua ante bellum*، وعودة حقوق الشعب الفلسطيني. أما العدو من جانبه فليس لديه حد أدنى واضح، وإنما هو - هذا الحد - يتذبذب بين المراوغة والاغراء والغرور والتغريب ثم الحقد والطمع، حتى ليتطابق أحيانا مع الحد الأقصى المطلق وهو بقاء الحالة الراهنة بعد الحرب إن أمكن *status quo*. إنها أهداف متضادة وعلى طرفي نقيض تماما.

والسؤال الآن: ما هي احتمالات المستقبل؟ ما فرص نجاح المؤتمر؟ ما هي أهداف العدو وخطته فيه، الاستراتيجية والتكتيكية؟ هل تنوى أمريكا حقيقة أن تضغط على إسرائيل لتتسحب وهل تقدر وتملك؟ وإسرائيل، أترضخ؟ هل تتسحب إسرائيل أم تعود إلى القتال؟ أينجح الحل السياسي أم يفرض الحل العسكري نفسه كالبديل الوحيد والمرجع الأخير؟ هل تتحول لعبة الصراع إلى جرعات متبادلة وجولات متداخلة من الحل السياسي والحل العسكري؟ باختصار ما هي صورة المستقبل العريضة على الأقل في بروفيلها الجانبي؟

الفصل على الجبهة المصرية

لنبدأ بمواقف العدو الفعلية وتصريحاته المعلنة من خلال أعماله وأقواله منذ المعركة. ولعل من المفيد أن نقسم هذه المواقف إلى ثلاث مراحل، الفصل بين القوات على الجبهة المصرية، ثم الفصل على الجبهة السورية، ثم أخيرا مؤتمر جنيف.

فأما عن الفصل على الجبهة المصرية، فإن إسرائيل حين أعلنت مرغمة قبولها للانسحاب إلى خطوط ٢٢ أكتوبر التي كانت قد تجاوزتها خلسة وخرقا لقرار وقف إطلاق

النار، لم تكن تعنى ما تعلن، بل تضمر المناورة والمراوغة. فتؤلا ثارت معارضة هيستيرية داخلها ضد الانسحاب بدعوى أنه «انتحار وطنى»، لن يمنع قيام حرب أخرى، ولكنه سيجعل اسرائيل اضعف عندما تتشب حرب أخرى. وقامت المعارضة وقطاع كبير من الاسرائيليين فاتهموا الحكومة بثتها تورطت فى تدهور مريك خطير.

ولكن الحكومة من جانبها لم تكن فى الواقع أقل معارضة، إلا أنها فقط كانت أكثر خبثا والتواء. فأعلنت أولا على لسان رئيسة وزرائها ان خطوط ٢٢ أكتوبر هذه من أكثر الاشياء غموضا فى العالم وما من أحد يعرف بالضبط أين كانت ! ولم يكن هذا الا تمهيدا للخطوة المنطقية التالية وهى رفض الانسحاب تماما . اذ لم تلبث مايير أن صرحت أن «أحدا لا يستطيع أن يحدد مواقع الجانبين يوم ٢٢ أكتوبر . اذ لم يكن هناك مراقبون بالمنطقة» ! ولم يكن ذلك صحيحا قط ، فهناك خرائط الميدان وصور الأقمار الصناعية، يوما بيوم ، بل ساعة بساعة. ولكن المطلوب اثباته كان ببساطة هو أن تلك خطوط «وهمية» وان تلك المواقع «لم يكن لها وجود» كما انتهت مايير بالفعل بونما حياء أو خجل.

فلما سيقّت اسرائيل بعد ذلك كارهة إلى محادثات الكيلو ١٠١ لترتيب فض الاشتباك والانسحاب، حولت المباحثات إلى مباراة من طرف واحد فى المراوغة والتسويق. فمن الناحية الاجرائية، تعدد طلب الوقت للبحث وتكررت العودة إلى طرح اقتراحات سبق رفضها أو سحب اقتراحات سبق طرحها . كما تواتر التعلل بعدم التفويض لمناقشة الخطوط النهائية ويانتظار نتائج الانتخابات العامة.. الخ. ومن الناحية الموضوعية دارت استراتيجية العدو حول اللعب على، والخط بين، بندى أو مبدأى الفصل بين القوات المتحاربة والانسحاب نفسه، فأخذت تطرح اقتراحات مخادعة ومراوغة لتعطيل تنفيذ الاثنى على السواء. ومن هذه الزاوية يمكن أن نحصر الضوابط الأساسية مقحمة الاسرائيلى كما تبدت فى المحادثات فى ثلاثة.

أولا: الخط العامد بين العملية كعملية عسكرية بحث وكعملية سياسية مقحمة، بحيث تختلط عملية الفصل بين القوات بعملية انسحاب الاحتلال وفكرة المناطق العازلة بمسألة حقوق السيادة الى أثارها اسرائيل فعلا أثناء المحادثات والهدف من ذلك كله هو الخروج من مأزق جيب الدفرسوار بأقل ثمن ممكن أو خسارة.

ثانيا: أن تكون العملية عملية مقايضة ومساومة من الجانبين مع توازن فى التزاماتهما. وقد كان هذا تمهيدا للمطالبة بأن يكون الانسحاب من جانب الطرفين ويقدر

متساو، وإن عاد العدو فعرض أنه ليس من الضروري أن يكون الانسحاب من جانب الطرفين بالقدر نفسه.

ثالثا: وأخيرا، أن يكون الفض «معبرا عن نتائج المعركة العسكرية» وثقلها، بحيث لا يبدو - هكذا منطلق العدو - كهزيمة لأى من الطرفين، وأن يكون الانسحاب فى مدى الحد الأدنى الممكن ، وليكن - هكذا اقتراح العدو - مدى رؤية القوات بعضها البعض بالعين المجردة أى فى حدود ٢ - ٣ كيلو مترات.

وعلى الفور رد الجانب المصرى (راجع كتاب حرب رمضان) بثلاثة مبادئ وضوابط مضادة التزم بها فى كل المحادثات ونقض بها كل مناقشات العدو .

أولا: أن العملية برمتها عملية عسكرية بحتة كأيما محادثات تحدث بين القوات المتحاربة فى أى ميدان قتال، وليس لها أدنى صيغة أو مدلول سياسى ، فهذا متروك لمؤتمر جنيف، والعملية أساسا هى فض الاشتباك والفصل بين القوات على أساس حد أدنى معين هو العودة إلى خطوط ٢٢ أكتوبر الرسمية أو القانونية.

ثانيا: الانسحاب أساسا من جانب طرف واحد فقط، هو الطرف الاسرائيلى، ليس فقط لأنه المعتدى والأرض كلها مصرية شرق وغرب القناة، ولكن أيضا وأساسا لأنه الخارق لقوانين القتال بتوسعه غدرا بعد اعلان وقف اطلاق النار. أما مصر فلن تنسحب من شبر واحد من أرض مصرية حررتها بالقوة والحق معا، وهذا مبدأ بديهى غير قابل للمناقشة أو اللجاج.

ثالثا: وأخيرا . الفصل يجب أن يحقق مبدأ فض الاشتباك والغرض الحقيقى منه وهو منع الاحتكاك بين القوات واستبعاد احتمالات تجدد القتال مرة أخرى . على هذا فان الانسحاب ينبغى أن يكون إلى مدى واسع يضمن تباعد القوات عن اقصى مدى للنيران المباشرة، كما يؤمن مدن القناة باعتبارها مناطق مدنية واقعة داخل منطقة تداخل القوات. ولما كان هذا المدى هو مرمى المدفعية البعيدة المدى (نحو ٣٥ كم) فليكن هذا هو الحد الأدنى للانسحاب.

هذا عن خطة المناقشات العامة أما عن خطواتها التفصيلية، فبدلا من أن نتتبع المساجلات والأخذ والرد بين الجانبين، والتي تكررت عناصرها أحيانا، قد يكون من الافضل ان نحصر فقط الجدل والاقتراحات الأساسية لكل جانب على حدة. فبهذا

التصنيف الموضوعي والحصر المنطقي تتضح المواقف الأساسية أكثر منها بالترتيب الزمني أو التعاقب الحوارى. فعلى الجانب الاسرائيلى، طرح العدو أربعة اقتراحات مختلفة كان كلها خليقا بالرفض منذ اللحظة الأولى.

الأول: الانسحاب المتبادل على الجانبين والصفتين، أى أن تنسحب القوات الاسرائيلية من الضفة الغربية إلى سيناء والمصرية من سيناء إلى الضفة الغربية. وهكذا بساطة يعود الوضع إلى ما كان عليه قبل ٦ أكتوبر تماما، كان شيئا لم يكن، لا حرب وقعت ، ولا نصر حققه العرب ، ولا أرض حررت!

وحين رفض هذا السخف المتغابى بطبيعة الحال، كان الاقتراح الثانى للعدو هو أيضا الانسحاب المتبادل للطرفين وعلى الصفتين ولكن مع احتلال قوات الامم المتحدة للمناطق المحتلة، التى تصبح بذلك منطقة عازلة بين الطرفين. ومن السهل أن نرى أن هذا الاقتراح هو «مقلوب» الاقتراح الأول، وانما بالسالب لا الموجب ، فهو تبادل الاخلاء حيث الاول تبادل الاستيلاء. وهو بهذا لا يختلف كثيرا عن ذلك الاقتراح الا ان يكون أكثر سوءا، من حيث انه لا يعيد عقارب الساعة إلى الوراء فقط ولكنه يوفقها نهائيا من وجهة النظر المصرية.

هنا تقدم العدو (بالأصح تراجع) باقتراحه الثالث: انسحابه من الضفة الغربية مقابل انسحاب الجيش الثالث من الضفة الشرقية. والواضح أن العدو كان يحاول ان يستغل ما اعتبره ورقة «أزمة حصار الجيش الثالث» التى ملأ الدنيا بها ضجيجا ، غير مدرك جيدا أنها لم تكن الا من صنع وهمه وامانيه ودعايته. ولكن الأوضح منه ان اقتراح العدو كان فى الحقيقة «اسقاطا» منه على هذا الجيش لأزمته هو الحقيقية والمستحكمة جدا فى جيبه المحاصر والمهدد على الضفة الغربية. على ان الاوضح من الكل ان الاقتراح يساوى فى الواقع «نصف» اقتراح العدو الاول، اقليميا وعسكريا . وهذا وحده يكفى ليوضح اتجاه مساومة العدو التنازلى خطوة بخطوة كلما حوَصر بالرفض والتفنيد.

وهنا ابرز العدو عرضا آخر: أن ينسحب هو من الضفة الغربية كذلك لمسافة ١٠ كم شرق القناة من الضفة الشرقية ، يكون للقوات المصرية فيها وجود رمزى فقط بينما ينسحب جسمها الاساسى إلى الضفة الغربية . ويكاد هذا الاقتراح أن يكون خليطا مشوشا من الاقتراحين الأول والثانى، وربما الثالث أيضا، مع قشرة جديدة من التمويه

وشكل جغرافى جديد من التوزيع. اما مؤاده الحقيقى فانسحاب مصر من سيناء مقابل انسحاب اسرائيل من الضفة الغربية. ولعله بهذا أقرب إلى الاقتراح الأول منه إلى أى من الاقتراحات الأخرى، كما أنه بالتاكيد أسوأ من الاقتراح الثالث والأخير الذى يبقى مهما كان على الوجود الحقيقى المصرى فى سيناء وان يكن بنصف قوته وأرضه.

على هذه الاقتراحات المرفوضة، ردت مصر باقتراحين مضادين الأول انسحاب القوات الاسرائيلية إلى ما وراء خط العريش - رأس محمد ، أى إلى الشرق من القناة بنحو ١٢٠ كم. وهذا يعنى الانسحاب من نحو نصف مساحة سيناء ، فضلا عن جيب الضفة الغربية. أما الاقتراح الثانى فيقضى بأن يكون خط المضايق هو الحد الفاصل بين الطرفين، تنسحب اسرائيل إلى ما وراء المضايق وتتقدم القوات المصرية لتقف أمامها، مع وجود رمزى لقوات الجانبين على مسافات متساوية على جانبى المضايق تبدأ بعدها القوات الأساسية لكلا الطرفين.

وعلى الفور سنلاحظ أن الاقتراحات الاسرائيلية بدأت بالمزايدة المفرطة ثم اتجهت تنازليا نحو المناقصة. وهذا وحده كان دليلا كافيا على أن خطة المباحثات الاسرائيلية كانت أساسا خطة مناورات أولا، غير عملية ثانيا، وغير منطقية على الاطلاق . فهى لا تعترف بحقائق الموقف العسكرى وتتجاهل نتائج الميدانية، كما لا تحقق الغرض المقصود من فض الاشتباك ولا تتبنى المقاييس العلمية اللازمة له. أما الخطة المصرية فكانت على العكس علمية وعملية وواقعية فى آن واحد، لأنها كانت تأخذ هذه الاعتبارات جميعا فى حسابها.

كذلك لا يقال إن المقترحات المصرية كانت تزايد على المزايدة الاسرائيلية، أو أنها اضطرت مثلها فى النهاية إلى المناقصة . والدليل على هذا أن العدو منذ أن طلب منه الانسحاب أولا إلى خطوط ٢٢ أكتوبر، طرح منذ البداية فكرة القيام «بخطوة كبيرة» على زعم أن مثلها يحل تلقائيا هذه النقطة. ومن هذا المنطلق قدم اقتراحاته المتعاقبة. ولكن الواقع ان العدو كان يهرب ويتهرب اساسا وبالتحديد من تلك الخطوط التى أعلن أكثر من مرة أنه غير مفوض بالانسحاب اليها، إلى أن اعترف صراحة بأن من الأفضل له أن ينسحب من الضفة الغربية كلها خيرا من أن ينسحب إلى خطوط ٢٢.

ومن الناحية الأخرى فقد كان الجانب المصرى كلما وجد العدو يراوغ او يعيد تقديم اقتراحاته القديمة أو يسحب اقتراحاته القائمة، جابهه بالعودة إلى خطوط ٢٢ فلا يجرى

جوابا. إلى أن وصلت المباحثات، منطقيا ، إلى الطريق المسدود ولم ينقذها إلا التدخل الخارجى ممثلا فى الدور الأمريكى ودبلوماسية كيسنجر المباشرة.

ولقد رأينا ربود فعل العدو ازاء اتفاقية الفصل، تلك التى تراوحت بين القول بأنها نذير كارثة» (بيجين) وبين القول بأن «اسرائيل ربما تكون قد خسرت عسكريا من هذه الاتفاقية ولكنها كسبت سياسيا اظهار رغبتها فى السلام» (آلن). فى كل الأحوال ، فلا شك أنه قبلها راغما وكارها .

ومن الناحية الأخرى فقد وضع الجانب المصرى موقفه تماما من أن الفصل، الذى هو عملية عسكرية صرفة كأتى من تلك الاتفاقيات العسكرية التى تبرم بين قوات الدول المتحاربة والتى تدخل فى عداد اتفاقات الهدنة دون ايقاف حالة الحرب، ليس جزءا من الحل السياسى ولا هو حل جزئى وهو اذا كان يعد خطوة أولى صوب السلم، فهو ليس باتفاقية سلام نهائى أو غير ذلك.

أو كما قال الرئيس تيو «مجرد خطوات أولى فى الطريق المؤدى إلى الحل الكامل لمشكلة الشرق الأوسط». أو كذلك كما قال الرئيس الراحل بومبيدو حينذاك انه «يخشى أن يكون هذا الاتفاق مجرد تمهيد للهدنة. وليس سلاما حقيقيا». ويكمل الصحفى الأمريكى ارنودى بورجريف الصورة ويختتمها فيقول بحق «اذا لم تفتح اتفاقية فصل القوات الطريق إلى اتفاقات أوسع، فان هذه الاتفاقية قد تؤدى إلى حرب أخرى».

أما من الجانب المصرى، فقد أوضحت مصر بجلاء أنها لا تقبل الانسحاب من بقية سيناء على مراحل، وانما على مرحلة واحدة وفى غضون شهور لا أكثر. كذلك ردد الرئيس السادات أكثر من مرة مؤخرا أنه ليست هناك مشكلة بشأن الانسحاب الاسرائيلى من سيناء وأنه لا مفر من هذا الانسحاب وأنه يعتبره أمرا واقعا بالفعل.

وبغض النظر عن كل تصريحات العدو القديمة والحديثة عن أطماعه الاقليمية فى سيناء سواء منها الحد الأعلى أو الأدنى، فقد نقلت الأخبار أن الوزارة الاسرائيلية قبلت مبدأ الانسحاب الشامل ولكن فى ظل اتفاقية سلام لم تنشأ أن تعلن شروطها. ومن ناحية أخرى فقد تضاربت الأنباء كذلك عما يفعله العدو بالفعل فى سيناء، فعلى حين تؤكد انباء أنه مستمر فى بناء مستعمرات فى رفح، تقول أخرى انه أوقف كل مشاريعه وانشاءاته فى سيناء وتوقف عن العمل فى تمهيد طريق ايلات - شرم الشيخ وبناء الميناء السياحية فى شرم الشيخ ... الخ.

وفيما عدا قضية الانسحاب ، يرفض الجانب المصري كذلك نزع سلاح سيناء الا لعشرة! أو عشرين كيلو مترا أو ميلا، بشرط المثل على الجانب الآخر. أما المطالبة بنزع سلاحها كلها فليس عليه الا رد واحد وهو المطالبة بنزع سلاح اسرائيل برمتها (السادات).

معركة الفصل السورية

ومعركة هي بالتأكيد، حقيقة ومجازا، عسكريا وسياسيا. فلأمر ما، لسنا نفهمه، تأخر الفصل بين القوات المتحاربة على جبهة الجولان طويلا. ولم تبدأ المحادثات الجدية حوله بالكاد بينما كان قد تم تنفيذ الفصل على جبهة سيناء نهائيا منذ بضعة أشهر، بل وتم رفع الحظر عن البترول إلى أمريكا وعن خفضه بالنسبة للدول الأخرى. وكان الظن أن يترابط الفصل على الجبهتين في اقتران وتزامن شرطى، وأن ينتظر رفع الحظر كليهما. ولا بد هنا ان ننفي فكرة خاطئة شاعت بعض الوقت فى هذا الصدد مؤداها أن هذا كان تخليا بشكل ما من مصر عن سوريا الشقيقة. وقد عبرت عن تلك الفكرة، غير المعقولة بداهة، محطة التليفزيون الأمريكية على سبيل المثال، حين سألت الرئيس السادات فى حديث له اليها «يتصور البعض أنكم قد تخليتم عن سوريا بعض الشئ لقبولكم الفصل بين القوات فى سيناء»، وأن ذلك خفف من الضغط على الاسرائيليين، وأن السوريين يشعرون بأنهم قد تركوا وحيدين هنا دون أن تمارسوا أنتم ضغطا على الاسرائيليين. فهل هذا صحيح؟». فأجاب الرئيس قائلا «لا يدور ذلك فى بعض الدوائر فى سوريا فقط. بل انه ليدور أيضا فى بعض الدوائر العربية. ولكن هذا ليس صحيحا». ثم أضاف «لقد كنت أفضل أن يكون الفصل بين القوات على الجبهة السورية قد تم منذ وقت طويل. ولو قد تم ذلك لكنا الآن فى جنيف نبحث السلام الحقيقى».

أما حقيقة الأمر فهي أنه منذ اللحظة الأولى أخذ العدو يضع العراقيل فى سبيل الفصل على الجبهة السورية ويثير المشاكل الثانوية ويضخمها بصورة مفتعلة، مثال ذلك مسألة الأسرى الاسرائيليين فى سوريا، تلك التى ملأ بها الدنيا أيضا صياحا وأكاذيب. ورغم تذرع سوريا بالصبر والمرونة، ورغم دبلوماسية كيسنجر «الطائرة» أو «دبلوماسية المكوك» كما سميت والتى وصلت هنا إلى ذروتها ممثلة فى عشرات الرحلات ذهابا وإيابا وعشرات الاجتماعات على امتداد شهر بأكمله، ظل موقف العدو إما جامدا أو مراوغا

مسوفا، وظل الموقف كله لفترة طويلة كما كان غداة وقف اطلاق النار. وكل ما طرأ على موقف العدو نتيجة لحرب أكتوبر أنه أعلن استعداده للانسحاب من الجيب الذي احتله في تلك الحرب، ولكن دون التخلي عن بوصة من القطاع الذي احتله في ١٩٦٧.

وقد نقل عن كيسنجر أنه صرح أكثر من مرة وفي أكثر من مناسبة ان مشكلة الجولان هي أصعب مشكلة تعرض لمعالجتها وانه حتى آخر لحظة لم يستطع أن يقدم تكهنات قاطعة. كما أعلن الرئيس الأمريكى نفسه أن محادثات الفصل السورية «ستكون أصعب من محادثات الفصل بين القوات المصرية والاسرائيلية». وإذا كان هناك هكذا اجماع او شبه اجماع على ان عملية الفصل على جبهة الجولان أشق وأعقد بكثير منها على جبهة سيناء، بل وكان ثمة احتمال ليس بالضئيل أن يتفجر القتال هناك فى النتيجة، فليس هناك خلاف على أن أطماع العدو المبيتة والمعلنة هي السبب فى كل ذلك.

فمنذ حرب يونيو ، بل وحتى بعد أكتوبر ، يضع العدو الجولان فى المرتبة نفسها التى يضع فيها القدس فى قائمة أطماعه ومن حيث عدم استعداده للتخلي عنها تحت أى ظرف أو ضغط ، حتى ولو ذهب إلى حد القتال من جديد. ويتحدد مباشرة وبصورة سافرة، أعلنت مايير فى فبراير ١٩٧٤ أن «كل مستعمرة يهودية فى مرتفعات الجولان جزء لا يتجزأ من اسرائيل».

وفى مناسبة تالية أضافت أنه «ما من ضمانات فى العالم نعهد بها بالنسبة لأمن اسرائيل يمكن أن تصل فى قيمتها إلى وجودنا فى الجولان»، وأن اسرائيل لن تقبل أن يكون «السوريون فوق وهى تحت».

وفى المعنى نفسه أعلن اسرائيل جاليلى أن اسرائيل لن تعود إلى أوضاع ما قبل ١٩٦٧ عندما كان السوريون يستخدمون الجولان «كمنصة لدفعيتهم» لقصف المستعمرات الاسرائيلية تحتها فى وادى الأردن. أما دايان فقد قال ان المشكلة فى الجولان هي أن السوريين يطالبون بالانسحاب الكامل مع الاستمرار فى الاشتباكات، وأنه لذلك «يرى الصورة قاتمة»، ولم يزد على أن كرر استعداد اسرائيل للانسحاب من الجيب المحتل أثناء أكتوبر. وأما ايبان فقد قال ببساطة «لن يمكن احراز السلام ما لم نبق فى مرتفعات الجولان»، كما ردد أن «المشكلة هي تحقيق فصل بين القوات يتفق وأمن اسرائيل ومصالحها الحيوية».

وقد علق الرئيس السوري على هذه التصريحات المكشوفة بأنها «تحمل رغبة اسرائيل الحقيقية فى اقرار السلام موضع تساؤل»، كما أكد مرارا أنه «لا سلام بدون الانسحاب الكامل والاعتراف بحقوق الفلسطينيين».

هذا بينما سارع مسئول أمريكي فصرح تعقيبا على تصريحات مايير بأن «الولايات المتحدة لا توافق على تصريحات السيدة مايير حول مصير الجولان من انها جزء لا يتجزء من اسرائيل ، وأن هذه ليست المرة الأولى التى تختلف فيها مع الموقف الاسرائيلى».

حرب الاستنزاف

فى وجه هذه النوايا الجشعة، كان طبيعيا أن تفرض سوريا على العدو ثمنا باهظا لوجوده فى المنطقة. فمارست «حرب استنزاف» مكثفة وثقيلة، لم يخف العدو ذعره منها، مماثلة لما شنته القوات المصرية من قبل فى جبهة السويس. وقد بدأت الحرب بعد انتهاء موسم الثلوج والأمطار ، وامتدت ثلاثة شهور تقريبا (أكثر من ٨٠ يوما) وهذه الحرب، التى دارت بعض معاركها الشرسة والبالغة الضراوة حول احتلال قمم جبل الشيخ ، تماما مثلما حدث فى أول وآخر معركة أكتوبر، قد كبدت اسرائيل خسائر فادحة ورفعت درجة التوتر فى المنطقة إلى حد يهدد بتفجر الموقف كله.

ولقد عبر مستشار النمسا برونو كرايسكى عن ذلك وقت زيارته للمنطقة بأن هناك «شعورا بالتوتر وحالة حرب تقريبا فى دمشق ، وأن أصوات تبادل النيران تسمع هناك بوضوح» . هذا بينما أعربت وزارة الدفاع الأمريكية عن خشيتها من أنه لا يمكن تجنب احتمال حدوث مواجهة عسكرية أخرى بين سوريا واسرائيل . وبالمثل قال اليعازر انه لا يستبعد اندلاع صراع جديد مالم يتم التوصل إلى اتفاق للفصل بين القوات السورية والاسرائيلية.

وقد أعلن بعض المسئولين الاسرائيليين بعد ذلك أن سوريا قد حشدت على الجبهة نحو ٢٠٠٠ دبابة (فى رواية أخرى أن لدى سوريا الآن ٢٠٠٠ دبابة)، عدا المدفعية الكثيفة ، مما يوحى باعتمادها الهجوم . ثم حدد البعض هدف هذا الهجوم بتحرير الجيب المحتل أثناء أكتوبر أو جيب آخر مماثل من الجولان بدلا منه. وبعد حوالى الشهرين من حرب الاستنزاف كان الموقف قد بلغ درجة التشيع، كما قالت الجيروزالم بوست ، حيث وضع السوريون حول الجيب الاسرائيلى فى الجولان المئات من قطع المدفعية التى يبدو أنه قد تم

تحديد هدف معين لكل بطارية منها بحيث تنهال مئات القذائف يوميا على الهدف الواحد فلا ينجو قط من الخسائر الحتمية.

هذا من جهة . ومن جهة أخرى أعلنت مصر رسميا أن اسرائيل وحدها هي المسئولة عن تصعيد العمليات العسكرية في الجولان. كما أعلن القائد العام للقوات المصرية، على اساس وحدة المعركة العربية، أن حرب الاستنزاف التي تجرى حاليا على الجبهة السورية اذا تحولت إلى قتال جدى أو أصبح الموقف حرجا، فان مصر سوف تشارك في القتال بلا شك . ويأتى هذا فى الوقت الذى يبدو أن اسرائيل حريصة كما يفهم من الجيروزالم بوست على استبعاد شن حرب واسعة النطاق قد تؤدي إلى استئناف القتال فى سيناء وتدهور العلاقات الاسرائيلية الأمريكية.

وعلى الجانب الآخر، رد دايان وردد أكثر من مرة ، ولكن بطريقته المذبذبة بانتظام، مهددا بالحرب. ففي مرة قال «اذا استمر السوريون فى تصعيد القتال على جبهة الجولان، فقد يجد كيسنجر حربا مستعرة فى انتظاره حين يصل» . ثم فى مرة تالية عاد يقول «ان المحاولات السورية المستمرة للاستيلاء على جبل الشيخ الاستراتيجى فى المرتفعات يمكن أن تؤدي إلى حرب شاملة قبل أن يستطيع كيسنجر اجراء مفاوضات للتوصل إلى اتفاق اسرائيلى - سورى بشأن الفصل بين القوات». وأردف مضيفا واسرائيل مازالت تعمل على التوصل إلى تسوية مع دمشق حول الفصل بين القوات». ثم اختتم بقوله «اننا لا نرغب فى حرب شاملة حتى لو عادت علينا بمكاسب عسكرية ، لأننا نتوقع ان تسفر المرحلة الثانية للمفاوضات عن شىء».

فى ظل هذا الموقف المشحون دارت الاتصالات بين اسرائيل وأمريكا من جانب، وبين سوريا وأمريكا، وكذلك بين أمريكا والاتحاد السوفيتى وكذلك بين سوريا والاتحاد، بشأن فض الاشتباك وفصل القوات . وقد اعترف كيسنجر بأن المحادثات والمحاولات تنور ببطء شديد عما كان متوقعا، وان هناك صعوبات بالغة التعقيد. ولكن المناورات الاسرائيلية ظلت بلا انقطاع ، هذا فى الوقت الذى وضع فيه العرب ان نجاح الفصل على الجولان سيكون وحده الدليل على أن «هناك نظرة جديدة فى اسرائيل» (السادات)، وأن الحظر البترولى سيعود فى خلال شهرين (أى فى يونيو) اذا لم يتم الفصل بين القوات على الجبهة السورية، وكذلك فى الوقت الذى أعلنت مصر أنها لن تذهب إلى مؤتمر جنيف الا ومعها

سوريا، ضمن آخرين، بل وإنها سوف تشارك في القتال إذا تطور هناك، كذلك أعلنت مصر أنه مالم تكف اسرائيل عن عرقلة الفك السريع للاشتباك فستكون مسئولة عن القضاء على مناخ السلام القائم، وكذلك على مؤتمر جنيف.

وبهذا أصبح الفصل على جبهة الجولان في رأى البعض هو المفجر المحتمل أو الممكن للجولة القادمة أو الخامسة، مثلما هو المدخل الشرطى والبوابة الحتمية إلى مؤتمر جنيف. ومن هنا بات جليا أن اسرائيل، التى تخشى دخول المؤتمر ولا تريد ان تلج الطريق اليه وتود أن تغلق بابه إلى الأبد، تلعب لعبة الفصل على جبهة الجولان عن عمد لكى تعوق الاجتماع فى جنيف وتعطله إلى اقصى حد ممكن.

خلفية الصراع

ومن ناحية أخرى ينبغى أيضا أن نسجل أن المحادثات قد دخلت كذلك دائرة الشد والجذب بين القوتين الأعظم، وذلك بعد أن انفردت الولايات المتحدة بحل مشكلة الفصل على الجبهة المصرية ثم اصرار الاتحاد السوفيتى من قبيل التوازن على دور أساسى فى حلها على الجبهة السورية. وفى هذا الصدد لوحظ تعدد زيارات جروميكو لسوريا فى نفس وقت زيارة كيسنجر لها أو حوله، لاشك اثباتا للوجود السوفيتى على المسرح وحدا لانفراد أمريكا بالعمل. كما لوحظ عدم التقاء الرجلين بها مع ذلك إلا فى النهاية، وان اجتماعا خارجها كما حدث فى جنيف ثم قبرص، دليلا آخر لاشك على المنافسة.

وفى ذلك الاطار نفسه قيل ان موقف السوفيت هو تشجيع السوريين على اتخاذ موقف متشدد فى محادثات الفصل مع امدادهم بالسلاح الحديث تدعيما لذلك الموقف. ولقد عقدت بالفعل صفقة سلام كبيرة بين الطرفين (١٨٠٠ مليون دولار) ، تشمل أنواعا جديدة ومستطورة إلى اقصى حد ولكن من المؤكد أنه زعم خاطئ ذلك الذى يذهب إلى أنهم يعرقلون التوصل إلى اتفاقية. وقد رفض كيسنجر مؤخرا رأيا بأن السوفيت لا يؤيدون جهود الفصل على الجولان، ونفى أن يكون لامدادهم بالأسلحة علاقة بذلك، ولو أنه عاد فى مناسبة تالية فقال انه يأمل أن يكون الاتحاد السوفيتى «مصمما مثلنا على خفض التوتر فى الشرق الأوسط».

ومن الجهة الأخرى صرح جروميكو بأن الاتحاد السوفيتى ساهم فى محاولات التوصل إلى الفصل بترحيب من سوريا، وأن هناك عناصر ايجابية ومشجعة فى الموقف.

ثم أعلن الاثنان، جروميكو وكيسنجر، في بيان مشترك صدر في جنيف أن الاتحاد والولايات سيعملان معا لحل أزمة الشرق الأوسط ويؤيدان التعجيل باستئناف مؤتمر جنيف، وأنهما وافقا على استخدام نفوذهما من أجل ايجاد نتائج ايجابية، بما في ذلك مشكلة الفصل على الجولان .

وفيما عدا هذا فلقد قيل أيضا ان الموقف السوفيتي يستهدف ألا يتم الفصل على الجبهة السورية على غرار نمط الفصل على الجبهة المصرية، وانما بشروط أفضل وأقوى . بل قيل أكثر، قيل ان المقصود بهذا الموقف هو بالدقة «احراج» مصر (برجنيف يريد احراج السادات، كما نقلت وكالات الأنباء وعبرت الصحف) ، وذلك بعد الاختلافات التي ثارت مؤخرا بينهما . وفي وجه هذا التعقيد، الذي ينبغي عدم المبالغة في تقديره، كان الموقف المصري هو أن «واجبنا الآن أن نحافظ على الموقف السوري» (السادات).

ومن المؤكد أن مصر ، بينما تحرص على وحدة الموقف العربي ووحدة المعركة، ترحب بكل ما من شأنه أن يحقق مصلحة سوريا الشقيقة، وبأقصى درجة عند ذلك. كما لاشك أن بعضا من عنصر المنافسة بين العملاقين في الموقف من شأنه أن يدعم قدرتنا التفاوضية وفرض شروطنا عموما. وجود الثقل السوفيتي - أعلن جروميكو مثلا في ذروة المباحثات أن الاتحاد السوفيتي يعتبر «الدفاع عن الجولان كال دفاع عن ستالينجراد» لاريب دعم للموقف السوري. بل لعلنا نقول ان اجتماع الدورين الأمريكى والسوفيتي في مشكلة الجولان كان ضرورة حتمية لابد منها منذ البداية نظرا لطبيعة أطماع العدو هناك. فاذا كان الدور الأمريكى المنفرد كافيا في حالة الجبهة المصرية، فهو على الأرجح لا يكفي وحده في حالة الجبهة السورية.

لهذا كله فليس ثمة تعارض او تباعد بين موقفى الشقيقتين العربيتين، ولن ينجح أحد قط في عزلهما عن بعضهما البعض. والمهم دائما من وجهة النظر العربية هو وحدة الموقف القومى والنضالى من ناحية مع توازن الموقف الدولى توازنا صحيا من الناحية الأخرى. ولقد كان موقف سوريا بالفعل قوميا وقويا معا، حرص على علاقاته العربية والعالمية على حد سواء، وجمع بين الصلابة والانفتاح . فإلى جانب التنسيق الدائم مع رقيقة المعركة مصر، أوضحت لكيسنجر أنها تود قيام علاقات جديدة مع أمريكا وأنها ترحب بمبادرتها للحل، مؤكدة في الوقت نفسه التطابق التام بين موقف سوريا والاتحاد السوفيتي، على

اساس ان الدولتين الأعظم تتحملان مسؤولية خاصة. وفي النتيجة، وفي النهاية ، خرجت سوريا من معركة الفصل بتوكيد رفقة السلاح مع مصر وتدعيم صداقتها مع الاتحاد وبصداقة جديدة مع الولايات إلى جانب اتفاقية مشرفة ناجحة وراجعة.

فاذا ما عدنا إلى تتبع «سيناريوه» المحادثات، فلاشك أن صعوبة المشكلة وتعقدها كانت تزداد وضوحا كل يوم، مثلما يزداد اكتشاف الهوة الحقيقية في الموقف رغم محاولات التقريب بين طرفي عملية الفصل ولهذا ظلت الأنباء تحمل يوما نبذة التفاؤل الشديد أو الحذر وتبشر بأن الحل ممكن وربما وشيك غدا، ثم تعود في اليوم التالي وتستبعد الأمل تماما أو تؤجله إلى جولة أخرى. يوما يتحدثون عن تقدم كبير ، ويوما آخر تفاهم فيه ضئيل .. الخ..

ولاشك أن كيسينجر كان يمارس ضغطا خفيفا ولكنه حازم على إسرائيل لكي ينجح في مهمته، ولكن إسرائيل كانت تقاوم بعناد واصرار ولكن في دبلوماسية محسوبة، مصممة ومصممة. فهي لا تريد أن تتصادم مع أمريكا بأى ثمن، كما تريد أن تتحاشى أى شق داخلى فيها. ولكن من الواضح أن مشكلة الفصل على الجبهة السورية ، كمسكلة الفصل على الجبهة المصرية من قبل وربما أكثر، كانت تحدث انقسامات عنيفة داخل إسرائيل، كما تسبب توترات عميقة مع أمريكا وتترك مزيدا من المرارة نحوها. ولقد عبرت مايير عن هذا بقولها ان اعتماد إسرائيل على دبلوماسية كيسنجر سيكون أقل من اعتمادها على «نضالها من أجل البقاء» ، وأنه اذا اعتقد العرب وأصدقائنا أننا نريد السلام إلى حد أنه لم تعد لدينا ثقة بالقتال فلن تكون هناك حدود لمطالب الطرفين».

ومن جهة أخرى فإن المعارضة، التى أثارت فى الكنيسة ضجة كبرى حول المباحثات، تضغط على الحكومة لرفض الانسحاب من الجولان وبخاصة من القنيطرة. كذلك فقد هاجم بيجين كيسنجر واتهمه بأنه «يبيع الوهم لإسرائيل». ولكن الحكومة تضع عينا على أمريكا كما تضع الأخرى على الجولان . قال ايبان «إذا خيبتنا أمل كيسنجر، فإن ذلك قد يتسبب فى شقاق مع الولايات المتحدة . لذلك فنحن نتحدث اليه ، ولابد لنا من أن نبحث مجادثات الفصل فى خلفية اقليمية عامة». بينما قالت مايير للمزايدى، حتى من حزبها، «لاستعرضوا وطنيتكم. ان خوفكم على مستقبل الجولان لايساوى شيئا اذا ما قيس بالمخاوف التى تمرق نفسى عندما أفكر فى احتمال فشل المباحثات» (تقصد تصدع العلاقات مع أمريكا).

مراحل المباحثات

هذا عن خلفية الصراعات المحلية والخارجية حول المباحثات. أما عن محادثات أو محاولات الفصل نفسها فقد مرت في عدة مراحل، تطورت في الحقيقة تحت ضغط صلابة الموقف السوري على الجبهة من خلال حرب الاستنزاف من ناحية وتحت ضغط الجهود الأمريكية والدولية من الناحية الأخرى. ونحن هنا سوف نتتبع ذبذبات الموقف ما بين ارتفاع وانخفاض وفي شكل المقترحات والمقترحات المضادة والمشاريع وشائعات المشاريع قبل أن تنتهي إلى الاتفاق الرسمي النهائي. وليس ذلك من قبيل التسجيل أو التوثيق ، ولكن أساسا تتبعاً لخط العدو وخطه وعقله الباطن.

فالموقف الاسرائيلي كان يصير ابتداءً على رفض الانسحاب من الجولان فيما عدا جيب أكتوبر، ثم عاد يتحدث عن «خط يمكن الدفاع عنه».

وبين هذا وذاك استخدمت اسرائيل تكتيك المراوغة وتمييع المواقف والعودة من جديد لاقتراحاتها ومشروعاتها القديمة، أحيانا مع قليل من التعديل وأحيانا أكثر مع مزيد من التشدد، تماما مثلما فعلت في محادثات الكيلو ١٠١ على الجبهة المصرية. هذا بينما ظلت سوريا تصر على شرطين أساسيين، الأول أن يتسع الفصل بحيث لا تكون المواقع والقوات في مرمى الضرب والنار من الجانبين، والثاني أن يكون الفصل مقدمة للانسحاب الكلي الكامل بحيث يتضمن أي اتفاق للفصل بين القوات تعهدا اسرائيليا بالانسحاب من كل الأراضي المحتلة.

ولكن تحت الضغط الأمريكي المتزايد (جولة كيسنجر الخامسة)، تراجع الموقف الاسرائيلي قليلا . وقد ذكرت هارترس أن مشروع كيسنجر في هذا الصدد هو الانسحاب الجزئي من الجولان على أساس انسحاب اسرائيل من جيب أكتوبر ، ثم من منطقة جبل الشيخ ، ثم من جزء صغير من الجولان . ثم عادت الصحيفة نفسها ففصلت الأفكار الأمريكية على النحو التالي: أولا، الانسحاب التام من جيب أكتوبر ومن مواقع جبل الشيخ ومن قطاع القنيطرة. ثانيا، نزع سلاح المناطق التي يجلو عنها الاسرائيليون. ثالثا، خفض المتبادل لقوات الطرفين على جانبي المناطق المنزوعة السلاح.

ويغض النظر عن أي شيء آخر ، فواضح أن الاقتراح يعني أن تفقد سوريا مزيدا من أرضها تتراجع عنه تحت اسم نزع السلاح! ولما كان الكل مرفوضا ، فقد نقلت معاريف

عن بعض المصادر أن «الفصل بين القوات لن يحل المشكلة الأساسية لمرتفعات الجولان».

غير أنه علم بعد ذلك أن إسرائيل تقدمت إلى أمريكا بمشروع «وسط» يتضمن انسحابا جزئيا من المرتفعات المحتلة قبل أكتوبر، وأنها ستقبل وجودا محدودا للقوات الدولية في منطقة عازلة، لكنها تصر على الاحتفاظ بالمواقع الاستراتيجية الرئيسية وترفض المشروع الأمريكي بأن تصبح كل الأراضي السورية المحتلة منطقة عازلة على مراحل وخطوات.

وبالمقابل، تقدمت سوريا ، التي ترفض مبدأ المنطقة العازلة أيضا، اقتراحا مضادا يتضمن ثلاث نقاط. أولا، انسحاب إسرائيل من مدينة القنيطرة والمواقع والتلال الاستراتيجية الثلاثة المشرفة عليها (وهي تل الفرس، تل أبو الندا وتل العزيزات) حتى لا تكون في مرمى العدو. ثانيا، الانسحاب من الجيب المحتل في أكتوبر . ثالثا، التعهد بالانسحاب الكامل من جميع الأراضي المحتلة حسب جدول زمني محدد. وقد علق أبا اييان على هذا وقتها بأن الفجوة مازالت واسعة بين المقترحات السورية والاسرائيلية، وأعاد بلا مواربة تأكيد مبدأ إسرائيل الأساسي من عدم الانسحاب من أكثر من جيب أكتوبر وحده.

وعند هذا الحد بدأت المرحلة الثانية مع جولة كيسنجر الأخيرة في المنطقة . وقد ذكرت الأنباء أن كيسنجر يحمل مشروعا وسطا يجمع بين الأفكار السورية والاسرائيلية على النحو الآتي . أولا، انسحاب إسرائيل من منطقة مساحتها ٣٢٥ ميلا مربعا (أي ٥٢٥ كيلو مترا مربعا) هي جيب أكتوبر ، مع انسحابها عن ميل واحد آخر (١,٦ كم) من الأراضي التي احتلتها قبل أكتوبر . بما في ذلك القنيطرة . ثانيا، خفض عدد القوات من الجانبين السوري والاسرائيلي ، ورسم خط جديد يفصل بين القوات. ثالثا، ترابط قوات الأمم المتحدة في المنطقة الفاصلة. رابعا ، عودة الأسرى الاسرائيليين (٦٥ أسيرا) ، وعودة ١٥ - ١٧ ألف لاجئ سوري إلى أراضيهم.

غير أن هذا المشروع فيما يبدو لم يجد قبولا لدى أي من الطرفين المعنيين، سوريا والعدو. فأما عن سوريا فقد أكد الرئيس الأسد لكيسنجر الأسس والمبادئ السورية للحل. ومن هذه المبادئ انسحاب إسرائيل من القنيطرة وتلاها الثلاثة، فضلا عن الأراضي

المحيطة بها، ومنها ١٧ مستعمرة اسرائيلية. كذلك ترفض هذه المبادئ وجود قوات بولية بين خطوط الجانبين وترى الاكتفاء بمراقبين بوليين.

وأما اسرائيل فقد طلبت من كيسنجر أولاً وقف الأعمال القتالية.

وثانياً تهربت من تحديد موقفها النهائي من القنيطرة، وقيل انها على استعداد للانسحاب من أحد التلال الثلاثة حولها ولكنها تصر على الاحتفاظ بالاثنتين الآخرين. على أنها في الغالب تريد تأجيل موضوع القنيطرة وتلالتها بإكماله إلى مؤتمر جنيف وعلى هذا فإن العنصر الأساسي في المحادثات، وهو تحديد الخط الفاصل جغرافياً، أرجئ بحته. أما فيما عدا هذا فيبدو أن الاسرائيليين متمسكون مازالوا بعدم الانسحاب إلى ما وراء خط ١٩٦٧، ومصررون على الاحتفاظ بالسيطرة على الجولان. وكذلك أوضحت اسرائيل أنها مصممة على عدم التخلي عن أى من المستعمرات السبع عشرة، التي تعتبر رمزا لإرادة اسرائيل في البقاء والتي يجرى الآن وتحت نار حرب الاستنزاف انشاء آخر واحدة منها (!).

وقد علق الكثيرون على هذا بأن اسرائيل ان لم تقدم تنازلات جدية فسيكون الأمل في الفصل ضئيلاً. والواضح أن اسرائيل كانت تتهرب من الفصل بتحويله إلى مؤتمر جنيف، وتتهرب من مؤتمر جنيف بعرقلة الفصل، وتتهرب من الاثنتين عملياً بدعوى أوضاعها السياسية الداخلية غير المستقرة.

وإذا كان التحديد الجغرافي لخط الفصل، الذي ينبغي ان يحقق أمن سوريا، قد أصبح هو مدار البحث والمساومة، فقد أصبح موقعه خلف أو أمام خط ١٩٦٧ هو مدار الخلاف والمصادمات . وقد أوضح كيسنجر للاسرائيليين في هذا الصدد أنه لا فصل بلا انسحاب من القنيطرة وتلالتها، وأن الفصل أهم لاسرائيل من القنيطرة وتلالتها. ولكن اسرائيل كانت ترى أن انسحاباً منها لنحو ٥ أو ٧ كم نحو الشرق من خط ١٩٦٧ كفيلاً بأن يخلي القنيطرة ولكنه لا شك يضعف موقف اسرائيل العسكري في المرتفعات ووضع المستعمرات في المنطقة.

ويبدو أن اسرائيل كانت تحاول الخروج من المأزق بالمناورة بمبدأ جديد ابتدعته لتساوم به هو مبدأ التبادل، وبالتحديد التبادل الجزئي، بمعنى جزء وراء خط ١٩٦٧ مقابل جزء أمامه. فإذا كان عليها أن تتسحب وراء قطاع من خط ١٩٦٧ ، فإنها تصر على الاحتفاظ

بقطاع من جيب أكتوير. وفي هذه الحالة فلا بد أن يضمن الخط الجديد لها السيطرة على جبل الشيخ أولا، وعدم نقل أى مستعمرة لها فى الجولان من مكانها ثانيا، وأن تكون المستعمرات بعيدة عن مرمى المدفعية السورية ثالثا.

وعلى هذا الأساس قدمت اسرائيل مشروعا يتضمن النقاط والشروط الآتية: أولا، استعداد اسرائيل للانسحاب من قمم جبل الشيخ لتكون تحت ادارة قوات الأمم المتحدة، مع احتفاظها هى بحق الرقابة العسكرية على السفح الغربى للجبل. ثانيا عدم استعدادها للانسحاب من القنيطرة الا مقابل الاحتفاظ ببعض المرتفعات ذات الأهمية الاستراتيجية الواقعة فى نطاق جيب أكتوير.. ثالثا عدم استعدادها للانسحاب عن المرتفعات الثلاثة التى تحيط بالقنيطرة أو وضعها تحت اشراف الأمم المتحدة بدعوى أن الانسحاب منها سوف يهدد أمن المستعمرات السبع عشرة. وعموما فان اسرائيل ترفض التخلي عن أكثر من ٤٥٠ كم ٢ هى من جيب أكتوير ، وتريد خفض الأسلحة فى منطقة عازلة واسعة بحيث لا تقع الأراضى الاسرائيلية وبقية الأراضى السورية المحتلة فى مرمى المدفعية السورية.

ومن الجهة المضادة أصرت سوريا بالمقابل على انسحاب اسرائيل من القنيطرة وتلاها أولا، ومن المستعمرات بما فيها المستعمرات الثلاث الجدد فى جيب أكتوير ثانيا، ومن جيب أكتوير كله ثالثا . هذا عدا رفضها لأكثر من مراقبين بوليين، وعدا المبدأ الجوهرى بالطبع وهو النص على قبول اسرائيل بالانسحاب التام من كل الأراضى السورية المحتلة قديما وحديثا واعتبار الفصل مرحلة أولى من ذلك. وقد أعلن الون أن اسرائيل ترفض شروط سوريا للانسحاب من الجولان زاعما أنها ستبقى جزءا لا يتجزء من الأمن الاستراتيجى «لحيويتها للدفاع عن الشمال الاسرائيلى كله، وإضمان موارد المياه التى تروى الجنوب» . وعلى حين لم يقطع ألون برفض انسحاب جزئى ، الا أنه أوضح ان اسرائيل سوف تسلم أى أرض تتخلى عنها إلى الأمم المتحدة لا إلى سوريا . «أما بيريز فقد ذكر أن اسرائيل على استعداد لتبادل قليل من الأرض فى مقابل قليل من السلام».

وإزاء هذا الرفض المتبادل والمزيج بدا الطريق مسنودا إلى حد بعيد، رغم الحديث الدبلوماسى التقليدى عن دلائل التقدم. فمثلا ذكر بعض أعضاء الوفد الأمريكى أكثر من مرة أن هناك علامات على تحقيق بعض التقدم. ولكنه عاد كل مرة فاستبعد التوصل إلى

اتفاق كامل في هذه الجولة، أو على الأكثر فإن فرص التوصل إلى اتفاق «أكثر قليلا من متساوية». وبالمثل قال شيمون بيريز انه متفائل بشأن امكانية الفصل وان لديه انطبعا بأن بعض التقدم قد تحقق، غير أنه كذلك اربف أن من السابق لأوانه التنبؤ بالنتائج «واننا مازلنا في بداية الطريق».

كذلك صرح آلون بأن الحكومة الاسرائيلية «قالت كلمتها الأخيرة فيما يتعلق بالمشكلات الجغرافية» في الموضوع «وحددت خطأ هي على استعداد لأن تقف وراءه في إطار الفصل بين القوات، ولا أعتقد أن أية تغييرات أخرى في هذا الخط ممكنة». ثم انتهى إلى أنه «لن يدهش اذا تحقق اتفاق الفصل»، ولذا فهو «متفائل، ولكن ليس إلى الحد الذي يجعلني أتوقع أن اتفاقا سيعقد عما قريب»!

أما كيسنجر نفسه فقد صرح عدة مرات «بأننا قد حققنا بعض التقدم، ولكننا لم نتوصل إلى اتفاق». غير أن كيسنجر، كما قيل، مصمم على الوصول إلى اتفاق في جولته الحالية، وأنه يسعى على الأقل إلى الحصول على «اعلان نوايا» من الطرفين تتعهد فيه كل من الدولتين بأن اتفاقية الفصل ليست الا مرحلة من مراحل تنفيذ قرار ٢٤٢، اسرائيل تعلن عن موقفها الخاص بربط الانسحاب بالحل النهائي، وسوريا عن استعدادها لوقف القتال مقابل التوصل إلى اتفاقية الفصل.

وعند هذا الحد كان آخر موقف لاسرائيل من تفاصيل الفصل كما لخصته أو استخلصته وكالات الأنباء، وهو الذي رفضته سوريا، كالاتى القنيطرة: يكون القطاع الشرقي منها ضمن المنطقة العازلة التي ستشرف عليها قوات الأمم المتحدة . ويمكن السماح للمواطنين السوريين المدنيين بالعودة للعيش في المدينة . جيب أكتوبر : يعود منه جزء للسيادة السورية، والباقي يدخل في المنطقة العازلة. ويمكن السماح للمزارعين السوريين بالعودة للسكنى والمعيشة في الجيب. تلال القنيطرة الثلاثة: تحتفظ بها اسرائيل، لأنها اذ تقع إلى الشمال والغرب والجنوب الغربي من المدينة تطل وتسيطر على مستعمرات ميروم هاولان الروم وعين زيفان الاسرائيلية. منطقة الرفيد: تسلم اسرائيل قرية بوميية السورية الواقعة غرب الرفيد للإدارة المدنية السورية داخل نطاق المنطقة العازلة، ويسمح للفلاحين بالعودة إلى المنطقة. جبل الشيخ : قمة الجبل والنقط المرتفعة الأخرى التي احتلتها اسرائيل في أكتوبر تسلم لقوات الأمم المتحدة ، لكن تحتفظ اسرائيل بالمناطق الاستراتيجية الأخرى على السفح الغربي للجبل .

ومن الغريب أن هذا المشروع ، المرفوض عربيا ، قد رفضته الصحافة الاسرائيلية. معاريف ، مثلا ، قالت «نحن هنا بازاء تخذ واضح عن المبدأ القائل بأن الجولان تشكل جزءا لا يتجزأ من اسرائيل ، وأنه لا ينبغي أن يكون هناك تفكير في أى انسحاب إلى وراء الخطوط التى كانت اسرائيل تحتلها قبل الحرب. هذا فضلا عن أن فكرة تقسيم القنيطرة تبدو بالنسبة لنا أمرا غير عملى، بل وخطيرا فى الوقت نفسه. فبسبب القدس، يجب أن تعارض السياسة الاسرائيلية صراحة أى تقسيم للمدن». أما ايديعوت أحرونوت فقد كانت أصرح، وذهبت أبعد . فإذا كانت الحرب حتمية مع سوريا، قالت الصحيفة، خاصة وأننا لا نعتزم رد الجولان بآية حال من الأحوال، فإنه من الأفضل أن تتدلع هذه الحرب بينما القوات الاسرائيلية فى الجيب الذى احتلته أثناء حرب أكتوبر، والذى يقع على بعد ٤٠ كم من دمشق ، على أن تتدلع بعد الجلاء عن هذا الجيب!

مهما يكن، والمعنى لا يحتاج إلى تعليق، فقد كانت خلاصة الموقف النهائية هى ماأتى: المشروع الاسرائيلى يعرض الانسحاب من جميع الأراضى التى احتلت فى أكتوبر ، ومن نصف مدينة القنيطرة ، ثم تسليم ثلاث قمم فى جبل الشيخ إلى قوات الأمم المتحدة. ولكن العرض موفوض لأن سوريا تريد استرداد القنيطرة كلها وتلاها الثلاثة معها، كما ترى أن الخط الفاصل بين القوات ليس أهم شئ فى الأمر، وإنما الأهم والمبدأ الأساسى هو أن تلتزم اسرائيل بالانسحاب من جميع الأراضى السورية التى احتلتها فى الحارين وأن تضمن الحقوق الشرعية للشعب الفلسطينى وهذه الالتزامات يجب أن نضمنها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى فى مقابل أن تقبل سوريا ضمان الدولتين لأمن اسرائيل.

الاتفاقية النهائية

من خلال تلك المساجلات والمناورات التى كانت تصل بالمباحثات إلى طريق مسدود تماما حتى توقع الكل تقريبا اعلان فشل محاولة كيسنجر أو تأجيلها، أمكن فى النهاية تضيق الفجوة بين الطرفين. ولم يتم هذا إلا بعد أن أخذ كيسنجر دورا أكثر ايجابية بتقديم اقتراحات امريكية مباشرة إلى الطرفين تتضمن تنازلات محددة من كليهما . كما لم يتم ذلك الا فى جو من التوتر والهستيريا الاسرائيلية الحادة فى الشارع كما فى الحكم انعكست فى المظاهرات والكتابات العدائية لكيسنجر وضد الحكومة .. الخ.

وقد كانت نقاط الخلاف الأساسية بعد أن تم الاتفاق على المسار العريض للخط الفاصل جغرافيا ثلاث هي: عمق المنطقة العازلة وقضية العمل الفدائي وربط الفصل بالانسحاب الشامل . فعن الأولى كانت سوريا ترى ضرورة تضيقها حتى تظل دفاعات دمشق ، التي لا تبعد عن الجبهة أكثر من ٤٠ كم، خارج اطار منطقة تخفيف القوات وتخفيضها . فبينما اقترح العدو الا يقل عمق المنطقة العازلة عن ١٠ - ١٥ كم ، أصرت سوريا إلا يزيد على ٢ - ٣ كم . (يلاحظ هنا أن موقف العدو عكس موقفه على الجبهة المصرية، حيث كان يطالب بالحد الأدنى من عمق المنطقة العازلة!) وقد جاءت الاتفاقية النهائية أقرب إلى الشرط السوري، واضطر العدو إلى التنازل والتراجع.

وبالمثل تغلبت المطالب السورية في النقطتين الأخريين. فبصدد العمل الفدائي، كانت اسرائيل تريد ان تنص الاتفاقية على منع العمل الفدائي الفلسطيني من الأراضي السورية. ولكن سوريا رفضت مجرد مناقشة القضية كجزء من الاتفاقية، باعتبار أنها مشكلة الفلسطينيين أساسا ولا علاقة لها باتفاقية الفصل ولا علاقة للاتفاقية بالمنظمات الفدائية. وبالفعل لم تتضمن الاتفاقية أية اشارة إلى هذه المسألة ، كما لم تتعهد سوريا سرا أو شفويا بأي التزام في هذا الموضوع. أما عن شروط الربط بين الاتفاقية وبين الانسحاب الشامل، فقد اشار الاتفاق النهائي إلى قرار مجلس الأمن كإطار يحمل معنى هذا الربط. وهكذا جاءت معظم التنازلات من الجانب الاسرائيلي في كل النقاط الثلاث المختلف عليها.

أما بنود الاتفاقية الأساسية نفسها فهي كما يلي . أولا ، انسحاب القوات الاسرائيلية من ٣٢٤ ميلا مربعا في جيب أكتوبر وفي شرق الجولان بما في ذلك مدينة القنيطرة ، مع احتفاظ اسرائيل بثلاثة من التلال الاستراتيجية ، ثانيا، عرض المنطقة العازلة يتراوح ما بين ١.٢ - ٢.٦ ميل، يتمركز فيها أكثر قليلا من ألف من قوات مراقبة للأمم المتحدة. ثالثا، يعود المدنيون السوريون إلى مدينة القنيطرة والقرى الأخرى في المنطقة العازلة التي ستكون تحت الإدارة المدنية السورية . رابعا، تكون هناك منطقة خفض قوات على جانبي المنطقة العازلة تتألف من نطاقين:

الأول بعمق ٦ أميال تقتصر فيه قوات كل من الطرفين على ٦٠٠٠ جندي، ٧٥ دبابة، ٣٦ مدفعا، والثاني بعمق ٦ أميال أخرى تحدد فيه القوة بعدد ٤٥٠ دبابة ولكن بقوات غير محدودة.

من هذا نرى اقليميا ان الاتفاقية تحقق الآتى: اولا ، تحرر ٦٦٣ كيلو مترا مربعا من الاراضى المحتلة، منها ١١٢ كيلو مترا مربعا من الأرض التى احتلت فى أكتوبر . ثانيا ، تحقيق جلاء اسرائيل عن ٢١ موقعا محصنا لها أهميتها الخاصة للدفاع والهجوم بالاضافة إلى مواقع العدو فى جبل الشيخ . ثالثا تعيد عدة قري أخرى بالجولان بعضها داخل المنطقة العازلة وبعضها ضمن نطاق خفض القوات. رابعا وأخيرا، تعنى فى مجموعها تحرير نحو ثلث المساحة الكلية للاراضى السورية المحتلة قبل وبعد أكتوبر معا (تبلغ مساحة الاراضى السورية المحتلة قبل أكتوبر ١١٥٠ كم٢، وتلك المحتلة بعدها نحو ٨٠٠ كم٢ ، بمجموع قدره نحو ١٩٥٠ كم٢) . وهذه المنطقة المحررة تقع أساسا فى الشمال والشرق، أو هى إجمالا الشمال الشرقى من الجولان.

والخلاصة النهائية الواضحة بلا شك هى أن الاتفاقية نصر للارادة السورية على ارادة العدو. وهذا بالتأكيد تعبير عن النصر الحقيقى الذى حققته سوريا فى معركة أكتوبر وعن موازين القوى الجديدة بعدها. فاذا ما تذكرنا أطماع العدو فى المنطقة كاستعمار استيطانى بالذات، ثم تصريحاته المغلفة بعدم الانسحاب منها تحت أية ظروف ، لتأكد لنا أن الاتفاقية أيضا لم تكن تنازلا أو مجموعة تنازلات من قبل العدو فقط، وانما أيضا وأساسا هزيمة سياسية جديدة له. ان اتفاقية الفصل اذا كانت نجاحا لكيسنجر فهى نصر لسوريا.

ويعكس هذا كله ربود فعل العدو للاتفاقية، تلك التى تذكرنا بسابقتها ضد اتفاقية الفصل على الجبهة المصرية فقد اتهم شارون الحكومة بأنها سمحت لسوريا بالتهرب من مسئوليتها عن تسلل الفدائيين، وأخطر من ذلك أن «اسرائيل طلبت لأول مرة فى تاريخها السماح لها بالدفاع عن نفسها» (!). ثم قال انها لاهانة خطيرة أن تسعى اسرائيل للحصول على ضمانات أمريكية ، وان هذا القرار سينال من اسرائيل بشدة. أما مايرر فقد قالت إنها ليست متأكده من أن سوريا ستحتفظ بوقف اطلاق النار، كما حملت بطريقة ملفوفة على الموقف الأمريكى.

نحو مؤتمر جنيف

باقتراح مصرى مدو ، ثم بنص اتفاقية وقف اطلاق النار، تقرر المؤتمر لبحث اقامة سلام عادل ودائم فى المنطقة. وحين أعلنت مصر اقتراحها على العالم ، كان ذلك دليلا

على أن العرب لم تعد تخشى محادثات السلام كما كانت تفعل من قبل وهي مهزومة ، بل تقبل عليها وتطلبها لأول مرة من موقع القوة. ولاشك أن نصر أكتوبر هو وحده الذى جعل ذلك ممكنا، الدعوة، والقبول ، والاقبال . وعلى الفور أدركت اسرائيل أن العرب قد أخذوا جانب الهجوم الكاسح فى السياسة كما فعلوا فى الحرب ، وأنهم «يشنون» معركة السلام عليها وهى التى احترفت التلاعب بمطلب السلام، وشعرت بأنها لأول مرة محاصرة. حصارا خانقا ومحكما وإن لعبتها القديمة المفضلة قد تترد إلى صدرها فتودى بها.

ولهذا كان رد الفعل الاسرائيلى المباشر هو القلق فالخوف فالتردد فالمعارضة فالرفض . وقد عبر عن هذا فيما بعد شاول فريد لاندر الأستاذ بالجامعة العبرية حيث قال «نحن كشعب لانعرف بالضبط نوع التسوية التى نريدها مع العرب. ولسنا متاكدين مما اذا كانت التسوية ستعزلنا فى النهاية عن العالم وخاصة عن الولايات المتحدة». غير ان اسرائيل حين تعرضت للضغط الأمريكى، وأدركت أن الأمر جد وخطير ولا مهرب لها، ثم سيقى مرغمة إلى المؤتمر، وضعت استراتيجيتها على اساس اما استثماره لتحقيق اطماعها وأهدافها المضمرة كاملة والا فتخريبه من الداخل حتى يفشل وينهار وعلى أية حال، «فلا بأس بالذهاب إلى مؤتمر جنيف» كما قال مناحم بيجين، «لنجلس على مائدة المفاوضات مباشرة مع العرب الذين ظلوا يرفضون هذه المواجهة طوال تاريخهم معنا»... ومن هذا المنطلق الأخير أخذت اسرائيل تقيم العراقيل فى سبيل اجتماع المؤتمر، بادئ بالشكليات والترتيبات والمراسم وما أشبه. فأصرت أولا على «تقليص» دور الأمم المتحدة ، بحيث يكون حضورها شكليا ودور سكرتيرها العام شرفيا بحتا. كذلك صممت على استبعاد دول اوربا الغربية، خاصة فرنسا وبريطانيا ، بحيث يكون الاشراف الحقيقى على المؤتمر للقوتين الأعظم فقط. ثم عارضت بعد ذلك فى حضور سوريا مالم تسو مشكلة الأسرى الاسرائيليين لديها وتسلم قائمة بهم . وأخيرا رفضت كلية حضور ممثلين عن الفلسطينيين بل والاشارة اليهم بالاسم فى الدعوة، مرة لأنها ليست على استعداد لأن تجلس إلى «الإرهابيين» (كذا!)، ومرة بزعم أنها إنما تتفاوض مع دول لا مع منظمات ، ومرة ثالثة لأنهم على أية حال «ليس لديهم مايمكن التوصل إلى اتفاق بشأنه مع اسرائيل» كما عبرت مايير. وعدا هذا تذرعت اسرائيل بانتخاباتها الوشيكة وقتئذ وبأوضاعها الداخلية المتعلقة لتعلق المؤتمر وتعوق اجتماعه لطول مدة ممكنة.

أما من منطلق أهدافها الاستراتيجية من المؤتمر ، فقد بدأت اسرائيل «تصادر على المطلوب» مقدما، بمعنى انها أخذت ترسم حدود المؤتمر وأبعاده على أغراضها وبما يلائم أطماعها. فأعلنت أنها لن تذهب إلى جنيف الا اذا كان المؤتمر مؤتمر سلام بالفعل وليس اجتماعا لتنفيذ قرار مجلس الأمن. وكان المعنى الخبيث لهذا، بل الواضح كل الوضوح، هو أنها تتحلل وتتصلل مسبقا ومن جديد من قرار ٢٤٢، وانها تكرر حديثها القديم عن «المفاوضات بدون شروط مسبقة». وقد عبرت عن هذا الوثيقة التي أصدرها حزب العمل الحاكم «حول القضايا الخارجية والأمنية» المعروفة باسم وثيقة النقاط الأربع عشرة حيث قالت «ان اسرائيل سوف تسعى في مؤتمر السلام، وفي كل شبكة علاقاتها الدولية، الى اتفاق سلام يتم تحقيقه في مفاوضات دون شروط مسبقة».

أما عن مغزى المؤتمر خطورته بالنسبة لكيان اسرائيل ومستقبلها، فقد ذكرت تلك الوثيقة أن المؤتمر «حدث مهم جدا في تاريخ المنطقة. يحمل في طياته امكانية تغير كبير في علاقات اسرائيل بالدول العربية». كذلك أوضح دايان «أن مؤتمر جنيف سيقدر الحدود النهائية والدائمة لاسرائيل، وأن نوع المحادثات التي تواجهنا هو أننا لا نطالب بأى شئ سوى حسن نية الطرف الآخر، وأن الشئ الوحيد الذى نريد منهم أن يقبلوه هو أن يعيشوا معنا فى سلام والتوصل إلى اتفاق». ولكنه أضاف على الفور أنه «يحذر الشعب من ترك مؤتمر السلام فى الشرق الأوسط لأن يؤدى باسرائيل إلى الانسحاب والاستسلام» وأن يتحول مؤتمر السلام إلى مؤتمر استسلام هذا بينما قال ايبان ان دولة اسرائيل التى سيسفر عنها المؤتمر لن تكون هى دولة اسرائيل اليوم، وكل شئ يتوقف على الشكل الذى تتخذه محادثات جنيف فيما يتعلق بالأرض والمناطق المنزوعة السلاح. لقد بدأت اسرائيل «هجومها المضاد» عن هجوم السلام العربى..

الخريطة السياسية

وعلى هذا الأساس تقدمت الكتل والأحزاب السياسية داخل اسرائيل ببرامجها الانتخابية التى يمكن اعتبارها فى الوقت نفسه برامجها لمؤتمر السلام. وضع حزب العمل وقائد المعراخ وثيقته السابقة الذكر ، التى لا يكاد يختلف عنها برنامج حزب الأحرار المستقلين وعضو المعراخ ، فيما عدا أنه زاد فطالب بتجسيم البرنامج فى خريطة أولية محددة . أما أهم ما فى الوثيقة ، فى اطار مبدأ السعى إلى السلام «دون شروط مسبقة»

وبدون النص على الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة ، فهي «الشروط» الآتية . أولا ، «حدود يمكن الدفاع عنها» ، ولكن مع النص على عدم العودة إلى حدود ما قبل يونيو . ثانيا ، المحافظة على الطابع اليهودي لاسرائيل ، واستمرار الدولة في بناء المستعمرات وتدعيم الاستيطان فيها .

ثالثا ، «علاقات طبيعية» وكاملة مع الدول المجاورة (العربية) سياسيا واقتصاديا وثقافيا .. الخ . رابعا ، رفض قيام دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية ، والنص على وجود دولتين مستقلتين فقط بين النهر والبحر ، هما اسرائيل التي ستظل عاصمتها القدس «مدينة موحدة» ودولة عربية إلى الشرق منها تضم الأردنيين والفلسطينيين تتحقق فيها الشخصية الذاتية للفلسطينيين وترتبط بعلاقات سلام وجوار طيبة مع اسرائيل .

وعلى النقيض من هذا ، وقفت كتلة ليكود المعارضة ، مؤكدة الحق التاريخي والديني «للشعب اليهودي» في «أرض اسرائيل» «كحق غير قابل للمناقشة» . وزاد على ذلك الحزب الديني القومي (المفدال) وعضو الكتلة رفض أى مشروع للسلام يتضمن أى تنازل عن أى جزء من أرض اسرائيل التاريخية ، «ميراث آبائنا» بما في ذلك وعلى وجه التحديد يهودا والسامرة» أى الضفة الغربية للاردن ، والنص على مواصلة الكفاح من أجل كل شبر فيها ، كذلك في زاد حزب آخر شريك في الكتلة ، وهو حزب المركز الحر ، التحديد برفض أى تنازلات اقليمية في سيناء والجولان . اما حزب حيروت اليميني فقد هاجم وثيقة حزب العمل بعنف باعتبارها وثيقة «انهزامية» تعرض للخطر أمن اسرائيل .

وأخيرا وعلى النقيض من كل من المعراخ وليكود ، ومن موقف الانتقاد المرير لسياسة حزب العمل العدوانية التوسعية منذ يونيو فضلا عن السياسات والدعوات الانتقامية للحزب اليمينية المتطرفة ، طالب حزب المابام الاسرائيليين بالاستعداد الجاد للمعركة السياسية والسعى الملح إلى السلام الحقيقي على اساس حل اقليمي وسط ، يضمن حدودا آمنة لاسرائيل كما يتضمن الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره . ورغم أن الحزب لم ينص على قيام دولة فلسطينية مستقلة ، فيبدو أنه لا يعارض قيامها ويدعو إلى التعايش السلمى معها . وبهذا يكاد المابام يكون الحزب الاسرائيلي الوحيد ، وذلك فيما عدا الطوائف والتجمعات التقدمية الضئيلة والقليلة الأهمية كالما سبن والفهود السوداء ، الذى يقترب نوعا من فكرة الدولة الفلسطينية بصورة أو بأخرى .

تلك هي خريطة المواقف السياسية داخل اسرائيل ازاء السلام. ولئن اختلفت الخطوط فيها بعض الشيء ، فالملاحظ أن القاسم المشترك بينها أكبر من معامل الاختلاف ويرسم على الأقل الحد الأدنى لمفهوم السلام الجديد عند الاسرائيليين. ويمكن القول أن هذا المفهوم يجعل «السلام» مرادفا «للمصلح» (لا فارق في اللغات الأوربية بين الكلمتين). فشروط اسرائيل للسلام هي شروط للمصلح، بمعنى أن الهدف ليس مجرد انتهاء حالة الحرب أو العداء في المنطقة ، وإنما هو أساسا الاعتراف المتبادل والتمثيل المتبادل والتعامل المتبادل بكل معانيها، ثم ان الحدود الجديدة، التي تستبدل تعبير «الحدود التي يمكن الدفاع عنها» بتعبير «الحدود الآمنة» السابق، لن تنطوي على «ازالة آثار العدوان» بالمفهوم العربي أي العودة إلى ما قبل ٥ يونيو، وإنما تحقق هدف التوسع الصهيوني المبدئي، وان لم تصل إلى الحد الأقصى من الأطماع السابقة. كذلك فإن الحدود، وليست الضمانات الدولية، وهي الضمان الأساسي، اذ الأخيرة مجرد عنصر اضافي لا عنصر بديل. ويعد هذا أو قبله فان القدس خارج كل مناقشة ، كما أنه لا قبول ولا اعتراف بالفلسطينيين كثورة أو ككولة أو كشعب.

وربما كان أقرب تعبير عن هذا المفهوم وشروطه، والمشروع الذي عرضته مايبير لحل الأزمة اثناء رحلتها إلى لندن للاشتراك في مؤتمر الدولية الاشتراكية . وتتلخص النقاط الأساسية في المشروع فيما يلي: أولا، انسحاب اسرائيل من سيناء على أن تبقى منزوعة السلاح. ثانيا، تظل شرم الشيخ تحت سيطرة اسرائيل . ثالثا، تحتفظ اسرائيل بسيطرتها على الجولان . رابعا . ضم غزة للاردن . خامسا ، تبقى القدس اسرائيلية . سادسا، لا تقوم دولة فلسطينية جديدة غرب أو شرق الأردن . ويلاحظ أن بعض النقاط تتعارض أو يلغى بعضها بعضا، كالانسحاب من سيناء وبقاء شرم الشيخ تحت اسرائيل، أو تترك موضوعات غامضة كالصفة الغربية للاردن .. الخ..

ردود الفعل

داخل هذا الاطار العريض ، يمكننا الآن ان نتبع رد فعل العدو السياسي منذ المعركة وبعدها. فعدا موجات الذهول والكمد والحقد بلا حدود. سادت انفعالات مضطربة مشوشة ومتناقضة تتأرجح بين الصرخات الانتقامية المحمومة ورنات اليأس والأسى الخفيضة. واشتد الجدل السياسي العنيف والصراع المذهبي الحاد بين الصقور والحمائم، انعكس

كله على البناء الحزبي وعلى القيادات العسكرية والحاكمة كما على رجل الشارع. وأول حقيقة يمكن استنتاجها من هذا أن المعركة أو الهزيمة قد مزقت اسرائيل من الداخل ولم تعد موحدة سياسيا في موقفها من الصراع أو من العرب.

ولكن في خضم هذا الموج المدى الجزى الصاخب والغاضب، قد نستطيع ان نلمح ثلاثة اتجاهات متباينة من الرأى، ربما لاتكون محددة الفواصل أو قاطعة الوضوح ، لكنها مع ذلك غالبية على الاتجاه العام.

تلك هى : صرخة الصقور، وردة الحمام، ودعوة الحلول الوسطى ، أو ان شئت فقل: الحد الأقصى ، والأدنى ، والأوسط ، على الترتيب. ويلاحظ تذبذب الآراء والمواقف بين هذه الاتجاهات، حيث قد يغير الشخص الواحد موقفه من موقع إلى آخر أو يمكن أن يصنف في هذا الموقع أو ذاك بلا فارق واضح ... الخ.

فأولا ، يمكن القول بصفة عامة ان دعوة الصقور هى التى سادت فى البداية فلا تنازلات ولا مساومات ولا بد من الاحتفاظ بالأراضى المحتلة كاملة ولو ادى هذا إلى العودة إلى القتال من جديد ، ويرز من جديد شعار «ولا بوصة واحدة» . كذلك قال بعضهم فى اسرائيل «ان وقف اطلاق النار يعقبه انسحاب من الأراضى العربية المحرره (أى المحتلة) لهو بمثابة خيانة لقتلى حرب يونيو ١٩٦٧ وحرب اكتوبر ١٩٧٣ . وكان منطق الصقور فى هذا أن الأراضى المحتلة قد أثبتت فائدتها وضرورتها الحيوية لأمن اسرائيل كدرع وضمان، فلولاها لكانت الضربة العربية الرمضانية (أو الغفرانية!) قد تمت الآن فى قلب اسرائيل نفسها ولكانت الكارثة نهائية وساحقة. وقد عبرت مايير عن هذا بقولها «لسنا بحاجة إلى مخيلة واسعة لكى نتصور ماذا كانت ستكون عليه حال دولة اسرائيل لو أننا كنا على حدود الرابع من يونيو ١٩٦٧» ، وعليه، فان درس أكتوبر الوحيد الذى يمكن أن تستنتجه اسرائيل انما هو الابقاء على وجودها فى الاراضى المحتلة بأى ثمن ، بما فى ذلك المزيد من الدماء.

ثانيا ، وعلى العكس من هذا ، ظاهريا على الأقل، فلسفة الحمام. قالوا إن ما أصاب اسرائيل فى أكتوبر ليس له من سبب الا احتفاظها بالأراضى المحتلة بعد يونيو. ولو كانت قد تنازلت عنها أو عن بعضها لأصحابها العرب لما حدثت مأساة اكتوبر و كارثة الهزيمة. وعلى هذا فان الدرس الوحيد الذى على اسرائيل أن تتعلمه من معركة أكتوبر الخاسرة -

هكذا جادلوا - هو أن تقبل بمبادلة الأمن بالأرض ، وأن تشتري السلام بالتنازل، وأن تتعلم أن تتعايش مع العرب على اسس جديدة غير القوة العسكرية أو التفوق الحربي الموهوم. ومن الممكن أن نقول بالتقريب أن نعمة الحمام هذه هي التي وضحت نسبيا في المرحلة الوسطى بعد أن أنفقت موجة المزايدة نفسها وارتطم رأسها بالحقائق الجديدة الصخرية والقاسية.

ثالثا، وأخيرا ، برزت ، وليس بالضرورة سادت ، لهجة الحلول الوسطى التي تقف نسبيا في منتصف الطريق بين المتطرفين والمعتدلين ولكن الملاحظ أن هذا الموقف هو أكثر المواقف غموضا وتميعا وتبدلا. ولعل الأغرب أن كلا من بن جوريون ودايان نعم هما بعينهما ، صقر الصقور، الأستاذ والتلميذ، كانا ممن عبروا عن هذا الاتجاه فتحت شعاره القديم «السلام الرديء خير من الحرب الجيدة» ، نطق بن جوريون فقال «إذا كان علينا في مقابل السلام أن نتخلى عن السيادة السياسية على جزء من أرض اسرائيل ، فأننى أنصح مواطنى بالجلء عن معظم الأراضى المحتلة باستثناء القدس والجولان. أما دايان فقد قال «على اسرائيل أن تكون مستعدة للحلول الوسطى ان كانت تريد ان تحتفظ بمكان لها في المجتمع الدولي، وان موقف اسرائيل في محادثات السلام ينبغي أن يكون في سياق حرب أكتوبر . ومثل هذا الرأي عبر عنه ايبان وغيره أكثر من مرة.

تلك بايجاز هي الخطوط والاتجاهات الثلاثة السائدة على مزاج العدو، بعضها يتداخل وبعضها يتناقض وبعضها توفيقى أو تلفيقى. على أنه غير واضح تماما حتى الآن هل زادت حرب أكتوبر من قوة الصقور أم الحمام فى اسرائيل . فالحرب قد هزت كلتا النظريتين وهزأت بهما . فكما قالت دافار ، لقد اتضح أن خطوط وقف اطلاق النار ١٩٦٧ لا تؤمن لنا السلام، وكذلك لا تؤمن لنا تلقائيا نصرا سهلا أو سريعا بسبب امكانية التعرض لهجوم مفاجئ بأسلحة حديثة. ومن هنا - تمضى الصحيفة الاسرائيلية- فان رأى القائل بأنه لا حاجة بنا إلى الاسراع والوصول الى تفاهم مع العرب ، على اساس أن حدود يونيو حدود مثالية، هذا رأى قد اهتز وسقط . كذلك اهتز رأى الحمام القائل بأنه لا داعى لأن تكون اسرائيل متطرفة فى مطالبها الأرضية لأنها «على أية حال دولة عسكرية أقوى من جيرانها».

على أن أغلب المراقبين يرون أن الحرب قد أدت كما يقول بول بالتا إلى زيادة قوة الصقور واليمين ، وليس العكس بل يرى البعض أن الجميع فى اسرائيل قد تحولوا فيما يبدو إلى صقور بعد أكتوبر وقد جاءت الانتخابات الاسرائيلية فى نهاية العام الماضى مصداقا لهذا التحليل إلى حد كبير . فقد اضعفت بوضوح من مركز الحكومة والائتلاف الحاكم (المعراخ) وخاصة حزبه المسيطر (العمل) وبالأخص نواته الصلبة (الماباى) ، ذلك بقدر ما قوت من مركز المعارض وائتلافه (ماليكود) وبخاصة طليعته المتعصبة (جحل).

وكما يقول الجنرال بوفر فان الانتخابات الاسرائيلية اثبتت أن الحماثم لم يفوزوا بالفعل ، وأن عملية شارون غرب القناة قد حجبت الحقيقة العسكرية عن الرأى العام الاسرائيلى . فالعسكريون الاسرائيليون مازالوا يعتقدون ان بقاء اسرائيل يعتمد على قوة جيشها ، وأن هذه القوة مازالت كبيرة.

بين الأطماع القديمة والجديدة

وأيا ما كان ، ومهما يكن الأمر ، فلقد سقط حتى الآن برنامج حزب العمل الحاكم الذى كان قد وضع قبل المعركة والمعروف «بوثيقة جاليلى» ، وهى التى كانت تمهد لابتلاع الجزء الأكبر من الأراضى المحتلة ولا تترك بقيتها الا بشروط وقيود تجعلها من الوجهة العملية اما رهينة أو أسيرة لاسرائيل واما «أرضا بورا» من الناحية السياسية الدولية «ومنطقة معقمة» من الناحية الاستراتيجية العسكرية. غير أن سقوط هذه الوثيقة الاستعمارية الضاربة لا يجلو الأمور أو المواقف كثيرا، إذ أن البرنامج البديل ، برنامج النقط الأربع عشرة ، اذا كان أقل تطرفا وتشددا فهو أكثر غموضا وأشد التفافا . انهم فقط يستبدلون الختل بالضراوة ، والتحاليل بالتوحش . فهم ما زالوا فى اسرائيل يتكلمون عن الحدود الآمنة وان يكن بصياغة لفظية جديدة . وعن الاستيطان وعما سيتركونه وما لا يتركونه من أراضى العرب . ولئن تضاربت تأويلاتهم وتصريحاتهم فى هذه المجالات أكثر مما تضاربت فى أى وقت مضى ، ففى كل الأحوال لا عودة الى أوضاع أو حدود ما قبل يونيو ولا استجابة لمطالب العرب .

فعن الحدود الآمنة ، اذا كان لنا أن نفصل قليلا هذا الذى قررنا على التواجمالا ، ظل دايان يردد أنه ما زال يعتقد بالرغم من وجود الطائرات والصواريخ أن حيازة الأرض

عامل مهم من عوامل الأمن القومى . وأثناء حملاته الانتخابية تساعل فى احدى خطبة «لقد أبلغنا الأمريكيون أن فى استطاعتنا ، بل من واجبنا أن نعتمد على ضمانات الأمن . ولكن لماذا نحتاج الى ضمانات امن ؟ لأن حدودنا عندئذ تصبح وهى لا تساوى شيئا» .

ثم أضاف «واذا حصلت أمريكا على التنازلات الاسرائيلية التى تسعى للحصول عليها فى مؤتمر السلام ، كان علينا فيما بعد أن نتطلع الى ممرات متلا والجدى فى سيناء ومرتفعات الجولان فى سوريا . ان فى استطاعتنا الاستيلاء عليها مرة واحدة فقط . ولن نستطيع الصعود اليها اذا ما هبطنا منها » . وفى مناسبة أخرى أضاف دايان أن «اسرائيل لن تهتم بالضمانات الا بعد تسوية سلمية تضمن لها حدودا يمكن الدفاع عنها وتوازنا فى الأسلحة» .

ومن ناحية أخرى ، ولكن فى الاتجاه نفسه ، عبر شارون عن اعتقاده بأن الجيش لم يستفد بالسرعة الكافية من دروس حرب أكتوبر ، بينما كان ابتزاز هوفى أكثر تحديدا فقد صرح بأن على الجيش الاسرائيلى أن يستخلص الدروس المستفادة من حرب أكتوبر وإعادة تنظيم وحداته وتطوير الدفاع المدنى فى مواجهة المخاطر الجديدة الناجمة عن وجود صواريخ أرض - أرض فى وسعها أن تصيب بعض مدن اسرائيل عند بعض دول المواجهة العربية .

هذا عن الحدود الآمنة ومتطلباتها . أما عن الاستيطان ، فحتى آخر لحظة قبل سقوطه ظل دايان يقول ان لاسرائيل الحق فى اقامة مستعمرات فى الضفة الغربية للاردن ، كما أنه يأمل أن تتمكن اسرائيل من توطين مهجرين جدد فى شرق سيناء . ويبدو أنه لم يتخل حقيقة أو تماما عن فكرته التى تبناها قبل أكتوبر عن مدينة ميناء ضخمة فى منطقة رفح .. الخ .

بالمثل عن الأطماع الاقليمية . فيمكننا اذا استعرضنا تصريحات العدو ما بعد أكتوبر بالنسبة لكل منطقة من الأراضى المحتلة على حدة أن نرى كيف أن واحدة منها لا تخلو من أطماعه حتى الآن ، والى أى حد تخلق أو لم يتخل عن ادعاءاته فيها . فحتى سيناء، اذا بدأنا بأضعف الحلقات أو أضعف الايمان ، محل مختار للاطماع لا تزال . واذا كان دايان قد صرح بأن حكومته ليست على استعداد للدخول فى حرب جديدة من أجل آبار أبو رديس ، وأن حكومته مستعدة للانسحاب من «جزء من سيناء» ، فان هذا - إقليميا

- لا يعنى الا قليلا ولا يغير شيئا من المواقف والأطماع السابقة . ولقد رأينا توا أنه ما برح يتكلم عن التوطين فى «شرق سيناء» بينما ذكرت ها آرتس فى منتصف مارس ١٩٧٤ فقط أنهم يقيمون ٤ مستعمرات جديدة على مشارف رفح .

واذا كانت حرب أكتوبر قد هبطت قليلا «بسقف» الأطماع الصهيونية فى سيناء ، فيبدو أن هذا الحد الأعلى الجديد هو ما عبر عنه اليعازر حين قال «يمكن ايجاد خط بين قناة السويس وخطوط ١٩٦٧ يرضى مصر (!) ويضمن أمن اسرائيل» . أما الحد الأدنى، وهو يقينا القاسم المشترك الأصغر بين الجميع ، فيبدو أنه شرم الشيخ الذى يدخل فى مشروع مايير كما يرد فى تصريحات ايبان ودايان واليعازر وبيريز .. الخ . ويبدو أن الكل ما زال على رأى دايان القديم من أنه «يفضل شرم الشيخ بدون سلام على سلام بدون شرم الشيخ» ..

هذا عن سيناء . ولقد رأينا من قبل موقفهم من الجولان ، التى يكاد يضعها معظمهم كالأولوية الثانية بعد القدس نفسها وقبل الضفة الغربية «يهوداهم والسامرة» . أما عن هذه الأخيرة ، فالانسحاب منها لا يمكن الا أن يكون جزئيا ، وشكليا عند ذلك . فعند دايان ان لاسرائيل الحق فى اقامة المستعمرات والمستوطنات بها . وعند مايير أن «استيعاب اللاجئين العرب يعنى استيعاب طابور خامس» وأن إعادة اللاجئين هى ادخال «حصان طراوده» فيها .

وأما عن مشروع الدولة الفلسطينية بالضفة ، فان «اسرائيل لن تقبل قيام دولة فلسطينية جديدة» (دايان ورابين) ، وأراضى فلسطين الانتداب التى تمتد من البحر الى الصحراء وحدود العراق يوجد بها متسع لدولة يهودية وأخرى عربية فقط ، ولكنها لا تتسع لدولة ثالثة ، دولة فلسطينية جديدة ، لأنها تكون «رأس جسر ضد اسرائيل» (مايير) . ولا يبقى أخيرا الا القدس التى قال عنها بن جوريون من قديم انه لا معنى لاسرائيل بدونها . بعد أكتوبر لم يزد بيجين أو ينقص عن أن قال «نحن لن نتخلى عن بوصة واحدة من القدس ولو وقف العالم كله بجانب العرب» .

ذلك كله عن الأراضى المحتلة بعد يونيو . أما حين نصل الى الأراضى المحتلة قبله، الى فلسطين المحتلة ، فالأمر مختلف تماما : انه موضوع مغلق وغير قابل للمناقشة

فقد أعلن العدو بلا مواربة أن الإشارة الى «استعادة حقوق الشعب الفلسطيني» لا يمكن أن تتم الا على حساب اسرائيل ووجودها . بينما حدد دايان بوضوح أكثر قائلا ان اقامة دولة فلسطينية معناه «بداية الدمار لاسرائيل» ، ثم زاد تحديدا بقوله «لن نتحرك من الأرض التي نعيش عليها الآن» ، ولقد سبق لجولدا مايير أن قالت انه لا يوجد شيء اسمه الشعب الفلسطيني ، وبالتالي فلا وطن لهم «لأنه ليس هناك مكان لهم ، وليست هناك ضرورة لذلك».

فاذا ما جمعنا محصلة هذه الحسابات والمساومات، خرجنا بالشروط العامة للصفقة المعروضة، وهي «التنازل» عن «جزء» فقط من الأراضي المحتلة ولكن بالقطع ليس عنها كلها، ودعك تماما من «حقوق الشعب الفلسطيني»، وذلك في مقابل السلام الذي يرادف عندهم الصلح. وقد ضغط على هذا المعنى كل قادة العدو بصيغة أو بأخرى. فاييان، الذي سبق قبل أكتوبر ان وصف مطالبة اسرائيل بالانسحاب من الأراضي المحتلة بأنها «دعوة إلى الانتحار»، يقول الآن «ان اسرائيل مستعدة للتنازل عن مناطق كثيرة من سيناء ضمن التسوية السلمية، لكن ليس للعودة إلى حدود ما قبل الحرب».

ويقول دايان ما مؤداه «أننا لو قبلنا كل طلبات الانسحاب، فسوف لا نكون دولة وإنما كاريكاتير دولة» أى دولة مسخا. ومرة أخرى يؤكد أن حكومته مستعدة للانسحاب من جزء من سيناء وأماكن أخرى في مقابل اتفاق سلام مع العرب: «اننا نريد أن نعطيهم» أرضا، وفي مقابل ذلك نطلب السلام. لكن اسرائيل سوف تصر على الاحتفاظ بأقل قدر ممكن من الأرض ضرورى لأمنها حتى لو اضطررنا إلى القتال من أجله.. أننا سنذهب إلى أبعد من منتصف الطريق لنضمن لاسرائيل دولة آمنة وقوية. أنه كان على اسرائيل أن تطالب بكل شيء منذ ٢٥ سنة، ولكننا اليوم لسنا مضطرين لأن نطلب من العرب فداناً واحداً».

وفي النهاية ، وبالقيااس إلى ايبان ودايان، كان شارون الأكثر صراحة أو بالأحرى وقاحة: «إذا أراد العرب استرجاع أراضيهم كلها» ، قال هو عن مؤتمر السلام، «فلن تكون جنيف هي المكان المناسب لذلك ، وإنما عليهم أن يستردوها عند جبهة القتال» .

ثم جاء بيان حكومة رابين الجديدة جامعا لهذه المواقف كلها معبرا عن خط العدو في المستقبل . فقد حدد البيان ثلاث نقاط كمحاور لمباحثات جنيف وكشروط للسلام: لا عودة إلى خطوط ٤ يونيو ١٩٦٧ ، ورفض قيام دولة عربية مستقلة في الضفة الغربية، لا تفاوض مع «الارهابيين» (بقصد الفلسطينيين).

هل تغير العدو؟

والاستنتاج المنطقي الذي يمكن، في الخلاصة، أن نخرج به من هذه الاتجاهات والمؤشرات والتصريحات هو أن حرب أكتوبر كما هزت مجتمع العدو وزلزلت كيانه السياسي قد بلبت أفكاره وخططه التوسيعية لكن دون أن تستأصلها أو حتى تخفف من غلوئها. لقد قذفت به الكارثة التي لحقت به بين قطبي المزايدة والمناقصة الى حين، ولكنه استقر تدريجيا على صيغة سماها الحل الوسطي، وما هي بحلول وما هي بوسطي . ان هي الا تكتيك جديد مرن لاستراتيجية قديمة ثابتة، وما هي الا غطاء وكاموفلاج لفظي ذكي لاطماعه التوسعية المعلنه من قبل. وعلى أكثر تقدير، فان العدو ما استدار عن موقفه القديم في الحقيقة الا بضع أو عدة درجات فقط من بين ١٨٠ درجة يتطلبها الحل السلمي العادل الدائم.

واذا جاز لنا عند هذا الحد أن نحدد نوايا اسرائيل الحقيقية في معركة السلام الناشبة حاليا، فلعلنا لا نخطئ اذا قلنا ان استراتيجية السلام الاسرائيلية هي باختصار تكتيك الحل الجزئي لا أكثر ولا أقل. فالذي يبدو حتى الان من مناورات العدو أنه تقبل راغما وعلى مضض عملية الفصل بين القوات كئمن لآكتوبر، يمتص به وقع الهزيمة ويعبر الازمة ثم يقف عند هذا الحد معاندا مكابرا حتى يتجمد الوضع الجديد إلى ما لا نهاية، فيكون الحل الجزئي كما يتوهم . والدليل على ذلك أن العدو يرفض بكل اصرار التعهد بالانسحاب الكلي في اتفاقيات الفصل بين القوات، كما يرفضه في أى اتفاقية أخرى.

وأهم من ذلك أنه يواجه كل ما يطالب به العرب من أصغر صغيرة إلى أكبر كبيرة بخطة اعتراضية موضوعية يرددها دائما وهي أن شروط العرب مهما كانت هي «مراحل لآبادة اسرائيل» . تلك وهي «عقدة» العدو التي يتعمد دائما أن يضعها «في المنشار» ليضمن بها بانتظام تدمير كل محاولة للحل. خذ مثلا ما قالتها ماير في الكنيسيت يوم ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ : «ان الحكام العرب يدعون أن هدفهم محدد بالوصول إلى خطوط ٤ يونيو

١٩٦٧، ولكننا نعرف هدفهم الحقيقي وهو القضاء قضاء كاملا على دولة اسرائيل». وعادت إلى النعمة نفسها في مؤتمر اتحاد الحاخامات بعد شهر قائلة «ان هناك من يريد تدمير اسرائيل».

أما رابين ، وكان وزير العمل وقتئذ ، وفقد قال لمعاريف أن «السادات يريد أن يحصل بالوسائل السلمية على كل شيء ، في الوقت الذي يترك الباب مفتوحا أمام الاقدام على عملية عسكرية جديدة» . ثم أضاف أنه «إذا ما تم التوصل إلى اتفاق مع سوريا، فإن الرئيس السادات سوف يطالب بانسحاب اسرائيلي آخر، وربما أقدم لا على التلويح بحرب جديدة فقط وانما كذلك على شن مثل هذه الحرب بالفعل، سواء بدفع قواته داخل سيناء أو بضرب مراكز داخل اسرائيل».

والواقع أنهم في اسرائيل، كما تقول النيوزويك ، يعتبرون تمسك العرب بالسلام تمثيلية فقط، وأنهم سيسعون في النهاية إلى سحق اسرائيل كلية. من هنا جميعا فان اسرائيل تخشى السلام الحقيقي أكثر مما تخشى الحرب، وتفضل حربا دموية حتى غير مضمونة على سلام دائم قائم على العدل، ولا تقترب من السلام الا كمنافرة سياسية مضادة وكعبة بولية ومحلية كبرى لا مفر منها. وهكذا فعلى حين تعلن مصر أن على اسرائيل أن تختار بين السلم والحرب ، فإن اسرائيل لا تقدم الا لعبة السلام المراوغ والمراوغة السياسية الممطوطة ولا تملك الا استراتيجية السلام الكاذب.

وحقيقة الأمر أن إسرائيل ، في قرارة نفسها ، تتبنى في الشرق الأوسط «نظرية الدومينو» التي كانت أمريكا تتبناها في الشرق الأقصى ، والتي تقول أن فقد قطعة من الأرض للخطر الشيوعي في جنوب شرق آسيا يؤدي إلى فقد قطعة أخرى ثم ثالثة وهكذا حتى تسقط المنطقة جميعا . بالمثل تعتقد إسرائيل أن تنازلها عن الأراضي المحتلة اليوم سيعقبه حتما تنازل عن جزء من فلسطين المحتلة غدا ثم عنها كلها بعد غد .. الخ . أول تنازل يعنى في صورتها أن رقعتها ثم وجودها سوف يتاكلان بالتدريج حتى التلاشي . أول تراجع منها يرادف عندها التصفية النهائية لها . لقد تبادلت أمريكا واسرائيل استعارة النظريات في الشرقين الأقصى والأوسط : فطبقت أمريكا سياسة «الفتنة» لحرب اسرائيل في الشرق الأوسط ، وأخذت اسرائيل فلسفة الدومينو من أمريكا في صراعها في الشرق الأقصى .

ختاما ، يحق لنا ويصح أن نسأل أنفسنا : هل تغير العدو ؟ هل غيرته حرب أكتوبر ؟ أم ليس بعد أو إلى أى حد ؟ تكتيكيا أو استراتيجيا ؟ والسؤال لا شك جوهري ، بل مصيرى ، لأن عليه سيتوقف سلوك العدو والموقف العملى الذى قد يتخذه عسكريا أو غير ذلك . لا جدال أن الحرب قد أحدثت رجة عميقة وهزة عنيفة صادمة فى اسرائيل ، العقلية ، الايديولوجية ، المستقبل ، الأمن والطمأنينة القومية ، كما زلزلت كثيرا جدا من المعتقدات المكتسبة والموروثة ، الحقيقية والموهومة . ولكن السؤال هو ، ويظل ، إلى أى حد ، وفى أى مدى ، القريب أم البعيد ؟ وهل وصلت إلى حد التغيير النوعى والتحويلات الكيفية ؟ هل تغيرت الفلسفة الصهيونية والعقلية العسكرية والنظرية التوسعية والنظرة العنصرية ؟ المؤكد أن الانتخابات الاسرائيلية ، كأول بارومتر متاح ودال على التغير بعد أكتوبر ، لم تعكس وقع الهزيمة بكل ثقلها ، بمعنى أن المجتمع الاسرائيلى لم يستوعب بعد مغزى التجربة وأنه لم يدرك أو يقبل الحقائق الجديدة ومحمولاتها ودلالاتها ونتائجها . وكان تقدير البعض من المحللين السياسيين أن الوقت لم ينضج بعد للتغير ، وأن هذا سيأتى فى المستقبل زاحفا ومزلزلا . وإذا عد الموقف من محادثات الفصل بين القوات فى الجولان مقياسا للتغير ، كما اشار الرئيس السادات ، فإن العدو لم يتغير جديا ، أو هو تغير بالكاد .

ثم منذ الانتخابات وبعدها جاء سقوط حكومة ماير ، أى سقوط وزارة الحرب مهندسة النكسة وبطلة الهزيمة وصانعة الكارثة ، جاء فكان أول ظهور كامل لنتائج أكتوبر التى حاولت طويلا أن تتجاهلها ولا تعترف بها . فلقد تحول التوتر إلى ضغط ، والضغط إلى صراع . ثم انتهت التقلصات العضوية والتشنجات الحيوية فى داخل الجسم الاسرائيلى وعقله الباطن ، والتى حاول عقله الواعى أو السلطة الحاكمة أن تخفيها وتخفف منها بالتكتم والكبت وبالمهدئات والمسكنات ، انتهت بالانهيار العصبى والجسدى .

غير أن انهيار الكائن الحى ، كما قد يكون خطوة نحو السقوط ، قد يكون علامة مقاومة للسقوط كما هو معروف فى علم النفس . وهذا بالدقة تشخيص المرحلة الحالية فى اسرائيل . فالكيان الاسرائيلى كله فى حالة حمى يرتج ويرتجف بالانقباضات الحادة والذبذبات العنيفة الداخلية ، لا لأنه يسلم الروح أو يسلم بالهزيمة ، ولكن لأنه يقاوم التغيرات الخارجية ويرفض التسليم بها لى ينهض فيتحداها . والصراع من أجل

السلطة ، باعتباره صراعا من أجل القوة فى الداخل ، هو فى واقعه صراع من أجل القوة فى الخارج ، أى صراع من أجل اعادة ترتيب البيت من الداخل ثم الصمود والتماسك فى المحنة ثم الانتفاض واستعادة السيطرة فى الخارج . لقد كانت اسرائيل المهزومة تبحث عن قائد لم يهزم ، واسرائيل الضعيفة عن رجل قوى .

العدو اذن لم يتغير ، ويرفض أن يتغير أو أن يعترف بالحقائق الجديدة والواقع الجديد . وهذا بالفعل ما أشار إليه الرئيس السادات فى حديث له إلى مجلة تايم حيث قال «إن السادس من أكتوبر كان لزاما أن يغير نظره الناس فى اسرائيل نفسها ، إلا أنني مازلت غير موقن من ذلك حتى هذه اللحظة» . وهو أيضا ما انتهى إليه والرئيس تيتو فى محادثتهما الأخيرة فى بريونى فى نهاية مارس ١٩٧٤ . وفى كلمته الرسمية قال السادات مشيرا إلى ضرورة التوصل إلى اتفاقية فك الاشتباك على الجبهة السورية «.. وإلى أن يتحقق هذا ، فإننا نعتبر أن الظروف التى تضمن تحقيق مزيد من التقدم فى طريق السلام لم تتحقق بعد ، وأن القيادات الاسرائيلية مازالت تخدعها أوهام الماضى ، أو أنها قد عجزت عن استيعاب الواقع الجديد بكل أبعاده ومعانيه» . وفى رده أمن تيتو بدوره على قول ضيفه وأكد قائلا «يبدو أن المسئولين الاسرائيليين لم يتحرروا بعد من الأطماع المعروفة والأهداف العدوانية تجاه البلاد العربية المجاورة . وهذا يظهر تماما من التصريحات التى أدلت بها الشخصيات الاسرائيلية الرئيسية فى الآونة الأخيرة ، والضغط والاستفزازات التى تقوم بها اسرائيل بون انقطاع ضد سوريا» .

الضغط الأمريكى

هنا يصبح السؤال الفورى هو : فماذا اذن عن موقف أمريكا ، ضامنة الحل السلمى بالمشاركة وولية أمر العدو وولية نعمته وقوته بل ووجوده بالأصالة ؟ ماذا ستفعل أمريكا خاصة بعد أن تغير موقفها تجاه العرب نسبيا ؟ المفهوم أن الدول العربية لم تقبل بايقاف القتال الا على عهد مشترك من أمريكا والاتحاد السوفيتى بضمان فرض الحل السلمى على أساس تنفيذ قرار الانسحاب وملحقاته . ولكن هنا أيضا ، بل هنا أكثر ، كانت حيرتنا تصل إلى القمة . فكل يوم ، ومن كلا الطرفين ، كانت الأنباء تحمل لنا خبرا متناقضا : أمريكا تضغط على اسرائيل ، أمريكا لاتضغط .. الخ .. وظلت تصريحات

ساسة وقادة الطرفين تتفى علنا أى ضغط ، بينما كانت التصريحات الأمريكية قاطعة فى أنها لن تفرض على اسرائيل حلا من الخارج لا تقبل به .

على أن الأمر اختلف بعد ما رأيناه من تغير الموقف الأمريكى ، وأن ظلت أمريكا بطبيعة الحال موزعة بين تبنيها الكامل لاسرائيل ورغبتها فى التقارب مع العرب . فحين بدأت ارمصاصات هذا التغير أوضحت الولايات المتحدة أنها تشعر أنه يجب التوصل إلى بعض الحلول الوسطى ووضع نهاية للصراع المزمع فى هذه المنطقة التى شهدت حروباً عديدة وافتقرت طويلاً إلى السلام والطمأنينة . وفى بداية محاولات التسوية السلمية التى تلت وقف إطلاق النار صرح كيسنجر بأنه إذا نجحت مفاوضات السلام فسوف تنشأ مشكلة خطيرة جداً ، خاصة لاسرائيل وهى كيفية تأكيد أمنها فى ظل الظروف التى ستكون فيها الحدود النهائية مختلفة بالتأكيد عن خطوط وقف النار . ثم أوضح ان اسرائيل قد وافقت دائماً على أن الحدود النهائية لن تكون هى خطوط وقف النار ولا خطوط ١٩٦٧ أو ١٩٧٣ . وأخيراً أضاف أن أمريكا تؤيد المفهوم القائل بأنه «لا ينبغي أن تزال الأمم بمجرد التفوق العددي أو بأية وسيلة من جانب جيرانها» .

واستمراراً للاتجاه نفسه صدر عن الولايات بيان قالت فيه بوضوح «نحن على استعداد للضغط على اسرائيل للتوصل إلى السلام المعقول فى الشرق الأوسط» . غير أنها لم تحدد إلى أى مدى هذا «الضغط» ولا ما هو معنى «المعقول» فى هذا الصدد . ولكن البعض فسر هذا بأنه خطة لعودة جميع الأراضى المحتلة «تقريباً» مع انشاء مناطق منزوعة السلاح فى سيناء والضفة الغربية للاردن ، إلى جانب تسوية «معقدة» للقدس ، ثم ضمان بولى للاتفاق برمته . وفى مناسبة أخرى صرح كيسنجر للصحافة بأن السلام فى الشرق الأوسط تجرى متابعته حسب أسرع جدول زمنى ممكن ، لأن ذلك «يمثل مصلحة قومية أمريكية» .

لذلك حين أعلنت مايبير أن الجولان جزء لا يتجزأ من اسرائيل ، تصدى مسئول أمريكى فى الشرق الأوسط للرد عليها ، فأعلن بالتحديد كما رأينا أن الولايات المتحدة لا توافق على هذا التصريح ، وأن هذه «ليست المرة الأولى التى نختلف فيها مع الموقف الاسرائيلى» . ثم أكد المتحدث أنه «يتعين على اسرائيل الانسحاب إذا كانت تريد السلام ، وإذا كانت تريد أن تصبح جزءاً من واقع المنطقة» ، كما أضاف فى النهاية أن «على

الفلسطينيين أن يقبلوا انشاء دولة جديدة فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، لأن رفضهم لها سوف يثير بلا شك صعوبات بالنسبة لآية تسوية فى الشرق الأوسط» .

ومن الناحية الأخرى ، فإن الولايات المتحدة ، حتى بعد الحرب ، ظلت ومازالت ماضية فى سياستها التقليدية والأثيرة وهى تسليح اسرائيل حتى الأسنان . عوضتها أولا بالكامل ، كما رأينا ، عن كل خسائرها فى المعركة حتى عادت قوتها العسكرية إلى أكثر مما كانت قبلها (٢٢٠٠ مليون دولار) . ثم عادت ثانيا فتعاقدت معها على صفقة سلاح أضخم وأحدث وأخطر (٣٠٠٠ مليون دولار) ، حتى لا يتكرر ما حدث أثناء أكتوبر من نفاذ رصيدها ، أى لتضمن لها التخزين « والتشوين » على أرضها تسحب منه « من على الرف » دون انتظار أو حاجة إلى الاعتماد على الإمداد الحرج أثناء القتال (المجموع ٥٢٠٠ مليون دولار) .

وإذا كان المقدر أن اسرائيل حصلت فى إدارة نيكسون حتى ما قبل أكتوبر على كميات من الأسلحة أكثر من مجموع ما حصلت عليه منها طوال تاريخها السابق ، فالمقدر الآن أن ما حصلت عليه منها أثناء وبعد أكتوبر يفوق مرة أخرى كل ما أخذته منها قبل ذلك جملة وتفصيلا . وقد كان آخر ما أعلن عنه فى هذا الصدد صفقة ضخمة من صواريخ شرايك جو - أرض فى ابريل ١٩٧٤ ، صرح الجنرال موردهاى هود بمناسبةها بأن الحكومة الأمريكية « أظهرت كثيرا من التفهم فيما يتعلق باحتياجات اسرائيل من السلاح .. لقد وعدنا الأمريكيون بكل ما كنا نطلبه تقريبا ، وكنا نطلب الكثير ، سواء فيما يتعلق بالتسليح الجوى أو البرى أو البحرى » .

هذا عن الاتجاهات الأمريكية القديمة والجديدة ، فماذا عن رد الفعل الاسرائيلى ؟ ما من شك أن اسرائيل تدرك تماما « معنى » الولايات المتحدة بالنسبة لها : ليست هى فقط خط الدفاع الأخير وضمان الأمن الحقيقى وصمام الأمان وصنبور الحياة ، وإنما أولا وأخيرا ورغم التكرار « الاله » والصديق الوحيد بنص تعبير ماير . وما من شك بعد ذلك أن اسرائيل تدرك خطر ابتعاد الولايات المتحدة عن موقفها ولو بزاوية انفراج قدرها درجة واحدة . وهى من ثم تحاول مسبقا أن تحاصر الولايات ، وتبذل الضغوط عليها قبل أن تتعرض هى لضغوطها ، فإذا ما تعرضت لها رغم كل جهودها ردت عليها بضغوط مضادة عنيفة أو مستترة ، داخلية أو خارجية .

ويبدو أن إسرائيل قد استشعرت بالقلق والخوف كله بداية التغير والضغط الأمريكي ، على ضالته ، منذ وقت مبكر في أيام المعركة ، ولكنها كتكتيك أصيل بل كاستراتيجية واعية كانت تحاول أن تتكتم الاختلاف ريثما تسوى الخلاف . ولكن حتما كان لابد أن يبرز عدم التطابق إلى السطح أن عاجلا أو آجلا .

وفي الأيام الأخيرة من القتال ، يوم ٢٠ أكتوبر بالتقريب ، كتب المعلق الأمريكي جيمس ريستون مقالا كاشفا وخطيرا يبدو أن الأحداث تالية قد أيدت بعض ما فيه من نبوءة إلى حد أو آخر ، معا يبرر لنا الاقتباس منه بافاضة . «رغم الجسر الجوي الأمريكي الحاشد من الطائرات والذخيرة لإسرائيل» ، قال ريستون ، «فان من الخطأ الافتراض بأن هدف حكومة نيكسون هو ضمان نصر إسرائيلي مثير آخر في حرب الشرق الأوسط ، فواشنطن لا تحاول إعادة الموقف العسكري الذي كان قائما قبل الهجوم العربي والذي أدى إلى وضع دبلوماسي متأزم . انها تحاول تحقيق وقف إطلاق النار بشكل وسط يفتح الطريق إلى تسوية تجرى بالمفاوضات . ولذلك فان هناك فارقا بين أهداف إسرائيل وأهداف حكومة نيكسون» . وذلك ، فيما يبدو ، كان بداية الاختلاف بين الموقفين وبداية زاوية الانفراج في التطابق التقليدي القديم.

ويقول ريستون بعد ذلك ان واشنطن وموسكو «على اختلافهما، لهما هدف مشترك ، هو ايجاد موقف عسكري يؤدي إلى حل دبلوماسي وسط» . ثم يضيف أن «واشنطن تحاول اقناع إسرائيل بأنه حتى لو كسبت معركة في سيناء، فان الحرب قد غيرت تغييرا أساسيا من المشكلة الاستراتيجية التي تواجهها . والرأي الرسمي في واشنطن ، صوابا كان أو خطأ ، هو أن موسكو عقدت العزم على تزويد العرب بأحدث الأسلحة، أن العرب لديهم قوى بشرية ومهارات تكفل استخدام الأسلحة السوفيتية، وان الأفضل لإسرائيل قبول حل وسط بدل مواجهة حرب استنزاف ضد ملايين من العرب ، تساندهم أسلحة سوفيتية حديثة».

ويخلص ريستون أخيرا إلى هذا الانتهاء القاطع والكاشف معا: «ان الدولتين الكبيرتين تختلفان بشأن أمور كثيرة ، ولكنهما تتفقان على أنه لابد لإسرائيل أن تنسحب من السويس وأن تبدأ في التفاوض والتوصل إلى حل وسط والتخلي عن معظم الأراضي التي احتلتها في الحرب عام ١٩٦٧ . ان نيكسون وكيسنجر لا يقولان ذلك علنا، ولكنهما

يضغطان سرا، لا من أجل تحقيق نصر إسرائيلي ، بل من أجل قبول الإسرائيليين لحل وسط .

ومنذ انتهى القتال ، ورغم كل ما أعلنه الطرفان من عدم ضغط أمريكا على إسرائيل ، فإن هناك شواهد وأدلة متزايدة على العكس . فمن ناحية كانت إسرائيل تتوقع الضغط وتتأهب له . مثلا كتبت دافار تقول ان الضغط علينا من أجل حل سوف يزداد كثيرا، ليس فقط من أعدائنا ولكن من أصدقائنا كذلك. ولا يجب أن ننسى أن مشروع روجرز قدمته أمريكا بعد أن تعرضنا لحرب الاستنزاف وبدا التدخل السوفيتي عميقا جدا مع اصرار العرب على الاسترجاع بالقوة . وأكد دايان الحقيقة نفسها حين قال «أما أمريكا فإنها الآن متلهفة على الحل خوفا على مصالحها في الشرق الأوسط» . وإذا شئنا رأيا محايدا أو على الأقل من خارج معسكر العدو المباشر ، فقد تنبأت الجارديان بأن «من المنتظر بعد حرب أكتوبر أن يضعف اهتمام أمريكا بإسرائيل» .

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فإن تحقيق الفصل بين القوات على الجبهة المصرية، ثم على الجبهة السورية أكثر، ما كان ليتم على الأرجح دون ضغط أمريكي حاد . وبالنسبة للجبهة الأخيرة ، فلقد قيل ان كيسنجر لوح لإسرائيل بأن البديل للفصل هو الحرب الشاملة، وفي هذه الحالة فليس لإسرائيل أن تنتظر جسرا من السلاح كذلك الذي أنقذها في أكتوبر .. إلخ.

وفيما عدا هذا فإن تصريحات إسرائيل المتخوفة والمريرة من الضغط أو التغيير الأمريكي أو احتمالاتها ليست بالقليلة . «لقد حدثت في الأيام الماضية» ، قالت مايير بعد وقف إطلاق النار، «أشياء قليلة تحملنى على القلق» . هذا بينما كان دايان أكثر وضوحا : «إن قطرات من المرارة توجد الآن بين إسرائيل والولايات المتحدة» . هذا فى حين وصل قنصل إسرائيل فى نيويورك ، المدعو ريفلان ، إلى حد العصبية المفلوطة ، فقال أن الولايات المتحدة قد لحقت الآن بالاتحاد السوفيتي وتبنّت معه سياسة معينة فيها الكثير من الضرر لإسرائيل ولستقبلها» (كذا!).

كذلك ففى تصريحه الهيستيري الهوى عن استعداد إسرائيل لمحاربة العالم كله اذا اقتضى الأمر، أضاف شلومو هليل قوله «وإذا حاولت أمريكا الضغط علينا لفرض تسوية، فإن هناك حدودا لما يمكن أن نقبله يعرفها الأمريكيون ولا يمكن أن نتخطاها» . ولا

يختلف عن ذلك غير تصريح دايان بالاستعداد لمحاربة الجميع بما فى ذلك الولايات المتحدة اذا دعت الضرورة . وفى دعاياته الانتخابية حذر دايان الإسرائيليين قائلا «على إسرائيل أن تحتفظ بقوتها وارادتها لمقاومة الضغط العربى والأمريكى عليها من أجل أن تقدم تنازلات تتعلق بالأراضى».

وثمة أخيرا تحذير مايير الحذر «إذا استخدم الأمريكيون الضغط واضطربنا إلى أن نقول لا، فإننا سوف نقول لا، وإن كنت أتمنى ألا يحدث ذلك» . غير أنها فقدت حذرهما أيام محادثات الفصل على الجولان حين أُنذرت أن إسرائيل «ستبتر اليد التى تمتد إليها» كما أنها لم تملك الا أن تتأوه بأسى بعد أن تم اتفاق الفصل قائلة «سامح الله أى إسرائيلى يعتقد أن أمريكا ملزمة بمساعدتنا».

وقد بلغت مرارة إسرائيل تجاه أمريكا الذروة، وبلغ قلقها وتوجسها من أى تغير فى موقفها ازاعها القمة، حين بدأ التفاهم أو التقارب بين العرب وأمريكا. والواقع أن أحداً فى العالم لا يخشى هذا التقارب أكثر من إسرائيل، ولا أحد يحاربه ويعمل ضده مثلها . وقد انعكس هذا بجلاء حين زيارة نيكسون لمصر وسوريا، وعبر عنه رابين رئيس وزراء إسرائيل الجديد بلا خفاء . «من المؤكد» ، قال هو حينذاك ، «أن يؤدى التقارب بين الولايات المتحدة والدول العربية إلى خلق مشاكل لإسرائيل واثارة مناقشات حادة بل واثارة خلافات فى وجهات النظر بين الأمريكيين والإسرائيليين . ولكنى أفضل هذه الخلافات فى وجهات النظر على اندلاع حرب» . ثم أضاف «غير أن من الواجب ألا يثير هذا التطور فى العلاقات الأمريكية العربية أى قلق مبالغ فيه فى إسرائيل ، خاصة أننا نعلم أن الولايات المتحدة تريد لإسرائيل أن تكون قوية».

وإذا كان لهذا كله من معنى ، فهو أن أمريكا ان حاولت ، فرضا وجدلا، أن ترغم إسرائيل ارغاما على «التعقل» ، فليس من المستبعد أن «تتمرد» هذه عليها وأن تأخذ مصيرها «فى يدها» وتضعها والعدو والعالم أمام الأمر الواقع . ليس من المستبعد ، يعنى، أن تقوم «المستعمرة» ، كما قد نقول ، «بحرب استقلال» عن «المتروبول» ، مثلما فعلت الوكالة اليهودية من قبل ضد بريطانيا الانتداب أو فرنسيو الجزائر ضد فرنسا الأم أو روديسيا المستوطنين ضد بريطانيا الكومونولث من بعد، فشن الحرب على «الوطنيين» - الدول العربية فى هذه الحالة..

خلاصة القول إن هناك مقاومة إسرائيلية عنيدة ومصرة وضغوطا مضادة للضغوط الأمريكية، تماما كما أن هذه الأخيرة ضغوط حقيقية وليست مكنوية . ولكن هذه المقاومة الإسرائيلية، مثلها مثل الادعاءات والمطالب الإقليمية الإسرائيلية، تحتاج أولا وقبل التسليم بها كمنطلق لموقف عملي إلى تقييم وإعادة تقدير : إلى أى حد هي جازمة ونهائية لارجعة فيها؟

الواقع أن هناك ملاحظة عامة مهمة للغاية ينبغي ألا نغفل عنها فى كل ما يتعلق بإسرائيل وبسلوكها المتوقع. فهناك دائما تناقضات وتحولات كثيرة فى تصريحات قادتها ومسئولياتها تتراوح عادة بين المزايدة والتشدد التام وبين التراجع والمساومة الحادة. وكثير من هؤلاء القادة غيروا أقوالهم ومواقفهم مرارا وإلى حد التناقض الذاتى بصورة أريكت حتى مواطنيهم بل ودعتهم إلى اتهامهم بالتلون وعدم الثبات والمرونة المفرطة حتى أصبحوا بلا رأى حقيقى أو أصبح رأيهم بلا قيمة حقيقة. ويحتل الصدارة هنا لاشك دايان ، صاحب الرد المشهور «إن الحمار وحده هو الذى لا يغير رأيه»!

وغالبا ما ترجع هذه التغييرات المتناقضة أما إلى اعتبارات حزبية أو انتخابية داخلية، وإما بقصد رفع معنويات الشعب والجيش ، وإما للضغط المعنوى على العدو العربى أو الضغط المضاد على الأصدقاء الأمريكيين تحسبا أو تحشدا لمقاومة ضغوطهم.. الخ . ولهذا فليس ينبغي لنا أن نأخذ العدو على أنه دائما يعنى ما يقول ولا أن تؤخذ تصريحاته على علاتها وعواهنها وبخذافيرها كمقياس قاطع لنواياه أو لقراراته النهائية – والا فأتين مثلا تصريحاته المغلظة عن عدم الانسحاب شبرا من الجولان التى هى «جزء لا يتجزأ من إسرائيل» ؟ وفى حالة قضية الانسحاب الشامل المطروحة الآن ، فلقد رأينا أيضا كيف يتأرجح العدو بين شعار «ولا بوصة واحدة» وبين اعلانه عن القبول بالانسحاب من جزء وليس من كل الأراضى المحتلة.. الخ . إن الإسرائيليين ، نحن نخلص ، يقولون لحسن الحظ ما لا يفعلون ، ويفعلون كثيرا عكس ما يقولون.

والآن ، مع هذا التحفظ وسائر الاعتبارات والتعقيدات ، ما هى إذن خلاصة تفاعل كل تلك الضوابط والضغوط المتوازية أو المتعارضة التى تعمل الآن على مسرح الحل السلمى للازمة ؟ فى تقدير جمهرة المطلين، هى معادلة أساسية محددة، لكنها ليست جذرية بل وسطية . ان أمريكا، نقول تلك المعادلة، تتعرض لضغوط شديدة متضادة ، من العرب ومن

إسرائيل، من العالم الخارجى كما من داخل أمريكا نفسها، ومن عوامل خارجية وأخرى داخلية . ومن ثم فهي ستتقل هذه الضغوط إلى إسرائيل، أى ستضغط عليها يوما ما بالضرورة . وإسرائيل ستقاوم وتتصامم بالقطع، ولكنها فى النهاية سترضخ بالحتم . وهذا هو الحد الأول من المعادلة والذي بدأ وتلمسه اليوم بالفعل .

وعند هذا الحد نلاحظ ، عابرين ، أن الموقف يختلف كثيرا ، الموقف العام وموقف أمريكا بالذات، عنه بعد يونيو ١٩٦٧ ، حين كانت تتخايط فتدعى مرة أنها لا تتدخل لمصلحة إسرائيل ومرة لأنها ليست طرفا فى النزاع .. الخ ، وهى فى كل الحالات تتواطأ مع إسرائيل فى موقفها القائل «نرنى ومن هزمت وحيدا وجعلت له عارا معبودا» . ولكن أمريكا أيضا فى موقفها هذا الجديد تختلف اختلاف جذريا عن موقفها ١٩٥٦ حين تعاونت على ارغام إسرائيل، كمخلب قط العدوان الثلاثى وذنبه، على الانسحاب من سيناء . فلقد كانت أبعاد الموقف وظروفه الموضوعية مختلفة كل الاختلاف عنها الآن. والخلاصة الصافية هى أن أمريكا مرغمة هذه المرة على أن تضغط ايجابيا على إسرائيل، ولكن ليس ضغطا كليا شاملا ، وانما ضغطا وسطا، قل نصف ضغط . وهذا هو الحد الثانى من المعادلة .

والنتيجة النهائية لهذا الضغط المحدود هى أن ما ستفرضه أمريكا على إسرائيل وتقبل هذه به سوف يكون دون الحد الأدنى الذى يقبل به العرب بالتأكيد. ولا ينبغي أن ننسى أن على العرب بدورهم ستضغط أمريكا بالجزم، بل وقد تهدد «وتهوش» ، ولكنهم سوف يرفضون على وجه اليقين. وبعبارة موجزة ، أمريكا لاشك ستضغط على إسرائيل ، دون أن تلوى ذراعها مع ذلك أو تصل إلى حد الارغام قط، وستعمل إسرائيل وتقاوم وقد تصرخ وتتصايح دون أن تحتاج غالبا إلى الوصول إلى حد التمرد أو الرفض ، ولكن العرب على الأرجح سيجدون أنفسهم فى النهاية مضطرين إلى عدم القبول بالطالب والمطلوب.

ان هناك مساحة واسعة نسبيا من الخلاف بين إسرائيل وأمريكا قد يمكن عبورها جزئيا ، وهناك مساحة من الخلاف أوسع بين أمريكا والعرب لا يمكن تضيقها الا بالكاد ، ولكن هناك مساحة من الخلاف بين العرب وإسرائيل يستحيل تقريبها أو القفز عليها على الإطلاق.

وهذا هو الحل الوسط الذى تقدر عليه أمريكا : إنه الحل الأمريكى ، وهو لانتقول بعد الآن الحل الإسرائيلى ، ولكن للانصاف والدقة ربما نصف الإسرائيلى. وفى وجه هذا الاحتمال ، سألت مجلة شتيرن الرئيس السادات «ولكن ماذا سيحدث لو عجز الأمريكيون عن حمل الإسرائيليين على الانسحاب من الأراضى المحتلة؟» ، فأجاب قائلا «أننى أتوقع حينئذ على أى الأحوال أن يعترف الأمريكيون بذلك علانية» .

حسنا ، فماذا اذن ؟ أهو الحل السياسى يتعثر مرة أخرى وعاشرة ؟

هل هذا هو الطريق المسدود ؟ أهى عودة من جديد إلى أوضاع وتوازنات ما قبل أكتوبر ، موقف مجمد ومتوتر يبحث عن الحل فلا يجده ، أى حالة اللاحرب واللاسلم ، مضافا إليه فقط نوع من الحل الجزئى بعد فصل القوات ؟ وإلى أى مدى من الوقت يمكن أن يستمر مثل هذا الموقف الجديد أو المجدد ؟ بل كم يستطيع العرب ، بل العدو نفسه ، فضلا عن العالم ، أن ينتظروا جهود التسوية السياسية نفسها حتى قبل أن تصل إلى فجوة الافتراق ونقطة اللاعودة ؟ شهورا أم سنين ؟ سنة أم خمسا ؟ .. الخ .. الخ . تلك وغيرها أسئلة حرجة وحساسة تثيرها الأحداث والتوقعات وتبحث عن الاجابات المرضية ، فهل يمكن العثور عليها؟

أن أحدا لا يود بالطبع أن يصادر أدنى أمل فى احتمالات المستقبل : إنه عمل غير ثاقب ، أنه ليس من المصلحة الدعائية أو الإعلامية . غير أنه ليس من الحكمة السياسية كذلك أن نقفز فوق الواقع ونتجاهل الجوهر الكامن والدفين لطبيعة الصراع برمته ، ذلك الذى ينعكس على كل جزئية ومرحلية وأنية من تطوره والذى يحكم كل خطوة يخطوها العدو بوجه خاص أو خطة يضعها . ولهذا فإن من الضرورى ألا نفكر فى احتمالات المستقبل القريب بصورة تجريدية أو تبسيطية أو من وجهة نظرنا وحدنا . بل لابد أن نخطط على أساس ما يفكر العدو باطنيا وما يتبنى فعلا من مواقف وقناعات ، حتى نتحصن له بالمصل المضاد نفسيا وماديا . سياسيا وعسكريا ، على المدى القريب والبعيد ، وغير ذلك .

فعلى هذا الأساس . ماذا نجد ؟ لنتفق أولا على حقيقة أساسية هى مفتاح للخطر كما هى مدخل إلى المستقبل : حالة الجمود أو التجميد القديمة فى الموقف الصراعى عموما والتي سادت قبل أكتوبر قد انتهت تماما بفضل المعركة ، وهذا حسن جدا ، ولا يمكن لها

تاريخيا أن تعود على الإطلاق ، وهذا هو الأحسن . ولكن من الناحية الأخرى ، حلت محل «الجمود» حالة من السيولة بل «التميع» قلقه ومريكة ، دون أن تظهر بعد حالة «تبلور» واضحة . وفي ظل هذا التميع فإن كل شئ أصبح الآن ممكنا إما الحل أو اللحل ، إما الحل أو الحرب .

ومن المفهوم بعد هذا أن مؤتمر السلام سيمتد إلى شهور على الأقل ، وقد يصبح التمييز بالسنة ، هذا إذا استمر دون قطع أو تعثر . سيكون المؤتمر ممطوطا مطولا بقدر ما سيكون العدو الاسرائيلي مراوغا مفلاتا ومعوقا . هذا بينما أعلن الرئيس السادات بحزم أن تصوره هو أن التسوية السلمية يمكن ويجب أن تتم كلها في غضون بضعة أو عدة شهور . ومن المسلم به لدى الجميع أن العدو سوف يتفنن في اختلاق المشاكل والعقبات وتمييع المناقشات وتمديدتها إلى أقصى حد ممكن بل متصور . بل لعله قد بدأ ذلك من قبل بالفعل ، كما رأينا في موقفه من مباحثات الفصل بين القوات على الجبهة السورية ، بوابة المؤتمر .

وهكذا تبدو اللعبة الاسرائيلية أساسا وهي لعبة المراوغة والتسويق ، غير أن هذه اللعبة خطيرة بقدر ما هي مكشوفة ، لأن الموقف العسكري على الجبهة أولا ، والموقف السياسى والبترولى فى العالم ثانيا ، لن يسمحا لها بأن تطول أو تمضى إلى مالا نهاية وستفجرانها يوما ما أن لم تفجرهما هي قبل ذلك .

وعدا هذا وأخطر منه ، هناك تناقض جذرى بين تصور العدو وتصور العرب للمؤتمر طبيعة وهدفا . فبينما أعلن العدو مسبقا ومكررا أنه لن يذهب إلى المؤتمر إلا إذا كان مؤتمر سلام بالفعل وليس اجتماعا لتنفيذ قرار ٢٤٢ ، أعلن الرئيس المصرى فى حديثه إلى مجلة شتيرن «أننى لن أذهب إلى محادثات جنيف لاتفاوض حول انسحاب إسرائيل من المناطق المحتلة . ذلك موضوع محسوم بالنسبة لى . إن الانسحاب واقع لا محالة» . فالانسحاب الشامل الكامل بالنسبة للعرب أمر مفروغ منه ولا نقاش فيه ولا يمثل وظيفة المؤتمر ، ولكنه فى خطة العدو موضوع المساومة والجدل وهو جل وظيفة المؤتمر .

كذلك بينما يعنى السلام فى مفهوم العدو الصلح ، أى الاعتراف والتمثيل .. الخ، وانتهاء النزاع أو تصفية الصراع إلى الأبد ، يقصد العرب منه انهاء حالة الحرب فقط كما وضع الرئيس المصرى مرارا ، فذلك هو الممكن الوحيد الآن وبعد ربع قرن من

الكراهية والعداوة ، أما ما دون ذلك أو ما بعده فمتروك بالطبع للأجيال القادمة . أو كما قال بالتفصيل فى حديثه الى شتين «إننى أستطيع أن أتحدث بالنسبة لجيلى فقط .. هل تستطيع حقا أن تتصور أن بالامكان بعد ٢٦ عاما من العنف والكراهية والمرارة أن يهبط السلام فجأة على المنطقة ؟ .. دعونا أولا ننهى حالة الحرب . وسوف يكون على الجيل القادم أن يقرر ماذا يحدث بعد ذلك » .

ومرة أخرى أكد الرئيس موقفه فى رده على سؤال مجلة تايم عما إذا كان يتصور «اقامة علاقات دبلوماسية عادية مع اسرائيل ذات يوم» ، أو حتى «الأشكال الأخرى من العلاقات أو الاتصالات كتبادل الزيارات السياحية والمعاملات التجارية وما إلى ذلك»، وذلك إذا سارت المحادثات سيرا طيبا . فقد رد سيادته بقوله «كيف نتصورون هذا بعد ستة وعشرين عاما من المرارة والقتال والكراهية والعنف ؟ هذا لا يستقيم ، فطوال ستة وعشرين عاما قامت بيننا حالة حرب . فليكن هدفنا هو إنهاء حالة الحرب هذه بصفة رسمية ودون موارد . إن هذا سيكون انجازا كبيرا .. أعتقد أنه يكون انجازا كبيرا إذا اتفقنا على رأى من العالم كله على إنهاء حالة الحرب. هذا لو تم لكان نقطة بداية طيبة جدا .. وبعدها يسود المنطقة مناخ جديد .. ولا نستطيع أن نتنبأ بما سيحدث فيما بعد » . على هذا ، وحتى نحسن تقدير الموقف كما يمكن أن يحتمل أن يكون ، فإن علينا أن نحلل تحليلا موضوعيا حسابات وأهداف كلا الطرفين العربى والاسرائيلى فى المواجهة الراهنة . فاذا بدأنا بالعدو فسنجد هذه الاعتبارات الحاكمة الأربعة ، وأربعتها - سيلاحظ - تتفق فى تحديدها لاتجاه العدو فى المستقبل ، فتجعله غير جاد ولا راغب فى الوصول إلى تسوية سلمية حقيقية جادة ودائمة وتدفع به بالضرورة إلى التفكير فى تغيير الوضع الراهن بالقوة .

أولا ، سواء صح أو لم يصح ما تدعيه وتعلنه اسرائيل من أنها انتصرت ، وانتصرت انتصارا ضخما ، وسواء كان هذا الادعاء أو الاعلان يرجع إلى دوافع الاستهلاك المحلى وتغطية هزيمتها أو إلى الاستهلاك الخارجى والقدرة على المساومة السياسية الأفضل ، فإنها فى النهاية لن تخدع نفسها .. فاما أنها حقيقة انتصرت أو حقيقة انكسرت - وهى تعرف . فإن كانت الأولى فليس من المنطقى أن تقبل بالتنازل الشامل والانسحاب الكلى ، وستصر على أن تطلب أرباح النصر كاملة وعلى قطف ثماره . وأن كانت الثانية ، فإنها

لن تقبل بنتيجتها وتستسلم لها كأمر واقع بهذه السهولة وتلك البساطة لأنها تهدد صميم فكرة وجودها . لقد عاشت فى المنطقة على أساس واحد ووحيد هو القوة ، القوة المطلقة المتفوقة الرادعة ، فإذا فقدت هذا الردع فستفقد وجودها فى نهاية المطاف مهما نأت هذه النهاية .

ثانيا ، انسحاب إسرائيل إلى خطوط ٤ يونيو ١٩٦٧ يعنى من وجهة نظرها عودة الجيوش العربية لتمرکز على أجنابها وضلوعها مباشرة بقوة وقدرة لم تعرفهما من قبل كما وكيفا . فلقد خرجت الجيوش العربية من معركة أكتوبر محتفظة بسلامة قواتها تماما ، وعوضت بل وضاعفت أسلحتها المتطورة كذلك . ولقد كانت استراتيجية إسرائيل العظمى دائما الا تترك القوات العربية مهما كانت الظروف بغير تدمير أى إلا وهى منزوعة السلاح عمليا ، ودع عنك تماما أن تتركها وهى فى أوج القوة وبصورة تهددها كما لم يحدث من قبل . لقد كان هدف العدو الاسرائيلى ومعسكره هو دائما وأساسا تدمير قوة مصر الذاتية بوجه خاص وتحطيم مكانتها عالميا وعربيا وتقليص دورها إلى داخل حدودها . ولا يكون هذا بأن نتركها الآن مسلحة بأقوى وأخطر مما كانت فى أى وقت مضى .

وقد أضافت أوضاع أكتوبر إلى هذا تطورا جديدا ، هو خطورة الصواريخ العربية أرض - أرض البعيدة المدى سواء السوفيتية الصنع من طراز فروج وسكود أو المصرية من طراز القاهر والظافر ، ولقد كشف الرئيس السادات أخيرا كيف كانت صواريخنا هذه مصوبة إلى المدن الرئيسية الثلاث فى عمق إسرائيل أثناء المعركة استعدادا للعمل بمبدأ «العمق بالعمق» . وتذكر إسرائيل كم يتضاعف هذا الخطر حين تنسحب إلى خطوط ٤ يونيو ١٩٦٧ .

فكما وضع وحذر الجنرال هيرتزوج ، المعلق العسكرى الإسرائيلى حاليا ورئيس المخابرات سابقا ، فإن هذه الصواريخ ، إذا ما تقدمت شبكتها ويطارياتها إلى خطوط ١٩٦٧ ، فسوف تشكل تهديدا دائما وبالغا لقلب إسرائيل بأعماقها ومدنها الداخلية من الشمال والجنوب على السواء . ومن أجل هذا نصح حكومته بالإصرار على إقامة مناطق عميقة منزوعة السلاح لتكون عازلا وفاصلا فى حالة ما إذا قررت قبول الانسحاب الكامل.

ثالثا ، فى ظل مواجهة الجيوش المحتشدة على الجبهة بكل طولها وامتدادها وبأقصى درجات الاستعداد والتأهب ، تقف إسرائيل فى حالة من التعبئة شبه العامة المستمرة . وعدا أخطار التصاعد بالاحتكاك والاشتعال الذاتى نتيجة لضحالة الفصل بينها ، فإن إسرائيل لا تطيق هذا الوضع ولا تستطيع أن تقبل به طويلا أو إلى أجل غير محدد . فذلك يحتبس نحو ثلث قواها الانتاجية العاملة فى خطوط الدفاع ، وبالتالي يكاد يخرب اقتصادها المثخن بالجراح والكسور . هذا رغم كل محاولات التحايل على الوضع بتحويل مرن وسريع للقوى العاملة من قطاع انتاجى إلى آخر وباستجلاب اليهود المرتزقة من خزان الصهيونية العالمية ، دون أن نذكر سوقها أو تسويقها لقوة العمل العربية المحاصرة فى الأراضى المحتلة بل وأخيرا تجنيدها لطلبة المدارس للعمل الزراعى والصناعى لأول مرة فى تاريخ اسرائيل .

واستمرار التعبئة العامة فى إسرائيل هو قتل بطئ لها . تعرف هى ذلك، كما تعرف أن العرب يعرفونه . ولقد صدرت بالفعل تصريحات من قادة العدو تحذر الدول العربية من وضعه بالارغام فى تلك الحالة التى تضعه كما زعموا بين اختيارين لا ثالث لهما: الانهيار من الداخل أو الانفجار إلى الخارج . وحديثا وضع الرئيس السادات أنه ليست هناك الآن فى اسرائيل حكومة تجرؤ أو تستطيع أن تعلن التعبئة العامة.

رابعا، وأخيرا ينبغى أن نضيف اعتبارا حادئا قد يبدو عارضا أو عرضيا ولكنه ضاغط وفاعل إلى أقصى حد من وجهة نظر العدو. ذلك هو الانهيار السياسى الذى لحق بإسرائيل على مدى الشهور الأخيرة، والذى وصل أخيرا إلى قمته (أو حضيضه) بسقوط حكومة مايير وتمزق حزب العمل الحاكم، وما اقترن بذلك كله من اضطراب طاحن وضياح شامل فى جبهة العدو الداخلية وتهديد جدى لوحدة الوطنية المهيضة من الأصل والأساس. لقد كانت الأخطار الخارجية ، حقيقية أو مفتعلة و هى دائما عامل التلاحم الداخلى فى المجتمع الاسرائيلى المتنافر والمفكك جنسيا ولغويا طبقيًا وحضاريا وثقافيا، وحتى طائفيا. وكان الجيش بالذات بوتقة انصهار اسرائيل والمفاعل الوحى لسكانها الأخطا . والآن فلقد ضربت كل هذه المؤسسات والاعتبارات بما يهدد الدولة فى الصميم من كيانها.

واذا كانت سياسة العدو ، حتى فى أوقات انتصاره، وهى التلويح لمجتمعه دائما بالخطر الخارجى المزعون وباعتبارات الأمن الغلبة ليصرف أنظاره عن مشاكله الداخلية

ويحشده وراء هدف طاغ وأكثر الحاحا، فما أحرأه ان يلجأ إلى هذه السياسة فى اشد مراحل حياته تآزما وتهديدا. وبعبارة أخرى، فقد لا يجد قادة العدو ومؤسسته العسكرية بديلا عن حرب جديدة تلم بها شعث وحدته الممزقة ويشغل بها السكان عن الصراعات الداخلية. لاسيما أن مثلها هى الفرصة الوحيدة والأخيرة لكى يسترد هؤلاء القادة بعض ما فقدوه من مكانة وهيبة، بل من مبرر وجود وربما زعوسهم ذاتها. تلك لعبة قديمة فى السياسة، وهى فى صميم نسيج الدولة الصهيونية. ان القيد موجود، والاغراء شديد، والاحتمال وارد وليس للعرب أن يغفلوا عنه اليوم أو يستهينوا به.

تلك هى الاعتبارات الملحة والقاهرة التى تحكم فكر العدو وسلوكه المحتمل . فماذا عن الجانب العربى ؟ هنا نجد اعتبارا أساسيا واحدا ولكنه طاغ والعرب لا يريدون أساسا إلا استرداد أراضيهـم المحتلة واسترجاع حقوق الشعب الفلسطينى. ولقد حقق العرب فى معركة أكتوبر نصرا عسكريا لا يشكون فيه رغم كل حملات التشكيك . ولقد كان من الممكن لهذا النصر أن يكون من حجم اضخم ومقياس أعظم وأن يؤدى إلى تحقيق نتائج السياسية والاقليمية كاملة وبلا تأخير لولا التدخل الأجنبى.

ولهذا السبب جاءت المفارقة الغريبة وهى أن نتائج هذا النصر متعددة جدا وثرية للغاية على كل المستويات ، ولكن ذلك بالقوة لا بالفعل، أى باعتبار ما يمكن أن يتدفق عنها مستقبلا أكثر مما فاض منها فعلا وعلى الأقل من وجهة نظر هذا العدو ومن وراءه، فان حجم النصر العربى الصافى لا يكفى لاستسلامه ولا يبرر عنده أن يتنازل بلا قيد ولا شرط عما اغتصب من أراض عربية وحقوق فلسطينية. مثلا يقول اريك مارسون ان النجاح الذى حققه العرب على ساحة القتال «محدود»، غير أنه سيدفعهم إلى المطالبة بمطالب يعدها الاسرائيليون لا مبرر لها، ومن ثم فان اطلاق النار لن يتوقف طويلا ، أما احتمال العودة إلى جولة جديدة من المواجهة فمسألة وقت فقط.

وفضلا عن هذا فان العدو يعتمد على عامل الزمن كعامل من عوامل التعرية السياسية حتى تشحب هزيمته هو ويسترد معنوياته وقواه، بينما ينطفئ بريق نصرنا نحن ويتآكل بالتدريج . والعدو الآن يعمل كالمحموم من أجل تعقيم انتصارنا العسكرى سياسيا بعد أن حاول أن يشوه صورته حربيا. ومثل هذه الأوضاع المعلقة والمتميعة اذا ما ترك لها أن تستمر بلا نهاية ، فان من الممكن أن تكرر معركة أكتوبر النتائج النهائية لمعركة يونيو

ولكن بصورة معكوسة . فاذا كانت اسرائيل قد حققت نصرا عسكريا ضخما في يونيو، ولكنها فشلت في انتزاع نتيجته المنطقية وهي النصر السياسي، فان من الممكن على هذا الفرض أن يجد العرب أنفسهم بعد نصرهم العسكري المهم في أكتوبر وهم بغير ثمرته السياسية الطبيعية ، أى بلا نصر سياسى .

وفى مثل هذه الحالة - الافتراضية بالطبع - يمكن لحالة اللاحرب واللاسلم القديمة ان تعود بصورة ما وانما فى نمط اقليمي جديد نوعا : فبعد أن كانت قناة السويس فاصلا بين الاحتلال الاسرائيلى والمواقع العربية فى مصر، هذه شرق القناة وهذه غربها، سيكون الطرفان موزعين على جانبي خط الفصل بين القوات على بعد ٣٠ كم من القناة. وبالمثل على الجبهة السورية.

ويدهى ان كل هذه الافتراضات والاحتمالات لا تغيب البتة عن مصر وسوريا، وهما غير مستعدين قط لمجرد التفكير فيها فضلا عن القبول بها. بل لقد اعلنتا للعالم بوضوح مطلق أنه ما لم تتم التسوية السلمية المرضية تماما ومبكرا فانهما ستعودان إلى الاحتكام إلى القتال لتفرضا ارادتهما وتستكملا انتزاع حقوقهما وحقوق الشعب الفلسطينى. والحقيقة أن كل العرب يشعرون بأنهم حققوا نصرا - أول نصر لهم - لا يملكون الآن ترف التفریط فيه أو أن يدعوه يفلت من بين أصابعهم ليصبح آخر نصر لهم أيضا انها لتكون مأساة فاجعة ، بل جريمة حقيقية.

غير أنهم أيضا يشعرون أن هذا النصر، الذى جاء منقوصا لأسباب خارجة عن ارادتهم، يحتاج لانقول إلى انقاذ ولكن إلى تعزيز، إلى تلميع وتجديد شباب . اننا اذا كنا قد ثارنا فى أكتوبر لهزيمتنا فى ٥ يونيو ، فان علينا الآن أن «نثأر» لنصرنا فى أكتوبر ان جاز التعبير . ان الكثيرين يشعرون اننا بحاجة إلى نصر عسكري جديد يؤدي إلى «اخصاب» نصر أكتوبر سياسيا، بحيث يغل ثمراته الطبيعية ويفيض بها تلقائيا بعد أن انكشفت نوايا العدو الذى يريد أن يحجب عنا هذه الثمرات ويحرمانا منها بعناده ومماطلته ومراوغته . ولئن كان الاستمرار هو النصر اثناء معركة أكتوبر، وكان هذا قد استحال لأسباب غير منظورة أو منتظرة، فان الاستئناف الآن هو النصر كما يرى الكثيرون.

وعند هذا الحد نصل إلى نتيجة مثيرة ودالة إلى أبعد حد، وهى أن هناك توازيا بل وتقابلا قويا بين نظرة كل من العرب واسرائيل إلى أبعاد الموقف فى أكتوبر وما بعد

أكتوبر. فالموقف الآن ان كلا الطرفين يشعران بأن المعركة الأخيرة بأن المعركة الأخيرة لم تحسم الوضع المعلق بصورة قاطعة، أن ثقلها العسكري لم يكن بالقدر الكافي ليعكس كل نتائجها السياسية، وأنهما مدفوعان بالضرورة ان اجلا أو عاجلا إلى استكمال المعركة، وأن الاستئناف لن يكون في الحقيقة الا استكمالاً: العرب لاستكمال نصرهم المنقوص واسترداد أراضيهم وحقوقهم التي مازالت محتلة ومغتصبة ، واسرائيل لتصحيح وضعها المهزوم واسترداد مكانتها واسطورتها التي تعيش عليها.

وحتى لا يكون شك في صحة هذا التشخيص ، فان لدينا تصريحات قادة العسكريين واضحة قاطعة على أن المعركة لم تنته وان احتمالات العودة اليها قائمة في أى وقت وأن الاستعداد لها لم ينقطع قط . كل الأسماء المألوفة ، على جانب العدو ، ابتداء من مايير ودايان الى رؤساء الأركان وحتى محترف الدبلوماسية ايبان ، رددت تلك التأكيدات .

دايان ، على سبيل المثال ، قال اثناء الانتخابات «ان حرب أكتوبر لم تنته ، بل هي في بدايتها» ، وحث الشعب على ثبات الأعصاب اذا ما تجددت المعارك . ومرة أخرى قال «الآن فقط بدأت المعركة» . وبالمثل رددت مايير مرارا أن احتمالات تجدد الحرب واردة وغير بعيدة وغير مستبعدة .. الخ . بل كان من آخر تصريحاتها قبل سقوطها قولها انه على الرغم من تحسن الموقف في الشرق الأوسط نسبيا فانه ينبغي عدم استبعاد الحرب وأن على اسرائيل أن تكون على استعداد لذلك .

ولقد كان من آخر ما صدر من هذه التصريحات والتكهنات أو التهديدات ما قاله ايتزك هوفى ، الذى كان رئيسا للأركان بالنيابة لبعض الوقت ثم طرد ، من أنه يتوقع حربا جديدة في الشرق الأوسط تمتد على الجبهات الثلاث المصرية والسورية والأردنية ، وأن العدو (أى نحن) قد يستخدم في هذه الحرب الصواريخ أرض - أرض البعيدة المدى من طراز سكود وفروج ، وأنهم في هذه الحالة سيربون بقسوة بسلاحهم الجوى .

وأحدث من ذلك وأخطر ما قاله شيمون بيريز وزير الدفاع في حكومة اسرائيل الجديدة ، فيما يبدو محاولة لنسف مساعي السلام الأمريكية في المنطقة . فقد زعم أن الدول العربية تعتزم شراء أسلحة تصل قيمتها الى ٢٠ ألف مليون دولار قبل عام ١٩٨٠ ، وتجنيد جيش من ١,٥ مليون جندي في مواجهة اسرائيل . وعلى هذا الأساس بدأت اسرائيل في تخصيص قوات جوية لتكون مظلات جوية مستمرة فوق المدن الاسرائيلية ،

وكذلك فى تدعيم المطارات الحالية ، وبناء وسائل دفاع حديثة على طول الحدود ، فضلا عن الدفاع المدنى .

وبالمثل أعلن شارون أنه اذا حدث فى بضع سنين أن أصبحت مصر على وشك الحصول على أسلحة نوية ، فلن يكون أمام اسرائيل من خيار الا «شن حرب فظيعة غير ضرورية» . ثم قال انه متشائم بشأن فرص السلام فى الشرق الأوسط، وأن الاسرائيليين يخدعون أنفسهم اذا ظنوا أنهم على طريق التسوية مع العرب . كما انتقد اتفاقيتى الفصل بين القوات مع سوريا ومصر ، وقال إن اسرائيل تواجه مأزقا فى سيناء لأن المصريين سيطالبون بمزيد من الانسحاب الاسرائيلى «واذا لم نوافق فلن يكون هناك ما يحول بينهم وبين تحريك ٥ فرق ، ٢٠٠٠ دبابة الى الضفة الشرقية للقناة وتحطيم اتفاقية الفصل» ، والأمر لن يستغرق منهم سوى ساعات قلائل . أما عن الجولان فقد قال ان اسرائيل غالت فى الانسحاب ، وأن عودة القنيطرة الى السيطرة المدنية السورية أمر خطير يخلق موقفا متفجرا لا يحتمل حيث أن آلافا من السوريين سيقومون أمام الخط الفاصل.

وهم يشاهدون الاسرائيليين يعملون فيما كان حقولا سورية .. وهكذا الى آخره..
أما على الجانب العربى فلدينا ثلاثة تصريحات للرئيس السادات . لمجلة نيوزويك قال «اننى لا أهدد أحدا ، ولكن على الجانب الآخر أن يدرك أنه لن يستطيع البقاء فى بلادى ، الا اذا كان يفكر فى حرب أخرى بالطبع» ، ولمجلة تايم قال «اذا كانت اسرائيل لا تتوى التوصل الى حل ، فمعنى هذا أنها تسعى الى حرب جديدة . فاذا كانوا يريدون الحرب فقد ثبت للعالم كله اننى مستعد لكل النتائج . ولست أهدد أحدا بعد أن بدأنا السير فى طريق السلام ، ولكن اذا توقفت العجلة فلست أرى بديلا للحرب . وسيحدث هذا ، إن حدث ، على مرأى ومسمع من العالم» . وأخيرا قال الرئيس لمجلة شتيرن «اذا رفضت اسرائيل الانسحاب ، فمعناه أن إسرائيل تريد حربا جديدة» .

أما فى الداخل فما أكثر ما ردد الرئيس كلمته «لم تنته بعد المعركة» فى كل خطبه وتصريحاته . وعدا هذا هناك تصريحات القادة العسكريين العرب والمصريين التى تدور كلها حول أن المعركة لم تنته وأن مهمتهم لا تنتهى الا بعد تحرير آخر شبر من التراب العربى ، وأن واجبهم الاستعداد لكل الاحتمالات بما فى ذلك العودة الى القتال وأنهم على

استعداد دائما لذلك فى أية لحظة (هـ) اما أن تحل قضيتنا سلما ، واما أن نستأنف القتال فوراً - القائد العام المصرى) .

كل مقومات الصدام ومكوناته ومبررات العودة الى القتال كامنة اذن فى الموقف الراهن ، والتناقض ما زال جذريا وأساسيا بين أهداف الطرفين رغم كل المحاولات الدولية السياسية . والجانبان يدركان هذا تمام الادراك ويستعدان له بالتسليح الكثيف بل المخيف . وقد أثبتت تجارب العالم كله ، وتجاربنا مع اسرائيل أكثر ، أنه ما من سلاح محشود الا وحتما يستعمل يوما ، وكل مخزون ترسانة لابد أن يفتح ان أجلا أو عاجلا . السلاح المكس كالشحنة الحبيسة فى الطبيعة أو فى الانسان ، لابد لها من تفريغ يوما ما .

من هنا يحذر البعض أننا أن لم نفترض المعركة فقد تفرض علينا . ويرون أيضا أن العدو دائما انما يسعى بكل وسيلة وحيلة لكسب الوقت وريثما يعيد ترتيب بيته من الداخل بعد أن حطمته ونفسيته معركة أكتوبر ، وريثما يستكمل استلامه للسلاح الأمريكى الجديد كاملا ويطمئن الى وصول آخر قطعة منه الى يده ثم الى استيعابه له تكنولوجيا . وبعدها فلسوف يستमित فى ان تكون له مبادأة الهجوم ومباغطة المفاجأة ، ومن بعدهما النصر .

والعدو من جانبه لم يخف أنه يبحث عن استراتيجيات جديدة وأساليب عسكرية بالغة الخطر والمغامرة ولم يسبق استخدامها بحيث كما قال يعجز العرب عن الرد عليها تماما . وقد فسر البعض هذا بالاشارة الى الأسلحة الذرية التكتيكية ، أى الميدانية الصغيرة . بل لقد تواتر الحديث من جديد عن قنبلة العدو الذرية ، التى قد يملكها وقد لا يملكها ، والتى ان ملكها فقد لا يجرؤ حقا على استعمالها لأسباب تخرج تماما عن سيطرته وحساباته على أن شيئا واحدا مؤكد، وهو أنه اذا صحت هذه الحسابات والتحذيرات فان مجال المفاجأة الآن اصبح بحكم طبيعة المواجهة وتقارب مواقع القوات محدودا للغاية ، ليس بالنسبة للعدو فقط ولكن بالنسبة للجانبين على السواء .

وفوق هذا كله فان الدول العربية متيقظة تماما لكل ما يراود العدو الانتقامى من أحلام جنوبية ، وكما فى أكتوبر لن تترك له زمام المبادرة قط بعد الآن . فكما صرح وزير الخارجية المصرية أخيرا ، فإن الذى لاشك فيه أن اسرائيل سوف تحاول أن تنتقم من ٦ أكتوبر ، وأن المنافسة ستكون فى مجال التكنولوجيا شديدة جدا بيننا وبين اسرائيل ولابد لإسرائيل أن تفكر فى سلاح رادع ضد الطوفان البشرى فى مصر والعالم العربى

مستقبلا . ولذلك بدأت تفكر فى السلاح الذرى . واذا حدث هذا فلن يكون أمامنا بديل عن الحصول أيضا على السلاح الذرى» .

لكل هذه الاعتبارات والاحتمالات ، أصبح السؤال الذى يطارد الكثيرين هو : هل نحن نخطو نحو السلام حقا ، أم نعيش هدنة مسلحة دون الاسم أو الشكل القانونى ؟ هل تكون الدراما الحالية من فصلين بينهما «انترميترز» أو تتخللهما استراحة قلقة قصيرة ؟ أتكون الحرب الرابعة فى واقعها معركة من جولتين متعاقبتين . أم تتباعد الجولة الثانية بما فيه الكفاية لتصبح حربا خامسة مستقلة ؟ بعبارة أخرى ، أثبتت تطورات المستقبل أن الحرب الرابعة حرب ١٩٧٣ تشبه الحرب الأولى حرب ١٩٤٨ وتختلف عن الثانية والثالثة من حيث أنها تتألف من معركتين بينهما فاصل قصير من السلام المسلح ؟ اذا كانت الأولى ، فلن يزيد الفرق بين ١٩٤٨ ، ١٩٧٣ عن أن اسرائيل فى ١٩٤٨ استغلت الهدنة الأولى لتستعيد تسليحها فبدأت به الجولة الثانية ، أما فى ١٩٧٣ فقد استعادت تسليحها أثناء الجولة الأولى ففرضت به الهدنة .

ان بعض المتفائلين من العرب يرى أن اسرائيل قد تلقت ضربة لن تستطيع بعدها العودة الى القتال الا بعد ١٠ سنوات . ولكن الواقع لا يمنح أى سند لهذه النظرية الجامحة ، فلقد عوضت أمريكا اسرائيل عن كل خسائرها من قبل ثم زادت عليها ترسانة أكبر وأخطر . ومن جهة أخرى فان معطيات ووضغيات الموقف العسكرى والسياسى ، الميدانى والدولى ، لا تسمح اطلاقا بالاستمرار أو الانتظار طويلا دون انفجار محتوم أو تسوية لا تبدو ممكنة .

ولهذا يعتقد البعض أنها قد تكون ١٠ أشهر لا أعوام ، وأن المواجهة القادمة ستكون لذلك الجولة الثانية مباشرة من الحرب الرابعة ، أكثر منها الحرب الخامسة ، بعيدة منفصلة وقائمة بذاتها . وعلى أقل تقدير ، فان الفاصل الزمنى بين الحربين الرابعة والخامسة مهما طال سيكون أقصر فاصل بين أى حربين سبقتا فى تاريخ الصراع . أما نحن ، مهما يكن ، فان علينا أن نعمل للتسوية السلمية كأنها لا تأتى أبدا ، وأن نستعد للجولة الثانية كأنها تجيء غدا .

وسواء كان هذا أوزاك ، فان شيئا واحدا مؤكد . الجولة التالية ، اذا وقعت ، ستكون أعنف لقاء والأشد ضراوة خارج كل حدود وخارج كل مقارنة بالقياس الى كل ما سبق من

مجابها . وبالقدر نفسه ستكون حاسمة وفاصلة . انها معا قمة الخطر وقطب الخطورة في الصراع جميعا حتى الآن والى وقت طويل بعدها . لماذا ؟ أولا لحجم ونوعية الحشود والأسلحة المكسدة التي ينتظر أن يقذف بها في المعركة . ولربما تكشف لنا الأيام مستقبلا أنها قد تآتى في النهاية وهي نحو ضعف ما قذف به في أكتوبر وليس في هذا رجم ولا مبالغة ، فقد ثبت أن حجم كل معركة لاحقة يفوق حجم كل معركة سابقة ، وأن كل طرف فيها يعد دائما مفاجأة حجمية للطرف الآخر .

ثانيا ، لفداحة الرهان الذي تنتظمه المعركة المنتظرة من حيث أنها ستؤكد أو تفكك نتائج أكتوبر الانقلابية . العدو سوف يستमित لاعادة عقارب القوة الى الوراء ، سوف يحاول أن ينسخ أكتوبر ، يسترجع انتصارات الماضي ويستعيد آمال المستقبل . وعلينا نحن أن نؤكد أكتوبر من جديد ونضاعفه بلا حدود وأن نثبت ونبرهن للعدو أن الماضي القديم غير قابل للعودة وأنه دفن وانتهى الى الأبد وأن لا أمل له هو في المستقبل قط .

ثالثا ، لأن العدو يدخل المعركة لأول مرة بلا غرور ولا تكبر أو استخفاف ، وانما بدلا منها سيدخلها برصيد هائل من الحقد والغل وروح الثأر والانتقام أو كما يقول المحرر العسكري الاسرائيلي ايتان هيفر «في اسرائيل لا يتكلمون الآن بتعجرف ، بل يخططون للحرب كأنها ستقع صباح غد» .

ولئن كان هذا يعنى أنه سيدخل برصيد من الثقة الذاتية أقل ويأعصاب مهزوزة بقدر أو بأخر فإن هذا يعنى أيضاً أنه سوف يحارب هذه المرة وظهره إلى الحائط ، ولا نقول البحر . ومن ثم سيكون شرسا بقدر ما سيكون حقودا ، ومستينسا بقدر ما سيكون مستميتا . وعلينا نحن أن نواجهه بالفدائية المطلقة والاستبسال الضارى والاصرار الرهيب على النصر .

رابعا ، وأخيرا ، لأن كثيرا من عوامل مفاجئتنا للعدو في أكتوبر سواء في الخطط أو في الأسلحة أو في استعمالها أو في حجمها فقدت بالضرورة عنصر المفاجأة فيها بعد أن أصبحت معروفة للعدو ، وتحسب واستعد لها بأسلحة وتكتيكات مضادة . فكل حرب وخطة حرب وسلاح حرب ، وهذا أمر طبيعي تماما، مفاجأة واحدة فقط تزول بعد أول مرة من حدوثها أو استخدامها ، ويتعين في المرة الثانية تعديلها وتطويرها أو تجديدها حتى تصبح مفاجأة من جديد . مثال ذلك استخدامنا الثورى الرائد للمشاة والمشاة

الميكانيكية والصواريخ والقوافل المضادة للدبابات والطائرات بكثافة وفاعلية وطرق غير تقليدية .

وليس مما لا مفرى له بالتأكيد أن العدو قد ركز تسليحه الجديد على مثل هذه الصواريخ والأسلحة بالذات . كما يعيد النظر في اعتماده المطلق على الطائرة والدبابة ، ويحاول التعويض بالاهتمام بالمدفعية وتنسيق القوات المشتركة وبالعديد من العمليات الخاصة « التي نسوها .. والتي امتاز بها الجيش الاسرائيلي في السنوات السابقة .. الخ » . ولهذا ولغيره فإن علينا أن نبتكر ونطور أساليب وتكتيكات جديدة للمعركة القادمة وأن نعد مفاجآت بكرة جديدة بل وأسلحة جديدة للعدو ، وفي الوقت نفسه أن نتحسب لمفاجآت مضادة جديدة من جانبه في كل هذه المجالات . ان أية حرب ، باختصار ، لا تشبه سابقتها . وكل هذا يجعل عبء المعركة القادمة وخطرها أشد وأكبر بلا جدال من معركة أكتوبر .

الى هذا المدى اذن ستكون المعركة الخامسة فاصلة وحاسمة وحرب حياة أو موت أكثر من أى وقت مضى أو معركة سبقت . وما دام الأمر كذلك ، فلا بد من مواجهة شجاعة وأمانة مع النفس ، فلا تكرر أخطاء الماضي بل نستفيد منها ، ونستفيد منها بأن نواجهها بغير خداع للنفس .

وإذا كان من المعلن والمعلوم أن كل دول العالم الآن عاكفة على دراسة حرب أكتوبر وتحليل أحداثها ونتائجها ، فلا ريب أن العدو الاسرائيلي هو أكثر من يفعل ذلك كما لا شك أنه سيكون أكثر المستفيدين من دروسها والمتعلمين من أخطائها ، أخطائنا نحن ولكن أخطاءه هو أكثر غير أننا بالدرجة نفسها ، بل بقوة أكثر ، ينبغي أن نكون الأكثر افادة من نجاحاتنا وأخطاء العدو فيها ، ولكن أكثر منها نجاحاته هو وأخطائنا نحن فيها . كل أولئك بتواضع وتجرد وتصميم وانفتاح وبعيدا عن أى محاولة لخداع النفس .

و على هذا الأساس فإذا كان ثمة درس أساسى واحد ووحيد يمكن ويجب أن نتعلمه من تجارب الماضي ومعاركه ، وخاصة معركة أكتوبر ، فهذا الدرس هو بالدقة ألا نتجاهل الدروس الحقيقية لتلك المعارك لأى غرض سياسى أو دعائى أو معنوى مهما بدا وجيها أو ملحا أو غلابا . لقد كان جزء كبير من السبب فى هزيمتنا فى ١٩٦٧ أننا تجاهلنا ، عن عمد ربما ، ويقصد الدعاية المعنوية غالبا ، أننا هزمنا عسكريا فى مواجهة اسرائيل فى ١٩٥٦ قبل التدخل البريطانى - الفرنسى . ولو أننا كنا قد واجهنا الحقيقة بدون حرج أو

اخفاء أو ادعاء ، ولم نقلبها دعائيا قلبا تاما ، وبدلا من ذلك عملنا في صمت على الافادة من درسها عسكريا ، لكانت هزيمتنا في ١٩٦٧ أقل حجما بالتأكيد على أقل تقدير .
والآن فلقد انتصرنا في ١٩٧٣ بلا شك ، ولكن بلا شك أيضا فان نصرنا كان محدودا ، وكان الجزء الأخير من المعركة في غير صالحنا الى حد أو آخر ، وكما ينبهنا الاستاذ هيكل في إلماعة عابرة ولكنها ثاقبة ولماحة ، فليس من مصلحتنا قط، مهما كانت بواعي ودوافع الحرب النفسية والمعركة المعنوية والاعتبارات الدعائية ، أن نخدع أنفسنا أو ندفن رعوننا في الرمال . وليس لنا ان نكرر بصورة عكسية خطأ العدو بعد ١٩٦٧ حين اعماه الغرور وزهو النصر فعمى عن أخطائه وتعلمنا نحن من أخطائنا .

فهناك أخطاء وعيوب وقعت في أكتوبر ، كما تكشف أن هناك جوانب تفوق للعدو لم تزل قائمة لم تسحق . والعلامات على ذلك واضحة لمن يريد أن يراها . فمثلا اذا كانت خسائر أكتوبر لجميع الاطراف - كما اعلنها الرئيس السادات بنفسه وهي ٣٠٠٠ دبابة وكان الإجماع ان خسائر العدو هي ١٠٠٠ دبابة ، فإن معنى ذلك ان خسائر العرب هي ٢٠٠٠ دبابة ، أى ضعف العدو . كذلك فلنذكر ما كتبه الرئيس حين قرر قبول وقف اطلاق النار الى زميله الرئيس السوري من أنه «لايستطيع أن يتحمل المسؤولية التاريخية لتدمير قواتنا المسلحة مرة أخرى» .

وهكذا وهكذا الى آخره . وليس في هذا كله اساءة الى ، أو انتقاصة من ، انجازتنا وانتصارنا اطلاقا ، ولا هو انهزامية بالتأكيد ، لكننا نحن نقول ان العدو ضار ما يزال ، ولن يسلم بسهولة وسوف يبادر الى القتال بالمبادأة والمفاجأة والخداع ، وعلينا أن نرتب أنفسنا على ذلك وعلى ضوء ما كشفتته سلبيات ١٩٧٣ من جانبنا قبل جانبه .

ومن حسن الحظ لاشك أن قيادتنا على وعي تام وعلى مستوى المسؤولية ، فلقد أعلن الرئيس بنفسه ومبكرا أن هناك أخطاء حدثت بالفعل ، وخاصة في عملية الثغرة . وبالمثل فعل القائد العام من بعده ، مؤكدا أكثر من مرة أن المعركة لم تنته بالنسبة لنا على الاطلاق ما دام هناك جنود العدو في سيناء ، وأن في حساباتنا قيام العدو بمفاجأة غدر لنا ، وأننا نستعد على أساس الدروس المستفادة من حرب أكتوبر . «لقد قمنا بعمل عظيم وضربنا المثل في الفداء والبطولة ، ولم يملكنا الغرور . ونحن الآن ندرس ونتدارس الأخطاء ونضع الدروس المستفادة ونتعلمها ونعلمها حتى لا نقع فيها مرة أخرى» .

هذا بينما أكد رئيس الأركان أننا «لن نسمح لأنفسنا أن نصاب بـسيكولوجية غرور النصر ، لأن هذا الدرس تعلمناه منذ ١٩٦٧ عن الجانب الاسرائيلي كما أن أرضنا لم يتم تحريرها بعد بالكامل» (ذكره كتاب حرب الساعات الست ، تأليف عبد الكريم درويش وليلى تكلا ، القاهرة ، ١٩٧٤) . وفوق هذا كله أعلن الرئيس مؤخرا أن «اسرائيل لن تترك هذه الهزيمة التي لحقتها» . وهذا جميعا ضمان بأن شيئا لن يترك للمصادفات أو المفاجآت .

ومن حسن الحظ أكثر أن قيادتنا أيضا قد أعدت نفسها لكل الاحتمالات واستعدت لأشهر لقاء . فكما أعلن الرئيس ، مرة أخرى ، «اننا مستعدون الآن لأية احتمالات ، وان رقم الدبابات الموجودة في غرب القناة والمستعدة للعبور فورا اذا اقتضت الضرورة رقم مدهل» . هذا بينما أكد القائد العام «أننا أقوى الآن مما كنا عليه يوم بدء الهجوم في ٦ أكتوبر واننا قادرون على العودة الى الضفة الشرقية اذا استدعى الموقف ذلك» . «وان لدينا الآن الخبرة التي تضاف الى قوتنا» .

حل سياسى أم عسكرى ؟

يبقى علينا الآن فى ختام هذا الفصل أن نتساءل عن التكييف أو التشخيص الاستراتيجى العام للموقف الراهن واحتمالاته . ما هى طبيعة الموقف وما طبيعة الحل الممكن ؟ أهو الحل السياسى أم العسكرى ؟ وما هى حقيقة كل ؟ هل يتعارضان أم يمكن أن يتزاوجا ، والى أى مدى ؟ هل المقابلة بين الطين هى - أصلا - مجرد مقابلة سطحية لفظية أم هى استقطاب جذرى لاحتمالات أى صراع ؟ وما هى احتمالات الحل السياسى وامكانياته قبل أن تلجئنا الوقائع الى حتمية الحل العسكرى ؟

اذا بدأنا بالسؤال الأخير ، فان من الممكن أن نصنف الحل السياسى ابتداء ونظريا الى خمسة احتمالات أو أنواع ، نستطيع أن نختزلها أو نستبعد بعضها تباعا حتى نحصر أكثرها احتمالا أو امكانية . تلك الاحتمالات هى : الحل الاسرائيلي ، الحل العربى ، الحل الدولى ، الحل الأمريكى - السوفيتى ، الحل الأمريكى .

فالأول أسوأ الحلول جميعا ، والثانى أسماها . ولذا فهما الى أقصى حد على طرفى نقيض ، ولكنهما أيضا كما ثبت حتى الآن مستحيلان . فالحل الاسرائيلي ، الذى بدأ بعد يونيو قريب المنال وكان العدو يحارب كل الحلول الأخرى ليفرضه علينا ، قد أصبح الآن

فى ذمة التاريخ بل فى سلة مهملاته والى الأبد . أما الحل العربى الذى بعث أكتوبر الأمل فيه فما زال أيضا بعيد المنال لأنه يستدعى أن نكون فى مركز قوة وتفوق مطلق ، ولذا فهو غير وارد فى المرحلة الحالية على الأرجح ويحتاج لفرضه الى أعمال القوة العسكرية المنتصرة من جديد .

أما الحل الدولى ، فى ظل الأمم المتحدة ومجلس الأمن وبرعايتهما نظريا ، فلا يمكن واقعا الا أن يكون بإرادة وتعاون القوتين الأعظم . وهذا يعنى أساسا استبعاد أو تحديد دور دول أوروبا الغربية ، وخاصة فرنسا وبريطانيا والواقع أن هناك معركة خاصة حول هذا الدور . فكل من أمريكا واسرائيل لأسباب مختلفة تحاربه ، بينما تريده وترحب به الدول العربية وكذلك الاتحاد السوفيتى . ولهذا فإن الحل الدولى ليس عمليا الا الحل الأمريكى - السوفيتى . ولا يعدو أن يكون تسمية رقيقة ولكنها غير دقيقة له .. وعلى هذا يحسن بنا استبعاده هو الآخر ، أو اختزاله فى الثانى كأمر واقع ، أما هذا الأخير الحل الأمريكى - السوفيتى ، فالأغلب أنه لا يمكن أن يتجاوز حدود الحلول الوسطى ، ولذا لا ينتظر أن يحقق كل مطالبنا تماما .

ومثل هذا يمكن أن يقال عن الحل الأمريكى ، الذى كان حتى وقت قريب يكاد يرادف الحل الاسرائيلى ، ولكنه الآن ابتعد عنه بقدر أو بآخر ، دون ان يتطابق تماما على الأرجح مع الأهداف العربية . وهناك الآن صراع حاد بين الحلين الأخيرين وشد وجذب بين طرفيهما . فأمريكا تحاول أن تحتكر امكانية الحل ويبدو أنها حققت فى ذلك نجاحا كبيرا ، بينما يحاول الاتحاد السوفيتى ألا تنفرد أمريكا بالعمل وأن يترك الحل الأمريكى مكانه لحل أمريكى - سوفيتى مشترك (أعلن برجنيف مؤخرا بتصميم واضح أن «الاتحاد السوفيتى يعتزم المساهمة الايجابية فى كل مراحل التسوية السلمية فى الشرق الأوسط» . وعلى أية حال ، وأيا كان التصنيف الذى سيسود ، فالخلاصة الواضحة من هذا التحليل هي أن احتمالات الحل السياسى ليست مشجعة جدا ، أو هى على الأقل لا تحقق الحد الأدنى ، ودعك من الأقصى ، من الحقوق والمطالب العربية . وهذا ما ينقل البؤرة الى الحل العسكرى وامكانياته أو احتمالاته . غير اننا قبل أن نفعل نحتاج الى تحديد للعلاقة بين الحلين السياسى والعسكرى ومدى صحة المقابلة أو التداخل بينهما .

لابد من البداية أن نقرر بوضوح أن المقابلة بين الحلين ليست مسألة تصنيف نظري أو شكلي ، وليس أبعد منها عن السطحية أو اللفظية كذلك ، رغم ما حاوله البعض من تميع للفرقة بل ورفض لمبدأ المقابلة بينهما وانما الحل السياسي والعسكري هو التعبير المركز عن المعالجة النهائية لأي صراع دولي أو مصيري ، تبناه العالم في أكثر من مشكلة وردده كل قادته فضلا عن الصحافة العالمية ووكالات الأنباء حتى أصبح من مفردات قاموس السياسة المقررة . وانما يقع الخطأ حين يقع الخلط بينهما دون تمييز علمي أو تحديد موضوعي . فالبعض يميز بين حل دبلوماسي وحل سياسي ، والبعض الآخر يجعل الحل السياسي مزيجا من السياسة والحرب ، في حين يعتبر الحل العسكري حربيا صرفا . وبذلك تخرج كل التعريفات متميعة غير جامعة ولا مانعة .

فأولا ، ليس ثمة شيء يسمى أو يمكن أن يسمى الحل الدبلوماسي . فانما الدبلوماسية مرحلة أولية من السياسة ، وان هي إلا الأداة التنفيذية للسياسة ، وهي بالنسبة لها خارجيا كالإدارة داخليا . أما مفهوم الحل السياسي ، كخليط عام من الضغوط السياسية والاقتصادية والدعائية والعسكرية فمفهوم يستدعي التحفظ لأن أساس التصنيف فيه مخلط لا صرف ، في حين أنه يعود فيفسر الحل العسكري على أساس تصنيف صرف بأنه استخدام القوة العسكرية لتحقيق الهدف السياسي من البداية الى النهاية وفرض الإرادة على العدو حتى يستسلم بلا قيد ولا شرط . وبهذا فان أساس التصنيف غير موحد في التعريفين ، يغير قواعد اللعبة أثناء اللعب إذ لماذا لا نفترض على نفس الأساس المنطقي واللغوي أن الحل السياسي هو بالسياسة وحدها من البداية الى النهاية كذلك ؟ والحل السياسي بذلك المفهوم هو حل خلاسي أكثر مما هو حل سياسي .

هذا من الناحية المنطقية . أما عمليا فان فكرة الحل السياسي سواء بالمفهوم الصرف أو المخلط تتجاهل تماما طبيعة الصراع المطروح أولا وطبيعة العدو الاسرائيلي ثانيا . وفي مرحلة ما بعد يونيو كان من الواضح أن هناك اما حلا سياسيا ، واما حلا عسكريا ، أو لا حل على الاطلاق . وكان الأول يعني - بشروط العدو - الاستسلام الكامل أو شبه الكامل ، وهذا مستحيل . وكان اللا حل يعني سنة ١٩٤٨ أخرى ، بينما كنا نريدها نحن سنة ١٩٥٦ أخرى ، وكان الكل مستحيلا . ولقد كانت الفكرة السائدة عن الحل السياسي المختلط في ذلك الوقت هي أننا يمكننا أن نبدأ معركة عسكرية محدودة لنكبد العدو أكبر

قدر من الخسارة الموجهة والمؤثرة ، ترهقه وتستنزفه ، وتنتزع منه موطىء قدم أو رقعة محدودة من سيناء أو الأراضى المحتلة عموما بحيث يضطر العدو ازاء ضغط العالم سياسيا الى القبول بمبدأ الانسحاب الشامل عن بقية الأراضى المحتلة جميعا . ولكن كان من المتصور جدا أن يرفض العدو الانسحاب رغم القرار الدولى ، تماما كما هو الموقف اليوم .

فرغم أن انجازات أكتوبر العسكرية المجيدة تتعدى أعرض أحلام ما بعد يونيو عند البعض من أصحاب الحل السياسى المختلط ودعائه ، فمن الواضح أنها على ضخامتها وخطرها لم تصل بعد الى حد ارغام العدو على القبول بالانسحاب الكامل . والواقع أن ما حدث هو كما شخصنا سابقا نصف معركة ونصف نصر وقد أثبتت التجربة حتى الآن انه ليس ثمة حل سياسى ولا نصف حل سياسى وإذا كان ثمة شىء فلقد أثبتت التجربة فشل الحل السياسى بالمعنى المختلط فضلا عن المعنى الصرف أو إذا كان قد نجح فإنما قد نجح فى أن يثبت أن الحل السياسى يعنى حتى الآن الحل الجزئى . أما أن يسمى أحد معركة أكتوبر وما بعدها من موقف مغلق بأنه حل سياسى أو محاولة للحل السياسى فامر غير مستساغ وغير مبرر ، لا منطقيا ولا فيلولوجيا ، لا واقعيًا ولا تاكسونوميا (أى تصنيفا) . فمعركة عسكرية ضخمة بكل هذا المقياس - ٢٠٠٠ دبابة مدمرة ، كمجرد مؤشر فقط - لا يمكن ولا يجوز أن تعتبر مجرد «عملية عسكرية» .

ولا يعنى هذا كله نفى دور العمل السياسى اطلاقا . ولكن العمل السياسى شىء ، والحل السياسى شىء آخر تماما . فالعمل السياسى ضرورة شرطية وحتمية من البداية الى النهاية لتحريك القضية بوليا والاحتفاظ بسخونتها . على أن العمل السياسى لم يكن ليتعدى وظيفتين اثنتين لا ثالث لهما : كسب الوقت لاعادة البناء العسكرى ، وكسب الرأى العام العالمى لخلق المناخ الملائم للمعركة . أى أن العمل السياسى هو أساسا خدمة للحل العسكرى ، وليس خطوة الى الحل السياسى . ولقد كان من الواضح تماما منذ البداية أن ما أخذ بالقوة ، بالقوة وحدها يسترد ، وأن الحل هو فى الدرجة الأولى مسئولية وزارة الحربية لا وزارة الخارجية ان صح التعبير .

فالعُدو ، حتى بعد انتصارنا الجزئى ، يرفض أن يعترف بحقائق القوة الجديدة وخريطة القوة الجديدة ، ولا يريد أن ينسحب الا من جزء فقط من الأراضى المحتلة .

وليس هذا حلا ، وانما - فرضا - مساومة والقبول به تسليم . وعلى هذا فسوف يتعين علينا أن نبدأ الضغوط العسكرية من جديد لتؤتى ثمارها السياسية بالمزيد .

فما هو بالضبط معنى هذا ؟ معناه بالدقة ، ومعناه الوحيد ، أننا لسنا إزاء حل سياسى حقا ، وانما فى الواقع إزاء حل عسكرى ولكنه مجزأ على دفعات بالقطاعى الطويل الأجل أو التقسيط المريح ولكن ربما غير المريح . وهذه هى الترجمة الواقعية والعلمية لفهوم الحل السياسى المختلط المفترض : مجرد جرعات متباعدة من الحل العسكرى تفصل (أو تصل) بينها نويات من العمل السياسى لا تحل من القضية أكثر مما يقدم العمل العسكرى نفسه .

ولكن لأننا ننظر الى كل مرحلة أو جولة من الصراع أو معركة فيه على حدة نظرة جزئية ضيقة مباشرة ومقتطعة ، يبدو لنا الموقف وكأنه قطعة من الحل السياسى سواء بالمعنى الصرف أو المختلط ، وما هو فى حقيقته حل عسكرى مجزأ بالقطاعى وعلى مراحل يبدو وكأنه سلسلة من حلقات حل سياسى موهوم . والحقيقة أن تحرير الأرض المحتلة والأرض السليبية فى فلسطين وعودة حقوق الشعب الفلسطينى كهدف أساسى ونهاى ، اذا كان حتما أن يتحقق عن طريق سلسلة متداخلة من العمل العسكرى والعمل السياسى على امتداد عقود قادمة ، فهذا ليس معناه حل سياسى على مراحل وانما بالأحرى والأصح حل عسكرى على مراحل . وغير هذا هو ، كخداع أرسطو ، خداع فى الرؤية ، ولا نقول فى رأى .

ومعنى هذا فى النهاية أنك لن تنتزع أرضا من العدو الا بمقدار ما تنتزعه منها وتخلعه عنها . العدو لن ينسحب الا بمقدار ما تزحزحه أنت شبرا ؛ بمقدار ما تسترد من أرض ستجمد الوضع ، ولن تسترد كل سيناء أو الجولان فضلا عن القطاع والضفة والقدس اذا أنت حررت بالقوة نصفها مثلا . انه ليس ثمة نصف حرب ، وكذلك ليس ثمة نصف حل عسكرى .

لماذا ؟ - لأن الأمم المتحدة التى أصدرت قرار ٢٤٢ ، الذى يشمل الانسحاب ، ثم عجزت عن تحريكه بوصة واحدة لن تنجح فى تنفيذ قرار جديد مشابه ، ان قلت رقعة النزاع الأرضية وضمن التنفيذ العملاقان . وليس من المتصور أن ترغب أمريكا على حدة أو مع الاتحاد السوفيتى إسرائيل على الانسحاب الشامل عن كل الأراضى المحتلة . وبعد

ذلك فليس هناك قوة عظمى على استعداد وحدها لأن تأخذ القانون في يدها لتنفيذ القرار. عليك وحدك - علينا - أن نتم الشوط الى نهايته ، أو تقنع - وهذا غير وارد - بما أمكننا استرداده . ولهذا فليس لنا أن نبدأ المعركة الا ونحن قادرون ومصممون معا على انهاءها تماما . انه لا بديل ، مع العدو الاسرائيلي أكثر منه مع أى عدو آخر ، عن الحل العسكرى الكامل من البداية الى النهاية أو على أحسن تقدير حتى قرب النهاية .

أليس هناك اذن من مجال للتكامل بين الحلين السياسى والعسكرى ؟ بلى ، وانما فى مجال وبمفهوم آخرين . بل هذا التكامل حتمى وضرورى الى اقصى حد وصولا الى الأهداف العربية المصيرية العليا ، فى المستقبل القريب وفى المستقبل البعيد - البعيد أكثر . فليس صراعنا مع اسرائيل وحدها ، ولكن أيضا ورغم التحولات الأخيرة مع أمريكا من خلفها . فاذا كان الحل العسكرى هو الممكن الوحيد مع اسرائيل ، فان الممكن الوحيد مع أمريكا هو الحل السياسى . وبه تقصد تحييدها ، لا سياسيا فقط كما بدأ يتحقق أخيرا ، ولكن أيضا وأساسا سلاحيا وتمويليا ، بل وان أمكن اخراجها من الصراع كله كحد أقصى ، وان كان هذا الأخير متروكا للمستقبل البعيد وغير واردس فى المرحلة الراهنة . وهذا ما ينقلنا الى قضية مستقبل الصراع ككل .

الفصل الحادى عشر

مستقبل الصراع

لكى نتصور مسار الصراع فى المستقبل ، يحسن بنا رغم خطر التكرار ، وأكثر منه خطر الايجاز المخل ، أن نعود إلى الحقائق الأساسية فى القضية وأولياتها الأولية ، تلك التى لا ينبغى أن تغيب عن الأنظار لحظة حتى لا نفقد وضوح الرؤية تحت ثقل اللحظة العاجلة مهما بلغت كثافتها أو ضغوطها .

مبادئ الصراع الأولية

فالصراع ، الذى هو مفروض علينا لم نسع إليه ، هو إلى أقصى حد صراع مركب معقد لا بسيط أو مباشر ، إذ أنه متعدد الأبعاد والمستويات و الأهداف . فهو أولا صراع بقاء وقوة معا ، أى صراع وجود ومصير فى الوقت نفسه ، ثم هو بدرجات متفاوتات ومن جانب أحد الطرفين على الأقل صراع حضارات كما هو صراع أجناس ، وصراع قوميات مثلما هو صراع أديان ، وميدانه جغرافيا يبدأ من المجال المحلى ليمتد إلى أطراف الأرض تقريبا ، أما تاريخيا فامتداده يشمل الماضى والحاضر ليستمر طويلا فى المستقبل البعيد .

كذلك اطرافه تتعدد ، ما بين الفلسطينيين والعرب فى جانب ، وجبهة الصهيونية العالمية - الامبريالية العالمية وبخاصة محور اسرائيل - الولايات المتحدة فى جانب آخر . بل فوق هذا كله فلقد تشابك صراعنا - أردنا أم لم نرد - فى خيوط الصراع العالمى بين كتل الاستقطاب ومعسكرات الايديولوجيات وأقطاب القوى العظمى .

لكل هذا فلسنا نغالى إذا قلنا إنه صراع فريد . وقضية فلسطين - اسرائيل أو العرب - الصهيونية لا مثيل لها على وجه الأرض فى الوقت الحالى . حتى قضية جنوب افريقيا لا تشبهها . أما مثيله ففى العصور القديمة الغابرة التاريخية أو قبل التاريخية وحدها نجده ، بل حتى - بأبعاده المركبة تلك - لا نجده . والسبب نفسه فإنه بسهولة أعقد صراع فى عالم اليوم ، مشحون بأخطر الاحتمالات المتفجرة ، وسيكون أطولها عمرا وآخرها حلا ، والجزء الأكبر منه مؤجل بالضرورة إلى المستقبل البعيد أو غير المرئى .

نحن واسرائيل

ما بيننا وبين اسرائيل هو اذن «صراع بقاء» من أجل البقاء بالمعنى الخام ، بمعنى أن نكون أو لا نكون حرقيا . فهو ليس نزاع حدود بل صراع وجود ، صراع بين الحق والحق لا بين حق وحق كما يزيف الصهيونيون ، ومداره النهائى أن نبقى على هذه

الأرض أو لا تبقى . أنها ليست أقدارا متصادمة كما تردد الصهيونية (كتاب كيمش مثلا) بقدر ما هي أقطاب متنافرة كما يقول المفكر القومي والكاتب السياسى الكبير الاستاذ كامل زهيرى فى إحدى دراساته الرائدة عن القضية الفلسطينية .

ذلك أن أحلام العدو القديمة وخططه المعلنه فى امبراطورية النيل - الفرات معناها بالضرورة تفريغ المنطقة من سكانها وأصحابها الشرعيين بالتدريج ، أى هى الابداء فى النهاية وان لم تبد كذلك فى مراحلها الأولى المباشرة . ومن ثم فإن التعايش السلمى بين الطرفين مستحيل بالطبع ، لأن هذه الأرض لا تتسع لهما معا .

ولأن التعايش السلمى بين اللص وصاحب البيت مستحيل ، إلا أن يتحولا إلى قاتل ومقتول ، فلكى يبقى أحدهما لابد للآخر أن يذهب . وكل اسرائيلى فهو - بالتعريف - صهيونى ، وكل صهيونى فهو - بالضرورة - من الصقور ، ليس هناك حمام حقا إلا أن تكون من أبناء أوى تقبل بما تلقى إليها به الصقور من بقايا ورمم . وليس هناك بالتالى «صقور يرتدون ثياب الحمام ، وحمام يرتدون ثياب الصقور كما يزعم أبا إيبان ، ليس هناك صقور يمكن لكيسنجر أن يكسر مناقيرها أو حمام يرجو أن يضع مخالب فى أرجلها .

والعدو من جانبه على بينة تماما من مغزى هذا التناقض الوجودى ، وكان يرتب عليه نواياه بكل وعى ، بل ولم يتورع عن إعلانه بصورة سافرة مثلما هى كاشفة . فأكثر من قائد من قادة اسرائيل - شيمون بيريز مثلا - حدد الصراع الحتمى فى بعض كتاباته بأنه «صراع بيولوجى» «كذا» أى أنه تصفية جسدية : ابادء جنس يعنى genocide ! ان الصهيونية ، كما يقول الكاتب العربى السورى الواعى صفوان قدسى ، هى أعلى مراحل الاستعمار .

وهذا بالفعل كان أسلوب اسرائيل ومفهومها الذى تكشف بالتدريج بمذابح ما بعد ١٩٤٨ ، ثم يونيو ١٩٦٧ خاصة فى غزة . أما منطقها الكامن فهو أن الصراع صراع أجناس Rassenkampf ، ليس حتى بالمعنى العنصرى النازى ، ولكن بالمعنى البدائى المكابى (المكابيون طائفة من أشد طوائف يهود فلسطين الرومانية دموية وسفكا للدماء) .

كل أولئك مع العلم بأن عدونا ليس جنسا أكثر مما هو قومية ، مهما توهم أو ادعى فى الحالىن ، فان هو أنتروبولوجيا إلا اشتتات وأخلاط من كل أجناس العالم تقريبا . أما

قوميا فليس له من مقومات الأمة أو شبه الأمة أدنى نصيب . إنما هو طائفة دينية بحث ، تعيش بعقلية وقبلية وبدائية العصور القديمة المتحجرة ، وتتصرف بنفسية وأساليب العصور الوسطى الصليبية .

نحن وأمريكا

ما بيننا وبين أمريكا ، بعد هذا ، هو (أو كان؟) «صراع قوة تاريخي» ، وما بين أمريكا واسرائيل هو «لقاء مصالح تاريخي» . فأمريكا ، كقمة الرأسمالية وكوريثة الاستعمار القديم وزعيمة الاستعمار الجديد والامبريالية العالمية منذ الحرب الثانية ، كان حتما أن تتصادم مع القومية العربية في صراعها التاريخي من أجل التحرر والخروج من التبعية ومناطق النفوذ ثم من أجل الوحدة والتنمية والتحول إلى الاشتراكية ، فليس من مصلحة الامبريالية الامريكية كقوة عظمى عالمية أن تظهر في أى منطقة ، في هذه المنطقة الحيوية بالأخص ، قوة جديدة كبيرة .

ومن الناحية الأخرى فقد كان التقاء الولايات مع اسرائيل أكثر من قدر محتوم ، فهو لقاء مصالح تاريخي ينبع من وحدة النشأة ووحدة الايديولوجية ووحدة العدو . . فأما وحدة النشأة فان اسرائيل إنما نشأت بالهجرة والاستيطان والاحلال واغتصاب وطن من أصحابه الشرعيين التاريخيين بالقوة وبدعوى التفوق العنصري والحضارى .. الخ ، تماما مثلما نشأت الولايات المتحدة من قبل كأمة من المهاجرين وانتزعت وطنا - قارة برمتها من سكانه الأصليين بالإبادة والاحلال على أساس من تفوق القوة والحضارة والعرق .. الخ . فالنموذج واحد ، واسرائيل ليست إلا تصغيرا للولايات المتحدة من حيث النشأة فضلا عن وحدة الجنس وتجانس الأصل الأوربي .

وبأوهام الرجل الأبيض وبعقلية الهنود الحمر ، فان الولايات تنظر إلى اسرائيل في العالم العربى كما لو كانت أمريكا جديدة في قلب العالم القديم وقلب القرن العشرين ، بينما تنظر اسرائيل بنورها إلى العرب كأنهم الهنود الحمر الجدد وبعقلية الاستيطان الأمريكى . ولقد قيل ان أمريكا هي اسرائيل الكبرى بينما أن اسرائيل هي أمريكا الصغرى ، وهو تشبيه صحيح جدا في أكثر من معنى .

أما عن وحدة الايديولوجية فيكفى الاشتراك في تركيب المجتمع الرأسمالى والانتماء إلى «العالم الحر» المزعوم ونظام الحياة الواحد . وحسبنا في هذا الصدد أن نشير إلى

الكليشيات الماثورة عن اسرائيل «كالموقع المتقدم» «ورأس الحربة» للحضارة الغربية ، «وحدودها الريادية» على ضلوع الشرق ، «وكواحة التقدم» «ومنارة الحرية» فى بحر التخلف والاقطاع .. الخ .

أما وحدة العدو فإن العداء للقومية العربية هو بوضوح القاسم المشترك الأعظم ، فى حين كان يضيف الصراع الأمريكى - السوفيتى إلى هذه العلاقة بعدا آخر لم يكن يقل أهمية وخطرا . لهذا فقد وجدت الولايات منذ البداية فى اسرائيل حليفا طبيعيا متلفها بقدر ما هو مقتدر نسبيا . ويقدر ما كانت اسرائيل تتهافت على وضع نفسها فى خدمة الولايات كعميل ووكيل وأداة فى المنطقة لأغراضها الإقليمية والعالمية ، فإن الولايات كرجل بوليس العالم وجدت فى اسرائيل رجل البوليس المحلى - الخفير الصغير - الجاهز والفعال الذى «يؤمن» لها المنطقة بالتهديد والعردة ويضمن لها فيها قاعدة راسخة إلى الأبد ، ولهذا لم تتوان منذ البداية إلى النهاية عن تجنيدة لحسابها كقوة ضاربة مرتزقة ، «كنولة مرتزقة» ، فأمدته بكل أسباب التأييد المعنوى والسياسى والمادى والاقتصادى ، ثم دججته مباشرة وغير مباشرة بكل سلاح حتى جعلت منه ترسانة مسلحة حقيقية وقلعة عسكرية مكثفة وبؤرة عدوان مزمنة .

من هنا وهناك جميعا ذلك التطابق التام والوحدة شبه المطلقة ، رغم بعض الاختلافات الثانوية بل والخلافات السطحية ، بين السياسة الأمريكية والاسرائيلية فى استراتيجية السياسة العالمية . وهى وحدة عضوية حميمة كما هى محبومة ، ولا انفصام لها - كما ثبت عمليا - فى ظل هذه الاستراتيجية وما لم تتغير هذه الاستراتيجية . وكل التعبيرات الشائعة عن اسرائيل من أنها «الولاية الحادية والخمسون» ، أو «الولايات عبر البحار» ، أو «أعظم رقعة أرض تمتلكها الولايات كسفارة لها فى الخارج» ، أو «أكبر فرقة ضاربة للجيش الأمريكى خارج الحدود» ، أو «حاملة الطائرات الأمريكية غير القابلة للفرق» ، هى أكثر من مجرد مقولات مجازية براقة أو مبالغات لفظية مثيرة . اسرائيل ، باختصار ، ان لم يكن امتدادا سياسيا للولايات المتحدة فإنها على الأقل امتداد سياسى ليهودية الولايات المتحدة هم النولة الأم وهى مستعمرة ما وراء البحار .

ومن الجهة الأخرى فإن امريكا كانت تكاد تبدو أحيانا فى سلوكها ومزاجها وسياستها صهيونية أكثر من اسرائيل ، ان لم نقل اسرائيلية أكثر منها أمريكية. ولقد

قيل بحق كبير ان هناك «اسرائيليين» : واحدة فى وسط الشرق الأوسط ، وأخرى أكبر فى شمال شرق الولايات المتحدة . هذا بينما وصف الاسطول السادس الأمريكى فى البحر المتوسط مرة بأنه «الاحتياطى الاستراتيجى لاسرائيل» . ومرة بأنه «اسرائيل العائمة» .. الخ .

لهذا كله فان مصير صراعنا يتوقف على مدى نجاحنا فى فك وخلخلة هذه العلاقة أن لم يكن تحطيمها تماما . وهذا كان يستدعى حتما المواجهة السياسية مع أمريكا . وإذا كنا قد ألفنا أحيانا أن نقول : على أمريكا أن تختار بيننا وبين اسرائيل ، فان الصحيح هو أن نقول : علينا نحن أن نختار بين أمريكا وبين فلسطين . ولقد كان هذا بالدقة ما حدث فى أكتوبر . لقد تمت ، فى أكتوبر ، مواجهة حقيقية بيننا وبين أمريكا ، نجحنا فيها فى ارغامها على تغيير استراتيجيتها والسعى إلى صداقتنا . والبقية سوف تأتى .

بين أمريكا واسرائيل

إن المجال هنا لا يتسع لتحليل هذه العلاقة باستفاضة وتفصيل ، ولكن حسبنا أن نتحسس اتجاهات العصر وتيار التاريخ ومتغيرات العالم لنعرف وضعها وموضعها المحتملين فى المستقبل . فبماذا تشئ هذه الاتجاهات والتيارات والمتغيرات ؟ بثلاث ، نوجزها مقدما فى رموس موضوعات : أولا ، هز كيان اسرائيل هزا عنيفا زلزلا . ثانيا ، هز مكانة وقوة الولايات المتحدة هزا حرجا مؤثرا . ثالثا . هز العلاقة العضوية بين الاثنتين هزا مقلقا ومنذرا .

فأما اسرائيل فقد أثبتت المعركة أكثر من أى شئ آخر وأكثر من أى وقت مضى تبعيتها الكاملة لأمريكا وأنها حقيقة إحدى ولاياتها عبر البحار . لقد نجت اسرائيل هذه المرة بمعجزة أمريكية ، ولكنها بالدرجة نفسها كشفت حقيقتها ككولة غير مستقلة وعالة ، كل مصادر حياتها ابتداء من خبزها اليومي حتى أمنها القومى أو من رغيف الخبر إلى القنبلة التليفزيونية ، مستوردة من الخارج وليست مستمدة من عند نفسها .

واعتماد اسرائيل المطلق ككولة دخيلة على الولايات المتحدة ككولة أجنبية حامية ليس ظاهرة جديدة بالطبع ، ولكنه يكشف عن ظاهرة قديمة جدا وأصلية فى الوجود اليهودى أو الصهيونى عبر التاريخ . تلك هى أن هذا الوجود ، كالتفيليات فى عالم الحيوان والمتسلقات فى عالم النبات ، كان لابد له دائما من قوة حامية يعيش فى كنفها ويعتمد

عليها ، يضع رقبته تحت أقدامها لتضع هي أقدامه فوق رقاب الآخرين . فى العصر الحديث ، إذا بدأنا بالصورة القريبة ، تنقلت الصهيونية فى تبعيتها وعمالقتها لمركز القوة الأعظم السائد أو أى مركز مسيطر يمكن أن تباع خدماتها له : من تركيا العثمانية إلى ألمانيا القيصرية إلى بريطانيا ثم أخيرا إلى أمريكا .

غير أن هذا لم يكن إلا الترجمة العصرية لظاهرة «يهود البلاط» القديمة . ففى مجتمع العصور الوسطى كان اليهود يضعون أنفسهم فى خدمة أمير المدينة أو ملك الدولة كجماعة عميلة لحسابه الخاص ، تقع تحت رحمته التامة وفى مقابل ذلك يتمتعون بحمايته ليمارسوا النفوذ والتسلط على طبقات المجتمع العاملة . وإذا كان هذا الوضع يعطيهم ميزات عديدة يحولونها إلى ابتزاز وإساءة استغلال للغير والأغيار ، فقد كانوا من الناحية الأخرى معرضين لقهر الحاكم أو استغنائهم فى أية لحظة ، بالطرد والنفى ، بالقتل ، بالمصادرة ، بالاغتصاب .. الخ .

واليوم فإن إسرائيل ليست بالدقة إلا يهود البلاط الجديد فى العالم المعاصر الذى تمثله أمريكا . أمريكا هى بلاط العالم ، وإسرائيل هى يهود بلاط أمريكا : عميل تابع مطلق لأمريكا يخضع لتبعيتها وسيادتها فى مقابل أن تؤمن له إخضاع العرب لقهره هو وتسلطه وابتزازه . لقد باعت إسرائيل نفسها كعبيد خصوصيين لأمريكا فى مقابل أن تقدم لها العرب بدورهم كعبيد خصوصيين ..

وكذولة استعمارية مزروعة ومصطنعة تماما ، يستحيل على الباحث العلمى أن يطبق على إسرائيل دورة فالكنبرج الجيوبوليتيكية الشهيرة فى نشأة وانحدار الدول على نحو ما طبقنا مثلا على الدول العربية . أنها تعيش فى حالة حقن صناعى منتظم ، وتحت خيمة أو كسجين دائمة ، وفى ظل صوية زجاجة باستمرار . انها ليست كائنات عضوية بقدر ما هى كيان ميكانيكى ، فلا دورة حياة لها من طفولة فشاب فنضج ثم شيخوخة كما تنقضى بذلك نظرية فالكنبرج . وإنما هى ستتحطم وتنهار فجأة وبلا مقدمات وفى ضربة واحدة فقط ، فقط حين تتوفر مثل هذه الضربة . ولقد عبرت إسرائيل فى أكتوبر خط الزوال كما رأينا ، ولم يبق لها من صديق سوى أمريكا .

غير أن أمريكا بدورها ليست أسعد حظا بكثير فى عالم القوة المتغير ، ولعلها هى الأخرى قد أوشكت أن تعبر خط الزوال ، أو أننا نشهد دورة كاملة من قيام واضمحلال

القوة الأمريكية الهائلة . بل ان كثيرا من الباحثين يتنبأون بأن أعظم امبراطوريات التاريخ سوف تكون هي أقصرها عمرا ، فلن تعمر أمريكا على قمة القوة العالمية إلا لبضعة عقود أخرى على الأكثر. ومن المسلم به اجماعيا أن أمريكا هي أكثر الخاسرين في العالم بسبب ظهور تعدد مراكز القوة في عالمنا المعاصر . ويقدر هرمان كان Kahn مثلا أن احتكارها للسيطرة العالمية مع القطب الأعظم المضاد سينتهي في ١٩٩٠ بالتحديد أو بالتقريب .

ومن وجهة نظر دورة حياة الدولة الجيوبوليتيكية فان الولايات ، التي دخلت مرحلة أوج الشباب أي التوسع والانطلاق منذ الحرب العالمية الثانية ، ربما شارفت بداية نهاية هذه المرحلة مع حرب فيتنام التي وضعفتها وهزت مكانتها الدولية حتى خرجت منها مكسورة منكسة الرأس . والآن إذا كانت ملحمة فيتنام هي الصخرة التي تصدع عليها شباب أمريكا المتفجر في الستينات ، فإن من المحتمل أن تصبح دراما الشرق الأوسط هي الصخرة التي قد يتفتت عليها نهائيا في السبعينات . ان تكن حرب فيتنام ، بعبارة أخرى، هي بداية نهاية مرحلة الشباب في التاريخ الطبيعي للدولة الأمريكية ، فقد تثبت الأيام أن حرب أكتوبر أو تكملتها هي نهاية النهاية .

فإذا صح هذا التشخيص ، فسيكون معناه بدء دخول الولايات المتحدة ما يسمى مرحلة النضج من عمرها السياسي ، أي فترة الاستقرار ، أي تلك التي تتميز بالكف عن التورط في المشاكل الدولية بلا تحرج ولا تحفظ ولا رادع ، وكذلك بالكف عن السعي إلى احتكار الصدارة والقوة المطلقة ، وأخيرا بالاكتهاف بما في يدها والمحافظة عليه دون اللجوء إلى الحروب وسياسة القوة . باختصار ، ستكون المرحلة مرحلة انكماش سياسي وتقليص لدورها الخارجي ، فهل يتحقق ذلك ، وكيف ؟ .

لقد بدأت أمريكا تخسر حرب فيتنام حين انتقلت المعركة إلى قلبها هي نفسها في الوطن ، ففرضت على المواطنين أن يتساقطوا ، لماذا نحارب هناك ؟ ولعل من المذهل أن نذكر أنهم من خلال الهزيمة اكتشفوا أنهم يحاربون هناك لغير سبب حقيقي! ساعتئذ كان الانسحاب قد أصبح أمرا مقضيا .

بالمثل في الشرق الأوسط مع اسرائيل . بالبتترول بدأت المعركة الممتدة في الشرق الأوسط تنتقل لأول مرة إلى قلب الولايات المتحدة وإلى داخل قلب وعقل كل مواطن أمريكي .

وإذا كان الصراع الداخلى ما زال بالكاد فى بداياته الأولى فقط ، جنينيا وعلى استحياء ، ولم يتعد مرحلة المونولوج الداخلى ، فان خط التطور يمكن من قبل التنبؤ به .
فحين تكتمل الملحمة وتشتد وطأتها ، ستكتشف أمريكا تدريجيا وبآلم من هو «عبء الرجل الأمريكى» الممض الثقيل ، وأن اسرائيل «تurf سياسى» لا مبرر له من قبل ولا طاقة لها به من بعد . حينذاك ستبدأ فى رأى البعض معركة تحرير أمريكا من الوصاية الصهيونية مثلما حدث فى أوربا سابقا ، وتكتمل بذلك معركة تحرير العالم كله من خطر وخطط الصهيونية العالمية المبيتة للمستقبل البعيد . حينئذاك سيتخلى الأمير عن يهود بلاطه ويلفظهم ويطردهم من رحمته وحمايته لتعود اسرائيل اليهودى التائه من جديد .
وحين يحدث هذا ، فسيكون للعرب فضل كبير فى الجزء الأكبر منه ، وهم كلما شدبوا النكير بنجاح على التجسيم الصهيونى فإنهم يعجلون بهذا اليوم التاريخى الحاسم والموعود .

والخلاصة ؟ الخلاصة لقد أصبحت اسرائيل منذ وقت طويل عالة تقليدية ، ولكنها أثيرة ومدللة ، على أمريكا . غير أنها الآن بعد الهزيمة الأولى تتحول باطراد إلى عبء ثقيل عليها ، وسوف يأتى اليوم - متى لا ندرى ، ولكنها فقط مسألة وقت - الذى قد تجدها أمريكا مشروعا استثماريات خاسرا . عنئذ تتخلل هذه العلاقة المشبوهة ، لتقف اسرائيل وحدها تقريبا : عارية فى العراء .

ولقد ارتفعت فى اسرائيل أثناء حرب اكتوبر أصوات تقول : نحن بحاجة إلى مساعدة الجيش الأمريكى ، واعتبر البعض أن هذا هو نهاية شعار «ولا جندى أمريكى لحماية اسرائيل» ، بينما اعتبرت مايير أن «أسود يوم فى حياتها» هو إذا جاء اليوم الذى يتعين فيه على اسرائيل أن تطلب قوات أمريكية لمساعدتها . وقد يكون بعيدا هذا اليوم ، وقد يكون قريبا ، ولكن الأسود منه بالتأكيد هو يوم تطلب اسرائيل تلك القوات فلا تجدها ..

وإذا كان التوازن الدولى الراهن بين القوى الأعظم هو سياج أمن اسرائيل الذى يضمن بقاها ويجمد الأمل العربى ، فيجب أن نتذكر أن التوازن الدولى ، أى توازن دولى ، ليس فى حالة ثبات دائم وليس مخلدا ولا مؤبدا ، وإنما هو نمط مرحلى عابر بالضرورة مهما دام . ولن تبقى القوى الأعظم إلى ما لا نهاية على قمة العالم أو

فى موضع الحكم والتحكم فى صراع الشرق الأوسط . ونبوءة هيرمان كان عن نهاية احتكار القوة عام ١٩٩٠ لا تتسحب على أمريكا وحدها وإنما على القوتين الأعظم معا . يومها ، أو يوما ما بعدها ، ستتحرر القضية من قبضتهما ، ونستطيع أن نضع إسرائيل فى مكانها الطبيعى - خارج المنطقة .

وعند هذا المدى من السياق المنطقى نصل إلى نقطة غاية فى الأهمية والدلالة . لقد بدأت مأساة فلسطين وقضية المشرق العربى أو الشرق الأوسط فى أواخر القرن الماضى منذ مؤتمر بازل بل وقبله وهى أساسا مشكلة بولية أو مدولة إلى أقصى حد . فى تلك المرحلة كان البعد الدولى يفوق البعد المحلى أضعافا . وكان هذا هو سبب وأساس نجاح العدو فى الاستقرار على أرضنا العربية السليبة . وبالتدريج ، ومع وعى العرب المتزايد ويقظتهم ثم مقاومتهم ونهضتهم ، أخذت الدول الغربية الكبرى تستبعد واحدة بعد واحدة من التدخل لحساب إسرائيل ، وأخذ البعد المحلى فى الصراع يزداد أهمية ونسبة ، بحيث بدأ يعادل البعد الدولى أو يفوقه ويتفوق عليه كضابط لمصير الصراع .

والآن إذا ما نجح العرب مستقبلا ورويدا رويدا فى إبعاد أمريكا عن إسرائيل حتى يتم الفصل النهائى بينهما وتصبح إسرائيل وحيدة فى الميدان ، فحينذاك سيكون البعد الدولى لا شىء تقريبا والبعد المحلى هو كل شىء تقريبا . حينذاك تصبح إسرائيل والعرب وحدهما وجها لوجه ، وينتهى كل شىء . ان خط سير الصراع من البداية إلى النهاية وظيفة مباشرة للعلاقة العكسية بين البعدين الدولى والمحلى . فى البداية كان الأول ٨٠٪ والثانى صفرا ، أو هكذا بالتقريب ، وحين يصبح الأول صفرا والثانى ٨٠٪ ، أو هكذا نسبيا ، فسوف تكون تلك هى النهاية ، نهاية العدو .

إن الصهيونية مجرد «غزوة» ، كما أن إسرائيل مجرد «تجربة» ، مهما طالت وأزمنت ومهما كانت دموية متصلة فيوما ما سوف تفشل وتنتهى . الوجود الصهيونى الدخيل على الأرض العربية قلب صناعى مزروع ، لا يمكن للكائن العضوى الصحى أن يقبله وسيلفظه الجسم الحى يوما ما ، ككل استعمار استيطانى فى العالم . غير أن واجبنا نحن أن نحاصر ونشدد النكير عليه حتى نعمل بعملية اللفظ الحتمية . والمطلوب منا أن نحيل إسرائيل إلى بيئة طرد بشرى ، بلا جاذبية وبلا مرفهات ، بل صعوبات حياة مطردة وخفض مستمر فى مستوى المعيشة . ضرورى ، يعنى ، أن نجعل الحياة فيها كريهة ،

وينبغي ألا نتركها قط تشعر بالراحة أو الأمان أو الاسترخاء والرخاء . ولهذا فإن من الخطأ أن نترك اسرائيل فى سلام لمدة طويلة . وهذا لا يكون إلا بحروب متقاربة ، الفواصل الزمنية بينها أقصر وأقصر ، حتى لا تسمح لها بفرص التقاط الأنفاس وحتى تبلغ حد الانهاك والارهاق المزمّن - فالسقوط الأخير ..

معادلات الصراع

مما سبق نرى أن مصير اسرائيل مرتبط ارتباطا وثيقا ورهن تماما بمصير الامبريالية الأمريكية بالتحديد ، ولكن الموقف بذلك يأخذ أيضا صورة صراع بين العالم الثالث والغرب الاستعماري الذي تتزعمه أمريكا ، بل أنه ليعد قمة الصراع والتناقض بين هذين العالمين ، وقطباه هما قطباهما ، ونعنى بذلك مصر وأمريكا على وجه التحديد . ولعل الكثير جدا فى عالمنا المعاصر يتوقف على مصائر هذه الصراعات وتلك الأقطاب . فمن المرجح أن مصير اسرائيل الصهيونية سيحدد فى نهاية المطاف مصير الامبريالية العالمية مثلما سيتحدد هو به . فما دامت اسرائيل باقية فان الامبريالية ستظل مقيمة فى العالم الثالث ومخيمة عليه ، والعكس صحيح . ولكن يوم تزول اسرائيل فسوف تكون تلك بداية النهاية المطلقة للامبريالية ، والعكس أيضا صحيح إلى أقصى حد .

ومن المنطقي بعد هذا أن نقول انه لما كان مصير الصراع العربى - الاسرائيلى سيتوقف أساسا على قوة مصر خاصة بين العرب ، بمثل ما أن مصير الامبريالية العالمية سيتوقف كثيرا على مصير اسرائيل ، فان مصير العالم الثالث برمته وعدم الانحياز سيتوقف فى التحليل الأخير على مصير مصر بالدقة . وليس فى هذا غرابة ولا جديد ، إذ من المسلم به أن مصر كانت منذ البداية القوة الركن فى هذا العالم والقطب الرائد فى ذلك الخط . ويوم تنجح مصر والعرب فى ازالة الاستعمار الاسرائيلى ، فلسوف يكون ذلك شهادة ضمان نهائية للعالم الثالث وعدم الانحياز ، وفى الوقت نفسه صك زعامتهم فيهما . ويترتب على ذلك أيضا أن القطبين النهائيين فى الصراع بين الامبريالية والعالم الثالث هما على الترتيب الولايات المتحدة ومصر . ولا جديد أيضا ولا غرابة فى هذا ، فكل منهما إنما يلخص زعامة مجموعته ، إلى جانب أنه يفسر تركيز العدوانية الأمريكية حتى الامس على مصر بالذات . وهذا العداء إذ يقوم بين أقدم دولة مهمة فى التاريخ وبين أحدث دولة مهمة فى التاريخ ، كان من الممكن أن يعد أمرا مؤسفا وغير مفهوم مثلما هو غير

متكافئ، لولا أن قد فرضته الأخيرة فرضا غير مفهوم وغير عادل ، وإذا كانت أمريكا قد اضطرت أخيرا إلى تغيير موقفها وتصحيحه ، فليس ذلك إلا اعترافا كاملا بصحة هذا التشخيص كما هو بنجاح وقوة موقفنا .

وأخيرا فلقد نعبر عن هذا كله فى النهاية فى صيغة معادلة عامة تتألف من عدة متتاليات اقليمية تختزل أساسيات الصراع المستقبل . وفى هذه الخماسية سيلاحظ أن المتتاليتين الأخيرتين بالذات مقلوبتان ، ولا يدل هذا كما يدل على عمق العلاقة المصيرية بين طرفيها .

- مصير الامبريالية العالمية يتوقف على مصير العالم الثالث .
- مصير العالم الثالث يتوقف على مصير العالم العربى .
- مصير العالم العربى يتوقف على مصير فلسطين / اسرائيل .
- مصير فلسطين / اسرائيل يتوقف على مصير مصر .
- مصير مصر يتوقف على مصير فلسطين / اسرائيل .

المستقبل كتاريخ

وعند هذا الحد من المناقشة يحسن بنا أن ندع جانبا التفاصيل والأحداث الجارية لكي ننظر إلى الموقف بعامة نظرة ماكروسكوبية لا ميكروسكوبية ، أو قل نظرة تلسكوبية شاملة تستلهم العمق التاريخى ، حتى نرى - بتعبير هيلبرونر Heilbrunner - «المستقبل كتاريخ» . ولقد ألفنا بصورة تلقائية تقريبا كما هى تقليدية أن نشبه الغزوة الصهيونية العدوانية بصليبيات العصور الوسطى . والتشبيه فى جملته صحيح تاريخيا وجغرافيا ، سياسيا ودينيا ، بل وحتى جنسيا وثقافيا (وكذلك مصيريا فيما نأمل ونثق) . وما نريد أن نضيفه هنا هو جانب الاستراتيجية العظمى للصراع .

فلعل من أبرز المواقف الاستراتيجية فى الصليبيات ، التى أتت من الغرب ، أنها حاولت بالحاح فى أكثر من مرحلة أن تعقد تحالفا غير مقدس مع قوى التتار والمغول الوثنية القادمة من الشرق ، وذلك حتى تضع العرب بين فكي كماشة استراتيجية وبين شقى رحى الغرب والشرق . وفيما عدا الفروق المبدئية واختلافات العصر ، فإن خطة أمريكا حتى قريب كانت دائما أن تنحرف بالوفاق الدولى إلى حصار للعرب يعزلهم عن صداقة الشرق ويحرمهم من معونته الحيوية والفائقة الأهمية لصراعمهم مع الصهيونيات .

ولكن كما فشلت محاولات الصليبية قديما ، فشلت مناورة أمريكا أخيرا ، حيث جاءت حرب أكتوبر لتعيد تأكيد الصداقة بين العرب والشرق وتزيدها تدعيما .

وعلى ذكر الصليبيات والعصور الوسطى ، فأن المنظر نفسه يعطينا كذلك رؤية تاريخية متكاملة لموقف الصراع الراهن فى المنطقة وأخطاره المحتملة . فالغزوة الصهيونية الغشوم ، التى تتبع من أوهام وخرافات الماضى السحيق وتضع عقارب الساعة إلى الوراء عشرات القرون ، تقترب بنا بالفعل أو كثيرا من استراتيجيات الصراع التاريخى فى المنطقة أثناء العصور الوسطى .

ففيما عدا الفارق الدينى ونوع الاستعمار ، يكرر العدوان الاسرائيلى - خاصة منذ يوينو - الغزو العثمانى للمنطقة العربية فى معنى ما وبصورة ما . فكما أخضعت العثمانية كل المنطقة لنفوذها ، كان المخطط الصهيونى التوسعى يهدف بلا خفاء ولا موارد إلى أن يضع يده على المشرق العربى برمته وأن يفرض فيه «نظاما اسرائيليا» «كالنظام العثمانى» الذى ساد المنطقة أربعة قرون كاملة والذى ورثه فيما بعد «النظام الاستعمارى» الأوروبى الحديث .

وكما دمرت العثمانية بحمقها طريق التجارة البرى ما بين الشرق والغرب فساعدت على تحولها من المنطقة إلى الرأس ، جاءت اسرائيل بحقدتها ومساعدة امريكا فعطلت ولا نقول عقلت طريق السويس البحرى ، حامل شرايين البترول حتى تحولت التجارة وناقلات البترول إلى طريق الرأس بالفعل . وفى الحالىن تحول البحر المتوسط إلى بحيرة مغلقة أسنة راكدة موانئها . بل وكما انتقل النشاط البحرى الملاحى والاستراتيجى على يد البرتغال فى الحالة الأولى إلى المحيط الهندى والخليج العربى (الفارسى) ومضيق هرمز .. الخ ، ها هو صراع البحرىات والبترول والقوى العظمى ينتقل من البحر المتوسط إلى الهندى والخليج .

حتى على المستوى التفصيلى الدقيق يصدق التشبيه . فحتى نحن فى مصر اضطررنا بصفة مؤقتة إلى تمهيد طريق برى للنقل بالسيارات ما بين البحر الأحمر والمتوسط ، كما وضعنا مشروع أنبوب بترول السويس - المتوسط «سوميد» ، وكل ليس إلا ترجمة معاصرة لطريق «الأوفر لاندروت» الذى تأرجحت إليه عبر الصعيد طرق القوافل والتجارة أثناء الأخطار الصليبية التى هددت الشمال المصرى .

واضح تماما أن التشابه التاريخي - الجغرافي يكاد يكون كاملا حتى التفاصيل وإلى حد الاثارة فعلا . ومنذ يوينو ونحن نعيش بالفعل ، ولكن مؤقتا بالطبع ، في نمط جغرافية العصور الوسطى التاريخية وذلك بفعل الخطر الاسرائيلي ومن هم وراءه . ولا يبقى إلا أن نضيف أن النتيجة النهائية كانت تتوقف هي الأخرى على ارادتنا نحن وعلى مدى قبولنا بالتحدي . فكان إما أن نصمد ونقاتل فنطرد الخطر الاسرائيلي كما طردت مصر وسورية المماليك الأول الخطر الصليبي فأصبحتا من سادة العصور الوسطى وتسلم الوطن العربي أوج مجده في العالم ودخل قمة عصره الذهبي ، وإما أن نتقاعس كما عجز المماليك المتأخرون أمام الخطر العثماني فيتوسع الخطر الاسرائيلي كما توسع ولتصبح اسرائيل الكبرى هي في معنى ما المكافئ التاريخي للامبراطورية العثمانية . كان أمامنا اما أن نصمد وننتصر فنكون ولايات القرن الحادي والعشرين المتحدة ، واما أن نتخاذل وننكسر فنكون هنوده الحمر . ولقد قررت معركة أكتوبر - مرة أخرى - الاختيار الأول . لقد انتهت أحلام الصهيونيين كما انهارت أحلام الصليبيين .

حقيقة الخطر الصهيوني

وفيما عدا هذا ، فلا سبيل إلى الشك في أن الخطر الصهيوني الذي كان يواجه العرب قبل أكتوبر كان تحديا مصيريا وخطرا حقيقيا وليس وهما من صنع مبالغة وتهويل المندرين أو المحذرين أو المنظرين العرب . فما كان بالأمس أحلام العدو كان يصبح غدا حقائق صادمة بل صاعقة . فحين أعلن هرتزل بعد مؤتمر بازل منذ ٧٥ عاما أن «الدولة اليهودية قد ولدت» كان من الممكن أن يبدو قوله وهما من شطحات الخيال ، إلا أنه تحقق بعد ٥٠ عاما . وقبل يونيو كان الكثيرون منا يظنون مشروع اسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات حلما فاوستيا شريرا بما فيه الكفاية ، ولكنه غير جاد حقا ولا هو ممكن أبدا . غير أن قفزة واحدة (في ستة أيام) وصلت اسرائيل الصغرى إلى النهر والقناة - ثلاثة أمثال مساحة قاعدة الأساس ، ونحو ثلث مساحة اسرائيل الكبرى (!) . ولا ننسى كذلك كيف أعلن قادة العدو بعد يونيو أن ما كان يرفضه العرب بالأمس سوف يصبح منتهى مطلبهم اليوم ، وما سيرفضونه اليوم سوف يكون قصارى أملهم غدا . وكما يقول بول بالتا بحق ، فلقد كانت كل معركة جديدة يخسرها العرب في الصراع تبعدهم أكثر وأكثر عن مناقشة وطلب المشكلة الأم الأصل وهي فلسطين .

والواقع أنه لولا أكتوبر كان من الممكن أن تستمر هذه الاتجاهات الانزلاقية والنكوصية على الجانب العربى . ففي قفرتين أخريين أو ثلاث ، فى غضون عقدين أو ثلاثة ، أو جيل أو اثنين ، كان يمكن - وهكذا كان تقدير العدو بالفعل - أن تتحول خرافة «امبراطورية صهيون» إلى خريطة «أرض اسرائيل Erets Israel» . لولا اكتوبر ، يعنى ، لما كان هناك ما يمنع - نظريا - من أن نفقد أرضنا ثم وجودنا بالتدريج الوئيد لكثير من الشعوب التى بادت . لم يكن هناك ما يمنع أن يصبح العرب هنود القرن العشرين الحمر ، أو زنوج القرن الحادى والعشرين . ولقد كان هناك ، بل وما زال ، أكثر من مليون عربى القى بهم العدو فى البحر ، بحر الرمال ، أى الصحراء . ومن قبل لم يعد الفلسطينيون وحدهم هم اللاجئين ، فانما «مهجرو» الدول العربية الأخرى هم لاجئوها . وكما يقول المفكر العربى السورى الثاقب محيى الدين صبحى فلقد كان صميم «السؤال الذى طرحه العدوان الاسرائيلى عام ١٩٦٧ هو : هل العرب يقيمون على أرضهم اقامة مؤقتة تحددها احتياجات الهجرة الصهيونية المتوسعة أم أنهم أمة تقيم على أرضها ولها حقوق تاريخية فيها تجعل اقامتها أمرا فوق الجدال الدولى أو الاقليمى ووراء كل المنازعات المحلية والدولية ؟» .

وفى وجه هذا الخطر المريد ، كان من الغفلة وحدها أن يظن أحد أن الزمن قد يكون خير علاج أو أن العدو قد يتمزق من الداخل بالاحتراق الداخلى . صحيح أن الكيان المغتصب غير شرعى غير قانونى ، والمجتمع المحشود داخله مجتمع خلاسى متنافر كقوس قزح أو كطيف الضوء ، يغلى بانتظام بالتناقضات والصراعات الداخلية . ولكن التناقض الأكبر مع العدو - معنا - يجبها ، يؤجلها ، يخدرها ، وهى على أية حال لن تفجره من الداخل يوما . أما أن الكيان برمته يفتقر إلى الشرعية الدولية ، فيكفى أن نقول : كل حق فقد بدأ قوة ، وكل قوة مضروبة فى البعد الزمنى ستتحول إلى حق .

وإذا كان هناك من درس من تجربة الماضى وبخاصة معركة أكتوبر ، فهذا الدرس يتلخص فى أنه ليس هناك مقتل ذاتى لاسرائيل أولا ، وليس هناك مقتل غير مباشر ثانيا ، وليس هناك مقتل أحادى ثالثا . لا مفر ، يعنى ، من الصدام المباشر الطويل المملوط القاسى بكل الأسلحة والوسائل وفى كل الميادين والجبهات . ليس هناك حل مباشر سريع أو وحيد ينتظرنا عند أول منعطف .

وبصورة عامة يمكن استراتيجيا أن نعتبر الصراع بيننا وبين اسرائيل فى مجموعة منذ ١٩٤٨ أو قبلها نوعا من «الاقتراب غير المباشر indirect approach» . فنحن نواجه العدو مواجهات مباشرة فى المعارك نفسها مرة فى بضع سنين ، ثم نحاصره طول الوقت بطريق غير مباشر ، وهكذا . وهذا هو الذى يجعل حربنا مع العدو مؤلفة من عدد من المعارك المبتاعدة التى تنقط منحنى الصراع بفواصل تتراوح بين ٧ ، ١٠ سنوات فى المتوسط . وقد قدر البعض عدد أيام القتال العسكرى الفعلى بالجيش النظامية طوال الصراع بنحو الشهرين ، أو بمتوسط يومين كل عام تقريبا . غير أن العبرة هنا ليست بالتصادم المباشر دائما ، فان الاقتراب غير المباشر قد يكون هو الاستراتيجية المثلى بحكم طبيعة الصراع نفسه . وعموما فانها ليست أربع حروب تلك التى دارت بيننا وبين العدو، بل أربع معارك فى حرب طويلة واحدة .

على أن هذا يعنى أيضا ، وهو ما يسلم به الجميع ، أن الصراع سوف يكون طويلا بقدر ما هو مرير . انه صراع اجيال ، ولقد نؤرخ لبدايته بالفعل منذ مؤتمر بازل أى منذ ثلاثة ارباع القرن ، بينما أن هذه اسرائيل على التراب الفلسطينى قد شارفت ربع القرن عمرا . لكن الذى نود أن نصر عليه هنا هو أن الصراع سيكون أقصر مما يقدر البعض ، أقصر على أية حال من الحروب الصليبية التى تطاولت على مدى قرنين متكاملين . ذلك أن ايقاع العصر قد اختلف تماما وتسارع جدا ، وحروب اليوم أقصر للغاية من حروب الماضى لأن الأسلحة أفتك وأمضى بلا حدود ، كما أن العالم لن يصبر طويلا على حرب ممدودة ممطوطة لا تبدو لها نهاية . وإذا ارتفع العرب حقا إلى مستوى التحدى بنجاح على غرار اكتوبر ، فقد لا تأتى على اسرائيل - نقول هذا بهدوء مرة أخرى - سنة يقال لها سنة ٢٠٠٠ ، أو زد عليها عقدين أو ثلاثة ربما .

ومن الناحية الأخرى ، فان التصور العام - والصحيح - للصراع على أنه سوف يستمر أجيالا ، يعطى «تصورا غامضا - ولكنه خاطيء» بقدر ما هو خطر - بأن هناك على طريق المستقبل عشرات قادمة من الجولات والمعارك العسكرية قبل أن يحسم الصراع نهائيا . ولكننا بكل قناعة نفشل فى أن نرى بعد المعركة التى قد تكمل اكتوبر احتمالا لأكثر من جولتين أو ثلاث فى غضون الخمسين سنة القادمة ، إلا أن تكون موجات من الحرب الشعبية وحروب العصابات غير النظامية .

من هنا فلم يكن أخطأ (أم نقول أخبث؟) من خرافة أن العرب يمكن - كما كان البعض يردد قبل أكتوبر - أن يمتصوا ويتحملوا مزيدا من الهزائم ، بينما أن اسرائيل تزول عند أول هزيمة . لسنا نريد ، ولم يعد هناك الآن داع ، أن نقول انه يكاد يكون العكس ، ولكننا نشير فقط إلى درس أكتوبر : لقد انتصرنا وانهزمت اسرائيل ، ومع ذلك لم تذهب . وهى لن تذهب إلا بعد معركتين أخريين أو ثلاث على الأقل بعدها . أما على الجانب العربى فلا بد أن نكف نهائيا ، حتى بعد أكتوبر ، بل بالذات بعد أكتوبر ، عن تعاطى ذلك المخدر المريح الذى يمكن مع ذلك أن يكون مهلكا قاتلا ، وهو أننا قد يمكن أن نسمح لأنفسنا بأن نهزم مؤقتا لأننا لا يمكن أن نزول ابدا ! أنه وهم عابث وسلاح ذو حدين .

وعند هذا الحد يتبدى لنا عامل الزمن وهو بطبيعته عامل مذبذب ، أثره مركب ومعقد ، لا يعمل فى اتجاه واحد ولكن فى اتجاهات متعددة ومتعارضة ، وذلك لأسباب كثيرة ، محلية ودولية ، نفسية وطبيعية .. الخ . فهو جزئيا ومرحليا يعمل فى صفنا ، وجزئيا ومرحليا يعمل فى صف العدو . وفى وسط هذه المتغيرات ، فإن الثابت الوحيد هو أن المحصلة النهائية ستكون فى صف من يحسن استخدامه وتسخيرها أكثر . أى أن العامل البشرى أهم دائما من عامل الزمن ، تماما مثلما هو أهم من العوامل المادية كالطبيعة أو التكنولوجيا .. الخ .

وقد جاءت معركة أكتوبر لتثبت صحة هذا القانون تماما . فلقد حقق العرب نصرهم بفضل العامل البشرى أساسا ، كما وكيف ، ماديا ومعنويا . ولكنهم أيضا سيطروا على التكنولوجيا الحديثة أولا ، كما سخروا عامل الوقت لصالحهم ثانيا . غير أن أبرز ما أثبتته معركة أكتوبر فى هذا الصدد هو أنها قلبت عنصر الوقت لصالح العرب مرة واحدة وإلى الأبد . إن العالم كله متفق اليوم على أن الزمن لم يعد يعمل لصالح اسرائيل ، وأنه أصبح يحارب فى صف العرب . وواجبنا نحن الا نسمح بأى تغيير فى هذا الاتجاه مستقبلا وأن نضاعف من تسخيرها لصالح قضيتنا ومصيرنا .

وفى كل الأحوال فإن الصراع مثلث الأبعاد ، سياسى وعسكرى وحضارى . وكلما تقدم العهد به سيكتسب البعد الأخير (الحضارى) أهمية أكبر وأفضل إلى أن يصبح وهو العامل المرجح أو الفيصل . هذا على حين يبدو البعد الأول (السياسى) أهم دورا فى

المراحل الأولى ، كما كانت الحال مثلاً قبل أكتوبر . ولكن فى الحالين سيظل البعد الثانى (العسكرى) هو القوة الضاربة المباشرة ، ومن ثم عامل التصفية الفاصل كما أثبتت بجلاء معركة أكتوبر المجيدة .

غير أن الأبعاد الثلاثة تتداخل إلى أقصى حد وتتربط ترابطاً لا انفصام له . فالبعد العسكرى للصراع رهن فى بوره ونتيجته بالعاملين الآخرين . والواقع أن الحرب إذا كانت - كما يقال منذ وضعها كلاوسفيتز - امتداداً بطريقة أخرى للسياسة ، فإنها أيضاً امتداد بطريقة أخرى كذلك للحضارة والفرق أن الحرب (أى التفوق العسكرى) هى عادة التى تحدد مصير السياسة هزيمة أو نصر ، بينما أن الحضارة (أى التفوق الحضارى) هى التى تحدد مصير الحرب هزيمة أو نصراً . الحرب ، بعبارة أخرى ، امتداد لاحق للحضارة ، وسابق أو لاحق للسياسة .

فمن ناحية نجد صراعنا الحضارى مع إسرائيل هو فى حقيقته صراع مع حضارة الغرب التى استعارتها ولا تزال تعيش متطفلة عليها . وما كان يسميه البعض تفوق العدو التكنولوجى لم يكن إلا تفوق الغرب التكنولوجى منحولاً مستعاراً ، بل إن ذلك التفوق التكنولوجى المقول ليس إلا تفوقاً تسليحياً فى جوهره وحقيقته . بل ، فى معنى ، ليس ثمة شئ اسمه التفوق التكنولوجى ، ثمة فى الحقيقة تفوق تسليحى فقط . والصراع حضارى بمعناه العريض جداً والفلسفى البعيد أساساً ، كما أنه ليس صراعاً تكنولوجياً إلا بالمعنى غير المباشر أما فى معناه وشكله المباشر فهو صراع تسليح . وقد عبر رابين عن هذا بصورة سافرة كما هى فجأة بقوله «فى استطاعة إسرائيل أن تدافع عن نفسها بنفسها ضد قوى العالم العربى مجتمعة لآى فترة ممكنة - خمسا وعشرين أو خمسين سنة - مادماً لا نحرّم من المعدات اللازمة لدفاعنا» .

ولهذا فإن معركتنا الحضارية تعنى فى النهاية ، وينبغى أن تعنى ، معركة تسليحية وإذا كان تسليحنا من أسف محكوماً حتى الآن بإرادة قوى خارجية لها سياساتها وحساباتها الخاصة ، فإن هذا يفرض على العرب أن تحقق الاستقلال فى السلاح المتطور الحديث بالحصول ليس فقط على القدرة التكنولوجية بل على استخدامه وليس حتى على مجرد الحصول عليه ولكن أساساً على إنتاجه . أن معركة إنتاج السلاح هى التى ستحسم الصراع فى نهاية المطاف .

ولكن معركة انتاج السلاح هي معركة سياسية من ناحية ومعركة حضارية من الناحية الأخرى . معركة سياسية ، لأنها تتوقف أولا على كسبنا لصداقة مصادر السلاح وتنويعها خارجيا ، وابعادها كذلك عن العدو وحرمانه منها . ومعركة حضارية ، لأنها تتوقف أخيرا على كسب الخبرة والمقدرة التكنولوجية على انتاجه وتطويره داخليا . وبهذا تعود أبعاد الصراع الثلاثة فتتشابك وتتفاعل ويؤثر كل واحد منها في الآخر . ان المعركة الحضارية هي قاعدة الصراع ومنطلقه ، والمعركة السياسية اطاره ومناخه ، أما المعركة العسكرية فهي اليد الضاربة ، العليا والطولى .

ومصادقا لهذا كله ، قال الرئيس السادات عن معركة أكتوبر «إذا خرجنا من هذه المعركة بون أن نبني البناء الجديد سياسيا واقتصاديا وعلميا ، وإذا لم نبني قوتنا الذاتية ، يكون محكوما علينا بالفناء ، لأن اسرائيل لن تترك هذه الهزيمة التى لحقتها . ومن أجل هذا نحن نركز الآن على بناء قوتنا الذاتية عسكريا واقتصاديا وسياسيا وعلميا وتنظيميا لضمان مواجهة العدو .. وسيكون لدينا صناعات استراتيجية محلية . وسياسيتنا أننا سوف ننوع فى مصادر السلاح حتى نبني قدرتنا الذاتية . ولقد دخلت أوروبا الغربية سوق توريد السلاح لنا» .

وأخيرا ، فإذا كانت تلك هي طبيعة التحدى الذى فرض علينا ، فانه بعد ليس شرا مطلقا كما يبدو لأول وهلة . فالتحديات الكبيرة هي التى تصنع الأمم الكبيرة، وما من أمة كبيرة وصلت إلى الصدارة والسيادة ودخلت دائرة القوة إلا من خلال الحرب وعبر الدم . (حرب الهند - الباكستان الأخيرة - مثلا - تكاد تجعل من الهند دولة شبه كبرى) .

ولعلها حكمة بالغة من القدر أن يدخر الخطر الصهيونى لهذه الأمة التى تدهورت طويلا وكثيرا . لقد فقد العرب بعد يونيو كما رأينا الكثير من هيبتهم ومكانتهم ووزنهم العالمى ورصيدهم الدولى ، دحك من الخسائر المادية والآلام النفسية الرهيبة . ولكن الاستجابة الناجحة للتحدى فى أكتوبر أثبتت أنها جديرة بأن تكون «الرافعة» العظمى لهم فى الميزان الدولى ، تنقلهم من جديد إلى قلب الدنيا وتضعهم فى بسؤرة العصر . ولسوف يكون النصر خير دواء شاف لكل أمراضنا القديمة والجديدة ، الداخلية والخارجية ، والعبرة دائما بالخواتيم .

إن لقاء الصهيونية هو كلقاء الصليبية معكوسا : فلقد بدأت أوروبا نهضتها بعد درس الصليبيات الحضارى وتحديه الخطير . بالمثل يمكن أن يبدأ العرب نهضتهم الكبرى -

«عصر النهضة» العربية - بعد درس الصهيونيات وتحديه المصيرى . ولقد يكون صراعنا المرير مع الخطر الاسرائيلى هو آلام المخاض لميلاد دولة كبرى فى الوطن العربى الكبير تلحق بعمالة العصر وحضارته .

متغيرات أكتوبر

وها هنا نستطيع أن نحدد أثر ودور أكتوبر فى مسار الصراع الطويل فى أنه أساسا فتح باب الأمل على مصراعيه وأغلق باب اليأس إلى الأبد . فليس خافيا أن ثمة سؤالا كان ، منذ يونيو وإلى ما قبل أكتوبر ، يطوف أحيانا بأذهاننا جميعا كالهاجس المتوجس بون أن نجرؤ حتى على التفكير فيه فضلا عن التصريح به : أضاعت فلسطين من قبل ، وهل حقا تذهب اسرائيل يوما مهما بعد ؟ أو ان شئت السؤال بالعكس : ألا تعود فلسطين يوما ، وهل ضاع الأمل فى زوال العدو ؟ الآن لم يعد شك ، لقد رجع معامل الأمل معامل اليأس رجحانا مطلقا فى معادلة المستقبل ، المسألة فقط مسألة وقت، ولسوف يعود للعرب فربوسهم المفقود يوما ما مهما نأى وطال وشق الطريق إليه . أن التاريخ لا ينتهى غدا .

وعند هذه النقطة قد يبدو للقارئ تناقض خطير بين ما بدأنا بالاشارة إليه وهو خطر الضياع أما الغزوة الصهيونية وما انتهينا إليه توا من التبشير بزوال العدو يوما . لا تناقض هناك فى الحقيقة ، وإنما هذا بالدقة ما نود أن نضغط عليه : ان صراعنا «حدى» صراعنا متعلق بالحدود القصوى المتطرفة ، لا توسط فيه ولا حدود أو حلول وسطى . فالمنتصر فيه سيكسب كل شىء ، والمهزوم يخسر كل شىء . ونحن ومن ثم أمة «حدية» مصيريا ؛ بمعنى أننا كنا دائما أمة مرشحة لأن تحتل مكانا بارزا حقا فى هذا العالم إذا نحن كسبنا الصراع ، مهددة بالانزلاق إذا خسرناه . ولقد قررت معركة أكتوبر الاختيار الأول إلى الأبد .

ولنا بعد هذا أن نتساءل ، إذا صح أن صراعنا الكبير هو فى التحليل الأخير صراع حضارى كما نردد دائما ، وهو صحيح بكل تأكيد ، فما هو المعنى الحضارى لأكتوبر ؟ اننا نعتقد أن عبور قناة السويس هو فى جوهره عبور للبحر المتوسط ، وأن الزحف شرقا فى سيناء هو فى صميمه زحف نحو الشمال تجاه أوروبا . نعم ، زحف حضارى نحو

طليلة المدنية المعاصرة وعبور للحاجز الحضارى الذى يفصلنا عن الغرب وعن العصر .
كيف ؟ لنفصل .

اننا جميعا متفقون - نحن نأمل - على أن الاستعمار القديم والجديد والامبريالية العالمية لم تزرع اسرائيل فى قلب الوطن العربى إلا لكى تستبقيه إلى الأبد فى اطار الضعف والعجز ووراء أسوار العزلة والتخلف الحضارى ماديا وغير مادى ، وبهذا يظل منطقة بلا خطر ولا قيمة ، مجرد فراغ حضارى شاسع لا يهدد أحدا ولا يقوى على شىء، جسمه الضخم تمزقه اسرائيل وتدميه ، وموارده الثرى - الآن الخرافية - يستنزفها الصراع المزمع معها . اسرائيل ، بالأساس والتأسيس ، «بوليصة تأمين» للاستعمار فى المنطقة ، ونزيف مستمر يمتص حيويتها ويعقم مستقبلها ويشغلها عن التطور والتحضر وعن التنمية والتقدم ويشدها دائما إلى اسفل ، إلى الجنوب ، باختصار ، هى عائق سياسى يمنعها فى النهاية من عبور «خط الاستواء الحضارى» ، ذلك الذى يمتد من البحر الكاريبى إلى البحر المتوسط إلى بحر الصين والذى يفصل بين العالم الثالث والعالم المتقدم ، بين الجنوب الفقير والشمال الغنى ، أو بين أفريقيا واسيا فى جانب وأوروبا وأمريكا فى الجانب المقابل .

الآن فان هذا النمط يهتز بشدة ، العائق المانع يتصدع ، والعرب تنطلق . لقد بدأ الزحف الحضارى الكبير . وليس مصادفة بالتأكيد أن فترة المعركة ، ما قبلها وما بعدها ، تشهد تحولات جذرية فى العلاقات التاريخية مع أوروبا . هناك تلاحم وتلاق جديد على أسس جديدة من التقدير والاحترام المتبادل ستفرض يوما ما الاعتراف المتبادل بالندية والأصالة . ولقد رأينا أن ليس فى العالم منطقتان متقاربتان ومتداخلتان تاريخيا وحضاريا ، فضلا عن التقارب الجغرافى الشديد ، كئوربا والعالم العربى .

فتش فى خريطة الدنيا أو ركب خريطة التاريخ ، لن تجد أقرب منهما إلى بعضهما البعض . كان التاريخ القديم والوسيط قسمة بينهما ودولة ، أحيانا كشركة تعاونية وأحيانا شركة تنافسية ، وهما وحدهما اللذان تقاسما وتنازعا السيادة العالمية عبر التاريخ على التناوب أو التعاقب فى ندية نادرة . وهما فيما بينهما اللذان صنعا أو وضعوا أسس الحضارة العالمية المعاصرة مباشرة أو غير مباشرة . حتى الجوانب الروحية مشتركة ، أما فى الوجدانية أو بالاستعارة الدينية . حتى من الناحية الجنسية ، ورغم عنصرية أوربا

حينما ودون عنصرية منا الآن ، فان الشرق الأوسط الكبير هو المنطقة القوقازية البيضاء الوحيدة فى العالم القديم خارج أوروبا .

واليوم ، على المستوى السياسى وسياسة القوة ، فليس أقرب منهما إلى بعضهما البعض . فقد لا نتطرق كثيرا إذا قلنا ان أوروبا ، التى فقدت الكثير من وزنها وثقلها فى العالم لقوى جديدة أضخم وأقوى ، تعد الآن أضعف حلقة أو منطقة فى نطاق القوى العظمى . أنها نسبيا «قاع» الشمال المتقدم فى الوقت الحالى . على النقيض من ذلك العالم العربى قد يكون أخف وزنا بكثير وأضعف ناصرا وأقل تطورا للغاية من أوروبا رغم تقدمه النسبى أخيرا . ولكنه فى الوقت نفسه أكثر العالم الثالث تطورا وتقدما وامكانيات وأكثر من ذلك مستقبلا ، انه طليعة المتخلفين وقمة الجنوب ورأس عدم الانحياز .

من ثم فمن بين كل الأخدود العميق بين الشمال والجنوب العالميين ، تعد الهوة الحضارية والمادية والسياسية بين أوروبا والعرب الأضيقة والأصغر ، وبالتالي فان التقارب بينهما أسهل وأيسر . أن نصر أكتوبر اختزل المسافة الحضارية والنفسية والتاريخية والسياسية بين العرب وأوروبا ، وبدأ زحف العرب خارج دائرة التخلف والانحطاط لتعبر البحر إلى الشمال اختراقا لحاجز العلم والتكنولوجيا ولحاقا بنادى الأقوياء والمتقدمين وبحثا لها عن مكان تحت الشمس .

هناك ولتجد أوروبا بدورها لا تقل تلهفا على اللقاء التاريخى وسعيا إليه بحثا عن صداقات جديدة وتوازنات ومصالح ، باختصار بحثا عن مكان لها جديد هى الأخرى فى عالم متغير حتى الأعماق . وتلك جميعا خمائر ومؤهلات وفاق أو تقارب جديد -rap- prochement ينبغى أن يسارع العرب بحس تاريخى واسع وبلا حساسيات ولا عقد إلى ادراكه وهندسته والافادة منه سياسا وحضاريا فى صراعها مع العدو ومع العصر جميعا .

ليس هذا فحسب ، ليست العرب وحدها التى عبرت بالمعركة البحر إلى أوروبا ، وإنما كذلك افريقيا عبرت - أو بدأت - الصحراء إلى العرب . لقد أعادت المعركة الناجحة والمشرقة افريقيا إلى التطلع إلى مقدمتها العربية التى عادت من جديد قطب الجاذبية ومركز الثقل وقمة القوة فى القارة . افريقيا إذن زحفت هى الأخرى شمالا ، ليلتحم نصف القارة الجنوبي بنصفها الشمالى . وعلى طريق الزحف سقطت كل العقد المفتعلة والعوائق التى نماها الاستعمار .

وواجب العرب هنا أيضا هو ان يتحركوا بسرعة واقتدار ليمارسوا دورهم الطبيعي في القارة ، يملأون الفراغ الذى تركه طرد اسرائيل ، ويضمنون عدم عودتها من الباب الخلفى . أن العالم الثالث هو المجال الاساسى ليلعب العالم العربى دوره الجديد كقوة شبه عظمى . وينبغى ألا يتوانوا عن الانطلاق إليه بسرعة ، والأسرع الأفضل . والأفضل منه أن يضعوا استراتيجية عظمى لتخطيط هذا الدور على المستوى العالمى جميعا . انه نداء ٦ اكتوبر الذى يجب أن يبدأ فوراً ، هنا والآن .

احتمالات المستقبل

حسنا ، فالى أين المصير ؟ ما هى صورة اسرائيل اليوم ومستقبلها غدا وبعد غد ؟ ما رد فعلها المنتظر لنتائج اكتوبر الانقلابية ؟ أن مشكلة الأمن الاسرائيلى هى كما رأينا مشكلة اسرائيل وحدها ، هى التى خلقتها أو اختلقتها لأهدافها التوسعية الصهيونية والامبريالية ، وعليها وحدها أن تحلها . فهل تستطيع ؟ هل تقبل ؟ هذا هو السؤال ، وذلك بالدقة هو مدار الصراع الداخلى الحزبى والشعبى الذى بدأ فى اسرائيل على المستوى الفكرى والايديولوجى وكذلك السياسى والعسكرى . ولم يعد خافيا أن صراع القوة المستتر وغير المستتر الذى استمر هناك أساسا صراع بين ما يسمونهم الصقور والحمام أو بين دعاة الحرب وأنصار التفاهم .

لقد وضعت الضربة العربية الموفقة فلسفة الأمن الاسرائيلى فى مأزق خطير وأثبتت أنه طريق مسدود . لكن الأسوأ من ذلك ، من وجهة نظر العدو ، أنها على المدى البعيد تهدد جوهر الفكرة الصهيونية وتفوضى إلى اثبات فشل الحل الصهيونى للمشكلة اليهودية . لماذا ؟ - لأن المعركة أتت أول نكسة وهزيمة حقيقية للصهيونية منذ بداية القرن كفكرة وكتجسيم ، وهى لأول مرة تثير التساؤل ليس فقط عن حقيقة اسرائيل ولكن أيضا عن مصيرها ، ليس فقط فى شرعيتها ولكن كذلك فى بقائها . وعلى سبيل المثال ، فبدون الأمن اليوم ، فلا هجرة غدا ، وبغير الهجرة غدا فلا أمن بعد الغد . أنها حلقة مفرغة ، أنها مأساة الفلسفة والايديولوجية الأساسية للكيان ذاته .

من هنا فان الاختيار أمام اسرائيل يتحدد الآن - نظريا - فى طريقين : اما طريق القوة والحرب من جديد ، واما طريق السلم لأول مرة كخط جديد . وطريق القوة ، إذا استمرت موازين القوة الجديدة الاقليمية والعالمية ، قد يعنى أن اسرائيل وليس العرب هى التى ستدمر نفسها بنفسها ، لأنه بالتجربة الصادمة أصبح طريقا مسدودا .

فكما يقول موريس ديفيرجيه «ان التقدم العسكرى الذى حققته مصر وسوريا منذ ١٩٦٧ يوضح أن قدرتهما على محو الهزيمة هى أسرع مما كان يتصور المرء. لذا فان بقاء اسرائيل يرتكز قبل كل شىء على قدرتها على أن تكون مقبولة من جيرانها ، لا على قدرتها على أن تهزمهم عسكريا . فإذا استمرت فى الاعتماد كليا على هذه القدرة الأخيرة، فلن تتمكن من تقوية الأولى ، التى ينبغى أن تحل محل الأخرى أن عاجلا أو آجلا» .

أو حتى كما قالت الموند أثناء المعركة «هناك عبرة على العالم أن يستخلصها من الأحداث : حتى لو انتهت هذه الحرب بهزيمة جديدة للعرب (والعكس هو الذى حدث بالفعل) ، فإن الأعمال الحربية ستستأنف بعد ٤ أو ٥ أو ٦ سنوات ، وستكون بفضل التكنولوجيا أصعب وأفتك . وعلى هذا فليست الأراضى وحدها هى التى يمكن أن تتعرض للخطر يوما ما ، بل بقاء اسرائيل نفسه» .

ولقد كان قادة اسرائيل أنفسهم هم الذين وضعوها قاعدة قاعدة أن اسرائيل لا تتحمل هزيمة عسكرية واحدة ، لأنها وان لم تكن بالتأكيد النهاية فإنها تمثل بداية النهاية ، وأنه إذا بدأ التنازل والتسليم مرة فانه يؤذن بزوال الكيان كله فى النهاية مهما طال الأمد . وهذا هو السبب بل السر الدفين فى أن اسرائيل تربط فوراً أصغر تنازل يطلب منها أو يفرض عليها بقضية بقائها ووجودها كله ، وتجعل أدنى خطر يمس أقل جزئية فى حياتها كأنه نهاية الدنيا جميعا . وهى بهذا - نظرية الدومينو - تضمن فيما تتصور أن تصادر مسبقا على المطلوب وعلى غير المطلوب ، وتفترض مبدئيا أنها غير قابلة لأدنى انكماش أو تقلص ، غير قابلة أصلا إلا التوسع والنمو أو التمدد وحده . لهذا كله فلا بد فى رأى العدو وقادته من التمسك «بالقلعة المسلحة أعلى التل» رغم الحصار والهزيمة وحتى الموت أو ربما حتى الانتحار إذا لزم . ان الاندحار عندهم يعنى الانتحار ، أنها «عقدة ماسادا» دائما ، وهم اليوم فى اسرائيل يرددون جميعا أن الحرب لم تنته وأن المعركة مستمرة .. الخ .

هذا عن طريق الحرب . أما طريق السلم ، فإذا كانت اسرائيل قد أنفقت عمرها تبحث عن «الحرب التى تنهى كل الحروب» ، فان أمامها الآن الفرصة لكى تصبح «الحرب الرابعة هى آخر الحروب» . وقد دعت إلى هذا الطريق أقلية من اليهود وأقل منهم من الاسرائيليين.

وعلى رأس هذا الاتجاه لابد أن يأتى ناحوم جولدمان ، داعية السلام اليهودى والصهيونى المنفرد تقريبا قبل أكتوبر والذى شدد حملته السلامية بعدها بقوة ، ولكن كما سنرى من زوايته الخاصة . فكريس للمؤتمر اليهودى ، أعلن بعد المعركة أن «الاتجاه نحو انعزالية جديدة فى اليهودية كارثة تعرضها للخطر» ، إذ تحولها إلى ما يشبه جيتو محاصرا فى الشرق الأوسط . ولكنه لم ينس أن يتلمس منطق تبرير لهذا فى الآخرين ، فقال ان موقف حكومات وهيئات الدول الأخرى أى غير اليهودية التى تتخذ موقفا مواليا للعرب بدلا من موقف موال لاسرائيل لأسباب ذاتية خاصة كالمصالح البترولية مثلا ، هذا الموقف «يزيد من اتجاه اليهود إلى تجاهل مصالح الآخرين» .

ومهما يكن فقد انتهى جولدمان إلى أن «اسرائيل مادامت لا تحاول إلا الاهتمام بنفسها فقط فلن تتمكن مع الزمن من البقاء كجزيرة فى محيط عربى حتى ولو كان لها أفضل الجيوش وتميز شعبها بأكبر قدر من الشجاعة» . وفى مناسبة أخرى وضع الفكرة نفسها أكثر فصرح بأنه «ليس هناك مستقبل ممكن لاسرائيل فى الشرق الأوسط دون الوفاق التام مع العرب ، ، وأنه لا يمكن اجبار العرب على قبول اسرائيل عن طريق كسب الحروب» .

وفيما عدا جولدمان ، يمكن أن نذكر أيضا من دعاة السلام الاسرائيليين أورى أفنيرى عضو الكنيست وصاحب ورئيس تحرير هاعولام هازى . ودعوته ليست بالجديدة ، وقد عرضها مرارا فى عشرات الخطب والمقالات كما بسطها فى عدة كتب . ومؤدى فكرته هو التعايش بين العرب واليهود فيما يسميه «اتحادا كونفيديرالا ساميا» ، لا يقتصر على فلسطين وحدها بل يتسع لأيمادول فى الشرق الأوسط أو المشرق العربى تقبل الدخول فيه، خاصة الأردن ولبنان ، ومحور النظرية - وهو علميا خطأ فاحش بقدر ما شائع - أن العرب واليهود كليهما من الساميين ، أى أخوة فى الأصل بمعنى ما ، وأن الصراع بينهما على أرض فلسطين ليس بين حق وباطل بل بين حق وحق (كذا) . والحقيقة أن ليس أخطأ ولا أخط من هذه الدعوة ، فاليهود الغريبيون أوريبيون آريون لحما ودما ، ودخلاء غزاة وأجانب مفتصبون تاريخيا وسياسيا ، والاتحاد المزعوم ما هو إلا صيغة خبيثة للاستعمار الصهيونى موسعا ولكنه مزوق مزخرف .

وتبقى أخيرا صيغة «الاستشراق» التي قدمها المفكر اليهودي الفرنسي المعروف مكسيم رودينسون كحل لمشكلة إسرائيل .. فرودينسون يرى أن إسرائيل إذا أريد لها البقاء فإن عليها أن تتحول إلى دولة «لغانتية» شرقية تندمج في مجتمع الشرق الأوسط ولا تنعزل عنه أو فيه كإقلية أوربية غربية وافدة بالهجرة ومستعمرة بالقوة . وعلى السطح ، فإن الاقتراح لا يحدد شيئا ، لا يحدد شكل الدولة السياسي أو الدستوري ، لا يحدد موقع العرب فيها ولا موقعها هي بين العرب .. الخ . أما في الحقيقة فهو لا يعدو صيغة أخرى مبهمه وفضفاضة تغلف واقع الاستعمار الصهيوني لفلسطين بطبقة من السكر أو تبطنه بغلالة من الحرير. وقد كشف رودينسون ، الذي كان يفترض أنه غير صهيوني ايديولوجيا ، عن حقيقة اقتراحه حين كشف عن حقيقة هويته أثناء حرب أكتوبر ، فقد اتخذ موقفا عدائيا مطلقا للعرب وحارب معركة دعائية ضارية لحساب إسرائيل .

وهكذا نجد في جميع الحالات تقريبا أن الاتجاهات السلامية اليهودية أو الاسرائيلية المزعومة أو المزجاة ، فضلا عن أنها دعوات ضعيفة هشة خفيفة الصوت ، هي غير واضحة ولا محددة ولا تخلص من غموض ، لعله مقصود ، كما تقع تماما على أية حال دون الحد الأدنى الذي يمكن أن يفترضه أو يقبله العرب . يصدق هذا على تلك الأصوات المنفردة أو الواهية التي ترتفع (أو بالأصح لا تكاد ترتفع) داخل إسرائيل لأسباب ودوافع طائفية أو طبقية أو ايديولوجية كحركات الماتسين والفهود السوداء وجماعات الشيعيين ... الخ ، كما يصدق على أغلب الكتابات الشخصية والمقترحات الفردية التي تصدر في الغرب عن كتاب يهود أو غير يهود .. الخ .

هذا عن الجانب العدو . من الجانب العربي أيضا قدمت بعض التصورات . فطرحتم المنظمات الفدائية الفلسطينية صيغة تقدمية متسامحة للتعايش السلمي ، التعايش البشري ، في دولة علمانية ديمقراطية متعددة القوميات والأجناس والأديان ، يعيش فيها المسلمون والمسيحيون واليهود في سلام وتكافؤ وعلى قدم المساواة . ويستلهم البعض في هذه الدعوة نمط التجربة اليوجوسلافية بالذات ، تلك التي تقوم في ظل الاشتراكية التي تجب الخلافات العنصرية والدينية والطبقية معا وعلى حد سواء . هذا على حين يشير البعض الآخر في هذا إلى دولة «شرق أوسطية» أو «شرق متوسطية» على غرار النمط اللبناني ، متعدد الأديان كما هو مفتوح على العالم ومثل العالمية (الكوزموبوليتانية) .

وقد تبنت الثورة الفلسطينية بالفعل ، ممثلة في قياداتها الفدائية منظمة التحرير الفلسطينية ، مبدأ الدولة العلمانية الديمقراطية التقدمية على كامل التراب الفلسطيني كبرنامج عمل واقعي من أجل السلام العربى ، لا يتجاهل الواقع ولا يقفز فوق الحقيقة القائمة فى فلسطين المحتلة ، ولكن لا يفرط فى الوقت نفسه فى الحق التاريخى والطبيعى الأساسى فى الوطن القومى .

كذلك فلقد أعلنت القيادة السياسية العربية العليا أننا «لسنا دعاة إبادة» . وفى الوقت نفسه ثبت أن اتهام الإبادة الهستيرى الذى أشاعه العدو فى العالم ضد العرب كان أكذوبه ملفقة بعناية وخدعة كبرى مخططة . فلقد اعترف قادة العدو صراحة بأن ما قالوه عشية حرب يونيو لم يكن له أى نصيب من الصحة أو الحقيقة ولا كان يمثل أدنى احتمال واقعى .

كل هذه الاقتراحات والطلول وغيرها ، مع ذلك ، مرفوضة تماما من الأساس فى نظر الصقور ودعاة القوة فى اسرائيل لأنها تعنى عندهم اهدار وفك الصبغة الصهيونية الأساسية للدولة dezionization ، التى لن تصبح حتى دولة يهودية فضلا عن أن تكون بول كل اليهودية العالمية . أنها تعنى حل الدولة القائمة ونزع سلاحها وإيقاف الهجرة الداخلة إليها . وهذا كله يرادف فى رأيهم ليس فقط الانكماش بدل التوسع ، وإنما كذلك زوال اسرائيل تلقائيا واختياريا وتحولها إلى كيان «لا اقليمى- non - territorial» بعد كل أحلام التوسع الاقليمى . والكل فى النهاية انكار لفكرة الصهيونية ذاتها من حيث هى مبدأ .

وبصيغة أخرى فإن مثل هذا الحل يعنى حرفيا أو مجازيا أن «تنزل» اسرائيل من قلعة أعلى التل إلى السهل ، ومن جيتو المدينة إلى الريف المحيط ، لتضيع فيهما بالاندماج والنويان ، وهو ما رفضته أصلا فى الشتات ومن أجله أقامت الدنيا لتقيم اسرائيل . وذلك بدوره يعنى «تبشير humaniser» اسرائيل ، أى تحولهم من شعب مختار فوق مستوى البشر إلى بشر عاديين متكافئين مع سائر البشر ..

لعله قد اتضح من هذا كله أن الصهيونيين الحقيقيين يؤمنون أساسا بأن الصهيونية غير قابلة بطبيعتها للتعايش مع أحد ، فى هذه الحالة مع العرب ، وأنه ليس ثمة شىء «كنصف صهيونية» . ومن الواضح كذلك أن طريق السلام الحقيقى يتطلب من اسرائيل

مفهوما جديدا تماما للأمن ، مفهوما يستدعى تغييرا كاملا لا فى الجلد فحسب ولكن فى الدم وحتى النخاع ، فضلا عن عملية غسيل مخ شاملة ، أى باختصار عملية تحول كامل metamorphosis فى الكائن العضوى وإعادة تكيف جذرى مع البيئة المحيطة . والأوضح منه أن السواد الأعظم من الاسرائيليين أبعد ما يكونون عن مثل هذا المفهوم وهذا التغيير .

فهم يقولون - كما نقول نحن أيضا - ان الصراع العربى - الاسرائيلى ليس مشكلة حدود بل وجود ، وفلسطين لا يمكن أن تكون عربية واسرائيلية فى وقت واحد ، ولا اسرائيل لهم من غير قدس كما لا فلسطين لنا من غير قدس . أن التناقض جذرى وكلى ، والتكيف المتبادل مستحيل . وقد عبر الجنرال هاركاى عن هذا تعبيرا مكشوفاً ولكنه كاشف جدا حين قال «ان التسليم بأن القومية العربية ستكيف نفسها مع بقاء اسرائيل يمكن مقارنته بتسليم الصهيونية بالتخلى عن دولة اسرائيل» . هذا بينما سيقول موشيه ماعوز «أن هناك خوفا وقلقا عميقين لدى العرب من أن اسرائيل قاعدة استعمارية تهدد سلامة الدول العربية . وهذا خوف حقيقى . فاسرائيل مجتمع بينامى ، ولا ينظر إليها على أنها استولت على أراض عربية فحسب ، بل أنها مستمرة فى جلب مهاجرين جدد وتهديد مستقبل الاقتصاد العربى» .

لقد تغيرت خريطة القوة فى الصراع وتغيرت الخريطة السياسية للشرق الأوسط وتغيرت بالتأكيد «حقيقة» الأمن الاسرائيلى ، كل أولئك بفضل أكتوبر ، ولكن «مفهوم» العدو للأمن ونظريته فيه لم تتغير حتى الآن فيما يبدو ، بل فى الواقع ، عما كانا عليه قبل أكتوبر ، أن العدو الذى سار دائما ضد التاريخ ينكر الآن تغير التاريخ ، والذى عاش دائما على فرض الأمر الواقع يرفض الآن أن يعترف بتغير الواقع . أم نقول مع المثل الانجليزى إن النمر لا يغير جلده ؟

من هنا يبدو السلام الحقيقى للبعض بعيدا جدا ، بعد أكتوبر كما كان قبله ، وأن كان البعض الآخر يعتقد أو يعلن أن السلام أصبح ممكنا فى الشرق الأوسط لأول مرة منذ ربع قرن . والواقع أنه يمكن ، وينبغى ، موضوعيا أن نصنف الرأى فى قضية السلام إلى مدرستين : المتفائلين والمتشائمين . فالكثيرون يرون أن حرب أكتوبر خلقت وضعا جديدا يسمح لأول مرة بالأمل فى قيام سلام حقيقى فى المنطقة .

من الكتاب والمفكرين ، مثلا ، كتب ميلانكوفيتش فى مجلة الفكر الاشتراكى اليوجوسلافية «لأول مرة منذ وجدت اسرائيل عام ١٩٤٨ تقع تغييرات فى ميزان القوى بين اطراف المواجهة فى منطقة الشرق الأوسط ، مما يضع أمامنا اطارا واقعيا لسلام دائم فى المنطقة .. وقد وقعت هذه التغييرات بين أهم الأطراف المتصارعة ، رغم أن الحديث عن مثل هذه التغييرات قبل شهر من الحرب لم يكن يخطر ببال أحد كشيء ممكن فى وقت قريب» .

وبالمثل كتب ناداف سافران فى الفورين أفيرز أن دروس حرب ١٩٧٣ توضح أن تسوية النزاع العربى - الاسرائيلى قد أصبحت فى النهاية احتمالا واقعيا بالنسبة للأطراف المعنية مباشرة ، وضرورة حتمية بالنسبة لجميع الأطراف الخارجية التى تشترك فى هذا النزاع . ويضعاف من هذا الاحتمال أن التضامن العربى الشامل قد جعل من المستحيل على الولايات المتحدة أن تحاول فى المستقبل احتواء هذا النزاع ، إذا لم تتم تسويته ، وذلك عن طريق «توازن القوة» بين أطرافه .

أما من السياسيين ، فيأتى فى المقدمة قادة الولايات المتحدة . منذ أكتوبر كرر شلزينجر أكثر من مرة أن «لدينا الآن من أسباب التوصل إلى تسوية فى الشرق الأوسط أكثر مما كان لدينا خلال ٢٥ سنة» ، ولو أنه أضاف أن تزويد اسرائيل بأسلحة أمريكية غزيرة لتعويض خسائرها واستعادة التوازن العسكرى مع العرب «يمكن أن يكون عاملا فى حث اسرائيل على تقديم تنازلات لاقرار السلام» .

وأكثر من شلزينجر ، ولكن أيضا أكثر حذرا ، ردد كيسنجر الفكرة نفسها . «الولايات المتحدة ملتزمة باقرار سلام دائم فى الشرق الأوسط ، وأن ما تم تحقيقه حتى الآن لا تعتبره أكثر من خطوة أولى تجاه هذا الهدف الذى سنعمل من أجله معا وبكل ثقة» . وهناك فى رأى كيسنجر ٣ عقبات أساسية تعترض اقرار السلام فى الشرق الأوسط : تعديل الحدود ، اللاجئين الفلسطينيون ، القدس . ومن هنا «فما زال هناك طريق طويل للتوصل إلى تسوية دائمة فى الشرق الأوسط ، والخطوة الأولى كانت أكثر الخطوات صعوبة» .

وعلى قمة المتتالية ذهب الرئيس الأمريكى نفسه إلى أن السلام الآن أقرب منه منذ ٢٥ سنة مضت ، بل وفيما بعد وصل إلى حد أن أعلن «أننا نعيش فى عصر أصبح فيه اقرار

السلام فى الشرق الأوسط ممكنا لأول مرة خلال جيل كامل» . وبهذا جعل الرئيس الأمريكى هذه الإمكانيّة علامة من علامات العصر أو شاهدا على عصر ، ثم عاد فأكّد هذه النظرة حين اعتبر زيارته لمصر وسوريا نقطة تحول فى تاريخ البشرية لقرون عديدة قادمة» .

ويأخذ سكرتير عام الأمم المتحدة فالدهايم موقفا مقاربا ، لكنه أكثر حذرا . فهناك أمل حقيقى فى إيجاد تسوية لمشكلة الشرق الأوسط بفضل «الدبلوماسية الثنائية» التى يمارسها كيسنجر تعزيزا للجهود الدولية المتعددة الأطراف داخل إطار الأمم المتحدة . والدبلوماسية الثنائية هذه لا تغنى عن جهود الأمم المتحدة ، وإنما هما يتواكبان ، وأى منهما وحده لا يكفى لتسوية مشكلة فشلت جميع الجهود السابقة فى حلها . ولكنه يضيف فى مناسبة أخرى «الطريق نحو تسوية أزمة الشرق الأوسط طويل وصعب ، غير أن هناك الآن الأمل والاحساس الجاد بضرورة حل الأزمة» . ويكرر التحذير بعد ذلك أيضا بأن «عملية المفاوضات ستكون طويلة وشاقة ، ويجب ألا نتوقع تسوية عامة وشاملة سريعة» ، ثم يضغط على نقطة مهمة قائلا «أن النجاح يتوقف إلى حد كبير على قدرتنا على إيجاد حل مقبول للمشكلة الفلسطينية» .

ذلك موقف المتفائلين . ولكن من الجهة الأخرى ظهر الرأى المناقض منذ البداية، وعلى لسان مايير بالذات ظهر ، فقد علقت على كلام نيكسون السابق بأنها «تخشى ألا تشارك الرئيس نيكسون تفاؤله» ، مؤكدة أن فرص السلام بعد الحرب الرابعة ضئيلة جدا بالقياس إلى ما كانت عليه قبلها ! ومعظم قادة إسرائيل يشاركون مايير هذا الرأى . وهذا كله أمر مفهوم جدا .

فإسرائيل لا تريد السلام ، ولم تكن تتصايح به من قبل ، إلا بشروطها وبمفهومها ، أى بمعنى السلام الاسرائيلى . أما الآن «فإن سلما يفرضه العرب» ، كما كتبت الموند ، «حتى ولو لم يؤد إلى القضاء على إسرائيل - وهذا ما ستعارضه الدول الكبرى على أية حال - ستكون نتيجته «حق» فلسطينى فى الدولة اليهودية من شأنه أن يتسبب فى تدمير بطنى لهيكلها» . والملاحظ كذلك فى هذا الصدد أن مشروع الدولة الفلسطينية الذى كانت تقبله وتعمل له إسرائيل من موقع القوة والتحكم بعد يونيو ، ليكون دولة مسخا ومحمية اسرائيلية «ويانتوستانا» فلسطينيا ، أصبحت الآن بعد اكتوير ترفضه وتحاربه بضرارة .

أما خارج معسكر العدو ، فهناك كثيرون يرون موضوعيا أننا لم نكن أبعد عن السلام، السلام الحقيقي القائم على العدل والحق ، مما نحن الآن ، وأن الرأي الذى يرى غير ذلك هو أما دعاية أو ادعاء أو دعوة مغرضة ، وإلا فانه على أحسن الفروض تفاؤل مسرف لا مبرر له . فعند بول بالتا مثلا أن كل الحلول والمحاولات السياسية التى بذلها الغرب وغيره لحل الصراع فشلت وستظل تفشل إلى أن يواجه الجميع المشكلة المزبوجة وهى قيام دولة اسرائيل واختفاء فلسطين . ولهذا ولكل الأسباب المعروفة والواقعية ، ينتهى إلى أن من الخطأ تركيز الأمل على السلام اليوم .

كذلك يعتقد الجنرال بوفر أن التوصل إلى حل وسط يبدو الآن ممكنا ، ولكنه قد يصبح غير ممكن فى المستقبل . من ناحية لأن اسرائيل ترفض وتكابر ، ومن ناحية أخرى لأن العرب ماضون فى طريق تفوق غير منازع فيه ، وهو أمر يعتبر ولا شك احتمالا سيئاً جداً بالنسبة لاسرائيل . أى أن جمود وعناد الموقف الاسرائيلى مع تطور العالم العربى من شأنه أن يخلق لاسرائيل وضعاً متزايد الاضطراب والخطر .

أما من بين الدول ، إذا كان لنا أن نستكمل الصورة ، فإن هناك موقف الصين الثابت . فهى ترى من قديم ، وأكدت أخيراً بعد اتفاقية الفصل بين القوات على الجولان ، أن التنافس بين العملاقين سيجعل الشرق الأوسط فى حالة اضطراب مستمر ، وأن المشكلة الأساسية لم تسو بعد ولن تسوى لأن أسبابها الجذرية تكمن فى تنافس العملاقين . ومن ثم فإن «ما يسمى بالسلام العادل هو فى الواقع لا شىء» .

ومن هنا فإن السلام الحقيقي يبدو علامة استفهام محيرة . ومهما يكن من أمر ، فلئن كانت اسرائيل قد أدمنت فى الماضى «مخدر الأمن» ، فليس للعرب الآن ولا فى المستقبل أن يدمنوا «مخدر السلام» . وسواء صح أو لم يصح أن عدوانا انتحارى المزاج ، وسواء كان هكذا بالوراثة أو بالبيئة ، أى بالطبع أو بالظروف غير المعقولة التى وضع نفسه فيها ، فليس أمامنا نحن إلا أن نكون أمة فدائية وليس يقل الحرب الانتحارية الا حرب فدائية . إن الصراع مازال فى بدايته ، ولا يزال الخطر على أشده ، ولازال أمامنا شوط بعيد جدا قبل أن نسترد الحق العربى كاملا ، أرضا وشعبا ، استقلالا وأمنا ، وانطلاقا وتطورا .

لكل هذا يبدو للبعض من السابق لأوانه كثيرا في المرحلة الراهنة أن نتحدث عن تفاصيل التسوية السياسية والشكل الدستوري والخريطة التخطيطية للأراضي العربية المحتلة في الضفة الغربية وقطاع غزة ، وما إذا كان يمكن أو لا يمكن أن تقوم فيها دولة فلسطينية ، أو ما إذا كانت هذه ترتبط أو لا ترتبط بشكل أو بآخر بالأردن أو بشرق الأردن وكذلك عن احتمال المطالبة بالعودة إلى حدود تقسيم ١٩٤٧ أو غيرها ، وما الذي ينبغي أن يفعله عرب اسرائيل القديمة : يبقون داخلها أو ينتقلون إلى الدولة الفلسطينية الجديدة ، إلى آخر تلك الأسئلة التي أثارت وثار مؤخرا . أن التفكير في مثل هذه القضايا ضرورة تخطيطية دائمة بلا شك وأمر مطلوب باستمرار ، لكننا نخشى أن التطبيق والتنفيذ سوف يحتاج على ما يبدو إلى أن يمر أولا بمعركة أخرى ، الموقعة المكمل والمتوجة لأكتوبر . ولكن هذا على أية حال ينقلنا إلى مؤتمر جنيف واحتمالاته أولا .

حول المؤتمر

كان حتما بعد أكتوبر أن يتحرك العرب بكل شجاعة وثقة وبكل سرعة وقوة . وكان حتما كذلك أن يتخذ الفلسطينيون الخطوة نفسها ، بعد أن فرضت المعركة على العالم الاعتراف بالوجود الفلسطيني ككيان قومي لا بد له من دولة مستقلة ، على اسرائيل أن تقبل بقيامها . وبعد أن قررت منظمة التحرير الفلسطينية أن تذهب مع سوريا والأردن ومصر إلى جنيف للتسوية السلمية بشروطها الخاصة ومن مواقعها الثورية ، توحد الموقف العربي العام ، على الأقل على الحد الأدنى اللازم .

وبالمثل ، فبعد صراع داخلي مرير وحدثت اسرائيل موقفها تقريبا على الحد الأدنى الضروري كذلك لتدخل المؤتمر الذي سيقى إليه كارهة مرغمة . غير أن أحدا من الطرفين لا يذهب إلى المؤتمر ليصفى نفسه أو وجوده أو يتنازل عن حقوقه للآخر . كذلك فإن واحدة من القوى العظمى لا تذهب إلى المؤتمر لتصفية اسرائيل . ولهذا يدرك الجميع صعوبة المؤتمر والأخطار التي تحف به .

وابتداء ، يكاد يأخذ كلا الجانبين العربي والاسرائيلي موقفا أساسيا متشابهة: التسوية السلمية بشروطه أو العودة إلى السلاح . فإذا بدأنا بالعدو ، فقد عبرت عن ذلك أخيرا وهي في لندن شخصية اسرائيلية كبيرة - قيل انها غالبا ألون ، الذي يبدو أنه سيرأس وفد اسرائيل إلى المؤتمر - بأن «على اسرائيل أن تأمل في أفضل الاحتمالات ، بينما نتهيأ لتقبل أسوأ الاحتمالات».

ولهذا فرغم أن آخر ما أعلنته اسرائيل على لسان رئيس وزرائها الجديد رابين هو أنه لا عودة إلى خطوط ما قبل يونيو ، فإن هناك ما يشير إلى امكان ارغامها على ابتلاع هذا الشرط . فلأول مرة في تاريخها يدعو أحد اعضاء الوزارة الاسرائيلية - شولاميت ألونى - إلى الانسحاب الكامل من كل الأراضي العربية التي احتلت في ١٩٦٧ «حتى لا تصبح اسرائيل ايرلندا الشمالية أو جنوب افريقيا أخرى» . ولذلك فإن «اسرائيل يجب أن تذهب إلى جنيف وهي مستعدة للانسحاب من الأراضي العربية وخاصة الضفة الغربية للأردن» . ولا ندري إذا كان هذا الموقف ينسحب على ، أو يمتد إلى ، القدس . ولكنه ان لم يكن فسوف تكون القدس هي الصخرة التي قد تتحطم عليها التسوية بالنسبة للأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ . ولن يحل اقتراح تدويل القدس العربية هذه المشكلة ، لأن العرب ترفضه في أى صورة . ولكن قد يكون المخرج من مأزق القدس هو تدويل القدس برمتها بقطاعيها الشرقي والغربي ، العربي والاسرائيلي ، ولو أن من المشكوك فيه جدا أن تقبل اسرائيل . ولكن حتى إذا لم تصبح القدس هي الصخرة التي تتحطم عليها التسوية ، فإن هذه الأخيرة قد ترقد في مشروع الدولة الفلسطينية المستقلة أو في مفهوم التسوية ، سلام هي أم صلح؟ .

أما على الجانب العربي ، فكما لخص ياسر عرفات «أمامنا الآن احتمالان : اما الحرب ونحن معها ، واما التسوية وهي لن تكون أبداً على حساب الفلسطينيين» . ولهذا فإن الاستراتيجية العربية في جنيف هي استرداد الأراضي العربية المحتلة في يونيو كاملة واسترجاع حقوق الشعب الفلسطيني دون التفريط أو التنازل عن حقه التاريخي في كامل أرضه والعودة إليه وحقه في تقرير مصيره فوق ترابه الوطنى الكامل .

ولهذا فبالنسبة للفلسطينيين ، إذا كانت الدولة العلمانية الديمقراطية هي الحل الأمثل، ولكنه في الظروف والحقائق الراهنة مثالي أو تجريدى ، فليبق هذا هو الهدف النهائى للنضال العربى على المدى الطويل ، ولتكن «السلطة الوطنية» على الأراضي الفلسطينية التي تنسحب منها اسرائيل هي الحد الأدنى الذى يقبلون به مرحليا لتكون في المستقبل القاعدة الأرضية الأمامية الوثيقة للزحف المصيرى واسترداد بقية الوطن المقدس . المهم الآن ألا نصادر قط على المستقبل أو على الأمل أو على الحق التاريخى ، وأن ننتزع في الوقت نفسه أقصى ما يمكن انتزاعه من بين براثن العدو .

وعند هذا الحد يصبح المستقبل ، كما يصبح المؤتمر ، علامة استفهام كبرى .
فاحتمالات النجاح واحتمالات الفشل تكاد تكون متساوية ككفتي الميزان ، واحتمالات
السلام أو الحرب تبدو مرهفة كحد الموسيقى . والتنبؤ السياسى بعد ذلك أصعب مما كان
فى أى وقت مضى من تاريخ الصراع . ولكن الاجابة عند اسرائيل وحدها : هل تستمع
للمرة الأولى والأخيرة إلى صوت العقل ، أن تفجر المؤتمر وتنسف السلام ؟

يقول سيروس سولزبيرجر حين بدأت فكرة مؤتمر جنيف «قد يبدو للوهلة الأولى أن
العرب يملكون عددا وافرا من الأوراق الراحبة . ولكن هناك شيئا ينبغى الا ينساه العالم ،
هو أن الاسرائيليين جاؤا من «الجيتو» الأوربى بكل روح التحدى والمقاومة التى اكتسبوها
ابان حكم النازى . ومن ثم فلا أحد يتوقع منهم ، بعد كل ما حققوه من مكاسب وثقة
بالنفس ، أن يتخلوا عما بين أيديهم مقابل تأكيدات غامضة . وهذا عامل مهم جدا فى
سير المفاوضات التى ستبدأ . فإذا أحس الاسرائيليون بأنهم يواجهون مغامرة حياة أو
موت بالنسبة لهم ، وبأن كل الظروف تتكاتف ضدهم ، فسوف يبقى أمامهم برغم ذلك
بديلان نهائيا ، فأما الأول فهو أن يقدر الاسرائيليون - سواء عن ادراك واقعى أو بسبب
عقد «الجيتو» المترسبة فى أعماقهم - أن وجودهم بات معلقا على خيط رفيع ، وحينئذ
فلا بد أن تثور فى نفوسهم ذكريات «الماسدا» القديمة ، حين تجمع أجدادهم فى تلك القلعة
الجبلىة وقاوموا حتى آخر رجل فيهم . وهناك البديل الآخر ، إذا بلغت الضغوط عليهم
حافة الهاوية ، أن يفكروا فى الالتجاء إلى مخزونهم الصغير من الأسلحة الذرية بدلا من
أن يستسلموا . وفى أية لعبة دبلوماسية ، فإن هذه الأوراق اليايسة ليست هى كل شئ» .
أما العرب ، فإن «مصر وسوريا على استعداد لخوض مائة حرب جديدة دون التفريط
فى حقوق الفلسطينيين» كما أعلن المناضل ياسر عرفات . أما مؤتمر جنيف فلسوف تكون
له على الأقل ميزة تحديد الموقف وقطع الشك باليقين ، فإما أن يبدد «أسطورة» السلام
وإما أن يبعد خطر الحرب . والمعركة السياسية الناشبة الآن والتى ستصل إلى ذروتها فى
جنيف إما أن تحدد مصير نصرنا العسكرى فى أكتوبر ولو إلى حين وإلى حد ما ، وإما
أن تكشف عن حتمية معركة عسكرية جديدة تقرر مصير ذلك النصر نفسه . وفى كلتا
الحالين فإن الحذر المطلق والدائم من الغدر والمباغطة هو الضمان الوحيد بالنصر .

ومع ذلك فيكاد الجدال القائم الآن حول امكانيات المؤتمر واحتمالاته يذكرنا إلى حد أو آخر بذلك الجدال الطويل المضمن بعد يونيو عن الحل السياسى والحل العسكرى . وفى الحالىن فإن الواقع ، لا التتظير ولا الأمانى ، هو الذى سيفرض نفسه . بمعنى أنه كما فرضت المعركة نفسها على الجميع فى أكتوبر ، فإن المعركة التالية – إذا كان لابد ولا مفر منها – ستفرض نفسها على الجميع ، على أكتوبر وما بعد أكتوبر ، على أنصار أكتوبر كما على أعداء أكتوبر . بل يكاد المرء يقول انها لا تزال المعادلة القديمة : فإنها هى إما الحرب من جديد ، وإما تجميد الأمر الواقع الجديد . بل ونكاد كذلك نضيف : الآن فقط بدأ الصراع المسلح الحقيقى مع اسرائيل ، فقبل أكتوبر كانت الحرب شيئاً مئوساً منه ، ولكنها بعده أصبحت أملاً وامكانية . تلك طبيعة الصراع ، وذلك قدرنا . ومع ذلك فلنستبق الأمل ولا نستبق الأحداث .

الفهرس

٥ مقدمة
	الباب الاول:-
١١ الارض والمعركة
	الفصل الاول:-
١٢ قدس أقدس مصر
	الفصل الثانى:-
١٩ معركة التحرير الكبرى
	الفصل الثالث:-
٥٣ استراتيجية المعركة
	الفصل الرابع:-
٩٦ المعركة السورية الكبرى
	الفصل الخامس:-
١١٩ النصر لمن؟
	الفصل السادس:-
١٣٨ ٦ أكتوبر والاستراتيجية العسكرية والاقليمية
	الباب الثانى:-
١٧٣ ٦ أكتوبر فى استراتيجية السياسة العالمية
	الفصل السابع:-
١٨٠ العرب والسادس من أكتوبر
	الفصل الثامن:-
٢٣٢ ٦ أكتوبر والعدو الاسرائيلى
	الفصل التاسع:-
٢٨٠ العالم والمعركة
	الباب الثالث:-
٣٤٥ بعد أكتوبر
	الفصل العاشر:-
٣٤٦ احتمالات المستقبل
	الفصل الحادى عشر:-
٤١١ مستقبل الصراع

رقم الابداع: ١٥٣٢٢ / ٢٠٠٠

I. S. B. N

977-07-0921-2

كتاب المعركة، كما ينبغي أن يكون، وكما ينتظره المواطن
الذكي والقارئ العصري المثقف، هو عمل فكري أساساً وبناء
علمي محقق ومحقق، يستوعب كل التفاصيل الفنية وادق
الدقائق الميدانية، دون أن يضيع مع ذلك في جزئياتها أو يفقد
الرؤية الشمولية والرؤيا المستقبلية أو حرارة الحماس
والقدرة على تفجير الخيال.

هكذا، وبهذا، تتحدد فصول الكتاب:

● أرض المعركة: سيناء، خريطةها العسكرية، شبكتها
الاستراتيجية. ثلاثية محاور الهجوم، وثلاثية خطوط
الدفاع..

● مقدمات المعركة: إرهاباتها ومناخها السياسي، خططها،
توقيتاتها، عنصر المفاجأة..

● معركة التحرير الوطنية الكبرى: سيناريو الملاحمة،
أحداثها، تطوراتها، ومراحلها..

● العبور.

● اقتحام الخط.

● رأس الجسر.

● القاعدة الأرضية وتطوير الهجوم.

● المعركة السورية الكبرى: ملحمة الجولان، الأرض،

الاستراتيجية، الصراع الميداني، المد والجزر..

● لمن النصر؟- نتيجة المعركة والضرية التي زلزلت إسرائيل.

● أكتوبر وانقلاب الفكر العسكري والاستراتيجية العالمية.

● أكتوبر واستراتيجية السياسة العالمية.

● العرب والمعركة.

● العدو والمعركة.

● العالم والمعركة.

● بعد أكتوبر: آفاق المستقبل واحتمالاته ومستقبل الصراع.

الشمس: ١٥ جنيها

Bibliothèque Alexandrina



0554108